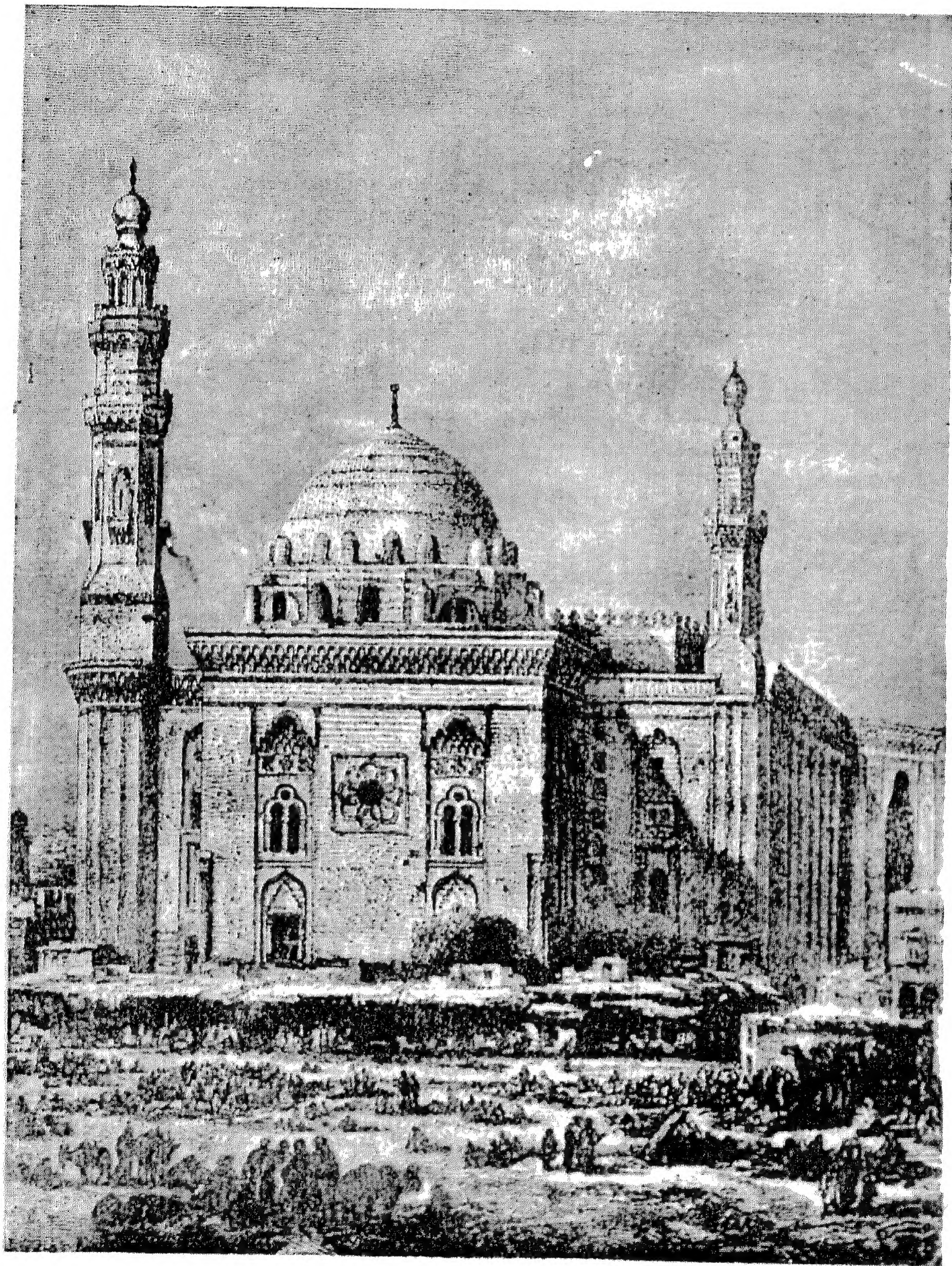
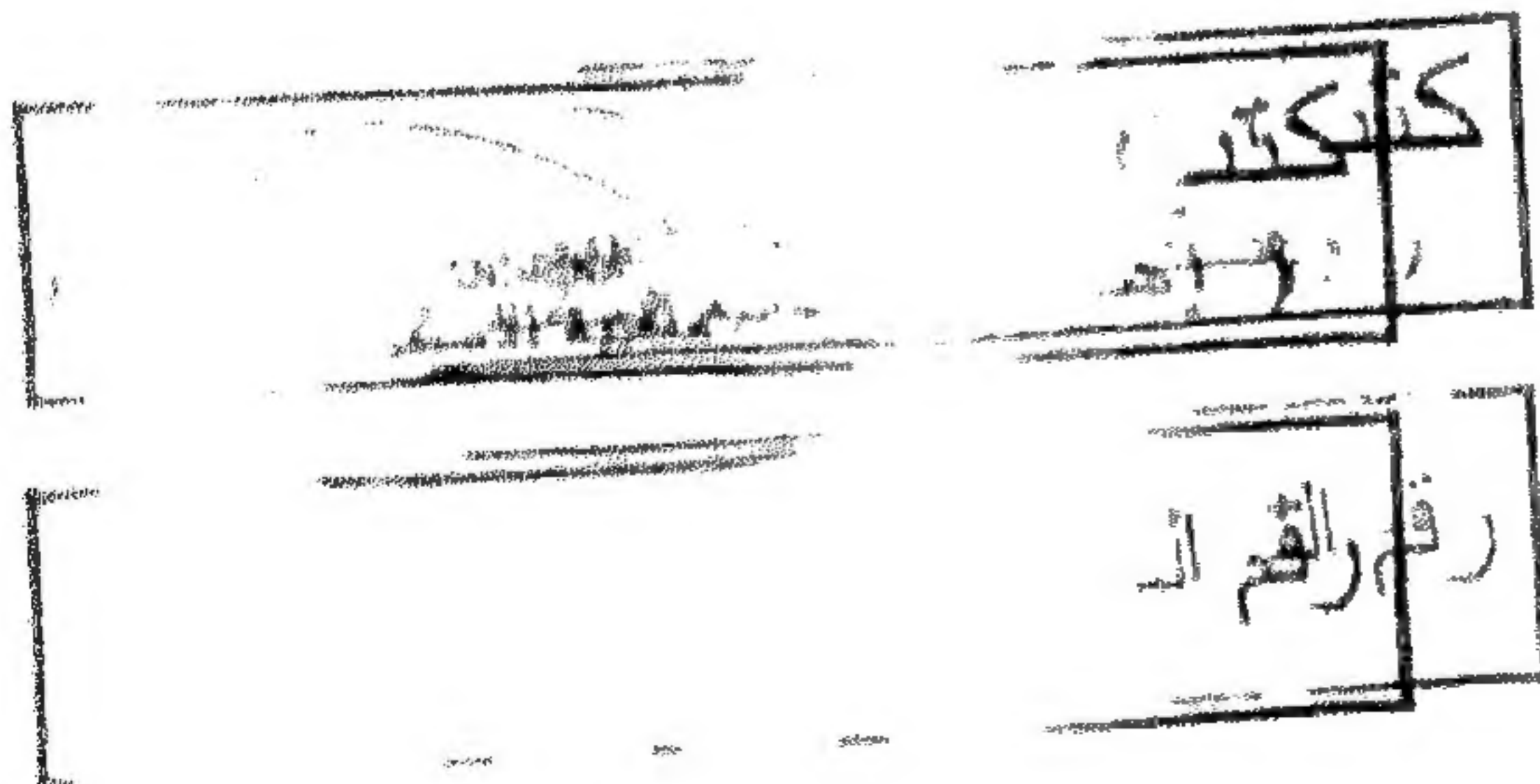
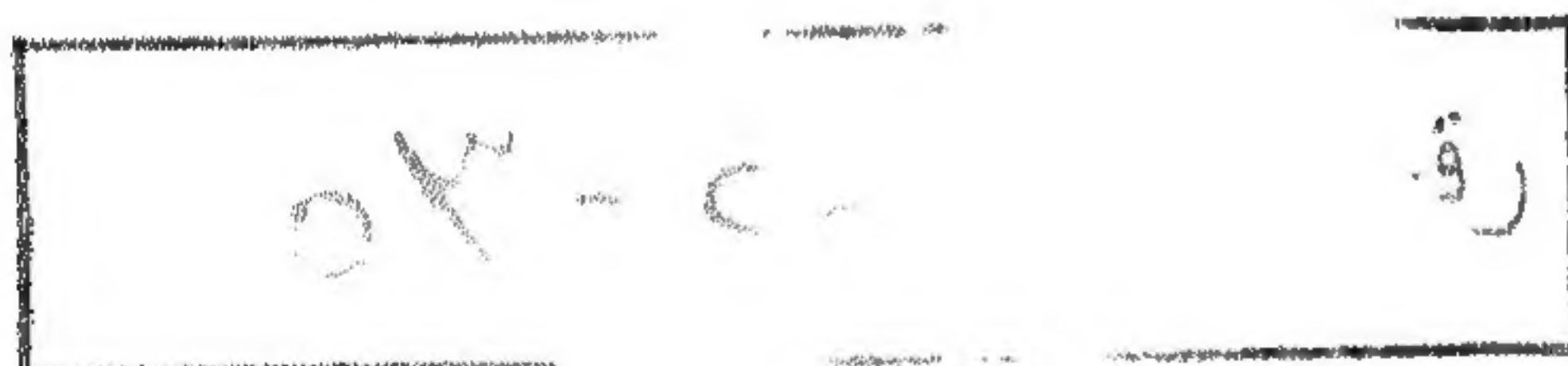


بَدَائِعُ الزَّهْوِ فِي وَقَائِعِ الدَّهْوِ





اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم اد. فريد الشافعي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة



اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم اد. فريد الشافعي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

السيرة ، وعنده عسف وظلم ، فبات والناس عنه
غير راضين .

وفيه شرع الأمير يشبك الدوادار في أمر
توسيع الطرقات والشوارع والأزقة . فأمر القاضي
فتح الدين السوهاجي ، أحد نواب الشافعية ، بأن
يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير
طريق شرعى ، من أبنية وربوع وحوانيت ،
وسقاييف ورواشن ومساطب ، ونحو ذلك .

واستمر الحال في أمر الهدم ، حتى دخلت سنة
ثلاث وثمانين وثمانمائة ، فحصل بذلك بعض تقع
في توسعة الطرقات ، ولكن حصل غاية الضرر
لجماعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوانيتهم .
وهدم لخوند شقرا ، ابنة الملك الناصر فرج ، ثلاثة
ربوع في الموازين : أحدها كان لجامع الصالح
خارج باب زويلة ، فاضطربت أحوال القاهرة ،
وكثر الهدم في الأماكن — ولا سيما المطلة على
الشوارع — وحصل للقاضي فتح الدين السوهاجي
غاية المقت بين الناس بسبب حكمه بهدم الأماكن .
وفي هذه الواقعة يقول الشهاب المنصورى :

تكشف عن مجيا مصر الاستار
وخف عنها من الأثقال أوزار
واهتزت الأرض منها بهجة ورن

ولاح فيها اضاءات وأنوار

كانت كصبح تعالت فوقه ظلم
شتى ، فجاء لها بالنور اسفار

كانت كشمس تغشاها الغمام ضحى

فنزقه من الأرياح اعصار

فاليوم أعطاها بالبشر مائسة

وقدها في حلى السعد خطار

وكانت الطرق قد شابت مفارقها

والشيب أن شان ما في أخذه عار

ومنها :

لما شكا الناس من مصر مضايقتها
وحار فيها من الحكام أفكار

فما تلقى أجور القاطنين بها
الا الأمير الذى بالعرف أمار

فهو الهام النظام المرتقى درجا
ت الفضل يشبك مولانا الدوادار

وهذا اختصار القصيدة المطولة .

وفيه تغير خاطر السلطان على برهان الدين
النبلسي ، وكيل بيت مال المسلمين ، فقبض عليه
وسلمه للأمير يشبك الدوادار ، ليستخلص منه
الأموال ... فاستمر الأمير يشبك يعاقبه ،
واستخلص منه جملة أموال لها صورة . وآخر
الأمر مات تحت العقوبة شر موة . وقد أذاقه
أنواع العذاب ، وتفنن في عذابه تفننا زائدا .
قيل انه ضربه عدة مرار نحو من ألفين وستمائة
غصا ، وقلع أضراسه ودقها في رأسه ، وغير ذلك
من أنواع العذاب . وكان أصله من دمشق ، وهو
ابراهيم بن ثابت ، وكان أحد نواب الشافعية ،
وله اشتغال بالعلم ، لكنه أدخل نفسه في أمور
السلطنة ، وطاش وظلم وجار عليهم ، ولم يفكر
في عقبي ذلك ، فأخذ من الجانب الذي أمن اليه ،
بعد أن عادى جميع الناس من بصر والشام ،
حتى الأمراء وأعيان الناس ، وأعيان الدولة ،
وشقى لنفع غيره حتى سلب من المال والروح .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ،
وعلى يده مكتابة ، فأكرمه السلطان ، وعاد له
الجواب ، وسافر بعد أيام .

وفي ربيع الأول خلع السلطان على صاحب
الخشقدم الأحمدي ، وقرره في الخازندارية الكبرى

والنمامية ، عوضا عن جوهر النوروزي ... فمظم
أمره جدا ، وصار وزيراً وخازن داراً وزماماً . وقرر
مقتضاه الساقى الظاهري رأس نوبة السقا ، وكانت
بيد خشتدم أيضاً .

وقبىه خلق السلطان على القاضي تاج الدين بن
المقضى ، وقرره في الاستادارية عوضاً عن الأمير
يشيك الدوادار . وقد استعفى منها - فصار ابن
المقضى استاداراً ونظير الخاص ، فمظم أمره جدا
وكان ذلك نهايته وانتهى سعيه .

وقبىه عمل السلطان المولد النبوي بالقلمة وكان
يوماً حافلاً ، وحضر القنصاة الأربعة ، وجميع
الأمراء ، فلما انقضى أمر المولد نزل السلطان من
القلمة ، وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ،
فسافر من البر ، وجهز سنيجه في المراكب . وسافر
صحبته من الأمراء : الأتابكي أزيك أمير كبير ،
ويشيك الدوادار ، وتتراز رأس نوبة النوب ،
وأزدهر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء
الطيلخانات ، والعشراوات ، والجم الغفير من
الخاصكية ، والماليك السلطانية . وسافر معهم
سائر المباشرين . وكان القاضي كاتب السر ابن
مزهر متوعكاً في جسده ، وخرج وسافر مع
السلطان وهو عليل .

وكان علم الدين شاكر بن الجيعان مريضاً ،
على غير استواء ، فتخلف بالقاهرة . وانسا سافر
معه ولده عبد المغنى . فلما وصل السلطان الى
مدينة الاسكندرية ، زينت له زينة حافلة ، وخرج
الى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ،
وهو بالشاش والقشاش . وكذلك قجماس الاسحاقى
نائب ثغر الاسكندرية ... واصطف الناس في
شوارع المدينة بسبب الفرجة . فدخل السلطان
في موكب حافل ، وجميع من معه من الأمراء
والعساكر ملبسين بألة السلاح بالعدد الكاملة .

والأتابكي أزيك حامل القبة والظير على رأسه ،
والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء ، وقدامه أعيان
المباشرين ، وأرباب الدولة ، وطلب طلباً حافلاً ،
وجر فيه مائتين وخمسين فرساً ، منها خمسون فرساً
بالمروج الذهب والكنائش ، والبقية ملبسة
بأنواع الجواغين المكنتة ، والبركستوانات من
المخل الملون ، وفي الطلب كجاتوش زرکش ، وهى
التي تعرف الآن بالجوشن ، ولعبوا قدامه بالغواشى
والذهب ، والأوزان عسال ، والشبابة . ومشت
قدامه الأمراء رعوس النوب بالعصى ، وشق المدينة
في ذلك الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود .

ثم ان بعض تجار الافرنج نشر على رأسه ألف
بندقى ذهباً ، فتزاحمت عليه الماليك يلتقطون
ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان يسقط
عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه ، حتى
أدركه الأمير تراز ويده عصا ، فضرب الناس
حتى خلص السلطان ومشى . واستمر في ذلك حتى
خرج الى باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم
الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان من
العادة القديمة أن السلطان اذا دخل الى مدينة
الاسكندرية ، تفك أبواب المدينة ، وتلقى على
الأرض الى أن يرحل السلطان عن المدينة ... فلم
يوافق السلطان قايتباى على ذلك ، وأبقى كل شىء
على حاله . ولم يدخل الاسكندرية سلطان من عهد
الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ،
وقد دخلها مرتين : الأولى في سنة سبع وستين
وسبعائة ، لما طرق الافرنج ثغر الاسكندرية ،
فدخلها على جرائد الخيل . والثانية كانت في سنة
احدى وسبعين وسبعائة ، فأوكب بها في هذه
المرّة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له
خليل بن غرام نائب الاسكندرية الشقق الحرير ،
وتر على رأسه خفاف الذهب والفضة ، ومشت

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان في تروجة . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، في سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى المشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباي ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجاس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذي كان بئر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان في هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحو من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء في غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماء ، وأخبر أن نائب حماء ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دوا داره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه في حق الرعية . فلما بلغ السلطان

هذا الخبر ، عين من هنالك خاسكيا لكشف الأخبار ، ليري الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضي القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبي السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل . وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بني جازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بني جازان .

وفي ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفي آخر يوم من أيب . وكسر في أول يوم من مسري ، فعد ذلك من النواذر ، وفيه يقول القائل :

أرى بيل مصر قد غدا يوم كسره

إذا رام جريا في الخليج تقنطرا

ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا

وأفرط هجما في القرى وتجبرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفي لنا

ما عليه من قديم قبرا

وقضانا الدين الا أنه

حين وفي ما عليه انكسرا

وكان الوفاء في غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضي علم الدين شاکر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاکر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطي الأصل القبطي المصري متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلطين . وكان عنده تواضع

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان في تروجة . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، في سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى المشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباي ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجساس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذي كان بشجر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجاً ، فبنى به برجاً عظيماً ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان في هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحواً من أربعين يوماً ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء في غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماد ، وأخبر أن نائب حماد ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دوا داره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه في حق الرعية . فلما بلغ السلطان

هذا الخبر ، عين من هنالك خاصية لكشفه الأخبار ، ليرى الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر ب وفاة قاضي القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبي السعادات ، وكان من أهل العام والنفل . وأخبر أيضاً بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بني جازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بني جازان .

وفي ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفي آخر يوم من أييب . وكسر في أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النواذر ، وفيه يقول القائل :

أرى بيل مصر قد غدا يوم كسره

إذا رام جريا في الخليج تقطرا

ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا

وأفرط هجما في القرى وتجبرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفي لنا

ما عليه من قديم قررا

وقضانا الدين الا أنه

حين وفي ما عليه انكسرا

وكان الوفاء في غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوماً مشهوداً .

وفيه كانت وفاة القاضي علم الدين شاکر بن الجيعان بن عبد الغني بن شاکر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطي الأصل القبطي المصري متولى ديوان الجيش . وكان رئيساً حشماً وجيهاً عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

زائد للناس قاطبة . وله اشتغال بالعلم . ومولده في سنة سبعين وسبعمائة ، وهو الذي أنشأ الجامع الذي بالقرب من بركة الرطلى . وكان نادرة في بنى الجيعان .

وفيه وصل السلطان الى القاهرة ، وطلع الى القلعة . وكانت مدة غيبته في هذه السفرة نحو شهر وأيام ، ودخل له تقادم حافلة . فلما استقر بالقلعة خلع على الشرفى يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وقرره في وظيفة والده . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفي جمادى الأولى عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، وقرر منهم من اختاره في وظائف مثل طبردارية وجمدارية ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن القوصونى ، وقرره في رئاسة الطب ، عوضا عن ابن العفيف .

وكانت انتهت عمارة قاعات الأربكية ، التى أنشأها الأتابكى أزبك ، فعزم على السلطان هناك فنزل اليه وبات عنده فأضافه ضيافة حافلة . ثم قدم له تقادم هائلة فشكره على ذلك ، ولم يقبل منها شيئا . فلما أصبح توجه هو والأمير يشبك الدوادار الى جهة المطرية ، فأضافه هناك الأمير يشبك فى القبة التى أنشأها هناك . فأقام عنده يوما وليلة ، وانشرح هنالك الى الغاية ، وشكر عمارة الأمير يشبك على عمارة الأتابكى أزبك . ثم طلع الى القلعة ، وبعث اليه الأمير يشبك تقادم حافلة ، فقبل منها شيئا ورد منها شيئا .

وفيه انتهت زيادة النيل الى أصبح واحدة وعشرين ذراعا . وثبت الى آخر بابة ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات ، وغرقت أراضى المنية . وكان نيلا عظيما .

وفيه خلع السلطان على قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقرره فى مشيخة الخاتناه الشيخونية ، عوضا عن الشيخ سيف الدين الحنفى ، بحكم وفاته رحمه الله تعالى . وكان ابن الشحنة منفصلا عن القضاء .

وفيه ، فى أثناؤه ، خرج السلطان على حين غفلة من العسكر ، وتوجه الى الصالحية . ثم بعد أيام أشيع بأن السلطان توجه من هناك الى البلاد الشامية ، فتعجب الناس من ذلك ، وكان فى نفر يسير من العسكر بحيث انه كان معه من المماليك نحو من أربعين مملوكا من خواصه ، وكان معه بعض أمراء عشراوات ، وتانى قرا الدوادار الثانى وآخرون من الأمراء . وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وأبو البقاء ابن الجيعان ، وشهاب الدين بن التاج الموقع . وبرهان الدين بن الكركى الامام ، وغير ذلك مما لا يحضرنى أسماؤهم . وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ويشبك الدوادار ، وسائر الأمراء المقدمين ، والطلبخانات والعشراوات ، وجميع العسكر قاطبة ، لم يتبعه أحد منهم . فصار الناس فى شك من سفره على هذا الوجه ، ولم يتفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة .

وفى جمادى الآخر ورد هيجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم الى الأمراء الذين بالقاهرة . فكان من مضمونها أن السلطان توجه الى نحو البلاد الشامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه . وأرسل يقول للأمراء بأن يتوصوا بالرعية والجد فى الأحوال ، وأن يحضروا الجامكية مادام السلطان غائبا . وكان المشار اليه فى غيبة السلطان

الأمير أربك ، وقد عظم أمره جدا والنصف العسكري عليه دون الأمراء .

وفيه في غيبة السلطان توفي القاضي نور الدين ابن الأيباني ، نائب كاتب السر ، وكان رئيسا حشما عارفا بأحوال المملكة ، وكان انسانا حسنا لا بأس به رحمه الله تعالى .

وفي رجب توجه القضاة الأربعة الى بيت الأتابكي أربك والأمير يشبك الدوادار ، وهنوهما بالشهر .

وفيه خرج الأتابكي أربك الى السرحة ، فغاب أياما وعاد الى القاهرة .

ومن جملة الطاف الله تعالى أن في غيبة السلطان لم يسمع الخلف بين الأمراء ، بل كان الأمان والاطمئنان في القاهرة وجميع ضواحيها ، حتى عد ذلك من النواذر .

وفي شعبان وصل هجان من عند السلطان ، وأخبر بأن السلطان دخل الى حلب ، وأقام بها ، وهو قاصد الى جهة الفرات ، وقد عرج قبل دخوله الى حلب نحو طرابلس .

ثم حضر هجان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام ، ومكاتبة للأتابكي أربك بأنه يتوجه الى المطعم بالريدانية ، ويلبس الأمراء هناك الصوف وأن يصرف الكسوة للجنود . فخرج الأتابكي أربك الى المطعم وصحبته الأمراء قاطبة والعسكر وكان له يوم مشهود . فآلبس الأمراء هناك الصوف كعادة السلاطين . وخلع في ذلك اليوم على الأمير جاني بك الفقيه أمير سلاح ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر اقبردى الأشرفي بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشهابي أحمد بن أبي الفرج ، نقيب الجيش ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الفتى ، وتوفي بحلب . وكان خرج صحبة السلطان فمات هناك .

وقيل انه حصل له رجفة من السلطان فانطرب ومات عقيب ذلك . وكان شابا قليل الأذى للناس لا بأس به .

وفي رمضان وقع بالقاهرة بعض اضطراب ، وسبب ذلك مضي الثلاثين من شعبان ، ولم ير الهلال ، فآكل غالب الناس في أول رمضان ، فنادى القاضي الشافعي بالامساك فثار عليه العوام ، وقصدوا الاخراق به ، فثبت رمضان برؤية الهلال قريب الظهر . ولكن أفطر غالب الناس في ذلك اليوم .

وفيه وقع بين تهم الضبع أخى بك الجبالي ، وبين القاضي أبي الفتح السوهاجي ، تشاجر بسبب هدم مكان . فسب الأمير تهم الضبع السوهاجي ، فشكا الى الأمير يشبك . فطلب تهم فاما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ولم يوقره لأخيه بك الجبالي ، فحصل بسبب ذلك بعض قلقلة بين الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من حلب ، بأن السلطان لما توجه الى الفرات أقام هناك أياما . ثم عاد الى حلب ورجل عنها ، وقصد التوجه الى حماة ، فلما دخلها وأقام بها ، حصل له هناك مرض في جسده ، فلما ثقل في المرض وعجز عن الحركة ، أحضروا له محفة فحمل بها ، وتوجه الى دمشق فدخلها وهو مريض على غير استواء . فكثر القيل والقال بين الناس ، وصار في كل يوم يشاع بالقاهرة خبر جديد بأن السلطان مات ودفن هناك ...

فأضطربت أحوال الأمراء في بعضهم ، وأظهر كل واحد منهم ما في نفسه من السلطنة . وأرجفت القاهرة بموت السلطان غير ما مرة . ونقل للأمير يشبك الدواidar بأن يرد بك جيش ، أحد الأمراء الآخورية ، وكان من أخصاء جانبك الفقيه أمير سلاح ، قد مشى بين طائفة المماليك الخشقدمية ، بأن يكونوا من عصبة جانبك الفقيه . وإذا صح موت السلطان يقومون معه ويسلطونه . وكان جاني بك الفقيه تحدثه نفسه بالسلطنة ، ويقرب الفلكية والمنجمين ، وحظى عنده جماعة بسبب ذلك .

ثم إن الأمير يشبك أرسل خلف برد بك جيش ، وذكر له ما نزل عنه ، فأنكر ذلك وحلف أيما عظمة أنه لم يصدر منه شيء من ذلك ، فقامت عليه البينة وكذبوه في وجهه . فسكت ولم ينطق بحرف واحد ، فعند ذلك أمر الأمير يشبك بضربه ، ف ضرب بين يديه ضربا مبرحا حتى أشرف منه على الهلاك . ثم أقامه وأحضر له عمامة يهودى صفراء ، وألبسها له ، وقصد يشهره بالقاهرة . فشفع فيه بعض الأمراء ، فأركبه على حمار وجرسه بين يديه في الدوائر . ثم شكه في الحديد ، وأمر بنفيه إلى الواح .

كل ذلك جرى والسلطان غائب ، لم يعلم له خبر ، وكانت هذه الواقعة سببا لنفى جاني بك الفقيه أمير سلاح كما سيأتى الكلام على ذلك . وفيه ختم البخارى بالجامع الأزهر ، وحضر به القضاة الأربعة ، وفرقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء ، وكانت قراءة البخارى من أول رمضان في الجامع الأزهر ، وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة .

فبينما القاهرة في اضطراب وإذا بخاصكى حضر من عند السلطان ، يقال له برد بك سكر ، وعلى

يده مكاتبات للخليفة والقضاة الأربعة ، والآتابكى أربك ، والأمراء قاطبة . فكان من مضمونها أن السلطان قد حصل له توعك في جسده ، وقد بعث الله تعالى له بالعافية والشفاء ، وحصل له البرء . فضربت البشائر بالقلعة ، ودخل على برد بك سكر عدة كوامل بسمور من الأمراء ، والخليفة ، وقضاة القضاة ، وأرباب الدولة ، ودقت له البشائر على أبواب الأمراء ، ونودى في القاهرة بالزينة سبعة أيام ... فزينت وأظهرت الناس الفرح والسرور بعافيته . وسكن الاضطراب الذى كان بالقاهرة ، وبطل القيل والقال الذى كان بين الأمراء . وفى ذلك نقول الشهاب المنصورى :

بعافية السلطان مولى الأنام قد

تهلل وجه الدهر فهو جميل

وقد صحت الدنيا لصحة جسده

وليس بها غير النسيم عليل

وكان الأمير يشبك الداودار من حين توجه السلطان للسفر ، وهو مجتهد فى توسيع الطرقات واصلاح وجوه أبواب الجوامع والمساجد ، وجلى رخامها ، وبيض حيطانها ، وكشف عن أبواب جامع الملك الصالح ، وظهر منه عواميد رخام فجلاها ، وأمر بتبييض الدكاكين ، ووجوه الربوع التى تطل على الشوارع ، وخلع على شخص من أبناء الناس ، وجعله مشد الطرقات ، فصار يستحث الناس فى سرعة البياض والدهان ، حتى صارت القاهرة كأنها استجدت فى بنائها وتزخرفها ... وصارت مثل العروس التى تجلى .

ثم إن الأمير يشبك أمر بقلع عتبة باب زويلة وأعلى العتبة وأصلحها . فان الأرض كانت علت على العتبة ، فقطع الأرض ، ومهد قدام الباب . واستمر باب زويلة مغلقا أياما حتى انتهى العمل منها ، فعند ذلك من النوادر .

وفيه حضر هيجان من عند السلطان ، وأخبر أن السلطان خرج من الشام بعد ما جلس بالقصر الذي بالميدان ، وحكم بين الناس ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وخلعت الأمراء على الهيجان . ثم حضر عقيب ذلك هيجان ثان ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة ، وهو قاصد الديار المصرية ، فشرعت الأمراء في الخروج الى ملاقاته السلطان . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان وصل الى قطيا .

وفي شوال جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . وصلى بها صلاة العيد ، وهو عيد الفطر . فعند ذلك خرج الاتابكي أرباب والأمير شبك الدوادار ، وفيه الأمراء قاطبة ، الى ملاقاته السلطان . ثم وصل الى الخاقاه ، فخرج اليه القضاة والعسكر بأنفسهم ، ونودى في القاهرة بالزينة ، فزينة زينة حافلة .

فلما كان يوم الخميس رابع شوال ، دخل السلطان الى القاهرة في موكب حافل ، وقدامه القضاة الأربعة ، والأمراء والعسكر . على ما جرت العادة به في الموكب ، وكان له موكب عظيم ويوم مشهود ، الى أن جاء الى القاعة ، ففعلت له خيول ما يناسب الملوك ، الى أن دخل الحوس ، فمدت الأسطة الى الغاية ، ثم انتهت فخلع على من كان مسافرا صحبته .

ولما وصل السلطان الى القرات ، قدم عليه شخص من أولاد حسن الطويل ، وهو ابن محمد عزلول بن حسن الطويل ، وكان شابا جميلا الصورة له من العمر نحو من ثمانين سنة ، فخافت عليه أنه أن يقتله أسامة ، فجمعت به الى السلطان ، فحضر به الى القاهرة وحسن عنده . وكان عند مروره من القاهرة فسمعه سائيا كالمولوك والأمراء . واستمر بمصر حتى مات كما سبق في الكلام عليه .

وكان اسمه حسين بك وقيل مرزاه ، وهو المشهور عند الناس .

ولما رجع السلطان من هذه السفرة عظم أمره جدا ، وكان انتهاء سفره الى القرات ، وكشف على عدة قلاع بنفسه ، ودخل الشام وحلب وطرابلس وحماة ، وغير ذلك من البلاد الشامية . ودخل عليه من النواب وأعيان الناس جملة تقادم وأموال لها صورة . وعدت هذه السفرة من النوادر الغريبة .

وكانت مدة غيبة السلطان في سفرته نحو من أربعة أشهر . وفي هذه الواقعة يقول الشيخ محمد ابن الزيتوني هذه القطعة الزجل ، وهي من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهي هذه :

سلطاننا الأشرف خرج في أربعين
من العساكر حين سافر بحماه
ومن حلب عدا يروم القرات
فأستقى الخيول من ماء وربه حماه

في مصر فرسان أربعين بالعدد
لدورة المحصل يسوقوا الجياد
ورعبهم ساكن قلوب الملوك
يردوا الخارج وأهل العناد
في ذا العدد راح الملك وافتخر
بهم على سائر ملوك البلاد

وخير سوار لاقاه وفي صحبته
ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه اطنس وخلع على
ولد حسن خلعه وشتت أباه

كامل مظفر بالعدا لم يزل
يجرى دماهم في الفيافي نهر

خرج لتطمين العباد في البلاد
فكم شكر عادل وظالم فمن

امانا الأعظم عليك الزمان
بالعدل في هذا الوجود اشتهر

كشف عن النواب فمن خان وجار
أنكر عليه فعلو وبالعزل جاه

ومن رآه عادل وفعلو حسن
خلع عليه وأعطاه منازل وجاه

هذا الملك صالح وسرو ظهر
لا شك انو قطب في الدائر

لما خرج في الأربعين خلتهم
بدر الدجى حولو نجوم زاهر

له منازل كل حد منزله
شيء للرصد شأنه و شيء سامره

كشف بلاده واعتبر أهلها
واحدا رفع قدره وآخر ساء

وطلعتو فاقت شمس الضحى
وأخفت البدر المنير في سماء

لما دخل للشام وكان قد ضعف
من الهوا والشرب من ماء العيون

وربنا عافاه وجابو لنا
سالم وقرت به جميع العيون

عادل وربّه بالظفر أيده
عجب لسلطان حاز جميع الفنون

ومهد الدنيا بعدلو وان
راد يشتى عزمو الشديد ما ثناه

وفاز بتاريخ ما قريح به ملك
قبيلو ونال قصده ويغن ثناه

أهل الفضائل والعلوم ورخوا
وكل واحد في الكتابه ذهب

يكتب تواريخ الملوك بالمداد
الا لقايتباى كتب بالذهب

هو فارس الاسلام وليث الوغى
وقهلوان الحرب مثل العجب

وخالفه علا مقامه الشريف
على الملوك وأنشاه ومن ما براه

وكل ذا في اللوح قديم في الأزل
خطو القلم جل الذي قد براه

تاريخ سنة اثنين جمادى الأخير
يلى ثنائين مع ثمان من مئين

من هجرة الهادى عليه السلام
خير النبيين سيد المرسلين

تجهز السلطان يريد السفر
وأخفى عن العسكر خرج في أربعين

وفر لبيت المال خزائن ذهب
ما تحصرو أقلامنا مع دواه

وريح العسكر وكم من ضعيف
كان التخلف في بلاده دواه

لاجل الدوا دار الكبير قد برز
أمره بتوسيع الطريق المضيق

وكشف أبواب المساجد وما
بين المدارس كان على غير طريق

وصلح الأبواب وشيء يبضه
وأخضع على واحد مشد الطريق

ووكله بالقباهرة كل يوم
بقى يدور راكب وفي ايده عصاه
فيأمر الناس بالبياض والدهان
لمناع الجميع أمره وما واحد عصاه

صارت مدينتا عروس للملك
وذا عجب كيف العريس هو الولي
وتقشوها بالدهان في البياض
وأضحت عروسه بالطراز تنجلي

ومدت المدات نهار الفرح
وزينوها بالحلل والحلى

وبان لها سيقان عواميد رخام
جلاهم الصانع ونعم جلاه
ودقت الكوسات نهار الدخول
وكان دخوله في المواكب جلاه

وقبل ذا صلوا على المصطفى
خير الخلائق وأعلنوا بالسalam
بكل مرة من صلاتك عليه
جزاك الله عشرين بالصلاه يا كرام

وبالشفاعة يدخلك جنته
من بابها الأول لدار السام

هو أول الرسل الكرام في الوجود
وهو لهم خاتم وما حد تلاه
وانزل القرآن عليه العزيز
على لسان جبريل مفرق تلاه

في ليلة المعراج بخير الأنام
ساقوا حديث مسند صحيح السياق

نزل عليه جبريل وقال له الاله
يدعوك الى الحضرة على ذا البراق
ركب عليه حتى صعد للسا
وصار الى السبع العوالي الطباق

لجنة المأوى رقى وارتقى
وزج به في النور وزاد في شفاه
وأفرض عليه الخمس كان أصلها
خمسین وفيها خطابه شفاه

هذا المعاني والبدیع والجناس
من نظم زيتوني لفقته دخول
أبو النجا العوفي نظم في الملك
من حين خروجه في السفر للدخول

فان تجد عيبا فسد الخل
اذا سمعته في نظامه يقول

سلطاننا الأشرف خرج في أربعين
من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماء ورثه حماه

وفيه ، في ثامن عشر منه ، خرج الحاج وكان أمير
ركب المحمل الأمير جاني بك الفقيه ، أمير سلاح
وبالأول أقبردي الأشرفي ، فلما خرج جاني بك
الفقيه رسم السلطان بهدم سبيله الذي قد أنشاه
بالرميلة . فأخذ الناس يلهجون بأنه لا يعود الى
القاهرة ، وكذا جرى ...

وفي ذي القعدة قدم قجماس الاسحاقى نائب
الاسكندرية ، وأقام بالقاهرة يباب السلسلة . وكان

قد جمع بين نيابة الاسكندرية وبين امرة الآخورية الكبرى .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى بر العجزة وكشف عن خيوله ، وأقام هناك أياما . ثم توجه الى جهة منوف العلاء ، وكشف عن جسورها ، وأمر بإصلاحها ، وأقام هناك أياما وعاد الى العجزة . ثم سافر من هناك الى الفيوم ، وكان معه في هذه المرة الأتابكي أزبك ، وتمازج التمشي رأس نوبة كبير . وكان معه من الأمراء العشراوات ، ومن الخاصكية عدة وافرة . فلما دخل الى الفيوم تلقاه خاير بك ، وكان مقيما بالفيوم ، فخلع عليه خلعا فاخرة ، وأقام هناك أياما ، وهو في أرغد عيش ، على سبيل التتره . فبينما هو على ذلك اذ ورد عليه من جهة الصعيد ، بأن عرب هواره ثاروا مع يونس بن عمر ، على برسباي كاشف الوجه القبلي فكسروه . ووقع بينهما مقتلة ، قتل فيها جماعة كثيرة من الجنود والبلاصية ، فتكد السلطان لهذا الخبر . وقصد أن يتوجه من هناك الى بلاد الصعيد ، فسمعه الأمراء من ذلك . وكان الأمير يشبك متمرضا برجله ، وهو بالقاهرة ، فأرسل السلطان يستحثه في سرعة السفر الى جهة الصعيد .

وفي ذي الحجة عاد السلطان من سفره من الفيوم ، فلما استقر بالقلعة ، خلع على بركات بن يحيى بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن نور الدين الانبأبي ، بحكم وفاته... وهذا أول ضخامة الزيني بركات بن الجيعان .

وفيه توفي الناصري محمد بن قرقماس الحنفي ، وكان عالما فاضلا من أعيان الحنفية ، وكان يدعى معرفة علم الحرف وعلم الكيسيا ، وكان ولي مشيخة تربة الظاهر خشدقم . ومولده سنة اثنتين وثمانمائة

وكان لاطما نائرا ، وله عدة مصنفات ، منها « كتاب زهر الريح في شواهد البديع » وغير ذلك من التأليف ، وله معارضة مقامات الحريري ، وكان يدعى دعاوى عريضة ، ومن نظمه :

إذا من من تهوى عليك بنظرة
أماط الجوى من قلبك الياس والبلوى
فكن شاربيا صبرا لم صدوده

فما ذاق من الوصل من هم بالسلوى
وقوله في مليح من ركاب الخيل وأجاد :

وظبي من العرب الكرام سألته
لمن في الورى تعزى قتال مؤنسى
أنا ابن الذى تشى الملوك أمامه

إذا ما رأوه راكبا يسوم موكب
وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب تلك الفتنة التى وقعت بين يونس ابن عمر ، وبين داود بن عمر قريبه ، وأخذ معه جماعة كثيرة من الجند .

وفيه توفي حسن بن محمد بن أيوب الكردي ، نائب القدس ، ونائب الكرك ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وكان قد شاخ وناف على الثمانين سنة .

وتوفي القاضى شهاب الدين أحمد الطولونى الحنفى ، أحمد نواب الحكم . وكان مقربا فى السمن جدا ، بحيث لم يكن فى عصره أسمن منه . ومما وقع له أن جماعة من الفلاحين تحاكبوا عنده على دين ، فأذكر الذى عليه الدين ، فألزمه القاضى باليمين ، فلما أراد أن يحلف ، قال له الخصم : ان كنت ما أخذت منى شيئا تبغى فى سمن هذا القاضى ، فاعترف لخصمه بالدين ولم ينكره .

سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة (١٤٧٨ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على العلائي
على بن الصابوني ، وقرره في وكالة بيت المال ،
عوضا عن النابلسي ، وقرر في قضاء الشافعية
يحب ، عن الدين الخسفاوي ، وصرف عنها
أبو البقاء ابن الشحنة .

وفيه جاءت الأخبار بأن السلطان قبض على
جاني بك الفقيه ، أمير سلاح الذي توجه أمير
ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبة ، وأرسله
من هناك إلى القدس بطلا .

ونفى أيضا قايتباي الخشقدمي إلى جهة حلب ،
ونفى أيضا يشبك جنب الظاهري جتسق إلى جهة
دمشق ، لكونها كانا من أصحاب جاني بك
الفقيه .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد قاسى في
السنة المذكورة شدائد عظيمة من الغلاء ، وموت
الجمال ، وانقطع جماعة من الحاج من رجال
ونساء . وقتل في السنة المذكورة قاضي المدينة
المشرفة وخطيبها . وقد قتل بعض الرافض ...
وسبب ذلك أن الخوارج شمس الدين بن الزمن
ابتدأ بعبادة مدرسة السلطان ، فأخذ مكانا كان
يسكنه هذا الرافضي ، فدخله في بناء المدرسة ،
فتعصب القاضى على الرافضى في هدم مكانه ،
وكان ذلك سببا لقتله .

أقول : وأنا حجبت تلك السنة ، وشاهدت
الواقعة ، ونفى جاني بك الفقيه من العقبة .
وفيه خلع السلطان على جانم قريه وقرره في
نظر الجوالي ، وهو جانم الشريفى . وهذا أول
إظهار جانم الشريفى في الوظائف . فأقام في نظر
الجوالي مدة يسيرة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف .
وهي مقدمة جاني بك الفقيه أمير سلاح . فعظم أمر
جانم جدا ، وكان أمره لم يلتج .

وفي صفر خلع السلطان على شاد بك الصغير ،
وقرره في نيابة سيسى ، عوضا عن أزدمر قريب
السلطان ، وقدم أزدمر إلى القاهرة .

وفيه كان عقد جانم الشريفى ، قريب السلطان ،
على خوند ، ابنه العلائى ، على بن خاص بك .
وكان بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة ،
وأرباب الدولة . وكان عقدا حافلا ، وخلع فيه
على قاضى القضاة ، ولى الدين الأسيوطى لكونه
نولى العقد . وخلع على كاتب السر ابن مزهر
لكونه كان وكلا عن جانم .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ،
وكان حافلا .

وفيه عين السلطان وردبش الظاهري ، بأن
يخرج إلى اللجون ، بسبب احضار الأخشاب .
وعين معه جماعة من الجند ، وأمرهم بأن يدخلوا
إلى قبرس ، ويطلبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهوا
من هناك إلى اللجون ، لاحضار الأخشاب .

وفيه وقف الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ،
إلى السلطان بقصة يشكو فيها قانسوه خسماة ،
بسبب المكان الذى أنشأه بقناطر السباع ، تجاه
بيت ابن أسنبغا الطيار ، وذكر في القصة أن
قانسوه خسماة قد جار عليه ، وفتح من عنده
بابا بغير طريق شرعى ، وقطع من عنده عدة
أشجار ، وقد أضر ذلك بحاله . فلما سمع السلطان
ذلك وبخ قانسوه خسماة بالكلام ، وأمره
بأن يسد الباب الذى فتحه ، ويرضيه في قيمة
الأشجار التى قطعها من عنده . وأنصف السلطان
ابن أسنبغا الطيار على قانسوه ، فعاد ذلك من
النواذر لكونه أنصف ابن أسنبغا على قانسوه ،
مع خصوصيته بالسلطان ، ولكن كان قانسوه
متعديا على ابن أسنبغا الطيار .

أرى النيل قد وافى وزاد ولم يزل
يجود على أهل القرى بالمكارم

أفاض عليها الماء من بسط راحه
أصابعها فاقت أيادي حاتم

وفي جمادى الأولى جاءت الأخبار من حماة ،
بأن سيف بن نعيم الغاوى وقرابته قد خرجوا عن
الطاعة ، وأن نائب حماة تقاتل مع الغاوى فكسر
نائب حماة ، وقتل من عسكره ما لا يحصى . ثم
خرج إليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه ، فتبعه
وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة بين المساليك
الجلبان ، حتى تقارعوا بالسيوف ، فحق منهم
السلطان ، ورمى النجاة والترس من يده ، ونزل
من القلعة ، وتوجه الى نحو شطونوف ، فلما تحقق
الجلبان ذلك أخذوا في أسباب تلافى خطره ،
وسكن أمر الفتنة التى كانت بينهم . ثم توجه
الأتابكى أزيك ، وكاتب السر الى السلطان ،
وتلافوا خطره ، وتلفنوا به فى عوده الى القلعة ،
فما زالوا به حتى عاد الى القلعة بعد جهد عظيم .
وفيه وصل الأمير يشبك الدوادار من جهة
الصعيد ، وحضر صحبتته جماعة من بنى عم يونس
وأقاربه ، وهم فى الحديد ، وأحضر الأمير أحمد
ابن عمر الهوارى أخا يونس الذى قطعت رأسه ،
فلما تمثل بين يدى السلطان خلع السلطان على
الأمير يشبك خلعة حافلة ، ونزل الى داره ومعه
أحمد بن عمر فى الحديد .

وفي جمادى الآخرة عرض أحمد بن عمر على
السلطان ، فرسم بتسليمه الى الوالى هو ومن
معه ، وكانوا سبعة أنفار ، فأركبهم على جمال ،
ونزلوا بهم الى باب زويلة ، فكلبوا الجميع ،

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على قجساس
الاسحاقى ، أمير آخور كبير وقرره فى امرية
الحاج ، بركب المحمل ، وخلع على فارس الركنى ،
وقرره بامرية الركب الأول ، فاستغنى فارس من
ذلك فأعفاه السلطان ، وقرر عوضه أقيردى
الأشقر على عادته . وقيل ان فارسا استغنى بمال
عن امرية الحاج .

وفيه جاءت الأخبار بأن يشبك الدوادار قبض
على يونس بن عمر الهوارى ، وقد تتبعه الى بلاد
النوبة ، وجرى معه أمور يطول شرحها . وآخر
الأمر قبض عليه وقطع رأسه ، وقبض على أخيه
أحمد ، وعلى جماعة من أقاربه ، وانتصر على
بنى عمر نصره عظيمة ، وبعث برأس ابن عمر يونس
الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة
أياماً .

وكان يونس هذا من خيار بنى عمر ، وهو
يونس بن اسماعيل بن يوسف أمير عريان هواره ،
وكان مشهوراً بالشجاعة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى فى رابع
مسرى ، فتوجه الأتابكى أزيك وفتح السد على
العادة .

ومن الخوادث الغريبة أن فى ليلة الوفاء انقطع
جسر أبى المنجا ، وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد
التى تحته غاية الضرر ، وغرق الكثير من أموال
الناس والمقطعين .

ومن العجائب أن البحر لم يتأثر لقطع جسر
أبى المنجا ، ووفى فى تلك الليلة . وزاد عن الوفاء
اثنتى عشرة أصبعا . فعد ذلك من النواذر .

ثم فى ثانى يوم من كسره زاد ست عشرة أصبعا ،
وأكل الذراع السابعة عشرة فى يومين ، حتى
تعجب الناس من ذلك وقد قال القائل :

وعلقوهم بباب زويلة ووسطوا منهم جماعة ، وكان لهم يوم مشهود ، وتأسف عليهم الكثير من الناس ، فانهم كانوا خيار بني عمر ... ولكن كان للأمير يشبك عليهم ثأر فديهم ، فاقتصه منهم . كما قيل « الموت في طلب الثار ، ولا الحياة في العار » . وفيه نزل السلطان الى قبة يشبك التي بالمطرية فأضافه هناك كاتب السر ابن مزهر ضيافة حافلة ، وبات هناك ثم طلع الى القلعة .

وفي شهر رجب خلع السلطان على الشريف سبع ، وقرره في امرية الينبع ، عوضا عن صقر بحكم القبض عليه .

وفيه خلع السلطان على يوسف بن أبي الفتح المنوفي ، نائب جدة ، وقرره في كتابة الممالك ، عوضا عن عبد الكريم بن جلود بحكم وفاته . وكان متحدثا فيها بغير تقرير

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جاني بك النقيه ، الذي كان أمير سلاح ، ونفى من عقبه الى القدس ، فمات هناك . وكان أصله من ممالك الظاهر جقمق . وكان يعرف بجاني بك بن ططخ . وكان انسانا حسنا ، وكان له اشتغال بالعلم ، وتولى عدة وظائف سنية منها أمير آخور ثاني ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم نفى الى القدس ، ومات به بطلا .

وفيه توفي دولات حمام الأشرفي وكان يعرف بدولت باي بن تغرى بردى ، ومات وهو نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه عزل تاج الدين بن المقسى من الاستادارية ، وأعيد اليها الأمير يشبك الدوادار ، وأقام ابن المقسى في الترسيم على مال يورده وكان ذلك آخر سعده .

وفي شعبان خلع على بدر الدين بن محمد ابن الكوين وقرر في نذر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى بحكم انفصاله عنها ، وفيه خلع السلطان على محمد بن عثمان ، وأعادته الى مشيخة العرب بالشرقية . وكان له نعم من عشر سنين وهو في البرج بالقلعة .

وفيه خلع السلطان على أقباي الطويل ، وقرره في كشف الشرقية ، وأقباي هذا هو الذي ولي نيابة غزة فيما بعد .

وفيه توفي دولات باي سكسكان الأشرفي برسباي توفي بحماة ، وكان أتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرفية ، ولا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بسوت حسن الطويل ، ملك العراقيين ، وأن ولده خليل تولى على العراقيين بعده . وقيل ان موته كان في رجب ، وكان ملكا جليلا عاقلا سيوسا ، كثير الحيل والخداع ، اقتلع ملك العراقيين من أخيه جهان كبير ، بحيل غريبة ، وقتل عنه الشيخ حسن ، واقترضت دولة بني أيوب على يده . ثم قوى على جهان شاه ، وحاربه حتى كسره ، وقتله وشتت أولاده ، وملك تبريز والعراقيين ، وبلغ مبلغا لم يصل اليه أحد من أجداده ، ولا من أقاربه .

وقد تحرش بابن عثمان ملك الروم ، بأن يأخذ من ملكه شيئا ، فما قدر عليه

ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف قايتباي أمور يطول شرحها . وكان الأشرف قايتباي يخشى من سطوته ، فلما مات عد ذلك من جملة سعد الأشرف قايتباي . وقد قيل في المعنى :

أيا ملكا صار من سعده

بسوت الأعادي حقيقا يفوزا

لقد أهلك الله عنك العداة

وينصرك الله نصرا عزيزا

نوبة الجمدارية ، وهو والد الناصري محمد
أبى يزيد ، وكان لا بأس به .

وفي ذى الحجة نزل السلطان من القلعة ، و
الى بر الجزيرة ، وكشف عن القناطر التى
بأنشائها على يد الأتابكى أربك ، وكان ال
محتاجا لاصلاح تلك القناطر ، وكانت قد تهده
فصرف عليها جملة مال حتى جردها ، وهى باقية
الآن .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة نائبها
بك قلمشير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حث
وأصله من مماليك الأشرف برسباى ،
موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وتولى عدة و
سنية ، منها : حجوية الحجاب الكبرى ، و
مجلس ، وامرية سلاح ، ثم ولى الأتابكية
وترشح أمره للسلطنة غير ما مرة ، ثم أسره
سوار ، ثم أطلق وأعيد الى امرية سلاح ، ثم
نيابة الشام ، ومات بها . وكان كفئا للم
والمهمات وغير ذلك .

وفيه أرسل السلطان الخواجا محمد بن م
المغربى ، الى ملك التليان الأفرنجى ، وأر
على يده هدية حافلة فصار اليه ، وفي عقيب
أرسل صاحب قبرس ما عليه من الجزية الم
وقصد السلطان أن يجهز له تجريدة ، ف
ما عليه سكن الأمر .

وفيه توفيت خوند فاطمة ، بنت المؤيد
الأشرف اينال ، وهى زوجة الأمير يشبك ال
أم ولده منصور ، وكانت شابة جميلة وحيها
فحزن عليها الناس .

وفيه توفى شاهين الظاهري أحمد
العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو
القشرين ، ثم الى الخطارة ، وكشف عن الجامع
والسيل اللذين أنشأهما هناك ، والحوض الذى
أنشأه هناك ، على الدرب السلطاني . وكان المشد
على العمارة الأمير يشبك الجمالى ، فجاءت هذه
العمارة فى غاية النفع .

وفي رمضان خلع السلطان على اينال الأشرفى ،
مملوك السلطان ، وقرره فى نيابة الاسكندرية ،
عوضا عن دولات باى حمام .
وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، على العادة
وكان ختسا حفلا .

وفي شوال فى يوم عيد الفطر ، خلع السلطان
على الأمير يشبك بن مهدي الدوادار ، وكاشف
التراب ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك فصار رأس
مجلس الميسرة ، وهو بالقصر ، ويقف فى الحوش ،
ولم تجتمع هذه الوظائف فى أحد من الأمراء قبله .
وفيه توفى شمس الدين العاقل أحد الموقعين
والشهود العدول ، ولا بأس به .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ،
وكان أمير الركب بالمحمل قجماس أمير آخور كبير ،
وأمر ركب الأول اقبردى الأشرفى .

وحج فى السنة المذكورة الشيخ صلاح الدين
الطرابلسى الحنفى .

وفي ذى القعدة قصد قانصوه الألفى أن يسافر
الى بلاد جركس ، وكان قد حصل له توعك فى
أذنه وعينيه ، فتوجه هناك للتداوى — وكان
يومئذ خاصكيا — فغاب هناك مدة طويلة ، ثم
عاد الى القاهرة .

وفيه توفى أبو يزيد بن طراباى الأشرفى رأس

سنة أربع وثمانين وثمانمائة (١٤٧٩ م) .

خلافة المتوكل على الله العباسي

هو المتوكل على الله ، أبو العز عبد العزيز ، ابن يعقوب ، ابن محمد المتوكل على الله ، ابن المعتض بالله أبي بكر ، ابن المستكن بالله سليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد العباسي الهاشمي . وهو الرابع عشر من خلفاء بني العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد موت عمه الجمالي يوسف بعهد منه . وكانت ولايته في يوم الاثنين سادس عشر المحرم من السنة المذكورة ، فطلبه السلطان ، فحين حضر حضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة ، وكان يومئذ عمه موسى موجودا ، ولكنه كان غير صالح للخلافة . فلم يكن في بني العباس يومئذ أمثل من العزى عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته ، فتولى الخلافة في ذلك اليوم ، ولم يل الخلافة من اسمه عبد العزيز سواه . ثم انه أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ، فعورض في ذلك ولقبوه بالمتوكل على الله ، كلقب جده محمد المتوكل ، فأحضر اليه شعار الخلافة ، وأفيض عليه ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش . ونزل من القلعة في موكب حافل ، وأمامه قضاة القضاة ، وأعيان الدولة . فتوجه الى مكان تسكن فيه الخلفاء . ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة ، وسكن بدار عمه يوسف ، التي هي داخل الحوش السلطاني ، وطالت أيامه في الخلافة وكان كفئا لذلك . وكانت سنة لما تولى الخلافة نحوا من اثنتين وستين سنة أو أكثر من ذلك . وكان مولده سنة تسع عشرة وثمانمائة ، وكانت أمه تسمى حاج ملك بنت مقبل ، وهو شخص من المماليك السلطانية .

وفي صفر تغير خاطر السلطان على أزدمر

فيها ، في المحرم ، توجه الأمير يشبك الدوادار الى ثغر دمياط . وكان السلطان قد جعله متحدثا عليها ، فلما توجه هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيمرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها فتور من مائتين وخمسين قنطارا . وكانت هذه السلسلة قديما هناك ، ثم بطل أمرها فجددها الأمير يشبك الدوادار ، في السنة المذكورة ، وحصل بها النفع ، لطرده المراكب التي المفرنج .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة وحسدت سيرة الأمير قچماس أمير المحمل .

وفيه في يوم السبت رابع عشره ، كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالي يوسف رحمه الله تعالى المستنجد بالله العباسي ابن محمد المتوكل على الله ابن المعتض بالله أبي بكر بن المستكن بالله سليمان ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله العباسي الهاشمي . وكان الثالث عشر من خلفاء بني العباس بمصر . تولى الخلافة بعد أخيه حمزة ، ودام في الخلافة نحوا من خمس وعشرين سنة وأشهر . وكان رئيسا حشبا ، وعنده لين جانب ، مع تواضع زائد ، ورأى في خلافته العز وقلد فيها خمسة من السلاطين ، وهم : المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، والظاهر خشقدم ، والظاهر بلباي ، والظاهر تمبرغا ، والأشرف قايتباي ، ومات وله من العمر زيادة على الثمانين سنة . ومولده بعد التسعين والسبعمائة . ولما مات دفن عند أذاربه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها . وهو أول خليفة سكن بالقلعة ، ودام بها حتى مات ، ومات عن غير واد ذكر ، بل خلف بنتا تسمى ست الخلفاء ، فعهد بالخلافة بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز .

بسرّج ذهب وكنبوش ... وكانت هذه الوليمة من
نوادير الضيافة الحافلة .

وفي ربيع الآخر كانت نهاية ضرب الكرة ،
وأضاف السلطان الأمراء ضيافة حافلة . ونزلوا
الى دورهم .

وفيه كانت وفاة الأمير جانم الشريفى ، قريب
السلطان أحد المقدمين . وكان من حين أضافه الأمير
يشبك وهو مريض ، حتى اتهم الأمير يشبك بأنه
قد شغله في ذلك اليوم في شيء من المأكول ، فلما
تزايد به المرض وتورمت قدماه ، حمل في محفة
وتوجهوا به الى بولاق ، فأقام هناك بعض أيام
ومات . فأمر السلطان بحمله الى داره في محفة ،
فغسل وكفن وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، وكان له
يوم مشهود . ثم توجهوا به الى تربة السلطان فدفن
بها . واستمر العزاء عمالا بالقلعة ثلاثة أيام بدور
الحريم . وتأسف عليه السلطان غاية الأسف . وقيل
ان السلطان جلس بقاعة البحرة ، ورسم لنساء
عرب اليسار أن يدقوا ويلطموا على الأمير جانم
وهو ينظر اليهن . وقد جلس للعزاء وصارت
الأمراء تتلطف به وتسليه . وقيل ان جانم كان
يقرب للسلطان من جهة النساء ، وكان جميل
الصورة حسن الهيئة ، قد بدا عذاره . وكان رئيسا
حشما وافر العقل جليل القدر ، ورأى غاية العز
والعظمة على صغر سنه ، وأقام بالطبقة مدة
يسيرة ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ،
ثم بقى ناظر الجوالى ، ثم بقى شاد الشراابخانا ،
ثم بقى مقدم ألف . وجاءت اليه السعادة سريعا ،
وزالت عنه في مدة يسيرة ، وقد دهمه الموت فتوفي
وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكان كريما سخيا
بالعطاء حتى قيل فيه :

الطويل اليراهيمى الاينالى ، حاجب الحجاب ،
فرسم بنفيه وبعث اليه بألفى دينار يتجهز بها .
رفيه نزل السلطان وتوجه الى منف ، وأقام بها
أياما ، ثم عاد الى القلعة .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على تانى بك قرا
الينالى بتقدمة ألف ، وهى مقدمة أزدر الطويل ،
وعين الدوادارية الثانية الى قانصوه خمسمائة ،
وخلع عليه بها بعد أيام .

وفيه نقل السيفى قانصوه اليحياوى من نيابة
حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن المرحوم جاني بك
قلقسير ، بحكم وفاته . ونقل أزدر قريب السلطان
من نيابة طرابلس الى نيابة حلب عوضا عن قانصوه
اليحياوى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وقرر
في نيابة طرابلس برد بك المعمار نائب صفد ، عوضا
عن أزدر بن مزيد ، قريب السلطان . وقرر عوضه
في نيابة صفد جاني بك أحد مماليك السلطان ،
وكان مقيما بالشام بطالا .

وفيه توفي جانم الأعور بن بلباى أمير شكار ،
أحد العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف
برسباى .

وفيه ضرب الأمير يشبك الدوادار الكبير الكرة
مع السلطان ، فسقط صولجان الأمير يشبك من
يده ، فترجل الأمير جانم الشريفى قريب السلطان ،
أحد المقدمين عن فرسه ، وأخذ الصولجان من
الأرض وناوله للأمير يشبك ، فلما كان في اليوم
الثانى صنع الأمير يشبك وليمة حافلة جدا ، وعزم
على جانم وقانصوه خمسمائة وآخرين من الأمراء
فلما حضروا أصلح الأمير يشبك بين جانم وبين
قانصوه خمسمائة . وكان بينهما وحشة . ثم خلع
على كل واحد منهما كاملية بسمور ، وأركبه فرسا

فقت الكرام في السورى
يا مطلب الرائم
ما أنت الا حاتم
تصحفت بجسانم

وكان قد تزوج بخوند أخت خوند روجة
السلطان ، وكان له مهم حافل ، وكان له زفاف ليلة
خلا بزوجه لم يسع بثله . وزينت له القاهرة
بالمصاييح والشسوع ، وعانت ليلة زفاف عرسه
التناير بها التناديل من سويقة العزى الى ما بين
القصرين ، ومشى أمامه الأمراء المتقدمون ، وكان
الأمير يشبك ماسكا عنان فرسه من جهة المينة ،
وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ماسكا لجام فرسه
من جهة الميسرة ، وبقية الأمراء مشاة قدامه
بالتسوع ، من سويقة العزى الى بيت العلائى على
ابن خاص بك ، وكان المهم هناك . فزف وزفت له
العروس فكان أبهى من العروس كما قيل :

ما سعننا فيسا سعننا قديما

بعروس يجلى عليها عروس

وكان زفاف الأمير جانم من المعدادات ، بحيث
لم يقع بعده مثله .

فلما انقضت وفاة الأمير جانم كثر الكلام في حق
الأمير يشبك بسبب جانم ، ونسب الى قتله بالسهم ،
وصار في تهديد ووعيد من المماليك الجلبان . ووقع
بسبب هذه الحادثة أمور شنيعة يطول الكلام في
شرحها . وقصدوا قتل الأمير يشبك غير ما مرة .
وصار السلطان يرجع المماليك عن الأمير يشبك ،
وصار الأمير يشبك يترضى خاطر المماليك الجلبان
بكل ما يمكن ، حتى سكنت هذه الفتنة قليلا .
وصار على رأس الأمير يشبك طيرة من الجلبان ،
حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه قدم الملك المؤيد أحمد من الاسكندرية .
وكان سبب قدومه أن والدته خوند حصل لها توعك

شديد وقد أشرفت فيه على الموت ، فأتى اليها الأمير
يشبك ليعودها . فسألت فضله أن يسأل السلطان
في حضور ولدها الملك المؤيد الى مصر لتنظره قبل
أن تموت . فلما طلع الأمير يشبك الى القلعة ، تكلم
مع السلطان في ذلك ، فرسم باحضاره . فلما حضر
طلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ، وكان
معه ولده على ، فقام له السلطان ورحب به وخلع
عليه وعلى ولده . ونزل من القلعة في مركب حافل
ومعه الأمير يشبك الدواidar ، وتانى بك قرا وآخرون
من الأمراء . فنزل في داره التى بالجسر الأعظم عند
والدته .

وفى ثالث جمادى الأولى كان وفاء النيل ، وقد
أوفى في تاسع عشرى أيب القبطى ، وكسر في آخر
يوم من أيب ، فعبد ذلك من النوادر .

فلما وفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد
على العادة وكان يوما مشهودا . ثم بعد يومين زاد
النيل عشرين أصبعا فغلق الذراع السابعة عشرة
وست أصابع من الذراع الثامنة عشرة . فعبد ذلك
من النوادر .

وفيه خلع السلطان على ألماس الأشرفى وقرره في
شادية الشرابخاناه ، وقرر بيبرس الرحبى قريب
السلطان في استدارية الصحبة عوضا عن ألماس .

وفيه سافر السلطان الى ثغر الاسكندرية ، وهى
السفرة الثانية ، فتوجه من البحر فى عدة مراكب
كثيرة . وكان سبب توجه السلطان من البحر كثرة
ماء النيل فى طرقات البلدان . وكان معه من الأمراء
الأتابكى أزبك ، ويشبك الدواidar ، وخاير بك ابن
حديد ، وأزبك اليوسفى ، وآخرون من الأمراء
المقصدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات
والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية من
المماليك السلطانية . وكان معه من المباشرين القاضى

كتاب السر ابن مزهر ، وغيره من أعيان المباشرين .
 وكان الشهابي أحمد بن العيني ، وسيدى منصور بن
 الملك الظاهر خشتقدم ، وغير ذلك من الأعيان .
 وكان له ببولاق يوم مشهود عند نزوله الى
 البحر . وكان سفر السلطان الى الاسكندرية في
 هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك . وقد
 انتهى العمل منه فتوجه اليه ليرى هيئته . فلما
 دخل مدينة الاسكندرية لم يركب بها مثل أول
 مرة ، ولأجل القبة والطير على رأسه . فلما نزل
 بالمخيم مد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . ثم
 توجه الى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه
 هناك بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه
 بشعر الاسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من
 محاسن الزمان ، ومن أعظم الأبنية ، وأجل الآثار
 الحسنة . ومن نوادر أفعال الملوك كما قيل :

ليس الفتى يفتى يستضاء به

حتى يكون له في الأرض آثار

وقيل ان صفة بنيان هذا البرج ، أن دهليزه
 عقد على قناطر في البحر الملح ، من الساحل حتى
 ينتهى الى البرج ، وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطالا
 على البحر ينظر منه من مسيرة يوم الى المراكب
 وهى داخلة الى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعا
 بخطبة ، وطاحونا وفرننا وخواصل . وشحنها
 بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة
 بالمدافع ليلا ونهارا ، لئلا تطرق الاقربج الثغر على
 حين غفلة ، وجعل بها جماعة من المجاهدين قاطنين
 به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في
 كل شهر ، وجعل شادا من خواصه وهو باش
 عليهم ، يقال له قانصوه المحمدي الخاصكى ، وهو
 الذى تولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف
 بقانصوه البرجى . وقيل ان السلطان صرف على
 بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار ، وأوقف

عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار
 والمعروف .

ثم ان السلطان أقام بشعر الاسكندرية أياما
 ورحل عنها . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان دخل
 الى دسوق ، وزار سيدى ابراهيم الدسوقى ،
 وهو ماش وحوله الأمراء . واستمر السلطان غائبا
 في هذه السفرة الى أواخر الشهر المذكور .

وفيه توفيت خوند زينب والسدة الملك المؤيد
 أحمد ، وهى زوجة الأشرف اينال ، وكانت من
 أجل الخوندات قدرا ، ورأت في دولة زوجها
 الأشرف اينال غاية العز والعظمة ، حتى صارت
 تدبر أمور المملكة ، من ولاية وعزل . وكانت
 نافذة الكلمة وافرة الحرمة ... في سعة من المال ،
 ولم تتزوج غير الأشرف اينال ، ولم يتزوج هو
 أيضا غيرها . وصادرها الملك الظاهر خشتقدم غير
 ما مرة ، وأخذ منها جملة مال ، وهى باقية ، وعقد
 ناموسها لم يتغير الى أن ماتت . وقد جاوزت من
 العمر نحو الثمانين سنة . وهى زينب بنت حسن
 ابن خليل بن خاصبك ، لم يجرى بعدها في
 الخوندات مثلها . وكانت من مشاهير الخوندات ،
 وكانت اذا دخلت على الأشرف قايتباى يقوم لها
 ويعظمها . ولما ماتت لم يحضر جنازتها ، ولم
 يحضرها أحد من المقدمين ، غير تانى بك قرا .
 وسبب ذلك أن السلطان كان غائبا ، فلم يجسر أحد
 من الأمراء أن يجرى عند ولدها الملك المؤيد ،
 وبعد هذا ما سلم الأمر من القال والقال ، فحضر
 جنازتها قضاة القضاة ، وأعيان الدولة .

ثم في سلخ الشهر المذكور حضر السلطان من
 السفر في البحر أيضا ، وطلع من بولاق ، وكان له
 يوم مشهود . وقد عد سفره من النوادر ، وكونه
 توجه الى شعر الاسكندرية ، وترك الملك المؤيد
 بالقاهرة ، مع أن ممالك أبيه الأشرف اينال كانوا

في غاية التمرد ، ينتظرون وقوع الفتن . وظهر منهم في عيبة السلطان بعض حركة ، وانكشف رخ جماعة منهم في هذه الحركة ، ونفى فيما بعد منهم جماعة كثيرة كما سيأتي الكلام على ذلك .

وفي جمادى الآخرة أضاف السلطان الملك المؤيد ضيافة مافلة بالبحر ، وخلع عليه وعلى ولده ، وأذن لهم بالعود الى الاسكندرية ، وقدم الملك المؤيد للسلطان مقدمة حافلة من مال وتحف ، بسبب موجود والدته الذي خلفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على عشرين أصبعا وعشرين ذراعا ، فوافق ذاك مثل العام الماضي ، حتى عد من النواذر

وفي رجب سافر الملك المؤيد الى الاسكندرية وقد أقام بالقاهرة نحو شهرين الا أياما

وفيه ظهر للسلطان أن طائفة الاينالية فسدوا اثاره فتنة في غيبة السلطان ، فلما تحقق ذلك صار ينفي منهم جماعة بعد جماعة شيئا فشيئا تم نفى ملوكه برد بان سكر الخاصكى الى البلاد الشامية ، وكان قد نسب الى أشياء من هذه الاشاعة . وقد تعرت قلوب الأمراء بعداوة الأمير بشبك الدوادار . وقد أشيع أنه قد سم الأمير جانم قريب السلطان ، فانقطع شبك عن طلوع القلعة أياما ، وكثر الكلام في حقه بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على باى ميقي الذي كان كاشف الشرقية ، وفرره في نيابة سيسى عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقرر أزدمر في نيابة حماد عوضا عن قراجا الطويل الانالى ، بحكم صرفه عنها وسجنه بقاعة دمشق

وفيه رسم السلطان بنفى ستة أنصار منهم ثلاثة من طائفة الاينالية ، وهم أبو يزيد ، ومشد

وشاد بك ، كل منهم أمير عشرة . وثلاثة من الستة من مشترياته ، فتوجهوا بهم الى نحو البلاد الشامية ثم تتابع النفي بجماعة من الاينالية ، وكثر الكلام في ذلك حدا .

وفيه قرر في قضاء الحنفية بدمشق تاج الدين بن عرب شاه ، عوضا عن ابن عيد .

وفي شعبان رسم السلطان بنفى الطواشي معروف الشبكي شاد الحوش الى جهة قوص ، لأمر أوجب ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى قرا المحمدى الظاهري ، وقرره في حجوية الحجاب ، عوضا عن أزدمر الطويل بحكم نفيه . وقرر في شادية الحوش سرور السيفى بن جرباش كرت ، عوضا عن معروف الشبكي .

وفيه وصل قانصوه الألفى الذي كان قد توجه الى بلاد الجركس ، فأحضر معه عدة من أقارب السلطان ، فخلع عليه ، ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند مسجة أبى الفتح نائب جدة ، على يده هدية حافلة الى السلطان .

وفيه أنعم السلطان على قريب له بتقدمة ألف ، وهى مقدمة جانم الشريفى ناظر الجوالى . ثم بعد مدة أرسل له شاشا ، ورسم له بأن يلف تخفيفه ، وكذلك قانصوه خمسمائة ، فانه بقى دوادار ثانى وهو بكوفية بقدس .

وفيه توفى جانم السيفى تمر باى الزردكاش الكبير ، وكان أحد الأمراء الطبلخانة .

وفي رمضان احتفل صاحب خشدقم في مسامرة هائلة ، كان قرر في امرية الحاج بركب المحمل . وفر شاهين الجبالى في امرية الركب الأول . وكان

قرر بها أولا جانم الزردكاش الذي توفي . فكان
للساحب خشقدم يوم مشهود بتلك المسيرة .
وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحج
في السنة المذكورة ، فعمل هذه المسيرة بسبب
تشوق السلطان الى الحجاز .

وفيه خلع السلطان على مملوكه قنبردى أحد
الخاصكية ، وقرره في كشف الشرقية ، عوضا عن
على باى ميق ، الذى استقر في نيابة سييس . وقرر
اقبال الطويل في كشف الغربية .

وفيه قدم برد بك جبسن ، وكان منفيًا بالبلاد
الشامية ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان
باحضاره ، فحضر ورضى عليه .

وفيه توفي الشبكي الطواشى شاد الحوش ،
ومات وهو منفي بالواجات ، وجرى عليه ما لا خير
فيه ، وكان لا بأس به . غير أنه كان عنده تكبر في
نفسه وتعظيم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شاد بك الابراهيمي
الينالى ، وكان من الأمراء العشراوات ، فتغير
خاطر السلطان عليه ، ونفاه الى الشام ، فمات
بها .

وفيه رسم السلطان بنفى جاني بك الخشن
الينالى تاجر الممالك ، أحد الأمراء العشراوات ،
ونفى أبى زيد أربك الخاصكى الينالى . ونفى
تغرى برمش أحد الأمراء العشراوات ، والكل
ينالى ، وقد سقط نجمهم ، وبدا عكسهم . وصار
السلطان ينفى في كل شهر منهم جماعة في أماكن
شتى .

وفي شوال خلع السلطان على شبك الجمالى ،
وقرره في الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن جانم
السيفى تمر باى . وقد جمع شبك الجمالى بين
الحسبة والزردكاشية الكبرى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجميل زائد ،
وقد احتفل الأمير خشقدم ببرك عظيم بسبب
السلطان ، لسفره الى الحجاز ، فكان معه نحو
من مائتى جمل وخمسين جملا . وقيل ان السلطان
بعث اليه ثلاثين ألف دينار بسبب عمل هذا البرك .
وكان لخروج الساحب خشقدم يوم مشهود .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ،
مقدم الممالك — وكان يعرف بمثقال البرهانى —
فخرج منفيًا الى طرابلس . وكان هذا كله بسبب
خروج السلطان الى البلاد الشامية ، وتوقعه
هناك ، وقد ترايدت الأقوال بموته ، وحصل بين
الأمراء نقل كلام فيمن يلى من بعده السلطنة ،
وانكشف رخ جماعة من الينالية في هذه الحركة
ولم يعلم باطن الأمر في حقيقة ذلك . وصار
السلطان بنفى كل قليل جماعة من الينالية ، ومن
ممالكه ، واستمر الأمر على ذلك . فلما خرج
الحاج من القاهرة ورحل المحمل من بركة الحاج ،
نزل السلطان من القلعة في يوم الخميس ثالث
عشرى شوال ، ولم يشعر بسفره أحد من الناس .

وخرج على حين غفلة ، فسافر معه بعض أمراء
عشراوات ، منهم شبك الجمالى الزردكاش ،
وآخرون من الأمراء من أخصائه ، وعدة وافرة من
الخاصكية ، والممالك السلطانية ، وجماعة من
المباشرين ، منهم أبو البقاء بن الجيعان ، وغير
ذلك من الأعيان ، منهم برهان الدين الكركى
الامام . فخرج السلطان من بين التراب وسافر بعد
صلاة الظهر . فنزل معه الأتابكى أربك ، وشبك
الدوادر ، فودعاه ورجعا من أثناء الطريق ،
فأوصاهما السلطان بحفظ الرعية . ثم سافر على
ظهر البويب ، ولم يتوجه معه أحد من الأمراء
المقدمين ، فعد سفره على هذا الوجه من النوادر .

وفى ذى التعدة رسم الأمير يشبك الدوادار
ليشباك بن حيدر والى القاهرة ، بأن يتحدث فى
الحسبة ، عوضا عن يشبك الجهمالى بحكم سفره
مع السلطان . وكان الأمير يشبك الدوادار هو
المشار اليه فى غيبة السلطان .

وفيه شرع الأمير يشبك فى بناء القبة التى
أنشأها فى رأس دور الحسينية . وخرب عدة ترب
كانت هناك . ثم أنشأ بهذا المكان غيطانا ، ومجارى
وسواهى ، وقصد أن يجعله من جملة متزهات
القاهرة . ولو عاش لفعل ذلك فجاءت القبة من
محاسن البناء فى ذلك المكان .

وفى ذى الحجة كان انتهاء عمارة الربع الذى
أنشأه السلطان بحدرة الكبش . وكان الشاد على
العمارة نافق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .
وفيه قدم مبشر الحاج ، وهو شخص من
الخاصكية يقال له اسنباي ، وقد استمر اسمه
بالمبشر بعد ذلك . فأخبر بسلامة السلطان وأنه
دخل الى مكة ، فى موكب حافل ، وكان له يوم
مشهود ، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين ...
وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ،
وتواضع تواضعا وخضوعا الى الغاية . وكان بطول
الطريق لا يتكلم فى شئ يتعلق بالأحكام بين الناس
وفعل فى الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر
والمعروف ، فحصل لاسنباي المبشر جملة خلع ،
ومال له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن
خوند زوجة السلطان ، وغير ذلك من أرباب
الدولة .

وفيه جهز الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ،
وجماعة من الأمراء اقامات لملاقاة السلطان من
العقبة . وخرج الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء
المقدمين صحبة ذلك . وخرج معه جماعة كثيرة

من أرباب الدولة ، لملاقاة السلطان من العقبة .
واهتم الأمير يشبك الدوادار بيباض أماكن بالقلمة
ودهان أبوابها ، وضرب الرنوك عليها ، وجلا
واجهة القصر الأبلق ، وما يليه ، حتى ظهر رخامه
الملون ، وقد احتفل فى اصلاح ذلك جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بك بن حسن
الطويل ، ملك العراقين — وكان أكبر أولاد حسن
الطويل — ثار عليه بعض الأمراء فقتله . ولما مات
ولى بعده أخوه يعقوب ، وكان من خيار بني
حسن الطويل ... وتوفى تانى بك الأشقر المحمدي
البواب أحد الأمراء العشراوات ، وكان كاشف
المنوفية .

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠ م) :
فيها ، فى المحرم بعث السلطان نجابا الى الأمراء
وأخبر النجائب بأن السلطان دخل الى المدينة
الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ،
وزار النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنعم على
الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل
نحو الينبع قاصدا للعقبة . ثم رحل عنها وهو
واصل عن قريب ، ثم رسم لهم ألا يخرج الى
ملاقاته أحد من الأمراء . وان السلطان ينزل بقبة
الأمير يشبك التى بالمطرية . فبادر الأمراء
بالخروج الى هناك ونصبوا الخيام . ثم جاءت
الأخبار بأن السلطان قد وصل الى البسويب ،
فلما تحقق الأمراء ذلك ، ركب الأتابكى
أزبك ، والأمير يشبك الدوادار ، وبقية الأمراء ،
من المطرية وتوجهوا الى ملاقات السلطان . فلما
وصلوا الى البسويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا
قدامه حتى وصل الى الوطاق الذى بالمطرية . وكان
له هناك موكب حافل . وكان دخوله فى ثانى
عشر المحرم ، قبل دخول الحاج بشاية أيام ، فلما
نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكى

هناك مدة حافلة جدا ، وبات السلطان هناك ، وبات
عنده قضاة القضاة ، ومشايخ العلم ، وهنثوه
بقدمه .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ، ركب السلطان
من هناك وحمل الأتابكي أزيك على رأسه القبة
والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر ، وهم
موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة
الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من
القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا
الموكب العظيم . وطلب طلبا حافلا ولعبوا قدامه
بالغواشي الذهب . وكان له يوم مشهود الى أن
طلع الى القلعة ... فلما طلع فرشت له خوند عدة
شقق من باب القلعة الى الحوش ، وثرت على رأسه
خفاف الذهب والفضة ، وتوشحت الخدام بالبند
الذهب والحريير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران . فلما
دخل السلطان الى الحوش ، مد له هناك الأمير
يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزيك التي
مدها له بالقبة . ثم ان السلطان خلع على من كان
معه من أرباب الوظائف ، ونزلوا الى بيوتهم ،
وانفض ذلك الموكب . وعدت هذه الحجة من
الواد الغريبة ... ودخل عليه جملة تقادم من مال
وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة المشرفة
وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك . وقد نظم
الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان

من حجه المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف الرا

قى سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه ، في نعمة

وسلامة ، فرض على الأعيان

ولقد علمنا أن طاعة أمره

أو نهيه دين من الايمان

لما نوى حجا ولبي محسرا
عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في آياتها والدوح في
انباتها والطير في الطسيران

ثم الصلاة على النبي المصطفى

عدد الرمال بجملة الكتيان

فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة
الهدية على الأمراء . فابتدأ بالأتابكي أزيك ثم بقية
الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب
الدولة . وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان
أيضا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير
ذلك .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحمدت سيرة
الصاحب خشقدم الزمام .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى القرافة فزار ورجع
من جهة مصر العتيقة ، وطلع من جهة قناطر السباع ،
وأتى الى الكباش فكشف عن عمارته التي أنشأها
هناك . ثم طلع الى القلعة من جهة الصليبة وكشف
عن عمارة سييله الذي أنشأه برأس سويقة
عبد المنعم التي بالرميلة . وكان الشاد على عمارته
قاني بك قرا أحد المقدمين ثم طلع من باب السلسلة
الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قراجا الطويل الينالى ،
الذى كان نائب حماء ، ومات بطالا بالقدس ، وكان
لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان قانم الأشرفى الذى كان
كاشف الشرقية ، فضرب بين يديه ورسم بنيه الى
طرسوس .

وفي صفر قرر خالص التسكرورى الطواشى في
تقدمة المماليك ، عوضا عن مثقال البرهاني . وقرر
سرور الشامى نائب المقدم عوضا عن خالص .

وفيه قدم تراز التمشى رأس نوبة النوب من

البحيرة . وقد أتى لينىء السلطان بعوده من الحجاز .

وفيه جاءت الأخبار بوفوع فتنة كبيرة بحماه ، وقتل فيها نائب حماد أزدمر بن أزبك قريب لسلطان . وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل ، كان قد خرج عن الطاعة ، فحاربه أزدمر نائب حماه المتقدم ذكره ، فقتل فى المعركة ، وقتل معه جماع من أمراء حماه . فانزعج السلطان لهذا الخبر جدا .

وفى ربيع الاول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة وكان حافلا . وما وقع فى ذلك اليوم أن لسلطان لما تكامل المجلس بالقضاة الأربعة ، والأمراء . وانتهى أمر السباط . حضر كاتب السر ابن مزهر . وأبو البقاء بن الجيعان ، وخشقدم الزمام . وخلفهم ستة أطباق على رؤوس ستة ملوашية . فجلست بين يدى السلطان بحضرة القضاة والأمراء . وكشفوا عنها فإذا هى ستون ألف دينار ذهب عىن . فآخذ كاتب السر يقول فى المجلس العام أن السلطان نصره الله تعالى لما حج فى العام الماضى ، رأى أهل المدينة المشرفة فى فاقة زائدة من عدم الأوقاف . فذكر مولانا السلطان بأن يفعل بالمدينة الشريفه خيرا يكون مستورا من بعده . وقد خرج عن هذا المال لله تعالى وهو من وجه حل ، من خالص ماله دون ما لبيت المسلمين . ليشتري به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع ، وأماكن وربوع ، وغير ذلك . مما يصنع فى كل يوم من الدشيشة والخبز والزيت . وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . فارتفعت له الأصوات بالدعاء فى ذلك المجلس ، ثم أمر السلطان أن يكون هذا المال تحت يد قاضى القضاة الشافعى ، حتى يشتري به أماكن أو ضياعا . فامتنع القاضى من ذلك ، واختار عن تسليمه ، حتى أغنى من ذلك .

ثم شرع السلطان فى بناء تلك الربوع التى أنشأها فى باب النصر ، وفى البندقانيين والخشابين والدجاجين وغير ذلك من الأماكن .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك ، فلما عاد وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمسور الحسبة بأنها ضائعة ، وأنه من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين . فلما طلع الى القلعة وأصبح ، رسم للصاحب قاسم شغيته بأن يتكلم فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجسالى . وكان لما تولى الزردكاشية أهمل أمر الحسبة ، وضاعت المصالح فى أمور البضائع وغيرها ، وسعر الغلال ، ووقع بالقاهرة تشحيطة فى الخبز فى تلك الأيام ، وكادت أن تكون غلوة .

وفيه عين السلطان الأمير يشبك الدوادار للخروج الى حماه ، بسبب قتال سيف أمير آل فضل الذى قتل أزدمر نائب حماه ، كما تقدم ذكر ذلك ... وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يشبك ، ولم يعد منها الى مصر ، وعين معه من الأمراء المقدمين برسباى قرا ، وتانى بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة وافرة من الجند . وقد لهج الناس بأن هذه التجريدة خرجت الى سيف ، وكان الأمر كذلك . وراح أكثر الأمراء والعسكر على السيف كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تنطقن بسا كرهت فربما

نطق اللسان بحداث سيكون

وقال آخر :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

وكان الأمير يشبك له غرض تام فى السفر الى دار بكر . وقد سأل السلطان فى ذلك بنفسه .

والسبب في ذلك أن الأمير يشبك كان قد وقع بينه وبين جلایان السلطان بسبب جانم الشريفی ، وقد اتهم به أنه شغله ، فصار معهم في تهديد وقصدوا قتله غير ما مرة ، فحسن له بعض الأعاجم أن مسلکة حسن الطویل سائبة ، وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربته لا يقدر على محاربتك ويسلبونك مسلکة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يشبك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شيء سبيبا ، لنفوذ القضاء والقدر كما قيل في المعنى :

أتقطع من ليلي بوصل وانما

تقطع أعناق الرجال المطامع

فلما عين السلطان الأمراء ، وعرض من بعد ذلك الجند ، وكتب منهم نحو من خمسمائة مملوك ، وكان الأكثر منهم من طائفة الاينالية ، فلما عرضهم أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يشبك . فبلغت النفقة عليهم في هذه الحركة زيادة عن المائة ألف دينار .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى بردی ططر أحد المقدمين ، وقرره أمير المحمل ، وقرر يشبك بن حيدر والي القاهرة أمير أول .

وفيه توفي الشهيد الشريف زين العابدين ، وهو محمد بن محمد بن علي بن علي بن حسين القرشي الهاشمي السنجاري الحنبلي ، وكان رئيسا حشما في سعة من المال ، كثير التواضع ، حسن الملتقى .

وفيه خلع السلطان على قانصوه دوادار الأمير يشبك ، وجعله متحدثا في الاستادارية الى أن يعود أستاذة . فاستغنى من ذلك وأظهر السفر صحبة أستاذة .

وفيه قرر جانم دوادار الأمير يشبك في كشف أسيوط ، عوضا عن قرقماس الأعور ، فاستغنى

جانم من ذلك ، واستقر بها سيباي ، وطلب قرقماس السفر صحبة يشبك .

وفيه في سلخه كانت وفاة شيخ مذهب الشافعية بصير الشيخ سراج الدين عمر بن حسن بن حسين العبادي الشافعي . وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، مفتيا ، وصار أحفظ أهل زمانه بمذهبه بمصر ، منطرح النفس جدا . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الأحباس ، ومشيخة خاتناه سعيد السعداء ، وغير ذلك من الوظائف . ومولده سنة احدى وثلاثمائة .

وفيه نادي السلطان بأن معاملة الفضة بالميزان وكانت قد خفت جدا .

وفي ربيع الآخر خرج الأمير يشبك الدوادار الى التجريدة من غير طلب لذلك ، وكان عليه خدمة زائدة ، فتفأل الناس أنه لا يعود الى مصر أبدا ، وكذا جرى ، وكان الناس يقولون خرج لسيف ، وكان هذا فألا عليه

وفيه قرر السلطان جانم الأعرج السيفي جانم بك نائب جدة في نيابة حماه ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان .

وفيه برز أمر السلطان الى سيباي كاشف الوجه القبلي ، بأن يقطع رأس أزدمر الطويل الاينالي . وكان نفى الى مكة المشرفة ، ثم بعد مدة نقل الى أسيوط ، وسجن . وكان بينه وبين الأمير يشبك عداوة . وقصد أزدمر قتل يشبك غير ما مرة ، بل وقتل السلطان أيضا . فلما برز الأمير يشبك بالريداية للتجريدة ، أرسل يشبك يقول للسلطان : « ما أرحل من هنا حتى تقطع رأس أزدمر الطويل ، وتجيء الى » . وتأخر أياما ينتظر ذلك ، فأرسل السلطان يوسف السوام الذي كان والي قوص ،

الى سيباي كاشف الوجه القبلى ، بقطع رأس
أزدر الطويل ، فتوجه فى الخفية الى أسيوط ،
وعلى يده مرسوم السلطان الى سيباي ، بقطع
رأس أزدر ، فقطع رأسه بأسيوط ، ووضعت فى
علبة ، وأحضرت بين يدى السلطان ، فنظر اليها ثم
أرسلها الى الأمير يشبك فنظر اليها ، وكتب هذا
الأمر عن الناس ، وما خفى بل اشتهر من يومه .
وكان أزدر هذا من أعيان الاينالية شجاعا ، بطالا
مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية .

ثم ان الأمير يشبك رحل من الريدانية . وقد
نال قصده من أزدر . ثم قطع رأس الأمير يشبك
بعد ذلك بسدة يسيرة والمجازاة من جنس العسل .
وفيه توفى برد بك التاجى الأشرفى أحد
العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه تغير خاطر السلطان على قاضى التضاة
الشافعية ولى الدين الأسيوطى ، وعلى قاضى قضاة
الحنابلة بدر الدين السعدى ، فعزل القاضى
الشافعى ورسم بنفى القاضى الحنبلى الى قوص .
ولم يكن ثم أمر كبير يستحق هذه الكائنة ، بل
ما نكب القاضى الشافعى الا بسبب تركه انسان ،
والقاضى الحنبلى بسبب كتاب وقف ، ونحو ذلك .
واستمر أمرهما فى اضطراب مدة أيام ، وتكلسوا مع
السلطان فيمن يلى قضاء الشافعية وقضاء الحنبلية .
وكتب قائمة بأسماء جماعة من طائفتى المذهبين ،
ثم عاد الأمر الى أعادتهما الى ما كانا عليه بشفاعة
الأتابكى أزبك ، فخلع على القاضيين ، ونزلا الى
دورهما وكان لهما يوم مشهود .

وفى جمادى الأولى توفى القاضى شرف الدين
يحيى ابن الجيعان . مسنوف ديوان الجيش ، وهو
يحيى بن شاكز بن عبد الغنى الشافعى ، وكان عالما
فاضلا رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم والفرائض .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى تاج الدين
ابن المقسى ناظر الخاص كان ، فرسم بتسميره ،
فسمر على جمل ، وطيف به فى القاهرة ، وتوجهوا
به الى قنطرة الحاجب ليوسطوه هناك . وكانت
هيئته وهو مسمر على الجمل أنه على رأسه عمامة
صغيرة ، وهو لابس كبر أبيض . فلما وصل هناك
وقعت فيه شفاعاة ، فعادوا به وقد أركبوه على
فرس ، وفرح الناس بسلامته .

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بشنق تاج
الدين بن المقسى ، بعد أن عفى عنه ، فتوجهوا به
الى غيط الحاجب ، فشنتوه على جسيمة هناك .
وشنق معه فى ذلك اليوم قاسم بن بقر أمير عربان
جذام بالشرقية ، وكان لهما يوم مشهود . وكان
اسمه عبد الله بن نصر الله القبطى ، وكان رئيسا
حشما كيسا حسن الهيئة ، لطيف الذات ، وولى
عدة وظائف سنية ، منها كتابة الممالك ونظر الدولة
ونظر الجيش ، ونظر الخاص والأستادارية ، وغير
ذلك من الوظائف . ومات وهو فى عشر الحسين
وكرر عليه الحزن من الناس . وقاسى فى أواخر عمره
أهوالا وشدائد ومحن ، وضرب بالمقارع فى يوم
شديد البرد ، وآخر عمره شنق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى
أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه نزل السلطان فى موكب وتوجه نحو
قليوب ، ثم طاب له رؤية البحر ، فأقلع من هناك
وتوجه الى الوجه القبلى ، حتى وصل الى نحو
طنبدا ، ثم عاد الى القلعة .

وفى رجب جاءت الأخبار بقتل سيباي العلانى

الأيثالي ، كاشف الوجه القبلي ، قتله بعض العرب
بخنجر في بطنه وهو راقد على فراشه . وكان شابا
حسنا شجاعا بطالا ، من خيار الأيثالية . وهو الذي
قطع رأس أزدمر الطويل ، فكان بينه وبين قتل
أزدمر الطويل شهران وبعض أيام .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة برهان
الدين إبراهيم بن عمر بن حسن بن علي بن أبي
بكر الحرباذي البقاعي الدمشقي الشافعي ، وكان
علما فاضلا محدثا ماهرا في الحديث ، ليس من
مساويه سوى حظه على الشيخ عمر بن الفارض
رحمه الله ورضي عنه . فلما قامت الدائرة بسبب
ابن الفارض ، توجه الى دمشق فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار
لما دخل الى الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه
اليحياوي وتوجه الى حلب ، وأن قاني بك صلق
توفي بحلب ، وكان صحبة الأمير يشبك . وكان
قاني بك صلق أصله من مماليك شادبك الحكمي ،
وارتقى حتى بقى أمير طبلخاناه ورأس نوبة ، وكان
لا بأس به ، ورأى غاية العز في دولة الأشرف
قايتباي .

وفي شعبان كان انتهاء القناطر التي بالجيزة .
وخلع السلطان على الأتابكي أزبك بسبب كونه
كان شادا على العمارة ، فجاءت من آثار الملوك .
وقيل ان السلطان صرف على هذه القناطر نحو
من مائة ألف دينار .

وفيه توفي مجد الدين بن الكوين ، وهو محمد
ابن سليمان بن عبد الرحمن بن داود بن خليل
الشوبكي ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة
وظائف سنية ، منها معلم المعلمين ، ونظر الخاص ،
وغير ذلك . ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

وفي رمضان كان ختم البخاري بالقلعة ، وفرقت
الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم . وكان
قاري الحديث الشريف برهان الدين بن الكركي
امام السلطان ، فخلع عليه . ونزل من القلعة في
جمع حافل .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة الإمام الشافعي
رحمة الله عليه ورضي عنه ، وكان الشاد على
عمارتهما الخواجا شمس الدين بن الزمن .

وفيه كانت وفاة قاضي القضاة الحنفي شمس
الدين الأمشاطي محمد بن محمد بن أحمد بن
حسن بن اسماعيل بن يعقوب العينتابي الكحكاوي
الحنفي . وكان علما فاضلا بارعا في علوم مذهبه ،
وافر العقل ، فكه المحاضرة ، وكان ناب في القضاء
مدة طويلة ، ثم تولى القضاء الأكبر ، وباشره بعفة
زائدة وحرمة وافرة ، وحسنت سيرته ، وامتناز على
غيره من قضاة عصره ، وصمم على عدم حل
الأوقاف في أيامه ، وجمع بين القضاء ومشيخة
البرقوقية ، وكان نادرة في عصره . فلما توفي
الأمشاطي تكلموا مع السلطان في القضاء
عوضا عن الأمشاطي ، فلم يوافق على أحد يوليه
من أهل مصر . ثم أرسل خلف شخص من الشام
يقال له شرف الدين موسى بن عيد ، ليلي القضاء ،
واستمر منصب قضاء الحنفية شاغرا الى أن حضر
ابن عيد .

وفي شوال جاءت الأخبار من الرها بوقوع
كائنة عظيمة طامة ، قتل فيها الأمير يشبك
الدوادار ، وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر
منهم . وكان سبب ذلك : أن الأمير يشبك لما دخل
الى حلب ، كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب
ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامي
والحلبى والمصرى ، وغير ذلك من العساكر ... فلما

استقر بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذي خرج بسببه قد فر ، وتوجه الى نحو الرها ، فقوى عزم الأمير يشبك بأن يعدي من الفرات ، ويتبع سيفاً في أي مكان كان فيه . فكان كما قيل في المعنى :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان يدرى

فعدي من الفرات ، هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف انسان . فلما عدي توجه الى نحو الرها ، وكان المتولى أمرها يومئذ شخص يقال له بابندر ، أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل ، فحاصر الأمير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل بابندر يتطلف بالأمير يشبك ، ويقول له : « ضمان مسك سيف علي » . وأرسل يقول له : « ارحل من الرها ، وأنا أجمع لك من المدينة مالا له صورة » . فأبى الأمير يشبك من ذلك ، لما رأى من كثرة العساكر التي كانت معه . فطمعت آماله في أخذ مدينة الرها ، ويزحف بعد ذلك على ملك العراق ، كما حسنوا له ذلك . فزعم النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز بابندر ومن معه من العسكر ، وتحارب معهم ، فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وقد انكسر عسكر مصر قاطبة ، وبقية العساكر قاطبة ، فأمر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه ، فأتوا به الى بابندر ، وأسروا نائب الشام قانصوه اليحياوي ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماه جاثم الجداوي ، وقتل برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وأسر برسباي قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشراوات ، ومن أمراء الشام وحلب ما لا يحصى ، وقتل من العساكر التي كانت مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم ، وكانت حوافر الخيل لا تظأ الا على جثث القتلى

من العسكر . فكان من قتل من أعيان العسكر . برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وهو برد بك المعمار السيفي جرباش كرت ، وجاني باي أخو سيباي أحد الأمراء العشراوات ، وجاني باي أخو تاني بك قرا ، وسوازار الأشقر الأشرفي ، وكان علامة في الرمي بالشباب ، وطقطمش الخشقدمي أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الاينالي أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب ، وقرقساس المحمدي الظاهري ، أحد العشراوات ورءوس النوب . وأما الذي قتل من الخاصكية والماليك السلطانية ، فما ضبط لكثرتهم . وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم . وكانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر .

وأما ما كان من أمر يشبك الدوادار فانه أقام في الأسر نحو ثلاثة أيام ، ثم في اليوم الرابع بعث اليه بعبد أسود من عبيد التركمان قطع رأسه تحت الليل ، وأحضرها بين يدي بابندر . وقيل انه حز رأسه بالسيف عدة مرار وهي لا تنقطع فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب . فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهي مرمية على قارعة الطريق ، وعورته مكشوفة ، حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض . فسبحان من يعز ويذل ، وييده كل شيء وهو على كل شيء قدير . وقيل في المعنى :

ما أعجب الدهر في قلبه

والدهر لا تنقضي عجائبه

فكم أرانا الدهر من أسد

بالت على رأسه ثعالبه

فلما قطعت رأس الأمير يشبك بعث بها بابندر الى بلاد العجم ، عند يعقوب بن حسن الطويل ،

فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين ، وطاقوا بها بلاد العجم ، وهى على رمح ، وألبسوا رأس الأمير يشبك تخفيته الكبيرة لما طافوا بها ، وطاقوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم فى قيود وجنازير ، والمماليك الذين أسروا مشاة . وأرسل بابندر الى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من العسكر من مال وخيول وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة . وكانت قنلة الأمير يشبك فى العشر الأخير من رمضان سنة خمس وثمانين وثمانمائة بالرها ... وكان الأمير يشبك أميراً جليلاً معظماً فى سعة من المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتريات الظاهر جقمق . وكان يعرف بيشبك بن مهدى ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، حتى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية ، منها الدوايرية الكبرى ، وامرية سلاح ، والوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وغير ذلك . فعظم أمره جداً ، ووقع له أشياء غريبة ، لم تقع لغيره من أبناء جنسه فى عصره . ومات وله من العمر نحو من ست وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلاً . وكان صفته أبيض اللون مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملئ الجسد . وأنشأ أشياء كثيرة من العمار بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ودور جليلة وصهاريج ومغسل وأسبله وزوايا . وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة برأس الحسينية ، وكان له فى كل سنة عدة شقائف محملة على جمال ومعها الزاد والماء تلاقى الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج . وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر

والمعروف . وكانت له محاسن ومساو ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج فى هذه التجربة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرها . وكان الأمير يشبك باغياً على بابندر ، فانه قصد محاربته من غير سبب ، ولا موجب لذلك ، فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان فى وكره

يوماً فلا يأمن من لسعته

وقد نهى بعض الحكماء عن التوجه الى بلاد الشرق من غير حاجة فقال :

إذا شئت أن تلقى دليلاً الى الهدى

لتقفو آثار الهداية من كافى

فخل بلاد الشرق عنك فانها

بلاد بلا دال وشرق بلا قاف

ولكن قدر فى الأزل بأن قبض الأمير يشبك يكون بالرها ، فسبب له الأسباب لذلك . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له اليها حاجة » .

ومن النكت اللطيفة ، ما روى فى بعض الأخبار : أن ملك الموت زار سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر الى رجل من جلسائه ، ويطل النظر . فقال الرجل لسليمان عليه السلام : « ومن هذا الرجل الذى يطل الى النظر ؟ » ، فقال سليمان عليه السلام : « هذا ملك الموت عليه السلام » . واضطرب الرجل وقال : « يابى الله أقسمت عليك بالله تعالى الا ما أمرت الريح تحملى من هنا وتلقينى خلف جبل قاف » . فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ذلك الرجل ، وتلقيه خلف جبل قاف . فلما حملته الريح الى هناك ، قال سليمان بعد ذلك لملك الموت : « لماذا

كنت تطيل النظر في الرجل الذي كان جالسا عندي . فقال ملك الموت عليه السلام : « كان نظري الى هذا الرجل تعجبا منه ، لأنني أمرت بقبض روحه خلف جبل قاف ، وقد وجدته بحضرتك ، فصرت متعجبا من ذلك » . فلما مضى الرجل خلف جبل قاف ، قبض ملك الموت عليه السلام روحه هناك كما أمر . وهذا مصداق للحديث الشريف .

فكان قبض الأمير يشبك بالرها . فلما ورد هذا الخبر الى السلطان ، اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة عن آخرها ، وكان يوما مهولا . ثم أشيع بين الناس أن الأمير يشبك في الحياة ، وهو في الأسر عند باندرد . وقيل انه فر بنفسه وهو مختلف عند بعض التركمان . واختلفت الأقوال في أمره ، وصارت دكة النقباء على يابه بعد قتله مدة طويلة ، ونظامه باق على حاله ، ووقع الشك في حقيقة قتله . ثم أشيع بين الناس أن السلطان قصد السفر الى حلب بنفسه ، ويقيم بها ، خوفا من عسكر يعقوب بن حسن ، أن يطرق بلاد حلب والشام . فان النواب قاطبة كانوا في الأسر عند يعقوب بن حسن .

ثم ان السلطان عين الأتابكي أزيك الى حلب ، وعين معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه ، وأقره في نيابة حلب ، عوضا عن أزدمر . وعين من الأمراء العشراوات ، والطبلخانات ، عدة وافرة . منهم : جاني بك حبيب أمير آخور ثاني ، وآخرين من الأمراء . ثم عرض الجند ، وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب . ولولا فعله ذلك لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكي أزيك من القاهرة هو والعسكر في تجميل زائد ، وكان لهم يوم

مشهود . وفوض السلطان أمر البلاد الشامية والحلبية للأتابكي أزيك ، وجعل له التكلم في أمور المملكة من ولاية وعزل . ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل اليه السلطان ، وودعه وجلس عنده ، واشتورا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم ان الأتابكي أزيك سافر .

وفيه عين السلطان تراز التشي قريه لنيابة الشام . فامتنع من ذلك ، وادعى الفقر وعدم البرق ، فوبخه السلطان بالكلام . فحنق منه تراز ونزل الى داره وأغلق يابه ، ولم يجتمع بأحد من الناس ، وصرف نقباءه عن يابه . وكثر القال والقليل في ذلك . فأرسل السلطان يقول له توجه الى مكة وأقم بها بطلا . واستمر في هذه الحركة أياما وهو في اضطراب ، والسلطان يستحثه في سرعة الخروج الى مكة . ثم ان الأتابكي أزيك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع الى القلعة ، وقابل السلطان ، فخلع عليه ونزل الى داره في موكب حفل ، وقد زال ما بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام . ثم تحول أمر نيابة الشام الى قجماس الاسحاقى أمير آخور كبير ، فخلع عليه وقرره في نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم أسره .

وفيه عقب ذلك وقف الأمير خاير بك بن حديد الى السلطان ، وسأله في اقطاع الأمير يشبك الدوا دار . فتر فيه السلطان ، فنزل الى داره مغضبا ، وأغلق يابه ، وصرف غلمانه ، وامتنع من الاجتماع بالناس ، وتكلم بكلمات كثيرة في حق السلطان . وكان الأمير خاير بك صعب المراس ، شديد الخلق قوى الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك بعث باحضاره فاخفى خاير بك ، وخرج من داره وهو لابس جبة صوف أبيض ، وتعم بمئزر صوف أبيض ، وأخذ بيده سبحة ،

أحد الأمراء المتقدمين ، وأمير الركب الأول شبك
ابن حيدر والى القاهرة .

وفى ذى القعدة وصلت جثة الأمير شبك
الدوادر من الرها ، وهى فى سحلية ، وهى جثة
بغير رأس ، فوقع الشك فيها هل هى جثته ، أم
لا . فوجدوا بها أمارات تدل على أنها جثته .
فكفنها ودفنوها فى تربته التى أنشأها عند زاوية
كهنبوش . وتحقق موته وانقطعت الاشاعات بأن
فى قيد الحياة . وحضر صحبة جثته قانصو
دواداره وأخبر بحقيقة موته ، وكيفية أم
الواقعة ، ومن أسر من الأمراء . وأخبر بقتل قائم
قريب السلطان ، الذى كان أتابك العساكر بحلب
قتل على ماردين من جملة من قتل من العسكر
وكان شجاعا بطلا لا بأس به . فلما ثبت مو
يشبك زال أمره كأنه لم يكن .

وفيه وصل شرف الدين بن عيد الدمشقي
الذى تقدم ذكره . فلما طلع الى القلعة خلع عا
السلطان ، وأقره فى قضاء الخفية ، عوضا
الأمشاطى .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على تغرى
بن بلباي الظاهري ، خازن دار شبك الدواحد
وقرره فى الاستادارية ، عوضا عن مجد
ابن البقرى . ورسم السلطان على مجد
ليقيم الحساب . وكان فى ذلك دماره .

وفيه توفى دولات باى بطيخ الأبورى
المؤيدى ، أحد العشراوات ورءوس النوب ،
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بقتل محم
حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب .
من أخصاء السلطان ، ثار عليه أهل حلب .

وادعى انه قد ترك الدنيا وبقي فقيرا مجردا ،
وتوجه الى جامع قيدان ، الذى بقناطر الأوز .
وكان أنشأ به جوستقا مطلا على البركة التى هناك ،
فأقام به أياما . فلما بلغ الأمير تراز ذلك توجه اليه ،
وتلطف به فى عوده الى داره ، فلم يوافق على
ذلك ، واستمر مصمما على عدم عوده . وبقي
هناك أياما .

ثم ان السلطان أرسل اليه قانصو خسمائة ،
وشبكه فى الحديد ، وطلع به الى القلعة وهو
ماش . فلما مثل بين يديه ، وبخه بالكلام ، وقصد
أن يفتك به ، ثم آل أمره من بعد ذلك الى أن
أخرجه منفىا الى دمشق ، صحبة الأتابكى أزبك ،
لما خرج الى التجريدة المقدم ذكرها . فسجن
هناك ، وجرى عليه شدائد ومجن الى الغاية ،
واستمر منفىا الى أن مات بمكة المشرفة كما
سيأتى الكلام على ذلك . وكان خاير بك من
أخصاء السلطان ، وكان من أكبر أصحابه ، من
حين كان السلطان خاصكيا ، فاقبل عليه كأنه لم
يعرفه قط . فكان كما يقال : « ثلاث لا يؤمن
اليهم : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا ، والمرأة
وان طالت صحبتها » .

وفيه طلع الأمير لاجين الظاهري الى السلطان ،
واستغنى من أمرية مجلس ، وذكر للسلطان أنه
قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة . فأعفاه
السلطان من ذلك ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر
طرخانا الى أن مات .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين بن
الأخميمى الحنفى ، أحد أئمة السلطان ، وقرره
فى مشيخة البرقوقية ، عوضا عن قاضى القضاة
الامشاطى .

وفيه خرج المحمل فى تجميل زائد من القاهرة ،
وكان أمير الركب بالمحمل ، تغرى بردى طر ،

مظالم أحدثها بحلب ، قتلته العامة . وقتل فرج ابن أغلب ، خاجب الحجاب بحلب . وكان رئيسا حششا من أعيان أهل حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه مات مشنوقا شيخ عربان الشرقية قاسم ابن بيسرس بن بقر ، وكان من خيار بني بقر . وتوفي أبو بكر جركس مقدم البريدية وأحد الحجاب بمصر ، وكان رئيسا حششا لا بأس به .

سنة ست وثمانين وثمانمائة (١٤٨١ م) :

وفيها : في رابع المحرم ، خلع السلطان على أقبردى بن على باى قريبه ، أحد المتقدمين ، وقرره في الدوايرية الكبرى ، عوضا عن يشبك بن مهدي بحكم قتله في الرها . فنزل من القلعة في موكب حافل ، وسكن في دار الأمير يشبك ، ورسم له السلطان بجميع ما كان في بيت الأمير يشبك . فجاءت إليه السعادة من قماش وأوان وخيول وبرك ، وهو لا يشمر بها ، فسبحان المعنى الكريم وهو على كل شيء قدير . وقد قيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفيه خلع السلطان على ألماس ، وقرره في نيابة صفد فخرج عن قريب ، وخرج صحبته ثاني بك الجمالى أحد المتقدمين الى حلب ، عونى للأتابكى أزيك ، فطلب وخرج ، وكان له يوم مشهود . وفيه ثارت ريح عاصفة ، وثار فيها غبار أصفر يأخذ بالأنفاس ، واستمر من قبل الزوال الى نصف الليل .

وفيه ، في سابع عشره ، كانت زلزلة عظيمة بمصر والقاهرة ، ماجت الأرض وتحركت الموادن ومالت ، وسع للأرض دوى كدوى الرحى . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ، واستمرت نحو

ثلاث درج وهى في اضطراب ، حتى دهشت منها الناس ، وخرجت النساء من الحمامات والبيوت وهن حاسرات عن وجوههن . وحصل للناس غاية الرعب ، ومات من هذه الزلزلة قاضى القضاة شرف الدين بن عبيد الحنفى ، وكان جالسا بإيوان المدرسة الصالحية ، فقام حين وقعت الزلزلة ، فقطع عليه ساقط من أعلى الأيوان ، فمات لوقته . وكان عالما فاضلا دينيا خيرا بعث السلطان خلفه من دمشق الى مصر ، وولاه قضاء الحنفية ، فأقام بها ثمانية وخمسين يوما ، ومات بهذا السبب . وكان أصله من عجلان ، وهو موسى بن أحمد بن عبيد الدمشقى الحنفى ، وكان تولى قضاء دمشق ، ثم طلب وتولى قضاء مصر ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة . فلما أخرجت جنازته نزل السلطان ، وصلى عليه ، ودفن بالصحرى .

وتوفي من الزلزلة عقيب ذلك الزينى أبو بكر بن القاضى عبيد الباسط ، ناظر الجيش كان ، وكان رئيسا حششا نادرة في أبناء الزمان ، ذا شهامة وعظمة ، وكان من أخصاء السلطان ، وكان عليلا فسات مرجوفا من الزلزلة حين ماج به البيت . وكان في سعة من المال والقماش والبرك ، وولى من الوظائف ناظر الجوالى ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن طراباى ، المعروف بحسناة الأشرفى ، وقرره في امرة الآخورية الكبرى ، عوضا عن قنجاس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وكان قانصوه يومئذ شابا بدا عذاره ، وولى الدوايرية ، وهو لابس الكوفية القندس . فلما بقى أمير آخور كبير ، بعث له السلطان بشاش فلف له تخفيفة كبيرة ، وكان حين لبس الدوايرية الثانية ، قبل أن يلبس أقبردى التقدمة ، والأمير آخورية الكبرى بعد

التي بالمطرية . وتوجه قاضى القضاة الشافعى
وخطب به هناك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة
إينال الأسحاقى الظاهرى ، أحد العشاوات ،
وشيوخ الحرم الشريف النبوى . وكان انسانا حسنا
خيرا دينا وله اشتغال بالعلم ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس
الدين العزى بن المغربى وقرره فى قضاء الحنفية
عوضا عن ابن عيد ، ولم يكن هذا العزى أهلا
لولاية قضاء الحنفية ودلس على السلطان أمره .
وكان الساعى له فى هذه الوظيفة تغرى بردى
الاستادار ، ويعقوب شاه المهندار ، وقد عز ذلك
على جماعة من الحنفية ، وكان فيهم يومئذ من هو
أولى بذلك من العزى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكى
أزبك لما وصل الى حلب وجد أمر الفتنة التى
وقعت بين عسكر مصر وبين بابندر ، قد سكن
أمرها ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه
ما فعله بابندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ،
ولامه على ذلك . ثم ان الأتابكى أزبك أرسل جاني
بك حبيب قاصدا الى يعقوب بن حسن ، فتلفظ به فى
الكلام ، وكان الأمير جاني بك حبيب سيوسا دربا ،
حلوا اللسان ، فأكرمه يعقوب ، وأجله . ثم أطلق
من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء ،
وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جاني بك حبيب ، فأثنى
بهم الى حلب صحبتته . فلما بلغ السلطان هذا الخبر
سر به جدا .

وفيه خلع السلطان على البسدرى حسن بن
الطولونى ، وأعادته الى معلمة المعلمين ، وكانت قد
أخرجت عنه مدة طويلة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الخانكاه ،

ما لبس أقبردى الدوادارية . والمقصود أنه صار
مقدم ألفه قبله ، وأخذ الدوادارية بالمنزلة فى محله ،
وقاموه نك من الدوادارية الثانية الى
الأمراخورية الكبرى . فكان بينه وبينها عدة
وفائف .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء
بمقدم ألف ، منهم أزدمر تمساح ، ويشبك الجمالى
الزردكاش الكبير ، وأزدمر المسرطن الظاهرى .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين بن
القصيف ، عوضا عن العبدوى ، وعزل العبدوى ،
وكان ابن فرفور قرر قبل ذلك فى نظير الجيش
بدمشق ، فجمع بين نظارة الجيش وبين قضاء
الشافعية . وعزل عن نظارة الجيش الشريف موفق
الدين الحصى ، وأودع فى السجن بقلعة دمشق .
وخلع على قطب الدين الخضيرى ، وقرره فى كتابة
السر بدمشق ، فانفرد بكتابة السر دون قضاء
الشافعية ، وكان قبل ذلك متوليا قضاء الشافعية
بدمشق .

وفيه قدم قاصد ملك الحبشة ، فأوكب له
السلطان موكبا بالحوش ، وكان موكبا حافلا ،
وأحضر صحبتته هدية حافلة للسلطان . فأكرم ذلك
القاصد جدا . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البترك
أن يولى شخصا يكون عنه ببلادهم .

وفى صفر خلع السلطان على قانى بك جشحة ،
وقرره فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن أزدمر
تمساح بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر فى
الحجوبية الثانية تانى بك الاينالى ، عوضا عن
قانى بك جشحة بحكم انتقاله الى رأس نوبة ثانية .

وفيه نزل السلطان الى جهة قلوب وكان يوم
الجمعة ، فلما عاد صلى الجمعة فى قبة الأمير يشبك

فأعجبه مكان عند قناطر المرح والزيات ، فأمر ببناء زاوية هناك وحوض وسبيل ، وأخذ في أسباب ذلك . وجاء من أحسن البناء .

وفيه توفي القاضي سعد الدين الكماخي أحد نواب الخفبة ، وهو إبراهيم بن محمد بن محمد بن قطلوبغا شيخ المدرسة الظاهرية العتيقة ، وكان عالماً فاضلاً رئيساً حشماً درياً محموداً في قضائه ، وكان لا بأس به .

وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة السلطان المعظم المنعم المجاهد المغنازي ، ملك الروم . وصاحب القسطنطينية العظمى ، وهو محمد بن مراد بن محمد بن عثمان ، وكان ملكاً جليلاً عظيماً ساد على بني عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق . وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد ، وسعة المال وكثرة الجيوش ، والاستيلاء على الأقاليم الكثيرة ، وفتح الكثير من حصونها وقلاعها . وكان نائب ملك مملكة الروم ، في حياة أبيه ، ثم استقل به من بعده ، ومكث به مدة طويلة تزيد عن إحدى وثلاثين سنة ، ومولاه بعد الأربعين وثمانمائة . ولما مات تولى بعده ولده أبو يزيد يلدرم ، الموجود إلى تاريخه . فلما سمع ذلك السلطان أظهر الحزن والأسف عليه .

وفيه خلع السلطان على العلاني على بن الصابوني ، وقرره في نظر الخاص عوضاً عن بدر الدين بن الكوين بحكم وفاته . وقد جمع بين نظر الخاص ووكالة يب المال .

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حبش والى القاهرة . وقرره في امرية الحاج بركب المجل ، وقرر الشهابي أحمد بن الجمالي نظر الخاص في امرية الحاج بالركب الأول ، وقرر شاهين الجمالي

في نيابة جدة ، ويخرج ضحيته الشهابي أحمد ناظر الجيش ، ويكون هو المتكلم على الحاج بالركب الأول .

وفي ربيع الآخر نزل السلطان ، وتوجه إلى قبة يشبك التي بالمطرية ، وبات بها وصلى صلاة الجمعة هناك ، وخطب به محمد بن دمرdash امام القبة . وعمل هناك بعد العصر ميعاداً بحضرة السلطان ، فأنعم عليه بمائة دينار .

وفيه نزل السلطان ، وعدي إلى جهة الروضة ، وأمر بتجديد الجامع الذي هناك تجاه المشية ، وكان تلاشي أمره ، فأمر بهدمه وتجديده ، وكان الشاد على عمارته البدرى حسن ابن الطولوني . ثم إن السلطان توجه إلى المقياس ونزل عن فرسه ، ودخل إلى قاعدة المقياس ، وأمر بتجديد بعض أماكنه ، وإصلاح أساسه ، وغير ذلك . ثم إن السلطان صار يتردد إلى الروضة ، ويكشف عن بناء هذا الجامع ، حتى انتهى العمل منه في سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وقد جاء في غاية الحسن والتخريف ، وصار يعرف بجامع السلطان . وكان أصل من أنشأ هذا الجامع الفخر ناظر الجيش ، وهو صاحب قنطرة الفخر التي أنشأها في دولة الناصر محمد بن قلاوون . ثم جدد بناءه صاحب شمس الدين محمد بن المقنى فعرف به . ثم جدد بناءه الأشرف قايتباي فعرف به ، وجاء من أحسن البناء هناك .

وفي جمادى الأولى توفي علان الأشر بن منطخ الأشر في أحد العشراوات ورعوس النوب ، وهو الذي أنشأ الحوض والسبيل بطريق بركة الحاج ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على اينال السلحدار ، نائب

الاسكندرية ، وقرره في نيابة طرابلس ، عوضا عن
يرد بك المعمار بحكم قتله في واقعة باندري . وخلع
على جكم قرا أمير آخور الجمالي الظاهري ، وقرره
في نيابة الاسكندرية عوضا عن اينال السلحدار
بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس .

وفيه توفي الأمير لاجين الظاهري ، أمير مجلس
كان ، وجاوز التسعين سنة من العمر ، وكان دينيا
خيرا رئيسا حشما ، وكان من الشجعان قبل أن
يهزم ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الزردكاشية
الكبرى ، ثم شادية الشراب خاناه ، ثم بقى مقدم
ألف ، ثم بقى أمير مجلس واستغنى من ذلك .
ومات بطلا ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على قائم الفقيه الظاهري
الأشقر ، بمشيخة الحرم الشريف النبوي ، عوضا
عن اينال باي الاسحاقى بحكم وفاته .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب ،
من عند الأتابكى أزبك ، بأن الجام بن عثمان ، ملك
الروم ، قد وقع بينه وبين أخيه أبى يزيد ، وأن
الجام وصل الى أطراف بلاد السلطان ، وبعث
يستأذن في الدخول الى حلب ، فعاد من السلطان
للأتابكى أزبك بأن يحضر الى القاهرة في قليل من
عسكره . ثم ان السلطان أخذ في أسباب تجهيز
الملاقة اليه الى أن يصل الى مصر .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى في
خامس عشر مسرى . فلما أوفى رسم للأمير أزبك
السينفى بأن يتوجه ويفتح السد .

وفي رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فوقع بالمجلس كلام يتعلق بالشهابى أحمد بن
العينى ، بسبب تركه شرف الدين ابن كاتب غريب

وكان بعض نواب المالكية سمع دعوى ابن العينى
وحكم له . ثم ان أمر هذه الدعوى وقف مدة
طويلة ، فلما طلع القضاء في الشهر المذكور ، أخذ
السلطان يسأل القاضى المالكى والشافعى عن السبب
في تأخر ذلك بعد أن ثبت حق ابن العينى ، وحكم
له بذلك . فطال الكلام في المجلس بين القضاة ،
فحنق منهم السلطان ، فقام كاتب السر يتكلم للقضاة
من نوع المساعدة لهم فقال له السلطان : « أنت
معزول ، والقاضى الشافعى معزول ، والقاضى
المالكى معزول » . فنزلوا الى دورهم وهم في غاية
النكد . وكان آخر عزل ولى الدين الأسيوطى ولم
يل بعد ذلك القضاء ، وكذلك برهان الدين
اللقانى ، فكانت مدة ولى الدين الأسيوطى في
قضاء الشافعية نحو من ست عشرة سنة . وكان
مشكور السيرة في قضائه .

ثم أخذ السلطان في أسباب من يلى قضاء
الشافعية ، فترشح أمر الشيخ زين الدين زكريا ،
فطلب وخلع عليه وتولى القضاء ، وقد تمنع من
ذلك الى الغاية . ثم شرط على السلطان شروطا
كثيرة ، فأجيب الى بعضها ، ونزل من القلعة في
موكب حافل ، واستمر في هذه الولاية مدة طويلة .
وقد أخذها عن ولى الدين الأسيوطى بحكم صرفه
عنها . وكان الشيخ زكريا يومئذ رأس الشافعية
ثم ان السلطان طلب محبى الدين بن تقى الدين
المالكى ، وخلع عليه ، وقرره في قضاء المالكية .
عوضا عن برهان الدين اللقانى بحكم صرفه عنها ،
واستمر في هذه الولاية الى أن مات .

وأما القاضى كاتب السر ابن مزهر ، فانه أقام
في داره نحو ثمانية عشر يوما وهو منفصل عن كتابة
السر . ثم ان بعض الأمراء مشى بينه وبين السلطان
في عوده بعد ما كان ترشح أمر قطب الدين
الخضيرى بأن يلى كتابة السر . ثم ان ابن مزهر

أورد السلطان مالا له صورة حتى رضى عليه . فلما
طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأعاد وظيفته ،
ونزل من القلعة في موكب حافل ، وتخلق جماعته
بالزعران ، وزينت له حارته وهناك الأديب أبو الخير
ابن النحاس بقوله فيه :

مقام ابن مزهر فوق السها
وقد زاد ربي اجلاله
وظيفته الدهر تسمو به
ولم تك تسلمح الا له
وقال آخر :

يا كاتب الأسرار يا من فضله
قد جبل الدنيا وزان المنصب
هذه وظيفتك التي فارقتها
عادت اليك فرحبا بك مرجبا

وفيه حضر برقوق الساقى الاينالى ، أحد الأمراء
العشراوات ، وكان من أسر عند يابندر ، وحضر
صحبه اياس مملوك الأتابكى أزبك ، وأخبر بأن
النواب والأمراء الذين كانوا في الأسر عند يابندر
قد أطلقوا أجمعين ، ودخلوا الى حلب صحبة
جاني بك حبيب ، وقد خلع عليهم يعقوب بن حسن
الطويل . ثم أخبر اياس المذكور أن الجمجمة بن
عثمان ، قد خرج من غزة وهو قاصد للديار
المصرية . فلما أخبر السلطان بذلك أخذ في أسباب
ملاقاة الجام .

وفيه توفيت خوند بنت الملك المنصور ، وهى
زوجة تراز التمشى ، رأس نوبة النوب . وكانت
شابة جميلة ماتت نساء بعد أن وضعت .

وفيه قرر عماد الدين اساعيل الناصرى الحنفى
الدمشقى ، فى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن
ابن القصيف بحكم انفصاله عنها .

وفى شعبان تخرج صاحب تشقندم الزمام الى
ملاقاة الجام بن عثمان ، ومد له أسطة حافلة
بيليس والخانكاه ، ثم لاقته الأمراء المقادموه ،
والعسكر ورءوس النوب والحجاب من المريج
والزيات ، فسار فى موكب حافل حتى طلع الى
القلعة من بين التراب . فأقام له السلطان الموكب
بالحوش . فلما مثل بين يدى السلطان وهو جالس
على الدكة ، تحرك ولم يقم له ، فعد ذلك ناقصة
من الأشرف قايتباى . ثم خلع على الجام كاملية
بسمور حافلة ، وأركبه فرسا خاصا من مراكمه
بسرجه ذهب وكنبوش زركش ، ونزل من القلعة فى
موكب حافل ، وقدامه الأمراء ورءوس النوب وكان
له يوم مشهود . وقد قيل فى المعنى :

يا أيها الملك الهمام ومن له
أسد الفلا تأتي اليه ملجئة
قد فاق قدرك فى الملوك تعالما
مد صح بين يديك نطق الجمجمة

وأنزلوه بدار ابن جلود ، كاتب المسالك ، التى
بفهم الخور ، وقد حضر بصحبة الجمجمة والدته
وأولاده وعياله . وقد فر من أخيه أبى يزيد متروفا
على نفسه من القتل ، فالتجأ الى سلطان مصر .
وفيه قبض يشبك بن حيدر والى القاهرة ، على
امراة يقال لها خديجة الرحاية ، وكانت من أعيان
مغنيات مصر ، ولها انشاد لطيف ، وكان أصلها من
مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند
أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة
الغناء فافتتن بها الكثير من الناس ، وقد قال فيها
بعض الشعراء :

رحاية يخفى الشسوس جبالها
لها حسن انشاد يزين مقالها
وقد خايلت بالبسدر ليلة تمه
فما زال من عيني وقلبي خيالها

فمن قبض عليها يشبك ، كانت في بعض الأفراح
فقبض عليها من هناك ، فلما مثلت بين يديه قال
لها : « أنت التي أفسدت عقول الناس » . ثم أمر
بضربها بين يديه نحواً من خمسين عصا ، وقرر
عليها مبلغاً له صورة ، وكتب عليها قسامة بأنها
لا تغنى ولا تحضر في مقام . فلما خلصت من ذلك
أقامت مريضة مدة من الرجفة التي وقعت لها ، ثم
ماتت عقيب ذلك . وكان لها من العمر نحو
الثلاثين سنة ، فتأسف عليها الكثير من الناس .

وفيه كان ختان أولاد القاضي كاتب السر ابن
مزهر ببركة الرطلى . وكان له مهم حافل جداً .
وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشراوات
وحضر عنده جمجمة بن عثمان ، وبات عنده ، وكان
الليل في أواخره ، فأمر كاتب السر سكان بركة
الرطلى بأن يوقدوا في البيوت وقدة حافلة . وشرع
يرسل الى كل بيت في البركة عشرة أرطال زيت ،
وطبليّة فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا
في الوقدة ، وعلقوا في الطيقان الأحمال والتنانير ،
حتى كانت ليلة مشهودة ، يكاد الإنسان أن يدخل
الخيوط في خرم الأبرة من عظم ضوء النور . وأحرق
حراقة عظيمة لم يسمع بمثلها حتى جاءت إليها
الخلائق من كل مكان بسبب الفرجة . وبلغ كراء
كل مركب أربعة أشرفية . واستمرت هذه الوقدة
والحراقة ثلاثة أيام متوالية ، حتى عد ذلك من
النوادر التي لم يقع مثلها . واجتمع بالبركة نحو
من أربعمئة مركب موسوقة بالخلائق ، وصار ابن
رحاب عمالاً ، ومغانى البلد من نساء ورجال في
كل ليلة . وأنفق في تلك الليلة من الأموال ما لا
يحصى ، حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على
المتفرجين نحو من مائة وعشرين ديناراً جبناً
مقلماً ، وكذلك ابن الزبيق الحلوانى ابتاع منه

حلوى بمثل ذلك . وقد خرجت الناس في القمص
والفرجة عن الحد . وقد رسم السلطان للقاضي
كاتب السر ألا يبقى ممكناً في هذا المهم لأجل
جمجمة بن عثمان لكونه كان حاضراً في هذا
المهم . وفي هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا
حتى تباغت على الخلجان والبرك
حفت بضوء مصاييح زهت وغدت
تضىء في حندس الديجور والحلك

فكان لما تناهى حسن وقدها
تخفى شمس الضحى في دارة الفلك
وقال شمس الدين القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا
لهم دليلاً لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
عن لونها وكأن الشمس لم تغب

وفيه عزم السلطان على الجمجمة بن عثمان ،
وأضافه بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية ، وحضر
ذلك الأمراء المقدمون . وكانت ضيافة حافلة جداً ،
وخلع السلطان على الجمجمة كاملية بسمور

وفيه قرر الجمالى يوسف بن جاهين الكرعى
سبط ابن حجر في قراءة الحديث الشريف بالقلعة
عوضاً عن برهان الدين بن الكرعى الامام . وكان
السلطان تغير خاطره على ابن الكرعى واختفى مدة
طويلة .

وفيه أحضر شخص من العرب بين يدي السلطان
سناً من نواجد بنى آدم ، من نسل العمالقة ، فكان
وزنه ستة أرطال ونصفاً ! فتعجب السلطان من
ذلك .

وفي رمضان ثارت رياح من جهة الغرب ، وكانت عاصفة جدا ، وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان المطر في غير أوانه في أواخر بابه . ثم جاءت الأخبار من دمياط بأن هذا الريح كانت قوته بدمياط ، وقد قلع عدة أشجار ، وهدم بعض أماكن ، وأغرق عدة مراكب من مراكب الفرنج . وكان ريحا مهولا جدا .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن في ليلة ثالث عشر الشهر المذكور ، سقطت صاعقة عظيمة في أواخر الليل على المسجد الشريف النبوي ، فاحترقت منها المنارة التي تجاه الحجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، واحترقت سقوف المسجد جميعها والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبعض حيطان المقصورة . وقتل المؤذن الذي كان على المئذنة وقت نزول الصاعقة ، وقتل جماعة أيضا من كان بالحرم الشريف ، فكتب بذلك محضر ، وثبت على يد قضاة المدينة . وكان مما كتب في المحضر أن المؤذن لما طلع على المئذنة الشرقية ، لأجل التسبيح ، رأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف النبوي ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فعملت فيه النار . فلما عاين المؤذن ذلك خرس ، ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات . وقد عاين الناس عدة أطياف بيض بأعناق طوال ، طائفة حول المسجد ، تمنع النار أن تحرق البيوت التي حول المسجد . وأن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور . فلما سمع السلطان ذلك بكى وبكى من كان حوله . وتعجب الناس لهذه الواقعة كيف جرت في هذا

المكان الشريف ، فأخذ شيخنا شمس الدين القادري يعتذر عن ذلك :

بطيبة سيئات الركب يذلها
رب العلا حسنت عندما زاروا
وعندما قبلت ضاهت لدى حرم الـ
مختار من أكلت قريانه النار
واعتذر آخر :

لم يخرق حرم النبي لحادث
يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست
ذاك الجناب فطهرته النار
واعتذر آخر :

قالوا لقد غاب الصواب لحادث
تبني عليه رضاهم الكفار
بل ضم شمل السحت وهو محرم
عند الرسول فحرقته النار

ثم ان السلطان شرع في تجديد المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعين الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن بأن يتوجه الى المدينة الشريفة ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخين ، وغير ذلك . وأمر بهدم القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام واعادتها وتجديدها ، وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت قبل ذلك من الخشب ، وتغيير المنبر والمواد التي كانت بالحرم . ثم توجه ابن الزمن الى هناك وشرع في البناء حتى انتهى منه العمل ، في أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة . فجاء غاية في الحسن من أجل الأبنية ، وأعظمها ، حتى قيل ان السلطان صرف على بنائه نحو من مائة ألف دينار ، وجدد معالمه ، وتناهى في زخرفته الى الغاية .

ويعتبر مثل هذه الحادثة في حرق المسجد
البرقي من مآثره أفضل الصلاة والسلام سنة
أحمد وخمس مائة وستة في أواخر دولة أيك
شركاني .

وفيه وصل قاصد من عند يعقوب بن حسن
النبوي ، وعلى يديه مكاتبة من عند يعقوب ، وهو
يعتذر فيها مما وقع من بابتدر ، وأن ذلك لم يكن
بعلمه . فكتب السلطان على القاصد بسبب ما وقع
من بابتدر ، وسرعة قتله للأمير يشبك . ثم أضاف
القاصد وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه نزل السلطان إلى قبة الأمير يشبك
الدوادار التي في رأس دور الحسينية ، فكشف
عليها ورسم للأمير تغري بردي الاستادار بأن يكمل
عمارتها ، فإن الأمير يشبك مات ولم يتم عمارتها .
فلما رجع السلطان شق من القاهرة ، فقام إليه
الناس قاطبة ، وضجوا له بسبب الفلوس الجدد
وغلو البضائع . فلما طلع إلى القلعة ، رسم بعقد
مجلس بالمدرسة الصالحية . فاجتمع القضاة الأربعة
وكاتب السر وناظر الخاص العلاني ابن الصابوني
والمحتسب ، ثم أخذوا يتكلمون في أمر الفلوس .
وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم
السلطان ، وقصد أن يخرجها بأعلى من الفلوس
العتق . فلما تكلموا في أمر الفلوس العتق ، أخذ
ناظر الخاص يعارض في ذلك لأجل غرضه . فلما
سمع العوام بذلك ثاروا عليه في وسط المدرسة
الصالحية ورجسوه ، ولولا كاتب السر لقتلوه ...
فلما طال المجلس في ذلك اتفق الحال على أن
تكون الفلوس كلها — العتق والجدد — بالميزان
بسته وثلاثين الرطل . فنادوا في القاهرة بذلك ،
فسكن الأمر قليلا .

وفي شوال كان موكب العيد حافلا ، ورسم

السلطان للجام بن عثمان بأن يلبس الشاش
والقماش ويطلع ويصلي مع السلطان صلاة العيد ،
فطلع وصلى وحضر الموكب ، وخلع عليه السلطان
متسرا وفوقاني بطرز عريض ، ونزل مع الأمراء
المقدمين وهو بالشاش والقماش .

وفيه خلع السلطان على بيرس الرحبي قريبه ،
وقرره في شادية الشراب خاناه ، عوضا عن ألماس ،
بحكم انتقاله إلى نيابة صفد .

وفيه خلع السلطان على قريبه تراز التمشي ،
وقرره في امرية سلاح . وكانت هذه الوظيفة شاغرة
من حين قتل الأمير يشبك الدوادار .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجمل زائد ،
وكان أمير المحمل يشبك بن حيدر وإلى القاهرة ،
وأمر الركب الأول الشهابي أحمد بن الجمالي
يوسف ناظر الخاص . وسافر صحبته الجام بن
عثمان هو وأمه وعياله . وقد هيا له السلطان بركا
عظيما صرف عليه جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير أربك إلى
غزة ، وصحبته النواب والأمراء الذين كانوا أسروا
عند بابتدر ، فأرسل السلطان هجانا للأتابكي أربك
بأن يقبض على قانصوه اليحياوي ، الذي كان
نائب الشام وأسر عند بابتدر ، ويرسله إلى القدس
بطالا ، وأن بقية الأمراء والنواب يحضرون إلى
القاهرة . وكان قد بلغ السلطان بأن قانصوه
اليحياوي كان سببا لكسرة العسكر وقتل يشبك .
فعمل له ذنب كبير بسبب ذلك . فكان كما قيل :
له ألف ذنب لا تعد بواحد

ولي فرد ذنب لا يعادله ألف

وفيه كان وصول الأتابكي أربك إلى القاهرة ،
فدخل في موكب حافل ، وصحبته أزد من نائب حلب
الذي كان أسرا عند بابتدر ، وكذلك برسباي قرا

حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين —
وكانوا أسروا أيضا — فكان لدخولهم يوم مشهود
وأحضر الأتابكى أزبك مثقال البرهانى الذى
كان مقدم المماليك ونفى الى القدس بطالا . فلما
حضر من غير اذن السلطان شق عليه ذلك ، وأمر
بنفيه الى مكة المشرفة ، فلحق بالحجاج .

ثم أن الأتابكى أزبك شفيع فيه ، وبأس رجل
السلطان مرارا ، فرسم بعوده الى القاهرة بطالا ،
فعاد من أثناء الطريق .

وفى ذى القعدة خلع السلطان على قريبه أزدمر
الذى كان نائب حلب ، وقرره فى امرية مجلس ،
وكانت شاغرة من حين غفى عنها لاجين الظاهرى
ففرر بها أزدمر بغير اقطاع ، فكان له فى كل شهر
ألف وخمسمائة دينار مرتبة على الذخيرة . ثم خلع
على برسباى قرا ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى
عوضا عن تراز التشى ، بحكم انتقاله الى امرية
سلاح . وخلع على تغرى بردى ططر ، وقرره فى
حجوية الحجاب ، عوضا عن برسباى قرا بحكم
انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى . وخلع على
قانسو الغورى ، وقرره فى كشف الوجه القبلى .

وفى ذى الحجة قرر سيباى نائب غزة فى حجوية
الحجاب بدمشق ، عوضا عن يشبك العلانى ،
بحكم انتقاله الى نيابة حماه ، عوضا عن جانيه
الجداوى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق ،
عوضا عن شادبك الجلبانى . وقرر سودون الطويل
الينالى فى مقدمة ألف بدمشق ، وقرر فى نيابة غزة
دولات باى الأجرود الينالى ، عوضا عن سيباى ،
الذى قرر فى حجوية دمشق .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وكشف
عن الجامع الذى أنشأه هناك .

وفيه توفى طوخ الذى كان زردكاش ، ونفى الى
دمياط ، ثم شفيع فيه وعاد الى مصر بطالا ، فمات
بها . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفى شيخ عربان الشرقية محمد بن عجلان
ابن بقر ، وكان لا بأس به ، وجرت عليه شدائد
كثيرة ومحن ، وكان قد شاخ وكبر سنه
وتوفى أبرك الظاهرى أحد العشراوات . وتوفى
جاهنين التاجى دوا دار جانيه نائب الشام وكان
لا بأس به . وتوفى فى أواخر السنة المذكورة جماعة
كثيرة من الأعيان لهم نذكرهم خوف الاطالة .

سنة سبع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، جاءت الأخبار بموت حكيم قرا
العلانى الظاهرى ، نائب ثغر الاسكندرية ، وكان
لا بأس به .

وفيه قدم الحاج الى القاهرة ، وحضر الجمجمة
ابن عثمان صحبة الشهابى أحمد بن الجمالى
يوسف ، ناظر الخاص أمير ركب الأول ، فأنعم
عليه السلطان بأشياء كثيرة .

وفيه أفرج السلطان عن أمير ركب محمل
العراق ، والقاضى الذى كان معه ، وكانا بالبرج
الذى بالقلعة من أيام حسن الطويل ، وقد تقدم
سبب ذلك .

وفيه قلق جمجمة من اقامته بصر ، وطلب
التوجه الى بلاده ليحارب أخاه ، فجمع السلطان
الأمراء واستشارهم فى ذلك ، ثم أحضر الجمجمة
وتكلم مع الأمراء بكلام كثير ، فأغلظ عليه
الأتابكى أزبك فى القول ، وهو لا ينتهى عن السفر
الى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء فى ذلك
ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر الى
بلاده على كره منه . وكان ذلك عين الخطأ ،

وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وسنذكر ذلك في موضعه .

وفي صفر خلع السلطان على شخص من الأراذل يقال له محمد بن العظيمة ، وكان صنعته فراء ، ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يقرره في نظر الأوقاف ، فخلع عليه بذلك . فلما استقر في الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل ، والتزم بمال يورده في كل شهر له صورة ، فصار يرسل خلف الناس من رجال ونساء ويرسم عليهم بسبب الأوقاف ، ويحاسبهم على الماضي والمستقبل ، ويأخذ منهم جملة مان ، وصار بابُه أنحس من باب الوالى ، والتف عليه جماعة من المناحيس ، وصاروا يفرعون له الأذى تفريعا وكان ذلك في صحيفة قايتباى ، رحمه الله ، الذى قرب مثل هذا وسلطه على الناس ، فكان كما قيل :

لبابك بواب عن الخير مانع

يضم لتبجح الوجه سوء خطابه

فساويت فيه من غدا يمنع القرى

ومن يربط الكلب العقور ببابه

وكان يورد هذه الأموال للسلطان ، لا يدرى أمن حلال هى أم من حرام ، كما قيل في العنب :

قيل للصب فيه خمر حرام

فتمنى حرامه وحلاله

وفيه توفى جاني بك كوهية الاسماعيلى المؤيدى الذى تقدم ذكره ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على موفق الدين بن الحمصى الأسلمى ، وقرره في نظارة الدولة ، وكان في خدمة صاحب خشقند ، وهى أول شهرته .

وفيه توفى أقبردى تمساح بن اسباى الأشرفى أحد العشراوات ورءوس النوب ، وكان من

مسالك الأشرف برسباى ، وسافر الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرة ، وكان لا بأس به ، ومات فجأة ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العسر .

وفي ربيع الأول عقد الأمير أقبردى على خوند أخت زوجة السلطان ، وهى بنت العلالى بن خاص بك ، التى كانت زوجة الأمير جانم الجوالى قريب السلطان ، وكان يوم دخولها مهما حافلا .

وفيه ، في أول يوم من بشنس ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد خالف العادة في قلع الصوف بأيام ، ثم عسل الموالد النبوى وضرب الكرة .

وفيه ضرب السلطان شخصا يقال له بلبان الكاشف ، فلما ضربه لم يعجبه ضرب رءوس النوب فنزل من فوق الدكة ، وتولى ضربه من عظم حنقه عليه .

وفي ربيع الآخر وقع بين قاضى القضاة زين الدين زكريا ، وبين الأمير دولات باى الحسنى شاد الشون ، فكانت حادثة عظيمة قام فيها القاضى الشافعى ، فما حصل له من ذلك طائل . وهذه الواقعة مشهورة بسبب وقف .

وفيه خلع السلطان على الأمير أربك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر دولات باى الحسنى شاد الشون في امرية الركب الأول .

وفيه كان ختان أولاد الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال بئر الاسكندرية ، وكان حافلا ، فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة .

وفيه خلع السلطان على الشيخ صلاح الدين الحنفى الطرابلسى ، وقرره في مشيخة المدرسة

الاشرفية التي بجوار الوراقين ، عوضا عن البرهان
ابن الكركي بحكم اختفائه لما تغير خاطر السلطان
عليه .

وفيه خلع السلطان على واحد من مماليكه
يقال له « على باي » وقرره في نيابة الاسكندرية
عوضا عن حكم قرا بحكم وفاته . وكان على باي
هذا كاشف الشرقية يومئذ .

وفي جمادى الأولى جاءت الأخبار بقتل سيف
أمير آل فضل ، الذي خرج الأمير يشبك الدوادار
يسببه كما تقدم . قتله ابن عمه غسان في بعض
بلاد العراق .

وفيه خرج السلطان وسافر على الهجن ، ولم
يعلم الى أين يتوجه ، وكثر الكلام في حقه في ذلك
بسبب سفره . ثم ظهر بعد ذلك أنه سافر نحو
جهات العباسية وغيرها ، ثم رجع بعد أيام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة
الأمير خير بك بن حديد ، الذي كان احد المقدمين
بمصر ، وتغير خاطر السلطان عليه ، كما تقدم ،
فنفاه الى الشام ، فأقام بها مدة ثم نقله الى مكة
المشرقة ، فمات بها . وكان أصله من مماليك
الأشرف برسباي ، وكان دينا خيرا عارفا بأنواع
الفروسية ، وله اشتغال بالعلم ، وحذق جيد ،
وفصاحة بالعربية . مات وله من العمر زيادة عن
الستين سنة ، وكان من جملة الأمراء المقدمين
بمصر ، وهو صاحب المدرسة التي بزقاق حلب .
وفيه كانت وفاة شاعر العصر ورأس الأدباء
على الإطلاق الشيخ شهاب الدين أحمد المنصوري ،
وهو أحمد بن محمد بن خضر بن علي السلمي
المنصوري ، المعروف بالهائم ، القاهري ...
الحنبلي ، وكان له شعر جيد ، وينظم رقيق جدا ،
وفيه يقول الناصري محمد بن شادي خجا العنبري :

أخبرتنا ملوك علم القوافي
في بديع المنظوم والمشور
ما وجدنا خليفة في المعاني

ملكا في البيان كالمنصوري
وكان الشهاب هذا جميل الهيئة ، نير الوجه ،
متعففا عن الناس . ولما بلغ خمسا وسبعين سنة من
العمر قال :

بلغت من دنياي سنا به
وقعت في السبعين والخمس

فأحمد الله الكريم الذي
متعنى بالسن والفرس

ولما بلغ الثمانين سنة من العمر قال :

نحو الثمانين من العمر قد
قطعتها مثل عقود الجمان

وما أحوجت يوما يسني الى
عصا ولا سمعي الى ترجمان

ثم عرض له في أواخر عمره فالج ، فلزم الفراش
مدة طويلة ، وانقطع في داره عن الحركة ، فأنشأ
يقول :

آه يا درهمي وياديناري
ضعت بين الطيب والعتار

كنت أنسى في وحدتي وشفائي
من سقامي وصحتي في انكسار

كنت تقضى مما حلا من غداء
وعشاء ، منيتي أوطاري

قد همانى الطيب عن شهواتي
فأحسم يارب قلبه بالنار

طال شوقي الى الفواكه والبط
شيخ والجبن واللبن والخيار

ضاع لبي على مقاساة لب ال
مقرع والهنديا وبزر الشمار

وقد ذهب جميع ما كان معه من مال وقشاش وغيره
وكان خروجه من مصر عين الغلط .
وفيه هلك بترك النصارى اليعاقبة ، وكان عند
أهل ملته مشكورا .

وفي شعبان صنع الأتابكي أزبك في الأذربكية
حراقة نبط ووقدة عظيمة ، وكانت ليلة مشهودة .
وفيه رسم السلطان بعمارة سور البيرة ، فجاء
من أحسن البناء ، وأتفق عليه مالا له صورة .
وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على
ساحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن السلطان
أنشأ هناك مدرسة ، وجعل لها شيايبك مطلة على
الحرم الشريف النبوي ، فقامت على السلطان أسئلة
بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لا يجوز
فإن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وهو ميت ،
كحرمة وهو حي صلى الله عليه وسلم . وقد أجاز
ذلك بعض علماء الجاه .

وفيه توفي الناصري محمد ابن الأتابكي جرباش
كرت ، وهو ابن خوند شقرا . فكان بينه وبين
وفاة أمه نحو من شهر ، وقد مات فجأة ، وقيل وقع
بينه وبين سرور مشد الحوش السلطاني ، وكان
طواشي والدته قديما ، فحنق منه الناصري محمد ،
فتناول فصا من الماس وأبتلعه فمات من ليلته .
وكان رئيسا حشما لطيف الذات لا بأس به .

وفي رمضان توجه صاحب خشقند الى الوجه
القبلي ، بسبب ضم المغل .
وفيه كان ختم قراءة صحيح البخاري ، وفرقت
الصرر والخلع على القضاة والعلماء ، وكان ختما
حافلا .

وفيه خسف جرم القمر ودام في الخسوف نحو
من خمسين درجة .

كلما أجمع اختيارا عظاما
فرقته منى يد الانضطرار
ليت شمري وللزمان خطوب
وبلاء يختص بالأحرار
هل لميت قضى عليه طيب
من كميل أو آخذ بانثار
واستمر بهذا الفالج الى أن مات ، وكان مولده
سنة ثلاث وثلاثين وثمانائة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ،
وقصدوا قتل مقدم المماليك ، حتى فر منهم واختفى
وأحرقوا باب الزردخانه . وكانت فتنة كبيرة ، ثم
سكن الحال قليلا .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجاه لما خرج من مصر ،
وتوجه الى بلاد ابن قرمان ، بعث اليه أخوه جماعة
من عسكره فتحاربوا ، فانكسر وفر هاربا وندم
على خروجه من مصر ، ولم يعلم أين يتوجه .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكي
أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .
وفيه هجم اللصوص على قيسارية جركس
وقتلوا البواب ، وأخذوا من الدكاكين أشياء كثيرة
ولم ينتطح في ذلك شاتان .

وفيه أنعم السلطان على الناصري محمد ابن
الأتابكي أزبك بأميرية عشرة ، وأرسل اليه شاشا
فللف له تخفيفة .

وفيه توفيت خوند شقرا بنت الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق ، زوجة الأتابكي جرباش
كرت ، وكانت من مشاهير الخوندات ، فنزل
السلطان وصلى عليها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجمجمة بن عثمان لما
فر من عسكر أخيه ، نزل في مركب في البحر الملح
فخرج عليه بعض الفرنج ، في مراكب ، فأسرره ،

وفيه توفي قاضي المحلة أوجاد الدين بن العجمي
وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنقي دولات باي بن
محمدي ، نائب غزة ، فنهى الى مكة المشرفة .

وفي شوال ظهر قاسم شغيته ، الذي كان وزيرا
وكان له مدة وهو مختلف . فلما ظهر خلع عليه
السلطان كاملية حافلة ، وقرره في نظر الدولة ،
عوضا عن موفق الدين بن الحمصي الأسامي .

وفيه حضر السلطان عليه لعمل الحساب .
وفيه ولد للسلطان والد ذكر من سريته أصل

باي الجركسية ، فسماه محمدا ، وهو الذي تسلم
بعنده .

وفيه خرج المحمل من القاهرة في تجمل زائد ،
وكان أمير ركب المحمل أزيك اليوسفي ، أحد
المقدمين . وبالركب الأول دولات باي الحسنی
شاد الشون .

وفي ذي القعدة رسم السلطان للقضاة والشهود
ألا يعتقدوا لمملوك من ممالكه ، حتى يأخذوا له
أذنا من أغاته . وفي هذه الأيام تزايد شر جماعة
من المماليك الجلبان ، وماروا يأخذون أشياء الناس
بلاش ، من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس
منهم غاية الضرر الشامل .

وفيه توفي محب الدين كلب العجم ، واسمه
عبد الرحمن بن حسن بن الأيمن الحلبي الحنفي ،
توفي بالبيمارستان . وكان فاضلا شاعرا ماهرا ، وله
خط جيد . وكان عشير الناس ، فكه المحاضرة ،
وكان من أخصاء الأمير يشبك بن مهدي الدوادار ،
لكنه كان مبرنا على نفسه ، يميل الى محبة
الأحداث ، وله فيهم أشعار كثيرة ، وكان جاهلا
مخترقا .

وفيه توفي الفتح محمد المنصوري ، أحد
المبشرين ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه قدم الأمير تراز التمشي من البحيرة ،
وكان مسافرا بها ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى
داره .

وفي ذي الحجة كانت الأضحية غالية ، ولا
توجد الا قليلا ، فحصل للناس غاية القلق بسبب
ذلك .

وفيه قبض السلطان على شخص يقال له
الشريف الأكفاني زعموا أنه قد قتل قتيلا وهو
زوجته ، فضرب بين يدي السلطان ، فلم يقر بشيء
فرسم بسجنه فسجن مدة طويلة . ثم آل أمره الى
أن صالح الورثة بمال ، وأطلق بعد ما قاسى شدايد
ومحنا .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وقد ثبت
الشهر بالأربعاء في اليوم التاسع من ذي الحجة ،
فحنق السلطان من القاضي زكريا ، وأشيع عزله .
وقد ذات الناس صوم يوم عرفة ، والتكبير في
صبيحته ، وانطلقت السنة العامة على القاضي زكريا
وسبوه جهرا .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر أنه وقع بمكة
المشرقة سيل عظيم ، حتى دخل الحرم ، ودام منه
المنبر ، ووصل الى قريب عتبة البيت الشريف ،
وقتل بالغرق بسببه نحو من سبعين انسانا ، وهدم
عدة دور ، وكان أمرا مهولا . وأخبر المبشر بوفاة
بدر الدين الدميري المعروف بكتكوت ، أحد نواب
الشافعية ، مات بالأزلم من طريق الحجاز ، وهو
محمد بن يوسف بن علي بن محمد بن أحمد بن
سلطان الدميري الشافعي . وكان فاضلا عارفا
بصناعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وأحد نواب
الحكم ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،

طالق اللسان في حق الناس . وكانت الشعراء تهجوه
كثيرا ، فمن ذلك قول بعضهم :

قد غيل صبرى من خطب ألم به
عقلي وطرفي مذهول ومبهوت
فإن غدا الديك سلطانا فلا عجب
فقد غدا قاضيا في الناس كتكوت
وفيه يقول الأديب على بن برد بك :

إن الدميري صديقي فلا
أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغسير تقيحه

بل هو عندي من ملاح الملاح
والنكتة هنا أن الكتاكيت ينادى عليها : ياملاح
الملاح .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا
عبد الله بن حسن بن على بن أبى سعد بن الأحمر
قد ثار على ابنه الغالب بالله ، صاحب غرناطة ،
وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ،
وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن
المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك .

وفيه توفى طرنتاي المحمودى أحد الأمراء
العشراوات ، وأصله من ممالك الأشراف برسباى ،
وكان جلب هو والسلطان قايتباى في سنة واحدة .
وتوفى يونس الكاتب المجيد ، وكان أكتع ، ويكتب
بيده اليسرى خطا جيدا . وتوفى أواخر السنة
المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف
الإطالة :

سنة ثمان وثمانين وثمانمائة (١٤٨٣ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على محمد بن
عبد الرحمن ، وقرره في نيابة جدة ، عوضا عن أبى
الفتح المنوفى بحكم صرفه عنها .

وفيه نزل السلطان وتوجه إلى سنيت ، بسبب
الكشف على الجسور ، ثم زار سنيدي أحمد
البدوى رحمة الله عليه ورضى عنه .

وفيه كان الغلاء بمصر قليلا والأسعار مرتفعة
في سائر البضائع والغلال .

وفيه توفى الشيخ علاء الدين الحصنى الشافعى
وكان عالما فاضلا رئيسا حشما متواضعا .

وفيه وصل الحاج إلى القاهرة ، وقاسى مشقة
زائدة ، ولم تحمد سيرة أمير الركب بالمحمل أزبك
اليوسقى .

وفى صفر وقع بين كرتباى بن مصطفى المعروف
بالأحمر الذى توفى في انبابة فيما بعد - وكان
يومئذ أحد الدوادارية - وبين ناظر الجيش كمال
الدين بعض تشاجر ، فلكمه كرتباى الأحمر ،
فأطاح عمامته عن رأسه بالحوش في وسط الناس ،
وراحت في كيسه .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن منجك ، وكانت
وفاته بدمشق ، وكان رئيسا حشما من الأعيان .

وفيه توفى الشيخ أبو حامد المقدسى ، وهو
محمد بن خليل المقدسى الشافعى ، وكان من أهل
العلم والفضل ، وله عدة مصنفات ، ومولده بعد
العشرين والثمانمائة ، لكنه كان سهيلا ، بليد
الذهن قليل الفهم . ومما وقع له أن الزينى أبا الفتح
ابن النحاس الشاعر ، داعبه بهذين البيتين ، وكتبهما
إليه في ورقة ، ودفعهما له في مجلس القاضى كاتب
السر ابن مزهر . فلما قرأهما استحسنهما ، ولم
يفهم ما فيهما من الدسيمة عليه ، فكتبهما بخطه
في بعض مصنفاته ، وأوردتهما لابن النحاس وهما :

أبا حامد أنت الذى شاع ذكره

بكثرة تأليف وجمع به انفراد

فأنت الذى ما مثل حفظك فى الورى

وأنت الذى ما مثل ذهنك فى البلد

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانم الجداوى ،

نائب حماء ، وأتابك دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع عن مثقال الساقى الطواشى الظاهرى

رأس نوبة السقا ، بأنه يضرب فى بيته الزغل ،

فأرسل السلطان من كبس داره وقبض عليه .

وفى ربيع الأول رسم السلطان بعمل حساب

قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بدار

الأمير برسباى قرا رأس نوبة ، وقاسى من البهدة

والأنكاد ما لا يعبر عنه .

وفيه ثار بالناس فى فصل الربيع دموية وأمراض

حاددة ، ومات بذلك جماعة كثيرة ، حتى أطلق عليه

الفصل الصغير . ومات به من أعيان الناس سيدى

فرج ابن تنم نائب الشام ، وكان شابا جميل الوجه

لم يلتح بعد فتأسف الناس عليه قاطبة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ،

واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان

شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد

الشريف ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش .

وفيه توفى القاضى نجم الدين يحيى بن حجبى ،

وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حجبى بن موسى

ابن أحمد الحسبانى الدمشقى ، ثم القاهرى

الشافعى . وكان عالما فاضلا رئيسا حثما ، وعد

من العلماء ، وكان كريما سخيا ، وولى نظارة

الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر

والشام ، فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف

مجلد من الكتب النفيسة .

وفيه ، فى آخر يوم من برمودة ، قلع السلطان

الصوف ، ولبس البياض ، وقد عجل بلبس البياض

قبل أوانه بعشرة أيام .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ، بأن

قانسوه اليحياوى الذى كان نائب الشام ، ونفى

الى هناك بطالا ، قد أجرى عين ماء بالقدس ،

وكانت معطلة مدة طويلة ، فصرف عليها مالا له

صورة من ماله ، وحصل بها غاية النفع .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على أزدمر

تمساح ، أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية

الحاج فى ركب المحمل ، وقرر أزدمر الأشقر أحد

العشراوات فى امرية الركب الأول .

وفيه قرر شادبك المحدى الظاهرى ، أحد

العشراوات ، فى نيابة دمياط

وفيه توفى أبو الفداء الواعظ النائر المادح ،

وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت

وجودة الغناء ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بين مماليك أقبردى

الدوادار ، وبين مماليك أزدمر نائب حلب ، ووقع

بينهم فتنة بالرميلة ، حتى شهروا السلاح على

بعضهم ، فثار جماعة من مماليك السلطان ، مع

مماليك أقبردى الدوادار ، فكادت أن تكون فتنة

عظيمة بين الأمراء . ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى أبو الفضل ،

من أولاد سيدى علي وفا . وكان حصل له انجذاب

واسلتمر به الى أن مات ، وكان من بيت كبير

الولاية .

وفيه زلزلت القاهرة بعد العشاء ، لكنها كانت

خفيفة ولم تدم ، ولو دامت قدر درجة لحصل

منها غاية الفساد .

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة ستة

أذرع وأربع أصابع .

وفيه سافر الأمير أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب ضم المغل ، وكان صحبته أمير عربان هواره داود بن عمر . وكان قد أعاده السلطان الى امريته بالوجه القبلى ، وصرف محمد ابن يونس ولد عمه .

ومن الحوادث أنه فى جمادى الأولى فى يوم الثلاثاء عاشره ، ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى دار برسباى قرا ، ونهبوا كل ما فيها وأحرقوها عن آخرها ، ونهبوا الربوع التى بجوارها ، وأحرقوها حتى نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية ، والفخرية ، حتى أخذوا القناديل التى بها ، وكانت مصيبة شنيعة ، وهذا أول فتك الجلبان بالقاهرة ، واستخفاهم بالسلطان . واستمرت الفتن من يومئذ تتزايد ، حتى كان منهم ما سذكركه فى موضعه .

وكان سبب كائنة برسباى قرا أن شخصا من المماليك الجلبان دخل الى سوق الشرب ، ليشتري ثوبا بعلبكيا من بعض التجار ، فتعترض المملوك على التاجر ، وضربه ضربا مبرحا ، وأخذ منه الثوب البعلبكي غصبا ، فشكا التاجر من باب برسباى قرا ، وكان يومئذ رأس نوبة النوب ، فطلب ذلك المملوك . فلما حضر ، قامت عليه البينة بما فعله فى سوق الشرب ، فأدبه وضربه بين يديه ، فلما بلغ خشداشينه ذلك ، ثاروا على برسباى قرا ، وفعلوا به ما فعلوا ، وراموا أن يحرقوا سوق الشرب ، حتى أخلوا منه التجار قاطبة ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة تعم البلد . ثم ان الأتابكى أزيك جرى بين المماليك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح ، وسكن الحال قليلا .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن على دولات بن دلغادر ، قد أتى الى ملطية فى جمع كثير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر . وفيه توفى قانى باى الفلاح الأشرفي أحد العشراوات ، وأصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان بارعا فى فنون الرمح .

وتوفى مغلباى الفقيه أحد العشراوات ، وكان أصله من ممالك العزيز ، وكان له اشتغال بالعلم وفيه عرض السلطان الجند ، وعين تجريدة الى حلب بسبب على دولات بن دلغادر ، وعين بها من العلماء أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، والأمير تغرى بردى ططر حاجب الحجاب الثانى ، ومن الأمراء الطبلخانات قانى بك جشحه رأس نوبة ثانى ، ومن الأمراء العشراوات تانى بك الاينالى الحاجب الثانى ، وسودون الصغير العلائى ، وبرد بك المحمدي الخازندار الثانى ، ومن الجند نحو من خمسمائة مملوك ، وأنفق عليهم فبلغت النفقة على الأمراء والجند زيادة عن سبعين ألف دينار .

وفيه حصر شمس الدين الحلبي تركة يحيى بن حجي ، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى ، فقال : « هذا الكتاب ينبغى أن يحرق » ، وأن ابن عربى كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبيدة الأوثان . فقال له بعض الحاضرين : « كيف تحرق كتاب الفصوص ، وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ » . فقال : « ولو كان » . فمسكوا عليه ذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وتراعى على كاتب السر ابن مزهر ، فقام معه ، وآل أمره الى أن عزروه ، وكشفوا رأسه ، ثم حكم بإسلامه ، وحقن دمه ، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك وفيه يقول أبو النجا القمنى :

أقعدت يا حليبي بالصقع في قفاكا
لما ادعيت جهلا حرق الفصوص ياكاً
وما خلصت حتى أقمت شاهداكا

وفيه توفي قانصوه المداقف المحمدى ، أحد
الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر
جقمق ، وكان علامة في الدقاف .

وفي رجب خرج الأمراء والعسكر الى التجريدة
التي عينت الى على ذولات بن دلغادر ، وكان آخر
العهد بالأمير أزدمر أمير مجلس ، الذي كان نائب
حلب ، فلم يدخل الى مصر بعد ذلك .
وفيه كان وفاء النيل المبارك ، أوفى ثانی عشر
مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أربك وفتح
السد على العادة .

وفيه توفي برد بك الطويل المحمدى ، أحد
الأمراء العشراوات ، وكان شادا على أوقاف
الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة
محمد بن عبد الرحمن ، ناظر جدة ، وكان رئيسا
حشما لطيف الذات عشيرا للناس . ولما مات دفن
بسكة المشرفة أعزها الله تعالى .

وفي شعبان عرض السلطان المقصورة الجديدة
التي صنعها للحجرة الشريفة النبوية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام ، فنصبها بالحوش في أول
الشهر المذكور ، وكان زنتها أربعمئة قنطار من
الحديد ، فحملت الى المدينة الشريفة على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام على سبعين جملا .

وفيه توفي جانم البهلوان أحد الأمراء
العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر

١١) ياكاً . . . فر

جقمق ، وكان رأسا في الصراع ، توفي بحلب .
ومات أيضا بحلب صنتباى العلانى الظاهري أحد
العشراوات ، وكان رأسا في الرمي بالنشاب ، وكان
من مماليك الظاهر جقمق .

وفي رمضان خسف جرم القمر خسوفا تاما ،
حتى أظلمت الدنيا ، ودام في الخسوف نحو من
خمسین درجة .

وفيه ، في يوم ختم البخارى ، وقع بين الشيخ
بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وبين الشيخ صلاح
الدين الطرابلسى تنافس ، حتى خرجا عن الحد
بسبب الجلوس ، فيمن يرتفع عن صاحبه ، وكان
الصلاح الطرابلسى متعديا على ابن الغرس ، فما
شكر على ذلك ، وكان مجلسا فاحشا لا خير فيه .

وفي شوال خرج من القاهرة المحمل ، في تجمل
زائد ، وكان يوما مشهودا . وخرج معهم شاد بك
أحد الأمراخورية ، لكنه كان ضخما ، ويلبس
كما قصيرا ، وقد قرر على باشية الجند بمكة ومعه
خمسون مملوكا ، وأرسل معه السلطان المقصورة
الحديد التي صنعها للحجرة النبوية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام . ثم أرسل معه مصحفا
كبيرا حمل على جمل بمفرده ، كان من النوادر
كتبه شاهين النورى ، ومات ولم يكمله ، فأكملة
الشيخ خطاب بأمر السلطان ، وهو باق الى الآن
في الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام .

وفيه كان عرس الركنى عمر بن أبى البقاء ابن
الجيغان ، وكان مهما حافلا .

وفي ذى القعدة خلع السلطان على أقبای كاشف
الشرقية ، وقرر في نيابة غزة ، عوضا عن دولات

بإي بن مصطفى ، الماضي خبره بما جرى عليه ،
إلى أن نفى إلى مكة المشرفة .

وفيه أنعم السلطان على ستة أنفار من الخاصة
الظاهرية بأمريات عشرة . منهم يشبك دجاج ، وأبو
يزيد ، ويبرس اليوسفي ، وملاج الأشقر ، وجاني
بك البواب ، وقانم السواق ، وأنعم باقطاع جانم
البهلولان المسافر في التجريدة ، على سودون
الصغير ، وقانصوه قرا ، وكسبای الشريفي ،
وآخرين من جلبانه . وكان هذا اقطاع امرية
عشرة ، وخرج بحكم وفاة جانم البهلوان .

وفي ذي الحجة قرر محمد بن السلاح في التكلم
على جهة الجيزة ، عوضا عن ابن الصعيدي .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وكانت
الأضحية مشحوتة وغالية ، بسبب قلة الجالب ،
من أذى المماليك الجلبان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضي الجماعة
الغرناطي المالكی ، توفي بغرناطة ، وكان من أهل
العلم والفضل .

وفي أواخر السنة المذكورة كثر الأذى من
العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلى حتى أن شخصا
من البيطرة قتل بالجزيرة الوسطى ، ولا يعلم من
قتله . ووجد شخص من المماليك الاينالية مقتولا
بمنزله ولا يعلم من قتله . وقتل غير ذلك جماعة
كثيرة .

سنة تسع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٤ م) :

فيها ، في المحرم ، توفي الجمالی يوسف الحنبلي
ابن الشهابي أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادي ،
قاضي قضاة الحنابلة ، وكان رئيسا حشما ، تولى
عدة مدارس الحنابلة ، منها المدرسة البرقوقية ،
وكان شاهد ديوان الأمير تراز التمشي أمير

سلاح ، وكان لطيف الذات ، عشرين الناس ،
لا بأس به .

وفيه أعيد أبو الفتح المنوفي إلى نيسابنة حمدة ،
عوضا عن عبد الرحمن بحكم وفاته .

وفيه توفي الشيخ الصالح المعتق المجدوب
سيدي علي القليوبي رحمه الله ورضي عنه . وكان
له مكاشفات وكرامات خارقة .

وفيه قبض على شخص بالقرافة يتزيا بزي أهل
الصلاح ، وله شعر في رأسه ، فدخل إلى مزار
سيدي أبي العباس الحرا ، وسرق الستر من فوق
ضريحه ، وقد فعل ذلك في عدة مزارات ، وكان في
زي حسن لا يظن به سوء . فلما اشتهر بذلك
ضرب وشهر بالقاهرة .

وفيه توفي الشيخ ولي الدين أحمد ، شيخ الآثار
النبوية وقاضي ثغر دمياط ، وكان دينيا خيرا حسن
السيرة لا بأس به .

وفيه دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد تأخر دخول
المحمل إلى رابع عشره ، مما حصل لهم في السنة
المذكورة من المشقة الزائدة ، من موت الجمال ،
والعطش .

وفيه عين السلطان تجريدة ثالثة تقوية لمن تقدم
من العسكر ، فعين تراز التمشي أمير سلاح باش
العسكر ، ومن المتقدمين أزيك اليوسفي ، وعين من
الجنود نحو من أربعمائة مملوك من المماليك
السلطانية . وكان سبب تعيين هذه التجريدة ، أن
السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم ، قد
أمد على دولات بعساكر كثيرة . وهذا أول تحول
ابن عثمان على بلاد السلطان . واستمرت الثمن
بعد ذلك تتزايد ، إلى أن كان ما سذكره في
موضعه .

وفي صفر توفي الشيخ شهاب الدين الأبناسي ،

وهو احمد بن ابراهيم بن على بن احمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا دينيا خيرا منقطعا الى الله تعالى .

وفيه توفى يحيى بن شاد بك المعروف بقاصد الحبشة ، أحد أجناد الحلقة ، وكان رئيسا حشما عارفا بلغة الحبشة ، فكه المحاضرة . ومولده بعد العشرة والثمانمائة .

وفيه توفى شيخ عربان جبل نابلس ، وهو حرب ابن أبى بكر بن محمد بن على بن عبد القادر ، مات وهو مسجون بالبرج فى القلعة ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وآل أمره الى أن مات مسجوناً .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن العسكر الذى خرج من القاهرة ، قد تقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد كسر العسكر ، وقتل منهم جماعة كثيرة من الأمراء والجند... فقتل الأمير قانى بك جشحة رأس نوبة ثانى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وقتل معه جماعة من أمراء حلب والشام . وكان قانى بك هذا أميراً انساناً حشماً حسناً شجاعاً بطلاً . تولى من الوظائف شادية الشنون ، ثم الحجوية الثانية ، ثم رأس نوبة الثانية بقى أمير أربعين . وأصله من ممالك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ورسم للخليفة أن يحضر به والقضاة الأربعة وأعيان الناس . واجتمع هناك قراء البلد قاطبة ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وهو أول من أحدث هذا المولد ، بالمشهد الشريف ، وصار يقال له مولد الخليفة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة على العادة ، وكان حافلاً .

وفيه توفى المسند رضى الدين الأوكالى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز ، الشافعى القاهرى ، وكان عالماً فاضلاً محدثاً مسنداً القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ عباس الفاسى نزيل القاهرة وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على الجمالى يوسف بن الزرايرى كاشف البهنسا ، وقرره فى الوزارة ، عوضاً عن خشقدم الطواشى ، بحكم صرفه عنها ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة .

وفيه كان تفرقة النفقة على الجند المعينين فى التجريدة بسبب على دولات ، ثم بعث النفقة الى الأمراء الذين تقدم ذكرهم . وكان تعين أقبردى الدوادار الى التجريدة . ثم بطل بعد ذلك فشق على العسكر بطلانه ، وكثر القيل والقال بسبب ذلك .

وفيه توفى أقبردى اليوسفى أحد العشراوات ، وكان أصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانصوه الغورى بامرية عشرة ، وعينه الى التجريدة ... وقانصوه هذا هو قانصوه سلطان مصر الآن .

وفيه توفى تانى بردى الشرف الاينالى ، وكان لا بأس به ، تأمر بحلب امرية عشرة .

وفى جمادى الأولى توفى تاج الدين محمد بن الكردى الحنفى ، وكان عالماً فاضلاً لا بأس به .

وفيه توفى الخوaja الكارمى بدر الدين حسن ابن ابراهيم بن عليبة السكندرى ، أخو الخوaja عبد القادر تاجر السلطان ، وكان لا بأس به .

وفيه كان خروج الأمير تمتاز التشي ، أمير
سلاح ، وأزبك اليوسفي ، ومن عين معهما من
الأمراء العشراوات والجنود ، فكان لهم يوم
مشهود . وكان عدة الجنود الذين خرجوا مع
الأمراء نحو ألف مملوك .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيعت
البطة الدقيق بأربعة أنصاف ، وكل أردب قمح
بنصف دينار . وانحطت الأسعار في سائر البضائع
بعد تلك الغلوة التي تقدمت . وكان قد اشتد
الأمر جدا وانفجر عن قريب .

وفيه توفي التاجر نور الدين بن مقلاج المصري ،
وكان في سعة من المال . وتوفي السيد الشريف
شهاب الدين أحمد الأرسوني المالكي ، أحد نواب
الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا متواضعا علامة في
مذهبه . ومولده سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفي جمادى الآخرة توقف النيل عن الزيادة ،
وقلق الناس ، ثم تزايد ، واستمرت الزيادة عمالة
حتى كان الوفاء .

وفيه عزل الجمالي يوسف بن الزرايري عن
الوزارة ، وقرر بها قاسم شغيته على عادته .

وفيه خلع السلطان على القاضي شهاب الدين
أحمد الدرسمالي ، وقرره في قضاء الاسكندرية ،
عوضا عن عقيف الدين بحكم صرفه عنها .

وفيه كثرت المرافعات في قاضي القضاة الحنفى
شمس الدين الغزى ، بسبب أوقاف الحنفية ،
فرسم السلطان بأن يتوجه الى بيت برسباى قرا
رأس نوبة النوب ، وتحضر القضاة الثلاثة ، ويعقد
مجلس بسبب أوقاف الحنفية . فلما حضر الى
هناك حصل له غاية البهدة من الجبة وغيرهم .

وفيه توفي جاني بك بن تمر باى ، ابن أخت

السلطان ، وكان شابا صغير السن جميل الصورة
لا بأس به ، ذا عقل وحشمة .

وفيه توفي سيدى محمد السدار ، رحمه الله ،
ورضى عنه ، وكان له كرامات ومكاشفات خارقة .

وفي رجب توفي العلامة شمس الدين الجوهري
وهو محمد بن عبد المنعم بن اسماعيل القاهري
الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، عارفا
بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . وله
عدة مصنفات ، وتولى عدة تداريس ، وشهرته
تغنى عن مزيد التعريف به .

وفيه توفي نور الدين على السنهورى المالكي ،
وهو الشيخ على بن عبد الله بن على الأزهرى ،
وكان اماما في مذهب المالكية ، وله شهرة طائلة ،
وكان بارعا في الفقه والعربية ، والقراءات السبع ،
وغير ذلك من العلوم ، وألف الكتب النفيسة في
العلوم الجليلة ، ومات وهو كيف . وكان دينا
خيرا صالحا مباركا ، ومولده سنة خمس عشرة
وثمانمائة . وكان عنده اطراح نفس ، مع تواضع
وتقشف ، وقد كف في آخر عمره فكان كما قيل :

كيف بالافسادة لى كفى

ضرب ما له فينا ضرب

سليب الكبر ذو قلب سليم

قرين للتقى منا قريب

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد بن
بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، وقرر في
قضاء الشافعية بدمشق ، عوضا عن الشهابى أحمد
ابن فرفور بحكم صرفه عنها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى في ثانى

عشرى مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أزيك ،
وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .
وفيه قبض السلطان على محمد بن العظمة ناظر
الأوقاف ، وسلمه الى خشقدم الزمام ، وألزمه
بمحاسبته .

وفي شعبان خلع السلطان على شرف الدين عبد
الباسط بن البقرى ، وقرره في نظر الأوقاف ،
عوضا عن ابن العظمة ، بحكم صرفه عنها .
وفيه توفي جاني بك الشمسى ، نائب الكرك ،
وكان لا بأس به .

وفيه توفي القاضى ولى الدين بركات بن الجيعان ،
وهو أبو البركات أحمد بن يحيى بن شاكر القاهري
الشافعى . وكان لا بأس به ، رئيسا حشما عارفا
بأحوال المملكة . تولى نيابة كتابة السر ، وصار
من أخصاء السلطان ، وترشح أمره لكتابة السر ،
وهرعت الناس الى يابه ، ومات وهو شاب في عشر
الثلاثين . وكان جميل الهيئة حسن الوجه ، عاقلا
بشوشا ، وله بر ومعروف وصدقات كثيرة ، وفيه
يقول الشهاب المنصوري :

قال العواذل ما لمدحك قد غدا

يزداد في الحركات والسكنات

فأجبتهم : لا تعجلوا وتأملوا

ما زاد الا وهو في بركات

فلما مات تأسف عليه السلطان ، وقال : « لو
كان يفدى بمال لفديته » . وكان يتصرف في أشغال
السلطان كما ينبغي . ولما توفي القاضى بركات قرر
أخاه صلاح الدين في نيابة كتابة السر ، عوضا عن
أخيه بحكم وفاته .

وفيه هبط النيل سريعا ، وقد ثبت على اثنتين
وعشرين أصبعا من الذراع الثامن عشر ، فشرق
أكثر البلاد ، وزاد سعر الغلال ، ولا سيما القمح ،

وكان هذا سببا للغلوة التي وقعت في السنة الآتية .

وفي رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن وردبش
نائب حلب ، خرج في جمع من العساكر ، وتقاتل
مع على دولات أخى سوار ، وقد أمده ابن عثمان
بجمع كثير من عساكره . فلما التقى العسكران ،
وقع بينهما واقعة مهولة ، فانكسر العسكر الحلبى ،
وقتل وردبش نائب حلب ، وجماعة كثيرة من
العسكر الحلبى والمجرى . وكان وردبش شجاعا
بطالا ، وأصله من ممالك الظاهر جتقى ، يعرفه
بورديش بن محمود شاه . وتولى عدة وظائفه
سنية ، منها نيابة سيسى ، ثم نيابة قلعة الروم ، ولم
يباشرها . ثم تولى نيابة البيرة ، ثم بقى أتابك
العساكر بحلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم
بقى نائب حلب ، واستمر بها الى أن قتل على يد
على دولات باى . قيل انه ضرب عنقه بين يديه .
وقتل في هذه المعركة جماعة كثيرة ، منهم ألماسى
نائب صفد ، وكان دينا خيرا ، عارفا بأنواع
الفروسية ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها
استادارية الصحبة ، وشادية الشرايخانة ، ثم بقى
نائب صفد ، واستمر بها حتى قتل . وكان شابا
عاقلا حشما لا بأس به .

وقتل أيضا أزبردى الأشرفى ، أحد الأمراء
العشراوات بحلب . وقاتل تميز حشيش بن
حشاش الاينالى ، أحد الخاصكية . وقاتل أيضا
طرباى الأشقر الابراهيمى الاينالى أحد الأمراء
بحلب . وتغرى بردى بن محمد بن قاسم أحد
الأمراء العشراوات بحلب . وغير ذلك جماعة كثيرة
من العسكر .

وتوفى طقطباى المحمدي الأشرفى نائب قلعة
حلب ، وكان لا بأس به .

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن الأمير تراز ، لما جعلت هذه الكسرة لعسكر حلب ، ركب هو والأمير أزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصري ، وتوجهوا إلى على دولات فتقاتلوا معه ، فانكسر على دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ، ونهبوا جميع بركههم ، وأخذوا صناعق ابن عثمان ، ودخلوا بها إلى حلب ، وهي منكسة . وكانت هذه الحركة أول الفتن مع ابن عثمان ، واستمرت من يومئذ عمالة مع سلطان مصر ومعه ، حتى كان من أمرهما ما سنذكره . وكان أصل هذه الفتنة تعصب ابن عثمان لعل دولات ، وكان ابن عثمان متحملا على سلطان مصر في الباطن ، بسبب أشياء لم تظهر للناس .

وفيه رسم السلطان بنقل قانصوه الخفيف الإينالى ، من دمياط ، إلى مكة المشرفة ، وقد بلغه عنه ما يوجب تغير خاطره عليه .

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة في غير أوانها ، بعد انهباطه ، وقد شرق غالب البلاد فدخل الماء إلى الخليج ، بعد ما كان قد نشف ، فتعجب الناس من ذلك ، ولكن لم تفد هذه الزيادة شيئا في رى البلاد التي شرقت قبل ذلك .

وفي شوال خرج الحاج من القاهرة ، وأمير المحمل كان الأمير أزدمر تساح أحد المقدمين . وبالركب الأول برسباى العلائى أحد العشراوات ، وحج صحبته سيدى منصور ابن الظاهر خشقدم . وكان برسباى العلائى زوج أم سيدى منصور . وحج في السنة المذكورة أبو البقاء بن الجيعان ، وصحبته جان بلاط ، ومامى الخاصكيان . وقد توجه بسبب ما رتبة السلطان في المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، من أمر

تفرقة الدشيثة التي رتبها هناك . وحج في هذه السنة المذكورة عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثى ، وولده العلامة ، وكانا قدما من سمرقند لأجل الحج . وحج في السنة المذكورة الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس يروم الحج ، وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ، رأس نوبة السقاة ، فخرج صحبة الحاج منفا إلى مكة المشرفة ، وقد بلغ السلطان عنه أنه يضرب دراهم مغشوشة ، فقبض عليه ، وعلى شخص من مماليك الأتابكى أزبك ، يقال له ترمبغا . فوجدوا في بيت مثقال آلة الضرب التي يصنعون بها الدراهم الزغل ، فرام السلطان قطع أيديهما ، فشنع فيهما من القطع ، فنفى مثقال الساقى ، وسجن ترمبغا على مال ، حتى مات في السجن .

وفيه مات على بن قمتى رأس نوبة النقباء ، وكان من كبار الظلمة ، مات تحت العقوبة . وكان من أعيان الناس ، خدم جان بك نائب جدة لما كان دوادارا كبيرا ، وخدم السلطان قايتباى لما كان رأس نوبة النوب ، وخدم يشبك الدوادار . ثم تكلم في بعض جهات السلطان ، فوقف عليه مال ، واستمر تحت العقوبة حتى مات ، وكان من الأشرار .

وفيه توفى سودون الصغير العلائى الظاهرى ، أحد الأمراء الطبلخانات توفى بحلب . وكان يعرف بسودون الخازندار ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان محمد بن العظمة ، ناظر الأوقاف ، بالمقارع في وسط الحوش ، وكتب عليه قسامة ألا يعود قط يسعى في نظر الأوقاف ،

ومتى سعى فيه يكون دمه هدرا ، ثم سجن بالمقشرة وكتب من هذه القسامة أربع نسخ ، وبعث الى كل قاض نسخة منها .

وفيه توفى قرقماس بن بخشباى البواب ، أحد الأمراء العسراوات ، وكان موته فجأة . وكان من خواص السلطان .

وفيه توفى أزبك أبو زيد الابنالى أحد أمراء حماه ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى المسند الشريف أبو السعود محمد العلوى الهاشمى الشافعى . وكان من الفضلاء بارعا فى الحديث .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن على دولات ، قد أطلق ابنال السلحدار نائب طرابلس ، وكان عنده مأسورا .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى أزدمر أمير مجلس ، ورسم له بعوده الى نيابة حلب ، كما كان أولا ، عوضا عن وردبش بحكم قتله عند على دولات .

وفيه خلع السلطان على مملوكه اينال الخفيف ، الذى كان أتابك العساكر بحلب ، ورسم له بأن يكون نائب صفد . وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه ، فنفاه الى البلاد الشامية ، فأقام بها مدة ثم رضى عليه وولاه نيابة صفد بعد نيابة سيس ، وأتابكية حلب ، ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه .

وفيه اقترن المشتري وزحل ببرج العقرب ، وذكر أرباب علم الفلك أن هذا القران لم يقع من منذ مائتين وستين سنة ، وأن ذلك يدل على وقوع قتن عظيمة ، وكان الأمر كذلك كما سيأتى الكلام عليه فى محله .

وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من الجند يقال له جرياش المجنون ، وكان غاية فى الرمى بالنشاب ، وقف للسلطان فى طلب اقطاع عن شخص توفى ، فلم يجبه السلطان الى ذلك ، فلما نزل الى داره ذبح نفسه بيده من حنقه من السلطان ، فراحت روحه ولم يرث له أحد .

وفيه توفى الزينى عبد الباسط ابن علم الدين شاكر بن الجيعان . وكان رئيسا حشما متحدثا على مباشرات عديدة من مدارس وجوامع وأوقاف ، وكان ديننا خيرا عفيفا عن الرشوة صلبا فى أموره ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه عز وجود القطن جدا حتى بلغ سعر كل قنطار أنفين وأربعمائة درهم ، ولا يوجد .

وفيه خلع السلطان على قريبه بيبرس الرحبى ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن اينال السلحدار ، بحكم أسره عند على دولات .

وفى ذى الحجة ارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية .

وفيه عز وجود الضحايا من الغنم والبقر بواسطة أذى المماليك الجلبان .

وفى يوم عيد النحر أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأرض ، وحصل للناس مشقة فى مرورهم فى الشوارع الى صلاة العيد .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان أسر عند على دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من عند الأبهام وأطلقهم .

وفيه جمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان بسبب ما وقع منه فى تعصبه لعلى

دولات ، فأشار السلطان هو والأتابكي أزبك وغيره من الأمراء ، بأن السلطان يرسل هدية على يد قاصده ، وتزول هذه الوحشة من بينهما . فانصاع السلطان لهذا الكلام ، وعين في ذلك المجلس الأمير جاني بك حبيب ، أمير آخور ثاني ، وكان حلو اللسان سيوسا دريا . وقد تقدم أنه توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، وتلطف به في الكلام ، حتى أطلق من كان عنده من الأمراء والنواب والجند ، كما تقدم .

وفيه خرج ببيرس الرحبي ، الذي قرر في نيابة طرابلس ، وكان له يوم مشهود .

وفيه توفي ناظر جيش غزة ابراهيم بن عبد الرحمن ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وتوفي الشيخ المعتقد أحمد السبوعي ، وكان من أعيان الصوفية ، وله اختصاص بالأتابكي أزبك .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له قايتباي ، من ممالك السلطان ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن القاضي كمال الدين ناظر الجيش اختار المجاورة بمكة المشرفة ، وكان حج في السنة المذكورة . وحضر صحبة المبشر دولات باي بن مصطفى ، الذي كان نائب غزة ونفاه السلطان الى مكة المشرفة ، فبعث بحضوره ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب قونية من بلاد ابن قرمان ، وهو عبد الله أخو الجمجمة بن عثمان ، تولى على قونية بعد أخيه جمجمة ، وكان حسن السيرة لا بأس به .

سنة تسعين وثمانمائة (١٤٨٥ م) :

فيها ، في المحرم ، كانت وفاة قاضي القضاة محب

الدين ابن الشحنة الحنفي ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي الشقي ثم الحلبي . كان عالما فاضلا بارعا في مذهب أبي حنيفة . وكان ناظما ناثرا رئيسا حشما ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى عدة وظائف سنية منها كتابة سر مصر ، ونظر جيشها ، وتولى قضاء قضاة الحنفية عدة مرار ، ثم ولي مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومات وهو شيخ بها ، وجرى عليه شذائد ومحن شتى ، واعتراه في آخر عمره مرض الفالج ، واستمر به الى أن مات وقد ذهل في عقله . وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، ومات وقد قارب التسعين سنة من العمر ، وكان من أعيان الناس ، ورؤساء مصر ، وله عدة تأليف جليلة . ومن شعره قوله :

قلت له لما وفي موعدى

ان سلوى عن هواكم نفاق

وجاد بالوصل على وجهه

حتى سما كل حبيب وفاق

فلما مات تولى ابنه الشيخ سري الدين عبد البر مشيخة الخانقاه الشيخونية ، عوضا عن أبيه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحضر أبو البقاء ابن الجيعان وجانبلاط وماماي ، وجماعة من أقارب السلطان كانوا في الحجاز في تلك السنة .

وفيه وصل قرقماس التني نائب طرسوس ، وكان ممن أسر عند على دولات .

وفيه توفي يشبك العلاني نائب حماه ، وكان لا بأس به ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها امرية عشرة بمصر ، وبقي من جملة رءوس النوب . ثم تولى نيابة الكرك ، ثم نيابة غزة ، ثم حجوية الحجاب بدمشق ، ثم نيابة حماه ومات بها .

وفي صفر أرسل السلطان الى سيابى الطيوري صاحب دمشق ، وقرره في نيابة حماه ، عوضا عن يشبك العلاني بحكم وفاته ، وقررا في حجوبة دمشق بلباي ، أحد الدوادارية بدمشق ، وقرر في الدوادارية جانى بك الطويل أحد ممالك السلطان .

وفيه كان توجه جانى بك حبيب ، أمير آخور ثاني ، الى ابن عثمان وقد تقدم القول في ذلك . فتوجه اليه من البحر المالح من الاسكندرية . وأرسل السلطان صحبته تقليدا من الخليفة الى ابن عثمان ، بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد الكفرية . وأرسل اليه أيضا الخليفة مطالعة تتضمن تخميد هذه الفتنة التي قد انتشت بينه وبين السلطان ، وفي المطالعة بعض ترفق له .

والذي استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بينه وبين السلطان أن بعض ملوك الهند أرسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند . فلما وصل الى جدة احتاط عليها نائب جدة ، وأحضرها صحبته الى السلطان ، وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مشنة . فطمع السلطان في تلك الهدية ، وأخذ الخنجر . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . وجاء في عقب ذلك أن على دولات ترامي على ابن عثمان ، وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه . فتعصب لعل دولات وأمدته بالعساكر ، واستمرت الفتنة تتسع حتى كان منها ما سنذكره في موضعه . وقد طمع غالب ملوك الشرق في عسكر مصر ، بموجب ما وقع لهم مع سوار وبابندر ، وغير ذلك من ملوك الشرق . ثم ان السلطان أرسل الخنجر المذكور والهدية التي بعث بها ملك الهند ، وأرسل

يعتذر الى ابن عثمان عن ذلك بعد أن صار ما صار ، فكان كما قيل :

جرى ما جرى جهرا لدى الناس وانبط
وعذر أتى سرا يؤكد ما قسرت
ومن ظن أن يمحو جلي جفائه
خفي اعتذار فهو في غاية الغلط

ثم ان جانى بك لبس خلعة السفر ونزل في موكب حافل ، وتوجه الى ثغر الاسكندرية ، ونزل من هناك في مراكب ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان من البحر الملح .

وفيه قرر في الأتابكية بحلب قرقماس التمي ، عوضا عن اينال الخفيف ، بحكم انتقاله الى نيابة صفد . وقرر في نيابة الكرك أمير زاده بن حسن الدوكاري ، عوضا عن جانى بك الطويل .

وفيه توفي خليفة سيدي ابراهيم الدسوقي ، رحمه الله ورضي عنه ، وهو خير الدين أبو الكرم الشافعي وكان لا بأس به .

وفي ربيع الأول عرض السلطان العسكر وعين تجريدة الى على دولات ، وعين بها من الأمراء برسباي قرا رأس نوبة النوب ، وتاني بك الجمالي أحد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش العسكر الى أن يخرج الأتابكي أزيك . ثم أنفق على العسكر الذي تعين للتجريدة فبلغت النفقة زيادة عن مائة ألف دينار .

وفيه توفي قاضي قضاة الشافعية كان ، وهو بدر الدين محمد أبو السعادات ابن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنائي الشافعي ، وكان عالما فاضلا بارعا . تولى قضاء الشافعية بمصر في دولة الظاهر خشقدم ، ولم تطل مدته بها ، وكان عنده خفة روح زائدة ، ورهيج في الأمور .

وفيه توفي عبد القادر الحمامي الجاني ، وكان
رئيسا حشما سيوسا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد ، وكان حافلا ،
ونصب في ذلك اليوم الخيمة العظيمة التي أقامها
على يديه ، وجاءت في غاية الحسن والتخريف .
وحضر في هذا المولد ملك التجار أحمد بن محمود
ابن كاوان ، وكان جاء صحبة الحجاج من مكة
المشرقة ، فعظم أمره بمصر جدا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ب وفاة
الواعظ المحدث شهاب الدين أحمد العميري
المقدسي ، وكان عالما فاضلا علامة في فن الوعظ ،
دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه توفي برسباي بن ترميغا الظاهري المعروف
بحشيش ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان
لا بأس به .

وفيه عمل مولد السيدة نفيسة رحمها الله ورضى
عنها ، وحضره الخليفة والقضاة الأربعة ، وكان
حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ب وفاة
الشيخ سعد الله الهندي الحنفي امام المسجد
الأقصى . وكان من أهل العلم والفضل ، عارفا
بالقراءات السبع ، وكان أحد نوب النوب بدمشق .

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة يشبك البجاسي ،
الذي كان نائب حلب ، وغزل عنها ، مات بصفا ،
وقد قاسى شدائد ومحنا ، ولا سيما ما وقع مع
النابلسي وكيل بيت المال . وكان رئيسا حشما
تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة ملطية ، ونيابة
حماء ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وصور
وسجن بدمشق ، ثم نقل الى صفا فمات بها .

وفيه رسم السلطان للقضاة والشهود « ألا

يعتد أحد منهم نكاحا على جلب من مماليكه » ،
فقلق الممالك من ذلك ، ثم توجهوا فيما بعد
للزواج ، ولم يلتفتوا الى قول السلطان .

وفي ربيع الآخر وجد شخص من الممالك
السلطانية ، يقال له فارس الزردكاش ، مقتولا
بالصوة ، ولا يعلم من قتله ، وجد بعد صلاة
الصبح .

وفيه خرج العسكر المعين الى على دولات ،
وكان باش العسكر برسباي قرا رأس نوبة النوب ،
وصحبته تاني بك الجمالي أحد المقدمين ، وعدة
من الأمراء العشراوات . وقد خرج المقدمون من
غير طلب .

وفيه قبض أقبردي الدوادر على جماعة من
أولاد ابن عمر وسجنهم في البرج الذي بالقلعة ،
وقد أحضرهم صحبته لما توجه الى الوجه القبلي ،
وقد تغير خاطر السلطان على بني عمر .

وفي جمادى الأولى قرر في امريه الحاج بالمحمل
أزدر المسرطن أحد المقدمين ، وبالأول برسباي
اليوسفي أحد الأمراء الطبلخانات .

وفيه قرر دولات باي الحسن الظاهري ، شاد
الشون ، في رأس النوبة الثانية عوضا عن قاني بك
جشحة ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة مدة طويلة
وفيه توفي قراجا نائب جدة ، وكان أصله من
ممالك جاني بك نائب جدة ، وكان لا بأس به .

وفيه وصل الى القاهرة اينال السلحدار الأشرفي
الذي كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان ، وخلع
عليه ، وأقره في شادية الشراب خاناه .

وفيه توفي الشيخ المعتقد نور الدين على من

أولاد سيدى يوسف العجمى ، رحمة الله عليه ،
وكان لا بأس به .

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة فى العام
المذكور ثمانية أذرع وعشرين أصبعا ، فعد ذلك
من النوادر .

وفيه أعيد القاضى شهاب الدين بن فرفور
الدمشقى ، الى قضاء الشافعية بدمشق ، مضافا
الى نظر الجيش ، وصرف عنها ابن المزلق .

وفيه هجم المنسر على الناس ، وهم فى زيارة
الامام الليث بن سعد رحمه الله ورضى عنه ، فأخذوا
عمائم الزوار حتى أزر النساء ، وعروا النساء فى
الطريق بطولها ، حتى وصلوا الى باب القرافة ،
وكانت كائنة عظيمة .

وفى جمادى الآخرة ، ضرب السلطان السيد
الشريف الذى كان كاتب سر دمشق ، وأودعه
بالمقشرة ، ولم يرث الى شرفه .

وفيه قرر الشيخ كمال الدين ابن أبى شريف
المقدسى ، فى مشيخة مدرسة السلطان التى أنشأها
بالقدس الشريف ، وجاءت غاية فى الحسن .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف ، موفق
الدين الحموى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق .

وفيه رسم السلطان بقطع يد مملوك من
جلبانه ، قد سرق غير مامرة ، فلما أراد قطع يده
شفع فيه بعض الأمراء ، فحنق منه السلطان ، ورسم
بقطع رجله أيضا .

وفيه رسم السلطان للأمير أقبردى الدوادار ،
وأبى البقاء بن الجيعان ، وجانبلاط ، وماماي ،
ورمضان ، بأن يتوجهوا الى القدس وصحبته من
القراء والوعاظ جماعة ، وأن يعمل وليمة لمدرسة
السلطان التى أنشأها بالقدس ، وقد انتهى منها

العمل . وخرج ابن أبى شريف صحبته ، وقد تقدم
تقريره بالمدرسة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن
عثمان قد استولى على قلعة كوك ، وكان بها
شخص من المماليك السلطانية يقال له طوغان
الساعى . فلما حاصروه أسلمها اليهم بالأمان .
وكانت هذه أول وقائع ابن عثمان ، ثم اتسع الأمر
بعد ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس ،
صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن على
ابن سعد بن محمد بن الأحمر . وكان من خيار
ملوك الغرب ، مشتهرا بالعدل ، عارفا بتدبير
المملكة ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن
الأمطار كانت قليلة بها جدا ، وأن الآبار قد
نشت ، وأن العين التى أجراها السلطان قد
وقفت ، وحصل لأهل مكة الضرر الشامل بسبب
ذلك .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، والزعر
والعييد ، حتى أعيا أمرهم الوالى وحاجب
الحجاب ، وصارت الأحوال فى اضطراب .

وفى ثانى شعبان كان وفاء النيل المبارك وقد
أوفى فى العشرين من مسرى ، فلما أوفى توجه
الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما
مشهودا .

وفيه قرر البدرى محمود بن أجا ، فى قضاء
الحنفية بحلب ، عوضا عن ابن الحلاوى . وكان
هذا أول شهرة البدرى محمود بن أجا .

وفيه كان أول فتح خليج الأربكية وكان يوما
مشهودا . وعزم الأمير أزبك على الأمراء المقدمين ،

بالقصر المطل على البركة ، ومدت لهم الأسسطة الحافلة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب ، بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد ، وأن الفرنج قد استولت على مدينة مالقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس الرحبي قريب السلطان ، الذي كان نائب طرابلس ، وكان قد أشيع ذلك وقد صح .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر ابن عثمان ، قد استولوا على أطراف بلاد السلطان . وأرسل أزدمر ، نائب حلب ، يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة ، أو يخرج السلطان بنفسه . فتكدر السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكي أزيك ، وكان هو المشار اليه في تعيين الجند ، مما يختاره منهم . ثم عرض القرانصة وأولاد الناس ، وصار الذي لا يطيق السفر منهم يقيم له بديلا كاملا بخيوله وليس له ، وغير ذلك ، ويورد مائة دينار من له اقطاع وجامكية . ثم ان المماليك المعينة للسفر ، أطلقوا في الناس النار ، وصاروا يأخذون بفصال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا بفال الطواحين والأكاديش التي بها ، وتعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت أن تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن كل من أخذ له بغل أو فرس يطلع الى أمير آخور كبير يخلصه ، فتسكن الحال قليلا .

وفي رمضان توفي برسباي الخازن دار المحمودى ، وكان من أخصاء السلطان ، وهو من الأمراء العشرافات ، وكان لا يأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة

القاضي كمال الدين ناظر الجيش ، وكان مجاورا بسكة المشرفة ، فأتاه الأجل هناك ، وهو محمد بن يوسف ناظر الجيش ، المعروف بابن كاتب جكم ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم ، وتولى نظر الجيش وهو في حداثة سنه ، وبأشر ذلك أحسن مباشرة ، وجمدت سيرته بها حتى مات . وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وكان حافلا جدا ، وفرقت الخلع والتصر على الفقهاء والعلماء .

وفي شوال خرج العسكر المعين الى على دولات ، وكان باش العسكر الأتابكي أزيك ، وكان صحبته : قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أحد المقدمى الألوف ، وقد تقدم قبلهم ستة من الأمراء المقدمين أزدمر أمير مجلس ، وتغرى بردى ططر ، وقرر بعدهم تراز أمير سلاح ، وأزيك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين . ثم خرج من بعدهم برسباي قرا رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجبالي أحد المقدمين ... فكان جملة الذين خرجوا أولا وآخر تسعة أمراء بالأتابكي أزيك . ومن الجند نحو من ثلاثة آلاف مملوك مما تقدم في الأول والآخر . وكانت هذه التجريدة من أعظم التجاريد . وطلب الأتابكي أزيك طلبا حافلا ، حتى رجعت له القاهرة . وكذلك قانصوه خمسمائة كان طلبه غاية في الحسن بحيث لم يعمل مثله قط ، قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحو من ثمانين ألف دينار . وخرج العسكر وهم لا بسون آلة الحرب ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مع الأمير أزيك عدة أمراء طبلخانات ، وعشراوات ، والجسم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، فعقدت هذه التجريدة من النوادر .

وفيه كانت وفاة الخواجه محيى الدين عبد القادر ابن ابراهيم بن حسن ، المعروف بابن عليبة

السكندري ، تاجر السلطان . وكان رئيسا حشما
من أعيان التجار .

وفيه خلع السلطان على القاضي شهاب الدين
أحمد بن ناظر الخاص يوسف ، وقرره في نظر
الجيش ، عوضا عن أخيه كمال الدين .

وفيه خلع السلطان على بن عامر ، وقرره
في امرية آل فضل بحماه ، عوضا عن عساف بحكم
قتله .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب
المحصل أزدمر المرطن ، وبالركب الأول برسباي
اليوسفي .

وفيه طيف برأس شخص من العربان المفسدين ،
بقال له محمد بن عامر ، أحمد مشايخ هواره ،
وبعث بها ابن الزرايري الكاشف ، وعدة رؤوس
من العربان المفسدين .

وفي ذي القعدة ، في ثالث عشر هاتور ، زاد النيل
زيادة مفرطة نحو الذراع ، حتى تعجب الناس
من ذلك .

وفيه عاد جاني بك حبيب الذي توجه الى ابن
عشان قاصدا ، وكان قد سافر أولا من البحر
المالح ، وعاد من على ملطية . فلما طلع بين يدي
السلطان ، كان عليه خلعة ابن عثمان ، فخلع عليه
وعلى من كان معه من الخاصكية . ثم ان جاني بك
حبيب خلا بالسلطان ، وأخبره عن أحوال ابن عشان
بأنه ليس براجع عن آذاه لعسكر مصر ، وأنه لم
ير منه اقبالا ولا أكرمه ، وأنه غير ناصح للسلطان .
فكثر القال والقليل بسبب ذلك .

وفيه توفي شمس الدين الوفاي قاضي الخاققاه ،
وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفي ذي الحجة توفي قائم الفقيه الظاهري ،

أحد الأمراء العشراوات ، وكان بأش المجاورين
بسكة المشرفة ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه أعيد الزيني أمير حاج الى نقابة الجيش
على عادته ، وصرف عنها موسى بن الترجمان بعد
كائنة عظيمة وقعت له ، وكان غير محمود السيرة
سيء التصرف في أفعاله .

وفيه قرر السلطان كرتباي بن مصطفى المعروف
بالأحمر ، في كشف البحيرة ، عوضا عن قراكر
مسلوك تراز أمير سلاح .

وفيه جاءت الأخبار من نائب حلب بأن على
دولات أرسل يسأل في الصلح ، بعدما اتسع الخرق
على الراقع ، كما قيل في المعنى .

أتروض نفسك بعد ما هربت
ومن الغناء رياضة الهرم

وفيه توفي قاضي الجعاعة أبو عبد الله محمد بن
محمد القلجاني التونسي المالكي ، وكان عالما
فاضلا بارعا في مذهبه ، قدم الى مصر ، وأقام بها
مدة ، ثم عاد الى بلاده فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة المستنصر بالله محمد ،
من أولاد الملك مسعود ، صاحب تونس . وكان
أكبر أولاده مستوليا على إحدى جهات المغرب .
وكان شابا حسن السيرة عادلا في الرعية ، فتأسف
عليه والده جدا .

وقد خرجت السنة المذكورة عن فتن وشور
ببلاد الشرق وبلاد الغرب . وحصل في مصر
تشحيطة في سائر الغلال واشتد السعر ، ووقع
الاضطراب بسبب ذلك لأهل التجاريد . وحصل
للناس من الممالك ما لا خير فيه ، من أخذ البغال
والخيول وغير ذلك ، مما حصل به الضرر الشامل ،
وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ، وحصل للناس
وقوف حال ، بسبب ضرب الفلوس الجدد ،
وتبديل الفلوس العتيق ، والأمر لله تعالى في ذلك .

١٤٨٦ م) : احدى وتسعين وثمانمائة

في المحرم ، كان خليفة الوقت الامام أمير
مدين ، المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز ،
في العصر الملك الأشرف قايتباي أبو النصر ،
مستوفى بالمحمودى الظاهرى . وأما القضاة
فهم : قاضى القضاة زين الدين زكريا
سرى الشافعى ، والقاضى شمس الدين محمد
بن الحنفى ، والقاضى محيى الدين بن تقى الدين
بنى ، والقاضى محمد السعدى الحنبلى . وأما
الأمراء المقدمون ، فمنهم أرباب الوظائف سنة وهم :
أبى أزبك بن ططخ أمير كبير ، وتمراز
أمير سلاح . وأما أمرية مجلس فكانت
منه من حين عزل منها أزدمر قريب السلطان
بنى نيابة حلب ، وبرسباي المحمدي الظاهرى
بنى نوبة النوب ، وقانصوه بن طراباى المعروف
بسمائة أمير آخور كبير ، وأقبردى بن على باى
بن دوادار كبير ، وتغرى بردى ططر حاجب
سحاب . وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف :
بنى اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك
بنى ، وتانى بك قرا الاينالى ، وأزدمر تمساح ،
بنى المسرطن ، ويشبك الجمالى . وأما الأمراء
السلطانات فكانت عدتهم يومئذ نحو عشرة . وأما
بنى العشاوات فكانت عدتهم يومئذ نحو من
بنى أميرا . وأما أرباب الوظائف من المتعممين :
بنى كاتب السر زين الدين أبو بكر بن
بنى ، ونائبه صلاح الدين بن الجيعان ،
بنى الجيش الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ،
بنى الخاص ، ومستوفى ديوان الجيش القاضى
بنى البقاء بن الجيعان ، وناظر الخاص علاء الدين
بن الصابونى ، وقد جمع بين نظارة الخاص ووكالة
بنى المال ، والوزارة بيد فاسم شغيته متحدثا فيها ،

وشرف الدين بن البقرى ناظر الدولة ، وقد جمع
بين نظارة الدولة وبين نظارة الأوقاف فى تلك
الأيام . والبدرى بدر الدين بن مزهر محتسب
القاهرة ، ووالى الشرطة يشبك بن حيدر الاينالى ،
واستادار العالية تغرى برسى المعروف بالقادرى ،
ونقابة الجيش بيد أمير حاج بن أبى الفرج ، وكتابة
الخزانة بيد عبد الغنى بن الجيعان ، وكتابة المسالك
بيد يوسف بن أبى الفتح نائب جدة ، ونظارة
الاصطبل بيد يحيى بن البقرى ، ونظارة الزردخانه
بيد عبد الباسط بن تقى الدين ، ونظارة الكسوة
الشريفة بيد رمضان المهتار ، ونظر الجوالى بيد
نور الدين على البتنونى المعروف بالحنبلى . وأما
أرباب الوظائف من الطواشية : فخشقدم الزمام
الأحمدى ، وخالص التكرورى مقدم المسالك ،
ونائبه عنبر ، وسرور شاد الحوش وغير ذلك من
أرباب الوظائف لم نذكرهم خوف الاطالة فى ذلك ،
وانما ذكرنا الأعيان منهم . فهذا كان ترتيب أرباب
الوظائف فى مستهل السنة المذكورة على حكم
ماذكرناه . ثم انقلبت الوظائف الى جماعة كثيرة
من الأتراك والمباشرين كما سيأتى ذكره فى
موضعه .

وفيه ، أعنى هذا الشهر ، توفى السيد الشريف
أبو عوانة ، واسمه أحمد بن أبى بكر التوسى
المالكي رحمه الله ، وكان يعرف بالعوانى ، وكان
دينا خيرا جميل الصورة حسن الشكل ، ومولده
بعد الأربعين والثمانمائة .

وفيه توجه السلطان الى جهة الشرقية ليكشف
على الجسور ، فغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة .
وفيه تنهاى سعر البرسيم ، كل فدان محضر
بائنى عشر دينارا ، وبيع الدريس الحوفى كل مائة
قنة بأربعمائة درهم حتى عد ذلك من النوادر ...
وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ،
وكان النيل خسيسا ، والذي طلع من البرسيم

أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعاً في السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء والروايا من عدم العلف لجمال السقائين .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهو راكب ، وكان معه القاضى قطب الدين الخضيرى ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجه الى خرطوم الروضة ، وعدى وأقام به الى آخر النهار ، ونصب له هناك خيمة سحابة وموخر ، فطاب له ذلك المكان ، فأمر ببناء قصر مظل على الأربع جهات هناك ، فلم يتم له ذلك .

وفيه كان دخول الحاج فى خامس عشره ، وقد حصل لهم بموت الجمال وشدة الغلاء مشقة زائدة . وكان أمير ركب المحسل أزدمر ، وبالركب الأول برسبای اليوسفى . وقد جاور أكثر الناس ، وانقطع جماعة بالينبع ، ولم يدخلوا القاهرة الا بعد أيام .

وفيه توجه أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب فساد أولاد ابن عسر .

وفيه توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وكشف عن أحوالها . ثم عاد الى القلعة ، وألزم سرورا شاد الحوش بعمل مصالح الصوفية التى بتربة الظاهر برقوق .

وفى صفر قتل القاضى تقى الدين أبو بكر المعروف بخروف ، قتل ببولاى ولا يعلم من قتله . وكان رئيساً حشماً لا بأس به . وكان ترشح أمره بأن يلى قضاء الحنفية فى دولة الظاهر خشقدم ، وقد سعى له ابن العينى .

وفيه خسف جرم القمر ، وأظلم الجو ، واستمر على ذلك نحو من خمسين درجة .

وفيه توفى سيدى موسى بن الخليفة الشوكلى ، على الله ، عم أمير المؤمنين أبى العز عبد العزيز ، وكان رئيساً حشماً وفاته بالخلافة عدة مرار . وقد تولى أربعة من اخوته وهو مبعده لقله حظه . وكان مولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين عربان جبل نابلس ، وقتل فيها أقبردى بن بخشايش الاينالى استادار الأغوات . وقتل أيضاً جماعة كثيرة من العربان . منهم : أبو بكر أمير حزم ، ويوسف بن الجيوسى أحد المشايخ بنابلس ، وجماعة كثيرة من أولاد اسماعيل ، وأولاد عبد القادر ، وكانت فتنة شنيعة مهولة . فلما بلغ السلطان ذلك عين أقبردى الدوادار الكبير بأن يتوجه الى جبل نابلس ويخمد هذه الفتنة التى بين العربان ، فخرج مبادراً الى ذلك .

وفيه كانت وفاة قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو ولى الدين أحمد الأسيوطى ابن أحمد بن عيمد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالماً فاضلاً محموداً فى أيام قضائه ، رئيساً حشماً سيوساً فى أفعاله . ولى القضاء الأكبر ومشیخة الجمالية ، والناصرية ، وعدة تداريس ، وأقام فى القضاء ، وهو مع الناس فى أحسن سيرة ، ودام فيها ست عشرة سنة ، والناس راضون عنه ، وكان مولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب ، بأن العسكر المصرى تقاتل مع عسكر ابن عثمان ، وانتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم جماعة كثيرة نجوا من أربعين ألفاً من توابع عسكره ، وقبض على أحمد بك بن هرسك ، وكان باش عسكر ابن عثمان وأجل أمرائه — ومعه جماعة من الأمراء أصحاب

بن العثمانية ، وأسروهم وأودعهم في
سجن فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

في ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي ،
فلما كان أكثر الأمراء غائباً بالتجريدة .
من مصر من الأمراء المتقدمين سوى ثلاثة

توفي القاضي حسن بن عرب ، وهو على
الطبيب الشافعي ، أحد نواب الشافعية
بإديار المصرية ، وكان لا بأس به .

اختفى القاضي شهاب الدين أحمد ناظر
أخو القاضي كمال الدين ، فلما اختفى
سلطان على البدرى محمد ابن القاضي
الدين ناظر الجيش ، وقرره في نظر الجيش ،
من عمه الشهابي أحمد بحكم اختفائه .
البدرى هذا حديث السن ، لما تولى نظر
لم يلتج بعد .

قرر شاهين الجمالي في مشيخة الحرم
بإديار المصرية .

توفي المسند شمس الدين محمد البساطي
بإديار المصرية ، وكان علامة في الحديث ، وكان ديناً
بإديار المصرية .

وصل دوا دار نائب حلب ، وأخبر بصحة
ابن عثمان ، والقبض على أحمد بك بن
الجماعة من أمراء ابن عثمان ، وأعيانهم .
أخذ العسكر المصري من النهب ما لا يحصى
خيول وجمال وسلاح وبرك وقماش وغير
وأخذوا صناعهم ، وكانوا نحواً من مائة
من صنجقا ، وقد قطعت عدة وافرة من رؤوس
ابن عثمان ، وسيحضرون صجبة قيت الرحبي

الساقى الخاصكى ... قرر السلطان لهذا الخبر ،
وخلع على دوا دار نائب حلب خلة حافلة .

وقيه سقط الصاري الخشب الذي تعلق فيه
القناديل في رمضان بمنارة جامع القلعة ، فأخذ
الناس يتفألون بشيء يحدث للسلطان عن قريب .
فلما كان اليوم الثاني من انكسار الصاري ، ركب
السلطان على فرس وسير في الحوش ، ثم ساق
ونزع الفرس بالجوام ، فشب به وانقلب على
السلطان ، فسقط الى الأرض وبقيت رجله تحت
جنب الفرس ، فانكسرت رجل السلطان من عند
عظمة فخذ كسرا بليغا ، فأغمى عليه ، وسال منه
الدم ، فأرجفت القلعة بموت السلطان ، واضطربت
أحوال القاهرة بسبب ذلك ، وكثر القال والقليل
بين الناس ، ولم يشك في موته أحد ، بل تيقنوا
ذلك . فحمله بعض الخاصكية ، وهو مغشى عليه ،
وأدخله الى قاعة الدهيشة . فتسامع الأمراء بذلك
فطلعوا اليه ، ثم طلع كاتب السر ابن مزهر ، فلما
دخل عليه قال له اكتب في الحال في هذه الساعة
مراسيم ، وأرسلها الى نائب حلب ، لتطمئن الأمراء
والعسكر بسلامة السلطان من هذا العارض . وقد
حصل له السلامة والشفاء عن قريب ، فكتبت
المراسيم بصورة الحال ، وأدرجت على يد هجان
في أثناء ذلك اليوم ، وتوجه الى حلب ، وقد نظم
بعض شعراء العصر يعتذر عن هذه الواقعة بهذين
البيتين وهما قوله :

وقد زعموا أن الجواد كبا به

وحاشاه من عيب يضاف اليه

ولكن رأى سلطان عز وهية

فقبل وجه الأرض بين يديه

وفيه توفي الشيخ صالح زين الدين عبد الرحيم
ابن ابراهيم بن حجاج الأبناسي القاهري الشافعي ،

وكان عالما فاضلا دينيا خيرا صالحا ، منجمعا عن
آبناء الدنيا ، متصوفا على طريقة السلف ، متواضعا
جدا ، وطلب للقضاء غير ما مرة ، وهو يأبى من
ذلك ، ولما مات دفن بزاوية الشيخ شهاب الدين
التي بجدرة الفول عند بركة الرطلى .

وفي ربيع الآخر طلع القضاء الى القلعة للتهنئة
بالشهر ، فأذن لهم بالدخول على السلطان وهو في
القاعة التي بالدهيشة ، وهى قاعة الحريم ، فلما
دخلوا عنده وجدوه على سرير وقد قوروا له
الفرش من تحته ، ورجله قدامه ، وهو لا ينام ولا
يتحرك ، وكان الأمراء والمباشرون يدخلون عليه
كل يوم ، ويعطونه الخدمة ، وهو جالس على ذلك
السرير فيدعون له وينصرفون .

وفيه وصل قيت الساقى من حلب ، ومعه عدة
وافرة من الرؤوس التي قطعت من عسكر ابن عثمان .
فلما دخل الى القاهرة ، زينت له زينة حافلة ،
واصطفت الناس للفرجة ، فدخل وقدامه الرؤوس
محمولة على الرماح ، وكان عدتها ما يزيد على
مائتى رأس . فلما طلع الى القلعة ، دقت له البشائر ،
وأقيمت الخدمة بالحوش ، ووقف أرباب الدولة
كل واحد في منزلته ، على العادة ، وغطيت الدكة
التي يجلس عليها السلطان بالملاءة الحرير ... فلما
استقر قيت الساقى بالحوش ، باس الأرض الى
نحو الدكة ، فأحضرت له خلعة ولمن كان صحبته
من المماليك السلطانية ، فلبسوا تلك الخلع ،
ونزلوا في موكب حافل . وكل ذلك والسلطان منقطع
في القاعة ، وهو في غاية التألم من رجله . وقيل ان
السلطان فرق على الفقراء ، في مدة انقطاعه بهذا
العارض ، نحو من ألف دينار على يد قطب الدين

الخضيري ، ثم انه بعد أيام علم على أربعة مراسيم .
وكانت العلامة قد تعطلت أيام مرضه .

وفيه توفي الشيخ جلال الدين البكرى ، وكان
علامة في مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه
ورحمه . وكان اسمه محمد بن عبد الرحمن بن
أحمد بن أحمد الديروطى الشافعى . وكان عالما
فاضلا بارعا في العلوم ، ناب في القضاء مدة طويلة ،
وتولى قضاء الاسكندرية ، ثم تولى مشيخة الخانقاه
البيرسية ، وكان بيده عدة تداريس ، ومولده
سنة سبع وثمانمائة .

وفيه رسم السلطان على لسان القاضى كاتب
السر ابن مزهر بأن يجمع رؤوس النوب ، والنقباء
الذين بأبواب الحكام ، ويكتب عليهم قسائم أنهم
لا يأخذون من الأخصام عند انفصالهم من الحكم ،
أكثر من نصفين ، فجمعهم وكتب عليهم قسائم
بذلك ، فأقام هذا الأمر مدة يسيرة ، ثم عادوا لما
كانوا عليه .

وفيه قرر شيخنا الجلال السيوطى في مشيخة
البيرسية ، عوضا عن الجلال البكرى ، بحكم
وفاته . وكان الساعى له السيد الخليفة عبد العزيز .
وفيه هجم المنسر على سوق باب الشعرية ،
وقتلوا البواب ، وفتحوا عدة دكاكين ، وأخذوا
ما فيها ، وخرجوا من الباب ، وتوجهوا من
حيث أتوا .

وفي جمادى الأولى حملوا السلطان وهو على
السرير ، وخرج الى الدهيشة ، وجلس بالشباك
المطل على الحوش ، وعرض قدامه عدة خيول ،
فحصل للناس الاطمئنان عليه .

وفيه حصل للسلطان الشفاء ، ودخل الحمام .
فلما كان يوم الجمعة ركب من باب الدهيشة وتوجه
الى الجامع ، وصلى الجمعة ، وكان له بالقلعة يوم

مشهود ، وتخلق الخدام بالزعران ، وفرت خوند
على الناس البنود الحرير الأصفر ، للخدام
والخاصكية ، والزمام ومقدم المالك والفلمان
السلطانية قاطبة ، وأعيان الناس من الحجاب ،
ورءوس النوب ، وتقباء الجيش وغير ذلك من
الأعيان . ولما رجع السلطان من الجامع لاقته النسوة
بالتنهاني ، ونشرت خوند على رأسه خفاف الذهب
والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حوافر
فرسه ، وكان يوما حافلا بالقلعة . وخلع على الأطباء
والمزينين الخلع السنية ، ودقت له البشائر بالقلعة ،
ونودي بالزينة في القاهرة .

فلما كان الثاني من يوم ركوبه حضر الخليفة
والقضاة الأربعة وهنأوا السلطان بالعافية ، وجلس
بالدكة ، وحكم بين الناس . وكان مدة انقطاعه
لهذا العارض نحوا من ثلاثة وخمسين يوما . وكان
الناس قد أيسوا منه ، وعد ركوبه من النوادر
بعد ذلك العارض المهول عند الكبير . وقد قال
القائل في ذلك :

الله يدفع عن نفس الامام لنا
وكلنا للمنايا دونه غرض

فليت هذا الذي يعرفه من مرض
بالعائدين جميعا لا به المرض

ففى الامام له من غيرنا عوض
وليس في غيره منه لنا عوض

فما أبالي اذا ما نفسه سلمت
لو باد كل عباد الله واقترضوا

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر
ابن عثمان ، لما حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع
جيشا كثيفا ، ورجع الى المحاربة ثانيا ، وأن عسكر
السلطان بعد أن رجع الى حلب ، خرج ثانيا الى
نحو كوك . فتأكد السلطان الى الغاية لهذا

الخبر . ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وعين
جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحوا
من خمسمائة مملوك . وكان الباش عليهم يشبك
الجمالى الزرد كاش الكبير أحد المقدمين . ثم أثق
عليهم واستحثهم على الخروج الى حلب . وضاق
الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج الى التجريدة
بنفسه . وأرسل السلطان الى كرتباى الأحمر
كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفة العربان
الذين بالبحيرة ما يقدر عليه ، ثم عرض جماعة من
الزعر ، وقصد أن ينفق عليهم لكل واحد ثلاثين
دينارا ، وأن يخرجوا صحبته ، وصار ينظر ما يرد
عليه من الأخبار .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد
فاس ، من أعمال المغرب ، وقد حصل بين صاحب
فاس والفرنج ما لا خير فيه من الحروب وقتل
العساكر ، وأن صاحب غرناطة توجه الى عمه
يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب
قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله .

وفيه خرج الأمير يشبك الجمالى ومن عين معه
من الجند الى جهة حلب ، فكان لهم يوم مشهود .

وفي رجب جاءت الأخبار بوفاة دولات باي
المحوج الشرفى نائب ملطية ، وكان عنده شجاعة
وفروسية . وتوفى قائم أمير شكار المسمى
الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفى السيد الشريف على ، أخو أمير
مكة المشرفة ، وهو على بن بركات بن حسن بن
عجلان الهاشمى العلوى . وكان مقيما بالقاهرة من
حين فر من أخيه وحضر الى مصر ، فأتاه الأجل
بها ، وكان رئيسا حشما فاضلا ذكيا لا بأس به .
ومولده بعد الخمسين والثمانمائة .

وفي شعبان طلع القضاة الأربعة الى القلعة
المتينة بالشهر ، فكثرت المرافعات في قاضي قضاة
الحنفية شمس الدين الغزى ، فحنق منه السلطان ،
ورسم لنقيب الجيش بالقبض عليه في المجلس ،
وتوجه به الى المدرسة الصالحية ليقيم حساب
أوقاف الحنفية ، وجرى عليه ما لا خير فيه ،
واستمر في الترسيم الى أن عزل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى في ثاني
عشر مسرى . فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح
السد . وكان الأتابكى أزبك غائبا في التجريدة .

ومن النوادر أن النيل زاد في ذلك اليوم عشرين
أصبعاً من الذراع السابع عشر في يوم كسره ،
واستمرت الزيادة عمالة حتى أنه زاد في ثلاثة أيام
متوالية من الوفاء تسعة وتسعين أصبعاً ، حتى عد
ذلك من النوادر الغريبة . الزيادة . وقد قيل في
المعنى :

وفي النيل اذ وفي البسيطة حقها

وزاد على ما جاده من صنائع

فماذا يقول الناس في جود منعم

يشار الى انعامه بالأصابع

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد
الذى به ، وعرض المحاييس من رجال ونساء ،
وأطلق منهم جساعة . ثم أمر بتوسيط أحمد بن
بشارة شيخ العشير ببلاد صفد .

وفيه عاد الأمير أقبردى الدوادار من جبل
نابلس ، ومعه عدة من العربان ، وهم في الحديد .
وقد قبض على أعيان مشايخهم .

وفي رمضان كان أول ما خطب بمدرسة
الصاحب الزمام التى أنشأها بخط باب الرملة ،
وقد جاءت من أحسن البناء ، وكان أصلها قاعة ،
فصنع بها محراباً واتخذها مدرسة وخطب بها .

وفيه توفي شمس الدين محمد الديجورى ،
أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان انساناً
حسناً لا بأس به ، ومولده سنة تسع وعشرين
وثمانمائة .

وفيه قبض على انسان وهو سكران في
رمضان ، فضرب بالمقارع ، وجرس بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة العلالى على بن
شاهين العثمانى نائب قلعة دمشق . وكان رئيساً
حسناً لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة في الحوش .
وكان ذلك على خلاف العادة .

وفيه تغير خاطر السلطان على خشتقدم الزمام
لأمر وقع له وكانت كائنة عظيمة . وقصد الأخرق
به وأمر بضربه ، حتى شفع فيه ، ثم آل أمره بعد
ذلك الى أن تفاه الى جهة قوص ، كما سيأتى ذكر
ذلك .

وفي شوال جاءت الأخبار بوفاة **د** بك سكر
أتابك العساكر بطرابلس ، وكان شاباً رئيساً حسناً
حسناً لا بأس به ، ولكن وقع له شدائد ومحن
ونفى من مصر ، وكان من خواص السلطان ، ثم
تغير خاطره عليه وجرى له أمور شتى .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين
محمد بن الأخيسى شيخ المدرسة البروقية ،
وقرره في قضاء الحنفية ، عوضاً عن شمس الدين
الغزى ، بحكم انفصاله عنها . وجرى على الغزى
أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجميل زائد ،
وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح على العادة .
وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من أعيان
المفسدين في الأرض ، يقال له حمور ، ووسط معه
جماعة آخرين مفسدين في الأرض ، فنزل حمور

من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب ، غريبة
الهيئة تجر بالعجل ، ولها حركات تدور بها ، فرجت
القاهرة في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .
وتوجهوا به الى جزيرة الفيل ، فوسطوهم هناك
وأراح الله الناس منهم .

وفيه أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة
بسبب فساد محمد الجويلي شيخ عربان البحيرة ،
وكان باش الجند قرقاس المعلم ، أحد الأمراء
العشراوات ، واسبأى المبشر وأزبك ققص وماماي
ونحو من مائتي مملوك من المماليك السلطانية ،
فلما وصلوا الى البحيرة تقاتلوا مع الجويلي أشد
القتال ، وقتل من الترك والعرب جماعة كثيرة ،
ورجع العسكر من غير طائل ، ولا حصلوا من
الجويلي على شيء .

وفيه وقعت نادرة : وهو أن مركبا ببولاق
عدت تحت الليل ، فغرقت في وسط البحر بمن فيها
من الناس والدواب . ومن العجائب أنه كان بها
إنسان علامة في السباحة الى الغاية فغرق ولم يعلم
له خبر ، وكان الى جانبه صبي صغير لا يعرف
السباحة فنجا من الغرق ، وطلع فعاد ذلك من
النوادر ، كما قيل في المعنى :

وقد يهلك الانسان من باب آمنه

وينجو بعون الله من حيث يحذر

وفيه توفي الشيخ قليج الرومي الأدهمي ،
شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات ، فلما مات
قرر في مشيخة الزاوية امرأة ، وهي زوجة قليج
المذكور ، فعاد ذلك من النوادر ، وكانت المرأة
تقرب لجهان شاه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد
ثار على الأتابكي أزبك ، وقصد العود الى
القاهرة ، فتشوش السلطان لهذا الخبر . وشكوا
من الانشحات . فأرسل السلطان اليهم نفقة هناك .

فأنفق الأتابكي أزبك عليهم هناك لكل مملوك
خمسین ديناراً ، حتى خمدت الفتنة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا
الى بيت البدرى بدر الدين ابن مزهر المحتسب ،
وقصدوا حرق بيته فاختموا ، وذلك بسبب تسعير
البضائع من اللحم والخبز والحب وغير ذلك ،
ثم توجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ، ونهبوا
ما فيها من القمح والشعير ، وفعلوا ذلك بشون
السلطان والأمراء . وكانت فتنة مهولة . فلما بلغ
السلطان ذلك ، بعث اليهم جماعة من الخاصكية ،
ومقدم المماليك فما قدروا على ردهم . فركب
السلطان بنفسه بعد العصر ، وتوجه الى بولاق .
فلما رأوه فروا من وجهه ، ثم أتوا الى دار
الصاحب قائم ، فنهبوا كل ما فيها . فلما أصبحوا
لم ينتهوا عما هم عليه ، ولم يطلع أحد من
المباشرين الى القلعة . ثم ان القاضي كاتب السر
ترامى على السلطان ، وقبل رجله ثلاث مرات ،
بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسبة ، فما أجاب
الا بعد جهد جهيد .

وفيه توفي الكاتب المجيد الزيني خطاب بن عمر
ابن خطاب الأزهرى الشافعى وكان فاضلا وله
اشتغال بالعلم ، وكتب المنسوب من الخط الجيد ،
وكان له في ذلك دعاوى عريضة جدا . وفيه يقول
الشهاب المنصوري :

بذى التهذيب خطاب تسامت

صحائف زانها خطا وضبطا

فلو نطق الطروس لفضلته

وقالت أجود الكتاب خطا

وفيه وصل قيت الساقى الخاصكى ، الذى كان
قد توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، فعاد ومعه
مكاتبة باظهار التودد وصدق المحبة للسلطان .

وفيه توفيت خوند آسية بنت المؤيد شيخ ،
وهي والددة سيدى يحيى بن يشبك الفقيه ، الذى
كان دوادار كبيرا . وكان حصل لها تأسف على
ولدها يحيى لما مات فكف بصرها فى أواخر عمرها .
ومولدها سنة اثنتى عشرة وثمانمائة وكانت آخر
من توفى من أولاد الملك المؤيد شيخ .

وفى ذى العقبة ظهر برهان الدين بن الكركى
امام السلطان ، وكان مختفيا من حين تغير خاطر
السلطان عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء حتى ظهر
وقابل السلطان ، ونزل الى داره بطلا .

وفيه خلع السلطان على أقبردى الدوادار وقرره
فى الوزارة ، وكان متكلمها فيها بغير تقرير . وقرر
موفق الدين بن القمص الأسلمى فى نظر الدولة ،
عوضا عن قاسم شغيتة ، بحكم صرفه عن الوزارة
ونظر الدولة ، فوكل به ، وأقام فى الترسيم حتى
يعمل الحساب .

وفيه خلع السلطان على كسباى الشريفى ،
وقرره فى الحسبة عوضا عن البدرى ابن مزهر
بحكم استغفائه .

وفيه رسم السلطان بتوسيط عبد العزيز
المعروف بعزوز ، من أولاد بنى عمر أمير عربان
هواره ، ووسط معه جماعة من أقاربه ، وهم يعقوب
ابن سليمان ، وموسى بن عبد الله وموسى بن أبى
لاسون ، وعلى أخو عزوز ، ومحمد بن بشارة ،
فكانت آجالهم متقاربة من بعضها .

وفيه بلغ سعر الأرز الى ستة أشرفية كل أردب
ولا يوجد . ثم عز جدا حتى تنهى سعره الى
اثنى عشر دينارا كل أردب ، حتى عد ذلك من
النوادر .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من كبار

المفسدين ، يقال له أحمد الدنف ، وله حكايات فى
فن السرقة يطول شرحها .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان مسافرا
فى التجريدة ، وقد حضروا من غير اذن من السلطان
وقصدوا الاخراق بالأتابكى أزيك باش العسكر ،
وهو بحلب ، فقال لهم : « الذى يقصد الرواح الى
مصر يروح ويقابل أستاذة » . فساروا فى الدس
ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وصار
جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمراء بالسلم
المدرج ويقولون لهم : « قولوا للسلطان ينفق علينا
والا يقع منا فتنة كبيرة » . وصاروا يغلظون عليهم
فى القول ، وصار القال والقليل عمالا كل يوم بينهم
وبين الأمراء ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة ،
وقصدوا الاخراق بالأمير أقبردى الدوادار غير
ما مرة ، حتى امتنع أياما من طلوع القلعة .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق ، القضاى
زين الدين عبد الرحمن الحسينى ، عوضا عن
عماد الدين اسمعيل الناصرى بحكم صرفه عنها .
وفيه جاءت الأخبار ب وفاة قاضى مكة المشرفة ،
البرهان بن ظهيرة الشافعى . وهو ابراهيم بن على
ابن محمد بن حسين بن على بن أحمد . وكان عالما
فاضلا بارعا فى العلوم رئيسا حشما ، انتهت اليه
رياسة مكة المشرفة ، وكان المرجع اليه بها . ولما
مات قرر فى قضاء الشافعية بمكة المشرفة ولده
أبو السعود عوضا عنه .

وفيه كان دخول الأتابكى أزيك وبقية الأمراء
والجند ممن كانوا مسافرين فى التجريدة الى على
دولات والى عسكر ابن عثمان ، فلما دخلوا الى
القاهرة كان لهم يوم مشهود . وقدامهم الأسراء
من عسكر ابن عثمان ، وهم مزنجرين والصناجق
منكسة ، وكان صحبتهم جماعة من أعيان أمراءه ،
وهم بزناجير على خيولهم ، وصحبتهم أيضا باش

عسكر ابن عثمان ، وهو أحمد بك بن هرسك ، وهو راكب وفي عنقه زنجير . وقيل ان ابن هرسك كان أميرا كبيرا أتاكى ابن عثمان . فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش ، عاتب أحمد بن هرسك ووبخه بالكلام . ثم سلسه الى الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسراء على جماعة من المباشرين ، حتى قضاة القضاة . ثم خلع على الأتابكى أزبك وعلى بقية الأمراء ونزلوا الى دورهم . وفي عقيب ذلك ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وأشهروا السلاح — وكان ذلك في سلخ الشهر المذكور — فاضطربت الأحوال ، ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم في الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وجاءت الزعر أفواجا أفواجا . وقبل ذلك توجه جماعة من المماليك الجلبان الى بيت أفبردى الدوادار ، وتكلموا معه في أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم في نظير تعب سرهم بسبب هذه النصرة التي وقعت لهم على عسكر ابن عثمان ، وسألوه أيضا فيمن يعمل مصالحهم في مرتب اللحم والعليق . فلما اجتمع أفبردى بالسلطان كلمه في ذلك غير ما مرة وهو مصمم على عدم اجابتهم الى ما سألوه فيه ، فلما عاد الجواب لهم بعدم الاجابة في ذلك ثاروا عليه ، واتسعت الفتنة ، وغلقت الأمراء أبوابها ، واستمر الحال على ذلك .

وفي ذى الحجة لم يطلع أحد من القضاة الى القلعة بسبب التهئة بالشهر ، وكانت الفتنة قائمة كما تقدم ، ثم طلع الأتابكى أزبك الى القلعة واجتمع بالسلطان وكلمه في أمر النفقة على المماليك ، وتلطف به في القول فما أجاب الى ذلك الا بعد جهد كبير ، فتقرر الحال على أنه ينفق

عليهم لكل مسلوك منهم خسون ديناراً ، ثم نادى في القاهرة بأن النفقة ستكون في أول السنة الجديدة ، فخذت هذه الفتنة شيئا قليلا .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وحضر الأتابكى أزبك وفرقت الأقاطيع الشاغرة عن توفى في هذه التجربة من الجند ، وصار الأتابكى أزبك هو المشار اليه في هذا الأمر .

وفيه أنعم السلطان على آقبای بن جانم الظاهري خشقدم بامرية عشرة ، وهى امرية أصباى السيفى قرقشاش الشعبانى بحكم أنه كان مريضا منقطعا في داره . وأنعم على أبى شعرة بامرية عشرة ، وهى امرية قراكرز بحكم عزله أيضا . وفيه كانت الضحايا قليلة جدا ولا سيما الغنم .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية ، فامتنع المماليك من أخذها وصسوا وقالوا : « ما نأخذ الا النفقة مع الجامكية ، ولا نصبر الى الشهر الآتى » ... فلما رأهم قد صسوا على ذلك أنفق عليهم ، فأعطى المماليك الجلبان كل واحد منهم خسين ديناراً ، وأعطى الترانصة كل واحد منهم خمسة وعشرين ديناراً ، ولم يعط الدين لم يتوجهوا نحو التجربة المقيسين ، ووقع القال والقليل بسبب ذلك ، فلم يلتفت الى شيء من كلامهم وخسدت هذه الفتنة .

سنة اثنين وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

فيها ، في المحرم ، كانت الأسعار متشحطة ومشطة في سائر البضائع ، وتشحط الخبز من الدكاكين حتى بيع كل رطل من الخبز بنصف فضة ، وكانت أحوال الناس واقفة بسبب الفلوس الجدد حتى غلا سعر راوية الماء ، وعز وجود جمال السقائين ، وصار الغلاء في المأكول والمشروب ... هذا والمماليك قد طغوا في حق الناس ، وتزايد

منهم الضرر الشامل ، والعربان قد تزايدت ضرورهم في البلاد من الشرقية والغربية ، وابن عثمان في غاية التحرك على البلاد الحلبية ، والسلطان في غاية الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريدة الى ابن عثمان ثانيا . وصار العسكر في أمر مريب بسبب ذلك ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة بين الجلبان ، وقد صاروا فرقتين : فرقة مع قانصوه خمسمائة ، وفرقة مع أقبردى الدوادار ... والاضطراب بينهما عمال .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق . وكان ملكا جليلا وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه ، حتى صار مفتيا في طبقة العلماء ، ومات وهو في عشر الخمسين من العمر . فلما بلغ السلطان وفاته رسم بنقل جثته الى مصر ودفن على آبيه الملك الظاهر چقمق ، وشرع في أسباب ذلك ، وعين من يتوجه الى هناك ليحضره .

وفيه رسم السلطان بفك قيد أحمد بن هرسك الذى قد أسر ، وكذلك فك قيود من أسر من عسكر ابن عثمان . وأخذوا في أسباب تجهيزهم الى بلادهم ، وقد أشيع أمر الصلح بين السلطان وابن عثمان .

وفيه اشتد أمر الغلاء جدا حتى بيع القمح كل أردب بستة أشرفية ، وبيعت البطة الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما ، وبيع خبز الذرة ... ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات المشهورة حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون : زويجى دى المسخرة يطعمنى خبز الذرة

وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع . ثم ان السلطان فتح عدة شون وباع منها القمح على حكم خمسة أشرفية كل

أردب ، وصار المحتسب يضرب الكثير من السوق على عدم بيع الخبز واطهاره على الدكاكين .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قيت الساقى بامرية عشرة ، وكذلك مغلباى البجمقدار ، وقرر قيت الرحبى بجمقدارا عوضا عن مغلباى .

وفيه حضرت جثة الملك المنصور عثمان من ثغر دمياط ودفن على آبيه الظاهر چقمق بترية قانى باى الجركسى .

وفيه قدم اينال الخسيف نائب صفد أحد مساليك السلطان ، فلما حضر أرسل السلطان خلعة وتقليدا الى يلباى حاجب دمشق وقرره في نيابة صفد عوضا عن اينال ، الخسيف ، ثم بعد مدة قرر اينال الخسيف في حجوبية دمشق عوضا عن يلباى بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه توفي الشيخ شمس الدين محمد بن سوله الفارسكورى ، وكان من أعيان الشافعية من أهل العلم والفضل وكان لا بأس به .

وفيه توفي المنشد المطرب الواعظ المادح شمس الدين محمد بن حلة ، وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم جيد ، ومولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه انحل سعر القمح وبيع الأردب القمح بأربعة دنائير بعد ستة أشرفية بواسطة كثرة جلب الذرة ، وقد حصل للناس به غاية الرفق .

وفي صفر خسف جرم القمر وأظلم الجو ودام في الخسوف نحو من خمسين درجة ، فلهج الناس بأن زوال السلطان قد قرب ... وما كان شئ مما لهجوا به ، وأقام السلطان بعد ذلك مدة طويلة ، فكان كما قيل في المعنى :

لا تفعل الشمس شيئا ولا القمر

وعن خسوفهما لا يصدر الكدر

وفيه توفي الشيخ نظام الدين محمد بن الحبيفا
الحنفى التركى ، وكان عالما فاضلا من أعيان
الناس ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس ،
فى سعة من المعيشة ، وفيه يقول المنصورى :

سبحان من من بحسن الكلام

على نظام الدين دون الأنام

فلفظ أهل العلم در ، ولا

يزين ذاك الدر الا النظام

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة
الأمير قانصوه السيفى الأحمدي الاينالى الذى
كان أحد المقدمين ، ونفى الى دمياط ثم نقل الى
مكة المشرفة فمات بها ، وجرى عليه شذائد
ومحن ، وكان من أعيان طائفة الاينالية ، وهو
الذى تعصب للأشرف قايتباى حتى تسلطن فما
قاله منه خير كما يقال :

رب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

وقيل انه كان يقول فى مجالس بسطه : « لولا
أنا ما فرح قايتباى بالسلطنة قط » ... فلما سمع
السلطان قايتباى ذلك جرى على قانصوه ما لا خير
فيه . وكان يطلق لسانه فى حق السلطان بيا
لا يليق ، فحقد عليه السلطان بسبب ذلك كما قيل
فى المعنى :

وقد يرجى لجرح السيف برء

ولا برء لما جرح اللسان

وفى ربيع الأول توفي الأمير ملاح اليوسفى
نائب القلعة ، وكان أصله من ممالك الظاهر
چقمق ، وكان دينيا خيرا رئيسا حشما عاقلا عارفا
بفنون الفروسية ، وكان لا بأس به .

وفيه تعدى شخص من العوانية واحتكر بيع
الملح وضمنه بمكس — ولم يكن يعهد ذلك من

قبل — فلما جرى ذلك نشفت الملاحه فى تلك
السنة حتى عز وجود الملح جدا .
وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
على العادة .

وفى ربيع الآخر توفي الشيخ الصالح المعتقد
سیدی عبد العظيم السدار ، الذى كان يبيع
السدر والحناء عند الغرابيين ، وكان للناس فيه
اعتقاد زائد . وهو عبد العظيم بن ناصر الدين بن
خلف المصرى ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة .
وفيه توفي الشيخ محيى الدين عبد القادر
الفرضى ، وكان علامة فى الفرائض . وهو عبد
القادر بن على بن شعبان القاهرى الحنفى ، وكان
امام جامع أصلان .

وفى جمادى الأولى توفي الشيخ بدر الدين
محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عمر البلقينى
الشافعى ، وكان فاضلا ناب فى الحكم ، وكان
محمود السيرة .

وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير أقبردى
الدوادار بأنه قد انتصر على العرب الأحامدة ،
وكان توجه الى بلاد الوجه القبلى بسبب ذلك
فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم
وبعث بهم الى مصر وباعوهم كما يباع الرقيق من
الزنج . ووقع لأقبردى مع الأحامدة أمور غريبة
يطول شرحها ، وعذب جماعة منهم بالدفن فى
التراب وهم أحياء ، ونوع لهم العذاب تنويعا ،
وقد طهر بلاد الصعيد منهم ، وكانوا أظهروا
الفساد بها جدا .

وفيه توفي القاضى سراج الدين عمر بن حريز
المالكى . وهو عمر بن أبى بكر بن محمد بن
محمد بن محرز ، الهاشمى القرشى العلوى

الحسنى المنفلوطى المالكى . وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، وتولى قضاء المالكية بعد أخيه حسام الدين ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وعزل عن القضاء ودام معزولا حتى مات .

وفيه افتتنت طائفتان من الزعر ووقع بينهم أمور وشذائد يطول شرحها ، وصار يقتل بعضهم بعضا جهارا حتى أعيأ الوالى أمرهم .

وفى جمادى الآخرة توفى برد بك طرخان الظاهرى چقمق . وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وكان بيده امرية عشرة يأكلها وهو طرخان .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قناطر بنى منجا ، فخرج البدرى حسن بن الطولونى ومعه جماعة من البنائين والمهندسين بسبب العمارة ، وصرف على ذلك نحو من سبعة آلاف دينار . وكانت هذه القناطر قد تشعث وآلت الى السقوط ، فتدارك السلطان ذلك ، وجاءت من أحسن البناء .

وفيه توفيت ست الخلفاء بنت الخليفة المستنجد بالله سيدى يوسف ، وكانت بارعة فى الحسن ، فكثر عليها الحزن والأسف من الناس . وكانت أمها بنت قاضى القضاة البلقينى . وكان عقد لها على الأمير خشكلدى اليسىقى ثم فسخ العقد قبل الدخول ، ثم تزوج بها كاتب السر ابن مزهر ، ثم تزوجت بالقاضى قطب الدين الخيضرى ، ثم تزوجت بعده بالسيد الشريف اسحاق البردينى وماتت تحته ، وكان مولدها سنة ستين وثمانمائة .

وفيه ، فى يوم الجمعة ، كان عقد قانصوه خمسمائة على بنت الأتابكى أربك من خوند بنت الظاهر چقمق ، عقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة

الأربعة وأعيان الناس . وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة زباده صينى فيها سكر ومشنات فاكهة فرقت فى القلعة ، فكان كما قيل :

على أيمن الساعات عقد مبارك

بهى كما شاء الاله وأظهرا

سنى المعالى يسرت حركاته

إذا الله سنى عقد أمر تيسرا

وفيه جاءت الأخبار بأن جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط قد فر الى بلاد النوبة ، وكان السلطان أرسل بالقبض عليه ففر من الخوف على نفسه ، وأقام مدة وهو هارب حتى بعث السلطان له بالأمان .

وفى رجب لما سعد القضاة للتهنئة بالشهر أمر السلطان بالقبض على جماعة القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، فقبض على علاء الدين الحنفى النقيب ، وعلى أمين الحكم الصابونى ، وعلى جماعة من الجبابة ، ووكل بهم لعمل الحساب لأجل أوقاف الشافعية التى تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فاستمروا فى الترسيم بسبب هذه الواقعة نحو من ثلاث سنين والسلطان يتغافل عنهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى نور الدين الحساوى ، وأعادته الى قضائه بحلب عوضا عن ابن الشحنة أبى البقاء .

وفيه توقف النيل عن الزيادة اثنى عشر يوما متوالية الى تاسع أيب ، فزاد قلق الناس بسبب ذلك ثم بعث الله بالزيادة واستمرت الى أن وفى .

وفيه كان دخول قانصوه خمسمائة على بنت أربك أمير كبير ، فحمل الجهاز من الأربكية الى دار قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، فلما

شق من القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان
الجمالون الذين يشيلون الأمتعة زيادة على أربعمائة
جمال ، وقيل صرف على هذا الجهاز نحو من
مائتي ألف دينار . ولما كانت ليلة العرس عمل
بالأزبكية ، وكان مهما حافلا . ثم ان قانصوه
خسمائة ركب من باب السلسلة ، ومشت قدماه
الأمراء المقدمون بالشاش الذي يلبس في الجمعة
والأعياد ، وكذلك الخاصكية وبأيديهم الشموع
الى أن وصل الى الأزبكية ، وعد هذا الزفاف من
النوادر الغريبة ... لكن حصل للناس في تلك
الليلة غاية الضرر من الجلبان ، وخطفوا العمائم ،
وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا
الشع من أيدي الخاصكية ، وما حصل تلك
الليلة منهم خير ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .
وفيه رسم السلطان لكسباى المحتسب بأن
تجمع له أعيان التجار الذين بالأسواق . فلما
عرضوا على السلطان قال لهم : « ساعدوني بشيء
على خروج التجريدة » ... ثم فرض عليهم أربعين
ألف دينار ، فضجوا من ذلك وقالوا : « ما نقدر
على هذا القدر » ... فما زال يحط عنهم من ذلك
القدر والتجار يقولون ما تقدر على ذلك . فلما
طال الأمر بينهم وبين السلطان تقرر الحال على أن
يوردوا اثني عشر ألف دينار اذا خرجت
التجريدة ، وانقض المجلس على ذلك .

وفي شعبان توفيت فاطمة بنت الجمالي يوسف
ناظر الخاص التي كانت زوجة الأمير خاير بك
سلطان ليلة ، وكانت رئيسة حشمة لا بأس بها .
وفيه توفي الشيخ تاج الدين ابن قاضي القضاة
سعد الدين الديري الحنفى ، وكان تولى بعد
أبيه مشيخة الجامع المؤيدى . وكان عالما قاضيا

أخذ العلم عن أبيه ، ومولده سنة خمس
وثمانمائة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك في ثاني عشر
مسرى ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على
العادة .

وفيه قرر السلطان قرقماس بن ولى الدين في
امرية الآخورية الثانية وكانت شاغرة مدة ، وقرر
في باشية الجند بسكة المشرفة أزدر الأشرفى
برسباى عوضا عن شاد بك أمير آخور الظاهرى
بحكم وفاته .

وفي رمضان خلع السلطان على الشيخ بدر
الدين بن الديرى وقرره في مشيخة الجامع
المؤيدى عوضا عن عمه تاج الدين ، فأقام بها مدة
يسيرة وسعى عليه محبى الدين عبد القادر ابن
الدهانة الحنفى فقرره السلطان بها وقد أورد مالا
له صورة .

وفيه وصل الأمير أقبردى الدوادار ، وكان
مسافرا نحو الوجه القبلى بسبب فساد عربان
طائفة الأحامدة ، وقد تقدم ما جرى عليهم منه .

وفيه خلع السلطان على الشيخ بدر الدين ابن
قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وقرره في
مشيخة الخشائية عوضا عن الشيخ فتح الدين
محمد بن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى
الشافعى بحكم وفاته في شهر رجب ، وقد سعى
فيها بدر الدين المكينى بمال له صورة حتى قرر
بها .

وفيه توفي القاضى عبد الغفار الميديمى الشافعى
أحد نواب الحكم ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم قراءة البخارى الشريف بالقلعة
— وكان بالحوش كالعام الماضى — وفرقت
الصرر على الفقهاء بحكم النصف ، وقطعت صرر

من له خلع ، وقد شح السلطان في الأيام التي
خلت في الشهر المذكور جدا

وفي شوال جاءت الأخبار بوفاة نائب الشام
قجماس الاسحاقى الظاهري . وكان ديناً خيراً في
غاية الاحتشام مع لين جانب ، وكان انساناً حسناً
لا بأس به ، وهو الذى أنشأ المدرسة التى عند
الدرب الأحمر بقرب سوق الغنم ، وأنشأ مثلها
بدمشق ، وله آثار حسنة غير ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على يشبك بن حيدر
والى القاهرة ، فأمر بنفيه الى الكرك ، فسمع فيه
أزبك الأمير الكبير ورده من الخائفاء ، فعزل من
الولاية وقرر في امرية عشرة .

وفيه توفي الجلال أبو البقاء ابن الشحنة
الحلبى الشافعى قاضى القضاة بحلب . وكان عالماً
فاضلاً تقلد بذهب الامام الشافعى رضى الله عنه
ورحمه ، وكان والده حنفى المذهب ، فقدم الى
القاهرة معزولاً ومات بها ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان خلف قانصوه اليحياوى
الذى كان نائب الشام الذى كان بالقدس الشريف
وهو معزول بسبب ما تقدم ذكره ، فلما حضر خلع
عليه السلطان وقرره في نيابة الشام عوضاً عن
قجماس الاسحاقى بحكم وفاته .

وفيه خلع السلطان على مغلباى الشريفى الذى
كان استادار صحبة ، وقرره في ولاية القاهرة عوضاً
عن يشبك بن حيدر ، ثم بعد مدة طويلة خلع على
اسبابى المبشر وقرره في استاداريته عوضاً عن
مغلباى .

وفيه جاءت الأخبار بفرار شاه بضاع بن دلغادر
وكان مسجوناً بقلعة دمشق ، فلما بلغ السلطان
ذلك تنكد الى الغاية ، ورسم بشنق نائب قلعة
دمشق ، ثم جاءت الأخبار بأن شاه لما فر من قلعة

دمشق توجه الى ابن عثمان فأكرمه وأقام عنده
الى أن كان من أمره ما سنذكره في موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير المحمل
أزدر تمساح ، وبالركب الأول خير بك كاشف
المحلة .

وفيه توفي مجد الدين اسماعيل الشطرنجى .
وكان علامة في نقل الشطرنج ، وجيهاً عند الأمراء
كثير العشرة للناس . ومولده بعد الثلاثين
والثمانمائة .

وفيه تغير خاطر السلطان على موفق الدين بن
القنص الأسلمى ناظر الدولة فضربه بالمقارع بين
يديه بالجوش ، وسلمه للأمير أقبردى الدوادار .
ثم خلع السلطان على شرف الدين بن البدرى
حسن وقرره في نظر الدولة عوضاً عن موفق
الدين الأسلمى .

وفي ذى القعدة جاء قاصد من عند ملك الغرب
صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله
تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعيينه على قتال
الفرنيج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة ، وهو
في المحاصرة معهم ، فلما سمع السلطان ذلك
اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقمامة
التي بالقدس ، بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس
من أعيانهم الى ملك الفرنج ، صاحب نابل ، بأن
يكاتب صاحب أشبيلية ، بأن يحل عن أهل مدينة
غرناطة ويرحل عنهم ، والا يشوش السلطان على
أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع
طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ، ويهدمها .
فأرسلوا قاصدهم ، وعلى يده كتاب الى صاحب
نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً
وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد .

وفيه توفي الشهاب الأبخيهى أحمد بن محمد

المحلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وناب في الحكم مدة طويلة وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس . وفيه توفى أزيدك الأشرف في أحد الأمراء العشرافات وكان لا بأس به .

وفيه كان علف الدواب غاليا ففرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند قبل عيد النحر بخمسة وعشرين يوما فعد ذلك من النوادر .

وفي ذى الحجة في سابع عشره خرج قانصوه اليحياوى الى نيابة الشام .

وفيه سقطت قبة جامع القلعة على المحراب والمنبر ، وقتل تحتها بواب الجامع وولده فرجت له القلعة وخرج السلطان وهو ماش حتى يرى ما سقط في الجامع . وكان ذلك قبل يوم الجمعة بثلاثة أيام . فأمر السلطان بشيل الأتربة من الجامع ثم أخذ في أسباب عمل قبة غيرها فجدد هذه القبة الموجودة الآن وجدد المنبر ، وكان قبل ذلك من الخشب فجعله من الرخام الملون ، وجدد عمارة الميضاة التى بالجامع فجاءت من أحسن البناء .

وفيه خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له سيباى بن بخت خجا وقرره في نيابة سيسى عوضا عن قانصوه الجمالى بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب المماليك وأخذ منه تسعة آلاف دينار . وجدت عليه وعلى والده أبى الفتح نائب جدة أمور يطول شرحها حتى آل أمره الى ذهاب عقله واعتراه جنون .

وفيه قويت الاشاعات بثوران فتنة من المماليك الجلبان ، وكثر القال والقال في ذلك وقتل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة . فلما تزايد الكلام

في ذلك صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم بعد الصلاة جلس بالحوش ، ثم أحضر أغوات الأطباء وأعيان المماليك الجلبان ، وكلهم كلاما كثيرا ووبحهم بالكلام حتى قال : « اذا كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك » فاستغفروا له . ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان ، وسكون هذه الفتنة قليلا . فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولم يعلم أين يتوجه ، وقد تزايد القول في ذلك فكان كما يقال :

لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم في أمر مريب وكانت الأسعار مرتفعة في سائر البضائع ، والاشاعات قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلبية ، والاشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة ببصر بين الجلبان والأمراء واقفة ، والسلطان ناظر الى الظلم وأخذ أموال الناس ، والأمر لله .

سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة (١٤٨٧ م) :

فيها ، في المحرم ، سافر قانصوه اليحياوى الى الشام — وقد تقدم أنه تقرر في نيابة الشام — فخرج في موكب حافل

وفيه سمح خاطر السلطان بأن ينفق على مماليكه توسعة على نزول خيولهم من الربيع ، فأعطى لكل مملوك عشرة دنائير ، والقراصة خمسة دنائير ، والسيفية ثلاثة دنائير ، فصرف في هذه الحركة جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل احسن بن سليمان بن عيسى بن عمر الهوارى ، أخى داود بن عمر أمير

هواره . قتله بعض أعدائه من العربان وكان شابا
حشما لا بأس به .

وفيه توفى جاني بك حبيب العلاني الاينالى
أحد الأمراء الطليخانات وأمير آخور ثاني ، وكان
رئيسا حشما حلو اللسان حسن العبارة سيوسا دريا
عارفا فصيح اللسان بالعربي . توجه قاصدا الى
يعقوب بن حسن الطويل ، ثم توجه قاصدا الى ابن
عثمان ملك الروم ، وكان مقبول الشكل حسن
الوجه ومات ولم يظهر الشيب بلحيته ، وجرى عليه
شدائد ومحن في دولة الظاهر خشقدم ، وفر الى
بلاد الغرب وأقام بها حتى توفى الظاهر خشقدم ،
فعاد الى مصر وصار له خصاصة بالأشرف قايتباي .

وفيه توفى بيارس اليوسفي الظاهري أحد
العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه بلغ سعر الراوية من الماء نحو ثلاثة أنصاف
وذلك بسبب عدم وجود الجمال لتسلط المماليك
الجلبان على السقائين لأجل الدريس ، فحصل
للناس غاية المشقة بسبب ذلك .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة . وكان أشيع
عنهم أمور شنيعة فظهر أن ذلك كذب . وكان أشيع
عنهم أن طائفة عربان الأحامدة قد استولوا على
الحجاج ولم ينج منهم أحد .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل
عسكرا عظيما ، وقصد محاربة عسكر مصر . فتأكد
السلطان لهذا الخبر .

وفيه حضر حضر بك نائب القدس فضرب بين
يدي السلطان ضربا مؤلما ، وأقام بالترسيم حتى
أورد مالا له صورة ، وكانت كثر فيه الشكاوى
عند السلطان ، وآل أمره الى أن عزل عن نيابة
القدس .

وفيه قرر السلطان دقماق السيفي اينال الأشقر

في نيابة القدس عوضا عن خضر بك بحكم صرفه
عنها .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة
السلطان الملك المؤيد أبي الفتح أحمد ابن الملك
الأشرف اينال العلاني الجركسي ، وكانت وفاته في
ليلة رابع عشر الشهر المذكور . فلما بلغ السلطان
ذلك أخذ في أسباب احضار جثته الى القاهرة
ودفنه على آبيه الأشرف اينال ، وكان المؤيد هذا
رئيسا حشما قليل الأذى وجرى عليه شدايد ومحن
ونفى الى الاسكندرية ودام بها الى أن مات وهو
في عشر الخمسين .

وفيه وقع من الوقائع الغريبة أن محب الدين
أبا الطيب الأسيوطي بلغه أن السلطان تغير خاطره
عليه ، وقصد الاخراق به . فلما تحقق ذلك توجه
الى المقياس ، وألقى نفسه في البحر عمدا فغرق
ومات ، وكان عالما فاضلا من ذوى العقول رئيسا
حشما وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، وكان
من أعيان موقعي الحكم وكان عارفا بأمور صنعة
التوقيع ، وكان اسمه محمد بن محمد بن علي بن
عمر بن حسن القاهري الشافعي ، ومولده سنة
ثمان وعشرين وثمانمائة ولكن هانت عليه نفسه لما
تأمل ما سوف يجري عليه . وكان له أعداء كثيرة
فخاف على نفسه من السلطان فكان كما قيل في
المعنى :

لا تظهرن لعداذل أو عاذر

حاليك في السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين حرارة

في القلب مثل شماتة الأعداء

وفي ربيع الأول قرر السيد الشريف موفق

الدين الحموي في نظر الجيش بدمشق ، عوضا

عن محيي الدين عبد القادر بحكم وفاته ، وقرر ولده عبد الرحيم في كتابة السر بدمشق .

وفيه قرر ايدكى الأشرفى في نيابة القلعة بدمشق عوضا عن على بن چاهين بحكم صرفه عنها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة في العام الماضى .

وفيه أحضر السلطان بترك النصارى ورئيس اليهود وقرر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب خروج التجريدة الى ابن عثمان ، وهذا أول فتح باب المصادرات للناس .

وفيه قرر السلطان بركب المحمل چان بلاط الأشرفى الخاصكى أحد الدوادارية ، وقرر بالركب الأول كرتباى كاشف البحيرة .

وفيه أنعم السلطان على مملوكيه — وهما قانصوه الألفى وقانصوه الشامى — بتقدمة ألف .

وفيه من الحوادث أن السلطان رسم بتوسيط مجد الدين ابن البقرى ، وقد جرى عليه شذائد ومحن وسجن بالمقشرة زيادة على ست سنين . وكان السلطان يكرمه طبعاً . وقد بلغه أن مجد الدين هذا لما قتل يشبك الدوادار ، أظهر الشماتة به وتخلق عياله بالزعران . وكان حصل له مع يشبك كائنة عظيمة ، فلما فرح به وأظهر السرور بلغ السلطان ذلك ، فتأثر منه وجرى له ما جرى . وكان مجد الدين رئيساً حشماً ولى الاستادارية غير مرة ، وكذلك الوزارة ، وكان أصله من القبط ، واسمه شاكر بن علم الدين ، ووسطوه ببركة الكلاب ، ثم حملوه الى تربة ابن عمه يحيى فدفن بها ، وكان عنده عنف وظلم .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، فقرر برسباى قرا في امرية مجلس

عوضاً عن أزدمر قريب السلطان بحكم عوده الى نيابة حلب ، وكانت امرية مجلس شاغرة في هذه المدة . وقرر تغرى بردى ططرفى الرأس نوبة الكبرى عوضاً عن برسباى قر ، وقرر تانى بك الجمالى في حجوبية الحجاب عوضاً عن تغرى بردى ططرفى بحكم انتقاله ، وقرر بشبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة أمير آخور ثانى عوضاً عن جاني بك حبيب وكان بيده امرية طبلخانات ، وقرر شاد بك ابن مصطفى المعروف بالخوخ في نيابة القلعة عوضاً عن ملاج بحكم وفاته .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على اسنباى المبشر الأشرفى ، وقرره في استادارية الصحبة عوضاً عن مغلباى بحكم انتقاله الى ولاية الشرطة ، وقرر اينال الفقيه الظاهرى في الحجوبية الثانية عوضاً عن تانى بك الأبناسى ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة . وقرر كرتباى ابن أخت السلطان في معلية الدلاين ، وهى وظيفة تاجر الممالك ، عوضاً عن قانصوه الشامى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه أنعم السلطان بامريات عشرة على جماعة من خاصكيتيه ، منهم قانصوه السيفى أقبردى ، وقانصوه بن فارس المعروف بقرار ، ودولات باى الفلاح ، وجان بلاط الغورى ، وسودون العجنى واصطمر بن ولى الدين ، وآخرون .

وفيه صرف شرف الدين بن البدرى حسن عن نظر الدولة وضرب بين يدى السلطان . وخلع على قاسم شغيته وأعيد الى نظر الدولة .

وفيه من الحوادث أنه في يوم الخميس عاشره جلس السلطان على الدكة بالحوش على العادة فثارت ريح عاصف فوقعت من شدتها السحابة التى بالحوش فأصابت جماعة من الأمراء وجرح تانى بك

الجمالى حاجب الحجاب فى وجهه ، وقد وقع عمود
السحابة التى بالحوش عليه وجرح أيضا دولات باى
الحسنى وملاحت خفائف الأمراء وعمائم المباشرين
فقام السلطان من وقته ودخل الى البحرة ، وتهارب
العسكر وظنوا أنها القيامة ، وهرب الفراشون
أصحاب النوبة خوفا على أنفسهم من السلطان ،
وقد أظلم ليل جو ظلمة شديدة وقام رعد وبرق ثم
أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى جرى السيل فى
الأسواق والشوارع ، وكان يوما مهولا .

وفيه جاءت الأخبار من سيس بأن فى ذلك اليوم
وقعت بها صاعقة مهولة هدمت سور قلعتها وقتل
بها من الناس جماعة .

وفيه توفى شرف الدين عبد الباسط ابن البقرى
أخو مجد الدين شقيقه ، وكان رئيسا حششا ولى
عدة وظائف سنية منها نظر الاصطبل ونظر الأوقاف
ونظر الدولة وكان وجيها عند الناس حسن الهيئة ،
وكان بين موته وموت أخيه نحو من شهر وقيل
مات مسموما .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حلب بأن
ابن عثمان جهز عسكرا وقد وصل الى اذنة . فلما
بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونادى
بالعرض . فحضر الأتابكى أزيك باش العسكر
فكتب بحضرته من الجند نحو من أربعة آلاف
مملوك . وعين من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ،
ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن
ستين أميرا ، حتى عدت هذه التجريدة من نوادر
التجاريد . وفد بلغ السلطان أن ابن عثمان جمع
من العساكر ما لا يحصى . فلما عرض الجند وعين
الأمراء أخذ فى أسباب تفرقة النفقة . ثم انه عين
ثلاثة من الخاصكية بأن يسيروا على الهجن لكشف

أخبار ابن عثمان ، وما يكون من أمره ، واستحثهم
على الخروج ورد الجواب عليه بسرعة . ثم عين
أقبردى الدوادار وكاتب السر أن يتوجها الى جبل
نابلس بسبب جمع العشراوات من جبل نابلس .
وفيه جاءت الأخبار بأن يعقوب بن حسن
الطويل وقع بينه وبين صاحب هراة من الفتن ما لا
يعبر عنه ، وآل أمره الى كسرة يعقوب وانهزامه ،
وقتل من عسكره ما لا يحصى ، فشق ذلك على
السلطان .

وفيه قرر السلطان شرف الدين ابن البدرى
حسن فى نظر الأوقاف عوضا عن شرف الدين
ابن البقرى بحكم وفاته . وقد وليها ابن البدرى
حسن غير ما مرة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير دولات باى
الحسنى وأمر بنفيه الى مكة ، فخرج الى الخانقاه
ثم طلع أزيك الأمير الكبير وشفع فيه حتى عاد
الى داره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جاني بك الابراهيمى
الطويل الأشرفى ، نائب صفد ثم دوادار السلطان
بحلب وكان لا بأس به ، وقرر بدوادارية السلطان
بحلب أركماس بن ولى الدين عوضا عن دوادار
السلطان بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن
عثمان قد استولى على قلعة اياس من غير قتال ولا
مانع ، فتأكد السلطان لهذا الخبر .

وفى جمادى الآخرة بعث السلطان تفقات الأمراء
المقدمين والعشراوات فبلغت النفقة على الأمراء
خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف
دينار ، والأمراء المعينون الى التجريدة كما تقدم
هم الأمير الكبير أزيك وتمرز أمير سلاح وبرزبای
قرا أمير مجلس وقانصوه خمسمائة أمير آخور

كبير وتغرى بردى مطر رأس نوبة النوب وتانى بك
الجمالى حاجب الحجاب ، ومن الأمراء المقدمين
غير أرباب الوظائف أربك اليوسفى المعروف
بالخازندار وتانى بك قرا الاينالى ، ويشبك الجمالى
السينى ناظر الخاص وقانصوه الألفى وقانصوه
الشامى ، ونحو من خمسين أميرا من الأمراء
الطبلخانات والعشراوات ، ثم أنفق على الجند
على العادة فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند
نحو من ألف ألف دينار حتى عد ذلك من النواذر
ولم يسمع فيما تقدم من الدول الماضية أن أحدا
من السلاطين فعل مثل ذلك . وكانت نفقة أربك
الأمير الكبير وحده ثلاثين ألف دينار . وكانت
عادة نفقة الأتابكية الى دولة الظاهر برقوق عشرة
آلاف دينار ، ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة
قط فكان كما قيل :

تهب الألوف ولا تهاب ألوفها

هان العدو عليك والدينار

فلما أخذ الممالك النفقة أطلقوا فى الناس النار
وأخذوا البغال والخيول حتى أكاديش الطواحين ،
وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغيرهم .
وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب باستيلاء
النفش صاحب قشتيلة على مدينة مالقة من بلاد
الأندلس ، وكانت كائنة عظيمة وقعت هناك .

وفيه كان خروج أربك أمير كبير ومن عين معه
من العسكر ، وكان يوما مشهودا . واستمرت
الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى ما بعد
الظهر ، وخرج العسكر وهم لا بسون آلة السلاح
حتى عد ذلك من النواذر . وكان طلب أربك أمير
كبير وقانصوه خمسمائة غاية فى الحسن حتى
قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحو
من ثمانين ألف دينار . ثم ان الأمراء برزوا ونزلوا

بالريدانية واستمروا هناك الى أن رحلوا ولم تخرج
من مصر تجريدة أعظم من هذه لا فى زمن الظاهر
برقوق ولا غيره .

وفيه قبض السلطان على أبى الفتح المنوفى نائب
جدة ورسم عليه بطبقة الزمام ، وكان حصل له
مالخوليا وطرف جنون . ثم خلع على جاهين
الجمالى وقرره فى نيابة جدة عوضا عن أبى الفتح
ثم أمر السلطان بتوجه أبى الفتح الى البيمارستان
فانه لما أحضره السلطان وكله رد له جواب من فى
عقله خلل ، فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض
الأمراء . وشهد جماعة من المباشرين بأنه قد
حصل له مالخوليا ، وأمر بأن ينزلوا به الى
البيمارستان ، وهو ماش مكشوف الرأس عريان
وفى عنقه زنجير ، ورسم بأن يدعوه عند المجانين
ففعلوا به ذلك فأقام بالبيمارستان أياما ثم شفع
فيه فعاد الى طبقة الزمام وأقام فى الترسيم . وكان
أبو الفتح فى خدمة السلطان مذ هو شاد
الشراب خانا . وكان عنده من المقربين ثم غربه
ووقع له أمور يطول شرحها .

وفيه توفى برسباى الطلاشى الشمسى الظاهرى
أحد العشراوات وكان من خشدشى السلطان وكان
لا بأس به .

وفى رجب بلغ السلطان أن العريان قالت ان
مصر ما بقى بها من العسكر الا قليل ، وزاد طمعهم
فى الترك . فرسم السلطان لمن بقى بالقاهرة بأن
يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ويتوجهوا نحو
المطرية ويعودوا ويشقوا من القاهرة ، وفى أوساطهم
السيوف والطرايش فصاروا يفعلون ذلك فى كل
يوم أحد وأربعاء ، ويدخلون من القاهرة أفواجا
أفواجا وتقع الناس على الدكاكين لرؤيتهم ،
فأقاموا على ذلك مدة ثم بطل .

العلم والفضل وله شهرة بمصر وكان لا بأس به .
وفيه جاءت الأخبار بوفاة تغرى بردى ططر
التششى الظاهري جقمق رأس نوبة النوب توفي
بحلب ، وكان من أجل الأمراء وتولى عدة وظائف
سنية منها نيابة القلعة بمصر ثم بقي مقدم ألف ثم
بقي حاجب الحجاب ثم بقي رأس نوبة كبيرة ، ومما
وقع له أن الأمراء كلهم خرجوا بالأطلاب ما عداه
فانه خرج من غير طلب ، فلما طلع الى القلعة
مقتته السلطان بسبب ذلك ، فقال له تغرى بردى
ططر : « لا تمقتنى ولا أمقتك أنا ما بقيت أرجع
من هذه السفرة » . وكان الأمر كذلك ، كما يقال :
« ان البلاء موكل بالمنطق » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان
بعث عدة مراكب من البحر وهى مشحونة بالسلاح
والعسكر ، وقد وصلت الى جهة باب الملك ليقاطع
يها على العسكر المصرى ، فما تم له ذلك وخذله
الله تعالى ، وكانت النصره لعسكر مصر كما سيأتى
ذكره .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى حادى
عشر مسرى فتوجه أقبردى الدوادار وفتح السد
على العادة ، ولم يقع لأقبردى أنه نزل وفتح السد
غير هذه السنة بموجب غياب الأمير الكبير وبقيّة
الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع السلطان على فارس المنصورى وقرره
فى نيابة دمياط عوضا عن شاد بك الأشقر بحكم
صرفه عنها .

وفى ثالث رمضان كانت وفاة الزينى أبى بكر
ابن مزهر ، كاتب السر بالديار المصرية ، وهو
أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن
عبد الخالق بن عثمان ، المعروف بمزهر الدمشقى
الأنصارى الشافعى . وكان عالما فاضلا ، عارفا

وفيه كان انتهاء القبة التى جددتها السلطان
بالجامع بالقلعة عوضا عن التى سقطت ، وجدد
المنبر فجاء من أحسن ما يكون من البناء .

وفيه من الحوادث أن السلطان جدد مظلمة
شنيعة ، وهو أنه أرسل لكشاف الغربية والشرقية
بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين ،
بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربانها العشير
يتوجهون نحو العسكر عونة بسبب قتال عسكر
ابن عثمان . فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس
البلاد وقبض الفلاحين . ونسب ذلك الى شرف
الدين بن البدرى حسن فانه كان هو القائم فى
ذلك الوقت ، فوعده المماليك الجلبان بالقتل
ونهبوا بيته فيما بعد . وقد جبى الخمس مرتين من
خراج المقطعين سنتين متواليتين ولم تخرج خيالة
من الشرقية ، وكانت زيادة مظلمة أخرى .

وفيه وصل الزيتى أبو بكر بن مزهر كاتب السر
وقد تقدم القول أنه خرج الى نابلس صحبة
الأمير أقبردى الدوادار بسبب جمع العشير من
جبل نابلس لأجل التجريدة الماضى ذكرها ، فحضر
وهو متوعد فى جسده فلم يقابل السلطان ولا طلع
الى القلعة ، واستمر ملازم الفراش حتى مات ، كما
سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه وصل قاصد ملك الفرنج الأنكبروس من
بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه
وأنزله فى مكان أعد له .

وفيه توفي دولات باى بن مصطفى الأشرفى
المعروف بالأجروود نائب غزة ثم بقي أحد الأمراء
المقدمين بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم
ابن على الشافعى ، شيخ مدرسة كاتب السر بن
مزهر التى أنشأها بحارة برجوان ، وكان من أهل

بالفقه رئيسا حشبا انتهت اليه رياسة عصره ، وكان
وجيها عند الملوك والسلاطين ، وتولى من الوظائف
السنية عدة ، منها نظر الاصطبل ونظر الجيش
وكتابة السر ، ودام بها نيفا وعشرين سنة حتى مات
وهو مقرر بها ، وتكلم في وظيفة قضاء الشافعية
مدة ، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وكان
قد شاخ وكبر سنه فلما مات رثيته بهذين البيتين
من قصيدة قتلها فيه :

صارت مرامله كشل آراملى
تبكى بأعينها دما وتترب
وكذا الدواة تسودت أقلامها
حزنا عليه وأقست لا تكتب

وكانت جنازته مشهودة ، وغطى نعشه بمرقعة
من الصوف . فلما توفى خلع السلطان على ولده
المقر البدرى محمد ، وقرره في كتابة السر بمصر
عوضا عن أبيه بحكم وفاته . وذلك في يوم الخميس
سادس عشره ، وأخذ منه مالا له صورة حتى تولى
هذه الوظيفة ، وكان شابا في عشر الثلاثين لما قرر
في كتابة السر وكان السلطان محتفلا به فاستخلص
منه أموال أبيه بحسن عبارة . ولما تولى كتابة السر
قلت فيه هذين البيتين :

تشرف ذا الانشاء من آل مزهر
بنجل سما قدرا وشاع له ذكر
أضاءت به الأيام في مصر بهجة

ولم لاوقداضحى يلوح لها البدر
وفيه جاءت الأخبار أن أربك الأمير الكبير ملك
باب الملك ، واستخلصه من أيدي عسكر ابن
عثمان بعد أن أتوا اليه في ستين مركبا وهى
مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، فقلق العسكر من
ذلك واقطعت قلوبهم وظنوا أنهم هم المأخوذون .
فبينما هم على ذلك إذ بعث الله تعالى بريح عاصفة

ففرق غالب تلك المراكب في البحر الملح ، والذي
فر من البحر من العسكر العثماني وطلع الى البر
قتله العسكر المصرى . وكانت النصره لهم على
العثمانية وكانت على غير القياس . فلما تحقق
السلطان هذا الخبر سر به ولم يصدق بذلك .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بوفاة
صاحب تونس السلطان المتوكل على الله عثمان بن
محمد بن محمد بن العزيز أحمد الهناني
الموحدي ، وكان ملكا جليلا أقام في الملك نحوا
من أربع وخمسين سنة ومات وهو في عشر التسعين
سنة . ومما مدحه به بعض شعراء الغرب :

بقيت ولا أبقى لك الدهر حاسدا
فانك في هذا الزمان فريد
علاك سوار ، والممالك معصم
وجودك طوق ، والبرية جيد

ولما توفى تولى بعده ولد ولده يحيى المعروف
بالحفيد فلم تطل أيام مدته ، وقتل واستطال عليه
أعداءه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة سيباي بن تاني باي
الطيورى الظاهري نائب حماه وكان لا بأس به .

وفيه ورد الخبر من أربك الأمير الكبير بأنه في
ثامن رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر
وعسكر ابن عثمان فقتل من الفريقين ما لا يحصى ،
وكان ممن قتل من أمراء مصر دولات باي الحسنى
رأس نوبة ثانى أصيب بمدفع ، وقتل من مساليك
السلطان عدة وافرة ومن العسكر العثماني أكثر .
وقد هزموا العثمانية وغنم منهم عسكر مصر أشياء
كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، فلما سمع
السلطان بهذا الخبر أمر بدق البشائر بالقلعة
سبعة أيام .

وفي شوال وصل مغلباي البهقمدار أحد الأمراء العسراوات من مساليك السلطان وصحبته عدة رءوس قطعت من عسكر ابن عثمان وكانت نحو من مائتي رأس ، فشق مغلباي من القاهرة وقدمه تلك الرءوس وهي على الرماح ، وكان له يوم مشهود . فخلع عليه السلطان ونزل في موكب حافل ، ثم أخبر بوفاة مغلباي الفهلوان المحمدي الأشرفي الإينالي أحد الأمراء العسراوات رءوس النصب ، وكانت وفاته بحلب ، وكان عارفا بفن الصراع علامة فيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر العثماني بعد ما حصلت له هذه الكسرة عاد أيضا الى أدنة ، وأن العسكر المصري شرع في حصارهم بها ، وقد تسادى الأمر في ذلك حتى أخذت بعد مضي ثلاثة أشهر ، وقتل في مدة هذه المحاصرة من الفريقين ما لا يحصى ، وآل الأمر الى أخذها بالأمان ، وجرى في ذلك أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل جان بلاط الخاصكي أحد الدوادارية ، وبالركب الأول كرتباي الكاشف . وحج في تلك السنة داود بن عمر أمير عربان هواره .

وفيه توفيت دولات باي الجركسية سرية الظاهر جقمق ، وهي زوجة برقوق نائب الشام . وكانت دينة خيرة لا بأس بها .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى اينال الخفيف باستقراره في ثيابة حماء وقد سعى له أزيك الأمير الكبير في ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قائم دهيشة بن أرزم الأشرفي الخاصكي الساقى أحد خواص السلطان . خرج الى دمشق في بعض مهمات السلطان بدمشق فمات بها وكان شابا جميل الصورة حسن الشكل لا بأس به .

وفيه أعيد زين الدين الحسيني الى قضاء الحنفية بدمشق وصرف عنها مجد الدين الناصري وسجن بقلعة دمشق .

وفيه توفي الناصري محمد بن محمد بن سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس البندقداري وكان رئيسا حشما من مشاهير أولاد الأسياد .

وفي ذي القعدة توفي القاضي خير السدين الشنشي محمد بن عمر بن محمد بن حسن بن موسى القاهري الحنفي ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان عالما فاضلا عارفا رئيسا حشما وترشح أمره لأن يلي قضاء الحنفية بسمر ، ولم يل ذلك وما تم له . ومولده سنة أربعين وثمانمائة .

وفيه قرر شخص يقال له محب الدين ، وكان أصله من الأقباط ، فقرر في نظر الجيش بدمشق عوضا عن السيد الشريف موفق الدين بحكم صرفه عنها . فعيب ذلك على السلطان ، واتفق أن محب الدين المذكور لما دخل الى الشام أقام بها أياما ومرض ومات . وكان قد جد في السعي على الشريف موفق الدين وأورد مالا له صورة .

وفيه ضرب السلطان شخصا من نواب الحنفية يقال له شهاب الدين بن القصيف ، ورسم بنفيه الى الواح ، فشفع فيه وكتب عليه قسامة بأنه لا ينوب في الحكم قط ولا يسعى في ذلك بل ولا يشهد في شيء من الأمور الشرعية لأمر أوجب ذلك .

وفيه أخضرت جثة دولات باي الحسنى رأس نوبة ثاني من أدنة ودفنت بمصر في تربته .

وفي ذي الحجة توفي الشيخ تقي السدين السخاوي واسمه أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد القاهري الشافعي ، وكان عالما فاضلا بارعا

، الحديث ، سمع على الحافظ بن حجر وغيره ،
كان لا بأس به .

وفيه قدم الزينى محسود بن أجا قاضى قضاة
حنفية يطلب ، فأقام بالقاهرة مدة ، ثم عاد الى
لب على وظيفته .

وفيه توفى يرسباى العلائى الطويل الظاهرى
بد الأمراء الطبليخانات وكان يعرف بالبواب فمات
ماك لما خرج فى التجريدة .

وتوفى قرقاس المحمدى الظاهرى المعروف
لمعلم ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان
رفا بفنون الرمح علامة . وتوفى ملاج الظاهرى
يضمقى أحد الأمراء العشراوات وكان دينا خيرا
، ذوى العقول . ومما وقع له أنه كان بيده اقطاع
باب وعنده عيال كثيرة وأولاد عدة فوقف الى
سلطان وشكا له حاله ، وأن اقطاعه خراب
يحصل له منها شيء ، فلم يلتفت السلطان الى
شمله ، فنزل الى داره ودخل الى طبقة مهجورة
لده ، وعمد الى سلة وربطها فى سقف الطبقة ،
مل فيها خية وشنق نفسه بها فمات . وقد هانت
به نفسه من شدة قهره ، وكان ساكنا فى الجودرية
اح القتل فى كيسه ولم يرث له أحد .

وفيه جاءت الأخبار بقتل صاحب طرابلس
سرب ، واسمه أبو بكر بن عثمان بن محمد
بغضى ، قتله صاحب تونس وقتل ولده أيضا
جماعة من أعوانه .

وتوفى فى السنة المذكورة جماعة كثيرة من
عيان منهم قاضى الاسكندرية وهو محمد بن
مده عوض المالكى ، وكان لا بأس به .

ة أربع وتسعين وثمانمائة (١٤٨٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، لما طلع القضاة لتهنئة السلطان

رسم بعرض نواب الشافعية ونواب الحنفية وكلهم
كلما مزعجا وأمر بإبطال جماعة منهم وجرت أمور
يطول شرحها ، ثم آل الأمر الى التحجير عليهم فى
الأحكام الشرعية وألا يسجنوا الخصم الا باذن
من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر
النواب .

وفيه تغير خاطر السلطان على الطواشى خشقدم
الزمام وخازن داره ووزيره أيضا ، فرسم بالقبض
عليه فى وسط الحوش وهم بضربه ، ثم آل الأمر
الى أن خرج منفا الى سواكن ، واحتاط على
موجوده قاطبة واستمر منفا الى أن مات هناك .
وكان عنده عسف وظلم وشدة بأس وسفاهة لسان
وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا يقال
له عبد القادر بن الرماح وكان له خصاصة بالسلطان
قال له ان الشيخ عبد القادر الدشطوملى رحمه الله
ورضى عنه شخص من عباد الله الصالحين ، وكان
قصد السلطان الاجتماع عليه ، فأخبره أنه يتردد
الى جامع محسود فى مكان عنده بالقرافة تحت
الجبل المقطم ، فقال له السلطان : « ان حضر هناك
أعلسنى » . فعند عبد القادر بن الرماح الى شخص
كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشطوملى ، وكان
يدعى أنه شريف ، فأعلم السلطان بأن الدشطوملى
يحضر تلك الليلة الى المكان المذكور ، فصلى
السلطان العشاء ونزل وصحبته ثلاث أنفس فأتى
الى ذلك المكان ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك
الشخص جالسا ورأسه فى عبه ، فشرع السلطان
يقبل رجله ويقول : « ياسيدى اجمل حملتى مع ابن
عثمان » . فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول
له : « أنت ما ترجع عن ظلم العباد » . فطال المجلس
بينهما . ثم ان السلطان دفع له كيسا فيه ألف
دينار ، وقيل خمسمائة دينار ، فصار يستمتع من ذلك

والسلطان يتلطف به ويقول له : « فرق ذلك على الفقراء » . ثم ركب ومضى وهو يظن أنه الدشطوطى .

ثم بعد أيام انكشفت هذه الواقعة ، وظهر أنها مفتعلة . فلما تحقق السلطان ذلك ، أحضر عبد القادر بن الرماح والشخص الذى تزيا بزي الدشطوطى وخدام المكان الذين كانوا به ف ضربوا بين يدي السلطان بالمقارع . وأما عبد القادر ابن الرماح الذى كان سببا لذلك فرسم السلطان بحلق ذقنه وشهره فى القاهرة على حمار ، ثم سجنه بالمقشرة الى أن مات عقيب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أغرب الوقائع التى لم يسمع بشئها مع أن عبد القادر بن الرماح كان من ذوى العقول ، ولكن قد يخبو الزناد ويكبو الجواد ، كما يقال :

وانى رأيت المرء يشقى بعقله

وقد كان قبل اليوم يسعد بالعقل

وفى صفر أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بامرية عشرة ، وهى أول استظهاره فى العلو والرفعة ... وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد .

وفيه جاءت الأخبار أن صاحب فاس من بلاد الغرب قد غزا الفرنج ، واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من أيدي المسلمين ، فأعادها لهم ، وقتل أخوه فى المعركة .

وفيه صار العسكر الذين من مماليك السلطان يدخلون الى القاهرة شبيئا فشيئا قبل حضور الأتابكى أزبك فتأكد السلطان لذلك .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان غالب الأمراء مسافرين فى التجريدة ، وكان أمر السباط فيه بحكم النصف على العادة .

وفيه بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريدة قصدوا أن يثيروا فتنة كبيرة ، ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم . ثم بلغ السلطان أن المماليك قالوا ان كان السلطان لا يعطينا نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يسافروا ، وذكروا كلمات كثيرة من هذا النمط . فلما تحقق السلطان ذلك أخذ فى أسباب تحصيل المال ، واجتمع السلطان بالقضاة الأربعة ، وذكر لهم أن الخزائن نفدت ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصدون نفقة ، وان لم أنفق عليهم شيئا يثيروا فتنة كبيرة ... فاتفق الحال على أن يؤخذ من أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة . وانفض المجلس على ذلك .

ثم ان السلطان أمر تغرى بردى الاستادار بأن يتكلم فى ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابونى ، فاقترسوا التصرف فى ذلك ، وشرعوا فى جباية المال .

وفيه دخل الأمير الكبير أزبك ومن كان معه مسافرا فى التجريدة من الأمراء وبقية العسكر ، وكان لهم يوم مشهود . ومن العجائب أنه فى حالة دخولهم الى القاهرة أشيع بين الناس عودهم الى حلب عن قريب ، لأن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس ، وعلى طرسوس ، وغير ذلك من البلاد الحلبية . وحضر مع أزبك الأمير الكبير جماعة كثيرة من عسكر ابن عثمان ، أثوا طائعين باختيارهم ، فأنزلهم السلطان فى ديوانه ، وقرر لهم الجوامك ، وهم الى الآن باقون فى الديوان يسمون العثمانية .

ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وأن

اليك قد ضموا على أخذ النفقة لكل واحد
مائة دينار ، فقلق السلطان لهذه الاشاعات ،
اشتد عليه الأمر .

وفي يوم السبت رابع ربيع الآخر جلس السلطان
الدكة بالحوش ، وأرسل خلف القضاة الأربعة
سائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس قال السلطان
للمراء والقضاة : « هؤلاء المماليك يرومون مني
نفقة ، وقد نفد جميع ما كان في الخزائن من المال
على التجاريد ، ولم يبق بها شيء من المال » . ثم
قسم بالله أنه نفد منه على التجاريد من حين ولي
سلطنة الى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة
 وخمسة وستون ألف دينار . ثم قال للأمراء :
« اختاروا من تسلطونه غيري ، واشهدوا على أيها
القضاة أنني خلعت نفسي » . وشرع يفكك أزراره
يقصد الدخول الى قاعة البحرة فتعلق به القضاة
متحوه من ذلك . وشرع قاضي القضاة المالكية
بن تقى يبكي وأظهر التأسف لهذه الواقعة وصار
يتناوش ويترب . ثم ان الأمير تميز أمير سلاح
سار يمشي بين الجلبان وبين السلطان في عمل
لمصلحة ، فكثر القال والقليل في ذلك ، وضج
لعسكر ، وترددت الوسائط بين السلطان وبين
الجلبيان . ثم استقر الحال بعد جهد كبير على أن
لسلطان ينفق على الجلبان لكل واحد منهم
خمسون دينارا من ذلك أربعون دينارا معجلة ،
شيوخ عشرة ينفقها عليهم بعد مدة شهرين ، وأن
القزائن ينفق عليهم خمسة وعشرين دينارا فاستقر
الحال على ذلك وسكن الاضطراب قليلا .

ثم ان السلطان أرسل خلف الخليفة المتوكل
الله عبد العزيز - وكان ساكنا عنده
بالحوش - فلما حضر جدد له مبايعة ثانية

بحضرة القضاة الأربعة . فكانت مدة سلطته في
هذه المرة الأولى الى يوم خلعه هذا احدى وعشرين
سنة وسبعة أشهر . ثم قام الخليفة ونزل القضاة
الى دورهم ، وانفض الموكب وكان يوما مهولا .

ثم ان السلطان أخذ في أسباب تحصيل المال
لأجل النفقة واستحث في احضار ما يجيء من المال
بسبب الشهرين اللذين فرضهما على أرباب الأملاك ،
ثم فرض على المماليك القرائصة وأولاد الناس
الذين لم يسافروا في التجريدة : على كل من له
جامكية ألفان أربعون دينارا ، ومن له ألف جامكية
بحكم ذلك ، ومن لم يورد شيئا من ذلك تقطع
جامكيته ستة أشهر حتى يغلق ما فرض عليه . ثم
أنفق على المماليك فيما بعد . ثم ان الأمير تميز
شفع في القرائصة وأولاد الناس ألا يوردوا
شيئا مما قرر عليهم ، وكان الغالب منهم أورد شيئا
فراح عليه والمتأخر لم يحط شيئا بسبب الشفاعة .

وفيه ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب
الدين أحمد الشيشي الذي تولى قضاء الحنابلة
فيما بعد ، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدة
طويلة حتى سكن الأمر . وسبب ذلك ما نقل عنه
أنه قد أفتى السلطان بحل ما يجيء اليه من أجرة
الأملاك في الشهرين الماضي خبرهما . فلما بلغ
العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله ... واستمر
مختفيا حتى توجه الى مكة وجاور بها مدة .

وفيه كانت وفاة الشيخ بدر الدين بن الغرس
وهو محمد بن محمد بن محمد بن خليل القاهري
الحنفي ، وكان عالما فاضلا عارفا بأصول الفقه وله
نظم جيد وولى عدة وظائف سنية ، وناب في القضاء
مدة ثم تولى مشيخة تربة الأشرف برسباي ودام
بها حتى مات ، وكان من أعيان الحنفية وذكر الى
قضاء الحنفية غير ما مرة . ومن نظمته قوله :

ان جاءكم صب بكم فأكرموا
مشواه تجزون خيار الثواب

وجاوبوا العذال عن غدا
من سقمه لا يستطيع الجواب
ولما مات رثاه الشيخ عبد الباسط بن خليل
الحنفى بقوله :

لقد أظلمت مصر وأقفرت الدنيا
لموت عديم المثل بل أوحده العصر
سأعجب ان ضاءت ليالى عصرنا

وكيف يكون الضوء مع عدم البدر
وفيه كانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع .
وسبب ذلك اهمال كسبائى المحتسب ، فانه لم ينظر
فى أحوال المسلمين فوبخه السلطان بالكلام ، ثم
بطحه وضربه بين يديه نحو من عشرين عصا . فلما
نزل من القلعة أطلق فى السوق النار وكذلك
سماسرة القمح ، وجرى بسبب ذلك أمور شتى .

وفيه كانت وفاة الحافظ قطب الدين الأخيضرى
محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر بن سليمان
ابن داود بن فلاح بن ضمرة الرملى الشافعى ،
وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما ، وكان من
أخصاء الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف
سنية : منها كتابة سر دمشق ونظر جيشها وقضاء
الشافعية بها وغير ذلك من الوظائف ، ومولده بعد
الثلاثين والثمانمائة .

وفيه بعث السلطان بالقبض على مملوكه أزيك
النصرانى ، وكان قرر فى نيابة كركر ، فوقع منه غاية
الفساد هناك ، وآل أمره الى أن حزت رأسه وعلقت
على باب كركر وكان من أشرار الناس .

وفيه من الحوادث : أنه أشيع بين الناس بأن
فرس البحر قد ظهرت عند شبرا وصارت تتراءى
للناس مدة ، ثم اختفت وتحققت الأقوال بذلك .

وفيه خلع السلطان على أزيك اليوسقى المعروف
بالخازندار ، وقرره فى رأس نوبة كبير عوضا عن
تغرى بردى ططر بحكم وفاته . وخلع على شاديك
الخوخ بن مصطفى وقرره فى الدوادارية الثانية
عوضا عن قانصوه الألفى بحكم انتقاله الى التقديم
وكانت الدودارية الكبرى شاغرة مدة طويلة . وأنعم
على مملوكه طقطباى بامرية عشرة وجعله متحدثا
فى نيابة القلعة فاستمر بها من غير أن يخلع عليه
بها . وأنعم على يشيك بن حيدر الذى كان والى
القاهرة بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الآخورية
الثانية . وأنعم على مملوكه جانم الذى كان بالشام
أميرا بتقدمة ألف ، وكتب له بذلك البشارة وهو
بالشام . وقرر مملوكه مغلباى الشريفى فى تقديم
ألف مضافا لما بيده من ولاية القاهرة ، فأقام على
ذلك مدة حتى تقرر غيره .

وفيه كان ابتداء تفرقة النفقة على الجنود كما
استقر الحال عليه فيما تقدم .

وفيه توفى تقي الدين ناظر الزردخانه فلما مات
قرر ولده عبد الباسط فى نظر الزردخانه عوضا عن
أبيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه بضاع بن دلغادر
حضر الى الأبلستين ، ومعه طائفة من عسكر ابن
عشان ، وكبس على أخيه على دولات وقبض على
اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكده
لهذا الخبر جدا .

وفيه قرر الشهابى أحمد ابن الجمالى يوسف
ناظر الخاص فى نظر الجيش وصرف عنها بدر الدين
ابن أخيه كمال الدين .

وفيه عين السلطان عدة من أمراء البلاد الشامية ،
فقرر فى حجویة دمشق يونس نائب البيرة ، وقرر
فى نيابة البيرة اينال باى من جلبانه ، وكان يقرب

ثم أنفق عليهم وعلى الأمراء وأمرهم بسرعة الخروج
الى التجريدة من غير اهمال .

وفي جمادى الأولى توفي الشيخ محب الدين أخو
قاضي القضاة الشافعي ولي الدين الأسيوطي ، وكان
علما فاضلا وناب في الحكم وتولى خطابة الجامع
المؤيدي ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي القاضي بدر الدين محمد بن الحليس
أحد نواب الحنابلة وكان من أعيان الناس مشكور
السيرة .

وفيه أنعم السلطان على طوخ المحمدي البجمقدار
بأمرية عشرة .

وفي جمادى الآخرة رسم السلطان بسلخ شخص
يسمى أحمد بن الديوان من أهل حلب فسلخه في
المقشرة ، وسلخ معه والده محمد وأشهر وهما في
القاهرة على جمال . وكان أحمد بن الديوان من
أعيان الناس الرؤساء بحلب ، وكان من أخصاء
السلطان ، فنقل عنه أنه كاتب ابن عثمان في شيء
من أخبار المملكة . فلما بلغ السلطان ذلك تغير
خاطره عليه ، وجرى عليه أمور يطول شرحها .
وكانت من الوقائع المهولة .

وفيه خرجت التجريدة ومن عين بها من الأمراء
والعسكر وكان يوما مشهودا . قيل قد بلغت النفقة
على الأمراء والجند في هذه التجريدة الخفيفة نحو
من مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة
أشهر ، وثمن الجمال . وكان السلطان دريا في
خروج هذه التجريدة لصون مدينة حلب .

وفيه قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن
عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا الى ابن
عثمان لعل أن يكون الصلح . فرد له الجواب :

وقرر باكين بن صالح الكردي حاجب حلب في
قلعة الروم ، وقرر مملوكه قانصوه الغوري
محمودية حلب عوضا عن باكير ... وقانصوه هذا
الذي تولى السلطنة فيما بعد . وقرر أركماس بن
الدين في دوايرية السلطان بدمشق ،
سرر قاني بك البهنسا في دوايرية السلطان
لب ، وقرر في نيابة البهنسا كرتباي الأشرفي من
ليكة . فخرجت اليهم المراسيم بمعنى ذلك .

وفيه أراد السلطان أن يقرر ثاني بك الجمالي
من نوبة كبير فامتنع من ذلك وصمم أنه ما يلي
أمرية مجلس عوضا عن برسباي قرا بحكم
أنه في التجريدة بحلب ، فتغير خاطر السلطان على
بك الجمالي ، وقصد نفسه الى مكة بسبب
ك ، وأقام على ذلك أياما لا يطلع القلعة . ثم
سل خلفه ووعد به ، وصار يتكلم فيها على
منه .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى عبد الرازق أخى
بن دولات ، وقرره في أتاكية حماه عوضا عن ابن
غل ونقل ابن طرغل الى نيابة طرسوس .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
سكر ابن عثمان لما بلغهم رجوع العسكر المصري
عوا في أخذ البلاد الحلبية ، وأرسل يستحث
سلطان في خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة
لب . فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين
بريدة ، وكتب عدة وافرة من الجند الذين كانوا
يقيمون بالقاهرة ، وجعل الباش على هذه التجريدة
نصوه الشامي أحد المقدمي الألوف ، ومن
أمراء الطبلخانات يشبك رأس نوبة ثاني ، وأزدر
نقيه الظاهري ، وكرت باي بن تمر باي ابن أخت
سلطان ، واصطمر بن ولي الدين أحد العشراوات .

« اذا أطلق تجار الممالك الذين عنده ، وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها ، كاتبناه في أمر الصلح ، وأرسلنا له قاصدا ... ولكن جرى بعد هذه الواقعة أمور شتى .

وفي رجب خلع السلطان على تاني بك المحمدي الاينالى أحد العشاوات وقرره في شادية الشون وأشركوا معه أقبردى ططر الظاهري أحد الأمراء العشاوات أيضا .

وفيه توفي جمال الدين الكوراني شيخ خاتناه سعيد السعداء ، وهو عبد الله بن محمد بن حسن ابن خضر بن محمد الأردبيلي الشافعي وكان عالما فاضلا دينا خيرا ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفي شعبان قرر في مشيخة خاتناه سعيد السعداء الشيخ زين الدين عبد الرحمن القناوى الشافعي عوضا عن جمال الدين الكوراني بحكم وفاته . وفيه ثارت فتنة من الممالك الجلبان ، بسبب العشرة دنابير التي تأخرت لهم من الخمسين التي استقر الحال عليها في أمر النفقة فما سكنت الفتنة حتى أنفقها لهم .

وفيه حضر اسكندر بن جيحان أحد الأمراء المقدمين لابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان على دولات هو القائم في القبض عليه فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود ، وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم .

وفيه توفي سودون الثور أحد الأمراء العشاوات وكان لا بأس به . وتوفي الطواشي مرجان الجمالي المعروف بستمائة وكان من أعيان الطواشية .

وفيه في آخر يوم منه كان وفاء النيل المبارك .

وفي مستهل رمضان كان فتح السد عن الوفاء ، ووافق ذلك سادس مسرى فنزل أزيك أمير كبير وفتح السد على العادة . وقيل ان جماعة من أوباش العوام أفطروا في ذلك اليوم من شدة الحر والعطش . وفي أثناء ذلك عمل الأتابكي أزيك وقدة هائلة وحراقة نطف في بركة الأزيكية ، وعزم على الأمراء وكانت ليلة حافلة .

وفي شوال كان أول توت وهو يوم النوروز عند القبط وكان عيد الفطر عند المسلمين ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وكان الحج في تلك السنة قليلا .

وفيه جاءت الأخبار من سواكن بوفاة صاحب خشددم الأحمدي ، وكان رئيسا حشما من أعيان الطواشية وتولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والزمامية والخازندارية الكبرى ، وكان ظلما غشوما عسوقا من وسائط السوء .

وفيه توفي الشيخ أبو الفضل محمد المحلى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

وفي ذى القعدة توفي الطواشي مرجان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي نوروز أخو برسبای قرا أمير مجلس وكان من الأمراء العشاوات من خيار الظاهرية وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشافعي شيخ القراء بمصر ، وكان يقرأ بأربع عشرة رواية . وكان علامة في القراءات .

وفيه جاءت جماعة من تجار الاسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم بالظلم والمصادرات فأرسل اليه السلطان يحذره من ذلك .

وفي ذي الحجة أنعم السلطان على سييى نائب
يسى بامرية عشرة ، وكذلك كسبى بن أربك
ساقى .

وفيه توفى شيمان الزواوى شيخ القبايين .
كان علامة فى صنعة القبانة والتحرير فى الأوزان .
وفيه توفى سليمان بن محمد المغربى ، وكان
ضالا فى علم الميقات وله شهرة فى ذلك .

سنة خمس وتسعين وثمانمائة (١٤٨٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، كسفت الشمس كسوفاً تاماً
حتى أظلمت الدنيا ، وثار عقيب ذلك رياح عاصفة
حتى فزع الناس من ذلك .

وفيه قدم الى القاهرة شاه بضاع بن دلفادر ،
قد تقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق ، وكان
سجونا بها . فلما هرب توجه الى ابن عثمان
والتف على عسكره وملك الأبلستين ، واستمر فى
عصيانه مدة طويلة . ثم وقع بينه وبين ابن عثمان
فتنة وقصد قتله ففر منه والتجأ الى السلطان . فلما
جاء اليه أكرمه السلطان وخلع عليه . ثم بعد مدة
أرسله الى منفلوط ليقوم بها وأجرى عليه ما يكفيه
فعد ذلك من جملة سعد السلطان وكانت من
النوادر .

وفى صفر توفى الطواشى سرور السيفى قراقجا
الحسنى وكان لا بأس به وتولى رأس نوبة السقا
وغير ذلك .

وفيه كان اقتران المريخ مع زحل فأفرط البرد فى
تلك الأيام حتى أحرقت الأشجار وجمدت المياه .
وذكر بعض المنجمين أن هذا الاقتران يدل على
وقوع فتن ، وأن البرد يستمر أياماً متوالية فى
تزايد من الافراط ، وصار الثلج ينزل فى الليل ،
وينعقد على الجدران بناحية الجيزة ، ومات الكثير
من الحرافيش من شدة البرد ، فكان كما قيل :

ويوم برد مد أنفاسه
يخمش الأوجه من قرصها

يوم تود الشمس من برده
لو جرت النار الى قرصها
وفيه كثرت الشكاوى فى محمد بن اسماعيل
قاضى الواح ، فأمر السلطان باحضاره ، فلما حض
ضربه بالمقارع ، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار
ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد أيام وكان من كيا
الظلمة من المفسدين فى الأرض . فلما خرج
جنازته ثار عليه جماعة كثيرة من أولاد أخذ
ورجموه بالحجارة وهو فى النعش ، وأراد
حرقه ، فما خلصوه ودفنوه الا بعد جهد كبير .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار من عند
دولت بأن ابن عثمان اهتم فى تجهيز عساكر و
وصل أوائلهم الى كولاك . فلما بلغ السلطان ذا
تنكد ، وجمع الأمراء وأخذ رأيهم فى ذلك فو
الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير ،
أخذ السلطان فى أسباب جمع الخمس من نوا
الشرقية كما فعل عند خروج التجريدة الماخ
لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير
العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الإ
وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس أصح
الجوامك من ألف درهم فما دونه — وكان أم
أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك
فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم فى التجريب
وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين ديناراً ، وكل
أشركهم فى جمل أعطاه لهم وخرجوا
التجريدة .

وفيه خلع السلطان على قيت بن قائم الس
وقرره فى ولاية القاهرة ، عوضاً عن مة

الشريفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكان متكلما
فى الولاية مع التقدمة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .
وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض وأشيع
أمر التجريدة الى ابن عثمان . فلما عرضهم
السلطان بادر اليهم بتفرقة النفقة ، ثم وقع فى ذلك
اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام
السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن
السلطنة وأمضى الى مكة » ، فتلطف به الأمراء . ثم
آل الأمر بعد ذلك الى أن أنفق عليهم لكل مملوك
مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر ،
وثنى جمل سبعة أشرفية . فأنفق فى ذلك على عدة
طباق . واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة ثم
حملت نفقة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات
وقد تعينوا للسفر أجمعين . ولم يبق بمصر سوى
أقبردى الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على
الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء
والجند نحو من خمسمائة ألف دينار . وكانت
هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباى الى
ابن عثمان وغيره ولم يجردها أبدا . ثم نادى
للعسكر ألا يخرج منهم أحد قبل الباش ، فما
سمعوا له شيئا .

وفيه قرر تنم الرحبى الخاصكى الخازندار فى
نيابة جدة عوضا عن جاهين الجمالى ، وقد سئل
الاعفاء عن ذلك .

وفيه تعين كرتباى كاشف البحيرة فى امرية
الحاج بركب المحمل ، وعين اينال الفقيه الحاجب
الثانى فى الركب الأول .

وفى خامس عشر ربيع الآخر خرج أمير كبير
أزبك من القاهرة ، قاصدا البلاد الحليية ،
وصحبته الأمراء والعسكر وكانت عدتهم عشرة

وهم على ما ذكرناه فى التجريدة الماضية ، وأما
الأمراء العشراوات والطبلخانات فكانوا زيادة على
الخمسين أميرا . وأما المماليك السلطانية فكانوا
زيادة عن أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم
مشهود ، حتى رجت لهم القاهرة . واستمرت
الأطلاب تتسحب من اشراق الشمس الى قريب
الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل
من آلة السلاح ، فعدت هذه التجريدة من نواذر
التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن
عثمان فى أمر الفتن والأمر لله .

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بنقل اسكندر
ابن النحال من البرج الذى فى باب السلسلة الى
دار كاتب السر البدرى ابن مزهر ، وأمره بالحفظ
عليه .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوقوع سيل عظيم
فى خامس صفر ، وقيل انه بلغ الى الحجر الأسود
وهدم عدة أماكن ، وحصل منه غاية الضرر .

وفى جمادى الآخرة قويت الاشاعات بسفر
السلطان بنفسه الى حلب . ونزل الى الميدان
وعرض الهجن وعين جماعة من الخاصكية للسفر
معه ، وأمر من بقى من العسكر بعمل بركهم ، وأن
يكونوا على يقظة من السفر .

وفيه وصل أقبردى الدوادار من البحيرة ، وكان
قد خرج بسبب فساد العربان .

وفى رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى
محمد الذى تسلطن بعده وكان عمره يومئذ نحو
من سبع سنين وأشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة
أيام متوالية ، وكان من نواذر المهمات فاجتمع به
سائر مغائى البلد ، ورسم السلطان أن تزين
القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل

سواق المشهورة وغير ذلك ، وخرج الناس في سفن والفرجة عن الحد . وكان العسكر غائباً في جريدة والناس في أمن من أذى المماليك . وكانت في الأيام مشهودة لهم يسبح بشلها ، ودخل على سلطان من التقدّم ما لا يحصى من مال وخيول ماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك مما يزيد في خمسين ألف دينار . وكان من جملة ما أهداه سهاى أحمد بن العيني طلست وأبريق ذهب به ستمائة مثقال برسم الختان ، وأشياء كثيرة بر ذلك . واختن مع ابن السلطان جماعة كثيرة من أولاد الأمراء والأعيان والخاصكية فكانوا يادة عن أربعين ولدا . فرسم لكل صبي منهم كسوة على قدر مقام أبيه فكان من جملة أولاد لأعيان ابن الخليفة أمير المؤمنين عبد العزيز وهو به سيدى عمر وابن الجمجمة بن عثمان ، وأولاد لعلاى على بن خاص بك وغير ذلك من أولاد الأمراء والأعيان . فلما كان يوم الخميس عشريه اجتمع الأمراء والأعيان من الناس بالحوش السلطاني ، وركب ابن السلطان من قاعة البحرة ومشت قدماه الأمراء والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومشى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين الأخمى ، وسائر أعيان المباشرين وأولاد الجياع ، وأعيان الخدام ، وكان ماسك لجام الفرس الأمير أقبردى الدوادار والشهاى أحمد ابن العيني وهم بالشاش والقماش ، ولم يكن بمصر من الأمراء المقدمين غير الأمير أقبردى الدوادار والأمير أزدمر تمساح والأمير أزدمر المسرطن . واستمر ابن السلطان في ذلك الموكب من قاعة البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس في المقعد ينظر اليه ، وفرشت تحت فرسه الشقق الحرير ، ونشر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ولافته المخانى فنزل عن فرسه باب الستارة

ودخل به قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وقيل دخل على المزين نحو من خمسة آلاف دينار . فأنعم عليه من ذلك بألف دينار ، والباقى تقاسمه الرؤساء من المزينين ، وعد هذا الختان من النوادر . ثم نزل ابن الجمجمة وأولاد العلاى على بن خاص بك وتوجهوا الى بيوتهم ، فشقوا من القاهرة في موكب حافل ، ورسم للقضاة الأربعة بأن يركبوا قدماهم ففعلوا ذلك .

وفيه كانت وفاة الزينى خضر بن سنان النوروزى الجركسى وكان رئيسا حشداً من أعيان الناس وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه . وكان في سعة من المعيشة ، ومات وهو في عشر الستين .

وفيه خسف القمر ودام في الخسوف نحو من أربعين درجة حتى انجلى .

وفيه عين السلطان جماعة من الجند الى مكة وجعل عليها باش أقبردى تمساح الظاهري أحد الأمراء العشراوات ، وعين الطواشى اياس الشامى في مشيخة الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وفيه ثار مماليك أقبردى الدوادار عليه ، وحاصروه وهو في داره ، وطلبوا منه زيادة في جوامكهم . فبعث اليه السلطان بالوالى فقبض على جماعة منهم وضربهم بالمقارع وقطع أيدي جماعة منهم وفر الباقون الى الجامع الأزهر ، وأقاموا به أياماً ، ثم آل الأمر الى أن نفى طائفة منهم الى جهة قوص وطائفة الى البلاد الشامية ، فسكن الحال قليلاً .

وفيه وصل هجان من عند العسكر ، وأخبر بأذ العسكر قصد التوجه الى بلاد ابن عثمان وقد أرسلوا ماماي الخاصكى رسولاً الى ابن عثمان ، فلما أبطأ عليهم خبره زحف العسكر المصرى على

أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية ،
وفتكوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم
فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان
وانقسموا فرقتين ، فرقة الى ماوند وفرقة مقيمة
بكولك ينتظرون ما يكون من هذا الأمر ، ثم
حضر جان بلاط الغورى أحد مماليك السلطان
وكان من الأمراء العشراوات يومئذ وأخبر بأن
العسكر فى قلق زائد بسبب الذى هناك ، وأن
العليق ما يوجد ، وأنهم قد عولوا على المجيء
الى مصر ، فما سر السلطان ذلك .

وفى شعبان رفعت امرأة قصة للسلطان تشكو
فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب المالكية ،
فأمر السلطان بإحضاره فلما حضر ضربه بين يديه
ضربا مؤلما ، وآل أمره الى أن غرم فى هذه الكائنة
مالا له صورة بعد عقد مجلس بينه وبين المرأة التى
رافعت فيه .

وفيه كانت البشارة بالنيل المبارك وجاءت
القاعدة سبعة أذرع الا ثمانى أصابع .

وفيه قرر شهاب الدين بن الصيرفى فى تدريس
الشافعية بالخانقاه الشيخونية عوضا عن جلال
الدين ابن اللبانة بحكم نزوله عنها ، ولم ينزل أحد
عن هذه الوظيفة قبل اليوم قط الا أن تخرج عنه
بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على دقاق نائب القدس
الشريف ، وفخر الدين بن نسيبة من أعيان بيت
القدس ، فرسم بإحضارهما ، فلما حضرا أمر
بضربهما ، فلما ضربا بين يديه أمر بنفى ابن نسيبة
الى الواح حتى شفيع فيه .

وفى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك

الأروام وجدهم يشربون الخمر فى رمضان نهارا
فضربهم ، وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم .

وفيه أخبرنى من آثق به ، أنه رأى بأسوان
شخصا أسمر اللون وله عين واحدة فى جبهته ، وله
أنف نابت فى وجهه تحت تلك العين ، وبين أنفه
وفمه نحو من أربع أصابع ، فكان من جملة
الأعاجيب .

وفيه ظهرت فى القاهرة امرأة ولها ثلاثة أبزاز ،
أحدها تحت إبطها .

وفيه فى رابع مسرى كان وفاء النيل المبارك
ونزل أزدمر تمساح وفتح السد على العادة ، وكان
الوفاء فى عاشر شهر رمضان . ومن النوادر أنه زاد
فى اليوم الثالث من مسرى ثلاثة وثلاثين اصبعاً فى
دقعة واحدة .

وفيه توفى برهان الدين التتائى أخو شرف الدين
الأنصارى ، وهو إبراهيم بن على بن سليمان
التتائى الأنصارى المالكى ، وكان رئيسا حشما وله
اشتغال بالعلم . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفيه حضر هجان وأخبر بأن العسكر على
حصار قلعة كواره ، ومات فى مدة المحاصرة
قائضوه بن فارس المعروف بقرا وهو من مماليك
السلطان ، وكان من الأمراء العشراوات ، ثم أخذت
هذه القلعة فيما بعد وهدمت الى الأرض .

وفى شوال كان الموكب السلطانى فى يوم عيد
الفطر بالحوش على العادة التى استجدها السلطان
فى غيبة الأمراء ، فلم يحضر فى موكب العيد سوى
الأمير أزدمر تمساح ، وكان أقبردى الدوادار
مسافرا الى جهة البحيرة بسبب فساد العربان ،
فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وخلع على
المباشرين وأرباب الدولة وانقض الموكب سريعا .

وفيه تزايد شر العبيد حتى خرجوا في ذلك عن الحد وصار يقتل بعضهم بعضا حتى أعيأ الوالى أمرهم وصاروا طائفتين ، طائفة تعادى طائفة .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بحلب شمس الدين محمد بن عثمان الزعيم ، عوضا عن عز الدين الحسباني .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أبى الفتح الكتبى فى مشيخة القبانين ، ثم تولى بعده ذلك التحدث على مباشرة بندر جدة .

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل سوق الحمير من عند باب الميدان الى جهة مدرسة قانى يابى الجركسى ، واستمر على ذلك الى الآن .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة المكان الذى أنشأه على بركة الفيل برسم ولده المقر الناصرى ، وكان يظن أن ولده يسكن بعده فيه ويستمر مقيما بمصر فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفيه أفرج السلطان عن علاء الدين الحنفى تقيب قاضى القضاة الشافعى ، وكان قاسى شدايد ومحننا ، وأقام فى الترسيم مدة طويلة ، وغرم جملة من المال .

وفيه رسم السلطان بقلع عيسى شخص يقال له على بن محمد المرجوشى ، وقطع لسانه أيضا . وسبب ذلك أنه أوحى الى السلطان بأنه يعرف علم صنعة الكيبياء ، فانصاع له السلطان حتى أتلغ عليه جملة مال له صورة ، ولم يستفد من ذلك شيئا . وفعل نظير ذلك بالأمير تراز الشمسى أمير سلاح فأتلف عليه جملة مال ولم يستفد من هذا شيئا . فحقق منه السلطان وفعل به ما فعل .

وفيه خرج الأمير أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة نابلس ، وحصل منه غاية الضرر للناس ، من

ذلك أنه أخذ جمال المسقائين لجمال سنيحه حتى عز وجود الماء وغلا سعر الراوية بسبب ذلك وضاق الأمر .

وفيه خلع السلطان على الطواشى فيروز وقرره فى الزمامية عوضا عن صاحب خشقدم بحكم نفيه الى قوص .

وفيه جاءت الأخبار بموت أقبردى ططر الظاهرى حقمق أحد العشراوات وشاد الشون ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأخذ قلعة كواره من يد عسكر ابن عثمان فسر السلطان بذلك . ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلق وهو طالب المجيء الى مصر . فتأكد السلطان لذلك ، وأرسل عدة مراسيم للأمرء بالاقامة فما سمعوا له شيئا . ثم جاءت الأخبار بأن أزيك أمير كبير قد دخل الى الشام هو والأمرء والنواب والعسكر قاصدين الدخول الى القاهرة من غير اذن . وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة وصرحوا بذلك . ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المساليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الفرنج قد استولوا على مدينة غرناطة ، وهى دار ملك الأندلس ، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها ، وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة ، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج . وقرر للفرنج فى كل سنة شئ من المال يوردونه لهم .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية محبى الدين ابن تقي وهو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على ابن تقي الدميرى المالكتى . وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية رئيسا حشما ، وناب فى الحكم مدة

وكان لا بأس به ، وأخذ العلم عن جماعة من
الأقديس كالبساطى والشيخ عبادة والشيخ طاهر
وغير ذلك من المشايخ .

وفي السنة المذكورة كانت وفاة الشيخ الصالح
المعتقد سيدى أحمد بن عقبة اليمنى وكان من كبار
أولياء الله تعالى . وتوفى القاضى فتح الدين محمد
السوهاجى و كان من اعيان نواب الشافعية ، وتوفى
زين الدين الطوخى الخالدى وكان من الفضلاء
وله نظم جيد .

سنة ست وتسعين وثمانمائة (١٤٩٠ م) :

فيها ، فى مستهل المحرم ، كان دخول أزبك أمير
كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا الى
القاهرة فى موكب حافل ، وكان لهم يوم مشهود .
فلما طلوعوا الى القلعة خلع السلطان على أزبك
أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا الى دورهم
وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير الى البلاد
الحلبية .

وفيه قرر السلطان كرتباى ابن أخته فى شادية
الشراب خاناه ، وقرر مسلوكة جان بلاط بن يشبك
فى تجارة الماليك .

وفيه أشيع بين الناس أن الماليك يقصدون
اثارة فتنه و يرومون نفقه على جارى العبادة ،
فأقسم السلطان بالله العظيم أنهم ان طلبوا نفقة
يتوجه تحت الليل الى مكة المشرفة ويقيم بها .

وفيه توفى قاضى القضاة المالكية كان ، وهو
ابراهيم بن عيسى بن محمد بن موسى بن جليل
اللقانى المالكى الأزهرى ، وكان عالما فاضلا بارعا
فى مذهبه دينيا خيرا رئيسا حشما مات وهو منفصل
عن القضاء ، وكان محسود السيرة فى أفعاله .

وفيه توفى الشيخ سنان الأونجاني الحنفى وهو
يوسف بن موسى بن سعد الدين ، وكان قرر فى
مشيخة تربة الأمير يشبك الدوادار وكان من
أعيان الناس الحنفية .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن
الشتاوى شيخ خاتناه سعيد السعداء ، وكان عالما
فاضلا دينيا خيرا لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ حافظ العجسى المقرئ وكان
لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على أربعة من خاصكيته
بأمريات عشرة منهم برد بك بن بير على الذى كان
بقى مقدم ألف وخرج الى مكة المشرفة بعد كائنة
أقبردى الدوادار ، وأمر أيضا قيت الرحبى الذى
تولى الأتابكية فيما بعد ، وأمر أيضا مصرباى
الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد ، وأمر
أيضا كشيغاي الذى تولى نيابة الاسكندرية
ومات بها .

وفى صفر أنعم السلطان على جانم الذى كان
نائب قلعة حلب بتقدمة ألف ، وقد تعينت له قبل
أن يحضر الى القاهرة ، فأقام جانم فى هذه التقدمة
نحو من سنة ومات بالطاعون فى السنة الآتية .

وفيه قدم الشهابى أحمد بن فرفور من دمشق
وأشيع عنه بين الناس أنه جاء يسعى فى كتابة السر ،
فما وافق السلطان على ذلك . فأقام فى مصر مدة
ثم عاد الى دمشق .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية فقطع فى
ذلك اليوم عدة جوامك من جماعة الجند نحو من
نماين انسانا من الشيوخ والعواجز والضعفاء ،

فكثر عليه الدماء من الناس في ذلك اليوم بسبب ذلك .

وفي ربيع الأول خلع السلطان على الشيخ عبد الغنى بن تقى وقرره في قضاء المالدية عوضا عن أخيه محيى الدين بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان للأتابكى أزبك بأن يتوجه الى شبرمنت بنواحي الجيزة بسبب عمارة القناطر التى هناك ، فصرف عليها السلطان نحو من خمسة آلاف دينار بسبب ترميمها ، فجاءت من أحسن البناء . وبنى هناك رصيفا به نفق للمسافرين في أيام النيل ، وبنى هناك لنفسه منظره وغيطا على بركة هناك ، فجاء ذلك غاية في الحسن من أجل المتنزعات وهو باق الى الآن .

وفيه من الحوادث المبهولة أنه في أثناء الشهر المذكور توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادار كان ، التى هى في رأس دور الحسينية فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة فحضر القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، والقاضى الحنفى ناصر الدين بن الأخميمى ، والقاضى المالكى عبد الغنى بن تقى ، والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى . فلما تكامل المجلس شرع السلطان في التكلم معهم فذكر لهم أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبيه قد فسدت ، آلت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون مى نفقه ، وإن لم أنفق عليهم شيئا نهبوا مصر والقاهرة ، وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم ... ثم شرع يقسم بالله تعالى أنه ما بقى في الخزائن شيء من المال لا كثير ولا قليل . والقصد

أن أفرض على الأوقاف والأملاك التى بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين وأفراد ومراكب وغير ذلك أجره سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة . فسكت المجلس ساعة . ثم قال القاضى الشافعى : « لعل الله تعالى يكفيكم مؤنة ذلك » . وقال القاضى المالكى : « ان أجره سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون ذلك ، فان كان ولا بد من ذلك فلنفرض عليهم أجره خمسة أشهر . وقبل ذلك فرض عليهم أجره شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » . فتوقف السلطان ، ثم آل الأمر الى ما قاله قاضى القضاة المالكى ، وانقض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع ، اضطربت الأحوال وكثر القتل والقتل في ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه نفرص على الجماجم من كل ذكر وأنتى من كبير وصغير على كل رأس دينارين ذهباً ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة . ثم بعد أيام رسم السلطان لتغرى بردى الاستادار بأن يكون متكلما في جباية الإمارات . من باب زويلة الى دير الطين . ورسم لابن الصابونى ناظر الخاص بأن يكون متكلما في جباية الأملاك من باب زويلة الى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجهت الرسل الغلاظ الشداد ، ولم يرأعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلا . وطلبوا أعيان الناس ، واقطع الرجاء بالياس ، وصار الانسان يخرج من داره فيرى أربعة من الرسل في استنظاره . فيكون بهاره أعبر ، ويخرج وهو في أذياله يتعثر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد ، وقد قال بعض الموالاة في هذا المعنى :

غرمت شهرين عن أجره مكاني أمس
وأصبحت مغسوس في بحر المغارم غمس

رب الخلاق والقمر والشمس

ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

ند جرى في هذه الواقعة أمور عجيبة ،
بات غريبة ، فمن ذلك أن بعض الرسل توجه
لحسينية ، فأثنى امرأة ساكنة في حوش
لدها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك
بأجرة الحوش الذي هي ساكنة فيه ،
فلم تجد شيئا تعطيه للرسول فأغلظ عليها
منه الحد . فلما رأت منه ذلك وكان عندها
قوة نبق في الحوش ، فقالت له اقطع هذه
قوة وبعها وخذ ثمنها في نظير ما جاء على ...
القطاعين وقطع تلك السدرة وحملها ومضى .
حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التي
تستظل تحتها في أيام الصيف . وكانت هذه
قصة من أشنع الحوادث في دولة قايتباي .
فصرف هذا المال في شيء عاد نفعه على
، ولكن صرفه في غير مستحقه وراح في
، ولم ينتفع به كما سيأتى ذكر ذلك .

به عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .
فيه كانت مصادرة المهتار رمضان ، فضيق عليه
لأن حتى أخذ منه ستين ألف دينار ، وقيل
من ذلك . وكان المهتار متحصلا في كل يوم
الأربعين دينارا خارجا عن جهاته وحماياته ،
ذلك . وكان متحدثا في نظر الكسوة وغير
من الجهات السلطانية ، ورأى من العز
نفسه ما لم يره غيره من المهاترة السلطانية .

، ربيع الآخر ثارت الممالك الجلبان على
لأن ، فطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة
وقعت لهم . فلما رأى منهم عين الجد أنفق
م على العادة ، كما تقدم شرح ذلك .

وفيه عين السلطان قرقماش أمير أخور ثانى
ليتوجه الى دمشق بسبب جباية أملاك دمشق عن
خمس أشهر ، كما وقع بمصر . وعين قاصدا أيضا
الى ثغر الاسكندرية ودمياط ، وكانت هذه المصيبة
عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف البيمارستان
خمس أشهر ، وانقطع معلوم الأيتام الضعفاء في
رواتبهم مدة خمس أشهر ، وكذلك سائر أوقاف
الجوامع والمدارس والترب . وقطع معلوم الصوفية
والصدقات الجارية . فلما توجه قرقماش المذكور
الى دمشق أظهر بها من المظالم أشياء كثيرة لم
يفعلها هناد في زمانه . وقرقماش هذا هو الذى تولى
نيابة حلب فيما بعد ، وقبض عليه طومان باي
الدوادار لما خرج الى الشام بسبب عصيان قصره
نائب الشام . فسجن قرقماش هذا بقلعة دمشق ثم
عاد الى مصر ، وقد تولى الأتابكية .

وفي جمادى الأولى خلع السلطان على تانى بك
الجمالى وقرره في امرية مجلس عوضا عن برسباي
قرا المحمدي بحكم وفاته في حلب . وكانت امرية
مجلس شاغرة مدة طويلة . وكان تانى بك الجمالى
متكلما فيها بغير تقرير .

وفيه انتهت عمارة ابن الجيعان أبو البقاء من
تجديد ما عمره في الزاوية الحمراء التي عند قناطر
الأوز ، وصارت من جملة متفرجات القاهرة . وفي
ذلك يقول بعض الشعراء :

عجبت لجامع قد زاد حسنا

وأبدع في التزخرف والبناء

به الأنهار تجرى في جنان

وقصر شاهق لأبى البقاء

وصنع هناك جامعا بخطبة وجاء من أحسن

البناء .

وفيه انفصل على باى عن نيابة ثغر الأسكندرية
وأتى الى مصر معزولا .

وفيه قدم اقبردى الدوادار وكان مسافرا الى
جهة نابلس فأهلك الحرث والنسل في هذه السفرة
وحضر صحبته أركماس بن ولى الدين دوادار
السلطان بدمشق ، وقد كثرت فيه الشكاوى
فاستجار بالأمير أقبردى وحضر صحبته .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الكرك بأنه ظهر
بها في قبيلة بنى لام رجل من بنى آدم ذقنه قدر
غريال القسح ، وكان يأكل اللحم النى بعظمه ،
ويأكل الجيف من على الكيمان ، وربما افترس من
بنى آدم جماعة ، وكان يفترس البقر والغنم ،
وكانوا يخرجون اليه جماعة من بنى لام ويرمونه
بالنشاب ، فلا يؤثر ذلك فيه ولو ضربوه بالسيوف
وكان اذا صرخ تسقط منه الحوامل . فلما قوى
تسلطه على ذلك المكان رحل عنه بنو لام وتركوه
له . وقد أعيا الناس أمره ... وهذه الواقعة مشهورة
بين الناس ، وقد وصل مطالعة الى السلطان بسعنى
ذلك .

وفيه أرسل السلطان مراسيم الى نائب الشام
بأن يجمع أعيان التجار بها ومساير الناس ،
ويفرض عليهم الأموال الجزيلة كل واحد على قدر
مقامه مساعدة للسلطان على خروج التجريدة ، كما
فعل بمصر . وكتب بسعنى ذلك مراسيم الى
الاسكندرية ودمياط . وأشيع بين الناس أن
السلطان يخرج هذه المرة بنفسه . وقد قويت
الاشاعات بذلك .

وفي جسادى الآخرة وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة
وماجت الناس ، ثم سكنت بعد أن ماجت منها
الأرض بعد المغرب .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند

ابن عثمان ، صحبة مامى الخاصكى ، الذى توجه
قبل تاريخه الى ابن عثمان . وكان هذا القاصد
الذى حضر من أجل قضاة ابن عثمان . وكان متوا
القضاء بمدينة بروسة ، وهو شخص من أهل العا
يقال له الشيخ على جلبى . فلما صعد الى القلا
أكرمه السلطان وبالع في تعظيمه جدا ، وأحضر عا
يديه مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استول
عليها فسلمها الى السلطان . وأشيع أمر الصل
فنزل القاصد فى مكان عد له وهو فى غاية الاكرا
ثم ان السلطان أطلق اسكندر بن ميخال الذى كا
أسر وسجن كما تقدم ، وأقام مدة طويلة ، فلم
أطلقه السلطان أحسن اليه وكساه ، وكذلك أطل
الأسراء الذين كانوا مأسورين من عسكر ا
عثمان وكساهم وأحسن اليهم . وتوجهوا ا
بلادهم صحبة القاصد لما سافر ... وهذا ما كان
ملخص أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان
وفيه أمر السلطان بضرب أبى يزيد الصغير آد
البحمدارية ، وكان من خواصه ، ولكن ضربه لا
أوجب ذلك . وأبو يزيد هذا هو الذى صار را
نوبة ثانى فيما بعد ، وقبض عليه العادل طومان با
وسجنه بقلعة دمشق لما توجه الى هناك وتسلطن
وفيه كسفت الشمس كسوفاً تاماً ودامت
الكسوف نحو من ثلاثين درجة وعادت الزلز
التى كانت بالأمس وكانت خفيفة جدا .

وفي رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالش
وحضر قاصد ابن عثمان فعرض السلطان فى ذا
اليوم كسوة الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام
وزف معهما المحمل الشريف ، وكان يوما مشهود
وفيه توفى بركات الصالحى وكيل بيت الم
وكان من أعيان الموقعين ، وهو بركات محمد
محمد بن أبى بكر القاهرى الشافعى الصالحى . و

غير محمود السيرة في أفعاله كثير الظلم والعسف .
ومولده سنة احدى وثلاثمائة . وكان اعتراه آكلة في
رجله فاستمر بها الى أن مات . وفيه يقول بعض
الشعراء مداعبة لطيفة :

بركات زاد الظلم في أيامه
وعلى الورى قد جار في توكيله

وبرجله كان الهلاك بعاهة
فمشى الى نار الجحيم برجله

وهو الذى كان سببا لايقاف جماعة قاضى القضاة
زين الدين زكريا الشافعى ، واستمر الشيخ برهان
الدين القلقشندى في التوكل به حتى مات بركات
الصالحى ، فأفرج عنه بعد أن غرم أموالا لها
صورة .

وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى
أنشأه بالروضة وجاء في غاية الحسن ، وكان
البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع
في كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ،
ويسمون بها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام
الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب
هناك حتى تسد البحر ، ويجتمع الجهم الغفير من
العالم ويوقد بالجامع وقدة عظيمة . ويحضر هناك
قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وتكون ليلة حافلة لم
يسمع بثلاثها فيما تقدم . واستمر الحال على ذلك
مدة ثم بطل هذا الأمر .

وفيه أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين
الأسيوطى أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل
الروضة . لأن الاجماع منعقد على منع البناء في
شطوط الأنهار الجارية . وأما ذكر أن ذلك يجوز
في مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ورحمه
فباطل وليس له صحة في كتب الشافعية قاطبة .

وفيه خرج جان بلاط بن يشبك قاصدا من عند

السلطان الى ابن عثمان ، فخرج في تجمل زائده
وموكب حافل . وجان بلاط هذا هو الذى تولى
السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

وفي شعبان قرر السلطان كرتباى بن مصطفى
المعروف بالأحمر في حجوية الحجاب بطرابلس ،
ونظر جيشها وغير ذلك من الوظائف بها .

وفيه ظهرت أعجوبة ، وهى انه ولد مولود لستة
أشهر ، فلما نظروا اليه وجدوا في وجهه لحية وعلى
فمه شارب ، وقد دارت لحيته في وجهه ، وفي فمه
أسنان مفلجة وكان عليه بشاعة ، فعاش ثلاثة أيام
ومات .

وفي رمضان خلع السلطان على يشبك بن حيدر
الذى كان والى القاهرة وصار مقدم ألف ، وقرره
في نيابة حماه عوضا عن اينال الخفيف في مقدمة
ألف بصر فيما بعد .

وفيه تغير خاطر السلطان على أزدمر المسرطن
أحد مقدمى الألوف بصر وقرره في نيابة صفد
عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته عنها . وكان
أزدمر هذا من خواص السلطان ، وكان عنده من
المقربين وكان أغات أقبردى الدوادار ، ثم وقع بينه
وبين السلطان في الباطن ، فمقته وولاه نيابة صفد
عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته ، واستمر بها
الى أن مات .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية في سائر البضائع
حتى بيع كل ثلاثة أرادب قسح بدينار ، ورخص
سائر الغلال جدا .

وفي شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل
المبارك فأخر السلطان فتح السد في ذلك اليوم ،
وفتح في اليوم الثانى من شوال . ووافق ذلك
خامس عشر مسرى القبطى فصار العيد عيدين ، فعد

ذلك من النوادر . وفي هذه الواقعة يقول شيخنا
جلال الدين الأسيوطي هذه الأيات :

يوم عيد الفطر وفي بهاء وسعادة
ختم الصوم وأوفي النيل في أحسن عاده
باله من يوم عيد فيه هستي وزيادة
وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحصل الأمير أزدمر تمساح .

وفي ذي القعدة توفي تقي الدين بن نصر الله
وكان رئيسا حشما من ذوى السيوت لا بأس به .
وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقوع فتنة كبيرة
بين نائب حلب وبين جماعة من أهلها ، وقتل في
هذه المعركة من ممالك أزدمر نائب حلب سبعة
عشر مملوكا ، وقتل من أهل حلب نحو من خمسين
انسانا ، وأحرقوا جماعة من حاشية النائب بالنار ،
وكادت حلب أن تخرب عن آخرها ، ولولا أن
قانسووه الغوري حاجب الحجاب بحلب قام في
إخماد هذه الفتنة حتى سكنت ما كان يحصل حين
في هذه الحركة . فلما سمع السلطان بذلك تنكد
جدا ، وعين ماماي الخاصكى بأن يتوجه الى حلب
ليكشف عن هذه الفتنة ، وأخذ في أسباب السفر
الى حلب .

وفي ذي الحجة كان ابتداء الفتنة بين قانسووه
خمسائة أمير أخور كبير ، وبين أقبردى الدوادار
وقد وقع بينهما بسبب نوتى واستمرت الفتن تتزايد
بينهما حتى كان من أمرهما ما سنذكره في موضعه .
وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع
فتنة كبيرة بين ملوك الشرق ، وأن يعسوب بن
حسن الطويل قد قتل أخاه ، ووقع أيضا فتنة بين
خليل الصوفي وسليمان ماجان ، واستمرت الفتن
قائمة هناك في جهات متعددة ، ووقعت أيضا فتنة

كبيرة في طرابلس الغرب ، وقتل شاسى بن أبى
النصر بن رجاء الخير قائد طرابلس ، وكان من
خيار أعيان بلاد الغرب .

سنة سبع وتسعين وثمانمائة (١٤٩١ م) :

فيها ، في المحرم ، كان دخول المحمل الى القاهرة
وحجت في تلك السنة زوجة أقبردى الدوادار ،
وهى بنت العلائى على بن خاص بك أخت خوند
زوجة السلطان قايتباى ، وكان طريق الحجاز في
تلك السنة مخوفا بسبب فساد العربان .

وفيه تغير خاطر السلطان على مجد الدين
اسماعيل الناصرى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ،
فلما أحضر ضرب بين يديه ضربا مؤلما ، وقيل بل
ضرب بالمقارع نحو من عشرين شبيبا .

وفي صفر توفي نور الدين على بن محمد بن
عبد المؤمن البتنونى الشافعى ناظر الجوالى ، وكان
رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفي يشبك حبيب بن ططخ الظاهرى
جقمق أحد الأمراء الطليخانات رأس نوبة كبير ،
وكان لا بأس به ، وقد جاوز السبعين سنة من
العمر .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى
على العادة وكان حافلا .

وفيه قرر الناصرى محمد بن جرباش في مشيخة
المدرسة الظاهرية التى بين القصرين .

وفيه توفي تاج الدين بن الجيعان ، وهو عبد
اللطيف بن عبد الغنى بن علم الدين شاكى ، وكان
متحدثا في كتابة السر ، وكان شابا حسنا محمود
السيرة في أفعاله . مات وهو في عشر الثلاثين .

وفيه توفي أبو يزيد قصيعة الظاهري جقمق
وكان من الأمراء العشراوات .

وفي ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون
حتى حكى أن شخصا من الأتراك رأى في منامه
ملك الموت عليه السلام ، فقال له : « من أنت ؟ »
قال : « أنا ملك الموت جئت الى أخذ أرواح الكثير
من الناس ، فإن الطاعون قد دخل الى مصر » .
فقال له ذلك الجندي : « فهل تقبض روحى في
هذا الوباء ؟ » فقال له : « قد بقى من عمرك
سبعة أيام » .

فاتتبه الجندي من المنام وهو مرعوب . فلما
أصبح كتب وصية ، ثم انه في اليوم السابع مات
كما رأى . فعد ذلك من النواذر الغريبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن مملكة حسن بك
الطويل في اضطراب ، وأن ابن عثمان قد أشرف
على أخذ بلاد حسن الطويل من يد أولاده ، فلما
بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة
حسين بن أعزلو بن حسن الطويل الذي كان
مقيما بالقاهرة . ثم آل الأمر الى اهمال خروج
التجريدة . ومات حسين فيما بعد لما حج ، ودفن
بالمدينة الشريفة .

وفي جمادى الأولى قويت الاشاعات بوقوع
الطاعون ، وزعموا أن انسانا رأى النبي صلى الله
عليه وسلم في المنام فقال له : « ان الطاعون كان
واقعا عليكم ، فشفت فيكم ، عند ربى ، وقل
للناس يصومون سبعة أيام متوالية » فصار الكثير
من الناس يصوم سبعة أيام متوالية فلم يفد ذلك
شيئا ، ووقع الطاعون بالديار المصرية . وكان
طاعونا مهولا . « قلت » ولم يقع الطاعون بمصر
من سنة احدى وثمانين وثمانمائة الا في هذه
السنة . وقد غاب الطاعون ست عشرة سنة لم

يدخل مصر ، وكان هذا الطاعون من الطواعين
المشهورة بموجب ابطائه هذه المدة ، وهو الطاعون
الثالث الذي وقع في دولة الأشرف قايتباي وكان
مبدأ هذا الطاعون من حلب ، وكان في مدة انقطاعه
عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر
وأكل الربا وجور المساكين في حق الناس وقد
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا اخذوا بالفناء » .
قال العلامة شهاب الدين بن حجر : والحكمة في ذلك
أن الزنا حده ازهاق الروح في المحصن ، فاذا لم
يقم فيه الحد يسلط الله عليهم الجن فيقتلونهم .
ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرا سلط الله عليهم
الجن يقتلونهم سرا من حيث لا يرونهم . وقاعدة
العذاب أنه اذا نزل يعم المستحق له وغيره ...
والرحمة لا تكون الا مخصوصة . ثم يوم القيامة
يبعثون على قدر نياتهم . وقال ابن مسعود رضي
الله عنه : « اذا بخص المكيال حبس القطر ، واذا
كثر الزنا وقع الطاعون ، واذا كثر الكذب وقع
الهرج » .

وفي جمادى الآخرة هجم الطاعون بالقاهرة ،
وفشا جملة واحدة ، وقتك في الناس فتكا ذريعا ،
وكانت قوة عمله في الممالك والعييد والجوارى
والأطفال والغرباء ، ووقع في هذا الطاعون أمور
غريبة وحكايات عجيبة . منها أن الكمثرى بيعت
كل رطل بأشرفيين ولا توجد ، وبيعت الواحدة
منها بأثنى عشر نصفا . ومنها أن انسانا كان معه
خمسة أولاد فطعن الخمسة في يوم واحد وماتوا
في يوم واحد . ومن العجائب أن جماعة كثيرة
فروا من الطاعون لما دخل الى مصر ، فتوجهوا الى
أماكن عديدة ، فلما ارتفع الطاعون عادوا الى
مصر ، ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد ،
فسبحان القادر على كل شيء . ولما كثر الموت عز

وجود البعلبكي ، وأضر ذلك بحال الناس ، وكفوا موتاهم في الخام والملح ، وغير ذلك .

وفيه توفي برسباي الخازندار أحد خواص السلطان والمتكلم على أوقافه ، وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفي مغلباي الشريفى ابن الطويل ، وكان لا بأس به ، وهو أحد مقدمى الألوف ، وأصله من ممالك الأشراف قايتباي .

وفيه توفي جانم بن مصطفى الذى كان نائب قلعة حلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر .

وفيه توفي قيت الساقى أحد العشاوات ووالى القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي مغلباي الأشرافى أحد الأمراء العشاوات ، وأصله من ممالك قايتباي .

وفيه توفيت بنت أربك الأمير الكبير زوجة الأمير قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وكانت شابة جميلة .

وفيه توفيت أختها بعدها بأيام وكانت بكرا .

وفيه توفي نامق المؤيدى أحد الأمراء العشاوات وكان لا بأس به .

وفى رجب توفيت بنت السلطان قايتباي وكانت تسمى ست الجراكسة ، وكانت شابة جميلة مستحقة للزواج ، وكانت من سريره ، فماتت هى وأمها فى يوم واحد ، وأخرجت قدام نعش انتها ، وكانت جنازة بنت السلطان حافلة ، وأخرجت فى بشخان زركش وقدامها كفارة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بتقدمة ألف ، وبعث اليه باليلب . وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد . وأنعم أيضا على مملوكه شاد بك بن مصطفى الخوخ الدوادار

الثانى بتقدمة ألف ، ثم حضر جانم المعسروف بالمصبغة من الشام الى مصر ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر ، وأنعم على كرتباي قريب بتقدمة ألف ، وقرر ماماي الخاصكى فى الدوادارية الثانية عوضا عن شادبك الخوخ بحكم انتقاله الى النقدمة ، وقرر قيت الرحبى فى ولاية القاهرة عوضا عن قيت الساقى بحكم وفاته بالطاعون .

وفيه كانت وفاة الشاب الفاضل على باي بن برقوق نائب الشام ، وكان شابا رئيسا حشما دينيا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان له نظم جيد . ومولده سنة ست وستين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق قوله :

عود خيار شنبير قد جاءنا بالعجب
أزهاره أبدت لنا شمسارخا من ذهب
ومما مدحه به المنصورى قوله :

مجيا على باي بن برقوق مشرق
كطرة وسنى ليس بينهما فرق

فان يك سباقا الى الفضل والندى
فلا تعجبوا منه فوالده برقوق (ق)
ومن النكت اللطيفة ، قيل وقع بين الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرئ وبين سيدي على باي هذا بعض وحشة ، فسطا على سيدي على باي وسماه زلاية مضافا الى اسم شخص من الأتراك كان مضحكا تعبت به الناس ، ويقولون له زلاية فيرجمهم ، فلما أشيع ذلك بين الناس أخذ بعض شعراء العصر هذا المعنى وعمل فى ذلك مداعبة ، وقال :

قد شبهوه بمن يدعى زلاية
وصح تشبيههم والأب برقوق
لكنهم فاتهم فى الوز نسبته
فان اسم أييه نصفه فوق

وفيه توفي حكيم كاشف منف ، وشادبك كاشف
قليوب ، ومن الحشدية جماعة كثيرة منهم : قان
بردى الظريف ، وكسباى المحمدى ، واقباى
الطويل ، وقانصوه قمر ، واينال الأشقر ، وغير ذلك
جماعة كثيرة من ممالك السلطان والأمراء . ومات
من العبيد والجوارى والأطفال والغرباء
ما لا يحصى عددهم ... وفي أواخر الشهر المذكور
تناقص أمر الطاعون وخف بالنسبة لما كان عليه
بعد ما جرف الناس جرفا وأخلى الدور من أهلها .
وقيل أحصى من مات في هذا الطاعون بمصر ،
وورد اسمه لديوان المواريث خارجا عن الغرباء
ومن لم يرد اسمه الى الديوان ، فكانوا زيادة عن
مائتى ألف ، فمن ذلك بنات بكر اثنا عشر ألف بنت
من مصر والقاهرة والضواحي . وقد قال القائل في
المعنى :

زالت محاسن مصر في عيني من هم ودهش
كادت بنو نعش بها أن يلحقوا ببنات نعش
وقال الشيخ بدر الدين الزيتولى العوفى هذا
الزجل يرثى به أهل مصر لما وقع الطاعون بها
وهو :

وحد ومن قد حكم بالموت
وتفاد حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبجان
جل من لا تدركو الأبصار

بالممات رب البشر لما
قد حكم في الكائنات باجمع
اختفوا في ذا الوجود وأضحوا
ما لهم من ذا القضاء مدفع
جا أخذ منهم ملاح كانوا
شبه أقمار البدور طلع

فاندبوا يأهل الحصى وابكوا
واجعلوا دمع العيون مدران
واحزنوا على الذين ماتوا
واختفوا عن أعين النظار

كنت أجد أقمار بدور طلع
وشموس تشرق على الأطلال
حسنهم سما وقد كانوا
في هنا بالجاء وكثر المال
جا الممات سرعه وعاندهم
اختفوا حين عاينوا الأحوال

وبقوا تحت الثرى غياب
بعد ما كانوا يروا أجهار
يا أسف قلبى وطول حزنى
عنى قد غابت شموس واقمار

حين أتى كأس الممات للناس
وبقى ما بينهم دابر
وسقاهم في المقام شربه
حتى صار في سرهم ساير
أصبحوا في حضرتو غياب
بعد ما كان كل أحد محاضر

سكروا في حضرة الساقى
لما كأس الموت عليهم دار
وبقوا ندمان وقد غابوا
من شراب ما هو خمر خمار

ركب الطاعون وقد طلب
وحمل في عسكر الأبطال

كم جرح قلوب وكم أفنى
من جموع لما عليهم مال

كم ترك مطعون بقي مطروح
كم كسر شجعان وكم أبطال

كم رأيت مقتول بذى الوقعة
بعد كرو ما يجد اجبار
والقضا فرق جموع الناس
كن كان فى أيدي القضا بتار

كم رأيت ملسوع بسم الموت
قد لسع ولا يجد ترياق
كم رأيت منصاب من افعالو
جت اليه آفة بلا تساق
كم رأيت ثكلى وهى حية
شعرها ناشر من الأشواق

كم رأيت فارس بقى ملقى
بعد ما كان فى الوجود/سيار
كم رأيت من دار خلاها الموت
ما ترك فيها ولا ديار

يا فھيم انظر لدى الدنيا
كيف بقت تحكى لنا بستان
والبشر قد أصبحوا فيها
كأنهم آثار على الأغصان
ومليك الموت بأمر الله
قد بقى فيها شيء جنان

كلما انتهى الى واحد
وبلغ حدو الى المقدار

جا اليه بأمر الذى أنشاه
قطعوا من بين دى الأتار

نالك يا رب يا رحمن
يا الله يا أول ويا آخر
يا لطيف بالخلق يا حافظ
يا عليهم بالذنب يا غافر
يا بصير يا فرد يا واحد
يا سميع يا حق يا قادر

ارفع الطاعون بجاه أحمد
المجد صاحب الأنوار
وانزل الرحمة ومتعنا
بالرضا والعفو يا ستار

وأنا العوفي ولى أزجال
من نظام تحكى عقود جوهر
كلما كررتها تحلو
ما أحسن السكر اذا تكرر
فاسمعوا لى ما أقول واصغوا
يا جبيع من حل دا المحضر

وحدوا من قد حكم بالموت
وقد حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبحان
جل من لا تدركو الأبصار

وفى شعبان ارتفع الطاعون عن مصر والقاهرة
جملة واحدة ومشى نحو بلاد الصعيد .
وفيه توفى الشيخ شمس الدين الحمصانى
محمد بن أبى بكر بن محمد القاهرى الشافعى
الكاتب المجيد ، وكان عالما فاضلا عارفا بالقراءات

السبع . وكان امام جامع ابن طولون ، وكان خيرا دينا لا بأس به ، ومولده سنة عشر وثمانمائة .

وفيه توفي محمد العجمي الذي كان مقيما بجامع كراي وكان من أولياء الله تعالى مشهورا بالصلاح .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفتح صاحب قشتالة الفرنجي قد ملك غرناطة التي هي دار مملكة الأندلس . وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع الموهلة في الاسلام .

وفي رمضان قرر ناصر الدين محمد الصفدي في وكالة بيت المال وحصل منه الظلم والعسف في الناس .

وفيه ثارت فتنة بين المماليك الجلبان بسبب تفرقة الأقاليم التي توفرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون .

وفي شوال خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تاني بك الجمالي أمير مجلس ، وبالأول كرتباي قريب السلطان .

وفيه تغير خاطر السلطان على صاحب قاسم فعزله ، وكان يومئذ ناظر الدولة ، فلما صرف عنها قرر بها عبد القادر الطويل عوضا عن قاسم شغيته .

وفي ذي القعدة ابتداء السلطان بتفرقة الأقاليم المتوفرة عن مات بالطاعون في السنة المذكورة فصار يعرق أقطاع كل من توفي من الطباق لأهل طبقته ، ولا يخرج من ذلك شيئا لغير أهل طبقته . وكانت أغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على السلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون

طبقته فيها أقطاعات كثيرة متوفرة ، ومنهم من يكون فيها شيء قليل فتأخر من المماليك الجلبان جماعة بلا أقطاع . وذلك إلى آخر خرج المماليك في السنة المذكورة سنة سبع فعرضهم السلطان فيما بعد وأخرج لهم أقاليم كانت متوفرة في الذخيرة ، ففرقها على المماليك الذين لم يخصهم شيء من الأقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباي أحد بلا أقطاع الا الذين استجدوا من بعد الفصل ، وكانت الأقطاعات التي فرقت أكثرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم . والأقطاعات التي توفرت من جماعة المماليك الاينالية فرقها على خشداشينهم الاينالية فوق اقطاعاتهم ، والتي توفرت من الخشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية . وأعطى لبعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلا بالديوان وهو بالطبقة ، أقطاعات خفيفة . واستمرت تفرقة الاقطاعات مدة ثلاثة أشهر .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة الميدان الناصري ، وكان أربك أمير كبير شادا على العمارة حتى انتهى منه العمل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ونزل أربك أمين كبير وفتح السد على العادة .

وفيه اختفى تغرى بردى الاستادار وقد تغير خاطر السلطان عليه . فلما طال اختفاؤه خلع السلطان على الأمير أقبردى الدوادار وقرره في الاستادارية عوضا عن المذكور ، مضافا لما بيده . وفيه فرق السلطان على جميع العسكر من القرائصة والجلبان وأعطى لكل واحد منهم فرسا

ودیعة من موجود الذين ماتوا بالطاعون ، وذلك
لأجل كثرة الخيول وقلة الغلمان لخدمتها .

وفي ذی الحجة جاءت الأخبار من مكة المشرفة
بوفاة الخوارج شمس الدين بن الزمن ، وكان من
مشاهير التجار في سعة من المال ، وله بر معروف .
وهو صاحب المدرسة التي يبولاقي عند الرصيف ،
وكان دينا خيرا وكان لا بأس به .

وفيه توفي شيخ جبل نابلس يونس بن اسماعيل
وتوفي يوسف بن برد بك العجمي ، وكان شابا
حسننا لا بأس به ، وتوفي على بن الجمجمة الذي
كان مقيما بمصر واختن مع ابن السلطان .

سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢ م) :

فيها ، في المحرم ، لم يحضر مبشر الحاج وصار
الناس في قلق بسبب ذلك ، وكان المبشر في السنة
المذكورة ثاني بك الأبح أحد المماليك السلطانية ،
فاعترضه بعض العربان في أثناء الطريق ، وأعاقوه
عندهم أياما .

وفيه توفي برهان الدين بن النعمان المحدث ،
وكان انسانا حسنا لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من نغردمياط بأنه نزل برد
تحت الليل فكان قدر كل بردة مثل بيضة النعام ،
ونزل بها بردة كبيرة فكانت زنتها خمسة وسبعين
وطلا بالمصري ، فقتل بسبب ذلك بهائم وطيور
وغير ذلك ، وكان أمرا مهولا .

وفي صفر خرج الأمير أقبردي الدوادار الى
جهة نابلس ، وخرجت تجريدة الى جهة البحيرة ،
وكان الباش عليها الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة
النوب وعدة وافرة من الأمراء العشاوات والجند .

وفيه عاد الطاعون الى القاهرة ثانيا لكنه كان
خفيفا بالنسبة لما قبل ذلك . ومات به جماعة من
المماليك والأطفال ، ومن كان فر — قبل دخول
الطاعون — من القاهرة في السنة الماضية .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قاني باي قرا
الرماح بامرية عشرة ، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة قرره
في نيابة صهيون . وقد سعى في ذلك بمال له صورة
وقاني باي هذا هو الذي بقى أمير آخور كبير فيما
بعده .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على مملوكه
أكسباي الشريف بامرية عشرة .
وفيه عمل السلطان المولد النبوي وكان حافلا
على العادة وحضر القضاة الأربعة والأمراء .

وفي ربيع الآخر عين قانصوه خمسمائة أمير
آخور كبير في امرية الحاج بركب المحمل ، وعين
الناصرى محمد بن أزبك أمير كبير بالركب الأول .
وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه في
ليلة تاسع عشر صفر سقطت صاعقة عظيمة في
المسجد الشريف ، فأحرقت منه جانبا وتساقطت في
تلك الليلة عدة صواعق خارج المدينة الشريفة ،
فلما بلغ السلطان ذلك أمر باصلاح ما فسد من
المسجد الشريف .

وفي جمادى الأولى توفي بركات بن الظريف
المقرى وكان علامة في قراءات الرياسة بالجوق .
وفيه توفي الناصرى محمد بن برد بك ، وهو
سبط الأشرف اينال ، وكان رئيسا حشما من أعيان
أولاد الناس ، وكان مفردا في السمن جدا ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفي الخوارجي عمر بن غازي وكان رئيسا
حشما في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي جمادى الآخرة خسف جرم القمر جميعه .
وفيه توفي الشهابي أحمد بن برقوقي نائب
الشام ، وهو أخو سيدي علي باي بن نائب الشام ،
فكان بينه وبين موت أخيه دون السنة ، وكان شابا
حسنا جميلا لم يلتح بعد .

وفي رجب ثار جماعة من الماليك الجلبان على
السلطان ووقفوا بالرميلة ومنعوا الأمراء من الطلوع
الى القلعة ، وآل الأمر الى طلب نفقة من السلطان .
فمضى بعض الأمراء بينهم وبين السلطان في ذلك
فوعدهم بالنفقة بعد مضي شهر ، فسكن الحال
قليلا ، ولكن استمرت الدكاكين مغلقة ، وكذلك
الأسواق ... حتى نودي لهم بعد أيام بالأمان
والاطمئنان .

وفيه وصل قاصد من عند رستم بن قراماك
صاحب العراقيين ، وكان ملك العراقيين بعد أمور
يقول شرحها .

وفيه توفي القاضي نور الدين علي بن قاسم
أحد نواب الحكم الشريف المالكي وكان عالما
فاضلا لا بأس به .

وفيه توفي مسند الحبشي نائب المقدم .

وفيه توفي برسباي أمير جنदार وكان قد طعن
في السن .

وفي شعبان توفي شاد بك الأشقر المحمدي
الظاهري جتسق ، أحد الأمراء العشراوات ونائب
نغر دمياط وشاد الحجر ، وكان لا بأس به .
وفيه عين السلطان قانصوه المحمدي المعروف
بالبرجي أحد الأمراء العشراوات بأن يتوجه قاصدا

من السلطان الى ملك الشرق رستم أخيه أولاد
حسن الطويل متولي العراقيين . وقد جرى بينه وبين
أخوته ما لا خير فيه . حتى تولى بعد أمور وقعت
له ، فخرج قانصوه المذكور بعد أيام في تحمل
زائد .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهلها قد
رجعوا النائب قانصوه اليحياوي ، وقد ثارت
بدمشق فتنة كبيرة .

وفي رمضان نودي بالصوم بعد ضحوة النهار ،
وقد ثبت الهلال بعد طلوع الشمس بثلاثين درجة .
وقد أكل غالب الناس في ذلك اليوم ، ولا سيما
العوام ، فقتل عليهم الامساك في ذلك اليوم بعد
الافطار .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ب وفاة سودون
الطويل الاينالي أحد الأمراء المقدمين بدمشق ،
وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم البخاري بالقلعة . فخلع على
القضاة ومشايخ العلم ، وفرت الصرر على
الفقهاء ، ووقع في ذلك اليوم بحث بين البرهان
الدميري أحد نواب المالكية وبين بعض الطلبة ،
فأنكروا على البرهان الدميري بما أجاب به في
المسألة ، وكان الختم حافلا جدا .

وفي شوال كان وفاء النيل المبارك ووافق ذلك
ثاني عشر مسرى القبطي ، وتوجه أزبك أمير كبير
وفتح السد على العادة .

وفيه خرج الأمير قانصوه خمسمائة يركب
المحمل ، والناصري محمد بن أزبك أمير كبير
بالركب الأول ، فكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .
وطلب الأمير قانصوه ذلك الطلب الذي تقدم ذكره
في التجريدة . ومن غريب الاتفاق أن النيل أوفى

وغالب الناس في بركة الحاج مشغولون بالحجاج .
فلما بلغ أزيك وفاء النيل حضر تحت الليل حتى
فتح السد وعاد .

وفي ذي القعدة جاءت الأخبار بوفاة الشيخ
المحدث الواعظ برهان الدين ابراهيم بن الحموي
رحمه الله ورضي عنه ، مات بطريق الحجاز قبل
وصوله الى العقبة ودفن هناك . وكان عالما فاضلا
محدثا بارعا في الحديث ، وكان دينا خيرا من أهل
الصلاح ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .
وفيه خلع السلطان على داود بن سليمان من
أولاد ابن عمر أمير عربان هواره ، وقرره في امرية
الوجه القبلى ببلاد الصعيد .

وفي ذي الحجة توفي ابن العيسى ناظر الأحباس
وهو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن أحمد
العيسى الشافعى ، وكان رئيسا حثما محمود
السيرة لا بأس به ، وتوفي السيد محمد الشريف
القادرى أخو زين العابدين ، وكان لا بأس به .
سنة تسع وتسعين وثمانمائة (١٤٩٣ م) :

فيها ، في الحرم ، صعد القضاة الى القلعة
للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد أيضا الشيخ جلال
الدين الأسيوطى . فلما جلس سأله السلطان عن
أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم
يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك
بشيء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان
عنده كتاب يسمى حيرة الفقهاء ، ثم أجاب الشيخ
جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كافى في هذه
المسألة بأنه قصد بذلك الأذان فإنه سنه ولم يفعله ،
والأصح أنه أذن في وقت وورد في ذلك حديث .
وعمل في هذه المسألة كراسا مطولا ، وذكر فيه
أشياء كثيرة مما سنه النبى صلى الله عليه وسلم
ولم يفعله .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من مماليكه
بامريات عشرة ، منهم مامى جوشن ومصرياى
أخو مغلباى وبرسباى العلائى واسنباى الأصم
وآخرون .

وفيه وصل الحجاج ولم يثتوا على قانصوه جيلا
ولا حمدت سيرته في هذه السفرة ، وحكوا عنه
أمورا غير صالحة ، فانه رمى الناس وأخذ جمالهم ،
وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر
الملح فيما بعد . وشال له الحجاج راية سوداء وهم
داخلون البركة . وما لاقى الحجاج في السنة
المذكورة خيرا . وكانت سنة صعبة على الناس من
الغلاء ، وموت الجمال ، واستمر قانصوه خمسمائة
في عكس ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ، حتى
كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفي الشيخ جمال الدين يوسف بن
چاهين الكركى سبط الحافظ ابن حجر القاهرى
الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حثما
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان تغلبوا على
الكرك والشويك ، وحصل هناك فتن مهولة .

وفي صفر نزل ابن السلطان من القلعة في موكب
حافل وتوجه الى داره التى أنشأها له السلطان على
بركة الفيل فأقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة .
وهذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة . وكان
معه أقبردى الدوادر والجم الغفير من الجند .
وكان نزوله سببا للاتفاق على الجند لكل واحد
منهم خمسون دينارا ، وسموها نفقة نزول ابن
السلطان . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لكى
يشاع ذلك بحضرته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر المسرطن نائب

سعد الظاهري جقمق ، وكان من أعيان الأمراء جليلا سليم الفطرة ومات وهو في عشر الستين . وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة أزدمر نائب حلب قريب السلطان وكان انسانا حسنا لا بأس به . وتولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة طرابلس ، ونيابة صفد ونيابة حلب ، وامرية مجلس بمصر ، غير ذلك من الوظائف والنيابات ، ومات وهو في عشر الستين . وكان في أوائل عمره في قلة وخمول ، أقام على ذلك دهرا طويلا . فلما تسلطن السلطان ناييباي ظهر أنه من قرابته ، فجاءت اليه السعادة غنة فأقام فيها مدة ومات . وكان أصله من مماليك لظاهر جقمق ، وهو أزدمر بن مزيد . ثم بعد موته وصل السلطان خلعة الى اينال السلحدار نائب طرابلس ، ونقله الى نيابة حلب عوضا عن قريبه زدمر بحكم وفاته . وكان اينال هذا تولى نيابة صفد أيضا بعد أزدمر المسرطن وقتل في واقعة قبردي الدوادر لما سافر الى حلب .

وفي ربيع الأول توفيت خوند بنج زوجة الأمير زبك اليوسفي رأس نوبة كبير وكانت زوجة تتم لمؤيدي نائب الشام وكانت من مشاهير الخوندات هي والددة سيدي فرج الماضي ذكر وفاته ، كانت لا بأس بها ، وكانت تقرب للملك الظاهر جقمق .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي وكان حافلا . وفيه توفي الشيخ أحمد بن زروق المغربي الكلي وكان من أهل الصلاح والدين .

وفيه قبض السلطان على بدر الدين الاينالي نائب جيش الشام فضربه بالمقارع بين يديه وأمر طع لسانه حتى شفع فيه بعض الأمراء فعوفي من

ذلك ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ولكن خرج خلق السلطان في ذلك اليوم جدا .

وفي ربيع الآخر توفي القاضي تاج الدين ابن الامام وهو محمد بن أحمد بن محمد الامام ، وكان أحد نواب الحكم من الحنفية ، وكان غير مشكور في قضائه وعنده خفة ورهيج كما قال فيه الشهاب المنصوري :

قالوا علا التاج وهو قاض

فقلت يا ضيعة الحقوق

غايته أنه تويج

ملقى على مفرق الطريق

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأنه سقط بها ثلج حتى عم الأسطحة والشوارع مثل ثلج الشام ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه عين السلطان أزدمر تمساح أمير حاج ركب المحمل ، وعين الناصري محمد بن العلائي على ابن خاص بك أمير الركب الأول ، وعين يشبك الأشقر باش المجاورين بمكة المشرفة .

وفيه عين السلطان الأمير ماماي بن خداد الدوادر الثاني بأن يتوجه رسولا الى ابن عثمان ، وقد توجه قبل ذلك مرة أو مرتين ، وهذا آخر قصاد السلطان الى ابن عثمان ، فشرع ماماي في عمل برق عظيم وصنع له دركا ببركة الرطلى في زمن الشتاء ، وصار يوقد في كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس الى هناك بسبب الفرجة ، وعمل الجسر ، وسكن به الناس أياما في قلب الشتاء ، حتى عد ذلك من النوادر . وكان يعمل هناك في كل ليلة خيال ظل ، ومغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى ، أو جوق المحبطين ، وكانت ليالى مشهودة في القصف والفرجة ، حتى خرج الناس في ذلك عن الحد ، وأقاموا على ذلك نحو من

عشرين يوماً ، ثم سافر الأمير ماماي ، وخرج في
تجمل زائد ، وموكب حافل فتوجه الى بلاد ابن
عثمان .

وفيه تغير خاطر السلطان على فيروز الطواشي
الزمام وأمر بسجنه فسجن في البرج الذي بالقلعة
أياماً حتى شفح فيه وأطلق ، وسبب ذلك أن شهاب
الدين الكختي رافع فيه عند السلطان فتغيظ
عليه .

وفي جمادى الأولى أمر السلطان بتجديد عمارة
باب القرافة فعمره ، وأنشأ هناك الربوع والسبل
وجاء من أحسن البناء ، ثم بعد مدة يسيرة أنشأ
جامعا بخطبة خارج باب القرافة فعمره ، فجاء في
غاية الحسن ، وحصل به النفع للناس .
وفيه قرر برد بك الطويل في دوايرية السلطان
بدمشق ، وقرر برسبای الصغير في الحجوية
الثانية .

وفيه توفي القاضي محيي الدين بن مظفر ، وهو
عبد القادر بن محمد بن أحمد بن علي بن مظفر
أحد نواب الحكم الشافعي وكان عالماً فاضلاً رئيساً
حشماً محمود السيرة في قضائه وكان لا بأس به .
وفيه توفي الشيخ الصالح سيدي علي الجبرتي ،
مقيماً بالجامع الأزهر ، مات فجأة وهو بالحمام
وكان رجلاً مبارکاً .

وفي جمادى الآخرة كان الحريق المهول بالقلعة
في حواصل السلطان التي عند قاعة البحرة ، وكان
فيها خيام كثيرة فاحترق غالبها ، ولعبت فيها النار ولم
يسلم منها شيء سوى خيمة المولد الشريف فقط ،
فقومت الخيام التي احترقت فكانت نحواً من
مائتي ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك ، ولم
يعلم سبب وقوع النار هناك ، فقام السلطان بنفسه

وبقي يطفىء الحريق مع المماليك ، فأقامت النار
تعمل هناك ثلاثة أيام ، فلما طلع النهار صعد
الأمراء الى القلعة وصاروا يسلمون على السلطان
بسبب ذلك الحريق ، وقد تأثر السلطان لذلك ،
وشق عليه حرق تلك الخيام ، وشرع كل من طلع
اليه من الأمراء يشكو له بأنه لم يبق عنده من
الخيام شيء . فصارت الأمراء كل من كان عنده
شيء من الخيام الجدد يقدمه للسلطان ، ففعل
ذلك الكثير من الأمراء والمباشرين ، ثم أشيع بعد
ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان
الخليفة ساكناً بالقلعة داخل الحوش بجوار قاعة
البحرة ، فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن
ينزل من القلعة ويسكن بالمدنية . وما حصل
للخليفة خير بسبب ذلك ، ونزل هو وعياله من
القلعة وسكن بالقاعة التي بطريق السيدة نفيسة
رضي الله عنها ورحمها . وكانت اشاعة النار بأنها
من مطبخ الخليفة باطلة ليس لها صحة ، وإنما
ذلك كلام الأعداء في حق الخليفة .

وفيه خسف جرم القصر خسوفاً تاماً حتى
أظلمت الدنيا وأقام في الخسوف نحواً من ثلاثين
درجة .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع
الغلاء المهول حتى مات من أهلها نحو من ألفين
وخمسمائة انسان من شدة الجوع ، وأكلوا
الجيف والميتات .

وفيه أمر أربك الأمير الكبير بتجديد عمارة
المدرسة المنصورية التي بدهليز البيمارستان وعمل
على التسمية التي بها قبة ، وجدد بها منبراً ، وأقام
بها خطبة ولم يعهد قبل ذلك أن أحداً من الأتابكيين
قبله أقام بها خطبة ، فعند ذلك من النوادر
ولقد رام الأتابكي أيتمش البجاسي في دولة الناصر
فرج بن برقوق في سنة اثنتين وثمانمائة أن يفعل

ذلك فتعذر عليه وأفتاه بعض العلماء بأنه لا يجوز له ذلك وأن فيه مخالفة لشرط الواقف . فرجع عن ذلك فلما تولى الأتابكية تماراز الشمسي بعد أزبك أبطال الخطبة منها . فلما قتل تماراز وأعيد أزبك الى الأتابكية ثانيا أعاد بها الخطبة ، واستمرت الى الآن .

وفيه ثارت ريح مزعجة حتى ارتاع الناس منها ، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيमान التي خلف المجرة فرأى في الأرض أثر قدم انسان فكان طوله فوق الذراع ، وقد أثر ذلك في التراب خلف المجرة ، فأشيع ذلك بين الناس ولا يعلم ما سبب ذلك .

وفي رجب كانت وفاة الشيخ صلاح الدين الطرابلسي ، وهو محمد بن محمد بن يوسف الحنفي ، وكان عالما فاضلا مفتيا بارعا في مذهبه ، وتولى عدة مدارس ، ثم تولى مشيخة المدرسة الأشرفية التي تجاه سوق الوراقين ، ومات وهو في عشر الستين ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم شخص من ماردین يقال له نور على وقد فر من رستم صاحب العراقيين لذنوب أوجب ذلك ، فانتسب الى سلطان مصر ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه . وأقام بمصر مدة طويلة حتى توفي الأشرف قايتباي ففر الى بلاده . وفيه توفي شبك قرقناس الحسيني الأشرفي برسباي أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفي شعبان أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية لبرهان الدين الكركي الامام عوضا عن الصلاح الطرابلسي بحكم وفاته .

وفيه كانت وليمة عرس الأمير جان بلاط على

ابنه القاضي كاتب السر ابن مزهر ، وهي أخت البدرى كاتب السر ابن مزهر وكان مهما حافلا . وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة افريقية وهو زكريا بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي فارس الحفصي ، مات بالطاعون ، فلما توفي قرر ولده عمر في مملكة افريقية عوضا عن أبيه زكريا .

وفي رمضان رخص سعر البطيخ العبدلي حتى بيع كل حمل بنصفين فضة ، ولولا المكس لبيع كل حمل بأقل من ذلك ، وبيع في الحوانيت كل قنطار بنصفين فضة .

وفيه كانت وفاة العالائي على بن خاص بك صهر السلطان ، وهو على بن خليل بن حسن خاص بك التركي الأصل ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أعيان أولاد الناس ، وقد كبر سنه وشاخ ، ومولده قبل الثلاثين والثمانمائة ، وكانت جنازته حافلة وأخرج بكفارة ، ونزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمنين ، ومشت قدامه الأمراء للتبرية ، وكان له اشتغال بالعلم وكان ينظم الشعر وله شعر جيد فمن ذلك قوله في مؤذن :

ومؤذن في حسنه أنا مغرم لا أصبر
لما طلبت وصاله أضحي على يكبر
وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية ، منهم طوغان باي الثور وتمر القصير الذي بقي زرد كاش ، ثم بقي مقدم ألف ، وقايتباي الأشقر ، وآخرون .

وفي شوال كان عيد الفطر يوم الجمعة ، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب ، وما ذاك الا أن العيد كان يوم الجمعة ويخطب في ذلك اليوم خطبتان ، ويدعى للسلطان في ذلك اليوم مرتين ، فلهج الناس بأن فيه كمال سعد السلطان ، وهو

وجه العلة في هذه المسألة . وقد جاء في أيام
الأشرف قايتباي خمسة أعياد بالجمعة ولم يضره
ذلك . ومكث هذه المدة الطويلة ولم يؤثر فيه
ذلك شيئا . فمن ذلك كان عيد الفطر بالجمعة سنة
ثمان وسبعين وثمانمائة ، وعيد فطر بالجمعة
أيضا سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر
بالجمعة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر
أيضا بالجمعة سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وعيد
فطر أيضا سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، فهذه
خمس أعياد قد مرت عليه وهي بالجمعة وهو ثابت
في مملكته لم يتزعزع عن ملكه منذ ثلاثين سنة
إلا أياما وأشهرا ، فكان كما يقال :

لا ترقب النجم في أمر تحاوله

فإنه يفعل ... لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر

فلا يضره مريخ ولا زحل

وفيه توفي الأديب الفاضل محمد بن شادى
خجا المسمى ، وكان شاعرا ماهرا وله نظم جيد
فائق في المعاني . ومن شعره الرقيق قوله :

ما حيلتى فيمن بنى في الحشا

بيتا من الحب لو اش وشى

رشا له لحظ اذا مارنا

أنساك فيه الغى عين الرشا

ومولده بعد الخمسين والثمانمائة ، ومما قاله

فيه الشهاب المنصوري من المديح وأجاد :

أنت شاد بنعمة الشجور

في رياض المنظوم والمنشور

وادكارى بالعنبر الرطب منه

ضائع عند طيب ذاك العبير

عجبا لي مكاتب ورقيق

مع أنى احتجاج للتدبير

(١) الرشا . د . د .

يا ابن شاد مذ صار مدحك ذكرى
قلت انى من حسنه في قصور
وفيه خرج المحمل من القاهرة وكان أزدمر
تساح بالمحمل واينال الفقيه بالأول .

وفيه توفي تانى بك الخازندار ، وكان من
خواص السلطان لا بأس به .

وفيه قرر في قضاء الحنابلة بسكة المشرفة
الشيشى ، وهو قاضى قضاة الحنبلية الآن بمصر .

وفيه توفي جاني بك المحمودى الظاهري جقمق
خشداش السلطان . وكان من الأمراء العشراوات ،
ورأى غاية العز في أيام السلطان قايتباي ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ أبو الكرم المغربي ، وكان
فاضلا في علم الفلك ومعرفة أحواله .

وفي ذى القعدة توقف النيل عن الزيادة أياما
حتى قلق الناس لذلك وارتفع سعر الغلال ،
وتكالب الناس على شراء القمح والشعير وغير
ذلك من الغلال ، واستمر النيل واقفا وربما نقص
الذى كان زاده . ثم بعث الله تعالى بالزيادة واستمر
حتى كان الوفاء ، وفي هذه الواقعة يقول الناصري
محمد بن قانصوه وهو قول ابن صادق :

قلعت أصابع نيلنا عين الذى خزن الغلال
وغدت تقول النقص كان على الوفا قطعاً وزال

وقال شيخنا عبد الباسط الحنفى :

النيل وفي ووفى مبشرا بالمنافع

وخازن القوت عينيه قلعت بالأصابع

وفيه كان الوفاء في آخره ، وحصل للناس غاية

الجبر بكسره ، بعد أن كان قد نقص وأيس الناس

من طلوعه في السنة المذكورة ، فتوجه أمير كبير

أزبك وفتح البعد على العادة ، وكان يوما

مشهودا .

وفيه توفي عبد العظيم أحد كتاب الماليك ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك بن حيدر نائب حماد ، وكان أصله من مساليك الأشرف اينال ، وتولى عدة وظائف سنية منها ولاية القاهرة والأمير آخورية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ثم بقى نائب حماد وكان لا بأس به ، ومات وهو نائب حماد ودفن بها . فلما مات يشبك خلع السلطان على أقباي الطويل وقرره في نيابة حماد عوضا عن يشبك بن حيدر بحكم وفاته .

وفيه من الحوادث أنه وقع واقع وهو مقطع بالجبل المنظم على جساعة من الحجارين فماتوا تحته ، ومن الماليك ثلاثة أنفار كانوا هناك بسبب النقارة . ومات تحت الواقع عدة جبال وحسير كانت هناك لأجل حمل النقارة . وكان وقع على حين غفلة وكان أمرا مهولا . ومن العجائب أن شخصا من المساليك الذين كانوا هناك ووقع الواقع عليهم تصلب عليه شيء من الأحجار فأقام تحت الردم ثلاثة أيام ، فعمل له ثقب وخلصوه وهو فيه الروح وعاش بعد ذلك مدة طويلة .

وفي ذي الحجة فتح الاتابكي أربك سد بركة الأربكية وكان يوما مشهودا . ثم بعد أيام صنع وقدة حافلة وحرقة نطف ، وعزم على ابن السلطان ، فنزل إليه وبات عنده في القصر المطل على البركة ، ومد له أسفطة حافلة ، وقدم له تتادم حافلة ما بين مساليك وخيول وقماش وغير ذلك ، ثم طلع ابن السلطان إلى القلعة في اليوم الثاني أواخر النهار ، ولم يتبق ابن السلطان من المدينة سوى ذلك اليوم من منذ نشأ ، وكان مقيما بالقلعة لم ير البحر قط . وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب سرقند وهو

الملك المعظم أحمد بن أبي سعيد ، فلما مات تولى على سرقند بعده أخوه محمود صاحب بلخشان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب فرغانة من بلاد المشرق وهو عمر بن أبي سعيد ، وكان فيه الخير والعدل في الرعية ، ولما مات تولى من بعده على مدينة فرغانة أخوه أحمد .

سنة تسعمائة (١٤٩٤) :

فيها ، في المحرم ، صعدت القضاة الأربعة إلى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، فلما جلسوا أمر السلطان بعقد مجلس في المدرسة الصالحية بسبب شمس الدين ابن الطوائى المغربى القاضى المالكي بدمشق ، وكان قد حضر إلى القاهرة لأمر أوجب ذلك .

وفيه انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر ، وقد جدد الخواجا مصطفى بن محمود ابن رستم الرومى وصرف عليه من ماله نحو من خمسة عشر ألف دينار ، وجاء غاية في الحسن وهو على ما جدد به الآن .

وفيه تغير خاطر السلطان على شخص يقال له شمس الدين محمد بن عمران المقدسى ، وكان رفيقا لأحمد الحسينى فضرب بين يديه ضربا مؤلما فلما أطاق ذلك ومات بعد أيام قلائل .

وفي صفر جاءت الأخبار بوفاة يونس الأشرفى حاجب دمشق ، فلما مات قرر في حجوية دمشق قانى بك نائب غزة عوضا عن يونس المذكور .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن الحج الشامى لما رجع إلى الشام خرج عليهم في أثناء الطريق طائفة من عربان بنى لام فاحتاطوا على الركب جميعه ، وسبوا الحريم ، ونهبوا الأموال وأسروا أمير الركب

أركساج ، وكان أمرا مهولا ، فتنكده السلطان
وانزعج لذلك .

وفيه توفي كسباى بن أربك الساقى أحد الأمراء
العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول توفي القاضى نور الدين الصوفى
الحنفى أحد نواب الحنفية . وكان رئيسا حشما
لا بأس به ، وكان من أعيان الناس .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
على العادة .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق وأخذ
منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة ، وقتل تحت
الليل جماعة من أرباب الدرك .

وفيه توفي يشبك بن قصروه المعروف يشبك
سحاب ، وكان من الأمراء العشراوات ،
وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على كرتباى أخى
الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى نيابة صفد .

وفيه توفي جاني باى الحسنى الظاهرى جقمق
أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى قرر عفيف الدين بن الشحنة
فى قضاء الشافعية بحلب ، وقد سعى فى ذلك بمال
له صورة .

وفيه قرر مصرباى بن على باى فى نيابة قلعة
حلب .

وفيه تعين تانى بك الجمالى فى امرية الحجاج
بركب المحمل وعين كرتباى ابن أخت السلطان فى
امرية الركب الأول .

وفى جمادى الآخرة توفي الأمير أزدهر تمساح
ابن يلباى الظاهرى جقمق أحد المقدمى الألوف .
وكان رئيسا حشما محمود السيرة ولا سسيما فى
سفر الحجاز . وقد سافر أمير حاج بركب المحمل
عدة مرار والناس عنه راضون والثناء عنه جميل .

وفيه توفي الصاحب قاسم شغيته . وكان من
الأعيان ، وتولى نظر الدولة والوزارة غير ما مرة ،
وجاء فى الوزارة على الوضع ، وكان كفؤا للمنصب ،
سائرا بالسداد ، منقادا فى مباشرته ، وجرى عليه
شدائد كثيرة ومحن ومات وهو فى التوكل به ...
وربما قيل انه كان فى الخشب حتى مات ، وباشر
ديوان الوزارة مدة طويلة وآل أمره الى أن مات
شر ميتة . ثقل بعض المؤرخين أن قاسم هذا كان
فى مبتدأ أمره خبازا وأن صلاح المكينى أشهره فى
القاهرة لما كان محتسبا ، ثم أن قاسم هذا صار من
جملة صيارف اللحم ، فلما قرر شمس الدين محمد
البيباوى تحشر فيه وصار من جملة المباشرين
بالدولة ، فلما غرق البيباوى تكلم فى الوزارة هو
وعبد القادر الطويل ، ثم أن قاسم راج أمره وترشح
للوزارة حتى استقر بها وصار من أعيان الرؤساء
ببصر ، وباشر الوزارة أحسن مباشرة ، وتنج فى
السداد بها وقد قيل فيه :

وكم سيد يستوجب الرفع قدسه
غدا شاكيا من لحن ألفاظه خفضا
وكم جاهل يدعى رئيسا لقوة
كذلك الحصى يدعى رئيسا من الأعضاء

وفى رجب كانت وفاة القاضى شرف الدين يحيى
بن البدرى حسن ناظر الأوقاف ، وكان رئيسا
حشما ، لكنه أظهر للسلطان نتيجة وعادى الناس
قاطبة ولا سيما الأتراك بسبب ما فرضه على البلاد

لأجل الخمس كما تقدم ذكر ذلك ، ونهب الممالك داره في بعض الركبات واستمر في عكس الى أن مات . ولم يثن أحد عليه خيرا في مدة ولايته لنظر الأوقاف كما يقال :

تولاها وليس له عدو

وفارقها وليس له صديق

وفيه توفي قاضي بولاق بن قرقماس أحد نواب الخنزية . واسمه عبد القادر بن أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر الدماصي . وكان يعرف بابن قرقماس ، وكان من أعيان الخنزية مشكور السيرة في قضائه وكان لا بأس به .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية حتى بيع كل عشرة أراذب قمح بثلاثة دنانير . حتى عد ذلك من الزواجر .

وفيه توفي الطواشي سرور شاد الحوش ، وكان عنده قسوة زائدة وحسب وفلم . وهو الذي أحدث بالقلعة السجن المسمى بالعرقانة من داخل الحوش ، وكان يحبس فيها من يختار من أصحاب الجرائم . واستمر بعده الى الآن يسجن به .

وفيه توفي المسند عبد القادر بن الزيات المناوي ، وكان لا بأس به .

وفيه تعيظ السلطان علي ولده الناصري محمد والبيه زلفا عتيقا وكبر خام ونزل به الى طبقة الزمام . وقال لأغات الطبقة نوروز المجنون : « دعه يكنس الطبقة ويقعد على السفرة آخر الممالك ، وإن قوى رأسه اضربه عتقة قوية ، وعامله معاملة المماليك الجلبان » ... فأقام في الطبقة أياما حتى طاع الأتابكي أزيك وشفع فيه ، واستمر عنده ممقوتا حتى مات .

وفي شعبان وصل الى القاهرة شخص جركسي ،

وهو جلب قح وقد جاوز الستين سنة من العمر ، ومعه اثنان من الأولاد وهما شباب ملاح الهيئة ، فذكروا أن ذلك الشيخ أخو السلطان ، وأنه يسح ببلاد الفرنج . وكان مقيما بها ، فلما حضر استسلمه السلطان وسماه قيت ، واستسلم أولاده وسمى أحدهما جانم والآخر جاني بك ، وأنزلهم بالطبقة ورتب لهم جوامك ، وصاروا من جسة الممالك السلطانية .

وفيه قدم الى القاهرة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقي ، قاضي القضاة بها الشافعي . فلما حضر جرى عليه أنكاد ومحن من السلطان ، وغرم مالا له صورة ، حتى استمر في قضاء الشافعية بدمشق على عادته .

وفيه توفي أحمد حزينات ، وكان أستاذا في فن الموسيقى ، وعنده فكاهة وحسن محاضرة .

وفيه أشيع الخبر بسوت الجبجة بن محمد بن عثمان ملك الروم بنابل من بلاد الفرنج . وجرى عليه أمور يطول شرحها ، ومات وهو في أسر الفرنج . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه غرقت معدية بساحل بولاق فسات بها كثير من الناس من رجال ونساء وأطفال وبهائم .

وفي رمضان توعك السلطان في جسده حتى أرجف بموته . ونسب الى قانصوه خمسمائة في مدة توعك السلطان أنه تقجم على السلطنة فمنع من الدخول على السلطان في مدة انقطاعه . ثم ان السلطان حصل له الشفاء ونودي في القاهرة بالزينة واستمرت الزينة أياما في شهر رمضان حتى تعطلت الناس عن البيع والشراء .

وفيه أقيمت الخطبة بالجامع الذي أنشأه الأمير
أزبك اليوسفى رأس نوبة كبير بدرب البابا .
وفيه توفى تغرى برمش الاينالى أحد الأمراء
العشراوات وكان لا بأس به .

وفى شوال ليلة عيد الفطر خرج الأمير قانصوه
خمسمائة مسافرا الى بعض بلاده ، ولم يحضر موكب
العيد فكثر القال والقال فى ذلك اليوم ، وكان سفره
يرأى السلطان ، فلما كان يوم العيد ثارت فتنة من
المماليك الجلبان ، وركب الكثير منهم فى ذلك اليوم ،
وتوجهوا الى دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها .
وأحرقوا بعض أماكن بها وأخربوا غالبها ، وهى
الدار التى أنشأها فى قناطر السباع المطلة على
الخليج الحاكسى . وكان الذى أثار الفتنة طائفة
من المماليك من عصابة أقبردى الدوادار فحصل
الاضطراب فى ذلك اليوم ، ثم سكن الحال قليلا .
وفيه خرج المحصل من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحصل تانى بك الجمالى ، وبالأول ابن أخت
السلطان .

وفيه توفى القاضى نور الدين على بن داود
الصيرفى الاسرائيلى الحنفى أحد نواب الحكم ،
وكان من أعيان الحنفية ، وكان يكتب التاريخ
مجازفة لا عن قائل ولا عن راو ، وله فى تاريخه
خطبات كثيرة وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه
فكان كما يقال :

يا من يقول بأن فى التاريخ كتباً كامله
لك بالأباعر نسبه لم تدر ما هى حامله
وكان مولده سنة سبع عشرة وثمانمائة . وكان
لا يخلو من فضيلة .

وفى ذى القعدة وصل سيف قان بردى نائب
قلعة دوركى وكان غير محمود السيرة .
وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى
أزبك وفتح السد على العادة وكان هذا آخر فتح
أزبك أمير كبير للسد .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية حتى بيع كل
ثانية أرغفة من الخبز البانت بثلاثة دراهم فلوس
حتى عد ذلك من النواذر .

وفيه ابتداء بالسلطان بوغك فى جسده وظهر عليه
أشايير الموت ، وضرب الكرة فى السنة المذكورة
ضربا هينا بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة
فسبحان مغير الأحوال .

وفيه توفى سيدى عبد الرحمن اليمنى وكان من
أولياء الله تعالى .

وفيه توفى أقبردى التساسيحى الظاهرى جقمق
وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه توفى أزدمر بن مراد خجا الأشرقى برسباى ،
وكان أحد الأمراء العشراوات وباش مكة ، وكان
لا بأس به .

وفيه ظهرت أعجوبة وهى أن امرأة ولدت مولودا
مسورته كصورة الفيل وله زلومة سوداء وكان
يشع المنظر فسات من يومه .

وفيه توفى الطواشى سرور السيفى نائب المقدم
وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب خراسان وهو
حسين بن يقرا بن منصور ويهرا جده ، قيل انه
مات بعله النقرس .

وفي يوم الخميس مستهل ذي الحجة جرت كائنة عظيمة ، وهى أن قانصوه خمسمائة لما توجه الى اقطاعه فى ليلة عيد الفطر ، كما تقدم ، توجه طائفة من الممالك الى داره ونهبوا ما فيها واحرقوا غالبها . فلما رجع قانصوه خمسمائة من السفر ، تعمزت القلوب بالعداوة بينه وبين أقبردى الدوادار ، وصارت العداوة كل يوم فى مزيد . فلما كان يوم الخميس المذكور ركب قانصوه خمسمائة ولبس آلة الحرب ، والتف عليه جماعة من أخصائه وخشداشيه ، مثل قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جملة كثيرة ، منهم : برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبشر أيضا ، وأزبك قفص ، وقيت الرحبى ، وغير ذلك من الأمراء ، والجم الغفير من الخاصكية والممالك السلطانية ... فلبسوا آلة الحرب وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك الذى أنشأه فى الأزبكية . فاجتمع هناك من العسكر ما لا يحصى . فلما بلغ الأمير يشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، أن العسكر قد اجتمع عند أزبك حضر عنده ، وكمل هناك أربعة أمراء مقدمين ، وجاء العسكر أفواجا أفواجا ، ولا بقى يعلم ان كانت الركبة على السلطان أم على الأمير أقبردى الدوادار ؟ فلما اشتد الأمر طلع تانى بك قرا حاجب الحجاب الى السلطان ، ونصحه وخلا به وقال له : « انما هذه الركبة على السلطان وأن العسكر قائمة مع أزبك أمير كبير لأجل قانصوه خمسمائة ، فانه كان صهره » . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وخشى من اتساع الفتنة ، فنزل وجلس فى المقعد المطل على الرميلى ، وعلق الصنjq السلطانى ، ودقت الكؤوسات حربى . ثم نادى للعسكر : « من كان طائعا لله ولرسوله

وللسلطان فليطلع الى الرميلى ويقف تحت الصنjq السلطانى » . فلما بلغ الأمراء المقدمين ذلك طلع تماراز الشمسى أمير سلاح ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، وأقبردى الدوادار الكبير ، وأزبك اليوسفى رأس نوبة كبير ، وتانى بك قرا حاجب الحجاب ، وجان بلاط بن يشبك ، وشاد بك الخوخ ، وبقية المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما بلغ من بالأزبكية من العسكر أن السلطان نادى بأن العسكر يطلعون الى الرميلى ويقفون تحت الصنjq ، صاروا فى الحال يتسحبون من هناك شيئا فشيئا ويطلعون الى الرميلى حتى لم يبق فى الأزبكية الا ممالك الأمراء الذين هناك . فظهرت الكسرة على قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء . وهذه أول حركات قانصوه خمسمائة ، وكان معكوس الحركات فى سائر أفعاله كما قيل :

وأخرنى دهرى وقدم معشرا

على أنهم لا يعلمون وأعلم

فمذ أفلح الجهال أعلم أننى

أنا الميم والأيام أفلح أعلم

فبينما الأتابكى جالس بمقعه ، واذا بالأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النواب دخل اليه ، وصحبته الحاج رمضان المهتار بالطشتخانه ، فقال له : « قم كلم السلطان فى خبر » ، فقام من وقته ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وركب وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء ، وهو مفكك الأزرار . فطلع صحبتها الى القلعة . فلما رآه الممالك الجلبان ، كادوا أن يقطعوه بالسبوف . وقيل ان الأمير أقبردى الدوادار لكمة وشتمه . فلما وقف بين يدى السلطان قام له وأمر بادخاله الى قاعة البحرة خوفا عليه من الممالك الجلبان أن يقتلوه . فلما بلغ قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء ، أن أزبك أمير كبير قد عوقوه

بالقلعة ، ركب وتوجه من على قنطرة الحاجب واختفى من حيث لا يعلم له خبر . وكذلك قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى وبقية الأمراء ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة . فلما اختفى الأمراء انفض ذلك الجمع الذى كان بالأزبكية كأنه لم يكن . وكان قانصوه خمسمائة فى السنة المذكورة جدد سور باب السلسلة ، وأنشأ المقعد المطل على الرميلى ، والبيت ، وحوله أبراج موجودة به الى الآن ... ثم ان السلطان نادى للعسكر أن يقلعوا آلة الحرب ، ويتوجهوا الى بيوتهم . ونادى للناس بالأمان والاطمئنان . وسكنت تلك الفتنة . فلما كان يوم الجمعة صبيحة ذلك اليوم قبض بعض مشايخ العربان على قانصوه الألفى ، وكان قد توجه الى ير الجيزة ، فقبض عليه من هناك ، وأحضره الى بيت أقبردى الدوادار ، فقيده وأرسله الى السجن بقلعة صفد . ثم ان قانصوه الشامى أرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له فى ذلك اليوم مندبل الأمان . فلما قابل السلطان نخلع عليه وقرره فى ثيابة حماء ، ورسم له أن يخرج من يومه الى السفر . ثم ان الأمير أقبردى الدوادار صار يقبض على جماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة ، فقبض على قيت الرحبى ، وبرسباى الثور الشريفى ، فقيدهما وتوجهوا بهما الى السجن بالصليبية ، ثم على جماعة آخرين منهم ، وهم : برسباى الخفيف ، وقرقناس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبشر أيضا ، وأزبك قفص ، ولكن فر من أثناء الطريق . وقبض على سودون الفقيه . فنفى هؤلاء الجماعة عن آخرهم . واستمر قانصوه خمسمائة مختفيا ، حتى كان من أمره ما سيأتى ذكره فى موضعه . وقد اقتصف أقبردى الدوادار على جماعة قانصوه خمسمائة ، وبدد شملهم ، وفتك فى تلك الأيام

وطاش وخف الى الغاية ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد ، ليس على يده يد ، وكان ذلك من أكبر الفساد فى حقه كما قبل :

كل شيء اذا تناهى تواهى

فاتتقص البدور عند التمام

ثم ان أقبردى الدوادار فرق فى تلك الأيام المذكورة أضحية جزيلة على العسكر ، فكانت تعادل ضحايا السلطان ، من بقر وغنم ، حتى غمر العسكر بالاحسان ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنا أسمر والراية البيضاء لى

لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحل لى عيش العداة لأتلى

نوديت يوم الحرب بالمران

هذا ما كان من أمر هؤلاء - وأما ما كان من أمر أزبك أمير كبير ، فانه أقام بقاعة البحرة ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة رسم له السلطان بأن يصلى معه بالشاش والقماش على عادته ، فخرج وصلى مع السلطان الجمعة . فلما فرغ من صلاة الجمعة أراد أن ينزل فقبل له ان المماليك واقفة بالرميلة ، ومتى نزلت يقطعوك ويقتلوك لا محالة ، فخاف عليه السلطان وأدخله الى قاعة البحرة . ثم انه اجتمع بالسلطان وقال له : « أنا ما بقى لى اقامة بمصر ، يقتلنى المماليك الجلبان ، وقصدى أتوجه الى مكة المشرفة » ، فأجابه السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن ذى الحجة من تلك السنة نزل الأتابكى أزبك من القلعة وهو راكب على أكديش ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، وعليه ملوطة بيضاء من غير تقييد ، ولا أوجاقى خلفه ، فتوجه الى مكة المشرفة من الطور مستافرا بالبحر ، الى أن يصل الى جدة ، ويرحل من جدة الى مكة المشرفة ، ورسم له السلطان أن يأخذ

ولده يحيى معه الى مكة المشرفة ، وكانت نكبة
بغثة على حين غفلة كما يقال :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

وسن قل فيما يتقيه اصطباره
فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت مدته فى الأتابكية نحواً من سبع عشرة
سنة وسوف يعود الى الأتابكية ثانياً ، كما
سيأتى الكلام عليه

وفيه ، فى ذلك اليوم ، رسم السلطان باخراج
شبكة الجمالى الزردكاش الكبير ، وأحد
المقدمين ، فخرج منفياً الى القدس ، ولم يكن له
ذنب غير أنه كان من جماعة أمير كبير ، وحضر
يوم الركبة ، فصار له ذنب . وكان يشبك الجمالى
من خواص السلطان ، ثم اقلب عليه ، فأقام
بالقدس منفياً الى أن مات عن قريب . فكان كما
قيل :

يعدون ذنباً واحداً ان جنيته

على وما أحصى ذنوبهم عدلاً

وفيه جاءت الأخبار من تونس بأن بها ثارت
فتنة عظيمة ، وحصل لعساكر المغرب مقتلة مهولة ،
والأمر لله تعالى فى ذلك

سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ - ١٤٩٦ م) :

ختنها الله بخير وهى أول القرن العاشر . وكان
مستهلها بالأحد وهو أول أسابيع الأيام ، وأول
افتتاح العالم بالأحد .

فقى المحرم كان خليفة الوقت ، الامام المتوكل
على الله أبو العز عبد العزيز العباسى . وسلطان
العصر : الملك الأشرف أبو النصر قايتبى
المحمودى الظاهرى جقمق وقاضى القضاة
الشافعية : زين الدين زكريا الأنصارى

والقاضى الخفى : ناصر الدين محمد الأخسى .
والقاضى المالكى : عبد الغنى بن تقى الدين .
والقاضى الخبلى : بدر الدين محمد السعدى .

فمن حوادث هذه السنة أن السلطان أحدث
مكساً على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب
نصف فضة ، ولم يعهد هذا قبل ذلك . وكانت
هذه الفعلة من أقبح مساويه . واستمر ذلك فى
صحيفته الى الآن .

وفيه قدم على باى نائب الاسكندرية فقرره
السلطان فى مقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء
المقدمين .

وفيه قدم الحاج وقد قاسى فى السنة المذكورة
مشقة زائدة ، ولم يجدوا الماء بنخل . فخرج بهم
أمير الحاج ، الى جهة عيون موسى ، حتى وجدوا
الماء ، وأخبر بعض الحجاج أنه سمع ، وهو واقف
بعرفة ، ما جرى بمصر من ركوب المماليك وغيره
من الأول الى الآخر . فعد ذلك من النوادر ،
كيف أشيع ذلك بعرفة من غير مخبر أتى هناك .

وفيه قدم للسلطان أترجة غريبة الشكل ،
اجتمع فيها سبع عشرة أترجة من أصل واحد ،
فكانت بديعة الخلقة جداً .

وفيه عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى ، شيخ قبة
السلطان التى بالمرج والزيات . وكان قد توجه
الى ابن عثمان قاصداً عن لسان السلطان ،
وصحبته هدية خافلة الى ابن عثمان ، من حملتها
قماش فاخر ، وسبع ، وزرافة ، وبيغا حمراء
اللون ، وغير ذلك أشياء كثيرة . فلما عاد عبد
المؤمن أخبر بأن ابن عثمان قد تلاشى أمر
عسكره ، وبطلت همته عن محاربة عسكر مصر ،
فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقاة صالح
الكردى ، حاجب حلب ، وشيخ الأكراد بها ، مات
قتيلاً .

وفيه جاءت الأخبار من حلب أيضا بقتل محمود ابن أبي سعيد ، صاحب سمرقند ، قتله محمود ابن يونس كان ، صاحب شاس ، وملك من بعده سمرقند . وكان محمود هذا آخر ذرية تمرلنك ، وبه زالت دولتهم كأنها لم تكن . وهو محمود بن أبي سعيد بن أحمد بن ميرزا شاه بن تمرلنك ، وكان من أعيان ملوك الشرق .

وفيه ترشح أمر تراز الشمسى بأن يلى الأتابكية .

وفى صفر فى مستهله يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء : فقرر تراز الشمسى فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك بن ططخ ، بحكم نفيه الى مكة المشرفة . وخلع على تانى بك الجمالى ، وقرره فى امرية مجلس عوضا عن تراز بحكم انتقاله الى الأتابكية . وقرر أزبك اليوسفى فى امرية سلاح ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم انتقاله الى امرية مجلس . وقرر تانى بك قرا الاينالى رأس نوبة كبير ، عوضا عن أزبك اليوسفى بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وقرر اينال الخسيف فى حجبوية الحجاب ، عوضا عن تانى بك قرا بحكم انتقاله الى رأس نوبة كبير . وأنعم فى هذا الشهر بتقادم ألف على جماعة من ممالكهم منهم : ماماي ابن خداد ، وقانصوه المحدى المعروف بالبرجى ، وكرتبای الأمر كاشف البحيرة ، وقانم قريه ... وأنعم على جماعة كثيرة ممن هم من عصابة أقبردى بأمرية طبلخانات وعشراوات ، منهم : اقبای الطويل ، وخاير بك الدوادار ، وطقطبای من طبقة الأربعين ، وطقطبای أيضا من طبقة الطازية ، وغير ذلك جماعة كثيرة يأتى الكلام عليهم فى موضعه .

وفيه خلع السلطان على قانى بك الشريقى ،

وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه توفى المسند شرف الدين القباني وكان من أهل الفضل لا بأس به .

وفيه خلع على الأتابكى تراز وقرره فى نظر اليمارستان المنصورى ، فتوجه الى هناك فى موكب جافل .

وفى ربيع الأول خلع السلطان على شمس الدين محمد بن مزاحم ، وقرره فى نظر الأوقاف والأحباس ونظر القرافتين . وكان أصله من طرابلس ، وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وهذا آخر موالد السلطان قايتباى . ولم يحضر بعد ذلك مولدا .

وفيه خلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية الحاج يركب المحمل ، وقرر برد بك فى امرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة يشبك الجمالى ، الذى تقدم ذكره . وكان دينا خيرا وأصله من ممالك ناظر الخاص يوسف ابن كاتب حكيم ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها حسبة القاهرة ، والزردكاشية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، وجمع بين الزردكاشية والتقدمة وسافر أمير حاج بركب المحمل غير ما مرة .

وفيه وقع بين الأمير أقبردى الدوادار وقرقياس ابن ولى الدين أمير آخور ثالث ، واستمرت العداوة بينهما تتزايد حتى كان ما سذكروه .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على شاه بك بن مصطفى المعروف بالحوخ ، وقرره أمير آخور كبير

عوضاً عن قانصوه خمسمائة بحكم اختفائه . وقرر
برد بك المحمدي الاينالى أمير آخور ثانى . وقرر
صولان باى بن عيسى الاينالى فى الزردكاشية
الكبرى ، عوضاً عن شبك الجمالى بحكم وفاته
بالقدس الشريف بطالا . وقرر برقوق الساقى
الاينالى فى الحسبة . عوضاً عن كسبى . وقرر
كسبى فى الدوادارية الثانية وكان يعرف بكسبى
الشريفى . وقرر مصرىباى فى شادية الشراب خاناه .
وقرر أركماس الحلبي فى نياية القلعة . وقرر
سودون العجمى فى استادارية الصحبة . وقرر
برد بك بن بير على فى تجارة الماليك ، فخلع
السلطان على هؤلاء فى يوم واحد .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، على
ساحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن أمير المدينة
وجماعته هجموا على حواصل المال التى بها من قبل
النذور ، فاستولى على اثنى عشر ألف دينار ،
وأخذ عدة قناديل ذهب كانت معلقة بالحجرة
النبوية الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام ، وخرج الى جهة العراق فلم يدرك .
وفيه أخبر جماعة من الفلكية بأن زحلا قد
اقترب من المريخ فى برج الجوزاء ، وذكروا أن هذا
القران سيقع فيه فتن عظيمة عن قريب ، فأجاب
شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى عن ذلك
بقوله :

ليس القران بفاعل كلا ولا بمؤثر
ان المؤثر من له خلق القران ففكر
فالفعل عنه صادر كم يا منجم تفتري

وفيه توفى بيغوت قرا بن قنچق قرا الأشرفى
برسباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .
فلما مات أعم السلطان بامرته على ثانى بك
الأبج .

وفيه رخص المغل جدا ، حتى بيع كل خمسة
أرادب قمح بدينار ، وبيعت البطة الدقيق بثلاثة
أنصاف ، وعم الرخاء سائر البضائع .

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بقطع أيدي
ثمانية أنفار ممن يعمل الدراهم الزغل ، وكان فيهم
شيخ قد أناف على الثمانين سنة من العمر ، فقطعت
أيديهم وشهروا بالقاهرة .

وفيه توفى قايتباى الناظر الظاهرى خشدقم ،
وكان من الأمراء الطليخانات بدمشق .

وفيه أذن السلطان للقاضى بدر الدين محسود
ابن آجا بأن يتوجه الى حلب على وظيفته فى قضاء
الحنفية ، وكان قد حج فى العام الماضى .

وفى جمادى الآخرة نزل جماعة من المنسر على
العلائى على بن الصابونى ناظر الخاص ، وكان فى
تربته التى أنشأها فى رأس دور الحسينية ، فأخذوا
جميع ما كان عنده ، وجرح ابن الصابونى فى يده ،
وكانت واقعة مهولة .

وفيه مات شبك دجاج المحمدي الظاهرى
حقق أحد العشراوات .

وفى رجب توفى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب
ابن عربشاه الدمشقى الحنفى ، شيخ المدرسة
الصرغتشية ، وكان من أهل الفضل وكان لا بأس
به . وقرر عوضه فى مشيخة الصرغتشية شمس
الدين الغزى .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه نائب دوركى ،
شنق قاضى المدينة سيف الدين يوسف الحنفى ،
وقد بلغه أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار هذه المملكة
ويدعوهم لذلك .

وفي شعبان كانت وفاة القاضي عبد الغنى بن
النجيعان ، وهو عبد الغنى بن علم الدين شاعر ،
وكان متولي كتابة الخزانة ، وكان من خيار بني
النجيعان ، رئيسا حشما موصوفا بالكرم الزائد
ويحكى عنه أشياء في بره للناس ما لا يحكى عن
البرامكة في أيامهم ، ومات وهو في عشر الثمانين
وكانت جنازته حافلة وكان أحق بقول القائل :

فلو أن البرامك عاينوه

وأعنه تعم الخلق سقيا

فينضب جعفر ، ويعوز فضل

ويلى خالد ، ويموت يحيى

وفيه هجم المنسر على سوق التجار بجامع ابن
طولون ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما كان
فيها من القماش ، وراحت على أربابها .

وفي رمضان توفي سودون أكرش الظاهري
حقيق ، أحد العثراوات ، وكان لا بأس به

وفيه من الحوادث في الشهر المذكور : أن
السلطان نادى للعسكر بالعرض ، فلما طلعا إلى
القلعة أحضر لهم المصحف الشريف الكبير العثماني
وحلفهم عليه قاطبة — وكذلك الأمراء — ألا
يخرجوا عن طاعته ، ولا يخالفوه فيما يأمر .

وفيه أنفق السلطان على العسكر ، وقيل صدقة ،
ففرق على المماليك القرائصة والسيفية الدين كانوا
منزلين بالديوان قبل سلطنته ، هم وجلبانه ، لكل
واحد منهم مائة دينار . والسيفية الذين نزلوا أيام
سلطنته لكل واحد منهم خمسون دينارا . ولأولاد
الناس أصحاب الجوامك ألفين ، لكل واحد عشرون
أو ثلاثون دينارا . وقيل انه فرق بعد ذلك على
الخدم الطواشية لكل واحد منهم عشرون دينارا
واثنا عشر دينارا . ثم أرسل نفقة للخليفة ، ولبعض

الأمراء فبلغت هذه النفقة زيادة عن أربعمائة ألف
دينار . ولا يعلم ما سبب هذه النفقة التي أنفقت
من غير موجب لذلك ، والذي أشيع بين الناس
أن السلطان قال : « أنا لما تسلطت لم أنفق على
العسكر شيئا فهذه في نظير ذلك » ، والأصح ذلك
لأنه أنفق على القرائصة العتق ، والسيفية العتق ،
مائة دينار لكل واحد . وعلى الذي تجدد من
القرائصة السيفية في أيامه خمسين دينارا لكل
واحد ، وسماها صدقة . والوجه الثاني ما قيل أن
السلطان قصده ظهور قانصوه خمسمائة ، وكانت
له به عناية تامة ، فأنفق على العسكر حتى أَرْضاهم
بسبب ظهور قانصوه خمسمائة ... فما سهل ذلك
على أقبردى الدوادار وأخذ حذره كما سيأتى .

ومن العجائب أن مال هذه النفقة كان مجمدا
حاضرا ، وهو من الخمسة أشهر التي أخذها من
أجرة الأملاك والأوقاف ومن أوقاف الجوامع
والمدارس والبيمارستان ، وصادر فيها طائفة اليهود
والنصارى ، وتجار الفرنج وتجار المغاربة والبرانسة
 وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس . وكان
هذا المال الذي جىء من هذه الجهات تحت يد
القاضي على بن الصابوني ناظر الخاص ، والأمير
تغرى بردى الاستادار . فلما خمدت فتنة ابن عثمان
التي كانت سببا لذلك لم يوفق الله تعالى السلطان
أن يرد للناس ما أخذه منهم ، كما فعل الأشرف
برسبای ، لما أخذ من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ،
بسبب تجريدة شاه روخ بن تمرلنك لما تحرك عليه
في سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فلما بطل أمر
التجريدة ، وحصل للأشرف برسبای توقعك في
جسده ، رد لأجناد الحلقة ما كان أخذه منهم ،
وكتب ذلك في صحيفته الى يوم القيامة . والأشرف
قايتباي جمع هذا المال من وجوه المظالم ، وحصل

للناس بذلك مشقة زائدة ، وأخرجه في غير مستحقه
لا في وجه فيه منفعة للمسلمين كما قيل :

لست أعطى في حرام أبدا الا حراما

وفي شوال قرر غير التكروري في نيابة مقدمة
الماليك ، ثم بقي بعد ذلك مقدم الماليك .

وفيه توفي تنم الضبع الظاهري جفمق أحد
الأمراء العشراوات ، وكان أخو تاني بك الجمالي
أمير سلاح . فلما مات تنم الضبع وقف شخص من
الأمراء يقال له ملاج بن مطبخ الظاهري جفمق ،
يطلب من السلطان اقطاع تنم الضبع ، فلم يوافق
السلطان على ذلك ، فحنق ملاج من السلطان .
فلما نزل ملاج الى داره شنق نفسه من شدة قهره
فمات هو وتنم الضبع في يوم واحد . وقد تقدم
القول على وفاة ملاج .

وفيه وقعت الوحشة بين أقبردى الدوادار وبين
جان بلاط . وسبب ذلك أن جان بلاط طلب امرية
الأخورية الكبرى وعينت له . فوقف أقبردى وباس
الأرض على أن يكون شاد بك الخوخ أمير آخور
كبير ، فأنعم السلطان على شاد بك بها ، فمن حينئذ
وقعت الوحشة بينهما . وقد التف على كرتباى
الأحمر ويشبك قمر ، وكان جان بلاط أعز أصحاب
أقبردى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجميل زائد ،
وكان أمير المحصل الشريف تاني بك قرا ، وأمير
الركب الأول برد بك نائب جدة .

وفيه توفي أركماس الحلبي نائب القلعة ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفي محمد بن نوروز المحدثى الميقاتى ،
وكان علامة في فن الميقات .

وفيه ظهر الأمير قانصوه خسمائة ، وكان مدة
اختفائه تسعة أشهر فلما طلع الى القلعة رسم

السلطان له بأن يأخذ ثوبا بعلبكيا حتى يرق عليه
قلب العسكر . يعنى جاء وكفنه تحت ابطه . فلما
وقف بين يدى السلطان قبل الأرض وخلع عليه
كاملية صوف صيني بسمور ، ورسم له بأن يتوجه
الى داره . ونزل من القلعة في موكب حافل ،
وصحبته الأتابكى تمرارز وأقبردى الدوادار ،
فأوصلاه الى داره ورجعا .

وفي ذى القعدة نارت فتنة كبيرة من الماليك
الجلبان ، ممن هم من عصبة قانصوه خسمائة ،
فلبسوا آلة السلاح ، وطلعوا الى الرميطة ،
وحاصروا أقبردى الدوادار ... فلما تزايد الأمر
أحرقوا الربع الذى عند سوق الحلاق . فلما بلغ
السلطان ركب ونزل الى باب السلسلة ، وجلس
بالمقعد المطل على سوق الخيل بالرميطة ، فلم تخش
منه الماليك ، وتزايد الأمر . ومما أفحش به
الماليك في حق السلطان أنه قبل ذلك بمدة طويلة ،
كان السلطان ينام فى الصيف على الدكة التى
بالحوش ، فدخل بعض الخاصكية عليه فى الليل ،
وقالوا : « ان الماليك الذين فى طبقة المطلع قد
عولوا على أن ينشبووا على السلطان وهو راقد على
الدكة » . فلما بلغ السلطان ذلك ، قام وبادر وراح
من على الدكة . فلما أصبح وجد ثلاثة أسهم من
النشاب فى المخدة والمخاف الذى كان للسلطان
بسبب النوم والتغطية عليه . فما وسع السلطان الا
أنه فرق الماليك الذين بطبقة المطلع على الأطباق ،
وجعل على حائط طبقة المطلع بناء يستتر منه رؤية
الحوش ... وقيل ان الذى فعل به ذلك ورمى
هو شخص خاصكى من أخصائه يسمى شرانمت ،
فأحضره وضربه بين يديه نحوا من ألفى عصا حتى
قيل انه مات ، وضرب معه جماعة من أصحابه

وسجنهم بالبرج ، وقطع جوامعهم ، وأبطل شرامنت
من الحاصرية ، وذلك قبل فتنة ابن عثمان مع
السلطان ... واستمر السلطان جالسا بالمقعد الذي
يباب السلسلة الى ما بعد العصر ، فبلغه أن أقبردى
الدوادار قد غيب من داره ، فعند ذلك قام السلطان
وقد حم في جسده ، فركب وطلع الى القلعة . وكان
هذا آخر ركوبه ورؤية الناس له . فلما دخل الى
الحوش طلع الى المقعد ، ودخل الى البيت الذى
كان به فلزم الفراش ، وثقل فى المرض من ليلته .
ولما غيب أقبردى نهب العوام داره ، ودور الأمراء
الذين من عتبته ، منهم اينال الحسيف ، وشاد بك ،
وفانم ، وجانم مصبغة وغيرهم . وهذه أول كسرة
أقبردى فكان كما قيل :

لا تعجبوا للدهر فى أفعاله

ان أضحك الباكي وأبكى الضاحكا

ثم ان السلطان تزايد به الألم ، وقوى عليه
أمر الاسهال المفرط ، وعجز عن الحركة ، وكثر
القيء والقال بين الناس .

ثم ان النيل أوفى فى تلك الأيام فرسم السلطان
لتمراز أمير كبير بأن يتوجه ويفتح السد ، والناس
فى غاية الاضطراب . ثم طلع الأتابكى تماراز الى
القلعة ، ولبس خلعة بسبب فتح السد ... هذا كله
والسلطان على غير استواء ، وأشيع أنه فى النزاع
وقد خرس .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشره طلع
الأتابكى تماراز الى القلعة ، ودخل على السلطان
فى البيت فوجده فى السياق ، فقال له : « يا مولانا
السلطان ان الأحوال قد فسدت ، ومن رأى أن
تسلطن سيدى محمد » فلم يرد السلطان له جوابا .
فأخذ سيدى محمد ابن السلطان ، ونزل به الى باب
السلسلة ، فأجلسه فى المقعد الذى هناك ، وجلس

معه ليوليه السلطنة . فانتظر الأمير أقبردى الدوادار
أن يطلع اليه ، فاخفى أقبردى ، ولم يطلع الى
القلعة فى ذلك اليوم . فلم يشعر تماراز الا وقد
هاجمته العساكر كالجراد المنتشر ... وذلك أن
قائصوه خمسمائة وكرتبأى الأحمر لما بلغهما أن
تمراز الأمير الكبير يباب السلسلة ، ومعه ابن
السلطان ، لبسوا السلاح وهجموا ودخلوا
الميدان من عند حوش العرب ، وطلعوا الى باب
السلسلة من الاصطبل ، فقبضوا على تماراز الأمير
الكبير ، وقيدوه وسجنوه بالبرج الذى يباب
السلسلة ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو
مقيد بقيدين أحدهما برجليه ، والآخر بركبتيه ،
وخلفه أوجاقى بخنجر . فنزلوا به من باب الميدان
الذى عند الحوش ، وتوجهوا به من جهة المجرة
الى البحر ، فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى
الاسكندرية ، فسجن بها . وكان المتسفر عليه
جانم بن برسبأى أخو قائصوه الألفى . وبطلت
الاشاعات بسلطنته . فلما جرى ذلك ، وقع النهب
فى داره ، وفى دار أقبردى الدوادار وجماعة من
الأمراء ممن كانوا فى عصابة أقبردى الدوادار . ثم
ان قائصوه خمسمائة وكرتبأى الأحمر وجماعة
من الأمراء ممن هم فى عصابة قائصوه خمسمائة ،
باتوا بباب السلسلة واشتوروا فيمن يلى السلطنة
فترشح أمر سيدى محمد ابن السلطان ، ووقع
الاتفاق على سلطنته .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة
اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة . وأرسلوا
خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد
العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة ، وهم قاضى
القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، وقاضى القضاة
ناصر الدين محمد الاخمينى الحنفى ، وقاضى
القضاة عبد الغنى بن تقى المالكى ، وقاضى القضاة

بدر الدين محمد السعدى الحنبلى . فلما تكامل المجلس تكلموا فى خلع الأشرف قايتباى ، بحكم أنه قد أشرف على الموت ، فخلع ، وبأيع الخليفة ولده الناصرى محمد بالسلطنة عوضا عن أبيه الأشرف قايتباى ، وشهد عليه القضاة بذلك ... هذا كله والسلطان فى النزاع ، لم يشعر بشيء مما جرى .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى الشهر المذكور ، من سنة احدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى الى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر .

ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرى ذى القعدة . وتوفى وله من العمر نحو من ست وثمانين سنة . ومات وهو بعله الدييلة ، واعتزته علة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يوما ، بما فيه من مدة انقطاعه عند توعك جسده ... فانه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وتوفى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة .. وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، وما نقى قط ، ولا سجن ، ولا تقيد . وكانت عليه سكينة ووقار ، ومهيب الشكل فى العيون ، جميل الهيئة ، مبجلا فى موكبه ، كفؤا للسلطنة ، وافر العقل سديد الراى عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها . ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطيء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى فى الأمور أياما قبل وقوعها . وكان لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم

وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته ، ويرسل يكشف عليه وهو ميت حتى يصدق بموته . وكانت صفته : طويل القامة ، عربى الوجه مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية . تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان موصوفا بالشجاعة ، عارفا بأنواع الفروسية ولا سيما فى فن لعب الرمح ، علامة فى فنه .

لكنه كان محبا لجمع الأموال ، ناظرا لما فى أيدي الناس ، ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الجراكسة على الاطلاق . ولكنه كان معذورا فى ذلك ... تحرك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرهم . ووجد عليهم عدة تجاريد كثيرة ، وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ماصرفه على نفقات التجاريد التى جردها فى أيام سلطنته الى أن مات ، فكانت نحو من سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد . وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها .

وكان مغرما بشراء الممالك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه ، لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . ومن العجائب أنه من بعده قد انحصرت مملكة مصر فى ممالكه فقط دون غيرهم . وتسلطن منهم الى الآن أربعة سلاطين ... وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمر ، ولا كان يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة . وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جلييلة الى الآن تتلى فى الجوامع . وكان له اعتقاد فى الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته .

وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف ، وكان لا يوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان

ووفى الله عليه جهات على وجوه
وكانت محاسنه أكثر من مساويه ،
ولم يخلف من الأولاد سوى ولده
محمد الذي تسلم من بعده ، وكان من سيرته
صليبي . ولم يتزوج مدة عمره سوى فاطمة
بنت العلاء على بن نخاص بك ، واستمرت معه
حتى مات رحمه الله تعالى عليه .

وفي أيامه توفي الأديب زين الدين أبو الخير بن
النحاس ، وكان من أعيان الشعراء في عصره ،
وكانت وفاته بالشام .

ومات الأشرف قايتباي رثاه الشيخ بدر الدين
محمد بن الزيتوني بهذا الزجل فقال :

يرحم الله سلفاتنا الأشرف

كان مؤيد على العدا ظاهر

وكذا ابنو المظفر المنصور

ينصر الله العادل الناصر

لما زاد الضعف بقايتباي

والدوادار في غساية الامكان

وتوافق مع الأمير تمرار

وطلع قانصوه الى الميدان

واتى القلعة مع كرتباي

والأمانة وهدموا البنيان

هرب أقيردى وقيدوا تمرار

وتولى سلفاتنا الناصر

من يخالف أمره ومن يعصيه

رد مقهور والأمر للقاهر

فولى الملك سادس العشرين

من شهر ذى القعدة ملوع شمسو

بعد واحد من السنين تالى

تسعيائة بعد اتقضا أمسو

وتوفى أبوه أخير النهار
في صباحو واروه حلول رمسو

بعد ملكه تسعة وعشرين عام
وأربعة أشهر بالكاتب الحاصر

ويليها واحد وعشرين يوم
لا تزيد أول ولا أخسر

ومات الأشرف والقبر صار حاويه
بعد لسعو بالوت وسسو حاق

وسرا فيه سم الديب حائق
ما وجدلو من ذى القضا ترياق

وقد أمسى مرهون بأفعالو
وأنت لو آفة قضاه تناسق

لهف قلبى عليه شجاع وقتو

والخوندات تبكى عليه باكر

كم رأينا ثكلى وهى حية

شعرها صار من حزنها ناشر

لهف قلبى على الأمير تمرار

كان موقر وهو الأمير كبير

والدوادار حولو رجال واعوان

يضربوا بالخصام ومالو كثير

قالوا لتمرار ما عندنا غيرك

كن مساعد وانت النظام والمشير

جت جماعة القانصوه بالخبر

خبر وييه ركب وكان صابر

وطلع للقلعة منك تمرار

وظفر ييه وصار عليه ظافر

العجب فى الركبة نهار جمعة

من سنه كان فى الأربكية القوم

كيف يوافق لشهر ذي القعدة
والعدد فيه خمسة وعشرين يوم
مثل يومو في الشهر والجمعة
والعدد فيه فاعجب لهذا دوم

والجزا من جنس العمل قالوا
وبهذا صار المثل سائر
كل من كان يخفر لآخيه حفرة
ما يقع في الحفرة سوى الحافر

الدوادر وشاد بك والخيف
هم وجانم غابوا عن الحضار
والجمالى نظام أمير سلاح
بالمقعد وكرتباى قد صار
هو المقدم وكاشف الكشاف
ومدير وزير واستادار

وعلى الكل قانصوه على
خسماية هو الشاطر الماهر
قد تولى أتابك العسكر
والأمير كبير وهو الناظر

خلت دوله كرقعة الشطرنج
والدوادر وقانصوه فى رهان
كم رأينا يبدق من الحاشية
قد تقدم عندو وصار فرزاق
لما ساق الفرس يريد الفيل
غالبهم فى حرمة الميسدان

ضربوا شاه لما انكشف رخوا
ما وجدلو فى رقعتو ساتر

ماتت النفس وانقلب دستو
وهرب مرماه وهو الخاسر

ضربو تخت الرمل للغياب
جو دلتهم دلت على الحضرة
ورأينا الألفى تقاخذو
فى يياضو قد أشرقت حمرة
واجتماعو بأصحابو بالاحباب
وكذا اشكال يلقي بهم نصره

وظهرلو راية فرح فى الطريق
مع جماعة بالعز تتباهر
بانو يطلع وينظر السلطان
مرحبا بالطالع وبالناظر

اعتذارى للى سمع قولى
ان صحبى والقرب يأتونى
يطلبونى ويقصدوا فنى
وان توانيت بالعجز يرمونى
أستحى أن أظهر ضعيف نظى
وأحمالى تنسب لزيئونى

ولكنى أبو النجا العوفى
ان تجدنى فيما أقول حاضر
استر العيب واربح ثواب سترى
جل من لا عيب فيه وهو الغافر

لو تكون البحار مع الانهار
وجميع المياه وسيل الغمام
حبر جارى وسائر الأعشاب
والنبات والشجر جميع أقلام
والسموات والارض والأكوان
تبقى أوراق طباق ليوم القيام

وجميع العالم يجو كتاب
يكتبوا المدح في النبي الطاهر
للقيامه ما يحضروه ذر
من مديحو ووصفه الفاخر

كان للاشرف خصال ملاح فاسمع
ما وأينسا في عصرنا مثلو
يا الذي جا يسمع بديع نظمى
خذ وحزر عنى جميع نقلو
وان آتى لك من يطلب التاريخ
والوقائع عن السلوك قلو

يرحم الله سلطاننا الأشرف
كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا اينو المظفر المنصور
ينصر الله العادل الناصر

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباي في أيام دولته
من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة منها : أنه جدد
عمارة المسجد الشريف النبوى ، على صاحبه أفضل
الصلاة والسلام ، لما احترق ، وأنشأ قبة عظيمة
على القبر النبوى الشريف على صاحبه أفضل
الصلاة والسلام ، وأنشأ هناك مدرسة مظلة على
الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام ، وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب
السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة .
وأنشأ مدرسة بيت المقدس ومدرسة ويوتا
ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزة ، ومدرسة بشفير
دمياط ، ومدرسة بشفير الاسكندرية ، والبرج
العظيم الذى أنشأه مكان الفناء القديم ، والبرج
الذى بشفير رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان بالديار المصرية : فالجامع
الذى بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضة .
وجامع برأس الكباش ، وجامع بباب الخرق عند
الشيخ سلطان شاه ، والسيل والمكتب الذى بقرب
تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافة .
وجدد عمارة قبة الامام الشافعى رضى الله عنه
ورحمه . وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، ومدرسة
بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس فى
أماكن شتى من البلاد ... وأنشأ السيل الذى
برأس سويقة عبد المنعم . وأنشأ بالقاهرة عدة
زوايا وأسبلة وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع
وحوانيت فى مواضع متفرقة ، وجعلها وقفا على
الدشيشة التى قد كان قررها بالمدينة الشريفة على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة : فالمقعد الذى أنشأه داخل
الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل التى
يجوار تاعة البحرة ، وجدد عمارة الايوان
الناصرى الذى بالقلعة ، وأنشأ مواضع كثيرة
بالقلعة .

وجدد عمارة قناطر أبى المنجا ، والقناطر التى
بشبرمنت بالحيزة . وأنشأ هناك رصيفا وحصل به
غاية النفع فى أيام النيل للمسافرين . وجدد عمارة
قنطرة باب البحر . وجدد عمارة الميدان الكبير الذى
يجوار البركة الناصرية ، وصرف عليه جملة مال .
وجدد مقام سيدى أحمد البدوى ، وبناء بناء خافلا
ووسعه . وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين
رحمه الله . وجدد عمارة باب القرافة . وأنشأ هناك
الربوع . وأنشأ مقعدا وميتا وجنيحة بدار البقر
التى تحت القلعة . وجدد عمارة جامع الرحمة الذى
بغيط جاني بك نائب جدة . وأنشأ عدة ربوع
بالخشابين والبندقانيين ، وبالجامع الأزهر وغير
ذلك .

وله عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع العام
للمسلمين .

وأما ما أبطله في أيام سلطنته من شعار المملكة ،
فخدمة القصر بالشاش والقماش . وقد قرره الملوك
السابقة لاقامة الحرمة ونظام المملكة . وأبطل
الرميات التي تعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك
الى القاهرة والعسكر قدامها بالشاش والقماش ،
ويكون يوما مشهودا . وأبطل لبس الصوف
بالمطعم — وكان الملك يشق من القاهرة وهو لا لبس
الصوف هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود —
وأبطل المركب المسماة بالذهبية ، وكانت من شعار
المملكة ، ولا سيما في يوم الوفاء بالنيل ، وكانت
الملوك تتوجه فيها الى المقياس ، وكان بها ستون
مقدافا ... وأبطل المركب المسماة بالدرمونة ،
وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين ، وكانت غريبة
الهيئة في شكلها . وأبطل دوران المحمل الرجبي في
أيام سلطنته وما كان يعمل فيه . وأبطل المسابقات
التي كانت تعمل في تلك الأيام ، وكان ينفق في مدة
دوران المحمل ما لا ينحصر ... وأبطل في أيام
سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها
خوف الإطالة . ولكن آخر من مشى من السلاطين
على النظام القديم ، مما ذكرناه ، الظاهر خشقدم
رحمه الله تعالى .

وأما ما عهد له من المساوى : فإنه لما تولى السلطنة
ندب يشبك الدوا دار لما تولى الوزارة ، فقطع لحوم
جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام ونساء أرامل ،
وكانت تباع وتشترى من الناس من الديوان الى
آخر دولة الظاهر خشقدم . وكانت الوزراء تنتج
بالسداد لذلك . ثم فعل مثل ذلك بالجوامك ،
وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس .
والذي أبقاه أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية

ألفا درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم
خمس دينار ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار
ممن لم يسافر للتجريدة . وأخذ من أجرة الأملاك
والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها
أجرة سبعة أشهر ، وحصل للناس بذلك الضرر
الشامل . وصادر اليهود والنصارى في أيامه مرتين .
وصادر جماعة من أعيان التجار ، ومن تجار الأرياف
والبرانسة . ورمى على البلاد التي في الشرقية شيئا
يقال له الخمس ، بسبب خيالة تخرج مع التجريدة
الى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بعربان جبل نابلس ،
ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولي جماعة من ممالكه عوضا
عن مشايخ العربان ، فجاروا أيضا على الفلاحين ،
وأخذوا منهم غير العادة أضعافا . وكذلك الكشاف
يقرر عليهم الأموال فيجورون أيضا على البلاد ،
ويأخذون المال أمثالا ... فمن يومئذ تلاشى أمر
البلاد ، وانحط خراج المقطعين جدا .

ومنها أنه أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل
على كل أردب نصف فضة خارجا عن ثمنه لمن
يشترى أو يبيع . وقد تزايد الأمر بعده في ذلك
حتى صار على كل أردب نصفان . وهو أول من
أحدث تفرقة الجامكية بحضرته ، وضيق على
الناس ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من الملوك .
وكان مقدم الممالك ، وأحد رؤوس النوب يتولى
تفرقة الجامكية في الايوان ، ولم يشعر السلطان
بذلك . فبطل ذلك ، واستمرت من يومئذ تنفق
بحضرة السلطان الى الآن .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم
الأفعال الشنيعة . منها شق القاضي ابن المقسى ،
وتوسيط مجد الدين ابن البقرى الاستادار ، وغير
ذلك مما تقدم ذكره . وقطع يد ابراهيم بن فريعن

صير في الجامكية وكان في سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع . وقد رتب له السلطان ما يكفيه الى أن مات . وهو أول من أحدث برددارية السلطان ، ولم تكن هذه الوظيفة قبل ذلك تعرف ، فصارت زيادة مظلمة أخرى .

ومن محاسن الأشرف قايتباي رحمة الله عليه أنه كان في شدة غضبه يستحيل في الحال راضيا ، ويزول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من أجمل الخصال . وبالجمل كانت محاسنه أكثر من مساويه . وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء بعده من السلاطين . ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة . وكان من خيارهم ولكن كما يقال :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد معاييه

وقال بعض الشعراء :

إذا أنت لم تنفع فضر فانما

يرجى الفتى كيما يضر وينفع

ولما مات تولى ابنه محمد .

الملك الناصر أبو السعادات

هو الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي الظاهري .

وهو الثاني والأربعون من ملوك الترك وأولادهم في العدد وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية .

تقدم أنه بويح له بالسلطنة يوم السبت سادس عشر ذي القعدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٦ م) . وقد تقدم أن قانصوه خمسمائة ، وكرتباي

الأحمر والأمراء الذين يلونهم ، لما هجموا على الأمير تمتاز بباب السلسلة ، قبصوا عليه وقيده وأرسل الى السجن بئر الاسكندرية . فلما جرى ذلك ، وقع الاتفاق على سلطنة الناصر محمد ابن السلطان قايتباي ... فأحضروا الخليفة ، والقضاة الأربعة . وخلعوا الأشرف قايتباي من السلطنة ، وبايعوا ولده — من غير عهد له من أبيه — ولقبوه « بالملك الناصر » وكنى « بأبي السعادات » وكان تلقب بالمنصور أولا ، ثم قرر لقبه بالناصر . فلما انقضى أمر المبايع ، أحضر اليه شعار الملك ، وهي الجبه السوداء ، وقد فصلت على قدره ، ولقت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وتقلد بالسيف الحائلي ، وقدمت اليه فرس النوبة ، بالسرجه الذهب والكنبوش ، وركب من سلم الحراقة .

وكانت مبايعته في الساعة الرابعة من النهار ، والماضي من الشروق ثمان وأربعون درجة ، والطالع بالميزان .

فلما ركب تقدم قانصوه خمسمائة ، وحمل القبة والطير على رأسه — وقد ترشح أمره لأن يلي الأتابكية — فركب السلطان والخليفة معه ، ومشى بين يديه الأمراء ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وضربت له البشائر بالقلعة ، ونودي باسمه في القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ... وفي حال جلوسه على سرير الملك خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وخلع على قانصوه خمسمائة ، وقرره أميرا كبيرا عوضا عن تمتاز الشمسي . وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن أقبردي الدوادار . وخلع على تاني بك الجمالي وصيره نظام الملك مضافا لما بيده من امرية سلاح . وكان القائم في هذه الأمور وتديرها كرتباي الأحمر .

هذا كله جرى والأشرف قايتباى فى النزاع لم يشعر بما وقع من هذه الأمور ، ولو كان واعيا لما مكن الأمراء أن يسلطنوا ولده ، ولا كان هذا قصده .

وكان الملك الناصر لما تولى الملك له من العمر نحو أربع عشرة سنة وأشهر ، وقد قارب البلوغ ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكانت أمه جركسية تسمى أصلباى من مشترى الأشرف قايتباى . وكان الملك الناصر محمد هذا جميل الهيئة ، مليح الشكل ، وعنده عترسة ، وجراءة فى الأمور ، متحركا فى نفسه ، وعنده رهج وخفة ، ومما مدح به قول القائل :

ان العناصر فى سلطاننا اجتمعت

شمائل بهرت من حين مولده

قد ناسب النار عزما ، والهوا خلقا

والبحر جودا ، وملك الأرض فى يده

ولما كان يوم الأحد سابع عشرى هذا الشهر ، كانت وفاة الملك الأشرف قايتباى رحمة الله عليه . توفى بعد العصر من ذلك اليوم ، وبات بالقلعة . فطافت له نذراء بالقاهرة ، وهم يقولون : « يصلى غدا باكر النهار على العبد الفقير الى الله تعالى ، الملك الأشرف قايتباى ، رحمه الله » . فتأسف عليه الكثير من الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرىه ، وهو اليوم الثالث من سلطنة ولده ، شرع الأمراء فى تجهيزه وإخراجه . فغسل فى البيت الذى مات فيه ، وأخرج نعشه قدام الدكة التى بالحوش ، وصلى عليه هناك ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء والعسكر قاطبة ، وكانت جنازته مشهودة ، بخلاف من يموت من الملوك . فتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من زاوية سيدى عبد الله

المنوفى رحمه الله . فدفن بها وانتضت مدته من الدنيا كأنها لم تكن ، وزال ملكه بغد أن حكم بالبلاد الشامية والبلاد المصرية تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وهذه المدة لم تتفق لأحد من ملوك الترك قبله . وقد قيل فى المعنى :

ان الذى اغتر بالدنيا وزينتها

وظل فيها بحب المال مفتونا

أتت اليه المنايا وهى مسرعة

فأصبح الجسم تحت التراب مدفونا

قد فارق الأهل والأوطان وانقطعت

آماله وغدا فى القبر مرهونا

خلا بأعماله ما كان من حسن

أو من قبيح به قد صار مقرونا

وفى ذى الحجة فرق السلطان الملك الناصر الضحايا على العادة للعسكر .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف ، على جماعة من الأمراء منهم : أزبك اليوسفى الظاهرى حقيق المعروف بقشق ، وكسباى الزينى ، ويشبك العجمى المعروف بقمر ، وقرقاس بن ولى الدين .

وفيه كتب المراسيم بحضور الأمراء الذين كانوا أخرجوا الى النفى من حين كانت وقعة قانصوه خمسمائة وأقبردى ، وكتب بحضور قانصوه الشامى الذى كان قرر فى نيابة حماه ، وقرر عوضه بنبابة حماة أركمئاس أحد المقدمين بدمشق . وكتب بحضور قانصوه الألفى أيضا وبقيّة الأمراء المنفيين . وفيه ظهر تغرى بردى الاستادار ، وكان له مدة وهو مختلف تزيد على أربع سنين ، وكان قد فر خوفًا من السلطان قايتباى لما تجمد عليه مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل أحمد بن بهادر نائب قلعة صفد ، وكان لا بأس به ، وقد قتله كرتباى أخو أقبردى الدوادار . وكان كرتباى يومئذ نائب صفد ، فخرجت المراسيم بقبضه على يد خاصكى يقال له ألماس بن ولى الدين . فلما تحقق كرتباى ذلك ، ضرب عنق ألماس ، وأحمد بن بهادر نائب القلعة ، وخرج من مدينة صفد .

وفيه عينت نيابة صفد لبرد بك الطويل ، عوضا عن كرتباى بحكم صرفه عنها .

وفيه قرر القاضى عبد القادر القسروى فى نظر الجوالى ، وهذه أولى وظائفه .

وفيه عظم أمر الأتابكى قانصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ولا صلاة الجمعة . ثم أمر باخراج ممالك أقبردى الدوادار الى أماكن شتى من البلاد ، وكان قد تخوف منه .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى على الغزال ، وكان مقيما بخانقاه سرياقوس . وفيه فرق الملك الناصر جملة أقاطيع كانت فى الذخيرة من أيام الأشرف قايتباى ، وكانت نحواً من ألف اقطاع ، ففرقت على الممالك جميعاً ما بين أقاطيع ورزق وغير ذلك .

وفيه قرر جان بلاط الغورى فى نيابة القلعة عوضاً عن أيدكى .

وفيه قرر طراباى الشرفى أمير آخور رابع ، عوضاً عن تغرى بردى يونس السيفى الدوادار ، بحكم انتقاله الى أمرية الأخورية الثالثة .

وفيه قرر السيد الشريف عبد الرحيم الحموى فى كتابة سر دمشق ، عوضاً عن محب الدين الأسلمى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، وتوجه الى ابن عثمان فأكرمه .

وفيه قرر بخشباى فى مقدمة ألف بدمشق ، ثم تولى نيابة حماه فيما بعد .

وفيه قرر كرتباى الأحمر فى الوزارة والاستدارية وكاشف الكشاف ، مضافاً لما بيده من مقدمة ألف ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، فأظهر أشياء كثيرة من أنواع العدل ، منها أنه أبطل وظيفة نظر الأوقاف ، ونودى بذلك فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وأبطل عدة مكوس ومظالم ، وحجر على البردارية والرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة ، وأن أحداً منهم لا يقرر على أحد رسماً ... ولو دام كرتباى بمصر لحصل للناس به خير .

وفيه قبض على القاضى أبى المنصور صاحب ديوان أقبردى الدوادار ، فتسلمه الأمير جان بلاط الدوادار وضربه ضرباً مبرحاً ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه خلع على الأمير أقبای الطويل نائب غزة واستمر على نيابته بغزة ، وكان أشيع عزله لأنه كان من عصابة أقبردى الدوادار ... فلما أراد أن يتوجه الى غزة أخذ معه أقبردى الدوادار فى الخفية ، فلما بلغ قانصوه وكرتباى الأحمر أن أقبردى الدوادار خرج صحبة أقبای الطويل ، بعثا اليه والى الشرطة الى الخانقاه ، ففتشوا حموله حتى الحوايجخاناه ، وستر الله تعالى على أقبردى حتى خرج من القاهرة ، ولم يظفر به أحد . وهذا كان سبب خروج أقبردى من مصر وتوجهه الى غزة ، وكبسوا بسببه فى ذلك اليوم عدة أماكن ودور بالخانقاه ، حتى هجموا هناك الجوامع والزوايا ، وحصل الضرر الشامل بسبب ذلك للناس . وقيل انه لما خرج من الخانقاه ، فتشوا سنيح الأمير أقبای الطويل أيضاً ، وكان قد

اختفى أقبردى فى الدست الكبير الزخمية ، لما
حملوها على الجمل ، فستر الله عليه

وفيه نزل السلطان الملك الناصر من القلعة ،
وتوجه الى القرافة ، فزار وعاد الى القلعة ، وهذا
أول ركوبه فى حال السلطنة .

وفيه حضر الأمير خشكلى السيفى ، وكان
مقيما بدمشق من أيام الأشرف قايتباى رحمه الله
تعالى . فلما حضر أكرمه السلطان وكان من أمره
ما سنذكره فى موضعه .

وفيه كثرت الاشاعات بوقوع فتنة ، فبادر
الأتابكى قانصوه وقبض على جماعة من طائفة
الايالية ، نحو ستة عشر نفرا ، وأخرجوا مع
تقيب الجيش شيئا فشيئا ، وتوجهوا نحو البلاد .
فكان منهم برد بك المحدى ، وبرقوق ، ودولات
باى بن عيسى ، وآخرون .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على أقبردى
الدوادار ، وهجموا بسببه عدة دور فلم يجدوه ،
ولم يعلموا أنه خرج صحبة أقبای نائب غزة .

سنة اثنتين وتسعمائة (١٤٩٦ — ١٤٩٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام
المتوكل على الله عبد العزيز العباسى . وكان
سلطان العصر يومئذ الناصر أبو السعادات محمد
ابن الأشرف قايتباى . والقضاة الأربعة على
الحكم الأول كما تقدم ... وكان الأتابكى قانصوه
خمسائة ، ونظام الملك تانى بك الجمالى الظاهرى ،
والدوادار الكبير جان بلاط بن شبك ، والاستادار
كرتباى الأحمر .

وفيه خرج اصطمر بن ولى الدين ، ومعه عدة
من الجند ، بسبب القبض على أمير الحاج تانى بك
قرا الاينالى ، فلاقاه من عجرود وقيده ، وبعث به

من هناك الى نجر الاسكندرية ، فسجن بها مع
تمراز أمير كبير كان .

وفيه جاءت الأخبار بقتل عساف الحبشى ، نائب
صيدا وبيروت ، وكان من مشاهير الرؤساء ، وله
شهرة زائدة بتلك البلاد .

وفيه كانت نفقة البيعة على الجند ، فأنفق على
الجند على العادة ، ولكن لم يعط مائة دينار كاملة
لغير القايتباهية ، وأعطى من دون ذلك لكل واحد
خمسون دينارا ، وأنفق على أولاد الناس ثلاثين
دينارا .

وفيه أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وحلف
عليه سائر الأمراء والعسكر . ولم يطلع الأتابكى
قانصوه خمسمائة ، ولا حلف ... ولكن طلع بعد
أيام ، وحلف أيمانا غير صادقة ، كما يقال فى
المعنى :

خان اليمين وعهد الود قد فسحا

ولا ترى قط صدقا خالصا فسحا

وفيه قرر دولات باى بن أركماس الساقى فى
نيابة البيرة ، وخرج اليها عن قريب . ودولات باى
هذا هو الذى تولى الأتابكية بمصر .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على شمس الدين
الفرنوى امام أقبردى الدوادار ، وعاقبه أشد
العقوبة ، وتسلم أيضا المنصور وعاقبه أشد
العقوبة ، وجرى لهما أمور يطول شرحها ، وما
خلصا الا بعد جهد كبير . وكان السلطان له عناية
فى الباطن بجماعة أقبردى الدوادار .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على جماعة من الأمراء
العشراوات ممن كان من عصبه أقبردى الدوادار
منهم : اسنباى الأبراهمى المعروف بالأصم ،
وبرسباى السلحدار ، وجائى بك بن أزدمر المعروف
بالصغير ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وطقطباى
ابن برد بك الدوادار . ومن الخاصكية : تمراز

جوشن ، واینال الساحدار ، وقانصوه الساقى ،
وأبو يزيد الصغير وآخرون غيرهم . ولم يكن
ذلك باختيار السلطان .

وفيه توفي الشيخ حمزة بن محمد ابن حسن
ابن على بن عبد الحليم المغربى اليحياوى المالكى ،
وكان عالما فاضلا مقيما بالخاققاه الشيخونية ،
وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان للخليفة بأن يطلع الى
القلعة ليسكن فيها كما كان ساكنا من قبل . وكان
السلطان قايتباى رسم له بأن ينزل ويسكن
بالمدينة عندما حرق حاصل الخيام كما تقدم .

وفيه من الحوادث أن السلطان ضرب امرأة
بين يديه بالمقارع ، وشهرت على حمارة وفى عنقها
زنجير ، وهذا لم يعهد قط فلما طاش الملك
الناصر وخف ، وكل كرتباى الأحمر أربعة من
الخاصكية يمنعون من اللعب مع أولاد العوام ،
ومن كل تصرف فى شىء ، وصار تانى بك الجمالى
نظام الملك ، يبيت عنده كل ليلة بالقلعة ومع ذلك
ما ارعوى ، وما حصل من هذا طائل ، وزاد فى
الطيشان حتى خرج فى ذلك عن الحد . وكان منه
ما سنذكره فى موضعه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تقي تانى
بك قرا من عجرود ، فلما دخل المحمل طلبه
السلطان عنده بالقلعة ليراه ، ولم يكن رآه قط
قبل ذلك

وفيه أنعم السلطان بتقدمة تانى بك قرا على
قيت الرحبى .

وفيه أن من جملة طيشان الملك الناصر أنه خرج
لصلاة الجمعة ، وهو بغير كلوته بل بتخفيفه
منغيرة ، فشق ذلك على الأمراء ، وعابوا عليه
هذه الفعل .

وفى صفر خلع السلطان على قانصوه الشامى ،
الذى كان نائب حماء ، وقرره فى الرأس نوبة
الكبرى ، عوضا عن تانى بك قرا لما بقى أمير
مجلس ونفى الى الاسكندرية .

وفيه قرر فى مشيخة تربة الأمير يشبك بن
مهدى الدوادار الكبير كان ، الشيخ أبو النجا
الفوى الواعظ ، وكان من أهل الفضل .

وفيه من الحوادث أن الخليفة المتوكل على الله
عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى
بوظيفة لم يسمع بمثلها قط ، وهو أنه جعله على
جميع القضاة قاضيا كبيرا يولى منهم من يشاء ،
ويعزل منهم من يشاء ، مطلقا فى سائر ممالك
الاسلام وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضى
تاج الدين ابن بنت الأعز فى دولة بنى أيوب . فلما
بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل
الخليفة فى ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود
السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ، ولكن
الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا فلما
قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن
ذلك . وقال : « ايش كنت أنا ؟ الشيخ جلال
الدين هو الذى حسن لى ذلك ، وقال لى : هذه
كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من
يختارونه من العلماء » . ثم أشهدوا على الخليفة
بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان
كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادت أن
تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور
يطول شرحها ، ثم سكن الحال بعد مدة .

وفيه أشيع أن الأتابكى أزبك قد حضر من مكة
فى الخفية ، فاضطربت أحوال الممالك الجبلان ،
وكادوا أن ينشئوا فتنة . ولم يكن لتلك الاشاعة
صحة

وفيه عزل الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وتولى

القاضي محيي الدين عبد القادر القصري ، وكان الساعى فى ذلك جان بلاط الدوا دار ، وكان من أخصائه

وفيه ابتداء الأمراء المقدمون فى لبس التخافيف التى بالقرون الطوال ، وقد خرجوا فى ذلك عن الحد . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

بقول أميرنا لما تبدى

أنا فى الحرب ذو القرنين دعنى

أنا كبش وأعدائى نعاج

إذا برزوا فأنطحها بقرنى

وفيه خلع السلطان على قانصوه الألفى ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن شاد بك الخوخ ، بحكم انتقاله .

وفيه أنعم السلطان على دولات باى الفلاح ، بتقدمة ألف ، وصار من جملة المقدمين .

وفيه خلع السلطان على بخشباى ، وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، بعد ما كانت بيد غيره . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كرباى نائب ابيرة ، وكان قصد الحضور الى مصر فمات بعلبك .

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العينى ، وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن عبد القادر القصري

وفيه عزل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا أول موالده فلما جلس بين الأمراء اعتراه النعاس ، حتى رش الماء على وجهه كى يستفيق .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى تربة والده ، فزار قبره ، ثم توجه من هناك الى قبة الأمير يشبك الدوا دار التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل

وفيه خلع السلطان على كرتباى ابن عمه السلطان ، وقرره فى امرية الحاج بركب الحمل . وفيه قرر قانصوه الدوا دار يشبك فى امرية ميسرة بحلب ، ثم جرى عليه بعد ذلك أمور شتى . وفيه قرر قصره فى نيابة الكرك ، كما كان أولا .

وفيه قرر طومان باى الخازندار فى نيابة الاسكندرية ، فأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى القاهرة ... وطومان باى هذا هو الذى تسلمن فيما بعد ، وتلقب بالعاذل .

وفيه حضر الى القاهرة قانى باى الرماح ، وكان أتابكا بحلب وصرف عنها .

وفى ربيع الآخر سافر سيباى الدوا دار الثانى الى جهة غزة بسبب أقبردى الدوا دار وقد ثبت أنه عند أقبای نائب غزة ثم جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوا دار خرج من غزة هو وأقبای نائب غزة ، وتوجها الى البلاد الشامية ... فتأثر الأمراء لذلك ، وضربوا مشورة فى أمره ، فوقع الاتفاق على أن يكتبوا له بأمان من السلطان والأمراء ، فكتبوا له أمانا وأرسلوه له . وكل هذا عين الخداع .

وفيه قرر محمد بن أبى يزيد ، فى نظر اليمارستان المنصورى ، وكان قد عظم أمره فى تلك الأيام جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانصوه نائب قلعة الروم ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى قبة يشبك الدوا دار التى فى المطرية وبات بها ، ثم طلع الى القلعة وشق من القاهرة ، فزينت له وكان يوما مشهودا

حتى تنصف الليل ... فلم يشعروا الا وقد دخل
عليهم مصرباى الثور والى القاهرة ، فقبض على
الثلاثة ، وتوجه بهم الى نحو الجزيرة الوسطى ،
فقيل انه أغرقهم هناك . وكان هذا آخر العهد بهم
كما قيل فى المعنى :

لما رأيت الغدر منهم بدا
والبغض من أعينهم لى يلوح
فقلت للقلب ارتجع عنهم
ما قصدهم منك سوى أخذ روح

فلما كان يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ثامن عشره ،
صلى الأتابكى قانصوه العشاء ، وركب بمن معه من
الأمراء والعسكر ، وهجم وملاك باب السلسلة —
وكان قانصوه الألفى أمير آخور كبير ، فما أحوجه
يدق باب السلسلة ، ولا ينتظر الجواب .

فلما كان يوم الأربعاء صبيحة تلك الليلة جلس
الأتابكى قانصوه خمسمائة فى الحراقة التى بباب
السلسلة ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على
الله عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة .
 واجتمع عنده أربعة عشر مقدم ألف ، والعسكر
قاطبة ، من الأمراء والجند . فلما تكامل المجلس ،
مشوا مع الخليفة فى خلع الملك الناصر وتولية
قانصوه خمسمائة ... فخلع الناصر من السلطنة
بصورة شرعية ، وكتب بذلك صورة محضر ،
وشهد فيه جماعة كثيرة ، وبويع قانصوه خمسمائة
بالسلطنة ، وتلقب « بالأشرف أبى النصر » على لقب
أستاذة الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته قبل له
الأمراء الأرض والعسكر قاطبة ، وفودى له فى
القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص
والعام ، وخلع على شخص يسمى جانم أخا قانصوه
الألفى ، وجعله والى القاهرة ، وكان قانصوه
خمسمائة محبا للناس قاطبة ، بخلاف أقبردى ،

وفيه تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ،
وقتل الناس أمتعتهم من الدور . فلما كثر الكلام
فى ذلك أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وطلع
به الى القلعة ، وحلف عليه الأمراء والجند بأن
يكونوا كلمة واحدة ، ويكونوا عباد الله اخوانا ،
وأن الأمراء الذين هم من عصبة الأمير أقبردى
الدوادار يظهرون ويكونون واياهم شيئا واحدا ..
فوافق الأتابكى قانصوه خمسمائة على ذلك ،
وكذلك كرتباى الأحمر وبقية الأمراء . فلما جرى
ذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن الغياب الذين
من عصبة أقبردى يظهرون ، ولهم الأمان من
السلطان ... فعند ذلك ظهر شاد بك الخوخ الذى
كان أمير آخور كبير ، واينال الخفيف الذى كان
حاجب الحجاب ، وقائم قريب السلطان أحد
المقدمين بسمر ، وجانم مصبغة . فلما ظهروا
وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم السلطان كوامل
بسور ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشرى الشهر
المذكور .

ثم رسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى دار
الأتابكى قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ،
ويقبلوا يده . فتوجهوا الى هناك ، وقبلوا يد
الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ورجعوا الى بيوتهم .
فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم ، أرسل
الأتابكى قانصوه خلفهم وزعم أنه يضيفهم ويسد
لهم مدة ، فحضر اليه شاد بك الخوخ ، واينال
الخفيف ، وقائم قريب السلطان ، ولم يحضر
صحبتهم جانم مصبغة ، وكان صاحب رأى فى
فى عدم حضوره . فلما اجتمعوا عند الأتابكى
قانصوه طاولهم بالكلام ، ثم أحضر لهم سفرة
الشراب ، فشربوا ولم يجلس معهم شاد بك . ثم
فتحوا بينهم باب العتاب ، واستمروا على ذلك

فلما لم يبق سوى أن يفاض عليه شعار الملك ، ويركب فرس النوبة ، ويحمل على رأسه القبة والطير ، ويصعد الى القلعة ، ويجلس على سرير الملك ... وقع عند ذلك العجائب والغرائب كما يقال في المعنى :

ستقضى لنا الأيام غير الذي قضت

ويحدث من بعد الأمور أمور

ثم ان قانصوه خمسمائة بعث بعض الأمراء الى القلعة ، بأن يقبض على الملك الناصر ، ويدخله الى قاعة البحرة . فتعصب له جماعة من مماليك أبيه الذين كانوا بالطباق وجمداريته وكتابه ، وكانوا نحو من ألف مملوك . وكان رأس الجلبان قانصوه خال الملك الناصر ، فمنعوه من دخول قاعة البحرة ومن اعطائه الترس والنمچاه ولم يكن عند الناصر أحد من الأمراء ، فقام قانصوه في محاربة قانصوه خمسمائة أشد القيام . وقاتل هو والجلبان قتال الموت ، فملكوا في ذلك اليوم رأس الصوة وسلم المدرج والطبلخاناه ... وعمد قانصوه خال السلطان الى الزردخانه ففتحها ، وأخرج منها زرديات ، وخوذا وقسيا ونشابا ، وفرقها على المماليك الجلبان . وكان البدرى حسن بن الطولونى نائبا بالقلعة ، فأحضر النجارين والحجارين ، فعملوا أشياء من الطوارق والمدافع . وكان عند الملك الناصر عدة وافرة من العبيد رماة ، ما بين بندق رصاص ونفطية ، فحاصروا قانصوه خمسمائة وهو بباب السلسلة أشد المحاصرة . ثم ان كرتباى الأحمر توجه خلف القلعة ، ونصب مكحلة على الجبل المقطم تجاه القلعة ، ورمى بها على الحوش السلطانى فلم يقد ذلك شيئا ... ثم ان قانصوه خمسمائة نادى في القاهرة بأن أولاد الناس النفطية تطلع الى باب السلسلة ويسيتون بها ، فلم يطلع اليه أحد منهم ، فاستمر قانصوه في

المحاصرة ، وهو مقيم بباب السلسلة ، والخليفة والقضاة الأربعة والأمراء عنده واستمر على ذلك يومى الأربعاء والخميس .

فلما كان يوم الجمعة ، مستهل جمادى الآخرة ، وقع في ذلك اليوم واقعة مهولة وقت صلاة الجمعة ، وأحرق المماليك الذين بالقلعة سقيفة الاصطبل السلطانى بحراريق وبارود رموه عليها ، فاحترق الاصطبل ، وصار المقعد الذى بباب السلسلة مكشوفاً ، فخاف قانصوه خمسمائة على نفسه أن يرموا عليه شيئا من فوق . وكانت سقيفة الاصطبل تمنع الرمى عن المقعد الذى بباب السلسلة . فلما رأى قانصوه خمسمائة عين الغلب ، ركب ونزل من باب السلسلة ، ووقف عند سبيل المؤمنين ، فحرر عليه بعض الرماة بكفيه وقيل ببندقية ، فجاءت على طرق أذنه جواز ، فسقط عن فرسه الى الأرض ، وقد أغشى عليه وغاب عن الوجود ، فحملة الغلمان على أعناقهم ، وبقي لباسه بتكته بائنا للناس ، ورأسه مكشوف وعليه زنط أقرع . فنزلوا به من الصليبة وهو على هذه الهيئة . فلما وصلوا به الى المدرسة الجاولية أركبوه على حمار . وهو مغشى عليه لا يدرى ما جرى له . فلما وصلوا به الى درب الشمسى اختفى في مكان هناك . وكانت هذه الواقعة من أعجب الوقائع كما قيل :

وبين اختلاف الليل والصبح معرك

يكر علينا جيشه بالعجائب

فلما انكسر قانصوه ، وخرج من باب السلسلة على أنحس حال ، نزل المماليك الجلبان من القلعة الى باب السلسلة ، ونهبوا كل ما فيه من سلاح وقماش وغير ذلك ، ونهبوا طشتخانه الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم ، وما

سلم الخليفة والقضاة من القتل الا السلامة . وقتل
في هذه الحركة جماعة من الجند ، وقتل شخص من
الأمراء العشراوات ، يقال له كمشبغا ، وكانت
النصرة للملك الناصر على قانصوه خمسمائة على
غير القياس ، بعد أن ملك باب السلسلة ، وبإيعه
الخليفة ، وتلقب بالأشرف ، واجتمع عنده سائر
الأمراء المقدمين — من الظاهرية الحقيقية ،
والتائبية وسائر العسكر من كبير وصغير —
وقبلوا له الأرض قاطبة . فأورث الخذلان واتصر
عليه الملك الناصر ... وكان قد استخف به لضغر
سنة وقلة عصبته ، فكان كما قيل في المعنى :

ولا تحقرن صغيرا رماك

وان كان في ساعديه قصر

فان السيوف تحز الرقاب

وتعجز عما تنال الابر

وقال آخر :

لا تحقرن كيد الصغير قريبا

تموت الأفاعي من سموم العقارب

وقال آخر :

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة

ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

فلما كان يوم السبت مستهل جمادى الآخرة
طلع الخليفة الى القلعة والقضاة الأربعة يهثون
السلطان بالشهر ، وبهذه النصرة التي حصلت له .
ثم ان الخليفة أعاد الناصر الى السلطنة وبإيعه ثانيا ،
وكان خلع من السلطنة ، وأقام ثلاثة أيام الى أن
عاد اليها . وقيل ان الملك الناصر رشد في ذلك اليوم
وثبت رشده . وأباحوا له التصرف في المملكة بما
يختار . ثم انه خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ،
وضربت البشائر بالقلعة ، وتخلق جماعة السلطان

بالزعفران ، وفرق على الخاصكية سلاريات حرير
أصفر بسنجاب ، وتوشحوا بالبند الحرير الأصفر .
وفي ذلك اليوم رسم السلطان بالافراج عن
الأتابكي تمتاز الشمسي ، وتانى بك ، فتوجهوا
بالمراسيم الى ثغر الاسكندرية الى مغلباي الشريفى
وهو الآن الزردكاش الكبير . وكتب السلطان أيضا
مراسيم الى أقبردى الدوادار بالحضور ، وتوجه
اليه جاني باي .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على اينال
السلحدار ، وقرره في ولاية القاهرة ، عوضا عن
مصرياى الثور ، بحكم اختفائه . وصرف نظر
الجيش عن عبد القادر القسروى ، وأعيد اليها
الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وقرر
البدرى محمد بن كمال الدين ناظر الجيش في نظر
الجوالى عوضا عن الناصرى محمد بن العينى بحكم
صرفه عنها . وقرر شمس الدين الفرنوى في نظر
الأحباس ، عوضا عن محمد بن مزاحم الطرابلسى .
وعين الأمير سودون العجمى في نيابة الاسكندرية
عوضا عن قانى بردى البهلوان ، وأرسل بالقبض
عليه . فلما جرى ذلك وقع النهب في بيوت الأمراء
الذين اختفوا لما انكسر قانصوه خمسمائة . وأقامت
القاهرة نحوا من أربع عشرة ليلة لم يدق فيها
طبلخانات بموجب اختفائهم . واضطربت الأحوال .

وفي هذه المدة كابت القلعة شاغرة لم يقم بها
خدمة ، ولا يصعد اليها أمير ، والاشاعات كل ليلة
قائمة بوقوع فتنة . وكثر القال والقليل في ذلك ،
وامتنع الناس من السفر الى الشرقية والغربية ،
لتزايد فساد العريان في الطرقات ، والقاهرة مائجة
بأهلها يترقبون فتنة كبيرة .

وفيه من الوقائع أنه لما انكسر قانصوه خمسمائة
توجه في ذلك اليوم قانصوه الشامى ومصرياى ،

والى القاهرة ، فخرجوا على جرائد الخيل الى بر
الجيزة ، ونوجها من هناك الى نهر الاسكندرية ،
ليقتلا الأتابكى تماراز وتانى بك قرا - وكانا
بالسجن كما تقدم - وكان قانى بردى
البهلوان ، أخو قانصوه خمسمائة ، يومئذ نائب
الاسكندرية ... فلم يشكا بأن نائب الاسكندرية
يمكنهما من قتل الأتابكى تماراز وتانى بك قرا .
وكان تدبيرهما فى يد غيرهما ، فينما هما فى أثناء
الطريق ، اذ خرج عليهما جماعة من العربان فى
تروجة فتحاربوا معهم ، فانكسروا وقبضت عليهما
العربان ، فقتل مصرى الثور ، وحزت رأسه
وعلقت على باب الاسكندرية . وأما قانصوه الشامى
فقبضوا عليه ، وأحضروه الى الاسكندرية ، فسجن
بالبرج الذى كان فيه الأتابكى تماراز ... والمجازاة
من جنس العمل . وكانت مدة سجن الأتابكى
تمراز بالاسكندرية ستة أشهر وأياما ، وكذلك
تانى بك قرا بعده بمدة يسيرة ، وأخرجوا من
السجن معا . وقد قيل :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان يدري

فأقام قانصوه الشامى أياما فى السجن بشهر
الاسكندرية .

وفيه بعث السلطان مراسيم على يد قانصوه
دوادار الأمير شاد بك الخوخ الذى قتل ، بضرب
عنق قانصوه الشامى . فلما وصلت المراسيم الى
نهر الاسكندرية أخرج قانصوه الشامى من برج
الاسكندرية ، وتوجه به الى آخر المدينة وضرب
عنقه . قيل وكان المشاعلى غائبا والذى ضرب عنقه
كان صبي المشاعلى . وقيل انه ضربه ثلاث ضربات
حتى أطاح رأسه وعذبه غاية التعذيب . وذلك أن
قانصوه دوادار شاد بك الخوخ أخذ بشأه أستاذ

منه ، وعلقت رأسه على باب الاسكندرية ، وهى
مشهورة ، فكان أول من قتل من الأمراء . وكان
شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية وكان لا بأس به
وفى أثنائه وصل الأتابكى تماراز وتانى بك قرا
فخرج الناس الى ملتقاهم ، وطلعا الى القلعة فى
موكب حافل ، وعليهما الملايط الطرح . فلما قابلا
السلطان خلع عليهما ، ثم أعاد تماراز الى الأتابكية
عوضا عن قانصوه خمسمائة . وخلع على تانى بك
قرا وقرره فى امرية مجلس ، عوضا عن أزبك
اليوسفى المعروف بالخازندار ، وأنعم على قانى بك
المعروف بنائب الاسكندرية ، وقرره من جملة
المقدمى الألوف . وقرر خشكلى فى استدارية
الصحبة . وعزل اينال السلحدار عن ولاية القاهرة ،
وقرر بها قانصوه الفاجر عوضا عن اينال .

وفيه أنعم السلطان على مصرى الشرفى شاد
الشرابخانة بتقدمة ألف ، وخلع على خاله المقصر
السيفى قانصوه بن قانصوه ، وقرره فى شادية
الشرابخانة وأنعم عليه بامرية طبلخاناه وهذا أول
ظهوره بمصر واشتهاره ... وكان من جملة ممالك
السلطان الجندارية ، ولم يكن خاضكيا ، فخدمه
السعد جملة واحدة ، واستمر يرتقى الى أن بقى
سلطانا ، كما سيأتى ذكره فى موضعه ... فلما بقى
شاد الشرابخانة اجتمعت فيه الكلمة ، وصار
صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار يسعى
لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت الناس على
أشغالها فى رد جوابه . فهذا كله جرى وقانصوه
خمسمائة من حين انكسر مختف . والاشاعات قائمة
بوقوع فتنة كبيرة . وصار الناس على رءوسهم
طيرة .

ثم أشيع بين الناس أن الممالك الذين من عصبة
قانصوه خمسمائة ، يفصدون قتل الأتابكى تماراز

وتانى بك قرا ، فرسم لهما السلطان بأن يطلعا الى القلعة ، ويقيما بها حتى يكون من الأمر ما يكون فطلع الأتابكى تراز وتانى بك قرا وأقاما فى الجامع الصغير ، الذى هو داخل الحوش السلطانى أياما . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، ظهر الأشرف قانصوه خسمائة من مكان فى درب المرسينة ، الذى عند قناطر السباع ، وكان قد أشيع بأنه قد خرج على وجهه من حين انهزم من الرميطة . فلما ظهر تسامع به من كان من عصبته ، وأتوا اليه أفواجا أفواجا ، فركب من هناك وتوجه الى الميدان الناصرى الذى عند البركة ، وعلى رأسه صنجق . فلما تسامع به العسكر حضر عنده جماعة من الأمراء ، ممن كان من عصبته واختفى يوم الهزيمة ... فحضر قانصوه الألفى وجان بلاط بن يشبك ، وماماي ، وقرقماس بن ولى الدين ، وقانصوه المحدى ، وقيت الرحبى ، وكرتبای الأحمر ، وكسباى الشرفى ، ويشبك قمر ... فهؤلاء مقدمو ألوف . وحضر من الأمراء الطبلخانات والعشراوات جماعة كثيرة . فلما تكاثر هناك العسكر ضاق بهم الميدان ، فحسن ببال قانصوه خسمائة أن يأخذ العسكر ويتوجه الى الأذربكية ، فتوجه الى هناك ، ونزل بدار الأتابكى أذربك ، فلم يحضر اليه من العسكر الا قليل ، فتلاشى أمره وبان عليه الخذلان ، وهو لا ينتهى عما هو فيه . كما يقال فى الأمثال : « الموت فى طلب النار ، ولا الحياة فى العار » .

وقال آخر :

فموتى فى الوغى عيشى لأنى

رأيت العيش فى أرب النفوس

فبات تلك الليلة هناك فى الأذربكية ، فلما أصبح

يوم الأربعاء انسحب من كان عنده من العسكر ،

ولم يبق عنده منهم لا قليل ولا كثير ، وتوجه الأمير كرتبای الأحمر الى المطرية وخليج الزعفران ، لأجل أخذ الخيول ، فانها كانت فى الربيع . وبلغ قانصوه خسمائة أن الممالك الجلبان نازلة من الطبقات وهم مشاة ، وقد وصلوا الى رأس البندقانيين . فلما تحقق ذلك ، طلب الفرس وركب هو ومن عنده من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، نحو من عشرين أميرا والطواشى فيروز الزمام ، ومنهم قايتبای الأقرع الزردكاش ، وبرسباى الخفيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس الشريفى المحتسب ، واسنبای البشر ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى المصارع ، وأزدمر الخازندار ودولات باى جركس ، وتمرباى المحدى كاشف الشرقية ، وسودون اندوادر ، وطومان باى أخو الأمير جانم ، وآخرون من الأمراء . فخرجوا من الأذربكية بعد طلوع الشمس ، وهم على جرائد الخيل ، وتوجهوا نحو خانقاه سرياقوس بعد أن أخذوا خيول السلطان وغيره من الربيع ، وكان آخر العهد بهم ، وقد قتلوا أجمعين كما سيأتى ذكره . فكانت هذه ثالث كسرة وقعت لقانصوه خسمائة . وكان أرشل معكوس الحركات فى سائر أفعاله لم يطب طبه ، وكان ذلك خذلانا من الله تعالى له . وقد قيل فى المعنى :

على البرء أن يسعى لما فيه نفعه

وليس عليه أن يساعده الدهر

فان نال بالسعى المنى تم سعده

وان حالت الأقدار كان له العذر

فلما وصل الممالك الجلبان الى الأذربكية ،

وجدوا قانصوه قد تسحب منها . وكان الأتابكى

تمراز نزل مع جماعة من الجلبان من على باب

الخرق ، وأتوا الى الأذربكية ، والجماعة الثانية مع

ثاني بك قرا نزلوا وتوجهوا من البندقانيين من على
قنطرة الموسيقى . وأتوا الى الأزيكية من هناك
فلم يجدوا بها أحدا ... فأحرقوا طبلحانة الأمير
أزبك ، ونهبوا داره والربوع التي هناك ، ونهبوا
قناديل الجامع والحصر التي به . وكان هناك
حواصل للأتابكي فيها خيام ونشاب فنهبوا ذلك
جميعه ، ونهبوا دور سكان الأزيكية . فكان كما
يقال :

غيري جنى وأنا المعذب فيكم

فكأننى سبابة المتندم

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه خسمائة لما
خرج من الأزيكية قصد التوجه الى غزة ، ليقتل
أقبردى الدوادار ولكن فاته الشنب . وكان مقيما
عند أقبای نائب غزة ، وكان السلطان أرسل خلفه
ليحضر الى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا
له بكسرة قانصوه خسمائة : فقصده التوجه الى
الديار المصرية ، فلما خرج من غزة ووصل الى خان
يونس الذى هناك ، فلم يشعر الا وقد دهمته
عساكر قانصوه خسمائة ، ولم يكن عنده علم
بذلك فأحاطوا به . وكان بينهما واقعة قوية مهولة
فانكسر أقبردى الدوادار ودخل الى خان يونس ،
وأغلق عليه الباب ، فحاصره قانصوه خسمائة أشد
المحاصرة ، وأحرق باب الخان ، وأشرف أن يظفر
به . فلما رأى أقبردى عين الغلبة طلب من قانصوه
خسمائة الأمان ، فلم يعطه الأمان . فبينما هو على
ذلك وقد دنت الشمس للغروب ، وإذا بأقبای
نائب غزة ، وإينال باى نائب طرابلس ، وشيخ
العرب ابن نبيعه ، ومعهم جماعة من العربان والعشيرة
أتوا ليتوجهوا مع أقبردى الى القاهرة ، فوجدوه
في المحاصرة وهو في خان يونس ، فكان كما يقال
« في أضيق الوقت يأتى الله بالفرج » ، فكان بينهما

واقعة لم يسمع بمثلها ، فلما حال بينهما الليل
انكسر قانصوه خسمائة ومن معه من الأمراء
والعسكر ... وهذه رابع كسرة وقعت لقانصوه
خسمائة ، فكان كما يقال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة

حتى تروم التي من دونها العطب

فكان أول من أسر من الأمراء مامای بن
خداد ، فحزت رأسه بين يدي أقبردى ، ثم حزت
رأس فيروز الزمام ، وحزت رأس سودون
الدوادار . وأما قانصوه خسمائة ، فمن الناس
من يقول انه قتل في المعركة وحزت رأسه ،
وأخذت فرسه ، والهيكل التي كان حاملها ، ومن
الناس من يقول انه لما انكسر ، وحال بينهما الليل
ركب فرسه ، وكان مجروحا فنجأ بنفسه ، ولم
يعلم له خبر . والأصح أنه قتل وحزت رأسه ،
وأحضرت بين يدي أقبردى ، ودخلت رأسه الى
القاهرة وهى على رمح ، وصار الناس بعد ذلك
يشكون في قتله الى الآن ، ويزعمون أنه باق في
قيد الحياة الى الآن ، وهذا من الأمور المستحيلة .
وقد قضى الأمر في قتله . فلما كان صبيحة يوم
الواقعة ، صار أقبردى يقبض على الأمراء الذين
كانوا صحبة قانصوه خسمائة ، فقبض عليهم من
الغيطان التي هناك والخانات فأمسك منهم
قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قسر .
ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن
عشرين ممن تقدم ذكرهم ، فلما قبض عليهم
قيدهم ، وقبض على جماعة من الخاصكية ممن
كان صحبة قانصوه خسمائة . واستمروا في
أسره حتى كان من أمرهم ما سنذكره في موضعه .
هذا ما كان من أمر قانصوه خسمائة وأقبردى
الدوادار . وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد
حركة قانصوه خسمائة ، فانه صار مع ممالك

أييه في الضنك وهو يهدد كل يوم بالقتل ، حتى امتنع من صلاة الجمعة ، وصار الأتابكي تمارز في غاية المشقة ، وقد وعد بالقتل غير ما مرة

وفيه ، في يوم السبت تاسع عشره ، وقعت قلقلة بين المماليك والأمراء بالقلعة ، فقال المماليك للأمراء : « غيروا لقب السلطان ولقبوه بالأشرف على لقب أييه » ، فطال الكلام في ذلك . فقالت الأمراء : « كيف يكون هذا الأمر بعد ما خرجت عدة مناشير ومربعات الى البلاد الشامية باسم الملك الناصر . فكيف يغير لقبه بالملك الأشرف ؟ » فقال المماليك : « لا بد من ذلك » وصمموا على قولهم . فعند ذلك غير لقبه ، ونودي في القاهرة بأن السلطان تغير لقبه وتلقب بالملك الأشرف ... فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء منهم من يخطب باسم الملك الأشرف . وكان سبب تغير لقب السلطان أنه أخرج خرجا من المماليك ، فصاروا يسمون الناصرية ، ومماليك أييه يسمون الأشرفية ، فصارت المماليك الناصرية أرجح كفة من المماليك الأشرفية ، فما أطاقوا ذلك ، وقالوا « لقبوا السلطان بالأشرف ، ونصير كلنا أشرفية » . فما زالوا على ذلك حتى فعلوه . وتقرب هذه الواقعة مما اتفق للملك الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون الألفى ، أنه تسلطن أولا وتلقب بالملك الصالح ، الى أن خلعه الظاهر برقوق من السلطنة وتسلطن عوضه . فلما أعيد الى السلطنة ثانيا ، وخلع برقوق من السلطنة في فتنة يلغا الناصري ومنطاش ، غيروا لقبه بعد مضي ثمانية أشهر ، ولقبوه بالملك المنصور . وقد تقدم سبب ذلك . وفيه كثر الاضطراب بالديار المصرية ، وامتنع الأمراء من طلوع الخدمة ، وكثر بين الناس القال

والقيل بأن المماليك يقصدون الهجوم على السلطان ويقتلونه ... فرسم السلطان بسد باب السلسلة ، وباب الميدان ، وباب الحوش الذي يلي العرب ، فسدوها بالحجر واستمروا على ذلك مدة طويلة . فكان الناس يطلعون الى القلعة من باب المدرج فقط ، ويطلعون الى باب السلسلة من الباب الذي عند الصوة تحت الطبلخانات .

وفي رجب خلع السلطان على ابن سيف وقرره في أمرية آل فضل عوضا عن أييه . وفيه رسم السلطان بنفى أزبك قشق الظاهري حقيق .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف على برد بك نائب جدة ، ومصرباى وقرقماش التنى .. ولكن لم يتم له ذلك فيما بعد ، وقرر في نيابة غزة عوضا عن أقبای كما سيأتى الكلام عليه .

وفيه أنعم السلطان أيضا على قانى بك نائب الاسكندرية ، وصار من جملة المقدمين ، وقرر مغلباى البجقدار فى الخازندارية الكبرى .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار ، وفتحوا عدة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق تحت الربع ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما فيها .

وفيه قبض الملك الناصر على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، وأودعه بالطشتخاناه التى بجوار البحرة ، وقرر عليه أموالا لا يقدر عليها ... وهذه أول نكباته ، وقاسى من البهدة والانكاد ما يطول شرحه ، واستمر بعد ذلك فى النكبات ، وهى تترادف عليه شيئا بعد شيء ، حتى كان فيه هلاكه كما سيأتى ذكر ذلك ... وكان سبب ذلك أنه يوم مبايعة قانصوه خمسمائة ، كان هو المذبذب له ، وأظهر البشر والفرح فى ذلك

اليوم ، فصار له ذنب عند الملك الناصر بسبب ذلك . ومن جلسة ما قاساه أن الناصر لكمه على عينه فنفرت من مكانها ، وكادت أن تذهب ، وأقام أياما وعينه مرفودة . وهو في التوكيل به أياما حتى أورد مالا له صورة مسا قرر عليه .

وفيه رسم السلطان للأتابكي تراز والأمير تاني بك قرا بأن ينزلا الى دورهما ، وكانا بجامع القلعة من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، كما تقدم ذكر ذلك . وخلع عليهما ، ونزلا الى دورهما في غاية التعظيم

وفيه جاءت الأخبار بنصرة أقبردى الدوادار على قانصوه خمسمائة ، فلما تحقق السلطان ذلك نادى في القاهرة بالزينة ، ودقت البشائر بالقلعة .

وفيه في يوم الخميس رابع رجب جاءت رءوس من قتل في المعركة على خان يونس ، كما تقدم ذكر ذلك ، فكان عدة الرءوس التي حضرت الى القاهرة أربعة وثلاثين رأسا ، وهي معلقة على رماح ، وينادى عليها : « هذا جزاء من يخامر ويعصى على السلطان » . وكان من جملة تلك الرءوس رأس ماماي بن خداد أحد المقدمين ، وكان رئيسا حشما وافر العقل شجاعا بطالا ، وكان من خواص الأشرف قايتباي ... توجه قاصدا الى ابن عثمان غير ما مرة ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، وهو الذي جدد الدار المعظمة التي بين القصرين ، وصرف عليها جملة مال عظيم . ومن جملة الرءوس رأس فيروز الطواشي الزمام ، فلم يرث له أحد من الناس ، ولا أثنى عليه خيرا ، وكان عنده خفة وطيئش . ومن الأمراء العشراوات : بخشبای ابن عبد الكريم ، وتربای كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار . ومن الخاصكية عدة وافرة ، منهم قايتباي بن قيت الرحبي ، وخاير بك دوادار

الأتابكي أزيك ، وأزيك البيري السيفي جاني جدة وآخرون من الخاصكية المماليك السلطانية . وكان آخر الرءوس الذي تسلطن - وما كان أغناه عن هذه السلطنة - فصنعوا له عيونا من زجاج حتى يعرف بها من بين الرءوس .

وكان قانصوه خمسمائة أميرا جليلا موصوفا بالشجاعة ، وافر العقل ، كثير الأدب والحسنة . ويقال كان أصله من ممالك الملك الظاهر خشقدم ومن كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي ، وأعتقه فهو من عتقائه . وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، والأميراخورية الكبرى ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، ثم تسلطن وتلقب بالأشرف ، وأقام في السلطنة ثلاثة أيام ، وخرب بسببه عدة دور ، وقتلت جماعة كثيرة من الأمراء . وكان قانصوه خمسمائة ليس له سعد في حركاته ، وقتل وهو في عشر الحسين . فلما عرضوا تلك الرءوس شك أكثر الناس بأن هذه ليست برأس قانصوه خمسمائة ، واستمروا على ذلك الى الآن . والأصح أنها رأسه ... فأمر السلطان أن تعلق بباب زويلة وباب النصر ، واستمرت الكئوسات تدق بالقلعة سبعة أيام ، وكذلك يبوت الأمراء المقدمين .

ثم أن أقبردى الدوادار أرسل يشاور السلطان في أمر هؤلاء الأمراء الذين أسروا بخان يونس ، فبرزت اليه المراسيم الشريفة بقتلهم أجمعين . فلما وصل أقبردى الى الخطارة سلم هؤلاء الأمراء الى شيخ العرب أحمد ابن قاسم بن بقر ، فأتى بهم الى فاقوس وقتلهم أجمعين تحت جميزة كانت هناك . ثم رموهم ببركان كانت هناك ، وانقضت أخبارهم . وقيل ان الذي باشر قتلهم تاني بك أبو شامة ، وقتل تاني بك أبو شامة بعد مدة يسيرة كما سيأتي الكلام عليه ... ومثل ما تعمل شاة الحمى

في القرظ يعمل القرظ في جلدها . فكان عدة من قتل هناك من الأمراء نحو من خمسة عشر أميرا . منهم مقدمو ألوف ثلاثة ، وهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . وكان قانصوه الألفى من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير آخور . وكسباى الزينى تولى حاسبة القاهرة ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف . ويشبك قمر تولى ولاية القاهرة ، ثم مقدم ألف ... ومات بقية الأمراء شرميتة ، حتى قيل ان العرب قطعوا أرجلهم بالخناجر حتى أخذوا منها القيود الحديد ، وألقوهم هناك فى بئر خراب .

وأما من قتل هناك من الأمراء الطبلخانات . فالأمير قايتباى الأقرع الزردكاش الكبير ، وبرسباى الحسيب أمير آخور ثانى ، وقرقماش الشريفى المحتسب ، واسنباى المبشر استادار الصجبة ، وتمر باى ، وتمرار الشيخ ، ودولات باى بن جركس ، وأزدمر الخازندار ، ودولات باى المصارع وآخرون من الأمراء العشراوات . وقد تقدم القول على ذلك . وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع وأبشعها . وكان قانصوه خمسمائة لما تسحب من الأزيكية وقصد التوجه الى غزة ، أخذ عدة خيول للسلطان وللناس ، كانت فى المرباط على البرسيم فى زمن الربيع فحصل بسبب ذلك غاية الضرر . وكانت تلك الأيام كلها اضطرابا .

وفيه أرسل السلطان الملك الناصر يستحث أقبردى الدوادار على الدخول الى القاهرة ، وكان ظن أن الوقت قد صفا له ، ولكن حدث بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها .

وفيه خلع السلطان على جوهر المعينى ، وقرره فى الزمامية ، عوضا عن فيروز الرومى ، بحكم

قتله كما تقدم . وقرر عبد اللطيف الرومى فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن فيروز أيضا . وفيه أنعم السلطان على قانى باى الرماح بتقدمة ألف ، وكان أمير عشرة ، وولى نيابة صهيون قبل ذلك .

وفيه خلع السلطان على أبى يزيد الصغير ، وقرره فى باشية مكة المشرفة ، وكان ذلك باختياره خوفا على نفسه من القتل والفتن .

وفيه من الحوادث أن ممالك الأتابكى تمارز قتلوا شخصا من خواصه يقال له محمد البارنبالى ، وكان من وسائط السوء عند تمارز ، وكان صاحب ديوانه ومباشره . فما أطاق الممالك فعله فقتلوه وهو جالس بباب الأتابكى تمارز . وتعصب لهم بعض ممالك السلطان ، فلم يطلع من يد الأتابكى تمارز فى حقهم شئ ، وراح القتل فى كيس محمد البارنبالى .

وفيه ابتداء الملك الناصر فى الطيش ومخالطة الأوباش والأطراف ، وحملت اليه مركب صغيرة فجعلها فى البحرة ، ووضع بها حلواء وفاكهة وجبنا مقليا ، وصار ينزل فى المركب بنفسه ، ويبيع كما يصنع البياعون فى المتفرجات ... وكان كل ذلك خفة لصغر سنه . ثم انه عرض المحاييس فأطلق منهم جماعة ، وأمر باتلاف سبعة أنفار من المفسدين كانوا معهم فى السجن ، ثم أدخلهم الى الحوش الذى قدام باب قاعة البحرة ، فوسطهم بيده وعلمه المشاعلى كيف يوسط ، ثم قطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده ، والمشاعلى يعلمه كيف يصنع . وهذا كله من أقبح الفعال التى لا تليق بالملوك ، ولكن قصد أن يمشى على طريقة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وهى أنحس طريقة .

وفى يوم الأحد رابع عشر رجب ، كان دخول أقبردى الدوادار الى القاهرة ، فزينت له ودخل

في موكب حافل ، وطلب طلبا عظيما ، وكان له يوم مشهود . ودخل معه من الأمراء أقبای نائب غزة ، واينال باي نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابراهيم ابن نبیعة ، وجماعة من الأمراء والخاصكية ممن كان من عصيته وفر معه ، منهم : برد بك الحمدي الخازندار الاينالي ، ودولات باي ، ومغلباي عسل نحل ، وجانم الأجروود ، فهؤلاء من الاينالية . وأما من كان من القايتباهية فهم : اسنبای الأصم ، وبرسباي السلحدار ، وجاني بك الصغير ، وآخرون . وأحضر صحبته جماعة ممن كان فر مع قانصوه خمسمائة من الخاصكية والماليك السلطانية ممن أسر منهم ، وهم في جنازير حديد ، فقصده أقبردي أن يدخل بهم قدامه وهم في جنازير ، وكانوا نحو مائتي انسان ، فتعصب لهم خشداشينهم وقالوا : « متى فعل ذلك قتلناه » فرجع عن ذلك . وكان أحضر معه رأس قانصوه الألفي ، وكسباي الزيني ، ويشبك قمر ، الذين قتلوا في الخطارة . وقصد أن يشهرهم على الرماح قدامه لما يدخل الى القاهرة ، فلم يجسر يفعل ذلك . ولكن عرضهم على السلطان فيما بعد في الخفية ، ولم يشعر بهم أحد . فلما شق القاهرة وطلع الى القلعة خلع السلطان عليه وعلى من جاء صحبته من الأمراء ، وعلى شيخ العرب ابن نبیعة ، ونزلوا الى دورهم .

ثم ان الملك الناصر قصد أن نفتك بالماليك الذين حضروا صعبة أقبردي ، ممن أسر على خان يونس ، فما جسر على ذلك وخشى من وقوع فتنة ، فما وسعه الا أن عفا عنهم ، وأنفق على كل واحد منهم عشرة دنانير وأطلقهم ، وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وحضر الأتابكي تميز ، وتاني بك قرا أمير مجلس ، وأقبردي

الدوادار . ثم أحضر المصحف العثماني الى القلعة فحلف عليه الأتابكي تميز وتاني بك قرا وأقبردي الدوادار — ولم يكن حلفهم قبل اليوم — بأنهم لا يخامرون ولا يعصون ولا يركبون على السلطان ، فحلفوا على ذلك .

ثم انه خلع على أقبردي الدوادار ، وقرره في امرية سلاح عوضا عن تاني بك الجمالي بحكم أنه اختفى ، وقرره أيضا في الدوادارية الكبرى عوضا عن جان بلاط بن يشبك بحكم اختفائه ، وقرره أيضا في الوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، عوضا عن كرتباي الأحمر بحكم اختفائه أيضا . فصار كما كان يشبك بن مهدي ، وكان نهاية سعد أقبردي فأقام على ذلك مدة يسيرة نحو من شهرين . وكان من أمره ما سذكركه في موضعه .

وفيه قرر كرتباي أمير آخور كبير ، عوضا عن قانصوه الألفي بحكم قتله .

وفيه خلع السلطان على أقبای نائب غزة وقرره في رأس نوبة الكبرى عوضا عن قانصوه الشامي بحكم قتله بالاسكندرية . وأنعم على جانم الأجروود كاشف منفلوط بتقدمة ألف ، وأنعم على برد بك الحمدي بتقدمة ألف ، وأنعم على كرتباي أخى أقبردي بتقدمة ألف ، وقرر اينال باي نائب طرابلس على حاله ، فأقام في القاهرة أياما ورجع الى طرابلس على عادته .

وفيه رسم السلطان لكاتب السر وناظر الجيش ألا يخرجوا مراسيم سلطانية ولا مربعات ولا مناشير الا بختم من وراء العلامة السلطانية ، وأن يكتبوا أيضا وراء العلامة ما تضمنه ذلك المرسوم .

وفيه قويت الاشاعات بوقوع فتنة ، وأخذ

السلطان في تحصين القلعة ، ونقل إليها أشياء كثيرة من الدين والشماس والاحصاب والماء والعليق ، وغير ذلك . وكانت الأحوال في غاية الاضطراب . وفهر غالب من كان اختفى من عصبه قانصوه خسمانة . وانتسوا الى قانصوه خال السلطان ، والتفوا عليه بغضا في أقبردى الدوادار . وقد تلاشى أمره لما عاد في هذه المرة وصار مهددا بالقتل في كل ليلة ، ولم تنفذ له كلمة ، كما يقال :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها

فحينما انقلب يوما به انقلبوا

يعظمون آخا الدنيا فان وثبت

يوما عليه بما لا يشهى وتبوا

فكان زوار أقبردى عن قريب .

وفي شعبان أنعم السلطان بامرية عشرة على قراكرز البهلوان ، وهي امرية قايتباي الشرفى الذى قتل بغزة .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة برد بك الطويل نائب صفد ، فلم يأذن له السلطان بالاجتماع به ، ومنع من الطلوع الى القلعة عند حضوره ، وقاسى من أقبردى الدوادار غاية البهدة .

وفيه أمر السلطان بأن تقطع الحيات التى تصنع في البيمارستان بحضرته حتى يتفرج عليها ... فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة ، فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها . وخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصوبى وولده والحاوى الذى أحضر الحيات وآخرين منهم .

وفيه أنعم السلطان على طومان باى الخاصكى بالخازندارية وامرية عشرة ، وكان قد قدم من البلاد الشامية . وطومان باى هذا هو الذى تسلطن

فيما بعد ، وتلقب بالملك العادل ، وكان بين امرية العشرة وسلطنته دون الأربع سنين .

وفيه هجم المنسر على سسوق أمير الجيوش ، وأخذوا منه أشياء كثيرة من عدة دكاكين ، وقتلوا الخفير ، وراحت على أصحابها .

وفيه خلع السلطان على جانم المصبغة ، وقرره في حجوية الحجاب عوضا عن اتال الخسيف . وفيه رسم السلطان بشنق عبد القادر صبى القصديرى .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بقتل شمس الدين ابن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، مات مذبوحا بدمشق ، وهو في داره ، وكان متولى قضاء الشافعية بدمشق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة رستم صاحب العراقين وديار بكر ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت له ، فأنفق عليهم بعدما كانت فتنة كبيرة بسبب ذلك ، فبلغت هذه النفقة نحو من خمسمائة ألف دينار . وصودر منها جماعة كثيرة من المباشرين وغيرهم .

وفيه صار السلطان يخرج اقطاعات الناس والرؤق والأملاك ويفرقها على مماليكه الجلبان . وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفيه قرر السلطان تراز جوشن أمير آخور ثانى ، وقرر قصره في نيابة القلعة .

وفيه قبض أقبردى الدوادار على داود بن عمر أمير هواره ، وقد آل أمره فيما بعد الى أنه شنق على باب شونة منفلوط بالوجه القبلى لأموار حقدتها عليه .

وفيه جاءت الأخبار من نواحى هرمز بأن خسف بها مدينة كاملة بأهلها .

وفيه أكمل السلطان النفقة على الجند والأمراء .
وفيه توفي شهاب الدين أحمد بن عامر المغربي
المالكي ، شيخ تربة الأشرف قايتباي ، وكان عالما
فاضلا صالحا متقشفا لا بأس به

وفيه جاءت الأخبار بأن الطاعون قد وقع بمدينة
غزة ، وهو زاحف نحو البلاد المصرية .

وفيه خلع السلطان على وفاء الماوردي وقرره في
امرية دون أميرشكار ، وأمر له بأن يتزيا بزي
الأتراك ويلبس التخيفة التي بالقرون والسلاري
القصير الكم — وكان عاميا يلبس لبس العوام —
فعد ذلك من نواقص الملك الناصر .

وفيه تزايد أذى الجلبان في حق أقبردي وصار
مهيدا بالقتل في كل يوم ، حتى سأل السلطان أن
يوليها بيابة الشام ، ويخرج إليها خوفا على نفسه
من الجلبان ، فلم يسمح له السلطان بذلك .

وفي رمضان في أول ليلة منه لم يطلع أحد من
الأمراء ، ولا أفطر عند السلطان على جاري
العادة ، وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة
بسبب أقبردي .

فلما كان يوم السبت رابع شهر رمضان ركب
الأمير أقبردي ، ووافقه على ذلك تاني بك فرا أمير
مجلس ، واقباي نائب غزة رأس نوبة النوب ،
وجاهم مصبغة حاجب الحجاب ، وجاهم الأجروود
كاشف منفلوط أحد المقدمين ، وغير ذلك من
الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، والجهم الغفير من
الجند ، ممن كان من عصابة أقبردي ، فوقع في ذلك
اليوم وافته مهولة ، فأنكسر أقبردي بعد العصر
واختفى فلما دخل الليل هرب أقبردي هو
ومماليكه ، وأخذ صحبته اقباي نائب غزة رأس
نوبة كبير فلما هرب توجه نحو الصعيد فأقام به
حتى كان من أمره ما سذكركه .

وفيه توفي خالص الطواشي التكروري مقدم
المماليك ، وكان عنده لين جانب وكان لا بأس به .
فلما مات قرر في مقدمة المماليك مثقال الحبشي
البرهاني ، الذي كان مقدم المماليك ، ونفى إلى
القدس وأعيد إلى القاهرة .

وفيه اشتد الحر وعز وجود السقائين ، وتكالب
الناس على الروايا والجمال حتى تخانقوا بالعصى ،
وبلغ سعر راوية الماء ثلاثة أنصاف .

وفيه من الوقائع الغريبة أنه في اليوم التاسع
والعشرين من الشهر المذكور ، أمر السلطان بأن
تدق الكؤوسات بالقلعة ، وقال : « أنا أعمل العيد
في الغد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم
يروا » .

فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضي القضاة
الشافعي زين الدين زكريا وطلع إلى القلعة ، فاجتمع
بالسلطان وعرفه بأن العيد لا يكون الا اذا رؤى
الهلال في تلك الليلة . فشق ذلك على السلطان ،
وهم بعزل القاضي في ذلك اليوم . فلما دخل الليل
لم ير الهلال في تلك الليلة ، وجاء العيد بالجمعة .
وكان الناصر تطير بالعيد أن يجيء يوم الجمعة ،
فكان ذلك على رغم أنه .

وفي شوال لم يخرج السلطان إلى صلاة العيد ،
ولا طلع الأتابكي تمرار إلى القلعة ، ولا بقية
الأمراء المقدمين ، فبعث السلطان الخلع إليهم في
بيوتهم . وفي أواخر ذلك اليوم طلع الخليفة ليهنئ
السلطان بالعيد ، وكان بقاعة البحرة مع الأوباش
الذين يعاشرهم ، فلم يخرج إليه السلطان ، وأرسل
يتشكر منه ، وأمره بالانصراف ، فعد ذلك من
نواقص الملك الناصر . وكان الملك الناصر في تلك
الأيام في غاية الطيشان .

وفيه أنعم السلطان على قصره بتقدمة ألف

الناصرى محمد بن العيسى . وكان الحاج فى تلك
السنة قليلا .

وفيه صعد سليمان ابن قرطام أحد مشايخ بنى
حرام الى القلعة ، وعلى رأسه منديل الأمان من
السلطان . فلما مثل بين يديه لكمه قانصوه الفاجر ،
والى الشرطة ، وأخذ منه منديل الأمان ، والسلطان
ساكت لم يتكلم . وثار عليه جماعة من المماليك
السلطانية ، وقالوا : « هذا قتل خشدنا الذين
قتلوا بالخطارة ، فكيف تعطونه منديل الأمان » .
فشق ذلك على السلطان ، وقام من فوق الدكة وهو
غضبان من المماليك .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة قانصوه
اليحياوى نائب الشام ، وحضر سيفه . وكان أصله
من ممالك السيفى جقمق ، وكان لا بأس به تولى
عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ونيابة
صفد ، ونيابة طرابلس ونيابة حلب ، ونيابة الشام .
وجرى عليه شذائد ومحن ، وأسر عند يعقوب بك
ابن حسن الطويل فى كائنة يشبك الدوادار مع
بابندر وثقى الى القدس ، ثم تولى بعد ذلك نيابة
الشام ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل
الأمرء وأعظمهم قدرا

وفيه توفى الشيخ الصالح المسلك نور الدين
الذاكر ابن عين الغزال ، وكان معروفا بالصالح
لا بأس به .

وفى ذى القعدة توفى قاضى القضاة الحنبلى
بدر الدين السعدى . وهو محمد بن محمد بن أبى
بكر بن خلف بن ابراهيم الحنبلى ، وكان عالما فاضلا
عارفا بمذهبه تولى القضاء بمصر وهو فى عنفوان
شبابه ، وأقام به مدة طويلة حتى مات وهو فى
وظيفته ، وكان لا بأس به توفى وهو فى عشر السنين .

محمد ، وخلع على عمه قيت وقرره فى نيابة القلعة
عوضا عن قصره ، بحكم انتقاله الى التقدة ،
وفرر ولده جانم فى الزردكاشية عوضا عن أبيه .

وفيه رسم السلطان لشخص من الأمراء يقال
له قانصوه السابق ، بأن يكون آمينا على باب القلعة
عند سلم المدرج ، يحيط علما بمن يطلع الى القلعة
أو ينزل منها ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على
ساحبها أفضل الصلاة والسلام ، بوفاة الحافظ
شمس الدين السخاوى ، وهو محمد بن عبد
الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، وكان
عالما فاضلا بارعا فى الحديث ، وألف تاريخا فيه
أشياء كثيرة من المساوى فى حق الناس ، وكان
مولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من الصعيد بأنه قد قامت
هناك فتنة كبيرة بين حميد بن عمر أمير هواره ،
وهو أخو داود الماضى خبره ، فوقع بين حميد وبين
قريبه ابراهيم فتنة مهولة يأتى الكلام عليها .

وفيه كانت الفتن قائمة بين طائفة بنى حرام ،
وبنى وائل ، حتى أعيان جان بردى الكاشف أمرهم ،
وخرجت اليهم تجريدة ، وبها عدة من الأمراء . ولم
نفد ذلك شيئا .

وفيه عين السلطان أبا يزيد الصغير بأن يتوجه
الى أقبردى الدوادار للصعيد ، وصحبته خلعه
وفرس سرج ذهب ونبوش ، وعلى يده مراسيم
شريفة لأقبردى الدوادار ، بأنه على عادته فى وظائفه
حتى يصير له حرمة على العربان . ثم حضر الى
القاهرة عن قريب وكان من أمره ما سنذكره فى
موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير رك
المحمل مشرباى أحد المقدمين ، وبالركب الأول

فلما مات أرسل السلطان خلف شهاب الدين الشيشي ، وكان بمكة المشرفة ، فلما حضر خلع عليه السلطان ، وأقره في قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدي بحكم وفاته . وهو باق على وظيفته الى أن مات بها ، لكن بعد عزل وإعادة .

وفيه ظهر قانصوه المجمدى المعروف بالبرجى ، أحد الأمراء المقدمين ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهر أمته السلطان على نفسه ، وأقام بداره .

وفيه من الحوادث أن القاضى أبا البقاء بن الجيعان ، كان طالعا الى القلعة فصلى صلاة الفجر ، وخرج من داره . فلما وصل الى الحمام الذى هو خارج من زقاقهم ، خرج عليه بعض المماليك بخنجر فضربه فى بطنه ضربة بالغة فمات من وقته ، وما عرف قاتله ، واتهم به جماعة من المماليك . وكان رئيسا حشما فاضلا عالما عارفا بأحوال المملكة ، وكان مقربا عند السلطان الأشرف قايتباى ، ترقى فى أيامه وانتهت اليه الرياسة ، وفاق على من تقدم من أقاربه . وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ أولاد ابن الجيعان ، وهو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر ، وله بر ومعروف ، وهو الذى أنشأ عمارة الزاوية الحمراء ، وجعل بها خطبة وحوضا وسيلا ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغيط ، وصار ذلك المكان من جملة متفرجات القاهرة ، تسعى اليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك ، وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المتفرجات القديمة . ومات أبو البقاء ، وقد قارب الستين سنة من العمر ، فلما مات خلع السلطان على أخيه صلاح الدين

وقرره فى استيفاء الجيش ، مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، وضيقوا على السلطان ، وصار معهم فى غاية الضنك . فأرسل يستحث أقبردى الدوادار فى سرعة المجىء .

وفيه ، فى رابع عشر الشهر المذكور يوم الخميس ، وصل أقبردى الى بر الجيزة ، فلما تسامع به الأمراء خرجوا اليه قاطبة ، وكذلك العسكر ، ولم يخرج اليه قانصوه خال السلطان ، فتلف به الأتابكى تراز حتى ركب معه ، وتوجها الى نحو السواقى التى عند الهدهد بالقرب من درب الخولى ، فقصده خال السلطان أن يعدى من هناك ويتوجه الى أقبردى ليسلم عليه فمنعه المماليك من ذلك ، وقالوا له : « متى عديت ورحت اليه يقبض عليك » فتخيل من ذلك ، ورجع من حيث أتى ... فعند ذلك كثر القال والقليل ، واضطربت الأحوال ، وصار العسكر على ثلاث فرق : فرقة مع أقبردى الدوادار ، وفرقة مع قانصوه خال السلطان — وهى الفرقة التى كانت من عصابة قانصوه خمسمائة فالتفوا على خال السلطان — وفرقة وافرة من المماليك الجلبان مع السلطان . ثم ان طائفة من المماليك لبسوا آلة السلاح ، وتوجهوا الى بيت أقبردى الدوادار عند حدة البقر ، فأحرقوا مقعده ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه ، وذلك قبل دخول أقبردى الى القاهرة .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور عدى أقبردى من الجيزة الى مصر ، فلما وصل مصلاة خولان التى بالقرافة الكبرى ، لاقاه الأتابكى تراز وتانى بك قرا — وقد ظهر وكان مختفيا من حين كسرة أقبردى فى شهر رمضان ،

كما تقدم — وتوجه الى أقبردى الجهم الغفير من
العسكر ، وكان أقبردى أرسل خلف جماعه من
عربان عزالة وبنى وائل . ثم ان العربان كانوا في
طلائع عسكر أقبردى وآتوا معه ووصلوا الى باب
الزغلة . وقد كان توجه اليهم جماعة من المماليك
الذين هم من عرضى قانصوه خمسمائة . فالتقى
معهم خاير بك الكاشف وجماعة من المماليك الذين
هم من عصبة أقبردى ، فكسروهم وطردهم هم
والعرب الى أن وصلوا المجرة التى عند باب
الزغلة وصار العرب يشوشون على الناس الذين
يتوجهون من هناك ، ويعرونهم ويأخذون عيائهم
وأثوابهم . وقتل في ذلك اليوم جماعة من العلماء
وإثنان من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم سادس عشرى الشهر المذكور
دخل أقبردى الدوا دار من مصلاة خولان ، ودخل
المدينة على مشهد السيدة قسيمة رضى الله عنها
ورحمها ، ولم يشق من الصليبة بل توجه الى بيته
من درب الخازن . فلما استقر بداره أتى اليه الأمراء
والعسكر أفواجا أفواجا ، ولو حطم في ذلك اليوم
وطلع الى القلعة لملكها من غير مانع . وكان ذلك من
عين الصواب لكن أشار عليه الأتابكى تمراز بالمجئ
الى داره والتثبت في ذلك . فكان كما يقال في
المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته

مع التانى وكان رأى لو عجلا

فلما بلغ قانصوه خال السلطان أن أقبردى
دخل الى القاهرة ، وأحضر صحبته عربان من بنى
وائل وعزالة ، اضطربت أحواله . ولم يكن عنده
بالقلعة من العسكر الا القليل ، فعند ذلك طلع الى
القلعة الأمير كرتباى الأحمر ، وكان مختفيا من عهد
واقعة خان يونس . فلما بلغ جماعة قانصوه خمسمائة
بأن كرتباى قد طلع الى القلعة بادروا اليه بالطلوع .

وكان قد حضر من الشام ممالك قانصوه اليحياوى
وصعدوا الى القلعة لينزلهم السلطان فى الديوان ،
فأقاموا بالجامع وصاروا من عصبة الفوافة . وكان
أكثرهم رماة بالمدافع والسبقيات والبندق الرصاص
وهم الذين كانوا سببا فى كسرة أقبردى فقويت
شوكة خال السلطان بهم وبالأمر كرتباى الأحمر .
وصارا جماعة المماليك طالعين الى القلعة أفواجا
أفواجا ، وقويت الفوافة . وأرسل خال السلطان
خلف طائفة عربان من بنى حرام . وأحضر قراجا
نائب غزة كان ، عربان السواملة ، فصارت العربان
يقاتل بعضهم بعضا . فلم يحصل بالطائفتين نفع بل
حصل منهم غاية الضرر ، وصاروا يعرون الناس ،
ويحطفون العمائم بالمطرية وبولاق ومصر العتيقة
والقرافة ، وصاروا ينهبون التراب ومزارات
الصالحين ، حتى مزار الامام الشافعى ، والامام
الليث رضى الله عنهم ورحمهم . وأظن أن هذا هو
الذى كان سببا فى كسرة أقبردى .

ثم ان أقبردى أحضر أشياء كثيرة من الأخشاب
وشرع فى عمل طوارق ، وأحضر عدة قناطير نحاس
وشرع فى سبك مكحلتين كسار ، وأحضر المعلم
دميلكو السباك وشرع فى سبكها . وأظهر أقبردى
الدوا دار فى هذه الحركة همة عالية . وكان عنده
من الأمراء الأتابكى تمراز وتانى بك قرا الاينالى
أمير مجلس ، وكرتباى ابن عمه السلطان أمير آخور
كبير ، واقباى نائب غزة رأس نوبة النوب ، وجانم
مصبغة حاجب الحجاب ، وتانى بك الشريفى نائب
الاسكندرية أحد مقدمى الألوف ، وجانم الأجرود
أحد المقدمين ، وبرد بك المحمدي الاينالى أحد
المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات
زيادة على ثلاثين أميرا ، منهم : مغلباى صصرق
الأشرفى برسباى ، وغير ذلك من الأمراء . واجتمع
عنده الجهم الغفير من العسكر من سائر الطوائف .

فكان أقبردى فى كل يوم يمد للأمراء والخاصكية أسسطة حافلة فى أول النهار ، وفى آخره ، ثم يحضر لهم السكر والحلواء والفاكهة والبطيخ الصيفى . واستمر الحرب تائرا بين الفريقين ، وحاصر أقبردى من بالقلعة أشد المحاصرة ، ومنع الغلمان والعبيد أن يصعدوا الى القلعة بشىء من الأكل ، وقطع آذان جماعة من العبيد وأيديهم بسبب ذلك .

وفى ذى الحجة قوى عزم أقبردى على محاصرة القلعة ، وكان يركب كل يوم هو والأتابكى تراز والأمراء ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى يخفق . وقد أرسله اليه الملك الناصر فى الدس ، وكان له به عناية فى الباطن ، فصار أقبردى يظهر أنه لم يكن راكبا على السلطان ، وإنما له غرماء من الأمراء ، وقصده القبض عليهم .

هذا ما كان من أمر أقبردى الدوادار ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فإنه لم يكن عنده من الأمراء سوى قانصوه خاله . ثم صعد فى ذلك اليوم كرتباى الأحمر على الفور ، وكان مختفيا وجلس بالمقعد الذى برأس سلم المدرج . وكان الأمير سودون العجمى ، وجان بلاط الغورى ، وقانى باى الرماح ، وطومان باى الشريفى ، ودولات باى قرموط ، وغيرهم من الأمراء — قد ركبوا المكاحل حول القلعة والسبقيات ، وركبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة . وكان غالب ممالك قانصوه اليحياوى — نائب الشام الذى توفى وحضرت ممالكه فى تلك الأيام — كلها رماة بالسبقيات والبندقيات الرصاص . فأخذ بخاطرهم كرتباى الأحمر ، وخال السلطان قانصوه ، وأنزلوهم فى الديوان السلطانى ، وصرفوا اليهم الجامكية ، حتى أنهم

صاروا معهم ، وكانوا زيادة عن مائتى انسان . وصار الحرب تائرا بين الفريقين . فبقى مع الفرقة التى بالقلعة من باب المدرج ، الى رأس الصوة ، الى باب زويلة ، الى باب النصر ، الى المطرية .

وصار مع الفرقة التى مع أقبردى من باب القرافة الى الصليية ، الى قناطر السباع ، الى مشر العتيقة ، وبولاك . وصار يقتل فى كل يوم من طوائف العربان مقتلة كبيرة ، من بنى وائل وبنى حرام ، وكانوا يدخلون برءوس القتلى آخر النهار فى شباك التبن . فقتل فى هذه المعركة من العربان نحو من ألف انسان وزيادة على ذلك . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت الأتراك تقاتل مع بعضها ، والعربان تقاتل مع بعضها . فلما قرب عيد الأضحى ، فرق أقبردى على الأمراء والعسكر الذين ركبوا معه عدة أبقار وأغنام كثيرة . ثم أنفق لهم جامكية ذلك الشهر ، والأضحى من ماله دون مال السلطان ، فصرف فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وباليات هذا أفاده شيئا ، ثم ان أقبردى أحضر دميلىكو السباك ، واستحثه فى سرعة عمل سبك المكحلة ، فأخذ فى أسباب ذلك ... ثم ان أقبردى وزع الأمراء فى أماكن شتى بسبب حصار القلعة ، فكان كرتباى ابن عمه السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أمير مجلس وجماعة من العسكر ، فى مدرسة السلطان حسن ، بسبب حصار القلعة . فكانوا يرمون عليها فلم يفد شىء من ذلك .

ثم أنهم رموا بالمكحلة المسماة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن ، فخرق المدفع شباك المدرسة ، ودخل فقتل ثلاثة أنصار من الممالك الذين هناك ، فحصل للعسكر من ذلك زمقة ، وكان لهم يوم عيد النحر واقعة قوية تشيب منها النواصى . وقتل فى ذلك اليوم شخص

من الأمراء العشراوات يقال له جانم بن قايتباى ،
وآخر من الأمراء يقال له طومان باى نائب
البهنسا ، وشخص يسمى قصروه نائب سنجر ،
وكان حضر صحبة الأمير أقبردى الدوادار من
البلاد الشامية

وقتل من كان بالقلعة شخص من الأمراء
الطليخانات يقال له برسباى اليوسفى أبو ذقن ،
وكان من ممالك الظاهر جقمق . مات فجأة بالقلعة
في مدة المحاصرة ، وكان لا بأس به فلما طال
على العسكر الذين كانوا مع أقبردى أمر الحصار ،
وأبطأ عليهم دميكلو بفراغ المكحلة التي شرع في
سبكها ، وصار يقتل كل يوم من جماعة أقبردى
جماعة كثيرة ، فبقى يتسحب منهم جماعة ويطلعون
الى القلعة شيئا فشيئا . فبان على أقبردى أمر
التلاشى ، فلما حيت الطائفة الفوقانية ، ظهر جان
بلاط بن يشبك الذي كان دوادارا كبيرا ، وظهر
الأمير قرقماس بن ولى الدين ، وقيت الرحبى ،
وقانصوه المحمدى المعروف بانبرجى ، وكان ظهر
قبل هذا اليوم عند دخول أقبردى القاهرة كرتباى
الأحمر . ثم ظهر أزيك اليوسفى الظاهرى ، وتانى
ملك الجمالى ، وغير ذلك من الأمراء ممن كان
مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر .
فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة : قويت شوكتهم ،
وحسدوا في القتال ولو حطم أقبردى أول يوم
دخل فيه الى المدينة ، وطلع الى القلعة ، لكان
ملك القلعة في ذلك اليوم من غير مانع ، ولم
يكن بها أحد من العسكر ، وكانت قلوب العسكر
معمرة منه بالكرب الشديد . واستخف أقبردى
بمن في القلعة ، وسمع ، أى الأتابكى تماراز ، وتوجه
الى بيته حتى كان ذلك سببا لقلعة نصرته . ولم يعلم
ما وراء ذلك

فاشتد أمر القتال ممن كان بالقلعة ، واستطالوا

على التختانيين الدين من حلف أقبردى بالنشاب
والبندق الرصاص والمدافع ، حتى أهلكوا منهم
ما لا يحصى . وكان مع أقبردى مدرسة السلطان
حسن ، وسبيل المؤمنين ، وسويقة عبد المنعم .
وصار أقبردى معه صنجق سلطانى ، ويقول :
« الله ينصر السلطان الملك الناصر » . وكرتباى
الأحمر وبقية الأمراء معهم صنجق سلطانى وهم
يقولون : « الله ينصر السلطان » . فحار الناس بين
الفريقين ، ولم يبق يعلم هذه الركبة على من : هل
هى على السلطان ؟ أو على الأمراء في بعضهم ؟
واستمر الحال على ذلك حتى كان ما سنذكره في
موضعه

وفيه توفى من الأعيان قاضى القضاة ناصر الدين
محمد بن الأخيمى الحنفى ، وهو محمد بن أحمد
ابن الأنصارى القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا
يقرا بالسبع روايات ، وكان ضنينا بنفسه ، وكان
امام السلطان الملك الأشرف قايتباى ، ثم قرر في
قضاء القضاة ، واستمر به الى أن مات . وكان
موته فجأة فأخرجت جنازته ولم يشعر به أحد من
الناس بسبب تلك الفتن القائمة

وفيه توفى القاضى أبو الفتح المنوفى ، كاتب
الماليك ونائب جده ، وكان من أعيان المباشرين ،
ورأى من العز والعظمة ما لا يوصف . وفي آخر
عمره قاسى شدائد ومحنا ، واعتراه جنون
وماليخوليا ، واستمر على ذلك حتى مات

وفيه توفى سيدى ابراهيم بن أبى الفضل بن أبى
الوفاء . وكان شابا صالحا لا بأس به
وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة تمرغا
الترجمان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن الخادم
الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان
لا بأس به .

وفيه توقف النيل عن الزيادة في ليالى الوفاء ،
وكان كل أحد مشغولا بنفسه عن ذلك ، والفتن
قائمة .

وفيه في يوم الاثنين ثانى عشرى الشهر المذكور
(الموافق لسابع عشرى مسرى) وفي النيل المبارك
وكسر في الثامن والعشرين من مسرى ، وقد أبطأ
عن مياعده . فلما وفي شاوروا الأمير أقبردى في فتح
السد ، فبعث اليه والى القاهرة ليفتحه ، فوجد
الشيخ عبد القادر الدشوطلى رضى الله عنه ، قد
فتح جانبا منه قبل مجيء الوالى ، ولم يتوجه أحد
ليتفرج على فتح السد على جارى العادة ، لكون
القاهرة كانت في غاية الاضطراب من عدم الأمن ،
وفساد الأحوال ، من هذه الشرور والفتن . فكان
كما قيل :

أتطلب من زمانك ذا وفاء

وتنكر ذاك جهلا من بنيه

لقد عدم الوفاء به وانى

لأعجب من وفاء النيل فيه

فلم يقيم النيل سوى أيام قلائل ، وهبط بسرعة ،
وشرق غالب البلاد ، وحصل بسبب ذلك الضرر
الشامل .

ولما وقعت بصر الفتن بين الأتراك ، وقعت
الفتن أيضا بين العربان ، وأحرقوا القمح والشعير
وهو في الجرون ، ونهبوا عدة بلاد ، فوقع الغلاء
بالديار المصرية ، وانتهى سعر القمح الى ألف
درهم كل أردب ، واستمر على ذلك مدة طويلة ...
وكانت الأحوال في تلك الأيام في غاية الفساد ،
واستمر الحرب ثابتا على ما ذكرناه من القتل ،
والنهب حاصل ، والحصار ليلا ونهارا حاصل في
القلعة .

وفيه ، في يوم الجمعة سادس عشرى الشهر

المذكور ، تسحب من كان عند أقبردى الدواidar
من العسكر جبلة ، ولم يبق معه سوى مساليكه
وبعض مساليك السلطان والأمراء المقدمين . وكان
الأمير جانم الاينالى ، كاشف منفلوط وأحد
المقدمين ، قد جرح واختفى ، ومات من ذلك ولم
يشعر به أحد . ثم ان الأمير أقبردى اضطربت
أحواله ، وتشتت عنه جماعته ، بعد ما أكلوا عيشه ،
وأخذوا أضحيته وجامكيته ، وصرف عليهم
جامكية شهرين من ماله ، ولم يراعوا له حق ذلك
ولا أثمر فيهم ما فعله بهم ... فكان كما قيل في
المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار

فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهم أوعار

وفعلهم مأثم للسوء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار

اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وكان أحسن لغالبهم ، وأنفق على بعضهم ،
وأرضاهم بكل ما يمكن ، بعد ذلك بعضهم رماه
وطلع الى القلعة .

فلما كان وقت المغرب من ليلة السبت ، نزل
كرتباى الأحمر من القلعة ، وضجته جميع من كان
بالقلعة . وكان خشكلدى البيسقى قد ظهر وطلع
الى القلعة ، فنزل صحبة الأمراء ممن كان بالقلعة ،
والمساليك الكبار والصغار الذين كانوا بالطباق ،
فزحفوا زحفة واحدة وهجموا على جماعة أقبردى ،
فانكسروا وفروا ، فهجموا على من كان بـ مدرسة
السلطان حسن ، وأحرقوا بابها ، ودخلوا على من
بالمدرسة من الأمراء ، فأخرجوا كرتباى ابن عمه
السلطان وهو مجروح جرحا بليغا ، قتل منه وهو
أمير آخور كبير . وهرب ثانى بك قرا ، فلم يظفروا

به ، وهرب من كان بمدرسة السلطان حسن من
الأمراء والمماليك ، فنهب الجلبان جميع ما كان
بالمدرسة من طشتخانات الأمراء ، ونهبوا بسط
المدرسة ، والتناديل ، وقلعوا شبايك القبة التي
بالمدرسة ، وأخذوا رخامها ، وأحرقوا الربع
الذي عند سوق الرميلة ، بجوار بيته ، وربع
يشبك الدوادار ، وربع خشكلدي البيسقى ،
وسيل المؤمنين ، وبعضاً من بيوت الصوة ، وغير
ذلك .

فلما دخل الليل ركب أقبردى فى نفر قليل من
مماليكه ، وطلع الى الرميلة ، فلم يطب طبه ،
واستمر على ذلك طول الليل . فلما أصبح يوم
السبت سابع عشر الشهر المذكور وهو ذو
الحجة ، انكسر أقبردى كسرة مهولة ، ورجع الى
داره وأخذ بركه ، وزردخاته ، والطشتخاناته ،
وخرج من داره وعلى رأسه صنجق ، وقدامه
طبلان وزمران ، ومماليكه حوله وهم لابسون آلة
السلاح . وخرج صحبته من الأمراء تانى بك قرا
أمير مجلس ، وأقبای نائب غزة رأس نوبة كبير ،
وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وقانى بك نائب
الأسكندرية أحد المقدمين ، وكرتباى أخو أقبردى
الدوادار أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات
والعشراوات جماعة كثيرة نحو من عشرين أميراً ،
فمن جملةهم : اينال السلحدار المعروف بالصغير ،
ومن المماليك السلطانية والسيفية نحو من ألف
مملوك . فلما خرج من داره دخل من الدرب الذى
عند حمام الفارقانى ، وخرج من الدرب الذى تجاه
المدرسة الصرغتمشية ، وتوجه من هناك الى
بولاق ، وطلع على جزيرة الفيل ، ثم خرج الى
النضاء ، وقصد التوجه الى البلاد الشامية ، فدخل
خاتناه سرياقوس ، فلم يقيم بها . واستمر يجد
السير حتى وصل الى بليس ، فلم يتبعه أحد من

الأمراء ولا العسكر ، حتى خرج وتوجه الى البلاد
الشامية . وجرى منه أمور يطول شرحها ... يأتى
الكلام على بعضها فى مواضعه .

والذى وقع لأقبردى الدوادار لم يقع لمنطاش
الناصرى فى أيام الظاهر برقوق ، وكانت مدة
محاصرته للقلعة أحداً وثلاثين يوماً ، ولم يسمع
بمثل هذه الواقعة فيما تقدم ، قال بعض المؤرخين :
« لم يقع بمصر من يوم فتحها الى الآن ، مثل واقعة
أقبردى الدوادار ، فكانت من غرائب الوقائع .
وفى مدة هذه المحاصرة كانت الأسواق معطلة ،
والدكاكين مقفلة ، وامتنع البيع والشراء ، ولم
تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ، ولا
بالطرق ، وكثر القتل والنهب ، وكان الناس فى
أمر عظيم » ... قيل : لما طال أمر هذه الفتنة ،
دخل على الأمير أقبردى ، جماعة من الفقهاء
الرفاعية والقادرية والأحمدية ، وجماعة من
الصوفية ، سألوه أن يكف عن هذا القتال ، وأن
يقع الصلح بين الطائفتين ، فأبى أقبردى ذلك . ثم
نزل اليه مثقال مقدم المماليك رسولا عن لسان
السلطان ، بأن يكون الصلح بينه وبين الأمراء
على يد السلطان ، فأبى أقبردى ذلك .

وكان دميلكو قد فرغ من المكحلة وركبها ،
ورمى بها أول حجر ، فكسر باب السلسلة ،
فاضطرب من كان بالقلعة ، وهجموا على المكحلة ،
ودقوا بها مسماراً وكانت معيبة ، فلما خرقوا
منافضها وشتت النار ، خرج الحجر منها على حين
غفلة ، وانكسر أقبردى . وكانت هذه ثالث كسرة
وقعت لأقبردى ، وكانت آخر العهد به ، فلم يدخل
بعدها الى مصر ، وقاسى شدايد ومحن يأتى الكلام
عليها .

فهذا ما كان من أمر أقبردى الدوادار .
وأما ما كان من أمر الأتابكى تمتاز فانه كان مقيماً

بالييت الذى بجواز بيت يشبك الدوادار ، الذى كان عند المدرسة البندقارية ، وكان متوعكا فى جسده ، فلم يشعر بكسرة أقبردى ، فلما أراد أقبردى أن يفر أرسل خلف الأتابكى تراز وأعلمه بما جرى ، وأراد أن يأخذه معه ، فأبطأ عليه وخشى من العسكر أن يهجموا عليه ويقتلوه ، فأسرع فى الخروج من داره وترك الأتابكى تراز فى داره ومضى . ثم ان الأتابكى لبس قماشه ، وركب وخرج من الييت الذى كان به ، فلما وصل الى بيت تانى بك قرا ، لاقاه جماعة من المماليك الفوافة وقبضوا عليه ، وقصدوا قتله ، وأدخلوه الى بيت تانى بك قرا ، ثم بدا لهم أن يطلعوا به الى القلعة . فلما خرجوا به من بيت تانى بك قرا ومشوا الى رأس الصليبة ، لقيه طائفة من المماليك الفوافة غير هؤلاء فقنطروه عن فرسه فوقع الى الأرض ، وطلعوا به الى دكان هناك ونزعوا ثيابه عنه ، وحزوا رأسه على الدكان بالسيف ، فلم تنقطع ، فكسروها حتى خلصت عن جثته . وكان الذى قتله من أرذل المماليك السيفية يقال له برد بك الأشقر . ثم أخذ رأسه ، وقبض عليها من ذقنه ، وطلع بها الى القلعة . فلما عرضت على الملك الناصر شق عليه ذلك ، لكونه كان من قرابة أييه الملك الأشرف قايتباى رحمه الله . ثم أمر بلفها فى فوطة ، وأرسل معها ثوبين بعلبكيين ، وثلاثين ديناراً . ثم ان بعض جماعة الأتابكى تراز أحضروا له نعشا ، وأخذوا فيه جثته وتوجهوا بها الى مكان بالقرب من بيت تغرى بردى الاستادار ، وخطبوا رأسه على جثته ، وغسلوه ، ثم أحضروا كرتباى ابن عمه السلطان الذى قتل فى مدرسة السلطان حسن ، فغسلوه مع الأتابكى تراز ، وأخرجوهما فى يوم واحد ، وصلوا عليهما فى مصلى باب الوزير ، ثم توجهوا بهما الى تربة الأشرف قايتباى ، فدفن

الأتابكى تراز داخل القبة ، ودفن كرتباى ابن عمه السلطان على جانب قريب السلطان الذى كان ناظر الجوالى ومقدم ألف . وكان الأتابكى تراز أميراً جليلاً معظماً دينا كثير البر والصدقة محسناً للناس ، جميل الهيئة ، وله آثار ومعروف . منها ما فعله فى الجسور التى صنعها بالغربية ، وهو كاشف التراب بالغربية ... وكان أصل الأتابكى تراز من مماليك الأشرف برسباى فأعتقه ، وأخرج له خيلاً وقماشاً ، وصار من الجمدارية . ثم بقى خاصكيا ساقيا فى دولة الأشرف اينال ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة وصار عنده من المقربين ، ثم نفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة فى دولة الظاهر ترمبغا ، ثم ظهر أنه ابن أخت السلطان الأشرف قايتباى ، فلما تسلطن جعله مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العسكر عوضاً عن أزبك بن ططخ لما نفى الى مكة المشرفة كما تقدم ... وكان تراز أميراً كبيراً ، كان اذا جلس فى أى مكان ودخل اليه الأدنى أو الأعلى يقوم له القيام الكلى ويجلسه ، وكان لا يجلس بمقعده الا وهو مزرر الملوطة ، وهو بالخف والمهماز ، ولم تبس له رجل وهو جالس ، وهذا من النوادر فى زمننا هذا . فلما مات رثيته بهذه الأبيات ، وهى قولى مع التضمين :

أرغمت يا دهر أنوف الورى

بقتل تراز ويتم العباد

أتابك العسكر ذو رافة

بالجود قد شاع لأقصى البلاد

أخطأت يا قاتله كيف قد

قتلت من يقيم أهل العناد

مصيبة جلت فمن أجلها

قد أطلقت فى كل قلب زناد

لكن له في قتله أسوة

الى الحسين بن علي الجواد

من أودعوه الرمس ما أنصفوا

بل كان يخبي في صميم الفؤاد

فالله يأجره على ما جرى

من قتله بالعفو يوم المعاد

ومات الأتابكي تميز وهو في عشر الثمانين ،
وكان لين الجانب واسطة خير ، وكان يظن كل أحد
أنه يتسلطن . وقد ترشح أمره إليها غير ما مرة ،
وكان إذا سأله أحد في حاجة يقول له : « اصبر علينا
حتى يجيء وقتها » . وكان ظامعا في السلطنة
فخابت فيه الظنون ، وجاء الأمر بخلاف ما أمل
أن يكون .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردي لما مر على
الشرقية ، كادت طائفة عريان بني حرام أن تقتله ،
فرجموه حتى جاءت رجمة في وجهه ، وسبوه سبا
قييحا ، وفعلوا به ذلك في عدة أماكن ، وما خلص
منهم الا بعد جهد كبير ... وسبب ذلك أنه ملط
عليهم بني وائل ، وقتل منهم في مدة المعركة ما لا
يحصى ، فلما انكسر ومر بهم اتقموا منه ، وجرى
عليه منهم ما لا خير فيه . فلما هرب أقبردي وقتل
تسرا اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأحوال ،
ونزل الممالك من القلعة ، وعطعوا في المدينة ،
وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت ، حتى
نهبوا الربوع التي هي سكن العوام . ثم توجهوا
الى حارة زويلة ونهبوها بسبب أنه كان لأقبردي
حاصل هناك فيه مال ، فنهبوا ما كان فيه ، حتى
قليل كان فيه ما يزيد على مائة ألف دينار غير الخيام
والقمماش الذي كان به . ونهبوا بيوت اليهود الذين
حوله ، ودخل الزعر والعييد فنهبوا القبة التي في
مدرسة السلطان حسن ، وأخذوا الرخام الذي
يها ، والشبايك النحاس التي بها ، والأبواب ...

ومن يومئذ تلاشت حال المدرسة الى الآن . واستمر
النهب والقتل دائرا ثلاثة أيام متوالية . ولم يجدوا
من يردهم عن ذلك ، والمدينة مائجة . وقد تعطلت
الخطبة ، واقامة الصلاة من مدرسة السلطان
حسن ، فحوا من ستة أشهر . وكان كل من ظفروا
به من جماعة أقبردي يقتلونه شر قتلة . ثم قبض
على المعلم دميكو ، وأحضروه عند الأمير كرتبای
الأحمر فقطع رأسه وعلقها على باب السلسلة ، كما
قيل في الأمثال : « وربما عوقب من لا جنى » .
وقد خرجت السنة المذكورة على ما شرح فيها
من الفتن والانكاد والفساد وخراب البلاد . ووقع
فيها الغلاء ، وتشحطت الغلال ، وقتل فيها من
الأمراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقدمي ألوف
ومبلخانات وعشراوات . وقد تقدم ذكر ذلك عند
وقوع كل حادثة ، من أوائل السنة المذكورة الى
آخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع . وقتل من
الجند والعرب نحو من ألف انسان ، فلا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم . وما حصل لعسكر مصر
بعد وفاة الأشرف قايتبای خير ، وجاءت الأمور
بضد ما أملوه من بعده ، فكان كما يقال :

يسعى ابن ادم في قضا أوطاره

والموت يتبعه على آثاره

يلهو وكف الموت في أطواقه

كالكبش يلعب في يدي جزاره

يمسى وقد أمن الحوادث ليله

فلربما تطرقه في أسحاره

من رام ينظر كيف تصبح داره

من بعده فليعتبر بجواره

سنة ثلاث وتسعمائة (١٤٩٧/١٤٩٨ م) :

كان مستهل المحرم يوم الثلاثاء ، ووافق ذلك
اليوم يوم النوروز للقبط بموجب تحويل السنة
القبطية الى السنة العربية . فصعد القضاة الى

التهنئة بالشهر والعام الجديد ، وبهذه النصر
التي وقعت للسلطان . ولم يحضر الخليفة في ذلك
اليوم بسبب أنه كان متوعكا في جسده ، وهو
مقيم بالقلعة ، فنزل الى داره في محفة ، وكان ذلك
انتداء ضعف الموت .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على برهان الدين
ابن الكركي الامام ، وقرره في قضاء الحنفية عوضا
عن ناصر الدين بن الأخيمي بحكم وفاته ، وهذه أول
ولاية ابن الكركي . وخلع على الشيخ سري الدين
عبد البر بن الشحنة ، وقرره في مشيخة المدرسة
الأشرفية ، عوضا عن البرهان الكركي ، فلم يقيم
بها عبد البر غير ثلاثة أشهر ، وأعيد اليها ابن
الكركي ، مضافا لما بيده من قضاء الحنفية

وفيه تحوف السلطان على نفسه من الأمراء ،
فأحضر لهم المصحف العثماني ، وحلف عليه
الأمراء الذين هم من حزب قانصوه خمسمائة ،
بأنهم لا يخونونه قط ولا يغدرون به ولا يركبون
عليه ، وهذا رابع يمين حلفه السلطان للأمراء على
المصحف العثماني ... وكل ايمانهم كانت كاذبة
فاجرة .

وفيه عزل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة
من الأمراء منهم : المقر السيفي قانصوه خال
السلطان وقرره في الدواذارية الكبرى ، عوضا عن
أقبردى بحكم هروبه . وخلع على كرتباي الاحمر
وقرره في امرية سلاح . وخلع على جان بلاط بن
يشبك وقرره في نيابة حلب ، وخرج اليها عن
قريب .

وفيه دخل مبشر الحاج ، وهو شخص من العرب ،
وقد تأخر عن عادته ستة أيام لفساد طريق الحجاج .
وفيه توفي الزيني قاسم بن قاسم المالكي أحد
نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا متفنا لا بأس به .

وفيه قرر كمشبع الشريفي في نيابة الاسكندرية
عوضا عن اسنباي .

وفيه عين السلطان خاير بك أخا قانصوه ، بأن
يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم .

وفيه قرر عبد القادر بن النقيب في مشيخة
خاتناه سعيد السعداء ، وكانت عينت للمسلمي ،
ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد الوفاي ،
وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على طرباي الشريفي وقرره
أمير آخور ثاني ، وهذه أول وظائفه . وخلع على
دولت باي الأجروود وقرره في ولاية الشرطة .
وفيه وقع الاتفاق من الأمراء على عود الأتابكي
أزبك ، وحضوره من مكة المشرفة ليلي الأتابكية ،
عوضا عن تمرآز . فكتبت له المراسيم بالحضور ،
وتوجه بها طرباي الشريفي ، الذي قرر أمير آخور
ثاني ، فخرج على الفور بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على قاني باي الرماح ،
وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن كرتباي بحكم
قتله بمدرسة السلطان حسن في واقعة أقبردى .
وخلع على قانصوه المحمدي المعروف بالبرجي ،
وقرره في امرية مجلس ، عوضا عن ثاني بك قرا
الاينائي بحكم هروبه مع أقبردى . وخلع على
قيت الرحبي ، وقرره حاجب الحجاب ، عوضا عن
جانم مصبغة بحكم اختفائه وهروبه مع أقبردى .
وخلع على طومان باي ، وقرره في الدواذارية
الثانية ، عوضا عن سيباي سيس . وخلع على
سيباي ، وقرره في مقدمة ألف ، وهي مقدمة
جانم الأجروود الاينالي كاشف منفلوط ، بحكم أنه
خرج في واقعة أقبردى ومات عقيب ذلك . وخلع
على تمرآز الزردكاش الكبير ، وقرره بها عوضا
عن قيت الأحوال أخى الأشرف قايتباي . وقرر

ببرس في نيابة التلعة ، عوضاً عن قيت عم الملك
الناصر ، فعزل عن الزردكاشية الكبرى ، ونيابة
التلعة ، وقد نسب الى ميل مع عصية أقبردى
الدوادار .

وفيه خلع السلطان على أزيك اليوسفى ،
المعروف بالخازندار ، وقرره مقدم ألف مشير
المملكة . وقرر قانصوه كرت في الخازندارية
الكبرى .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة بعد ما قبض على
أمير الحاج مصرباى في عجرود ، وتوجهوا به من
هناك الى السجن بغير الاسكندرية ، فسجن بها .
وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار لما
تخرج من مصر بعد فراره استولى على غزة ،
وملكها ، فاتفق رأى الأمراء على تجريدة اليه .
وفيه خلع السلطان على جان بلاط الغورى ،
وقرره في رأس نوبة كبير ، عوضاً عن اقبای نائب
غزة بحكم فراره مع أقبردى . وقرر أزيك قفص
في الرأس نوبة الثانية .

وفيه أشيع بين الناس أن الخليفة المتوكل على
الله عبد العزيز قد اشتد به المرض ، وأشرف على
الموت ، وقد عهد بالخلافة الى ولده الشرفى
يعقوب ، وحكم بذلك قاضى القضاة المالكى عبد
الغنى بن تقي ، ونفذه بقية القضاة ، وعهد أيضا
لولده محمد من بعد أبيه يعقوب ... فلما بلغ
ذلك ابن عمه خليل ، اضطربت أحواله ، وضافت
عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظرا للخلافة بعد
عمه عبد العزيز ، فلم ينله من ذلك شيء ، وفاته
المطلوب . فقدح في الشرفى يعقوب بكلمات قبيحة
من نار قلبه ، فلم يفده من ذلك شيء ، ولم يلتفت
اليه أحد من القضاة ولا السلطان . وتولى الخلافة
يعقوب ، على رغم أنف خليل ، كما سيأتى ذكر
ذلك ، وقد قلت مع التضمنين في هذه الواقعة :

قالت العليا لمن حاولها
سبق المولى وقد حل عراها
قدعوا الحاسد فيها انها
حاجة في نفس يعقوب قضاها

فلما كان يوم الخميس سلخ المحرم من سنة
ثلاث وتسعمائة ، كانت وفاة أمير المؤمنين أبي
العز عبد العزيز ، وهو عبد العزيز بن يعقوب بن
محمد المتوكل على الله . ولم يل والده يعقوب
الخلافة ، بل جده محمد المتوكل على الله . وكان
الخليفة عبد العزيز رئيسا حشما ذا شهامة ، جميل
الهيئة كفؤا للخلافة ، وافر العقل سديد الرأى ،
وله اشتغال بالعلم وحفظ جيد مع حسن عبارة ،
وكان عنده لين جانب واتضاع ، كثير العشرة
للناس . وتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين
سنة . ومولده بعد العام السابع عشر والثمانمائة ،
وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأياما . وحضر
مبايعة الملك الناصر محمد بن قايتباى الأشرف
رحمهم الله تعالى ، ومبايعة قانصوه خمسمائة ...
وكان من خيار بنى العباس ، وكان له مشهد عظيم .
ونزل الملك الناصر وصلى عليه بسبيل المؤمنين ،
ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها
ورحمها ورحمهم ، داخل القبة التى بها مشاهد
الخلفاء . ثم بعد وفاته تولى بعده ولده يعقوب .

خلافة المستمسك بالله أبو الصبر

هو أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر
يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد
المتوكل على الله ، وهو الرابع والخمسون من خلفاء
بنى العباس فى العدد ، وهو الخامس عشر من
خلفاء بنى العباس بمصر . وهو من خلاصة بنى
العباس لكونه هاشمى الأيوين ... ولم يل الخلافة

من هو هاشمي الأيوين غير أربعة من بنى هاشم ،
وهم : الامام على كرم الله وجهه وكانت أمه هاشمية
وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم . ثم ابنه
الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمه فاطمة بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم محمد الأمين
ابن زبيدة ، وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن
عبد العزيز ، وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير
المؤمنين المستكفي بالله ، أبى الربيع سليمان ...
فهؤلاء الأربعة هاشميو الأيوين ، وغيرهم من
الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحيش وغير ذلك .

وكانت صفة ولاية الشرفى يعقوب : أنه لما
كان يوم السبت ثالث صفر بعث الملك الناصر
خلف الشرفى يعقوب ، فحضر وحضر ابن عمه
خليل ، فعرض العهد المقدم ذكره على السلطان ،
فشرع خليل يتكلم فى حق الشرفى يعقوب
بكلمات فاحشة ، منها أنه قال : « انه قليل
النظر ولا تصح ولائته » ، فلم يلتفت السلطان
الى كلام خليل وقال : « أهذا أبوه كان
خليفة ؟ » ، فقليل له : « لا » ، فقال : « ما يلى
الخلافة الا من كان أبوه خليفة » . وشرع
كرتبأى الأحمر ، وأزبك اليوسفى مشير الملكة ،
وتغرى بردى الاستادار - يساعدون الشرفى
يعقوب ، فترشح أمره لأن يلى الخلافة ... وفى
الحقيقة لم يكن يومئذ من بنى العباس من يصلح
للخلافة غير الشرفى يعقوب ، فى الدين والخير
والصلاح ، فاتفق رأى الأمراء على ولايته ،
ونزل خليل من القلعة بخفى حنين .

فلما حضر القضاة وتكامل المجلس ، لم يحتاج
الى مبايعة ثانية ، لأنه استقر فى الخلافة بعهد من
أبيه له عند موته ، فاستكفى القاضى الشافعى
بذلك . ثم أحضر اليه شعار الخلافة ، فأفيض عليه ،
وتلقب « بالمستمك بالله أبى الصبر » وعد لقبه

هذا من النوادر . وقيل ان الشيخ جلال الدين
الأسيوطى هو الذى كناه ولقبه بهذا اللقب . ومن
الغرائب أنه لم يل الخلافة من بنى العباس ، ولا
من بنى أمية ، من اسمه يعقوب سواه . فلما تمت
بيعته أحضر اليه الشريف ، وأفيض عليه ، فصار
فى غاية الأبهة والوقار . وفى الحقيقة انه من عباد
الله الصالحين ، لم يعهد له صبوة منذ نشأ الى
الآن رضى الله عنه . وفيه أقول مضمنا :

يا أمير المؤمنين اقبل ولا
ترتجى غير الذى قد شرفك
لو أتى العباس أضحى قائلاً
يرحم الله الذى قد خلفك

وكان له من العمر ، لما تولى الخلافة ، نحو من
خسين سنة . وقد وخطه الشيب . فنزل من القلعة
فى موكب حافل ، حتى وصل الى داره ، واستمر
فى هذه الولاية مدة طويلة ، حتى كان من أمره
ما سنذكره فى موضعه .

وفى ربيع الأول خلع السلطان على قانصوه
خاله ، وقرره فى الاستادارية والوزارة عوضاً عن
كرتبأى الأحمر بحكم استغفائه من ذلك .
وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة
السيد الشريف الحبيب النسيب محمد بن بركات
أمير مكة المشرفة . وكان رئيساً حشماً فى سعة من
المال ، كفؤاً لامرية مكة المشرفة ، وكان لا بأس به .
وفيه جاءت الأخبار بوفاة اينال باى الابراهيمى
نائب طرابلس ، وكان من حلف أقبردى الدوادار .
وفيه جاءت الأخبار أيضاً بوفاة اينال باى ،
وبوفاة كرتبأى أخى أقبردى الذى كان نائب
صفد ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، وفر مع أخيه
أقبردى فمات فى أثناء الطريق ودفن هنالك .

وفيه خلع السلطان على تغرى بردى القادرى ،
 وقرره فى الاستادارية نائبا عن قانصوه خال السلطان .
 وفيه فى أوائل بابه أمطرت السماء مطرا مهولا
 حتى وقعت منه عدة أماكن ، وخسف غالب القبور
 التى بالقرافة والصحراء . وكان من نواذر الوقائع .
 وفيه خلع السلطان على كرتباى الأحمر وقرره
 فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى بحكم
 وفاته . وكان كرتباى الأحمر هو الساعى فى ذلك
 خوفا على نفسه من الملك الناصر أن يسلط عليه
 المماليك الجلبان يقتلونه ، وقد هم بذلك غير ما مرة
 لأجل أن كرتباى الأحمر كان يحجر على الملك
 الناصر ويمنعه عن الأفعال الفاحشة الشنيعة ،
 فكرهه بسبب ذلك ، وقصد قتله ... حتى قيل انه
 ذبح يوما كبشا بيده وقال : « هكذا أفعل
 بكرتباى الأحمر عن قريب » . فلما خرج كرتباى
 الأحمر من القاهرة كان له يوم مشهود ، وطلب
 طلبا حافلا .

وفيه عين السلطان تجريدة بسبب أقبردى
 الدوادار ... فانه لما انكسر وخرج من مصر هاربا
 حاصر الشام ، وقصد أن يملكها فما قدر . فنهب
 الضياع التى حول دمشق ، وخرب غالبها ، وفعل
 مثل ذلك بضياع حلب . فوقع الاتفاق من الأمراء
 على خروج تجريدة له ، فعينوا ذلك . وأنفق
 السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، وبعث
 نفقة الأمراء الذين عينوا للخروج الى التجريدة ،
 وهم قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقيت الرحبى
 حاجب الحجاب ، وقانصوه الغورى أحد المقدمين ،
 وهو الذى تسلطن فيما بعد ، واصطمر بن ولى
 الدين أحد المقدمين ، وقصروه أحد المقدمين ، ومن
 الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى بعد أن حاصر
 الشام نحو من شهرين لم يقدر عليها ، وحاربه

الأمراء الذين بالشام ، ورموا عليه بالمدافع ، وفر
 الى حلب . فلما توجه الى حماه حاصرها ، وأخذ
 منها أموالا لها صورة . فلما وصل الى حلب
 حاصرها نحو من شهرين ، وكان اينال السلحدار
 يومئذ نائب حلب ، وكان من عصبة أقبردى فقصد
 أن يسلمه مدينة حلب ، فرجمه أهل المدينة
 وطردوه منها ، وحصنوا المدينة بالمدافع على
 الأسوار ... فعند ذلك فر أقبردى ومن كان معه
 من الأمراء والعسكر ، وكذلك اينال نائب حلب
 صحبتهم ، وفروا أجمعين ، وتوجهوا الى على
 دولات والتجأوا اليه . فلما بلغ الأمراء ذلك
 اضطربت أحوالهم فوقع الاتفاق على أن يولوا
 جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا نيابة
 حلب ، عوضا عن اينال الذى كان بها بحكم فراره
 مع أقبردى .

وفيه خلع السلطان بعد خروج كرتباى الأحمر
 الى محل نيابة الشام على محمد بن العظمة ،
 وأعاده فى نظارة الأوقاف . وكان الساعى له فى
 ذلك عبد القادر بواب الدهيشة ، فكثر عليه الدعاء
 من الناس بسببه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .
 وفيه فى يوم الخميس ثانى عشرية كان دخول
 الأتابكى أربك الى القاهرة ، وقد حضر من مكة
 المشرفة . فلما حضر خلع عليه السلطان وأعاده الى
 الأتابكية عوضا عن تراز الشمسى بحكم وفاته ،
 فكانت مدة غيبته بمكة سنتين وثلاثة أشهر .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الموتر ، أحد
 العشراوات ، وقرره فى الحسبة ، عوضا عن تانى
 بك بن حديد بحكم وفاته .

وفى تلك الأيام اشتد الغلاء ، وانتهى سعر القمح
 الى ثلاثة أشرفية كل أردب .

وفيه هجم المنسر على سوق تحت الربع ،
 وسوق الحاجب ، وفتحوا عدة دكاكين . فلما بلغ

الوالى ذلك ركب وتحارب مع المنسر ، وقتل
جساعة من أعوانه ، ولم يبلغ من المنسر أربا ،
وراحت على التجار أموالها .

وفى ربيع الآخر ، يوم الثلاثاء رابعة ، كان
خروج الأمراء الذين عينوا للتجريدة ، فكان لهم
يوم مشهود ، حتى ارتجت لهم القاهرة . وقد
تقدمهم كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام ،
وجان بلاط بن يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب ،
واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر ،
والعسكر خارجون أفواجا أفواجا .

وفيه ظهر تانى بك الجمالى ، وكان مختفيا من
حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر
خلع عليه السلطان وأعادته الى امرية سلاح عوضا
عن كرتباى الأحمر بحكم انتقاله الى نيابة الشام .
وفيه أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية الى
برهان الدين بن الكركى ، وانفصل عنها عبد البر
ابن الشحنة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى قبة يشبك التى
بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح شق من القاهرة فى
موكب حافل ، وصحبته قانصوه خاله وبعض
أمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا
ترمى بالنفوط قدامه على هيئة السكشاف . وقد
تهتكت حرمة السلطان ، والمملكة ، ولم يقع من
أبناء الملوك من السواقط ما وقع للناصر هذا ، كما
سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفيه حضر الشهابى الششنى من مكة المشرفة
وقد أرسل اليه السلطان مرسوما بالحضور ليلى
قضاء الحنابلة ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره
فى قضاء الحنابلة بسمر عوضا عن بدر الدين
السعدى .

وفيه نادى والى القاهرة على لسان السلطان
بأن أهل الأسواق والحارات يعملون عليهم دروبا ،

فامتثلوا ذلك وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها
على سوق تحت الربع ، وسوق أحمد بن طولون ،
وسوق أمير الجيوش ، وغير ذلك من الأسواق
والحارات . وكانت المناسر قد كثرت فى تلك الأيام
جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات
ويعططون بها .

وفيه من الحوادث الشنيعة نادى السلطان فى
القاهرة بأن الأمراء المختفين ، الذين هم من عصابة
أقبردى ، يظهرون وعليهم أمان الله تعالى . وأشيع
أن أقبردى قد ظهر وأنه عند السلطان بالقلعة ، فعند
ذلك ظهر برد بك المعروف بنائب جدة الذى كان
من جملة المقدمين ، وظهر برد بك المحمدى الاينالى ،
وأبو يزيد الصغير ، وبرسباى السلحدار ، وبرقوق
المحتسب ، وشاد بك ، وييرس ، وقانصوه
التاجر ، وكرتباى الكاشف ، وخاير بك الكاشف ،
وقانصوه الساقى ، ردولات باى بن عيسى ،
وآخرون من الخاصكية . وكان قبل ذلك رسم
السلطان بالافراج عن مصرباى — وكان فى السجن
بشعر الاسكندرية — فحضر ، وحضر أيضا قنبك
أبو شامة ، وتانى بك المحمدى الاينالى ، وجانى
باى ... وكان هؤلاء فى السجن من حين ركب
أقبردى الدوادار وانكسر . فلما ظهر هؤلاء كثر
القال والبقيل فى سبب ظهورهم ثم ان السلطان
صرح فى قوله وقال : « أنا ما رسمت بالافراج
الا لأصلح بينهم وبين الطائفة التى من عصابة
قانصوه خمسمائة » . فلما ظهوروا وطلعوا الى القلعة
قرى السلطان تلك الليلة ختمة ، ومد أسنطة
حافلة ، وباتوا عنده ... فلما صلوا العشاء أحضر
عدة خلج ، فخلع على مصرباى وعينه أمير آخور
كبير ، وخلع على أبى يزيد الصغير وعينه دوادارا
ثانيا ، وخلع على قنبك أبى شامة وعينه نائب
القلعة ، وقرر آخرين منهم فى تقادم ألوف ،

وآخرين في امريات عشرة . وكل هذا خفة وطيش
وسبينة من الملك الناصر . وقد طاش الى الغاية
لما خرج كرتباى الأحمر الى الشام ، وكان يظن
انه ما بقى على يده يد . وكل هذا من عقل الصغار
فكان كما قال المعيار :

دى دولة خواطر تسويقه معتر
خليلى وشامى والخيار مقصر
فلما جرى ذلك تحت الليل ، بلغ الأمراء الذين
من عتبة قانصوه ما وقع من السلطان تلك الليلة .
فلما طلع النهار لبسوا آلة الحرب ، وصعدوا الى
القلعة ، ووثبوا على بعضهم بها ، وكانت فتنة
مهولة ، فقتلوا الأمير أبا يزيد الصغير ، والأمير
برسباى الأشقر ، وهرب الأمير مصرباى ، وقتل
قنبك أبو شامة ، واتسعت الفتنة ، وقتل في هذه
المركة جماعة من الخاصكية ، وقد هموا بقتل
السلطان لولا أنه اختفى ، ثم نزلوا بجثة أبى يزيد
على حمار ، وتوجهوا بها الى داره ليغسلوه
ويدفنوه . ثم نزل جماعة من المماليك ونهبوا بعض
أماكن الأمراء الذين من حلف أقبردى ، ونهبوا
بيت الناصرى محمد بن خاص بك لكونه كان
صهر أقبردى الدوادار . فلما بلغ الأتابكى أزيك
ما جرى طلع الى القلعة ، واجتمع بالسلطان ، ولامه
على هذه الأفعال الشنيعة التى تصدر منه ، فلم
يلتفت الى كلامه .

ثم نزل الأتابكى أزيك الى داره ، وقد خمدت
هذه الفتنة قليلا ، وكان ذلك في يوم الخميس
حادى عشرى ربيع الآخر .

وفي جمادى الأولى وقع من الناصر غاية القبح
في حق الأمراء المقدمين ، بأشياء ماسبقه اليها أخذ ،
وهو أنه أضاف لكل أمير مقدم ألف ثلاثين مملوكا
من المماليك الجلبان ، يأخذون من اقطاعه في كل
سنة ، كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . وأضاف

الى أمير كبير أربعين مملوكا لكل واحد كما تقدم ،
وأضاف الى كل أمير طبخانات عشرة من المماليك
يأخذون من اقطاعه كما تقدم . وأضاف الى كل
أمير عشرة خمسة مماليك يأخذون منهم كما تقدم ،
فحصل من المماليك في حق الأمراء ما لا خير فيه .
وصاروا يدخلون بيوت الأمراء وهم راكبون ،
ويشوشون على مباشرتهم بالضرب والسب ، حتى
يأخذوا منهم ما قرر لهم . فأضر ذلك بحال الأمراء
وما أطاقوا ذلك ، ولكن لم يطلع من أيديهم شيء
بسبب اضطراب الأحوال في تلك الأيام ، فكان
كما يقال :

أخضع لقرد السوء في زمانه

وداره ما دام في سلطانه

وفيه أمر السلطان بهدم كنيسة اليهود التى في
دموه ، فتوجه الى هناك بنفسه ، وهدمت بحضرته ،
ثم عاد الى القلعة .

وفيه تزوج الأمير طومان باى الدوادار الثانى
بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فكان
لها مهم حافل .

وفيه كانت وفاة شيخنا علامة العصر الشيخ
شمس الدين محمد بن أبى بكر بن حسن بن عمران
ابن نجيب المعروف بالقادري ، وكان شاعر العصر
على الاطلاق بعد الشهاب المنصورى ، وكان مولده
بعد الثلاث والثلاثين والثمانمائة ، وكان شاعرا
ماهرا وله شعر جيد . فمن ذلك قوله في ميقاتى
وأجاد :

في صنعة الميقات بدر نجمه

بالسعد يخدمه مدى الساعات

حجت عيون الناس كعبة حسنة

وقضت مناسكها من الميقات

وقوله في فرس محجل الثلاثة مطلق اليمين :

وطرف زانه التحجيل يحكمه
لمن يحكيك بالسحر المبين

جواد رام أن يخفى نوالا
فأسبل كفه فوق اليمين

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأنه وقع بين السيد
الشريف بركات ، وبين أخيه هزاع ، فتنة كبيرة ،
وكادت أن تخرب فيها مكة المشرفة .

وفيه توفي امام الكاملية وابن امامها ، وكان من
عباد الله الصالحين ، دينا خيرا لا بأس به .

وفي جمادى الآخرة وقعت الوحشة بين السلطان
والأمراء ، بل وبين خاله قانصوه ، بسبب ما تقدم
من تلك الفتنة التي وقعت من حلف أقبردى . وقد
نسب فيها السلطان الى غرض .

وفيه قرر يحيى بن سبغ في امرية الينبع عوضا
عن دراج بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار بقتل الطواشي لؤلؤ
الرومي ، رأس نوبة السقاة والخازندار ، وكان
قد خرج الى الوجه القبلى في بعض أشغال ليتوجه
الى مكة المشرفة . وكان صحبته السجيتى المرافع
فخرج عليهم جماعة من العربان ، فقتلوا لؤلؤا
والسجيتى ومن معهم .

وفيه نزل السلطان وبات في تربة آبيه ، وحصل
منه تلك الليلة عدة مساوى لا ينبغي شرحها .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الطاعون الى قطيا ،
وقد فشا بها وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيه نادى السلطان في القاهرة ومصر بأن
تعلق على الحوانيت قناديل وكذلك البيوت المظلة
على الشوارع . وصار يركب هو بنفسه في كل
ليلة بعد العشاء وقدامه فانوسان أكره ، وأربعة
مشاعل ، ومعه أولاد عمه قيت — وهما جانم وأخوه

جاني بك — وقدامه عدة عبيد سود معهم بندقيات
نقط . وكان اذا طاف بالقاهرة بعد العشاء ورأى
أحدا يمشى ، يقطع أذنه مع أنه ، ومنهم من يضربه
بالمقارع ، ومنهم من يوسطه ... فقتل من الناس
جماعة في مدة يسيرة . وكان اذا مر بدكان ولم ير
عليها قنديلا يأمر بتسميرها وهو واقف بنفسه عليها
حتى يسمرها ، وكل هذا خفة وطيش . وقد بهدل
جرمة المملكة في أيامه ، ولم يتبع طريقة الملوك
السالفة في اقامة حرمة السلطان . وصار على طريقة
والى الشرطة .

وفيه قبض بعض الخاصكية والماليك على عبد
من عبيد السلطان يقال له فرج الله ، وكان مقربا
عنده الى الغاية ، فضربوه وقتلوه بالرميعة ، فشق
ذلك على السلطان ، وتأسف عليه ، ولم يقدر أن
يحميه من الماليك ، فانهم كانوا يومئذ طالبين
للشر مع السلطان بسبب هذه الأفعال التي تصدر
منه .

وفيه قرر شاهين الجمالى في نظر الحرم
الشريف ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ،
على عادته ، فخرج الى السفر عن قريب ، وأمره
السلطان بأن يتوجه الى يحيى بن سبع أمير الينبع
ويصلح بينه وبين أمير مكة المشرفة ، وكان قد
وقع بينهما في تلك الأيام وحشة .

وفي رجب ظهر الطاعون بالقاهرة ومات بها
جماعة .

وفيه تخوفت خوند أصل باى أم الناصر على
ولدها من خاله قانصوه ، وكانت الماليك قد التفت
عليه ، فأحضرت المصحف العثماني بين يديها في
قاعة العواميد ، وحلفت عليه أخاها قانصوه ، وابنها
الملك الناصر محمد ، بوفاء كل منهما لصاحبه ، ولم
تفد تلك الأيمان شيئا .

وفيه خرج خاير بك بن قانصوه البرجى ، قاصدا

الى ابن عثمان ، فخرج في تجمل زائد ، وصرف في هذه الحركة مالا له صورة .

وفيه توفي الشيخ داود المالكي ، وكان من أعيان علماء المالكية ، من أهل العلم والدين ، وكان لا بأس به .

وفي شعبان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، ومات من الماليك والأطفال والعبيد والجواري جانب . فلما كثر الموت في الماليك صنع السلطان ثلاثين نعشا يرسم من يموت بالقلعة ، وحصل بذلك النفع .

وفيه توفي اينال الفقيه الحسني الظاهري جقمق أحد الأمراء الطليخانات حاجب ثاني ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن شخصا من الماليك السلطانية مات وغسل وكفن ، ووضع في نعشه ، وحمل ليدفن ... فيينما هو في أثناء الطريق اضطرب وتحرك في أكفانه ، فوضع على الأرض ، وحلوا أكفانه ، فاستوى قائما ، وعاش بعد ذلك مدة .

وفيه توفي العزى عبد العزيز بن البرهان ، وكان من مشاهير الناس لا بأس به ، ومات بالطعن . وفيه من الحوادث أن الصوفية الذين بالحانقاه البيرسية ثاروا على شيخهم الشيخ جلال الدين الأسيوطلي ، وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه في القسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . وكان طومان باي الدوادار محظا عليه ، فلما تسلطن فيما بعد ، اختفى الشيخ جلال الدين الأسيوطلي ، في مدة سلطنته ، حتى كان من أمره ما سذكروه .

وفيه خلع السلطان على ماماي جوشن ، وقرره في الحجوية الثانية .

وفيه صارت معاملة الفلوس الجدد بالعدد ، وبطل أمر وزنها بالميزان .

وفيه تزايد شر الماليك ، وجاروا على الناس بخطط القماش من الدكاكين ، والبضائع من الأسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء . قيل ان بعض الماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة في وجهه فجفل منها فرس ذلك المملوك ووقع على الأرض ، فقام وهاش وضرب الحمالين الذين كانوا يحملون الميت . فلما عاين ذلك الحمالون ، ألقوا الميت على الأرض ، وهربوا . فلما هربوا وقع المملوك في الميت ، وضربه بالدبوس ، حتى اشتفى . وصار الميت ملقى على الأرض الى آخر النهار . وقد جرت هذه الواقعة في سويقة صفية .

وصار الطعن عمالا ، والماليك جائرة في حق الناس بالأذى حتى قلت في ذلك هذه المداعبة ، وهي قولى :

قد قلت للطعن والماليك

جاوذا الحسد في النكاية

ترققا بالورى قليلا

في واحد منكما كفاية

وكان الناس على ما ذكرناه من هذه الأفعال الشنيعة ، والملك الناصر في طيشانه ولعبه .

وفيه نزل الناصر الى بولاق ، ليلة سيدي اسماعيل الأمبابي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ، وشق البحر في مركب ومعه جماعة من العوام يغنون على النداء والاجهار ، وكان معه أولاد عمه وهما جانم وأخوه جانى بك ، وأحرق تلك الليلة ببولاق حراقة فقط عظيمة ، وبات في المركب تلك الليلة وكانت من الليالى المشهورة . وفعل مثل ذلك عدة مرار .

وفيه مات بالطاعون شاه بضاع بن دلغادر أمير التركمان ، وكان مقيما بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذين توجهوا الى مواجهة أقبردى ، قد تبعوه الى عين تاب ، وتقاتلوا معه هناك ، ووقع بينهم واقعة عظيمة ، فانكسر أقبردى كسرة مهولة ، وقتل من عصبته جماعة كثيرة ، منهم اينال السلحدار نائب حلب الذى كان معه ، وقتل لعللى دولات معه ولدان ، وقتل من الخاصكية والماليك الذين كانوا معه جماعة كثيرة . وقد حاربه كرتباى الأحمر نائب الشام أشد المحاربة وكان قد توجه اليه صحبة العسكر ، الى عين تاب ، حتى تحارب معه وانكسر وهرب ، وطلع على جبل الصوف ... وقيل انه لما انكسر وصعد على جبل الصوف توجه الى نحو الفرات بمن معه من الأمراء والماليك .

وفي رمضان تزايد أمر الطاعون ، وفتك في الماليك والأطفال والغرباء والعييد والجوارى فتكا ذريعا ، حتى قيل انه انتهى الى ثمانية آلاف من الأموات ، فكان كما قيل :

ألا ان بحر الوباء قد طغى

وقد أرسل الطعن طوفانه

ولا عاصم اليوم من أمره

سوى رحمة الله سبحانه

ومات من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم : الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن العينى ، وكان شابا رئيسا حشما أديبا عاقلا ، تولى من الوظائف حسبة القاهرة ، ونظر الجوالى ، ووكالة بيت المال ، وتوجه الى الحجاز أمير أول فى دولة الملك الناصر ، وكان عنده من أخصائه . ومات يبرس ابن حيدر الأشرفى قايتباى ، نائب القلعة . ومات الأمير جان بلاط الغورى ، رأس نوبة النوب ، وكان قليل الأذى

لا بأس به ، وكان أصله من ماليك الأشرفى قايتباى . ومات صنتباى المبشر الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات . وماتت شاشة أم أقبردى الدوادار الجركسية ، فنزل السلطان وصلى عليها وحمل نعشها قانصوه خال السلطان ، ومشى به خطوات . وماتت أم الجمجمة بن عثمان ، سرية أبيه محمد بن عثمان ، ملك الروم . وكان اسمها ججك ، وكانت لابأس بها . ومات قيت الأشرفى أحد العشراوات ، وشاد الطرانة . ومات عبد القادر الألواحى بواب الدهيشة ، وكان عند الملك الناصر من جملة المقربين ، وكانت الناس تسعى فى الوظائف على يديه .

وفيه من الوقائع أن شخصا من الماليك الجلبان طعن ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم جملة قماش ، ما بين بشاخين ومقاعد ومخدرات وبسط وغير ذلك ، ومبلغا نحو من ثلاثة آلاف دينار ، وأخبر أنه نهب ذلك من مكان سماه . ثم قال لغلامه : « امض وائتنى بأصحاب ذلك القماش » . فمضى الغلام والشهود جالسون عنده فغاب ساعة ، ثم أحضر أصحاب القماش ، فعرفهم ذلك المملوك فسلمهم تلك الأموال والقماش بحضرة الشهود . وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا مات من ليلته ... فعد ذلك من الوقائع . ومات آخر من الماليك الجلبان فوجد عنده خمسة عشر ألف دينار ، فذكر غلامه أنه نهب ذلك من حاصل أقبردى الدوادار ، فى حارة زويلة ، فحمل ذلك المال الى خزائن السلطان . ومات مصرباى بن على باى الذى كان نائب قلعة حلب وعزل عنها .

وفيه رسم السلطان لما كثر الموت بعمارة سبيل المؤمنين ، وهى المصلى التى بالرميلة ، وكان خرابا من حين حاصر أقبردى القلعة .

وفيه جدد الأمير طومان باي الدوا دار الثاني ما فسد من مدرسة السلطان حسن ، من حين كانت واقعة أقبردى الدوا دار ... فجدد باب المدرسة الذى كان احترق ، وسد شبايك القبة ، وأصلح ما فسد منها ، وأقيمت الخطبة بها وصلاة التراويح ، وكانت معطلة نحو من عشرة أشهر بسبب ما تقدم .

وفيه قبض على انسان زعموا أنه ينش القبور على الموتى ، ويسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته ، وأرخوه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطافوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر ، واستمر معلقا الى أن مات . ثم نودى للحفارين بحفظ أكفان الموتى .

وفى أواخره تناقص أمر الطاعون ، وكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومات به زيادة على مائتى ألف انسان ، من كبير وصغير ، ومن الممالك السلطانية نحو من ألف ومائتى انسان .

وفى شوال خلع السلطان على قرقماس بن ولى الدين ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن جان بلاط الغورى بحكم وفاته .

وفيه قرر بلباي المؤيدى ، من جملة المقدمى الألوف بمصر .

وفيه فى رابع عشره وصل سودون الدوا دارى ، أحد الأمراء العشراوات ، وصحبته عدة رعوس ممن قتل فى المعركة التى وقعت بين أقبردى والعسكر ، الذين خرجوا من مصر ، كما تقدم . فكان عدة تلك الرعوس احدى وثلاثين رأسا . وكان فيها رأس اينال السلحدار ، نائب حلب الذى فر مع أقبردى ، وفيها رأس ابن على دولات الذى قتل فى المعركة . وقيل ان الذين قتلوا اثنان وثلاثون ... فكان لدخولهم فى القاهرة يوم

مشهود ودخلت الرعوس وهى مشهورة على رماح ، وشقوا بها من القاهرة والمشاعلى بنادى عليها ... فلما عرضوا على السلطان ، رسم بأن يعلقوا على أبواب المدينة ، فعلقت رأس اينال ، ورأس ابن على دولات ، على باب زويلة . والباقي على باب النصر وغيره ... وكل هذا يشق على الملك الناصر فى الباطن . وكانت له عناية بأقبردى وتعصب . وأخبر سودون الدوا دارى أن كرتباي الأحمر نائب الشام رجع الى الشام ، وأن جان بلاط نائب حلب رجع الى حلب ، وأن العسكر واصل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار أن كرتباي الأحمر لما استقر فى نيابة الشام ، استولى على نيابة قلعة الشام أيضا ، مضافا لما يسيده من نيابة الشام ، وهذا الأمر عزيز الوقوع جدا

وفيه امر السلطان ببناء جامع الفيوم ، وكان القائم فى ذلك الشيخ عبد القادر الدشطوطى . وأرسل السلطان صحبته جماعة من البنائين والمهندسين .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن كاتب السر بدر الدين بن مزهر لما توجه الى مكة أصلح بين أمير مكة المشرفة وأخيه بمرسوم السلطان . وجاءت الأخبار من مكة المشرفة أيضا بوفاة برد بك نائب جدة ، وكان أحد المقدمين بمصر ، وخرج منفا الى مكة المشرفة بعد كسرة أقبردى ، فمات بها . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء الوحشة بين السلطان وخاله ، وصار بعض الأمراء يرمى بينهما الفتن ، حتى بلغ بذلك مقاصده ، وخيلوا الملك الناصر من خاله ، وخيلوا خاله منه بأشياء من أنواع الحيسل والخداع ، وأخذوا فى أسباب ما تتم به الحيلة

على قتل الملك الناصر ، وقد سعوا في ذلك سعى
الشاطر ، حتى كان من أمره ما سنذكره في
موضعه . وقد قيل في معنى ذلك :

صف بالدهاء الذي يخشى الدهاء فما

ينام خيفة أن تبدو له الحيل

فقد يبيت قلب ضمه أسد

ولا يبيت قلب ضمه رجل

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجميل زائد ،
وكان أمير ركب المحمل تاني بك الجمالي ، وأمير
ركب الأول جان بلاط الموتير المحتسب .

وفيه جدد الأمير قانصوه خال السلطان خطبة
في المدرسة البشيرية التي يدرب الخازن ، ولم
يكن بها قبل ذلك خطبة ، فجدد الخطبة بسبب
مما ليكه ، وكان ساكنا بالقرب منها .

وفيه قبض الوالي على شخص من السراق ،
فلما عرضه على السلطان أمر بقطع يده ورجله ،
وألزم ذلك السارق أن يقطعها بيده ، ففعل ذلك
بحضرة السلطان .

وفيه دخلت التجريدة التي توجهت الى أقبردى
الدوادار ، وقد حضروا من غير اذن السلطان ،
فشق عليه ذلك وأخذ حذره من الأمراء لكونهم
دخلوا من غير اذن منه .

وفي ذي القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن
أقبردى الدوادار لما بلغه أن التجريدة عادت الى
مصر ، عاد الى عين تاب ، وصار ينهب البلاد ،
ويقطع الطريق على التجار . فلما بلغ الأمراء ذلك
أعياهم أمره .

وفيه تزايد أمر العربان بالشرقية ، حتى
خرج اليهم قانصوه خال السلطان ، وقرقماس
رأس نوبة كبير . فلما خرج قانصوه خال السلطان
سرح في بلاد الشرقية والغربية سرحا عظيمة ،
وغاب نحو من شهر ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة

من الكشاف ومشايخ العربان وغيرهم .
وفيه قصد السلطان أن يخرج الى مولد سيدي
أحمد البدوي رحمه الله ورضي عنه ، فلم يمكنه
الأمراء من ذلك .

وفيه توفي الخطيب الوزيري شمس الدين محمد
ابن ابراهيم بن عثمان المالكي ، وكان من أهل العلم
والفضل لا بأس به .

وفي ذي الحجة عاد قانصوه خال السلطان من
السرحة ، فنادى له السلطان في القاهرة بالزينة
فزينت له . ثم انه دخل في موكب حافل ، وطلع
الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية . فلما
نزل من القلعة ، ووصل الى رأس الصوة ، لاقاه
جماعة من المماليك السلطانية الجليان ، وبأيديهم
دبابيس مسحوبة ، فقالوا له : « قل للسلطان ينفق
علينا بسبب نصرته على أقبردى » . واستمروا
يحاصرونه من رأس الصوة الى أن دخل بيته
الذي عند درب حمام الفارقاني . فلما دخل الى
بيته وقفوا له على الباب حتى قلع الخلعة وأكل
المدة ، وأركبوه ثانيا وطلعوا به الى القلعة ، وهو
مهدد معهم بالقتل . فلما طلع الى السلطان لم
يوافقه على ذلك ، فرد الجواب على المماليك بالمنع
من السلطان ، فاستمروا صابرين حتى مضى عيد
النحر وانقضى أمر تفرقة الأضحية ، فلبسوا آلة
الحرب ، وطلعوا الى الرملة ، وحاصروا السلطان
وهو بالقلعة — وكان قانصوه خاله عنده فوق
القلعة — وتوجهوا الى بيت الأتابكي أزيك فأركبوه
غصبا وطلعوا به الى القلعة ، فتكلم مع السلطان
في ذلك فامتنع ساعة . ثم انه وقع الاتفاق على أنه
ينفق عليهم بعد مضى شهر ، لكل مملوك خمسون
دينارا . فلما نزل الأتابكي أزيك من القلعة ، رد
عليهم الجواب بذلك فخدمت تلك الفتنة وقلعوا
آلة السلاح .

وفيه أخذ السلطان في أسباب جمع الأموال ، فورع على المباشرين جانباً ، وعلى قضاة القضاة جانباً ، وعلى أعيان الناس من التجار ، وغير ذلك حتى على اليهود والنصارى قاطبة ، ومشاهير السوق والمتسبين . وكان القائم في ذلك قانصوه خال السلطان وأعوانه ، وهم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وإبراهيم المهاجرى امام الأمير قانصوه خال السلطان ، وقانى بك الدوادار . فجلس قانصوه خال السلطان في داره التى عند درب حمام الفارقانى ، وأحضر المعاصير والكسارات ، وأحصى خود حديد على النار ، وطلب الناس بالرسل الغلاظ الشداد . فأما قاضى القضاة المالكى ابن تقى فانه اختفى في بيته ، وكذلك قاضى القضاة الحنبلى الشهاب الشيشينى . وطلب القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش فامتنع مما قرر عليه ، فطرح على الأرض ليضرب . وكذلك ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى . وعلى هذا فقس بقية الناس من الأعيان والمشاهير . فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم ، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك ، فكثر الدعاء على الناصر وخاله . وقد تزايد الظلم والجور في تلك الأيام الى الغاية ، حتى فرج الله تعالى عن قريب ، وكان كما قيل :

وماذا ينفع الترياق يوماً

إذا وافى وقد مات اللدين

فلما تكامل جمع الأموال ابتداء السلطان بتفرقة النفقة ، فأعطى لطائفة الممالك القايتهابية ، لكل واحد منهم خمسون ديناراً ، وما عدا ذلك خمسة وعشرين ديناراً .

وفيه أن من أخبار الملك الناصر التى هى في غاية البشاعة ، أنه دخل الى حارة الروم ، وهجم على دار إبراهيم مستوفى الخاص ليلاً ، وقبض على ولده

أبى البقاء ورام توسيطه ، فألقى والده نفسه عليه واقتداه بألف دينار . قيل كان سبب ذلك أن الناصر بلغه أن زوجة أبى البقاء جميلة ، فهجم عليه بسببها فأخفوها منه ، فجرى بسبب ذلك ما جرى . وهذا الكلام مستفاض بين الناس والله أعلم . وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن المسلمين أخذوا حصن جربة من أيدي الفرنج ، وكانوا قد استولوا عليه نحواً من سنة وأشهر ، فكانت النصر للمغاربة على الفرنج .

وفيه كثرت الفلوس الجدد بأيدي الناس ، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد . وصار الدينار الذهب يصرف من الفلوس بثلاثين نصفاً . وصارت البضائع تباع بسعيرين : سعر بالفضة ، وسعر بالفلوس الجدد . وأضر ذلك بحال الناس . وقد وقع في دولة الأشرف قايتباى أن النصف الفضة وصل صرفه بالفلوس أربعة وعشرين .

وفيه تزوج قايتباى قمر أمير آخور كبير ، بنت شبك الدوادار التى كانت زوجة كرتباى ابن عمه السلطان الأشرف قايتباى الذى قتل في واقعة أقبردى بمدرسة السلطان حسن .

وفيه خرج نوروز الخوخ أحد الأمراء العشراوات قاصداً الى كرتباى الأحمر نائب الشام ، وعلى يده مراسيم بالعتب عليه لكونه استولى على نيابة قلعة الشام من غير إذن السلطان . فتوجه اليه وعاد بعد مدة بغير طائل .

وفيه توفى أقباى استادار الذخيرة ، وكان لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة أسنباى الذى كان نائب الاسكندرية ، واتهم بموته كاتب السر لما توجه الى هناك . وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم في أمر عظيم ، ووقع بها الغلاء والفناء والمصادرات ،

وجور السلطان في حق الناس ، كما تقدم ، وأذى الممالك في حق الرعية ، وقد كان الناس في غاية الاضطراب . وما كفى هذا كله حتى فشا في الناس داء يقال له الحب الفرنجي^(١) — أعادنا الله تعالى منه والمسلمين أجمعين بمنه وكرمه — وقد أعيا الأطباء أمره ، ولم يظهر هذا بمصر قط الا في أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى .

سنة أربع وتسعمائة (١٤٩٨ — ١٤٩٩) :

في المحرم ، كان خليفة الوقت المستمك بالله آيا الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان العصر الملك الناصر أبا السعادات محمد ابن الأشرف قايتباي رحمه الله . وأما القضاة الأربعة : فالقاضي زين الدين زكريا الشافعي ، والقاضي برهان الدين بن الكرني الامام الحنفي ، والقاضي عبد الغني بن تقي المالكي ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الشيشني الحنبلي .

وأما الأمراء المقدمون فقد تقلبت أحوالهم بموجب ما جرى من الفتن والقتل ، كما تقدم في أخبار السنة الخالية . فكان الأتابكي أزيك بن ططخ أمير كبير يومئذ . وتانى بك الجمالى الظاهري جقمق أمير سلاح ، وقانصوه المحمدي المعروف بالبرجي أمير مجلس ، وقانى باي الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه خال السلطان دوادار كبير واستادار كبير وكاشف الكشاف ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير ، وقيت الرحبي حاجب كبير . وبقيّة الأمراء على حكم ما تقدم من أخبارهم . وأما المباشرون فالقاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ونائبه ، وصالح الدين بن الجيعان ، والقاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، والقاضي علاء الدين بن الصابوني ناظر

(١) هو « الزهرى » ، عاد به كولومبس وملاحوه من أمريكا ، ولم يكن معروفا في العالم القديم من قبل .

الخاص ، ووكيل بيت المال ، وبقيّة المباشرين على حكم ما تقدم .

وفيه من الوقائع أن النيل أوفى تاسع عشر مسرى الموافق لرابع المحرم . وكان السلطان عول على أن ينزل ويفتح السد بنفسه ، وأخذ في أسباب ذلك فلم يمكنه الأمراء من ذلك خوفا عليه من القتل ، فشق عليه ذلك . فلما صلى العشاء نزل من القلعة على حين غفلة ، وقدامه عدة قوائيس ومشاعل ، ومعه أولاد عمه وبعض خاصكية نحو من مائة خاصكى . فتوجه الى السد وفتحه تحت الليل ، ثم توجه الى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا ثم عاد الى القلعة ، وكل هذا تحت الليل . فلما طلع النهار وجد الناس الماء في الخلجان والبرك قد غمرت بالمياه فتعجبوا من ذلك . وما وقع قط في الجاهلية ولا في الاسلام أن السد فتح بالليل . وقد قطع على الناس فرحتهم يوم الوفاء ، وما كان فيه من القصف والفرجة المعتادة . وفي هذه الواقعة يقول الناصري محمد بن قانصوه بن صادق :

منذ للسلطان قالوا للورى بالكسر جبر
كسر السد بليل فعدا للناس كسر

وفيه توجه السلطان الى قناطر أبى المنجا ، وفتح سدها أيضا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ضرب السلطان الكرة بالحوش في غير موكب . وكان معه بعض أمراء الطبلخانات والعشراوات ، منهم الأمير طومان باي الدوادار الثاني ، فاقتحم على أخذ الكرة من السلطان ، فحنق منه السلطان وضربه على ظهره بالصولجان غير ما مرة ، فكان ذلك من جملة ما حقه طومان باي ، حتى كان سببا لقتله عن قريب .

وفيه مر السلطان من بين القصرين بعد العشاء

فرأى شخصا ماشيا في السوق ، وقد خرج من الحمام . فقيل له هذا الرجل سكران ، فوسطه ولم يفحص عن أمره ، وراح ذلك الرجل ظلما . وكان الناصر قد تزايد شره في تلك الأيام الى الغاية .

وفيه نادى السلطان لسكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية فامتثلوا ذلك . وصار ينزل في المراكب ، ويطوف البركة هو وأولاد عسه ، وان رأى امرأة جميلة في بيتها هجم عليها ، وطلع لها من الطاق ، وأخذها غصبا ، وضرب زوجها بالمقارع في وسط بيته . فارتاب الناس منه ، وبقي على رءوسهم طيرة .

وفيه من الحوادث أنه أشيع بين الناس أن السلطان عمل له برقا حافلا بترية أييه ، وقد عول على أن يسافر في الدس الى نحو البلاد الشامية بسبب أقبردى الدوادار ليكون له عوناً على نصرته ودخوله الى مصر . وكان الناصر له عناية بأقبردى ظاهرا وباطنا . فلما بلغ الأمراء ذلك توجهوا الى المكان الذى فيه السنيح ونهبوه الى آخره ، وضربوا الغلمان الذين تعينوا الى السفر مع السلطان . وكادت أن تكون فتنة مهولة بسبب ذلك ، وقصدوا أن يلبسوا آلة السلاح ، ويثيروا فتنة عظيمة ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه وصل الحاج ودخل الى القاهرة بعد أن قاسى مشقة زائدة وعطشا وقلة أمن من فساد العربان . وأشيعت الأخبار بوفاة يوسف بن أبى الفتح ، كاتب الممالك ، مات بمكة المشرفة وكان مجاورا بها ، وكان لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة ، وهى أن المحمل لما دخل الى القاهرة صحبة الحجاج شق المدينة ، فلما أن وصل الى جامع الماردانى برکوا جمل المحمل هناك ،

وأرادوا أن ينزعوا ما عليه من القماش ، واذا بقاصد من عند السلطان يطلب المحمل ، وكان بقبة يشبك التى بالمطرية . فتوجهوا به اليه ، فشقوا به من القاهرة ثانيا ، حتى رآه السلطان وهو بالقبة ، ثم عادوا به فشق القاهرة ثالث مرة ، فعد ذلك من النوادر التى قط ما وقعت .

وفى صفر جاءت الأخبار من البحيرة بأن الجويلى ومرعى آثاروا فتنة مهولة بالبحيرة ، ونهبوا البلاد وأسروا النساء وقتلوا الأطفال ، وأشيع أن الجويلى حلف أنه لا يمكن أحدا من أرباب الدولة أن يأخذ خراجا من بلاد الغربية والبحيرة فى السنة المذكورة . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة الى البحيرة فلم يوافق أحد من الأمراء ولا العسكر على ذلك ، وكان النيل فى قوة زيادته . ثم ان السلطان نادى للعسكر بالعرض فى الميدان ، فلما حضر العسكر لم ينزل اليهم السلطان ، وقد تخوف على نفسه ، فانقض ذلك الجمع ، وكثر القتل والقتل بين الناس . وكانت أيام الناصر كلها فتنة وشرورا . وفيه ظهر البدرى بن مزهر كاتب السر ، وكان مختفيا ، فأرسل له السلطان بالأمن والأمان .

وفيه قرر السلطان قانصوه جركس ، المعروف بابن اللوقا ، فى حجوية الحجاب بدمشق .

وفيه قرر ابراهيم بن يحيى المهاجرى فى نظر الديوان المفرد بواسطة قانصوه خال السلطان ، فانه كان أمامه .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن جميع الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون وجوهها ويخرفونها بالدهان ، فحصل للناس بسبب ذلك غاية المشقة . ثم رسم بتبييض وجوه الربوع المطلة على الشوارع . وكل هذا من وسائل سوء التى حوله وعقل الصغار .

وفيه تزوج السلطان بمصرياى الجركسية ،
زوجة كرتباى أخى أقبردى الدوادار ، الذى كان
نائب صفد ، ووقع بين السلطان وأمه بسبب زواج
مصرياى ما لا خير فيه ، وكانت عليه كعب الشوم ،
فأقام معها دون الشهر وقتل .

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، فلما تكامل المجلس حضر السلطان
المصحف العثمانى بين يديه وحلف العسكر قاطبة
عليه ، ثم حلف الأمراء . فلما حلفوا قالوا مثل
ما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك
منا أحدا بغير سبب ، فتوقف السلطان فى ذلك
اليوم ، وكان المتكلم بين السلطان والأمراء تانى
بك الجمالى أمير سلاح . فانفض المجلس على مانع
ونزل الأمراء من غير رضا .

فلما كان يوم الجمعة لم يطلع من الأمراء أحد
الى صلاة الجمعة مع السلطان ، واجتمعوا فى بيت
قانسوه خاله ، ولم يمكنوه من الطلوع الى القلعة .
واستمر الحال الى يوم الاثنين . ثم ان السلطان
أرسل نقيب الجيش الى طومان باى الدوادار
الثانى وطراباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر شاد
الشراب خاناه ، وأسنباي . فقال لهم نقيب الجيش
عن لسان السلطان : « رسم السلطان لكم بأن
تكتبوا وصية وتخرجوا فى عقيب هذا اليوم
وتوجهوا الى مكة المشرفة من البحر » . فلم
يلتفتوا الى كلام نقيب الجيش ، وقالوا له :
« ما نخرج من مصر لموضع ، ومهما يفعله بنا
يفعل » . فعند ذلك أضمرؤا له السوء ، وتغيرت
عليه خواطر الأمراء قاطبة وهو فى غفلة عما يراد
به . وقد حقدوا عليه قبل ذلك مما يقع منه من
هذه الأفعال الشنيعة ، وصار كل أحد من الناس
حاقدا عليه باطنا وظاهرا من سوء تديره . كما قيل :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه
وفيه ظهر مصر باى وآخرون من الأمراء ممن
كانوا مختلفين من عصابة أقبردى الدوادار . فلما
ظهروا طلوعوا الى القلعة ، وهم : مصرياى ،
وقانبك أبو شامة ، وقانسوه التاجر ، وتمراز
جوشن ، وقانسوه الساقى ، وآخرون من
الخاصكية . وكان ظهورهم بأمر السلطان وجماعة
من الاينالية ، منهم : دولات باى بن عيسى ،
وبرقوق الساقى . فلما قابلوا السلطان خلع
عليهم وعلى خاله ، وأشيع بأن الصلح قد وقع
بين حلف أقبردى الدوادار وبين حلف قانسوه
خمسائة . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق
الملك الناصر ، وأخذ عقيب ذلك أيام .
وفيه نزل السلطان بقبة يشبك الدوادار التى
بالمطرية فأقام بها الى آخر النهار ، وعاد الى
القلعة . وكان هذا آخر ركوبه الى جهة قبة يشبك .
وفيه عمل السلطان المولد النبوى على صاحبه
أفضل الصلاة والسلام ، فلم يطلع الى القلعة من
الأمراء سوى أزبك أمير كبير ، وتانى بك الجمالى
أمير سلاح ، وبعض أمراء عشراوات ، والقضاة
الأربعة . ولم يطلع خاله قانسوه ، ولا أحد من
الأمراء ، ولا حضروا المولد . ووقع فى ذلك اليوم
من المماليك الجلبان فى حق الأمراء والفقهاء ما لا
خير فيه ، ورجموا الأمراء من الأطباق ، وكبوا
عليهم الماء المتنجس بالأوساخ ، وخطفوا عمائم
الفقهاء ، وكان يوما مهولا . فلما انقضى يوم المولد
بعث السلطان يقول لطومان باى دوادار ثانى :
« اخرج فى هذه الساعة على جرائد الخيل الى جهة
البحيرة بسبب فساد جويلى ومرعى » . فخرج
طومان باى من يومه ، وأتى الى بر الجيزة ،
ونصب بها خيامه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر المذكور نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القناطر العشر ، وكان ذلك في أواخر النيل . فعدى الى بر الجيزة وسبقه الخيام والمطبخ . وكان عنده جانب كبير من بقية احتياج المولد . فلما وصل السلطان الى الوطاق نزل به ، ولم يكن معه سوى أولاد عمه قيت ، وهما جانم وجانى بك أخوه ، وجماعة من الخاصكية . ولم يتوجه معه أحد من الأمراء ، ولا خاله . فأرسل أحضر أبا الخير ومعه خيال الظل ، وجوق مغانى العرب ، وبرابوه رئيس المحبطين . فأقام هناك ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش . وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح . ومد هناك أسطة حافلة وحلوى وفاكهة وغير ذلك ، وأنعم على جماعة من الخاصكية بخيول وقماش ومال ، وانشرح فى تلك الأيام بخلاف العادة ، وتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بأمثاله من المقدمين . فكان كما قيل :

تروى من الدنيا فانك لا تدري

إذا جن ليلى هل تعيش الى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة

وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى يمسى ويصبح آمناً

وقد نسجت أكفائه وهو لا يدري

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر الشهر المذكور أدركت السلطان تفرقة الجامكية ، فأذن للخاصكية الذين كانوا معه أن يتقدموا قبله كي لا يزاحموه وقت التغذية ... فتقدم جماعة منهم وراحوا الى بيوتهم ... فصلى السلطان العصر وركب ولم يبق معه سوى ابنى عمه وبغض سلحداريتيه . فلما ركب مر على الطالبية ، وكان الأمير طومان باى هناك بقصد التوجه الى البحيرة ،

كما تقدم ذكره . فلما مر عليه خرج له طومان باى مسرعاً وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة قبيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن ومعلقة ، فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن . فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك ارجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك ، نحو من خمسين مملوكاً وهم لا يسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به وعاجلوه بالحسام قبل الكلام . فقتلوه شر قتلة ، وحملوا عليه أى حملة . فجاءته ضربة على عاتقه وكتفيه فهدلته ، وطعن فى جوفه فوق عن فرسه الى الأرض ، وقتلوا ولدى عمه الاثنين جانم وأخيه جانى بك وكانا شابين جميلين ، وقتل معهما شخص من السلحدارية يقال له أزيك الغمري الخاصكى المعروف بالبواب ، وكان من خواص السلطان . وتقرب هذه الواقعة من واقعة الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون . وقد قتل مثل هذه القتلة بعيتها فى تروجة بمكان يعرف بالحمامات ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعائة . قتله مناليك أبيه أيضاً .

وكانت قتلة الملك الناصر فى يوم الأربعاء بعد العصر خامس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة ، وقتل بأرض الطالبية . وقد نسب قتله الى طومان باى وأزيك وأزدمر وبعض مناليك أبيه . فكان كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفر اليهم

فهمو كربتى فأين المفسر

أو كما قيل :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها

فكيف اذا الرعاة هى الذئاب

فلما قتل الملك الناصر صارت جثته مرمية

وكان الملك الناصر حسن الشكل ، أبيض اللون ،
عربي الوجه ، نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان
ضعيف الخط في العلامة . قتل وله من العمر نحو
من سبع عشرة سنة . وكان مولده سنة سبع وثمانين
وثمانمائة . وكان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة
لكنه كان جاهلا عسوفاً جرىء اليد سفاكاً للدماء
سيئ التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف
الناس . ووقعت منه أمور شنيعة في مدة سلطنته
لا ينبغي شرحها . وليس له من المحاسن الا القليل .
وسار في المملكة أقبح سير ، ولم يقع من أبناء
الملوك من السوء قط ما وقع منه في سائر أفعاله ،
حتى جاوز الحد في ذلك . وفيه أقول :

سلطاننا الناصر المفسدى

أخباره نقلها صحيح

بالجهل أضحى قبيح فعل

فلم يفد شكله المليح

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحو من
سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكانت
أيامه كلها فتناً وشرواً وحروباً قائمة ، كما تقدم
ذكر ذلك من الوقائع . وما كان قصد السلطان
الأشرف قايتباى أن يتسلطن ولده خوفاً عليه من
ذلك .

ولما قتل الملك الناصر تولى بعده خاله المقر
السيفى قانصوه الدوادار الكبير .

الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه

هو الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه ابن قانصوه
الأشرفى ، وهو الثالث والأربعون من ملوك الترك
وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع عشر
من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وكان

على الأرض ، ومن قتل معه . فلما دخل الليل حملته
جماعة شيخ الطالبية ، وأدخلوه مسجداً هناك ،
وألقوه على حصير هو ومن معه وهو ملطخ في دمه ،
ورأسه مشتبكة في جثته ببعض شيء . فبات هناك
في تلك الليلة . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما
وقع للناصر من قتله اضطربت أحوال المدينة
وماجت بأهلها . ولبس العسكر آلة الحرب ، وكانوا
تلك الليلة في اضطراب . وكان جماعة من الأمراء
قرروا مع الأمير قانصوه ، خال السلطان ، أنه اذا
قتل الناصر يكون هو السلطان بعده فتغافل
عن هذه الواقعة حتى قتل الناصر ، ولولا أنهم
استمالوا خاله لما قدروا عليه ولا قتلوه .

فلما كان يوم الخميس صبيحة ذلك الأمر ، بعث
خال السلطان ثلاثة نعوش الى الطالبية ، فأحضروا
جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه جاني بك
وأزبك بك الخاصكى . فلما عدوا بهم من الجيزة
أتوا بهم الى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه
بقرب حمام الفارقانى ، فغسلوا السلطان وأولاد
عمه والخاصكى ، وأخرجوا ولم يكن معهم غير
الحمالين فقط . فأتوا بهم الى باب الوزير فلم
يجدوا من يصلى عليهم حتى أمسكوا بعض الفقهاء
وصلى عليهم . ثم توجهوا بهم الى تربة الأشرف
قايتباى فدفنوا الملك الناصر على أبيه داخل
القبة ، وأولاد عمه على جاني قريب السلطان ،
وأزبك الخاصكى وحده بعيداً عنهم في التربة .
وقد رثيت الملك الناصر لما مات بهذين البيتين وهما
قولى :

يا قبر لا تظلم عليه فظالما

جلى بطلعته دجى الاظلام

طوبى لقبر قد حواه وكيف لا

يحكى السماء وفيه بدر تمام

أصله جركسى الجنس ، اشتراه الأمين قانصوه الألفى مع جملة ممالك وقدمهم للسلطان الأشرف قايتباى فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة . فأنزل بالطبقة مع جملة الممالك الكتائية ، فأقام بها مدة يسيرة . ثم ظهر أنه أخو سرية السلطان أصل باى الجركسية ، أم ولده محمد الذى تسلطن ... فأخرج له السلطان خيلا وقماشاً وصار من جملة الممالك الجمدارية ، فأقام على ذلك حتى توفى الأشرف قايتباى ، وتسلطن ولده الناصر محمد ، فجعله خازن داراً كبيراً ، وبقي يسمى خال السلطان . فلما وثب قانصوه خمسمائة على الملك الناصر كما تقدم ، لم يكن عنده بالقلعة الا خاله قانصوه هذا وجماعة كثيرة من الممالك الجلبان . فقام قانصوه بنصرته هو والممالك الجلبان ، وقاتلوا قتال الموت بعدما أرسل قانصوه خمسمائة بإدخال الناصر الى قاعة البحرة وتقييده . فلما انتصر الناصر على قانصوه خمسمائة ، خلع على خاله قانصوه ، وقرره أمير طبلخانات وشاد الشراب خاناه دفعة واحدة ، فعظم أمره وشاع بين الناس ذكره .

ولما ركب أقيردى الدوادار وانكسر ، وتوجه الى البلاد الشامية ، خلع السلطان على خاله وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضاً عن أقيردى . ثم قرره فى الوزارة والاستادارية فعظم أمره جداً . فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يتسلطن بعد الناصر . فاجتمع الأمراء بدار الظاهر تمرىغا ، وحضر الأتابكى أزبك وبقية الأمراء ، وأشيع فى ذلك اليوم أن قانصوه خمسمائة فى قيد الحياة ، فنودى له بالأمان وأن يظهر فلم يكن لهذا الكلام تأثير ، وبطلت هذه الاشاعات . ثم قالوا للأتابكى أزبك تتولى السلطنة أنت ، فحلف بالطلاق ثلاثاً من بنت الظاهر بأنه ما يتسلطن ، وأن يعود الى مكة المشرفة كما كان . ثم صعدوا الى باب السلسلة

وحضر قانصوه خال السلطان الناصر من يتيه المشهور ، وصعدوا الى باب السلسلة ، ووقع الاتفاق على سلطنته . وكان القائم فى ذلك طومان باى الدوادار الثانى ، فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة . وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقي المالكى ، والشهاب الششتينى الحنبلى ، فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الأربعة بذلك . وتلقب « بالملك الظاهر أبى سعيد » وذلك فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة . وذلك فى أثناء الساعة الرابعة وهى لزحل ، فأحضر شعار الملك وهو الحجة والعمامة السوداء والسيف البداوى . فأفيض عليه شعار الملك ، وقدمت له فرس النوبة ، وركب من سلم المقعد الذى يباب السلسلة ، ومشت الأمراء بين يديه ، وركب الخليفة معه ، وتقدم الأتابكى أزبك وحمل القبة والظير على رأسه ، وكان هو أولى بالسلطنة من كل أحد ، وقد فاتته عدة مرار كما قيل :

إذا رفع الزمان محل شخص
وكان سواه أولى لو تصاعد
فكم فى العرس أبهى من عروس
ولكن للعروس الوقت ساعد
فلما طلع الظاهر الى القصر جلس على سرير الملك
فأول من قبل له الأرض الأتابكى أزبك ، ثم بقية
الأمراء شيئاً فشيئاً . وقيل ان الذى لقبه بالملك
الظاهر هو تانى بك الجمالى أمير سلاح .
فلما جلس خلع على الخليفة ونزل الى داره ،
وخلع على الأتابكى أزبك بالاستمرار فى الأتابكية
وخلع على طومان باى الدوادار الثانى وقسوره فى
الدوادارية الكبرى عوضاً عن نفسه . ثم دقت
البشائر بالقلعة ونودى بإسسه فى القاهرة ، وارتفعت

الأصوات له بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته ، بغضا في الملك الناصر مما كان يفعله من الأفعال الشنيعة . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم ، خطب باسم الملك الظاهر على المنابر . وجاء في حال سلطنته بأشياء على الوضع وانصلحت الأحوال في أيامه على قدر ما كان جلبا . فتولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة . وكان له عقل وافر وثبات جنان . والذي وقع له لم يقع لأحد من مبتدا دولة الأتراك الى الآن ، فانه كان من دخوله الى مصر واقامته في الطبقة وحضوره من بلاد جركس وامرته وسلطنته دون الست سنين ، وهذا لم يتفق لأحد من الأتراك قبله . وكان من جملة الجمدارية في دولة الأشرف قايتباي ، ثم صار في دولة الناصر كما تقدم ، وكان له سعد خارق من العناية الأزلية في القدم كما قيل :

إذا خصص الرحمن عبدا بنعمة

فكل حسود بعد ذلك مقمع

فيطالب العلياء مهلا ولا تطل

فليس يسعى المرء ما شاء يصنع

وفي حال سلطنته حضر سيف كرتباي الأحمر نائب الشام لموته ، وقد مات الناصر بحسرة أن يسمع بذكر موته . ويقال ان الناصر رشا على قتل كرتباي الأحمر بألف دينار . قيل ان بعض غلمانه سمه في زيق الكوفية ، وقيل في قبة العرقية فلما لبسها وعرق سرى السم فيه فورم وجهه ووصل الورم الى قلبه فمات . وقد تمت حيلة الناصر عليه . وكان كرتباي الأحمر أميرا جليلا ، رئيسا ، وكان يحجر على الناصر وينهاه عن هذه الأفعال الشنيعة ، فكرهه بواسطة ذلك . وكان الناصر يصور أوراقا بقاعة البحرة بهيئة كرتباي الأحمر وهو مسر على جمل والناس تشبهه . وكان

كرتباي يصرخ في وسط مجلسه في الشام ، ويقول : « أنا من تحت حكم صبي أو امرأة » يعني الناصر وأمه . ولما استقر كرتباي في نيابة الشام ملك قلعتها وطردها ، ووقع منه أمور شتى في حق السلطان الناصر يطول شرحها .

وفي ذلك اليوم ثار جماعة من المماليك الجلبان على ناصر الدين الصفدي وكيل بيت المال ، فضربوه ضربا مبرحا حتى كاد أن يموت .

وفيه عمل السلطان الموكب بالقصر ، وخلع على قسروه بن اينال ، وقرره في نيابة حلب عوضا عن جان بلاط بن يشبك ، وأرسل الى جان بلاط خلعة ونقله من نيابة حلب الى نيابة الشام عوضا عن كرتباي الأحمر بحكم وفاته .

وفيه قرر الأمير طومان باي في الوزارة والاستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى وفيه ثار جماعة من المماليك الناصرية على الأمير طومان باي ورجموه من الطباق ، وقصدوا قتله غير ما مرة ، وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتل الناصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بسد جميع الطباق والشبايك والمناور التي تطل على دهايز القلعة من طباق المماليك .

وفيه خلع السلطان على طراباي الشريفى ، وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن طومان باي المذكور . وقرر تاني بك الجمالي ، أحد الأمراء العشراوات ، في الخازندارية ، وقرر أقباي الطويل في نظر الجوالي ، وأنعم على بيبرس الأشقر بامرية عشرة .

وفيه قبض الأمير طومان باي على علي بن رحاب المغنى ، وضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس على حمار . وكان علي بن رحاب طالما أدخل نفسه فيما لا يعنيه ، وتعصب

لأقبردى الدوادار ، وصار يسب الأمراء سبا قبيحا
فى المجالس جهارا ، ويهجوهم الهجو الفاحش ،
ويصرح بذلك فى السماعات وهو على الدكة .
وكان كرتباى الأحمر قبض عليه قبل ذلك وأراد
ضربه ، ثم وبخه بالكلام وعفا عنه . فلما زاد فى
هذا الأمر ضربه طومان باى وشهره فى القاهرة ،
والمشاعلى ينادى عليه « هذا جزاء من يكثّر كلامه
ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تحصيل الأموال
لأجل النفقة على الجند ، فقرر على الشهابى أحمد
ناظر الجيش مبلغا له صورة فاخفى . فلما اختفى
خلع السلطان على القاضى عبد القادر القصروى ،
وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد
بحكم اختفائه .

وفيه اختفى الشهابى أحمد بن العينى بسبب
مال فرض عليه ، واختفى جوهر المعينى الزمام
بسبب مال فرض عليه . وقبض على محسن
الطواشى الخازندار وآخرين من الطواشية وقرر
عليهم الأموال ، وتسلم طراباى محسن الخازندار
والطواشية وعاقبهم ، واستخلص منهم الأموال ،
حتى باعوا جميع ما يملكونه من بيوت وقماش ولم
يبق مما قرر عليهم شيء . وكان من جملة الطواشية
مسك الساقى وغيره من الطواشية .

وفى ربيع الآخر خرج قصره فى نيابة حلب ،
وخرج صحبته أقباى الذى قرر فى نيابة قلعة
الشام .

وفيه تعين قرقماس بن ولى الدين رأس نوبة
كبير فى امرية ركب المحمل ، وتعين أزبك المكحل
أحد الأمراء الطبلخانات فى امرية الركب الأول .
وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار
قد حاصر حلب أشد المحاصرة ، وأحرق ما حولها

من الضياع ، وأشرف على أخذ المدينة . وقد
التم عليه الجهم الغفير من الناس والتركمان ،
وحصل منه غاية الضرر . فلما تحقق السلطان ذلك
عين تجريدة ثقيلة الى أقبردى . وكان باش العسكر
تانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبها من الأمراء
المقدمين : قانى باى أمير آخور كبير ، وسودون
العجمى ، وبلباى المؤيدى ، وجماعة من الأمراء
الطبلخانات والعشراوات وعدة وافرة من العسكر
فأثفق عليهم " واستحثهم على الخروج الى حلب
بسرعة .

وفيه توجه جانم طاز الأبراهيمى أحد العشراوات
الى على دولات بن دلفادار ، وصحبته خلعة
وتقليد الى على دولات باستمراره على امرية
التركمان على عادته .

وفيه أمر السلطان بتوسيط شخص من المماليك
يقال له ألماس ، وقد قتل قتيلا ، فوسطه السلطان
بسبب ذلك .

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين عاشره ،
خرجت التجريدة المعينة الى اقبردى الدوادار ،
وكان لخروجها يوم مشهود
وفيه صنع السلطان مولدا فى غير وقته .
وحضر فيه القضاة الأربعة على العادة ، وكان
يوما حافلا سلطانيا .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى الأشقر
الكاشف بامرية عشرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة هلال
الطواشى الرومى ، وكان صار مقدم المماليك ،
وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء نفقة البيعة على الجند .
وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصره
الذى قرر نائب حلب ، لما دخل الى الشام

وضع يده على مال كرتبای الأحمر جميعه ، وكان مبلغا ثقيلا نحو من سبعة وستين ألف دينار ، وكان هذا أول عصيان قصرود واستخفافه بالسلطان . فلما بلغ السلطان ذلك اتكده لهذا الخبر ، وعين مشد أحد الدوادارية بالتوجه الى قصرود ، وأن يأمره برد ما أخذه من مال كرتبای الأحمر . فلما توجه الى قصرود لم يلتفت الى مراسيم السلطان ، ولا رد شيئا من المال الذي أخذه ، واعتذر بأشياء لم تقبل .

وفيه قبض السلطان على شخص من الحرامية يقال له ابن الوارث ، فقطع لسانه ، وكحلت عينه بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام والسرقة . وقد قبض عليه بعد ذلك وعلى رأسه عملة ... والطبع في الانسان لا يتغير .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كمشبعنا الشريفى نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرج السلطان مقدمة أزيك اليوسفى بحكم أنه كبر سنه وعجز عن الحركة . فلما أخرجت عنه ، أنعم السلطان بها على أزدمر بن على باى الذى كان شاد الشراب خاته .

وفى جمادى الآخرة ، عاد الأمير طومان باى الدوادار من السرحة التى سرحها نحو بلاد الصعيد . وأحضر صحبته من الأغنام فوق الأربعة آلاف رأس زعموا أنها من أغنام عرب عزالة . وجرى فيما بعد أمور غريبة بسبب ذلك يأتى الكلام عليها .

وفيه قرر السلطان أزيك المكحل فى نيابة الاسكندرية عوضا عن كمشبعنا الشريفى . وفيه كثرت المصادرات للمباشرين وأعيان الناس بسبب النفقة ، وقد عجز السلطان عن سدها . وفيه عين السلطان البدرى بن مزهر كاتب السر بأن يخرج الى مكة المشرفة فى بعض المهمات الشريفة .

وفيه قبض السلطان على الناصرى بن خاص بك ، أخى خوند زوجة الأشرف قايتبای ، فأقام فى الترسيم مدة ، وطلب منه مال له صورة ، وعرض للضرب غير ما مرة ، وقد آل أمره الى أن يخرج أمير حاج بالركب الأول ، وأمره بأن يقوم بما يحتاج اليه من ماله ، ولا يأخذ من السلطان شيئا . ثم قبض على أخت خوند بنت خاص بك التى كانت زوجة أقبردى الدوادار ، ورسم عليها وطالبها بمال له صورة ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مائة ألف دينار ، وأجرى عليها ما لا خير فيه من الأنكاد والضرر .

وفيه غمز بعض التجار على قنبك أبى شامة أحد الأمراء ، وكان مختفيا فى مكان فى رأس حارة زويلة ، فكبس عليه والى الشرطة ، ومعه جماعة من المماليك . فلما دخلوا عليه هاش عليهم بالسيف ، فتكاثروا عليه ، ومسكوه وقتلوه بالدار التى كان بها . وكان قنبك أبو شامة من الأمراء الطبلخانات ، وكان من أكبر أصحاب أقبردى الدوادار ، وقد فاته القتل عدة مرار ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

وفى رجب أنعم السلطان على أنس باى وقرره فى شادية الشراب خاته ، عوضا عن أزدمر بن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه خلع السلطان على بخشباى ، وقرره فى نيابة حماه وخرج اليها فيما بعد .

وفيه قرر شخص يقال له محمد الباسطى فى التكلم على جهات الحسبة ، وجرى من الباسطى هذا أمور يطول شرحها ، وآل أمره الى أن ضرب بالمقارع وشهر على جمل فى دولة العادل طومان باى .

وفي شعبان غرق محب الدين محمد ابن قاضي
القضاة الشافعي زين الدين زكريا . قيل انه كان
في مركب فغرق قدام المقياس . وكان غير مشكور
السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير طومان باي
الدوادار لما توجه الى جهة الصعيد ، احتال على
حميد بن عمر أمير عربان هواره ، فلما ظفر به
قتله وحز رأسه وأرسلها الى مصر ، فعلقت
بباب زويلة ثلاثة أيام .

وفيه ، في حادي عشر ، وصل خير بك أخو
قانسوه البرجي ، الذي توجه قاصدا الى ابن
عثمان ملك الروم ، وكان الملك الناصر أرسله
قاصدا عن لسانه الى ابن عثمان ، فأكرمه وأظهر
الفرح بسلطنة الملك الناصر ، فلما بلغه قتلة الملك
الناصر شق عليه ووبخ خير بك بالكلام .

وفيه تغير خاطر السلطان على جان بردي
الغزالي ، كاشف الشرقية ، وأمر بتوسيطه حتى
شفع فيه .

وفيه عاد الطاعون الذي كان في العام الماضي ،
ومات فيه كثير من الناس من الغرباء ممن فر
وعاد بعد رفع الطاعون . وفي هذه السنة كان
الطاعون خفيفا جدا .

وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان
زحفوا على بلاد السلطان ، وآل الأمر الى أن
ابن عثمان أرسل يقول لنائب حلب : « اعزل ابن
طرغل » ، فأجابه نائب حلب الى ذلك وعزل ابن
طرغل .

وفي رمضان خلع السلطان على بهاء الدين عبد
الرحمن بن قدامة الدمشقي ، وقرره في قضاء
الحنبلية ، وصرف عنها الشهاب أحمد بن
الشيشيني فأقام ابن قدامة في منصب القضاء

شهر واحد وأربعة أيام ، وعزل عنها ، وأعيى
الشيشيني الى القضاء ثانيا .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشيخ سر
الدين عبد البر بن الشحنة ، ورسم بنفيه
قوص ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفي ، فر
له بأن يلزم داره ولا يركب ولا يجتمع على آ
من الناس ، وجرت عليه أمور مهولة في ت
الأيام .

وفيه اجتمع السلطان والأمراء في قاعد
البحرة ، وضربوا مشورة في أمر أقبرد
الدوادار ، فوقع الاتفاق في ذلك اليوم على
أقبردي يستقر في نيابة طرابلس ، وأن أقبر
الذي كان رأس نوبة كبير يستقر في الأتابكية
بدمشق ، وأن تاني بك قرا يتوجه الى القند
بطلا ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على جان به
الأبج نائب القلعة ، وأمر بنفيه نحو البه
الشامية ، حتى شفح فيه بعض الأمراء من النص
وفيه وقع للناصري محمد ابن بنت جم
الدين الاستادار كائنة عظيمة ، وهي أن شخص
تخاصم معه ، فشكاه من بيت طراباي — و
يومئذ دوادارا ثانيا — فوقع من ابن بنت جم
الدين في المجلس بعض كلام في حق خصمه
فبطحه طراباي بين يديه ، وضربه ضربا مبر
حتى كاد أن يهلك

وفيه قرر ابن قدامة في قضاء الحنابلة بدمشق
وتوجه اليها فيما بعد .

وفيه ، في يوم الأربعاء عشرينه ، كانت و
الأتابكي أزبك بن ططخ . وقد زعموا أن و
يحيى قد سحره حتى مات . وقبض على شخص
يقال له القصديري وصبيه اتهم أنه الذي سحر
حتى مات . وجرى بسبب ذلك أمور يطو

شرحها . وكان أزبك من أجل الأمراء قدرا ، وأعظم ذكرا ، وكان أميرا جليلا في سعة من المال ، وافر الحرمة نافذ الكلمة وكان أصله من عتقاء الظاهر چقمق ، يقال ان أصله من كناية الأشرف برسبای ، واشتراه الظاهر چقمق من بيت المال ، وأعتقه فصار من عتقائه ، وصاهره مرتين في ابنته . وتولى عدة وظائف سنية بمصر ، منها حجوية الحجاب ، ورأس نوبة كبير ، ثم بقى نائب الشام في دولة الظاهر بلباي ، ثم عاد الى مصر ، وتولى الأتابكية في دولة الأشرف قايتباي ، سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وأقام بها نحو ثلاثين سنة . وكان من مبدأ أمره رئيسا حشما ، قرر في امرية العشرة في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ولا زال يترقى حتى كان من أمره ما ذكرناه . وقاسى شدايد ومحن ونفى نحو من أربع مرات ، وسجن بالاسكندرية مرتين ... وكان كفوا للمهمات السلطانية والتجاريده ، وقد سافر في عدة تجاريد . ويطلب الأطلاب الحافلة ، وصرف على التجاريده من ماله ما لا يحصر وكان مسعود الحركات في سائر أفعاله ، ذا شهامة وعلو همة ، وأظهر العزم الشديد في قتال عسكر ابن عثمان ، ولم ينجى في الأتابكية بعده مثله ، ومات وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة ، وخلف من الأولاد ولده الناصري محمد الذي من بنت الظاهر چقمق ، وولده يحيى ، وصاهره قانصوه خمسمائة في إحدى بناته ، ومات معه . فلما مات ترفع محمد ويحيى بين يدي السلطان ، فوضع السلطان يده على تركته من صامت وناطق قيل وجد له من الذهب العين سبعمائة ألف دينار ، وخارجا عن البرك والخيول والقماش والتحف ، وخارجا عن جهاز ابنته التي ماتت مع قانصوه خمسمائة . وقد قوم ذلك بنحو من مائة ألف دينار ، فحمل

ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة وقد نال أزبك أمير كبير من الدنيا منالا عظيما فكان كما قيل :
أتلهو من نعيمك في قصور
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه الى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
تريك مكان قبرك في القبور ؟
هي الدنيا فان سرتك يوما
فان الحزن عاقبة السرور
ستسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد على المعير

ولولا الذي صرفه أزبك أمير كبير على التجاريد ، وعمارة الأتابكية ، ما كان ماله ينحصر . وكانت تركته تعادل موجود سلار نائب السلطنة . وقد تقدم ذكر ذلك ومن أراد أن يعلم علو همة الأتابكي أزبك ، فلينظر ما صنعه من عمارة الأتابكية ، وقد أنشأها في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وقد تقدم ذكر ذلك كما يقال :
ليس الفنا بفناء يستظل به

حتى يكون له في الأرض آثارا
ومما عد من مساوي أزبك أمير كبير ، أنه كان شديد الخلق صعب المراس ، اذا سجن أحدا لا يطلقه أبدا ، وكان عنده حدة زائدة ، وشح في نفسه ، جرىء اللسان مع تكبر وبطش . وقد فاتته السلطنة عدة مرار فكان كما يقال :

إذا منعك أشجار المعالي
جناها الغض فاقنع بالشميم
فلما علم السلطان بموته نزل وصلى عليه ، وكان له يوم مشهود ، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر چقمق . فلما نزل السلطان وصلى عليه ، قيل له ان الأمير أزبك اليوسفي أمير مجلس في

النزع وسيموت في هذه الساعة . فجلس السلطان على مدورة في سبيل المؤمنين ، ينتظر أزيك اليوسفى حتى يموت ويصلى عليه ، فلم يمت في تلك الساعة فقام السلطان وطلع الى القلعة . فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم توفي فيه الأمير أزيك اليوسفى ، فهبى وصلى عليه السلطان وطلعت جنازته من الصليبة . فلما رجعوا به توجهوا به الى مدرسته التى أنشأها ودفن بها . وكان أميراً جليلاً ديناً خيراً لين الجانب . وكان أصله من ممالك الظاهر چقمق ، وكان يعرف بأزيك الخازندار وناظر الخاص ... مات وهو طرخان وقد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر .

وكان قليل الأذى ، كثير البر والصدقات ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الخازندارية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم مشير الملكة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أخرجت عنه التقدم الى أزدمر بن على باى ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ومات .

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، جاءت الأخبار بأن عربان عزالة ثاروا على السكاشف بالبحيرة . فحاربهم ففروا منه ، وعدوا من الوراق ، وطلعوا بالقرب من شسبرا ، وتوجهوا من خلف الجبل الأحمر ، وطلعوا من بحر بلامه قبالة طرا ، ثم نزلوا بالمعصرة ، وهى ضيعة هناك . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة ، فخرج اليهم فى الحال قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وسنباى نائب سيسى أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم طراباى الشريفى دوادار ثانى والجم الغفير من

العسكر ، فلبسوا آلة السلاح وخرجوا يوم عيد الفطر ، فتوجهوا الى نحو المعصرة فوجدوا هناك عزالة نازلين ، فتقاتلوا معهم قتالاً عظيماً ، فانكسر الأتراك وتشتتوا ، وقتل من الأتراك من الممالك السلطانية نحو من خمسين مملوكاً ، ومثل ذلك من الغلمان والعبيد ، وجرح الأمير قرقماس رأس نوبة كبير فى وجهه ، وكذلك قيت الرحبى . وأما طراباى فقليل انه جاءته حربة فى نحره دبخته من وريده لكنه لم يمت من ذلك ، وجرح من العسكر ما لا يحصى ... ثم ان العرب نهبوا بركهم عن آخره ، وتوجهوا الى نحو بلاد الصعيد فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت وماجت ، فنادى السلطان للعسكر قاطبة للخروج الى المعصرة وهم لابسون آلة السلاح ، فلما وصلوا الى هناك وجدوا العرب قد رحلوا ، والذين قتلوا من العسكر مطروحين على الأرض ، فأرسلوا يطلبون من القاهرة عدة نعوش بسبب من قتل هناك ، فأرسلوا لهم نعوشاً فى سراكب من البحر الى طرا ، فأحضروا فيها من قتل . وصار العيد مثل المأتم ، فى كل حارة نعى ، كأيام الفصول ، بسبب من قتل . وموجب ذلك أن الترك استخفوا بالعرب ، فأكنسوا لهم أكمنة ، فخرجت الترك وخرجت العرب من ورائهم ، فانكسروا وقتل منهم من قتل ، وكانت هذه الحادثة من الحوادث المهولة . وقد قلت فى معنى ذلك :

ألا قولوا لأعراب تجسروا

على حرب فهل يخشوا عقبيه

سهام مليكننا أضحت نفوذا

ونرجو أن تكون لكم مصيبه

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الأمير دولات باى الفلاح ، أحد المقدمين ، خرج فى يوم الأربعاء

يسير الى نحو الرصد ، فلب هناك بالكرة ،
وساق الفرس في أرض محجرة فقنطرتة ، فمات
لوقته ، فحملوه على قفص حمال وأتوا به الى
بيته حتى غسلوه وكفنوه ، وأخرجوه يوم
الخميس ، ونزل السلطان وصلى عليه . ثم ان
السلطان بعد أن صلى عليه توجه الى بيت طراباى
الدوادار الثانى وسلم عليه بسبب ما وقع له من
عرب عزالة .

وفيه تغير خاطر السلطان على قراجا نائب غزة
فأحضره الى القاهرة وهو فى الحديد ، وجرى عليه
ما لا خير فيه . ثم آل أمره الى أن تولى نيابة
طرطوس وقتل .

وفيه دخل الأمير طومان باى الدوادار الكبير
الى القاهرة وكان مسافرا فى جهة الصعيد ، فلما
بلغه ما فعلت عرب عزالة ، كما تقدم ذكره ، كبس
عليهم فى مكان بالوجه القبلى ، وقبض على
جماعة منهم نحو من ثلثمائة انسان من رجال
ونساء وصغار ، فوصلوا بهم الى الجيزة ، وعدوا
بهم ، وطلعوا بهم من الصليبة قدام الأمير طومان
باى فكان يوما مشهودا ، فوضعوا الرجال فى
زناجير ، والنساء والصغار فى حبال ، وعلقوا
رؤوس من قتل من الرجال فى رقاب النساء
وكانت واقعه من الوقائع الغريبة ، ولم يتفق مثل
ذلك الا فى أيام الظاهر برقوق ، بما وقع لبدر بن
سلام كبير عربان البحيرة . وقد تقدم ذكر ذلك
فى أخبار الظاهر برقوق . فلما طلع الأمير طومان
باى الى القلعة ، صادف ذلك اليوم خروج
المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل
قرقماس رأس نوبة كبير ، وبالأول الناصرى بن
خاص بك ، فلما عرضوا عرب عزالة على
السلطان ، رسم بتسميرهم على جمال فسمروهم
وشقوا بهم من القاهرة . وكان يوما مشهودا ،
وصارت الفرجة فرجتين على المحمل وعلى

عربان عزالة . ثم انهم كلبوهم وعلقوهم على
أبواب المدينة ، على كل باب نحو من عشرة أنفار ،
حتى على باب القنطرة وباب الشعرية ، وغير ذلك
من الأبواب . ثم ان السلطان رسم بأن سائر الناس
يرجمون العربان بالأحجار ، حتى يكون من أمرهم
ما يكون ... وقد قام الأمير طومان باى بنصرة
الأتراك على العرب بعد كسرتهم التى تقدمت . وفى
هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

والعرب أكثروا الفساد من عزاله وعزلوا
جو وعدوا وشرقوا وعلى الحرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل فى الضواحي وحملوا

من عزاله عرب طغوا عمرهم فى الوغا ذهب
جتهم الترك أرخوا واقعتهم بما الذهب

صار عزيز العرب ذليل وبقي فى الوجود عدم
وجميع ما جرى لهم بالمقدر وبالحكم
كان مسطر على الجبين وبهذا جرى القلم

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

وهذا الزجل يقرب من الزجل الذى قاله القبارى
فى واقعة العرب التى كانت فى سنة احدى وثمانين
وسبعمائة ، فى دولة الظاهر برقوق ، وقد وقع
فيها ما يشبه ذلك . وهذا الزجل الذى تقدم من
اختصاره .

وفيه قرر شمس الدين بن مزاحم الطرابلسى ،
فى نظر الاصطبل ، عوضا عن يحيى بن البقرى
بحكم صرفه عنها . ومات يحيى عقيب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى
الدوادار دخل الى حلب طائعا ، وقد تم الصلح

بينه وبين الأمراء الذين توجهوا من مصر . وسبب ذلك أن العسكر الذين توجهوا الى قنسال أقبردى وجدوه بالمرعى عند على دولات ، فلما طال الأمر على العسكر — وكان الغلاء موجودا بحلب ، والعليق لم يوجد — أرسل قاصروه نائب حلب يسأل أقبردى في الصلح ، فتوجه اليه قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فمشى في أمر الصلح — وكان السلطان والأمراء مائلين الى ذلك — فلما وثق أقبردى بذلك حضر صحبة قانى باى الرماح ، ودخل الى حلب طائعا مختارا ، فلاقاه قصره نائب حلب وسائر الأمراء الذين كانوا هناك ، وكان له بحلب يوم مشهود .

وكان الأمير أقبردى متوعكا في جسده ، فلما استقر بحلب كاتبوا بذلك السلطان ، فعين له خلعة حافلة وفرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكتب له تقليد نيابة طرابلس ومالها في كل سنة ، ثم أخذوا في أسباب التوجه اليه .

وفيه توفى برهان الدين مستوفى الخاص ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان الأمير تمتاز الزردكاش ، الى المقر السيفى جان بلاط بن يشبك نائب الشام ، يسأله في الحضور الى مصر ليلى الأتابكية عوضا عن أزيك بحكم وفاته . فخرج تمتاز بسبب ذلك .

وفي ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة أقبردى بن على باى الدوادار الكبير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما ، بشوشا متواضعا ، كريما سخيا النفس في سعة من المال مثيرا جدا . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى ، ثم ظهر أنه قريبه ، ورقى في أيامه الى منتهى الرياسة ، وتولى عدة وظائف سنية منها امرية السلاح ، والدوادارية الكبرى ، والاستادارية ، والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وصاحب الحل

والعقد بالديار المصرية . وكان قريب السلطان وعديله تزوج بأخت خوند الحاصكية ، وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، شديد العزم ، شجاعا بطلا مقداما في الحرب ، تولى الدوادارية الكبرى بعد يشبك بن مهدي سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيها نحو من ست عشرة سنة . وكان مشهورا بالعطاء الجزيل على الأمراء والعسكر ، وجرى عليه شذائد ومحن ، ونهبت أمواله أربع مرات ، وقاسى من الشذائد والضيق ما يطول شرحه . واستمر يحارب عسكر مصر بمفرده ثلاث سنين ، وكان غالبا للعسكر ، وتوجه الى آخر الصعيد ، ثم توجه الى الشام وحاصرها ، وكذلك حماء وحلب ، ثم توجه الى بلاد التركمان ولم يظفر به أحد ، ولم يسلم نفسه عن عجز ، ولا سجن قط ولا تقيد ... وآخر الأمر مات على فراشه من غير أن يقتل فكان كما قيل :

أنا أسير والراية البيضاء

لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحل لى عيش العداة لأتني

نوديت يوم الحرب بالمران

قيل ان أقبردى لما دخل الى حلب وأقام بها اعترته آكلة في فمه ، وقيل في وجهه ، رعت فيه حتى مات بحلب ، ودفن عند سيدي سعد الأنصارى رحمة الله عليه . ثم نقلت جثته الى القاهرة في أواخر صفر سنة خمس وتسعمائة ودفن بتريته التى أنشأها له في الصحراء ، ومات وله من العمر دون الخمسين سنة . وكان أسمر اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، غير عيوس الوجه ، وكان لا بأس به . وكان الأمراء والسلطان يخشون من سطوته ، فلما مات كفى كل أحد شره . وقد قلت في ذلك مع التضمين والاقتباس هذه الأبيات :

مات أقبردى الأمير وولى

بعد عن وحاز جهاها ومالا

فأتاه من بعد ذا ريب دهر
نال منه من العنا ما نالا
وقضى نحبه بغير قتال
وكفى الله المؤمنين القتالا

فلما تحقق السلطان موت أقبردى ، جهز
مراسيم للأمراء الذين كانوا صحبة أقبردى ، وهم
ثانى بك قرا الذى كان أمير مجلس ، وأقبای نائب
غزة الذى كان رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة
الذى كان حاجب الحجاب ، وقتبك نائب
الاسكندرية أحد الأمراء المقدمين بمصر . فأما ثانى
بك قرا وأقبای فرسم السلطان لهما بأن يتوجها
الى القدس ويقيما به بظالين . وأما جانم مصبغة
وقتبك فرسم لهما أن يتوجها الى الشام بظالين .
فاستمروا مقيمين بالشام والقدس حتى كان من
أمرهم ما سنذكره . وأما اينال الصغير السلحدار
الذى كان واليا أحد العشراوات ، قيل انه قتل ،
وقيل انه غرق فى بعض الأنهار . وأما بقية العسكر
الذين كانوا مع أقبردى فمات منهم جماعة كثيرة ،
ودخل الباقون الى مصر ، وخمدت فتنة أقبردى
كأنها لم تكن . بعد ما جرت منه أمور مهولة بمصر
والشام وغير ذلك ، وهذا ملخص واقعه .

وفى ذى الحجة فرق السلطان الضحايا على
العسكر وكان عيداً حافلاً ، وجاء العيد بالجمعة ،
فلهج الناس بزوال السلطان عن قريب . وكان
الأمر كذلك ، ولم يقيم الى العيد الثانى .

وفيه توفى الطواشى مقبل الرومى رأس نوبة
السقاة الأشرفى اينال وكان لا بأس به . فلما مات
خلع السلطان على الطواشى محسن الحبشى
الأشرفى قايتباى ، وقرره رأس نوبة السقاة عوضاً
عن مقبل الرومى بحكم وفاته . وقد قاسى محسن
هذا فيما بعد غاية الشدائد والمحن .

وفيه انتقل قصره من نيسابة حلب الى نيابة

الشام ، عوضاً عن جان بلاط نائب الشام ، بحكم
انتقاله الى الأتابكية بمصر . وانتقل دولات باى
ابن أركماس نائب طرابلس ، الى نيابة حلب
عوضاً عن قصره . وقرر بلباى المؤيدى فى نيابة
طرابلس عوضاً عن دولات باى ، وأضيف الى
بلباى حجوية طرابلس مع النيابة .

وفيه دخلت مسرى من الشهور القبطية فكانت
زيادة النيل فى ثالث مسرى ثلاثين أصبعا . وفى
الرابع منها أربعين أصبعا . وفى الخامس منها عشرين
أصبعا ، فوفى فى خامس مسرى ، وكسر فى اليوم
السادس منها الموافق لحدادى عشرين ذى الحجة .
فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير
بأن يتوجه ويفتح السد ، وكانت الأتابكية شاغرة
من حين توفى أزيك ، وكانت الأمراء غائبين فى
التجريدة بسبب أقبردى ، فلم يكن بمصر أكبر
من طومان باى ، فتوجه الى المقياس فى الحراقة
وفتح السد ، وكان له يوم مشهود . وكان نيلا
عظيما فى تلك السنة ، وثبت فى أواخر بابه . كما
قيل :

وفت أصابع نيلنا وطغت وطافت فى البلاد
وأنت بكل مسرة ما ذى أصابع ذى أباد

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا توجهوا الى
التجريدة بسبب أقبردى ، فحضر صحبتهم من كان
مع أقبردى من الأمراء العشراوات ، منهم : استباى
الأصم ونوروز أخو يشبك الدوادار كان ، وجانم
أقچى الأبراهيمى ، وآخرون من الخاصكية ، ممن
كان من عصابة أقبردى . فأقاموا بالقاهرة مدة
يسيرة ، ثم عادوا الى البلاد الشامية .

وفيه توفى شرف الدين بن الأشقر وكان من
أعيان المباشرين .

وفيه توفى جلال الدين الصالحى وكان لا بأس
به ، وقاسى شدائد ومحن فى آخر عمره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة داود باشا وزير ابن

عثمان ، ملك الروم ، وكان رئيسا حشما مدبر
المملكة الرومية ، سديد الرأي ، وافر العقل ،
مشكور السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد
الغرب ، بين ملوك الفرنج وملوك الغرب ، وكانت
النصرة للمسلمين على الفرنج والله الحمد .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التي
بالصحراء ، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب
ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة بين الشريف
محمد أمير مكة المشرفة ، وبين أخيه هزاع ،
واستمرت الفتنة قائمة هناك فيما بعد حتى كان
ما سنذكره في موضعه .

سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩ / ١٥٠٠ م) :

فيها ، في المحرم ، كان الخليفة أمير المؤمنين
المستمسك بالله ، أبا الصبر يعقوب العباسي ،
الهاشمي الأبوين . والسلطان الملك الظاهر أبا سعيد
قانصوه خال الناصر . وأما القضاة الأربعة فعلى
حكم السنة الماضية ، وكذلك الأمراء المقدمون من
أرباب الوظائف غير الأتابكية ، فانها عينت الى جان
بلاط المقدم ذكره ، وكتب له بالحضور .

وفيه توفي يحيى بن البقرى الذى كان ناظر
الاصطبل وصرف عنه ، وكان لا بأس به

وفيه تغير خاطر السلطان ، على القاضي علاء
الدين بن الصابونى ، ناظر الخاص ، فعزله ورسم
عليه . ثم خلع على شهاب الدين الرملى ، وقرره
في نظر الخاص ، عوضا عن ابن الصابونى . ولم
يكن شهاب الدين هذا تقدم له رياسة بمصر ، ولا
ولى قط تلك الوظيفة السنية . وكانت ولايته من
غلطات الزمان . وفي ذلك يقول شيخنا عبد الباسط
الحنفى :

قد ولى الرملى على منصب الـ
خاص برأس العام يا خلى

من عدم الدست ومن جهل من
يطبخ حتى انحط للرملى

وفيه استعفى هلال الرومى من تقدمه الممالك ،
وسأل أن يتوجه الى الشام ، ويكون بها على امرية
عشرة فأجيب الى ذلك . ثم ان السلطان خلع عليه
بذلك ، وخلع على عنبر التكرورى وقرره في تقدمه
الممالك عوضا عن هلال الرومى .

وفيه توفي أزيك ققص الأشرفى قايتباى ، أحد
الأمراء الطبلخانات الرأس نوبة الثانى ، ثم بعد
موته خلع السلطان على أبى يزيد المحمدي وقرره
في رأس نوبة ثانى عوضا عن المذكور بحكم وفاته .
وفيه كانت اقامة الخطبة بالجامع الذى أنشأه
بركات بن قريميط بحارة زويلة ، وجاء في غاية
الحسن ولا سيما في ذلك الخط .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى في
تلك السنة مشقة زائدة ، وخرج طائفة من العربان
على الركب الغزاوى بالقرب من الشرفة ، فاستولوا
عليه من أوله الى آخره ، وأسروا النساء وقتلوا
الرجال . ولولا أنهم أدركهم قرقماس أمير كبير ،
بعد أمير ركب المحمل ، لأخذوا جميع من في الركب
الغزاوى . وقد نهبوا أطراف الركب الأول من
الناصرى محمد ، وكان أمير الركب الأول الناصرى
محمد بن خاص بك أخو خوند .

وفيه توفي الشيخ خالد الوقاد النحوى
الأزهري الشافعى ، وكان فاضلا في النحو وله في
ذلك عدة تصانيف .

وفي صفر كان دخول المقر السيفى جان بلاط
نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره
عوضا عن أزيك في الأتابكية بحكم وفاته ، وسكن

بالأزبكية . فلما أقام بمصر شرع في بناء تربته التي بجوار باب النصر ، وصنع بها جامعا بخطبة ، ولم تتم الا بعد موته ودفن بها .

وفي ثالته توفي الشيخ الصالح الزاهد الورع أبو العباس أحمد بن محمد العسري ، رحمه الله ورضي عنه ، ودفن بجامعه الذي أنشأه بالقرب من مرجوش وباب القوس .

وفيه حضرت جثة أقبردى الدوادار ، ودفنت في تربته التي أنشأها بالصحراء ، وقد نقلت من حلب الى مصر بعد دفنه في تربة سيدي سعد الأنصاري رحمه الله ورضي عنه .

وفي ربيع الأول عين السلطان ، قانصوه كرد أحد الأمراء الطبلخانات والخازندار الثاني ، بأن يتوجه الى ابن عثمان ، ملك الروم ، قاصدا . فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى من بعد ذلك . وفيه جاءت الأخبار بوفاة أيديكي حمار الأشرقي قايتباي نائب قلعة الشام ، وجرى عليه قبل موته شدة ألد ومحن شتى .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه البرجى المجدى أمير مجلس ، أمير ركب المحمل ، وعين جان أبلط الموتر المختب أمير الركب الأول .

وفيه جاء للسلطان ولد ذكر من زوجته خوند جان كلدى الخركسية ، فسماه أحمد . فلما كان يوم سابعه اجتمع سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وكان مهما حافلا ، وحمل الزمام جوهر المعينى ، القبة والطير على رأس خوند جان كلدى . وكان هما يوم مشهود .

وفيه تزوج السلطان بخوند مصرباي زوجة الناصر ، وكانت عليه كعب الشوم ولم يسن معها .

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن قصره الذى تولى نيابة الشام قد عصى ، وخرج عن الطاعة ، واستولى على قلعة دمشق ، كما فعل كرتباي الأحمر ، واستمر العصيان يتزايد من قصره حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه . وفيه قبض السلطان على خاير بك الكاشف ، فأحضر في الحديد ، فأمر بنفيه الى قلعة المرقب ، فسجن بها ، ثم أطلق ، وجرى عليه من الإنكاد ما لا خير فيه ، وصودر غير ما مرة .

وفيه قدم البدرى محمود بن أجا وقد انفصل من قضاء الحنفية بحلب ، وأتى الى مصر ، وأقام بها ، وكان من أمره ما سنذكره .

وفيه قرر فارس المنصورى نائب دمياط ، في كشف الغريبة ، عوضا عن خاير بك الماضى ذكره . وفيه قبض على سليمان بن قرطام وكان من كبار المفسدين بالشرقية ، فلما قبض عليه رسم السلطان بأن يشنكلوه على باب زويلة ، وأقام معلقا ثلاثة أيام بلياليها .

وفيه قبض السلطان على أخت خوند بنت خاص بك زوجة أقبردى فرسم عليها بالقلعة وقرر عليها مالا له صورة ، وقد رافعها أبو المنصور مباشر أقبردى ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مالا ، فأقامت في الترسيم حتى أوردت ما قرر عليها . وفعل مثل ذلك بأختها خوند الكبرى زوجة قايتباي ، وقرر عليها مالا له صورة ، ووكل بها خمسة من الطواشية ، حتى أوردت ما قرر عليها ، وباعت أشياء كثيرة من قماشها . وقد حصل عليها ما هو أعظم من ذلك ... وهو أنه في دولة الملك الناصر محمد بن قايتباي

توجه طائفة من المماليك الجلبان الى دارها ،
وقصدوا أن يهجموا عليها ، ثم قالوا لبعض
الطواشية ادخلوا قولوا لخوند تنفق علينا ،
لكل مملوك خمسون دينارا ، فلما بلغ خوند ذلك
غيب من البيت . وكان سبب ذلك أنه أشيع عنها
أنها تزوجت بقانصوه خمسمائة في الخفية ، فلما
قتل قانصوه تحرشت المماليك على خوند وطلبوا
منها النفقة ، كما تقدم . وكان الذي تحرش على
خوند ، جماعة من عصبة أقبردى . فلما بلغ ذلك
الملك الناصر قام مع خوند قياما تاما ، ونادى في
القاهرة لجميع العسكر حسبما رسم السلطان
المقام الشريف ، أن لا يتوجه أحد من العسكر الى
بيت خوند زوجة الأشرف قايتباي ، ولا يقف لها
على باب ، وكل من خالف مرسوم السلطان شق
بلا معاودة . فانكف المماليك عن التوجه الى بيت
خوند من حين نادى . وكان تقدم ذكر ذلك في دولة
الملك الناصر ، وقام بنصرتها بعد ما قصدت أن
تسافر الى المدينة ، مع أن الملك الناصر صادر
خوند في أيامه بحسن عبارة ، وأخذ منها جملة مال ،
وحصل لها عقيب ذلك طلوع في وجهها واستمر بها
ذلك العارض حتى ماتت ، كما سيأتى الكلام على
ذلك في موضعه .

وفي جمادى الأولى ، في اليوم الثاني منه ، نزل
السلطان الى قبة يشبك الدوادار التي بالمطرية ،
وبات بها ، فلما أصبح ركب وشق من القاهرة
وزينت له ، ثم طلع من الصليبة — والأمراء
والمباشرون قدامه — واستمر في ذلك الموكب
الحافل حتى طلع الى القلعة .

وفيه قرر ابن النيربى في نظر الجيش بدمشق ،
وقد سعى في ذلك بمال له صورة .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بـ
هلال الرومى الذى كان مقدم المم
بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه ، في يوم الجمعة ثامنه ، عقد
بلاط على خوند أصل باى الجركسيب
الناصر ، وأخت الملك الظاهر قانصوه .
بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة .
حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بـ
الطويل ، الذى كان نائب غزة ، ثم يقف
كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انك
من مصر وآل أمره الى أن أقام بالقدس
مات . وكان أصله من مماليك الأشرف ،
وقيل انه مات مسموما . وكان شجاعا
عليه شدائد ومحن ، وقاسى ما لا
بسبب صحبته لأقبردى الدوادار ، وه
سببا لنصرته على قانصوه خمسمائة
بخان يونس ، الذى بقرب غزة .

وفيه قرر على بن طرغل في نيابة
وفيه توفى شمس الدين محمد الذى
كان امام أقبردى الدوادار ثم بقى فاطم
وكان يكتب الخط الجيد المنسوب .
الشدائد والمحن ما لا يعبر عنه ، وه
الأحمر بأنواع العذاب .

وفيه توفى الشيخ أحمد المجذوم
يجلس تحت الكوم الذى عند القنطرة
وكان من كبار الصالحين .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدو
الى الشرقية والغربية ، فسرح فى الب
عشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة ، وه
خيول وجمال وأغنام من العربان .

وفي رجب تزايدت عظمة الملك الظاهر قانصوه ،
خال الناصر ، فجلس على الدكة التي بالحوش
ونصب سحابة جديدة صنعها من المخمل المذهب ،
وبها رنوك زركش ، فجاءت غاية في الحسن .
فجلس على الدكة والسحابة على رأسه ، وطلع
القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا
حافلا .

وفي حادى عشر منه تغير خاطر السلطان على
القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، فقبض
عليه وسجنه بالعرقانة ، ثم طلب أخاه كمال الدين
محمد ، وقرره فى كتابة السر عوضا عن أخيه بدر
الدين .

وفيه قرر سيباى فى نيابة صهيون ، عوضا عن
قنبك الشيخ بحكم فراره عند ابن عثمان ، وخوفه
على نفسه من القتل .

وفيه كان دخول خوند أصل باى أم الملك
الناصر ، على جان بلاط أمير كبير ، فنزل جهازها
من القلعة فى يوم السبت خامس عشره ، وشق من
القاهرة ، واستمر ينسحب من ضحوة النهار الى
وقت الظهر ، وتوجهوا به الى الأزبكية ، فكان عدة
الحمالين أربعمئة حمال ، والبغال نحوا من مائتى
بغل ... فرجت له القاهرة ، وكان يوما مشهودا .
وكان فيه من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه
الواصفون .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشره نزلت خوند
أخت السلطان فى محفة زركش ، وتوجهت الى
الأزبكية ومشى قدامها جماعة من المباشرين منهم
كاتب السر كمال الدين بن مزهر ، وناظر الجيش
عبد القادر بن القصرى ، وصلاح الدين بن
الجيعة نائب كاتب السر ، وآخرون من المباشرين
والطواشيه ، وبعض أمراء عشراوات ، وهم
بالشاش والقماش ، وعدة وافرة من الخاصكية .

فلما وصلت الى باب البيت الكبير الذى
بالأزبكية ، فرشت لها الشقق الحرير
تحت حوافر بغال المحفة ، ونثرت على رأسها
خفاف الذهب والفضة ، وكان يوما مشهودا ،
ولكن جرى بعد ذلك أمور شتى وأنكاد مترادفة
يأتى الكلام عليها فى موضعها . كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى شعبان فى يوم السبت سادسه جاءت الأخبار
من القدس بقتل الأمير تانى بك قرا ، وكان مقيما
بالقدس كما تقدم ذكر ذلك . وكان من عصبه
أقبردى ، وفر معه ، فلما استقر بالقدس توجهت
المراسيم بخنفة فخنق وهو بين أولاده وعياله ،
وكانوا توجهوا اليه . وكان قتله يوم الأحد ثانى
عشرى رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار
بوفاته تأسف عليه الكثير من الناس . وكان أميرا
جليلا رئيسا حشما لين الجانب قليل الأذى ، كثير
الخير ... ومن آثاره السبيل والصهريج الذى
أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم ، تجاه
الرميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة .
فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهريج
للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل
السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى
أنشأه بجوار بيته عند خوخة القردمى . وكان أصله
من مماليك الأشرف اينال ، ورقى فى دولة الأشرف
قايتباى ، وتولى عدة وظائف ، منها تاجر المماليك ،
والدواديرية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى
حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم
بقى أمير مجلس ... ووقع له من الشدائد والمحن
ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار ، وفر مع
أقبردى الى البيرة ، وعادى الى الفرات ، وكان
موصوفا بالفروسية والشجاعة ، ومات وله من

العمر زيادة عن ستين سنة والله أعلم ولما مات
رثيته بهذه الأبيات :

من طالع التاريخ يوما أو قسرا
يروى صروف الدهر عن تنبك قرا
شاع الحديث بخنقه فلأجل ذا
خنقت بعبرتها الورى مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله
والدهر ان يصفو يعود مكذرا
قد كنت أحذر من وقوع حمامه
والآن دمعى كالدماء وقد جرى
لهفى عليه من أمير صارم
فى يوم حرب للعداة مدمرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده
لكن قاتله تعدى واقترى
يا لهف قلبى قد تجرع فقده
وتجددت أحزانه بين الورى
يا لهف قلبى كم أمير كان فى
عز وجاه فانطوى تحت الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم
فالحكم للرحمن فيما قدرا
يا رب فاجعل قبرهم فى روضة
واجعل برحمتك الجنان لهم قسرا

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجه مصطفى بن
محمود بن رستم الرومى ، توفى ببلاد ابن عثمان ،
وكان لا بأس به . وهو الذى جدد عمارة الجامع
الأزهر ، وصرف على ذلك مالا له صورة من
ماله . وكان مشكور السيرة .

وفيه طلع الأتابكى جان بلاط الى القلعة ،
وضمن بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فان
الأتابكى جان بلاط كان زوج أخت بدر الدين بن
مزهر . فلما ضمنه تسلمه من السلطان على مال
قررده عليه . فلما استقر عنده هرب تلك الليلة فى

مكان بالأزمكية فتشوش الأتابكى جان بلاط
لذلك . ثم عمزوه على بدر الدين بن مزهر ، فقبض
عليه عقيب ذلك ، وآل أمره الى كل سوء .

وفيه توفى ابن السلطان الماضى حديث وضعه ،
وكانت مدة حياته أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ،
فأظهروا عليه الحزن والأسف ، ودفن فى تربة أبيه
التي أنشأها بالصحراء ، فكان كما يقال فى المعنى :
بدا وفى حاله توارى فيالها طلعة شريقه
جوهرة ما علمت الا دموع عيني لها عقيقه
وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن الصيرفى ،
وهو أحمد بن صدقة الاسرائيلى الشافعى ، أحد
نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان عالما فاضلا
مفنا ، من أعيان النواب ، وله تصانيف ونظم
جيد ، ومات وقد قارب السبعين سنة

وفيه جاءت الأخبار بقتل قراجا نائب سيس ،
وكان تولى نيابة غزة ، وكان موصوفا بالشجاعة
وفيه توفى الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان
رئيسا حشما من أعيان الناس

وفيه عين السلطان نيابة حلب للأمير قرقماس
ولى الدين ، فلما قرر فى نيابة حلب ، أخرج عنه
وظيفة رأس نوبة الكبرى ، وقرر بها الأمير
قانسوه الغورى ، ولم يتم أمر قرقماس فى نيابته
بحلب ، وأعد الى مقدمة ألف ، ووقع بعد ذلك
أمور شتى .

وفى رمضان عرض السلطان المحاييس من
الرجال والنساء التى بالحجرة ، وعمل مصالح
أرباب الديوان ، وصالح عنهم أرباب الحقوق ،
ووزن عن جماعة من ماله ، وأطلق فى ذلك اليوم
نحو من مائتى انسان ، وضاع للناس بعض
حقوقها ممن كان له دين على من أطلقه من
المحاييس . فكان كما يقال فى المعنى :

رام نفعاً فضر من غير قصد
ومن البر ما يكون عقوقاً

وفي يوم الاثنين رابع عشره عين السلطان
تجريدة الى الكرك ، بسبب عربان بنى لام ، وقد
تقدم منهم في حق الحجاج غاية الضرر ، وكان
باش العسكر سنباى نائب سيسى أحد المقدمين ،
وجماعة من الجنود ، فخرجوا في أثناء ذلك
اليوم مسرعين .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصره نائب
الشام خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان جملة
واحدة ، وحضر قانصوه بن سلطان چركس ،
المعروف بابن اللوقا حاجب دمشق ، وأخبر أن
قصره نائب الشام صرفه عن الحجوية ، وقصد
القبض عليه ففر منه ، وأخبره بأن قصره نائب
الشام قد استولى على قلعة الشام ، وعلى ما فيها
من المال فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى
الغاية ، واضطربت أحواله ، وأظهر أنه يخرج الى
الشام بنفسه ، وشرع في أسباب ذلك . ثم نزل الى
الميدان وعرض ما عنده من الهجن ، وأمر صلاح
الدين بن الجيعان بأن يحضر قوائمه مصروف
الأشرف برسباى عند توجهه الى آمد ... وكل
هذا هيت وتهيت على الأمراء والعسكر . ثم عين
قانى بك أحد الدوادارية أن يتوجه لكشف
الأخبار عن الحقيقة .

وفيه أفطر السلطان ليلة العيد بالقصر الكبير ،
 واجتمع عنده الأمراء وضربوا مشورة في أمر
قصره ، فعد فطوره في الايوان من النوادر .

وفي شوال صادف أن في يوم عيد الفطر قلع
السلطان الصوف في ذلك اليوم ، ولبس البياض ،
 وخرج الى صلاة العيد وهو راكب على فرس
أبيض قرطاسى بسرج فضة بيضاء من غير طلاء ،

وعبأة حرير أبيض ، وخف أبيض ومهاميز بيض ،
حتى قلع الكلفتاه ، حتى المشاية التى في رجله
كانت برغالى أبيض فعد ذلك من النوادر . وكان
لبس البياض فألا عليه ، فانه خلع من السلطنة
عقيب ذلك .

وفيه صلى الأمير طومان باى الدوادار الكبير
صلاة الجمعة مع السلطان بالقلعة فلما انقضت
الصلاة خلع عليه السلطان ، ونزل متوجها للوجه
القبلى ... وكان في تلك الأيام قويت الاشاعات
بأن السلطان يقصد القبض على الأمير طومان
باى ، وكان وقع بينهما في الباطن بسبب قصره
نائب الشام . وكان الأمير طومان باى متواطئاً مع
قصره على السلطان . وكان طومان باى يقصد
التمهيد لنفسه حتى يتسلطن . وقد ظهر مصداق
ذلك فيما بعد كما يقال :

بت في قلوب أسود لا في قلوب رجال
فالكيد للناس لا لك بهائم الجهال

وفيه أشارت الأمراء على السلطان بأن يبعث الى
قصره قاصداً ، وعلى يده مراسيم بأن يكون
على نيابة الشام ، وأن يسلم قلعة الشام الى
نائبها ، ولا يؤاخذ بها فعل . فعين له أقبای
الطويل ناظر الجوالى فخرج عن قريب .

وفيه خرج المحمل من القاهرة في تجمل زائد
وكان أمير المحمل قانصوه البرجى ، وبالأول جان
بلاط الموتر المحتسب . فلما توجه الى بركة الحاج
استمر المحمل مقيماً بالبركة الى خامس عشرى
شوال ، حتى عد ذلك من النوادر . وسبب ذلك
أن غلبان أمير الركب الأول هرب أكثرهم ،
وتعطلت أحواله بموجب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن قصره قد استولى
على مدينة طرابلس ، وقبض على نائبها بلباى
المؤيدى وسجنه بقلعة دمشق .

وفي ذي القعدة خلع السلطان على قيت الرحبي ،
حاجب الحجاب ، وقرره في نيابة طرابلس ،
عوضا عن بلباى المؤيدى ، ولم يتم له ذلك فيما
بعد .

وفيه خلع السلطان على شخص من خواصه
يقال له تمر بن جانم ، وقرره في الحسبة عرضا
عن جان بلاط الموتى وهو غائب بالحجاز ، فلم
يتج أمره هذا ، وقبض عليه فيما بعد .

وفيه أنعم السلطان على أنس باى شاد الشراب
خاناه ، وقرره في تقدمه ألف .

وفيه في ثالث عشره حضر أقبای الطويل الذى
توجه الى قصره كما تقدم ، فعاد الجواب على
السلطان بأن قصره مستمر على العصيان ، ولم
يدخل تحت الطاعة . فعند ذلك عرض السلطان
العسكر ، وعين تجريدة الى قصره ، وعين بها
من الأمراء المقدمين ثمانية ، ومن الأمراء
الطبلخانات والعشراوات نحو من ثلاثين أميرا ،
ومن المماليك السلطانية ألقى مملوك ، وأظهر
السلطان أنه يخرج الى الشام عقيب ذلك بنفسه .
وفيه جاءت الأخبار بقتل قانى بك أحد
الدوادرية الذى كان توجه الى قصره لكشف
الأخبار ، وكان قد سافر من البحر الملح لموجب
فساد الطرقات .

وفيه قويت الاشاعات أن السلطان أرسل
بالقبض على الأمير طومان باى الدوادر ، وهو
بالصعيد . وكانت هذه الاشاعات من أكبر الفساد
في زوال ملك الظاهر قانصوه . فلما قويت
الاشاعات بذلك نادى السلطان في القاهرة بأن
أحدا لا يكتر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير
طومان باى دوادر كبير على عادته . وكان ترك
هذه المناداة أصوب ، وقد تأكد الأمر بذلك .
وفيه هجم المنسر على سوق الوراقين ، وسوق

الهرامزة ، وكسروا عدة حوانيت ، ونهبوا ما فيها
وقتلوا ثلاثة من الغفراء . وكان المنسر نحو من
مائة نصر ما بين مشاة وركاب ، ومعهم قسى
ونشاب ، فنهبوا قماشيا بنحو عشرة آلاف دينار .
وكانت هذه من الوقائع المبهولة .

وفيه كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب ،
المغنى الناشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره .
وكان من نوادر الزمان ينظم الشعر ويلحن
الخفائف بالحن غريبة ، وكان آخر مغانى الدكة
في الدخول والطرب ، ولم يجيء بعده أحد في
الدخول مثله . وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات :

توفى نزهة الأسماع طرا
وصار العيش منا فى ذهاب
وناخت بعده الآلات حزنا
وأظهرت الصراخ مع انتخاب
وأبدى الدف والمأصول زعقا
كمن جاء المآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا
وقد ضاق الوجود بلا رحاب

وفي آخره حضر الأمير طومان باى الدوادر ،
وكان مسافرا الى جهة الصعيد . فلما حضر الى
الجيزة خرج الأمراء والعسكر قاطبة الى ملاقاته ،
فأقام بالجيزة ولم يعد ، فتوجه اليه الأمير طراباى
أحد المقدمين ، وعلى يده صورة حلف عن لسان
السلطان ، أنه لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض
عليه . فلما توجه اليه طراباى ، لم يشق الأمير
طومان باى بذلك الحلف وأظهر العصيان . فرجع
الأمير طراباى بجواب غير صالح ، وقد تقلب على
الظاهر قانصوه ، خال الناصر ، غالب العسكر .
فلما رأى أحواله مضطربة تحقق وقوع فتنة ،
فأخذ في أسباب تحصين القلعة ، وتقلل اليها أشياء
كثيرة من البقساط والجبن ، وملا الصهاريج

وقائلة : لم دهتك الهموم
وأمرك متشل في الأمم ؟

فقلت : ذريني على غصتي
فان الهموم بقدر الهمم

فلما انكسر الظاهر قانصوه لم يجسر الأمير
طومان باي أن يتسلطن ، وكان قدامه الأتابكي
جان بلاط ، فاستمرت القاهرة بلا سلطان يوم
السبت ويوم الأحد . وقد أشيع وجود قانصوه
خمسائة الذي تسلطن فنودي في القاهرة « ان
كان قانصوه خمسائة موجودا فليظهر وله
الأمان » فلم يكن لهذه الاشاعة صحة . فعند ذلك
وقع الخلاف بين الأمراء فيمن يلي السلطنة .
فذكر تاني بك الجمالي ، فلم يرض به العسكر .
ثم ذكر الأتابكي جان بلاط ، فلم يرض به
العسكر . فتعصب له الأمير طومان باي حتى
تسلطن . كما سيأتي ذكره في موضعه .

وكانت مدة الظاهر قانصوه في السلطنة سنة
وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما . وكان ملكا هينا
لين الجانب قليل الأذى ، كثير البر والمعروف ،
وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء مهما يقولوا له
يقول : « بخشي » ، فسمته العامة « بخشي » ، كما
سموا الظاهر بلباي « ايش كنت أنا ؟ قل له » .

وكانت أيام الظاهر قنصوه أصلح حالا من
أيام الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي ...
وقد انصلحت أحوال البلاد الشرقية ، وقل الأذى
من العربان ، وكذلك البلاد الغربية ، ووقع
الرخاء في أيامه في سائر البضائع ، وانكفت الممالك
عما كانوا يعملون من الأذى في أيام الملك الناصر .
وساس الناس في أيامه أحسن سياسة ، وخلع
والناس عنه راضون ... وكانت صفته أبيض اللون

التي بالقلعة ، وفرق السلاح على ممالكه ، وانتظر
ما يكون من الأمير طومان باي . فلما عدت اليه
الأمراء قبض على جماعة ، منهم الأمير قاني باي
الرماح أمير آخور كبير ، فلما قبض عليه شكه في
الحديد ، وقبض على القاضي عبد القادر القسروي
ناظر الجيش ، وعلى آخرين من الأمراء .

فلما كان يوم الأربعاء ، سادس عشر
ذي القعدة ، عدى الأمير طومان باي من معادي
امبابه ، وطلع من بولاق بمن معه من العسكر ،
وتوجه الى الأزبكية بعد العصر ، وبات بها .
وكان الأتابكي جان بلاط ساكنا هناك . فاجتمع
الأمراء عنده ، وضربوا مشورة في أمر الظاهر
قانصوه ، فوقع الاتفاق على خلع من السلطنة .
فلما كان يوم الخميس ، سابع عشره ، لبس
العسكر آلة الحرب ، وركب الأتابكي جان بلاط ،
والأمير طومان باي ، وبقية الأمراء من الأزبكية
وتوجهوا الى بيت الظاهر تمرغا ، الذي عند
سوق السلاح بالقبو ، فعند ذلك ركبوا وتوجهوا
لحصار القلعة ، ولم يكن عند الظاهر من الأمراء
سوى جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وبعض أمراء
عشراوات ، ومن الجند نحو ألف انسان .
واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ثلاثة أيام وذلك
على قلة من عنده من العسكر بالقلعة . وكان
الظاهر قانصوه حصن القلعة وسد باب الاصطبل
الذي من جهة باب القرافة .

فلما كان يوم الجمعة بعد العصر ، ملك الأمير
طومان باي باب السلسلة .

فلما كان يوم السبت ، تاسع عشره ، انكسر
الظاهر قنصوه ، وتشتت من كان عنده بالقلعة ،
فلما رأى عين الغلب دخل الحريم وتزيا بزي
النساء ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو
الترب ، فاختفى فكان كما يقال :

الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط

هو الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفي . وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وكان أصله جركسي الجنس ، اشتراه الأمير يشبك بن مهدي أمير دوادار كبير ، وأقام عنده مدة ، وحفظ القرآن . ثم ان الأمير يشبك قدمه مع جملة مماليك الى الأشرف قايتباي رحمه الله تعالى . ثم أخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك الجندارية ، ثم بعد مدة بقي خاصكيا . ثم بقي دوادار سكين ، وسافر أمير حاج بالركب الأول وهو خاصكيا غير ما مرة ، ثم أنعم عليه السلطان بامرية عشرة في سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، وسافر الى الحجاز أمير ركب المحمل وهو أمير عشرة ، وقرر في نظر الخاقان ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم في سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكان يومئذ أمير طبلخاناه تاجر المماليك . ثم بقي مقدم ألف في آخر دولة الأشرف قايتباي ، ثم بقي دوادارا كبيرا عوضا عن أقبردي في دولة الناصرية . ثم قرر في نيابة حلب وخرج اليها . فلما تولى السلطنة الظاهر قانصوه نقله الى نيابة الشام عوضا عن كرتباي الأحمر بحكم وفاته . ثم حضر الى القاهرة وقرر في الأتابكية عوضا عن الأتابكي أزيك بحكم وفاته . ثم تزوج بخوند أصلباي أم الملك الناصر ، واستمر على ذلك حتى وثب طومان باي على الظاهر قانصوه وخلعه من السلطنة وانكسر ، فوقع الاتفاق على سلطنته على كره من الأمراء والعسكر .

يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد قصير القامة ، أسود الشعر عربي الوجه ، مستدير اللحية جميل الهيئة ، حسن الشكل في المنظر ، جركسي الجنس ، قليل الكلام بالعربي ، الغالب عليه الجلوية ... تولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة ، وكان وافر العقل ثابت الجنان ، مع سكون وعدم رهج .

وأما ما عد من مساويه : فقتله الأمير ثاني بك قرا من غير ذنب ، أرسل بخنقه وهو بين عياله وأولاده بالقدس . ومنها أنه صادر خوند الخاصبكية زوجة أستاذه الملك الأشرف قايتباي ، ووكل بها طواشيته حتى باعت قماشها مثل التركة وأوردت ما قرر عليها من المال . وصادر أختها زوجة أقبردي ، ووكل بها بالقلمة ، وطالبها بمائة ألف دينار ، وزعم أن أقبردي أودع عندها مالا . وصادر أخاها الناصري محمد بن خاص بك ، وعرضه للضرب غير ما مرة ، وألزمه أن يسافر أمير حاج بالركب الأول من ماله ، ولم يعطه شيئا كعادة أمراء الحاج من النفقة . ومنها أنه ظلم جماعة من أعيان المباشرين من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا ، وهدمها بسبب البيت الذي أنشأه على بركة الفيل لأجل أخيه قائم . وفعل مثل ذلك بالتربة التي أنشأها بالصحراء ، وضيق بها الطريق على المارين هناك ، وأعمى ترب الناس التي بجواره . ومنها أنه كان متواطئا مع الأمراء على قتل الملك الناصر محمد ابن أخيه ، ولولا تراخيه لما قدروا على قتله . ومنها أنه رسم بشنق بدر الدين بن مزهر ، كاتب السر ، حتى شفع فيه طومان باي الدوادار . ومنها أنه كان غير عفيف الذيل على ما قيل والله أعلم .

وكانت صفة مبايعته : أنه لما تسحب الظاهر قانصوه من القلعة ، واختفى كما تقدم ، أقامت القاهرة يومين بغير سلطان . فلما كان يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، صعد الأمراء والعسكر الى باب السلسلة ، واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، وكانت قصد الأمير طومان باى الذى تسلطن فيما بعد ، ولكن كان قدامه جان بلاط ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، فلم يجسر أن يتسلطن . وكان العسكر غير راض بجان بلاط ، فما وسع طومان باى الا أنه تعصب له وسلطنه ... فأرسل خلفه أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة — وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى — فلما تكامل المجلس عملوا بصورة محضر لخلع الظاهر قانصوه ، فخلع من السلطنة فى الحال . ثم ان الخليفة بايع الأتابكى جان بلاط بالسلطنة ، وتلقب بالأشرف ، وكنى بأبى النصر ، على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته ، أحضر اليه شعار الملك ، وهو الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة الذى بباب السلسلة ، ورفعت على رأسه القبة والطيور ، وركب الخليفة عن يمينه ، ومشى الأمراء بين يديه ... واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع من باب سر القصر ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ثم خلع على الخليفة وألزمه أن ينتقل من يومه ويسكن بالقلعة . ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء . وكان ملء العيون ، كفنا للسلطنة ، وافر العقل سديد رأى .

وفى حالة سلطنته رسم بالافراج عن الأمير قانى

بك الرماح أمير آخور كبير ، وكان مشكوكا فى الحديد عند الأمير طومان باى الدوادار ، وقد قاسى من البهدة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكذلك الأمير طراباى عنده فى الترسيم أيضا . فخلع السلطان على قانى باى الرماح ، وأعادته الى الأميراخورية الكبرى ، وأطلق طراباى وأنس باى شاد الشراب خاناه ، وأبقاهما على وظائفهما . ثم انه عين الأتابكية الى قصره نائب الشام ، وكان يظن أنه يدخل تحت طاعته ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وقيل انه تسلطن فى ساعة الشمس .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس فى شباك الدهيشة ، وعرض مبالغ الظاهر قانصوه ، ومسح منهم جماعة . وفيه ، فى ذلك اليوم ، بعث الأمير طومان باى الدوادار نحو من ثلثمائة فرس من خيوله الخاصة التى كانت عنده لما حضر من الشام .

وفى يوم الخميس خامسه فرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند ومن له عادة . ثم خلع على بدر الدين بن مزهر وأعادته الى كتابة السر ، وعزل أخاه كمال الدين عنها . وأعيد الشهابى بن ناظر الخاص الى نظر الجيش ، وعزل عبد القادر القسروى وأعادته فى الترسيم ، وقرر عليه مالا له صورة . وخلع على جلال الدين بن الصابونى وأعادته الى نظر الخاص . وعزل شهاب الدين بن الرملى عنها وسلمه الى طراباى على مال قرر عليه . وفيه خلع السلطان على قيت الرحبى ، وأعيد الى حجوية الحجاب ، وبطل سفره الى طرابلس نائبا . وخلع على أربك الناشف ، وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن جان بلاط الأبح ، بحكم اختفائه . ثم عين قصره الصغير بأن يمضى الى قصره نائب الشام بالبشارة بسلطنته ، وظن أن قصره يسر بسلطنته ، فما ازداد الا عصيانا . وأرسل اليه

بالحضور ليلى الأتابكية ، فلم يجب قصره الى ذلك ، وتمادى على ما هو عليه من العصيان .

وفيه قبض السلطان على تمر قريب السلطان الظاهر قانصوه ، الذى كان محتسبا ، ووكل به وقرر عليه مالا . وكذلك قبض على تانى بك الخازندار وقرر عليه مالا .

وفيه عين السلطان لدولات باى مقدمة ألف ، وكذلك برد بك المحمدى ، وكذلك خاير بك أخو قانصوه البرجى .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على الظاهر قانصوه ، وصار والى الشرطة فى كل يوم وليلة يكبس الحارات ويهجم البيوت ، وحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل من الكبس والسهب . فلما طال الأمر قبض السلطان على الطواشى مسك وضربه ، فأقر بأن زوجته خوند جان كلدى تعرف طريقه . فبعث اليها السلطان الأمير طراباى فسألها عنه ، فلم تقر بشئ . فأحضر اليها المعاصير وعصرها فى رجليها فلم تقر بشئ . فأحضر الوالى وعاقب الجوارى ، وآخرين من جماعتها فلم يقرروا بشئ .

ولما اشتد الأمر بسبب ذلك ، حضر شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن اينال — وكان ساكنا فى سويقة صفية عند الزير المعلق — فأسر للأمير أزدمر ، أحد الأمراء المقدمين ، أن الظاهر قانصوه عنده فى بيته . فلما تحقق الأمير أزدمر ذلك ، طلع وأعلم السلطان ، فأرسل جماعة من الخاصكية مع والى الشرطة الى ذلك المكان ، فقبضوا عليه ، وأركبوه على بغل — وعلى رأسه زنط ، وعليه كبر أبيض — وأتوا به على بركة الناصرية ، وقاسى من البهدة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وقيل انه وقع من فوق البغل فى أثناء الطريق وتعرس عليهم ، فأركبوه غصبا . وكان

القبض عليه فى يوم الأحد ثانى عشرى ذى الحجة . وكانت مدة اختفائه أربعة وعشرين يوما ، فجرى عليه هذا كله وهو ساكت لا يتكلم ، فكان كما يقال :

الصبر أولى بوقار الفتى

من قلق يهتك ستر الوقار

من لازم الصبر على حاله

كان على أيامه بالخيار

واستمر على هذه الحالة حتى أتوا به الى بيت أزدمر فلما رآه قام له وأدخله الى البيت فلما كانت ليلة الثلاثاء خامس عشرية رسم السلطان باخراج الظاهر الى ثغر الاسكندرية فسجن بها وقيل ان السلطان جان بلاط أنعم عليه بخمسة آلاف دينار لكونه كان صهره زوج أخته . وكان المتسفر عليه الأمير أزدمر بن على باى ، فأوصله الى ثغر الاسكندرية وسجنه بها ، وعاد وخمدت فتنة الظاهر كأنها لم تكن .

وفيه قامت الممالك على الأشرف جان بلاط بسبب نفقة البيعة ، فلما رأى منهم الجد ، أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة من الأعيان ، ووزع على قاضى القضاة مالا له صورة ، فشفع الخليفة فى قاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، فعفى عما قرر عليه لفقره .

وفيه قبض السلطان على الحاج رمضان المهتار ، وسلمه الى طراباى فعاقبه ، وعصره واستخلص منه ثلاثين ألف دينار . وقد صودر غير ما مرة وهذه آخر مصادراته ، فباع جميع ما يملكه حتى بيوته وشوار نسائه ، وانكشف حاله جملة واحدة . وكان رئيسا حشما ، أقام فى مهترته بالطشبخاناه نحو من ثلاثين سنة ، ونال من العز والعظمة فى دولة الأشرف قايتباى ما لا رآه غيره من المهاترة .

وفيه اشتد الأمر على الناس بسبب المصادرات ، وقاسى أعيان الناس من البهدة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكان المتكلم في أمر هذه المصادرات بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فأظهر النتيجة لصهره الأشرف جان بلاط ، وحصل منه للناس غاية الضرر الشامل . وشوش على الكثير منهم . وقد عقب ذلك عليه حتى كان من أمره ما سنذكره . وعمت هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى وجماعة من أعيان التجار والطواشية ، منهم منسك ومحسن ومختص وغيرهم ، وكانت حادثة مهولة .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على خير بك العلائى أحد خواصه ، وعلى جانم المحمدى الظاهرى خشقدم ، وعلى على باى دوا دار خشكلىدى البيسقى ، وآخرين من الخاصكية .

وفى ليلة الجمعة سابع عشرية وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نصف درجة ، وقد شاهدوا بعض النجوم فى السماء تتناثر .

وفيه نزل السلطان وتوجه نحو تربة الأشرف قايتباى ، فزار قبره ثم توجه الى باب النصر ، وكشف عن عمارة مدرسته التى أنشأها هناك . ثم دخل من باب النصر وشق المدينة ثم أتى الى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه بركة الفيل ، فكشف عن زوجته خوند أم الملك الناصر ، وكانت مقيمة هناك فزارها ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أعيد الطواشي محسن كما كان ، وقد قاسى من الأنكاد ما لا خير فيه

وفيه كانت وفاة صاحبنا تقي الدين بن محمود أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصالحية ، وكان رئيسا حثيا عشيرا للناس ، فكه المحاضر ، لكنه كان ملسنا ، كثير التعلق بالناس ، لا يفوته أحد من كبير وصغير ، وكانت أعيان الناس يخشون من كلامه ولسانه ، حتى قضاة القضاة وقد هجاه الأديب زين الدين ابن النحاس بقوله فيه :

قف وقفة وانتظر عند الامام ترى
جيوش أجفانه بالسود قد كسرت
ومن توقد نيران الحشيش عدت
عيناه ترمى جمارا كلسا نفرت

وفى هذه السنة انقطع البلسان من مصر وهو البلسم ، وكان من آثار عيسى بن مريم عليها السلام ، وكانت الفرنج يجيئون من أقصى البلاد حتى يشتروا من دهن هذا البلسم ويتغالوا فى ثمنه . وقد أحضر حب البلسان البرى من الحجاز وزرعوه بأرض المطرية ، وعالجوه فلم ينبت . وانقطع من مصر بالكلية ، كانه لم يكن قط نعين شمس . وهو أجل نبات بها وهذا لم يتفق قط . وكان قبل ظهور الاسلام بمدة طويلة ، وكان زكى الرائحة أشبه شىء بورق الملوخية ، وكان دهنه ينفع للأمراض الباردة ، كوجع الظهر والركب وغير ذلك من الأمراض الباغمية . وكان يستخرج دهن هذا البلسم فى رابع عشرى بشنس القبطى ، وكان فى الزمن القديم يحضر يوم استخراج دهنه بعض الأمراء ، وقيل الخازندار الكبير وأجود ما طبخ دهنه فى برمهات ، وكان يزرع حبه فى بؤونة الى هاتور ، وكان معدودا من جملة محاسن مصر ، وكان انقطاعه من مصر فى رأس القرن العاشر .

ومن حوادث هذا القرن أيضا الحب الفرنجى ، أعادنا الله منه ، فثما فى الناس جدا ، وقد أعيا الأطباء أمره ، واستمر يعرض للناس الى الآن .

سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ - ١٥٠١) :

فيها كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر يعقوب الهاشمى الأيوين ، والسلطان الملك الأشرف أبا النصر جان بلاط بن شبك الأشرفى . والقضاة الأربعة على حكم ما تقدم . وكانت الأتابكية شاغرة . وقد تعينت لقصروه نائب الشام .

وفي يوم الثلاثاء ، مستهل المحرم ، كان صعود خوند أصلباي ، زوجة الأشرف جان بلاط ، وهي أم الناصر وسرية الأشرف قايتباي ، وأخت الظاهر قانصوه ، فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا . فشقت من الصليبة ، وهي في محفة زركش ، وحولها الخدام من أعيان الطواشية ، وقدامها أعيان المباشرين ، وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين انسانا ، وهم بالشاش والقماش ، وجماعة من الممالك نحو من مائة انسان ، وبأيديهم العصي يفسحون الناس . فاستمرت في هذا الموكب الحافل حتى صعدت الى القلعة ، ومعها نحو من مائتي امرأة على مكارية .

وفيه فرق السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد جمع هذا المال من وجوه الظلم والمصادرات . ففرق على جماعة مخصوصة من العسكر ، وقطع للأكثر من الجند ، وأولاد الناس وغيرهم .

وفي يوم الخميس ثالثه حضر قصره الصغير ، الذي كان قد توجه الى قصره نائب الشام بيشارة سلطنة الأشرف جان بلاط . فلما عاد أخبر أن قصره نائب الشام باق على عصيانه ، ولم يدخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط ، ولم يلبس خلعتة ، ولا قبل له الأرض . فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكان يظن أن قصره يدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفي يوم الجمعة رابعه صلى السلطان صلاة الجمعة ، وجلس بباب الستارة ، وخلع على الأمير تاني بك الجمالي ، وقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه . وكان السلطان آخر الوظيفة لقصره ، فلما تمادى على عصيانه قرر بها تاني بك الجمالي ، وخلع على الأمير طومان باي ، وقرره في امرية السلاح ، مضافا لما بيده من الدوادرية الكبرى . وقرره أيضا في الوزارة والاستادارية ، وكشوفية

الكشاف — كما كان الأمير يشبك بن مهدي — فعظم أمره جدا ، وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام .

وفيه استمر قرقماس بن ولي الدين في ولاية حلب كما قرره الظاهر قانصوه . وقرر برد بك الطويل في نيابة طرابلس عوضا عن قيت الرحبي الذي كان تعين اليها . وقرر قانصوه بن سلطان چركس المعروف بابن اللوقا في نيابة حماه ، وكان قرره قبل ذلك في نيابة غزة . ثم بطل أمر هؤلاء النواب جميعا . وحدثت أمور بعد ذلك يأتي الكلام عليها في موضعها .

وفي يوم السبت خامس المحرم ، الموافق لثامن مسرى ، وفي النيل المبارك ، وكسر يوم الأحد سادس المحرم . فلما وفي توجه الأمير طومان باي الدوادر ، وفتح السد على العادة ، فأظهر في ذلك اليوم غاية العظمة ، وفرق على المتفرجين نحو من مائتي مجمع حلوى ، ومائتي مشنة فاكهة ، حتى فرق البطيخ الصيفي ، ونثر للعوام فضة لما أراد أن يركب عند السد ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان له يوم مشهود وكان هذا آخر فتحة للسد . وعقيب ذلك تسلطن ، وجرت عليه أمور يأتي الكلام عليها . فابتهج الناس بيوم الوفاء لكون النيل كان وفاؤه مسرعا ، وحصل به غاية النفع ، وكان نيلا عاليا مباركا ، فكان كما يقال :

كأن في يوم الوفا نيلنا

أتقن علم الحرف بالضبط

اذ بالصبا صفحات خلجانه

تجدولت بالكسر والبسط

وفيه تكلم وسائط السوء مع السلطان في اعادة وظيفة نظر الأوقاف . فلما عرضوا ذلك على الأمير طومان باي ، لم يوافق على اعادة هذه الوظيفة . وكان الملك الناصر أبطلها بواسطة

كرتبای الأحمر . فلما توجه كرتبای الأحمر الى الشام ، وطاش الملك الناصر بعده . سعى محمد ابن العظمة الذي كان ناظر الأوقاف في اعادته الى هذه الوظيفة . وكان الساعى له عبد القادر البواب بواب الدهيشة ، فقررہ السلطان في نظر الأوقاف . فأقام بها مدة يسيرة ، وضج منه الناس ، فشكوه للملك الناصر فقبض عليه ، وضربه ضربا مبرحا ، ونفاه الى قوص . وقد تولى هذه الوظيفة غير ما مرة ولم ينتج أمره ، وقد تولاه جماعة كثيرة . منهم شخص يسمى الفار الوكيل فلم ينتج أمره ، وتولى بها أيضا شرف الدين بن البدرى حسن فلم ينتج فيما تقرر عليه من المال . وقد تولاه جماعة كثيرة ، ولم يمكنهم السداد — وهى وظيفة شر وظلم — فشكر الناس فعل الأمير طومان باى الدواidar على ابطال هذه الوظيفة في تلك الأيام المسيئة .

وفيه قبض السلطان على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاصطبل ، وقرر عليه مالا له صورة يورده للخزائن الشريفة .

وفيه عاد سنبای نائب سيسى أحد المقدمين ، وكان توجه الى الكرك لقتال بنى لام ، وعاد من غير طائل .

وفيه اجتمع السلطان بالأمراء وضربوا مشورة في أمر قاصروه نائب الشام ، فأشاروا على السلطان بأن يرسل اليه قاصدا ، فعين شخصا من الأمراء العشراوات ، وهو أزدمر الفقيه ، وعين معه الأمير أصباى فتوجها اليه عن قريب . وفي أثناء ذلك حضر خاير بك الكاشف الذى كان الظاهر نفاه ، وفر من أثناء الطريق وتوجه الى قصره ، وأظهر العصيان معه ... فلما بلغه سلطنة الأشرف جان بلاط ، فر من عند قصره ودخل تحت طاعة

الأشرف جان بلاط . فلما حضر خلع عليه ، ووعدته بتقدمة ألف .

وفي خامس عشره كان دخول الحاج الى القاهرة ، وقد حصل لهم مشقة زائدة ، وعوقهم العرب حتى فات ميعاد دخولهم .

وفيه تعين ترمباى خازندار الأمير طومان باى ، وأظهر للسلطان أنه يروم الصلح بينه وبين قصره ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وانما أرسل ترمباى في عمل مصلحة نفسه ، وقد ظهر ذلك فيما بعد ، وتلاعب بالأشرف جان بلاط ، وهو يظن أنه له من الناصحين وهو بضد ذلك . كما يقال في أمثال « الصادح والباغم » :

جهد البلاء صحبة الأضداد
كأنها كى على الفؤاد

ومنها :

كذلك من يستنصح الأعادي
يردونه بالغش والفساد

ومنها :

أعظم ما يلقي الفتى من جهد
أن يبتلى من جنسه بالضد
وفيه جاءت الأخبار بأن قصره قد استولى على غزة وأعمالها ، والقدس وغير ذلك من النواحي .

وفي صفر عظم أمر الأمير طومان باى جدا ، وتصرف في أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه ، لا يقضى أمرا دونه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن دولات باى نائبها أظهر الطاعة للسلطان ، وأنه ليس مع قصره نائب الشام . وهذا كله حيل وخداع وترتيب من

الأمير طومان باي . حتى كل عزم السلطان عن ارسال تجريدة الى قصره نائب الشام . وكانت أحواله كلها معكوسة . وصار طومان باي يمهّد لنفسه في الباطن .

وفيه توعك قاضي القضاة زين الدين زكريا وحصل له ضعف في بصره ، فأغلق عليه بابه ، وأظهر أنه قد عزل نفسه عن القضاء ، فلم يلتفت السلطان اليه .

فلما كان يوم الاثنين عشريه خلع السلطان على محيي الدين عبد القادر بن النقيب وقرره في قضاء الشافعية ، عوضا عن القاضي زكريا بحكم انفصاله عنها ، فكانت مدة ولاية الشيخ زكريا في قضاء الشافعية نحوًا من عشرين سنة . فانه تولى في دواة الأشرف قايتباي في سادس رجب سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعزل في صفر سنة ست وتسعمائة . وهذه المدة لم تقع لأحد من قضاة الشافعية ، في ولاية واحدة غيره ، فعند ذلك من النوادر . وسيمود الى القضاء ثانيا عن قريب . فلما تولى عبد القادر بن النقيب ، شق على كل أحد من الناس ولايته ، ولاموا السلطان على ذلك . وكان يومئذ في الشافعية من هو أولى بالقضاء منه . ولكن سعى بمال له صورة حتى تولى على كره من الناس فكان كما يقال دوييت :

في مصر من القضاة قاض وله

في آكل موارث اليتامى وله

ان رمت عدالة فقم مجتهدا

من عد له دراهما عدله

وهو أول قضاة بمصر ، وقيل انه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى ، وسيعزل عن قريب . وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا

من دخل في دشنا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه . فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة حوفا على أنفسهم من القتل . ثم ثار عليهم المسلمون ثانيا وانتصفوا عليهم بعض شيء . واستمر الحرب ثائرا بينهم ... والأمر لله تعالى في ذلك .

وفي ربيع الأول نزل السلطان الى بيت الأمير طومان باي ، وترجل ونزل عن فرسه ، ودخل هو ويايه الى البيت ، وأقام عنده ساعة يتحدثان في أمر قصره . ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا وهو أول موالده .

وفيه ، في يومه ، عين السلطان خير بك أخا قانصوه البرجي ، ومعه جماعة من العسكر ، وأمرهم أن يقيموا بغزة ، خشية من قصره أن يطرق غزة على حين غفلة . فخرج خيربك والعسكر مرعين .

وفيه ماتت خوند حبيبة ابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر چقمق ، وهي زوجة الأمير طومان باي الدوادار ، وكانت جنازتها حافلة .

وفيه عين السلطان الأمير سودون العجمي ، أحد المقدمين ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ، وعين دولات باي قرموط والي القاهرة بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قاصروه نائب الشام . وقد تماذى على العصيان والخروج عن الطاعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية ، وامتنع ورود القماش والفاكهة وغير ذلك مما كان يجلب من البلاد الشامية ... فلما عرض العسكر ، عين نحوًا من ألفي مملوك ، ومن الأمراء المقدمين أحد عشر أميرًا . وكان الباش على هؤلاء الأمراء المقر السيفي طومان باي دوادارا كبيرا ،

وأمر سلاح ، ووزيرا واستادارا ، وكاشف
الكشاف ، ومشير المملكة ، وما مع ذلك من
الوظائف .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأنفق عليهم ،
وبعث نفقة الأمراء ، ثم استحثهم على الخروج
بسرعة ، ورسم لهم أن يخرجوا شيئا بعد شيء .

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشره ، خرج
جماعة من الأمراء الطبلخانات المعينين في هذه
التجريدة فكان جاليش العسكر قيت الرحبي
حاجب الحجاب ، واصطمر بن ولي الدين أحد
المقدمين ، وسودون الدوادار أحد المقدمين ، وخرج
صحبهم خمسمائة مملوك من الممالك السلطانية .
وفيه قرر الأمير قان بردى اليوسفى في شادية
الشرابخانة مع امرية أربعين ، وكان من خواص
الأمير طومان باى الدوادار ، وقرر قلج في نيابة
البيرة ، ثم لم يتم له ذلك وقرر في نيابة
الاسكندرية ، ثم نفى في دولة العادل طومان باى
الى البلاد الشامية .

وفيه قرر الشيخ صنتباى في نظر المدرسة
السنقرية التي بباب النصر وأخرج النظر عن
قاضى القضاة الشافعى بأمر السلطان .

وفيه قرر السلطان أنس باى الذى كان شاد
الشرابخانة في مقدمة ألف ، وكان من خواص الأمير
طومان باى .

وفيه قرر طقطباى في كشف أسيوط ، وصرف
عنها يوسف النوام وقرر جانم المحمدى الحشقدى
في كشف منفلوط ، وصرف عنها حيدر السيفى
أزبك اليوسفى .

وفي يوم السبت مستهل ربيع الآخر خرج من
تعين من النواب المقدم ذكرهم ، وهم قرقماس
ابن ولي الدين المعين لنيابة حلب وبرد بك الطويل

المعين لنيابة طرابلس ، وقانصوه ابن سلطان
جركس ، المعروف بابن اللوقا ، المعين لنيابة حماه ،
وقد تعينت لدولات باى نائب حلب نيابة الشام ،
عوضا عن قصره اذا قبض عليه . وكانت هذه
التراتب كلها في البطل ، وآل الأمر الى خلاف ذلك
كما يأتى الكلام عليه في موضعه .

وفي يوم الاثنين رابعة خرج المقر السيفى طومان
باى أمير سلاح وما مع ذلك فلما خرج طلب
طلبا حافلا حتى رجت له القاهرة . فلما طلع الى
القلعة ، أفاض عليه السلطان خلعة حافلة ، وهى
فوقانى حرير أزرق بوجه أخضر بطرز يلبغاوى
عريض ... قيل كان طوله ثلاثة أذرع في عرض
ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندقى ، وكان
ما دخل فيه ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل قط مثله
ولا سمع بمثل ذلك . وكان الأشرف جان بلاط
يقاقل على رضا الأمير طومان باى بكل ما يمكن ،
ومع هذا كان الأمير طومان باى يضمر له كل
سوء فكان لسان حال جان بلاط يقول :

أقاسى المنون لنيل المنى

ويا ليت هذا بهذا نفى !

وكان الأمير طومان باى باغيا على الأشرف جان
بلاط ، فكان كما يقال :

والغدر بالعهد قبيح جدا

شر الورى من ليس يرعى عهدا

فلما خرج كان صحبتته من الأمراء المقدمين
قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، والأمير قانصوه
الغورى رأس نوبة كبير ، والأمير أزدمر بن على
باى أحد المقدمين ، وأنس باى أحد المقدمين .
فكانوا بمن تقدمهم من الأمراء المقدمين أحد عشر
أميرا ، ومن الممالك السلطانية نحو من ألفى مملوك
وزيادة . وكانت هذه التجريدة المعينة الى

قصوره نائب الشام ، تعادل تجريدة ابن عثمان ،
وقد تقدم ذكر ذلك في دولة الملك الأشرف
قايتباي .

فلما شق الأمير طومان باي من القاهرة كان له
يوم مشهود ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ،
وكان محبوبا للناس ، ولا سيما العوام ، فلهج
الناس بأنه سيعود سلطانا ، وكان الأمر كذلك .
واستمر في ذلك الموكب حتى نزل بالريدانية في
الوطاق فأقام به أياما . وقيل ان السلطان نزل
اليه هناك في الخفية تحت الليل ، وجلس عنده
وتحدثا فيما يكون من أمر قصره ، وأنعم عليه
السلطان بأشياء كثيرة ، من مال وقماش وتحف
حتى بأحجار حيوانية لمنع السموم القاتلة ، ثم
ودعه وطلع الى القلعة . وكان يظن أن الأمير
طومان باي ناصحا له ، وكان الأمر بخلاف ذلك .

وفيه من الحوادث أن السلطان تغير خاطره
على القاضي كاتب السر بدر الدين بن مزهر ،
فقبض عليه وعلى حاشيته وسجنه بالعرقانة ،
وضربه ضربا مبرحا غير ما مرة ، وسبب ذلك أن
السلطان لما صادر الناس كما تقدم ، ندب القاضي
بدر الدين الى ذلك ، فأظهر من الظلم والعسف
والتشويش على الناس ما يطول شرحه ، وأظهر
النتيجة في ذلك للأشرف جان بلاط ، فانه كان
صهره ، فكثر الدعاء عليه وأخذ الله من الجانب
الذي يأمن اليه ، وكان كما يقال :

فكان كالمتمنى أن يرى قلعا

من الصباح ، فلما أن رآه عسى

ثم انه قرر عليه مالا ، وأقام في العرقانة حتى يورد
ما قرر عليه من المال ، وكان من أمره ما سذكروه
في موضعه .

فلما كان يوم الخميس ثاني عشره خلج

السلطان على صلاح الدين بن يحيى بن شاطر بن
الجيغان ، وقرره في كتابة السر ، عوضا عن بدر
الدين بن مزهر ، بحكم صرفه عنها . وهذه آخر
ولايته لكتابة السر ، فلم يعد اليها بدر الدين
بعد ذلك .

وفي ليلة الجمعة ثالث عشره خسف جرم القمر
خسوفًا تاما ، وأقام في الخسوف الى قريب
التسبيح ، وغرب وهو مكسوف .

وفيه توفي القاضي جلال الدين بن الأمانة أحد
نواب الشافعية ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن
عبد العزيز ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ،
وفاته منصب القضاء غير ما مرة ، وهو آخر من
روى صحيح مسلم عن الزيتي الزركشي بالسمع ،
وكان قد طعن في السن وقارب التسعين من العمر .
وفيه نودي من قبل السلطان بإبطال ما تجدد
من المكوس والمظالم الحادثة من بعد موت
الأشرف قايتباي .

وفيه عاد تمر باي خازن دار الأمير طومان باي
الدوادار الذي كان توجه الى قصره نائب الشام ،
ليمشي بينه وبين السلطان بالصلح ، فلم يوافق
قصره على ذلك .

وفيه توفي أضيأى الأشرفي قايتباي ، وكان أحد
الدوادارية ، وكان لا بأس به .

وفي جمادى الأولى ، في يوم الاثنين خامسه ،
وصل هجان من الشام في الخفية ، وعلى يده
مكاتبات الى تمرباي خازن دار طومان باي ،
ليفرقها على الأمراء . فكان مضمونها أنه تسلطن
بالشام وتلقب بالملك العادل . واستفاض هذا
الكلام بين الناس وفشا ... فلما فرق تمرباي
المكاتبات على الأمراء خاف على نفسه ، ففر تحت
الليل ، وستر الله عليه حتى خرج من القاهرة .

وفيه جاءت الأخبار مفصلة بصحة ما جرى . وهو أن العسكر لما وصل الى الشام ، نزل في مكان يسمى سمعس بالقرب من دمشق ، فركب قصره نائب الشام في نفر قليل من عسكره ، وأظهر أنه طائع ، فاطمأن له العسكر ، وكان غالب الأمراء خشداً شينيه . فلما حضر اليهم دخل معهم الى الشام ، واجتمعوا في القصر الأبلق الذي في الشام بالميدان . ولما حضر قصره نائب الشام ذكروا له أنه يطلع الى القلعة ويقرا مراسيم السلطان ، فطلع وطلع الأمراء الى القلعة . فعند ذلك قرأوا عليه مراسيم السلطان ، فلم يلتفت الى ذلك . ثم تفاوض هو والأمراء في الكلام ، ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، ثم أمر قصره والأمير طومان باي بالقبض على جماعة من الأمراء ، وهم : قرقماس ابن ولي الدين نائب حلب الذي قرر بها ، وأزدمر بن علي باي أحد الأمراء المقدمين ، وخاير بك أخو قنصوه البرجي ، أحد الأمراء المقدمين ، وسودون بن يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه بن سلطان جركس الذي قرر في نيابة حماه . وقبض على آخرين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم بالقلعة بدمشق . وفي أثناء ذلك حضر الى دمشق دولات باي بن أركماس نائب حلب الشهير بأخي العادل ، فلما حضر تعصب للأمير طومان باي ، وتكلم في سلطنته ، فأحضر قضاة الشام ، وكتب صورة محضر في خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة ، وبايعوا طومان باي من غير خليفة ، وتلقب بالملك العادل أبي النصر ، وأحضر له شعار الملك فأقيض عليه ، وفيل له الأمراء الأرض . فأول من قبل له الأرض قصره نائب الشام ، ثم بقية الأمراء شيئاً فشيئاً . فلما تم أمره في السلطنة عين الأتابكية

بمصر لقصره نائب الشام ، وعين نيابة الشام لدولات باي نائب حلب ، وعين نيابة حلب الى أركماس بن ولي الدين ، وعين نيابة طرابلس لبرد بك الطويل ، وعين نيابة صفد لجانم ، وقرر قيت الرحبي في امرية سلاح عوضاً عن نفسه ، وقرر قانصوه الغوري في الدوادارية الكبرى والاستادارية والوزارة وكاشف الكشاف عوضاً عن نفسه ، وقرر قاني بك ، نائب الاسكندرية ، في الرأس نوبة الكبرى ، وقرر اصطغر بن ولي الدين في الحجوية الكبرى ، وعين عدة امريات ألوف ، وامريات طبلخانات وعشراوات لجماعة من عصبته . ثم انه رسم بشنق أحد مشايخ العربان من أولاد ابن نبعة ، وشنق شخصاً آخر من مشايخ بني حرام يقال له نايت . فلما تم أمره في السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ، ثم أخذ في أسباب الحضور الى مصر . فلما سمع الأشرف جان بلاط هذه الأخبار ، اضطربت أحواله ، وضاعت به الدنيا . ثم أخذ في أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر ، عوضاً عن أظهر العصيان بدمشق ، فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عوناً ، ويدخلوا طاعته ... فأحضر لهم المصحف العثماني ، وحلف عليه سائر الأمراء من كبير وصغير بعد صلاة الجمعة ، بحضرة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ... وكان قاضي القضاة الشافعي عبد القادر بن النقيب ألف صورة أيمان مغلظة بالله ، وبالمصحف ، وبالحج ، وبالعشق والطلاق ثلاثاً ، وغير ذلك من التأكيد في الأيمان المغلظة ، وكتب ذلك في سجل ، ودفعه الى صلاح الدين بن الجيعان كاتب السر ، ليحلف عليه الأمراء . وكان هذا سبباً لانتقام العادل من ابن النقيب لما حضر الى مصر ، وتم أمره في السلطنة ، فجرى على ابن النقيب منه أمور مهولة يأتي الكلام عليها .

فلما تكامل المجلس حلف الأمراء بتلك الأيمان التي تقدمت ، أنهم لا يخونون ، ولا يغدرون ، ولا يسيلون مع العادل اذا حضر ، فحلفوا على ذلك . ثم أحضر لهم عدة تشاريف ، فخلع على قانصوه المحمدي المعروف بالبرجي ، وقرره في أمرية السلاح ، عوضا عن طومان باي بحكم سلطنته بدمشق . وقرر خشكلدي اليبسقي الظاهري خشقدم في أمرية مجلس ، عوضا عن قانصوه البرجي بحكم انتقاله الى أمرية سلاح . وقرر مصرباي في الدوادرية الكبرى ، عوضا عن طومان باي بحكم سلطنته بدمشق . وقرر سنباي نائب سيس في الأميراخورية الكبرى ، عوضا عن قاني باي الرماح بحكم عصيانه مع طومان باي . وقرر سودون العجمي في الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن قانصوه الغوري بحكم عصيانه مع طومان باي . وقرر برد بك المحمدي الاينالي في حجوية الحجاب ، عوضا عن قيت الرحبي بحكم عصيانه . وقرر قانصوه الصغير في ولاية القاهرة ، وقرر ثاني بك الأبح في شادية الشراب خاناه ، وقرر اقبائ الطويل في تجارة المباليك ، وقرر تمر باي أمير شوري في استادارية الصحبة ، وقرر جان بردي رأس نوبة ثاني . وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم يبيرس الفهلوان ، وأزبك المكحل ، وخشكلدي الذي كان استادار الصحبة ، ودولات باي قرموط الذي كان والي القاهرة ، وأزبك الناشف ، وتمراز جوشن ، وتمراز الزردكاش ، وقرقباس الشرابي ، وخير بك الكاشف ، وغير ذلك من الأمراء ممن خامر مع طومان باي . ثم فرق عدة أقاطيع على الخاصكية عوضا عن طومان باي . ثم أخذ في أسباب تحصين القلعة ، فركب حولها المكاحل المعمرة بالمدايع ، وأصلح سورها

وأبراجها ، وبنى فوق سلم المدرج بابا -- وهو موجود الى الآن -- ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة ، فبناه بالفص الحجر ، وصنع فيه مرامي وأبوابا صغارا . ثم سد باب الميدان ، وباب حوش العرب ، وباب الأصطبل الذي عند الصوة ، وصنار ينزل في النهار مرتين يكشف على العمارة بنفسه . ثم رسم بهدم مدرسة السلطان حسن فهدم منها بعض شيء من وراء ظهر محراب القبة ، فأقاموا يهدمونها ثلاثة أيام فلم يقدروا على هدم ذلك ، فتكلم الأمير تغري بردي الاستادار مع السلطان في عدم ذلك ، فرجع السلطان وترك الهدم . وقد تأسف الناس على هدمها لأنه لم يعمر في الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفيد من هدمها شيء ، وما كان يقدر على هدمها ، فكان ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك . وفي هذه الواقعة يقول شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفي :

هتكت قبة الحسن وانتفى وصفها الحسن
ان في ذا لعبرة لكن المستفيق من
وقال محمد بن قانصوه بن صادق سامحه الله :
حسن السلطان قد هتكت

— خيفة المحذور — قبه

تفس الراضى بدا ، وغدت
مثلها في الهتك حرمته

ثم ان السلطان نقل الى القلعة من البقسماط والجن والغنم والبقر والأوز والدجاج والقمح والشعير وأشياء كثيرة من احتياج المطبخ ما يكفي للمحاصرة نحو الشهرين . ثم نادى في القاهرة بإصلاح الدروب ، وإصلاح باب المدينة ... فاضطربت الأحوال ، وتزايدت الأقوال ، وكثر القيل والقال ، ووزعوا قماشهم في المخابي ، وظن

كل أحد أن هذه فتنة مهولة ما تنجلي إلا عن أمور
شتى . وصار الناس في رعب من ذلك ، وقد اشتد
الأمر جدا .

وفيه قبض السلطان على اسماعيل زامل وشنقه
على باب الميدان . وسبب ذلك أنه هرب تمرى
خازندار طومان باى الذى تسلطن بالشام ، مكنه
أن يتوجه الى الشام ، وما أعلم السلطان بذلك ،
فشنقه لأجل ذلك ، وصار له ذنب كبير . ثم ان
السلطان أراد أن يقبض على الأمير طراباى ،
وعوقه بالقلعة ساعة ، ثم بدا له ترك هذا الأمر .
ثم ان السلطان رسم بقطع سلاله مدرسة السلطان
حسن ، وأمر بنقض أماكن من دار يشبك الدوادار
ونقل الى القلعة أخشابا كثيرة صنع منها عدة
طوارق ، ووسائل خشب ، وغير ذلك من آلة
الحرب . ثم فتح الزودخانه ، وفرق منها على
جناحة من الجند عدة سيوف ، وزرديات ، ولبوس
وتراكس وقسي ونشاب وغير ذلك . ثم فرق عليهم
عدة خيول خاص من خيول الأمراء الذين خامروا
مع طومان باى ... فأخذ خيولهم وفرقها على
العسكر ، وفرق عليهم من خيوله الخاص أيضا ،
وأرضى العسكر بكل ما يمكن ، وأنعم على أكثرهم
بوظائف واقطاعات ، وفرق مشالات تكتب على
بياض على جميع من كان عنده ... ولم يفده من
ذلك شيء ، فكان كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج

فلا تطمع لنفسك في اعتدال

وفي جمادى الآخرة ، في يوم الأربعاء مستهله ،
خلع السلطان على الأمير عبد اللطيف الطواشى
وقرره زماما وخازندارا كبيرا ، عوضا عن جوهر
المعنى بحكم وفاته كما تقدم .

وفيه توفي الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبيد
القفاص ، وكان من الصالحين

وفي يوم السبت رابعة جاءت الأخبار بأن
العاذل طومان باى خرج من الشام ، هو وقصروه
نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وجماعة
من النواب ، والتف عليهم الجيم الغفير من عسكر
الشام ، وعربان جبل نابلس والعشير ، وغير ذلك .
وقد وصل الى غزة . فلما تحقق السلطان ذلك ،
علق الصنجق السلطاني على باب السلسلة ، ونادى
للعسكر بأن يطلع الطائع الى القلعة ، ومعه آلة
الحرب وأن سائر الأمراء تطلع الى القلعة صغارهم
وكبارهم . ثم رسم لقضاة القضاة بأن يطلعوا الى
القلعة فطلعوا الى القلعة ، وكذلك سائر المباشرين
من أرباب الوظائف ، يطلعون الى القلعة أجمعين .
فامتلأوا ذلك ، وطلعوا الى القلعة ، وأقاموا بها ،
 واحتاط في الأمور بكل ما يمكن ، ولم يفده من
ذلك شيء . فكان كما يقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم الخميس تاسعه ، وصل العاذل
بين معه من العساكر الى خانقاه سرياقوس ، ودخل
أوائل عسكره الى القاهرة ، فهاجت القاهرة
واضطربت ، وقلق الأشرف جان بلاط وضائق عليه
الدنيا بما رحبت . فكان كما يقال في المعنى :

قد كان يرجف في ليلالي وصله

قلبي ، فكيف الآن عند صدوده

وفيه جاءت الأخبار بوصول عسكر العاذل
الى المطرية ، فخرج اليه بعض العساكر السلطانية ،
وتقاتلوا معهم هناك قتالا هينا . ففر منهم أزيد
النضراوى ، ودخل تحت طاعة العاذل ، وقيل له
الأرض ، فخلع عليه العاذل هناك ، وقرره والى

الشرطة بالقاهرة . ثم ان بعض المماليك توجه الى بيت العادل الذى كان ساكنا به ، وهو بيت الظاهر تبرغا الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فأحرقوا مقعده ومبितه ، ونهبوا منه بعض أثاث .

وفى يوم السبت حادى عشره ، كان دخول العادل طومان باى الى القاهرة ، فدخل من باب الفتوح ، ورفع على رأسه صنجق خليفتى . وكان معه من الأمراء قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب . وكان معه من النواب قسروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وبرد بك الطويل نائب طرابلس ، وجانم نائب حماه ، وغير ذلك من الجند والعربان والعشير ... فشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محببا للناس قاطبة ، فنادى بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وألا يشوش أحد على أحد من الرعية . فتزايدت له الناس بالدعاء . وكان الناس يظنون أن العادل طومان باى يخرب مصر عن آخرها بسبب ما يقع من الفتن ، وأن الأمر يطول فى ذلك ، فما حصل الا كل خير ، وانفرج الأمر عن قريب . فاستمر العادل طومان باى فى ذلك الموكب ، وكان له يوم مشهود ، حتى توجه الى بيت قانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى فنزل به ، ونزل قسروه بالأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، ونزل دولات باى نائب حلب بجامع شيخو ، ونزل نائب طرابلس بدار أزبك اليوسفى أمير مجلس ، الذى كان بدرب ابن البابا بالقرب من الصليبة . وتوزع الأمراء والنواب الذين حضروا صحبة العادل كل واحد فى مكان بالقرب من الصليبة . ثم ثار الحرب بين الفريقين وعظم الأمر جدا . وكان القسائم بنصرة العادل

قسروه نائب الشام ، فأمر بحفر خنادق فى الطرقات ، ووراءها سوز من الحجارة . فحفروا خندقا برأس الرملة عند سويقة ابن عبد المنعم ، وخندقا عند حدره البقر ، وخندقا عند باب الوزير ، وخندقا برأس سوق جامع أحمد بن طولون ، وخندقا عند سوق القبو عند مدرسة السلطان حسن ، فكانت خمسة خنادق .

ثم ان العادل أحضر عدة أخشاب لاطات ، وجزم وصواري ، وأحضر جماعة نجارين ، فصنعوا منها عدة طوارق وسلاالم ، وشرعوا فى عمل مجانيق ، وسدوا عدة أماكن شتى ، وبنوا عليها دروبا ، وصاروا يعلقونها ، وظنوا أن هذه الفتنة يطول أمرها .

ففى اليوم الثالث من المحاصرة ، ملك قسروه مدرسة السلطان حسن ، وركب المكاحل المعمرة بالمدافع ، ووقف بها ، ورموا على من بالقلعة بالسفريات ، وبالبندق الرصاص ، فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة ، وجرح آخرون فضعف عزيمتهم عن القتال ، وبانت الكسرة عليهم . ولم يكن عند الأشرف جان بلاط بالقلعة سوى الأتابكى تانى بك الجمالى ، والأمير طراباى ، والأمير مصرباى ، والأمير قانصوه البرجى ، وخشكلىدى البيسقى ، ونائب سنباى ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وغيرهم . وكان الرماة أشاعوا عن السلطان جان بلاط ، لما وصل العادل الى المطرية ، أن يخرج اليه الأتابكى تانى بك الجمالى ، وآخرون من الأمراء ويحاربونه ، وكان هذا عين الصواب لو فعلوه . كما يقال فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة

تصير ان لم تنتهزها غصة

واسبق الى الأجود سبق الناقد

فسبقك الحصم من المكاييد

ثم ان العادل قصد أن يحضر جماعة من فرسان
عربان الشرقية يقاتلون معه ، كما فعل أقبردى
الدوادار ، فلم يوافقهم الأمراء على ذلك ، وقالوا
هذا يحصل منه غاية الفساد .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره اشتد الحرب
بين الفريقين ، ووقع بينهما واقعة مهولة بباب
الوزير فجرح فيها شخص من الأمراء الطبلخانات ،
يقال له تمرباى الطويل استادار الصحة ، فلما
جرح أغمى عليه فسقط عن فرسه ، فأخذوا لبسه
وسلاحه ، وحمل الى داره فمات بعد أيام . وفى
ذلك اليوم تقنطر الأمير مصرباى الدوادار بالتبانة ،
وأخذوا فرسه من تحته ونجا بنفسه ، وهرب .
وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين .
وقتل فى ذلك اليوم أيضا الأمير قانى بك نائب
الاسكندرية ، أحد الأمراء المقدمين ، قتل بكفيه ،
وكان من عصبة الأمير أقبردى الدوادار ، وحضر
الى القاهرة صحبة قصره نائب الشام ، وكان
مقيما بالشام . وقتل جماعة من الخاصكية فى ذلك
اليوم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره استمر الحرب
تائرا بين الفريقين الى يوم الخميس سادس عشره ،
فاتفق العادل طومان باى على العسكر الذين من
عصبة جامكية شهر ... وصار الأشرف ينفق
الجامكية بالقلعة على من عنده من العساكر ،
والعادل طومان باى ينفق الجامكية فى بيت ثانى
بك قرا على من عنده من العسكر . فلما تلاشى
أمر الأشرف جان بلاط ، وترشح أمر العادل
طومان باى ، ولاحت عليه لوائح النصر ، صار
جماعة من الأمراء والعسكر يتسحبون من القلعة ،

وينزلون عند العادل طومان باى ... فنزل اليه
قانسوه الفقيه ، وتمر الظاهري ، وجان بلاط
الأبح ، وقانى بك الأبح ، وغير ذلك من الأمراء
والخاصكية ثم نزل فى ذلك اليوم القاضى
عبد القادر القسروى ، وتوجه الى العادل فخلع
عليه ، وأقره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى
أحمد ناظر الجيش ، وكان الأشرف جان بلاط
وعد العسكر أنه ينفق عليهم مع الجامكية ، فلم
ينفق عليهم شيئا ، فانقلبوا عليه وتسحب غالبهم ،
وأثروا الى العادل فرحب بهم .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خرج العادل
من بيت ثانى بك قرا ، وهو راكب ، وعليه سلاوى
شوح أحمر بهرو سمور ، وعلى رأسه تخفيفة
صغيرة ، والأمراء حوله ، فتوجه الى جامع شيخو ،
فصلى به صلاة الجمعة . فارتفعت له الأصوات
بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من
الطيقان ، وكان يوما مشهودا . فلما خطب الشرفى
يحيى بن العداس ، خطيب جامع شيخو ، دعا فى
آخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهى أول خطبة
خطبت باسم العادل فى القاهرة قبل أن يخلع جان
بلاط من السلطنة . وقد خاطر الشرفى يحيى بن
العداس بنفسه فى ذلك ، فعد ذلك من النوادر .
فلما تسلطن العادل وتم أمره فى السلطنة ، كتب
للشرفى يحيى بن العداس ، جامكية فى كل شهر
ألف درهم ، فى نظير ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره وقت صلاة الفجر ،
نزل من القلعة جماعة من الأمراء العشراوات ، منهم
جان بردى الغزالى ، وخايربك الكاشف ، وآخرون
من الخاصكية ، فتوجهوا الى العادل . ثم ان جان
بلاط رسم بتفرقة الجامكية الثانية فى الاصطبل
السلطانى ، وحضر هناك العسكر وهم لايسون

آلة الحرب ... فبينما العسكر الذين بالقلعة مشغولون بنفقة الجامكية ، وإذا بالقلعة قد ماجت واضطربت ، وثار الجهم الخفير بالرميلة من المماليك الذين من عصبية العادل ، فنهبت الجامكية عن آخرها التي أنفقت بالاصطبل . وكان سبب ذلك ما استفاض بين الناس أن الملك الأشرف جان بلاط كان مقيما في مدة حصاره بالقلعة بالقصر الكبير ، وعنده جماعة من المشايخ الصوفية ، ومن يعرف بالصلاح . فلما ضاق الأمر على الأشرف جان بلاط قام ودخل الى دور الحريم ، فأبطأ فيه ساعة طويلة ، فعمد الأمير طراباي الى النمجة والترس فأخذهما ونزل بهما من القلعة ، وتوجه الى العادل طومان باي ، وأشاع أن الأشرف جان بلاط قد هرب من القلعة . فلما سمع بذلك الأتابكي قصروه — وكان مقيما بمدرسة السلطان حسن — حطم بمن معه من الجند فملك باب السلسلة ، وسلم المدرج ، من غير مانع ، ولم يفد تحصين الأشرف جان بلاط شيئا ، ولا بناية تلك الأبراج ، ولا تركيب المكحلة الكبيرة التي يقال لها المجنونة . وكان هذا خذلانا من الله تعالى له . وقد قلت في المعنى مع التضمين :

تحصن خوفا جان بلاط بقلعة

فلم تدافع الأعداء عنه المدافع

وكانت مدافعه كفارغ بندق

خلّى من المعنى ولكن يفرقع

فلما كانت الكسرة على الأشرف جان بلاط ، وقع النهب بالقلعة في الحواصل السلطانية ، فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، مما ثقله الأشرف جان بلاط الى القلعة ، من أغنام وأبقار وبقسماط وسكر واحتياج المطبخ وغير ذلك .

ثم انه في ذلك اليوم رسم العادل بالافراج عن القاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، وكان الأشرف جان بلاط سجنه بالعرقانة وقرر عليه مالا له صورة ، وأقام بالعرقانة مدة طويلة فأفرج عنه ونزل الى داره في ذلك اليوم . فلما حصلت هذه النصرة من غير قتال مهول ، ركب العادل طومان باي من بيت تاني بك قرا ، وعلى رأسه الصنجق السلطاني ، وصعد الى باب السلسلة من غير مانع وملكه ، وكان من أمر سلطنته ما سيأتي الكلام عليه في موضعه .

وفي أثناء ذلك اليوم قبض على الأشرف جان بلاط ، قيل وجد في مكان مهجور بدور الحريم ، فأمسك من هناك . فلما قبضوا عليه أدخلوه الى قاعة البحرة ، وقيدوه بقيد ثقيل ، واكلوا به جماعة من الخاصكية ، وفيهم شخص من ممالك أقبردى الدوادار ، فحصل للأشرف جان بلاط منه غاية الضرر والبهدلة وما لا خير فيه . فكان كما يقال في أمثال « الصادح والباغم » :

عند تمام المرء يبدو نقصه

وربما ضر الحريص حرصه

ومنها :

كم عشت، في لذة عيش وهنا

فأصبر الآن لهذه المحنا

ثم نقل الأشرف جان بلاط من البحرة الى المبيت الذي بجوار المقعد الذي بالحوش ، فأقام نحو من ثمانية عشر يوما . وقيل كان تأخير الأشرف جان بلاط هذه المدة لأجل أن يورد ما قرره عليه العادل من المال .

فلما كان يوم الاثنين خامس رجب توجهوا بالأشرف جان بلاط الى السجن بشعر الاسكندرية ، فنزلوا به من باب الدرفيل وقت الظهر ، وهو مقيد ، وخلفه أوجاقى بخنجر ، فتوجهوا به من

الملك العادل

هو الملك العادل طومان باى ابن قانصوه ، أبو النصر الأشرف قايتباى . وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو التاسع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، وكان أصله چركسى الجنس ، اشتراه قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وقدمه مع جملة المماليك الى الأشرف قايتباى ، فأقام بالطبقة مدة طويلة ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً ، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا ، ثم بقى خاصكيا خازن دار كيس فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم قرره فى نيابة الاسكندرية فى سنة اثنتين وتسعمائة ، وتوجه اليها وأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر ، ثم بقى مقدم ألف دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر قانصوه ، ثم بقى أمير سلاح ، ودوادارا كبيرا ، واستادارا ، ووزيرا ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة فى دولة الأشرف جان بلاط .

ثم سافر لما عصى قصره نائب الشام فتسلطن هناك ، وعاد سلطانا كما تقدم . فلما دخل الى القاهرة وصحبته قصره وبقية النواب ، قام قصره بنصرته قياما حافلا ، وصار ينفق على حفر الخنادق ، ويشيل التراب بالقفة على رأسه وكتفه ، هو ومماليكه مع الفعلاء ، ونصب المكاحل على مدرسة السلطان حسن ، ووقف الرماة بالبندق الرصاص ، واستمر يحاصر القلعة سبعة أيام .

فلما كان يوم السبت عشر هذا الشهر انكسر الأشرف جان بلاط ، فحطم العادل وملك باب

جهة المجرة الى البحر ، فنزلوا به فى الحراقة وساروا الى الاسكندرية . وكان المتسفر عليه الأمير أنس باى أحد المقدمين ، والأمير قان بردى أحد الأمراء العشراوات ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجهوا به الى الاسكندرية ورجعوا .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان فى هذه المدة فى غاية الضنك مع الأمير طومان باى . وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة ، وحاصره وهو بالقلعة نحو من سبعة أيام ... فانه دخل الى القاهرة يوم السبت حادى عشر هذا الشهر ، وهو جمادى الآخرة ، وملك القلعة يوم السبت ثامن عشره . وتعب فى تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من كل صنف كما تقدم ، وظن أن حصار القلعة يطول فما أفاده ذلك شيئا .

وكان الأشرف جان بلاط أرشل غليظ القلب ، قليل الحظ ، عسوفاً ظالماً ، حصل منه فى مدة سلطنته للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال . ولو أقام فى السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى ... فعجل الله تعالى به . ومن مساويه ما وقع له مع أقبردى الدوادار ، فانه كان من أعز أصحابه ، وقيل ضبط ما وهبه له أقبردى ، فكان ينيف عن خمسين ألف دينار ، ثم بعد هذا الاحسان انقلب عليه كأنه لم يعرفه . وكانت صفته أبيض اللون ، طويل القامة ، مستدير الوجه ، أسود اللحية ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى الملك وله من العمر نحو من أربعين سنة . وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى تسلطن ، وأقام هذه المدة اليسيرة ، وآل أمره الى أن خنق وهو مسجون بالبرج ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

السلسلة من غير مانع . فلما استقر بباب السلسلة قبض على قاضي القضاة الشافعي محيي الدين عبد القادر بن النقيب ، ووكل به جماعة من الأوجاقية ، وقرر عليه مالا له صورة ، فنزلوا به وهو ماش على أقدامه ، وحوله أوجاقية ورسل قابضون عليه من أكماسه ، فشقوا به من الصليبة ، وهو على هذه الهيئة ، فسبه العوام وكادوا أن يرحموه ، حتى حماه بعض الأتراك . واستمر على ذلك حتى أتوا به الى بيت على بن أبي الجود البزدار - وكان ساكنا في ربع الأشرف برسباى الذى بالصليبة - فأقام هناك في الترسيم حتى يورد المال الذى قرر عليه ، وكان قد بلغ العادل ما رتبته من الأقسام المغلظة التى حلفها الأشرف جان بلاط للعسكر ، لما بلغ ابن النقيب سلطنة العادل بدمشق ، فانتقم منه العادل بسبب ذلك ، وعزله عن القضاء ، فكانت مدته في هذه الولاية ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . وقد قلت في ذلك :

ولوك أشرف منصب يا قاضيا

لكن ان عدل الزمان ستتسخ

طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا

وكذا القلوب على المناصب تطبخ

ثم ان الملك العادل طلب قاضي القضاة زين الدين زكريا ، فلما توجهوا اليه امتنع من الحضور واعتذر بأنه متوعك في جسده ، فلا زالوا به حتى أركبوه وطلعوا به الى القلعة ، فخلع عليه العادل وأعادته الى القضاء عوضا عن ابن النقيب بحكم عزله كما تقدم . ثم حضر قاضي قضاة الحنفية ابن الكركى ، وقاضي قضاة المالكية عبد الغنى بن تقي ، وقاضي قضاة الحنابلة الشهاب الشيشينى . ثم حضر أمير المؤمنين أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب . فلما تكامل المجلس عملوا صورة شرعية في خلع الأشرف

جان بلاط ، وولاية العادل طومان باي . فخلع جان بلاط من السلطنة . وبايع الخليفة طومان باي بالسلطنة ، وجدد له مبايعة ثانية ، زيادة على ما بيده من مبايعته بالشام . واستمر على لقبه بالعادل الذى تلقب به بالشام . وكان أولا تلقب بالملك المؤيد وهو بالشام ، ثم تحول لقبه الى الملك العادل . فلما انكسر الأشرف جان بلاط ، كما تقدم ، وطلع العادل الى القلعة ، لم يجلس بالمقعد الذى يساب السلسلة ، بل طلع الى القصر الكبير وجلس به ، وحضر الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ووقعت مبايعته هناك ، وأقيض عليه شعار الملك . واجتمع عليه هناك الأمراء والعسكر وأرباب الدولة قاطبة ، واستمر على ذلك حتى جلس على سرير الملك ورفع الزردكاش القبة والطير على رأسه ، وكان قانى بك الجمالى أمير كبير مختفيا . وقبل له الأمراء الأرض قاطبة ، ثم خلع على الخليفة العباسى - وكان ساكنا بالقلعة - ثم قرر قصره فى الأتابكية عوضا عن قانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، فخلع عليه فى ذلك اليوم فوقانى الذى كان الأشرف جان بلاط صنعه له عند توجهه الى دمشق ، وكان فوقانى حرير أزرق ، بوجه مخمل أخضر ، بطرز يلبغاوى عريض ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف ، قيل فيه من الذهب ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل مثله قط . ثم قام العادل لقصره وقبل رأسه ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، فتوجه الى الأتابكية بدار الأتابكى أزبك . وكان هذا كله عين الخداع من العادل فى حق قصره ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما يقال فى المعنى :

إذا رأيت ثنايا الليث كاشرة

فلا تظن بأن الليث يتسم

ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى

القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وكان محببا للناس ، ولا سيما العوام ، فزينت له القاهرة سبعة أيام متوالية . وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وصار كل أحد في فرح بسلطنته ، وانفرجت تلك الفتنة عن الناس عن قريب ، وكان يظن كل أحد أن أمر الفتنة يطول ويتسع ، فآل الأمر الى خير بخمود الفتنة عن قريب . فكان كما يقال :

ملك نداه المبتددا

للناس والمدح الخبر

أمضى لسان سيفه

حكم القضاء والقدر

فلما تم أمره في السلطنة كان أول شيء صدر منه من الأفعال الشنيعة ، أنه قبض على خوند أصل باي أم الناصر ، وزوجة الأشرف جان بلاط ، وأخت الظاهر قانصوه ، فوكل بها عشرة من الخدام ، وقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فباعت أشياء كثيرة من قماشها وأخذت في أسباب وزن ما قرر عليها من المال . ثم انه عزل برهان الدين ابن الكركي عن قضاء الحنفية ، وقرر بها الشيخ سري الدين عبد البر ابن الشحنة ، وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية .

وفيه قرر قرقماس المقرئ في الحسبة ، فلما قرر بها قبض على محمد الباسطي الذي كان متكلمًا في الحسبة في دولة الناصر محمد بن قايטباي . فلما قبض عليه ضربه بالمقارعة في يوم شديد البرد ، وأشهره في القاهرة على جنل ، فما أطاق ذلك ومات عن قريب . وكان من الظلمة الكبار .

وفيه خلع على أسنباي الأصم وقرره في الحجوية الثانية ، وقرر نوروز أخا يشبك الدوادار في رأس النبوة الثانية ، وقرر طومان الأشرفي في الأميراخورية

الثانية ، وقرر القاضي عبد القادر القصري في نظر الجيش ، وصرف عنها الشهابي أحمد ابن ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان برم ما فسد من حيطان مدرسة السلطان حسن في مدة محاصرة القلعة ، فرم ذلك جميعه .

وفيه توفي الشرفي يونس بن محمد أينبك أحد الزردكاشية ، وكان لا بأس به .

وفي ليلة الخميس مستهل رجب ، جرى من الحوادث الغريبة أن الأتابكي قصروه طلع الى القلعة ليبيت عند السلطان ... وكان يبيت بالقلعة ليلة الاثنين وليلة الخميس في تلك الأيام . فلما طلع على جاري العادة وأكل السمط ، وجلسوا ساعة يتحدثون ، قال له السلطان : « قلبي خائف منك يا أمير كبير » . فلما صلى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجهوا به الى المكان الذي أنشأه الظاهر قانصوه بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسل وكفن ، وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن في تربة صاحب خشقدم الزمام التي بالقرب من حوش العرب . وكان قصروه أميرًا جليلا رئيسا حشما مهيبا

مبجلا ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباي ، وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر . وكان في أيام العادل له الأمر والنهي في الموكب . وإذا نزل من القلعة يتوجه معه الأمراء الى الأربكية ، وجميع قراء البلد والوعاظ . وعزم على سائر الأمراء في ليلة ، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده جميع الأمراء أكابرهم وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم في تلك الليلة على جماعة من الأمراء بخيول ومال ، حتى استمال

قلوبهم . وكان يوصف بالكرم الزائد مع الشجاعة ،
فوعده العسكر بكل جميل ، فمالوا اليه ، وعولوا
في السلطنة عليه ... فلما بلغ العادل ذلك المجلس
استغتم الفرصة ، وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت
الليل ودفنه ، فكان كما قيل في الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة
وقد قلت في واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :
اعجبوا من أمر قصروه الذي
ملكه بالشام جهلا قد ترك
وأنى مصرا فما نال المنى
ورماه الدهر في وسط الشرك
وقولى فيه :

كان قصروه قصيرا عمره
خانه الدهر فولى مرعا
طلبوا التسليم منه فأبى
ثم ما سلم حتى ودعا
وقولى فيه أيضا مضمنا :

لم ينسل قصروه ما أمله
من غلوفاته في دهره
رام كيدا للمليك عادل
فرماه كيده في نحره

ولكن كان العادل باغيا على قصروه ، ووثت بينهما
الأعداى بالكلام حتى وقع بينهما وجرى ما جرى
من القتل . وكان قصروه سببا لنصرته بالشام
وبمصر ، وكان في الحصار بمصر معه بكل ما يمكن
كما تقدم ، وكان يشيل التراب مع الفعلاء على كتفه
عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند
حضوره من الشام ، وما أبقي ممكنا في نصرته العادل
على جان بلاطه ، وآخر الأمر قتله ظلما ، فلم يعش
الملك العادل بعده إلا أياما قلائل وقتل : قال على

كرم الله وجهه : « من سل سيف البغي قتل به » .
وفي الأمثال :

البغى داء ما له دواء
ليس للملك بعده بقاء
وكان بين العادل طومان باى وبين قصروه
أيمان غليظة ، وعهود ومواثيق ، وما كان قصروه
يظن أن العادل يخون تلك الأيمان والعهود كما
قيل :

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتني
وكان قصروه عقيفا عن المنكرات ، شجاعا بطلا
سخى النفس ، غير أنه كان عنده طيش ، وخفة
وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة
من العمر ، ووكره الشيب . فلما مات تأسف عليه
الكثير من الناس ، وزال خب طومان باى من
قلوب الناس كأنه لم يكن . ولم يستحسن أحد
منهم قتله لقصروه الذى كان سببا لنصرته ...
فنفرت عنه قلوب الرعية ، وكان هذا على غير
القياس . كما يقال :

لا تشكرون امرا حتى تجربه
ولا تدمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا
وذمه بعد شكر محض تكذيب

ويقرب من واقعة قصروه مع العادل طومان
باى ، ما وقع لطشتمر حصن أخضر وقطلوبغا
الفخرى مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ... فان
طشتمر وقطلوبغا الفخرى كانا سببا لنصرته لما
حضر من الكرك . فلما تسلطن قبض عليهما ،
وقيد طشتمر وقطلوبغا ولم يرع لهما ودا ، ثم
أمر بتوسيطهما عند عوده من الكرك ، ولم يكن
لهما من الذنب ما أوجب ذلك . وهذه الأفعال
ما تصدر الا من جاهل أحق يعد من جملة

المجانين . وكانت هذه الواقعة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وفعل العادل هذه الفعلة مع قصره بعد ما خدعه وألبسه الأتابكية ، وخلع عليه وعلى الأمراء الذين كانوا معه بالوظائف السنية ، منهم : قيت الرحبي خلع عليه وقرره في امرية سلاح ، وقانصوه المحمدي البرجي خلع عليه وقرره في امرية مجلس ، وقانصوه الغوري خلع عليه وقرره في الدوادرية الكبرى ، وخلع على قائمى باي الرماح وقرره في الأميراخورية الكبرى ، وخلع على طراباي الشريفى وقرره في الرأس نوبة الكبرى ، وخلع على طشتير وقرره حاجب الحجاب وأنعم على جماعة بأمریات تقادم ألوف ، منهم : خضر بك أخو قانصوه البرجي ، أنعم عليه بتقدمة ألف ، وطلخانات ، وعشراوات ، ووظائف ممن كان في عصبته .

وفيه قبض السلطان العادل على نخشبای ، الذى كان نائب حماه ، ثم بقى مقدم ألف في دولة الأشرف جان بلاط . وقبض على تمرار جوشن أمير آخور ثانی ، ثم شفع فيه بعض الأمراء فقرره بصحوية الحجاب بدمشق ، وخرج من يومه . ثم قبض على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ، وعلى جماعة آخر من الأمراء العشراوات والخاصكية ممن كان من عصابة قصره .

وفي يوم الخميس ثامن رجب قبض السلطان على الأمير قانصوه البرجي المحمدي أمير مجلس ، وأمر بنفيه الى مكة المشرقة بطالا ، فتوجه من البحر الملح . ثم قبض على قلعج نائب الاسكندرية وبعثه الى الشام بطالا . وقبض على جان بلاط الموتر الذى كان محتسبا ونقاه .

وفيه خرج الأشرف جان بلاط منفيا الى نهر الاسكندرية وهو مقيد كما تقدم .

وفي يوم الجمعة عاشره عقد السلطان طومان باي

على خوند فاطمة ابنة العلائى على بن خاص بك زوجة الأشرف قايتباي ، فعقد لها عليه بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة العتد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على قان بردى اليوسفى بتقدمة ألف ، وقرره في الدوادرية الثانية عوضا عن طراباي الشريفى بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى .

وفيه عمل الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء ، فخلع على دولات باي المشهور بأخى العادل وقرره في نيابة الشام ، وقرر أرقماس بن ولى الدين في نيابة حلب عوضا عن دولات باي ، وخلع على جانم بن قجماس وأقره في نيابة طرابلس عوضا عن برد بك الطويل ، وخلع على الأمير سنباي نائب سيسى وقرره في نيابة حماه ، وخلع على قانصوه الفاجر وقرره في نيابة صفد ، وخلع على ملاج الأشرفى قايتباي وقرره في نيابة القدس ، وخلع على قصره الصغير وقرره في نيابة البيرة ، وخلع على جانم وقرره في نيابة طرسوس . فلما خلع عليهم استحشهم في الخروج بسرعة الى محل ولايتهم ، فخرجوا بغير أطلاب .

وفيه أمر بنفى جماعة من الأمراء العشراوات الى نحو قوص ، منهم جان بردى الغزالى ، وقرقماس قرا ، وقايتباي ، وآخرون من الخاصكية . وقيل انه فقد منهم جماعة .

وفيه ، في يوم السبت سادس عشره ، خلع السلطان على جاني بك السيفى أقبردى الدوادر وقرره في شادية الشراب خاناه ، وقرر طوخ المحمدي في نيابة القلعة ، وقرر تمرباي أحد خواطه في الخازندارية الكبرى .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : طقطباي وماماي جوشن .

وفيه حضر خاير بك أخو قانصوه البرجى ،
وكان ممن سجن بقلعة دمشق مع الأمراء المقدم
ذكرهم ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف .
واستمرت الأتابكية شاغرة من حين قتل قصره ،
فرسم السلطان للأمير طراباى أن يتكلم فى جهات
الأتابكية حتى يقرر فيها من يختار .

وفيه عزل السلطان القاضى عبد البر الحنفى ،
وأعاد البرهان بن الكركى ، فكانت مدة القاضى
عبد البر فى القضاء أياما وعزل عنها . وقد قلت فى
ذلك :

ولوك قاضى القضاة لكن

جاءوك بالعزل عن قريب

فسدة الحكم منك كانت

أقصر من جلسة الخطيب

ولما أعيد قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى

الى القضاء ، قلت فى ذلك :

بقاضى القضاة استبشرت مصر فرحة

بعودته فى منصب للشرائع

فمذ قيل من أولى بمرتبة القضا

على مذهب النعمان من كل بارع

أشار اليه بالأيدى مليكها

وأوما اليه نيلها بالأصابع

وقد سعى ابن الكركى فى عوده الى القضاء بمال

له صورة .

وفيه اختفى شيخنا جلال الدين السيوطى ،

وقد طلبه ليفتك به ، وكان بينهما حظ نفس

من حين كان السلطان العادل فى الدواذارية

الكبرى ، وجرى بينهما أمور شتى يطول شرحها .

فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البليسى فى

مشيخة الخاتقاء البيبرسية عوضا عن الجلال

السيوطى بحكم صرفه عنها .

وقد جاءت الأخبار بالقبض على مغلباى زجاج

حاجب دمشق ، ونائب قلعتها أيضا . ثم ان
السلطان قرر فى حجوية دمشق يرد بك تفاح ،
وقرر تىر بن جانم الظاهر فى حجوية حلب عوضا
عن تىراز جوشن ، وكانت حيلة عليه ، فلما خرج
أرسل بالقبض عليه ، ومضوا به الى القدس بطالا .

وفى شعبان المبارك كانت تفرقة السلطان لنفقة
البيعة .

وفيه حضر قاصد على دولات وعلى يده مكاتبات
للسلطان تتضمن أنه أرسل يشفع فى الأمير أرقماس
نائب اليرة ، وكان فر الى ابن عثمان وعاد ، فأقام
عند على دولات حتى شفع فيه عند السلطان .

وفيه عول السلطان بالقبض على الأمير خشكلدى
البيسقى ، فلما بلغه ذلك فر من داره ، واستمر
مختفيا حتى جرى للعادل ما جرى .

وفيه طلع جهاز خوند الخاصكية الى القلعة ،
فشق من الصليبة وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين رابع الشهر المذكور جاءت
الأخبار من ثغر الاسكندرية بقتل الأشرف جان
بلاط مخنوقا ، وهو بالبرج بالاسكندرية ، قاتل
الله من فعل به ذلك . وكان قد أرسل العادل
مرسومه على يد مصرباى الصغير الى نائب
الاسكندرية بخنقه وهو فى قيده . وقيل لما أرادوا
خنقه أحدث فى ثيابه وصار شخير كالثور العظيم .

فلما مات غسل وكفن وصلى عليه ودفن بمقابر
الاسكندرية . ثم نقل بعد موته كما سيأتى الكلام
عليه فى موضعه . وكان الأشرف جان بلاط ملكا
جليلا وافر العقل ، جميل الهيئة ، وكان من خواص
الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها
تجارة الممالك ، وتقدمة ألف والدواذارية الكبرى
ونياة حلب ونياة الشام ، والأتابكية بمصر ، ثم
تولى السلطنة ، وأقام بها ستة أشهر وثمانية عشر

يوما ، وآل أمره الى أن مات مخنوقا بالسجن ،
وقاسى شدايد ومحن ، كما يقال في الأمثال :

والمرء لا يدري متى يمتحن

فانه في دهره مرتين

ولما مات الأشرف جان بلاط كان له من العسر
زيادة على الأربعين سنة . ولما مات على تلك الحالة
رثيته بهذه الأبيات :

جان بلاط بدا له طالع النجس طرده
نجمه لاح مخبرا بمكوس مؤبده
عند ما ظن أنه نال بالملك مقصده
جاءه الموت عاجلا في بروج مشيده

وفي يوم الخميس سابعه صعدت خوند
الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باي الى
القلعة . فخرجت من بيتها الذي بقنطرة سنقر ،
وهي في محفة زركش ، ومشى قدامها رءوس النوب
والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ،
ومشى أيضا قدامها الوالى ، وتقيب الجيش ،
وعبد اللطيف الزمام ، وأعيان الأكابر والمباشرين ،
منهم : كاتب السر صلاح الدين بن الجيعان ،
وعبد القادر القسروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين
ابن الصابونى ، وناظر الخاص ، وبقية المباشرين
قاطبة ، وأعيان الطواشية ، منهم : عنبر مقدم
الماليك ، وآخرون من الخدام ، وكان معها من
نساء الأمراء والأعيان نحو مائتى امرأة .

فلما وصلت الى باب الستارة فرشت لها الشقق
الحرير تحت حوافر بغال المحفة ، وثر عليها خفاف
الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على
رأسها حتى جلست بقاعة العواميد ، والنوبة
السلطانية عمالة ، وكان يوما بالقلعة مشهودا .
واستمر المهم بالقلعة عمالا ثلاثة أيام ، وكان لها
موكب حافل لما شقت من الصليبة ، وكان قدامها
المجمع السلطانى ، والبقق وطشت وابريق بلور ،

ومدورة زركش ... ولم يتفق لاحدى الخوندات
قبلها أنها نزلت من القلعة ، وعادت اليها على هذا
الوجه ، سوى هذه وخوند أصل باي ، أم الملك
الناصر ، ولكن هذه أعظم وأحكم موكبا ، وقلت
في هذه الواقعة أبياتا لطيفة المعنى :

عادت خوند الى سرور ثان

مذ زوجت بالعادل السلطان

في وجهها الاقبال والبشر الذى

يتقاولون به بكل لسان

طلعت كشس الأفق ضمن محفة

تجلى كحور العين وسط جنان

في موكب يحكى مواكب قيصر

فاقت على كسرى أنو شروان

لما أتت عند الصعود لقلعة

ثرت عليها الدر كالعقيان

عادت الى الأوطان في بشر وفي

عز واقبال وصفو زمان

نالت مراتب عزها مذ أقبلت

عاد السرور بمقدم السكان

واستشرت دار بها سكنت وقد

رقصت بها طربا على العيدان

وتبسمت أزهار أغصان الربا

فرحا بها في روضة البستان

بحر السباح غدا براحة كفها

يروى العطاش بمنهل الاحسان

وتجود من فيض الندى بكارم

فيكون منه شفاء للظمان

فالله يكفيها مئونة حاسد

ويطيل أياما لها بأمان

ما ماس غصن في الرياض وكللت

أيدي الغمام شقائق النعمان

وقد عرضت هذه القصيدة على خوند واستحسنتها .

وفيه خلع السلطان على طوخ الحمدي وقرره
في نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم اختفائه .
وفيه قرر شمس الدين أبو النصر في كتابة
الخزانة مشاركا لصلاح الدين بن الجيعان .

وفيه قبض السلطان على القاضي ناظر الجيش
عبد القادر القسروى ووكل به . وخلع على
القاضي شهاب الدين أحمد وأعاده الى نظر الجيش
عوضا عن القسروى .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير اصطر
بن ولى الدين ، وقصد الاخراق به لكونه صهر
البيسقى ، وصار ممقوتا عنده .

وفي مستهل رمضان رسم السلطان للخليفة أن
ينزل ويسكن بداره ، وكان الملك الأشرف جان
بلاط رسم له أن يسكن بالقلعة .

وفي يوم الاثنين خلع السلطان على المقر البدرى
بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى ، وقرره
في كتابة السر بالديار المصرية ، عوضا عن
صلاح الدين بن الجيعان بحكم استغفائه منها .
وقد تقدم للبدرى محمود أنه ولى قضاء الحنفية
بحلب غير ما مرة ، وكان والده القاضي شمس الدين
محمد بن أجا الحلبي رئيسا حشما من الأعيان ،
وتولى قضاء العسكر في أيام الأشرف قايتباى .
وكان من خواص الأمير يشبك الدوادار ورأى
الأوقات الحميدة .

وفيه توفى العلائى على بن الصابونى ، ناظر
الخاص ، وهو على بن أحمد بن محمد بن سليم
البكرى الدمشقى الشافعى . وكان رئيسا حشما
وتولى عدة وظائف سنية ، منها قضاء الشافعية
بدمشق ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص بمصر ،
ومات وله من العمر خمس وثمانون سنة . فلما
مات خلع السلطان على علاء الدين على بن حسن

الامام ، وكان من جملة مباشرى الخاص ، وتولى
نظارة الطور . وكانت نظارة الحصاص تعينت الى
ناصر الدين الصفدى ، ثم تحولت الى علاء الدين
ابن الامام .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر على
العادة .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه قرا الذى
كان كاشف الشرقية ثم بقى نائب غزة ، وقرره
في نيابة حلب . فاستعظم الناس عليه ذلك ، ولاموا
السلطان على هذه الفعلة . فخرج اليه بالتقليد
شخص من بعض الدوادارية يقال له أيدكى .

وفيه قرر السلطان في نيابة غزة على باى السيفى
ابن يشبك ، عوضا عن قانصوه الشهير بقرا رجله ،
بحكم انتقاله الى نيابة حلب . وفرر بلباى المؤيدى
في دوادارية السلطان بدمشق ، وفي نظارة الجيش
بها أيضا ، حتى عد ذلك من النوادر . وقرر
قانصوه الجمل في الأتابكية بدمشق ، عوضا عن
قرقماس التنى بحكم صرفه عنها .

وفيه مات فجأة كسباى المغربى الاينالى ، أحد
الأمرء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه تزايد شر العادل ، وصار يكبس البيوت
والحارات بسبب الأمرء الذين اختفوا منه ، وهم
مصر باى ، وطقطباى باى ، وتمر باى ، وكرتباى ،
وخشكلىدى ، وجماعة آخرون . وصار طراباى ،
وأنس باى ، ويبيرس البهلوان ، وقان بردى
الغورى ، وأزبك النصراوى ، ووالى الشرطة
يطوفون بعد العشاء ومعهم جماعة وافرة من
مماليك السلطان ، فيشوشون على الناس ،
ويكبسون عليهم البيوت تحت الليل ، ويسبون
حريمهم ... فحصل للناس الضرر الشامل بسبب
ذلك ، فما كان عن قريب حتى هرب العادل
واختفى ، وصاروا يكبسون عليه البيوت

والعارات ، ويطلبونه أشد الطلب ، وكما يدين
الفتى يدان .

وفيه حضرت الى القاهرة زليخا خاتون ابنة
خليل بن حسن الطويل ، ملك العراقين ، حضرت
تروم الحج ، فأكرمها السلطان ، ورسم لها بعمل
برك .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، واجتمع القضاة
الأربعة ، وأرسل السلطان خلف قانصوه الغورى
أمير دوا دار كبير ، وقيت الرحبى أمير سلاح —
وكان يوما حافلا — فلم يحضر قانصوه الغورى ،
ولا قيت الرحبى ، وقد أحسبما عول عليه السلطان
من مسكهما .

وفيه دارت عدة طواشية على الخيل ، وأُشيع
بالعرض للعسكر ، وأن السلطان يريد القبض
على جماعة من الجند والماليك . فتخلوا من ذلك ،
ولم يطلع أحد منهم الى القلعة ، وقد تغيرت عليه
خواطر العسكر قاطبة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من ماليكه وسباهم
العادية .

وقد استمر الحال فى اضطراب الى يوم
الأحد سلخ شهر رمضان ، فلبس العسكر آلة
السلاح ، ووثبوا على العادل . وكان القوائم بهذه
الفتنة قيت الرحبى ومصرياى ... فلما اتسعت الفتنة
ظهر جماعة من الأمراء المختفين منهم خشكلدى
البيسقى ، وجان بردى الغزالى ، وآخرون من
الأمراء ممن كان مختفيا . فلما تحقق العادل أن
الركبة عليه ، نزل الى باب السلسلة وعلق الصنجق
السلطاني ، ونادى للعسكر أن تطلع الى القلعة ،
فلم يطلع اليه أحد من الأمراء ولا من العسكر ، ولم
يكن عنده أحد من الأمراء سوى الأمير قان بردى
الدوا دار الثانى أحد المقدمين — وكان من عصيته
ومن خواصه ، وقد أشيع بين الناس أنه سيوليه

الأتابكية عوضا عن قصره — وكان عنده قرعماش
المقصرى المحتسب ، وطراباى رأس نوبة كبير ،
وأنس باى وآخرون من الأمراء وبعض مساليك
سلطانية ... فجلس فى المقعد المطل على الرميعة فلم
يطلع اليه أحد من العسكر .

وفى ذلك اليوم وقع قتال هين وجرح الأمير
أقبردى فى وجهه . فلما كان وقت الغروب من سلخ
شهر رمضان نزل الأمير قانى باى الرماح من باب
السلسلة ، ومعه ماماي جوشن ، ونزل طراباى
وأنس باى . فلما رأى ذلك من كان عند العادل من
الماليك السلطانية ، تسحبوا جميعا ، وتمت الكسرة
على العادل . فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة ،
واختفى ، وكانت ليلة عيد الفطر ، فاضطربت
الأحوال ، ولا سيما فى تلك الليلة ، وقد قلت
فى المعنى :

فى ليلة العيد أتى سلطانا كل الضرر
فلم تسكن كسرتة الا كلسح بالبصر

وكان سبب هذه الفتنة ، أنه قد أشيع بين الناس
فى ليلة العيد ، أن السلطان قد عول على مسك
جماعة من الأمراء يوم العيد وهم فى الجامع . فلما
بلغهم ذلك وثبوا عليه تلك الليلة . فلما نزل من
القلعة واختفى ، وقع النهب فى الاسطبل السلطاني
والزردخاناه ، فنهب منها أشياء كثيرة بنحو من
ستين ألف دينار على ما قيل . فلما كان يوم العيد
لم يصل أحد من الأمراء صلاة العيد ، واشتغل كل
أحد بما هو فيه ، ووقع الخلاف بين الأمراء فيمن
يلى السلطنة ، وكان من الأمر ما سذكروه . فكانت
مدة السلطان الملك العادل طومان باى بالديار
المصرية ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، خارجا عن سلطته
بدمشق .

وكان ملكا جليلا ، مهيبا مبيجا ، تولى
الملك وقد جاوز الأربعين سنة . وكانت صفته :

طويل القامة ، أبيض اللون ، مشربا بحمرة ، مدور الوجه ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، الغالب عليه الشقرة . وكان متلئلا الجسد جميل الهيئة ، وافر العقل سديد الرأي ... غير أنه كان سفاكا للدماء عسوفاً ظالماً : قتل الأتابكي قصره ظلماً ، وأرسل بخنق الأشرف جان بلاط وهو بالبرج ، وعول على خنق الظاهر قانصوه أيضاً وهو بالبرج ولكن كان في أجله تأخير ، ونفى جماعة كثيرة من الأمراء والخاصكية والماليك في هذه المدة اليسيرة . ولو دام في السلطنة لوقع منه أمور شتى ، ولكن يقتل غالب الأمراء وثلث العسكر .

وكانت مدة سلطنته كلها شرور وفتن مع قصرها ، وآخر الأمر هرب واختفى ، واستمر مختفياً حتى ظهر وقبض عليه ، وقطعت رأسه ، كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه ، وآل الأمر إلى أن خلع من السلطنة ، وتسلم بعد قانصوه الغورى كما سنذكره في محله .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى الأشرفى . وهو السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وقد قلت في ذلك ابتداء :

أصفى التاريخ حكى بسجعه الشجورى

فاق التواريخ بما أوردته للغورى

وكان أصله جركسى الجنس من ماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معاتيقه ، ثم أخرج له خيلاً وقماشاً ، وصار من جملة الماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكياً ، ثم قرر في كشف الوجه القبلى سنة ست وثمانين وثمانمائة بواسطة الأمير قانصوه

خمسائة ، ثم أنعم عليه الأشرف قايتباى بأمره عشرة في سنة تسع وثمانين وثمانمائة ، وخرج في بعض التجاريد إلى البلاد الحلبية ، ثم قرر في نيابة طرسوس . ثم انه عاد إلى حلب وقرر في حجوبيتها عوضاً عن باكير بن صالح الكردي وذلك في سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى نائب ملطية بعد حجوبية الحجاب بحلب ... وكل ذلك في دولة الأشرف الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب في دولة الملك الظاهر قانصوه خال الملك الناصر ، وذلك في ثالث ذى القعدة سنة خمس وتسعمائة ، وسافر إلى الشام صحبة الأمير طومان باى لما خرج إلى محاربة قصره نائب الشام لما أظهر العصيان على الأشرف جان بلاط . فلما تسلم طومان باى بالشام ورجع إلى القاهرة وهو سلطان ، خلع عليه وقرره في الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية عوضاً عن نفسه ، فاستمر على ذلك حتى وثب العسكر على العادل في سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة ، واختفى في ليلة عيد الفطر بعد العشاء .

فلما أصبح ذلك اليوم ، وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرحبى أمير سلاح ، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وطراباى ، وقانى باى قرا أمير آخور كبير ، ومصر باى ، وأصطمر ، وأنس باى ، وبيردى الفهلوان ، وطقطباى ، ومامى جوشن ، وخاير بك — أخو قانصوه البرجى — وآخرون من الأمراء المقدمين . ثم ظهر خشكلى البيستقى ، وكان مختفياً من العادل لما أراد القبض عليه . فلما تكاملوا اجتمعوا بيت قانصوه خمسائة الذى بقناطر السباع ، فحضر اليهم الأتابكى تانى بك الجمالى — وكان مختفياً من حين كسر الأشرف جان بلاط وتسلم العادل — فلما حضر وقع الاتفاق

على سلطنته أولا ، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق السلطاني وقد ترشح أمره الى السلطنة . فلما طلع الى باب السلسلة ليلى السلطنة ، أشيع في ذلك اليوم أن الأشرف قانصوه خمسمائة باق في قيد الحياة ، فأشهبوا النداء في القاهرة بأن قانصوه خمسمائة ان كان موجودا فليظهر وله الأمان ، وان لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له . فلما طال المجلس انفض العسكر من الرميلة ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا في الحراقة بباب السلسلة .

وكان يوم عيد الفطر يوم الاثنين ، فاختار كل أحد عوده الى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولونه السلطنة ، فأعرض غالب العسكر عن الأتابكي تاني بك الجمالي ولم يرض به أحد منهم . وكان الأتابكي تاني بك الجمالي أرشل معكوس الحركات في أفعاله ، وطاش لما ذكر للسلطنة ، ثم آل أمره بعد ذلك الى كل سوء ، فلم تقم له السلطنة ، وكانت من نصيب قانصوه الغوري كما سيأتي الكلام على ذلك ، فكان كما يقال :

تنافس الناس في الدنيا وقد عظمت

فصفوها لك مزوج بتكدير

لم يرزقوها بسعى عند ما قسمت

لكنما رزقوها بالمقادير

لو كان عن طلب بالسعى ندركما

طار البزاة بأرزاق العصافير

فلما رأوا المجلس مانع ، تعصب الأمير قيت الرحبي أمير سلاح والأمير مصرباي الى قانصوه الغوري وقالوا : « ما نسلطن الا هذا » ، فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويكي ، وربما كلمه مصرباي ومزق طوق ملوطته وهو يمتنع غاية الامتناع ، فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب وقاضي القضاة عبد الغني بن تقى المالكي والشهاب الشيشيني الحنبلي ، وتأخر قاضي القضاة الشافعي

زين الدين زكريا والبرهان الدين بن الكركي الحنفي حتى يقع رأي الأمراء فيمن يولونه السلطنة . فكتب القاضي الحنبلي صورة محضر في خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضي الشافعي والقاضي الحنفي وعقدت البيعة لقانصوه الغوري وبايعه الخليفة ، وكانت سلطنته في يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، ثم أحضر اليه شعار السلطنة وهي الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، كل هذا وهو يمتنع ويكي ... فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما في علوه وأشرف ، وكنوه بأبي النصر قانصوه الغوري ، وبه صارت مصر مشرفة بالنوري ، وقيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا

وأخر يأتي رزقه وهو نائم

ثم قدمت اليه فرس النوبة بالسرجه الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التي بباب السلسلة ، فتقدم قيت الرحبي وحمل القبة والطير على رأسه وقد ترشح أمره الى الأتابكية ، فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشيت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، والباقي للزوال نحو من خمس وعشرين درجة ، وكان الطالع بالسرطان ، فأول من قبل له الأرض قيت الرحبي ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا ، ثم خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على مصرباي وقرره في الدواديرية الكبرى والوزارة والاستادارية — عوضا عن نفسه — فنزل الى داره في موكب حافل .

ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودي باسمه في القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة ، وزال ما كان من الشكوك والظنون ، وأقرت من

الناس بسلطنته العيون ، فكانت سلطنته على غير القياس ، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس ، فصار منه بعد ذلك الهزل جدا ، ومكث في السلطنة مكثا جاوز الحد ، فزال عنه الأضرار والبأس ، وامتألت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ، ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعيه .

ومن العجائب أن أرباب الملاحم قالت للعادل طومان باي : « ما يأخذ الملك منك الا حرف القاف » ... فظن أنه « قصروه » ، فقتله ظلما ولم يكن يحسب لقانصوه الغورى حسابا ، فكان كما قال :

الرزق لم يزل للمرء ملتزم
ما لمن سمي الا لمن قسم

ومن الحوادث في يوم سلطنته أن طائفة من المساليك الجلبان توجهوا الى بيت فخر الدين كاتب الممالك الذي في الأريكية فأحرقوه ونهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت شمس الدين أبي المنصور مباشر العادل فنهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت قرقماس المقرئ المحتسب وبيت أذربك النصراني والى القاهرة فنهبوا ما فيهما ، ثم توجهوا الى بيت عبد العظيم الصيرفي فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس ثقيب الجيش ، وحصل في ذلك اليوم غاية الاضطراب ولا سيما في مثل يوم العيد .

ثم ان السلطان خلع على شخص من الأتراك يسمى طومان باي الجلب وقرره في ولاية القاهرة عوضا عن أذربك النصراني ، فركب ونادى في القاهرة بالأمان والاطمان وأن المساليك تكف عن النهب ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفي ذلك اليوم اختفى جماعة من الأمراء ممن

كان من عصبة العادل ، وجاني بك شاد الشراب خاناه ، ومسايد ناظر الجوالى ، ومصر باي الصغير ، وأذربك النصراني وآخرين من الأمراء ممن كان من حلفه .

وفي ذلك اليوم ظهر الشيخ جلال الدين الأسيوطلى ، وكان مختفيا من العادل في مدة سلطنته ، وكان يقصد الاخراج به فكفاه الله مؤنته ، وذكر أنه رأى النبی صلى الله عليه وسلم في المنام وبشره بزوال العادل عن قريب .

وفيه كتبت المراسيم السلطانية بحضور الأمير قانصوه المحمدى البرجى ، وكتبت المراسيم أيضا بالافراج عن سجنه العادل بقلعة دمشق وهم قرقماس وأزدمر وقانصوه بن اللوقا وسودون الدوادارى وآخرون من الأمراء ممن كان سجنهم العادل بقلعة دمشق وقد تقدم ذكرهم

وفي يوم الخميس رابعه عمل السلطان الموكب بالحوش ، وهو أول مواكبه ، فخلع على جماعة من الأمراء خلع العيد ونزلوا من القلعة في موكب حافل ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين .

وفي يوم السبت ، السادس من شوال ، خلع السلطان على جان بردى الغزالى وقرره في الحسبة عوضا عن قرقماس المقرئ ، وقرر تانى بك أخو مامى فى الخازندارية الكبرى عوضا عن تمر باي خازندار العادل ، وخلع على أقبای الطویل وقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن جاني بك المشد ، وقرر تمرباي أمير مشوى فى نظر الجوالى ، وقرر مغلبای الشریفى فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن تمر الحسنى بحكم انتقاله الى التقدمة .

ثم ان السلطان قبض على الأتابكى تانى بك الجمالى ووكل به بالقلعة وأمره بالخروج الى مكة صحبة الحاج .

وفيه أنعم السلطان على قانصوه الفاجر بتقدمة

ألف ، وكذلك قرقماس التتمى ، وأنعم أيضا على دولات باى قرموط بتقدمة ألف ، وكذلك طقطباى ابن ولى الدين .

وفيه هجم الوالى على بيت قاضى القضاة الحنفى برهان الدين بن الكركى بسبب التفتيش على العادل فلم يجدوه عنده ، فنهبوا بيته وأخذوا منه علبة كان فيها مال الأوقاف الذى كان تحت يده . وفيه ، فى ثامن عشره ، خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل سودون العجمى أحد المقدمين ، وبالركب الأول دولات باى قرموط ، وخرج صحبته الأتابكى تانى بك الجمالى فرسم له بالاقامة فى مكة فخرج وهو فى التوكيل به ، ورسم السلطان لخاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين بعمل برك ، ووجت فى تلك السنة .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه خلع السلطان على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن برهان الدين بن الكركى بحكم صرفه عن القضاء ، وقد قاسى غاية المشقة بما جرى عليه بسبب اختفاء العادل .

وفيه كثر شر المماليك على السلطان بسبب طلب الأقاطيع والوظائف ، حتى أنه تبرأ من السلطنة وهم بأن يختفى بنفسه حتى يولوا من يختارونه من الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بفرار دولات باى نائب الشام ، وقد بلغه ما جرى على العادل وكان من أقاربه ، فخاف على نفسه ، فأخذ بركه وحريره وخرج من الشام وتوجه الى نحو بلاد ابن عثمان ملك الروم .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء — وكان العادل نفاهم الى دمياط — منهم برد بك المحدى الاينالى الذى كان الأشرف جان بلاط قرره

فى حجوية الحجاب ، وأرزمك الناشف الذى كان مقدم ألف ، ومامش الرحبى ، وتمر باى الشيخ ، وآخرون من الخاصكية ، وكان عدتهم نحو من ثمانية عشر نفرا .

وفيه زاد أمر التفتيش على العادل وصار والى القاهرة يركب ومعه حاجب الحجاب والأمير طراباى رأس نوبة النوب ، ومعهم الجهم الغفير من المماليك وهم بالآت السلاح ، فيهمجون البيوت والحارات تحت الليل بسبب العادل . وكان العادل يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، فما عن قريب حتى صاروا يكبسون البيوت والحارات بسببه ... والمجازاة من جنس العمل .

وفيه عرض السلطان ممالك العادل ، وأمر باخراجهم الى جهة الصعيد ، وكان العادل أخرج خرجا من المماليك وسماهم العادلية .

وفيه توفى على باى الظاهرى تمرغا وكان من الأمراء العشرات ، ومات وهو طرخان وكان لا بأس به .

وفى الثانى والعشرين من شوال أحضرت جثة الأشرف جان بلاط من ثغر الاسكندرية ، وقد تقدم أن العادل بعث بخنقه وهو فى البرج فخنق ودفن بالاسكندرية ، ثم وقف ممالك جان بلاط الى السلطان وسأله فى نقله الى القاهرة فرسم لهم بذلك ، فنقل وهو فى سحلية ، فلما حضرت جثته دفن أولا بتربة الأشرف قايتباى وأقام بها أياما ، ثم تعصبت له ممالكه وقالوا : « ما ندفن أستاذنا الا فى تربته التى بباب النصر » ، فرسم لهم السلطان بذلك ، فنقلوه ودفنوه فى تربته التى بباب النصر . وهذه ثالث نقلة وقعت له ، وكان نقله الى تربته فى ليلة الجمعة سادس عشرين هذا الشهر .

وفيه ، فى تاسع عشرينه ، خلع السلطان على قيت الرحبى وقرره فى الأتابكية عوضا عن قصره

نائب الشام بحكم موته . وكانت الأتابكية شاعرة من يومئذ حتى قرر بها قيت ، وكان المتكلم في جهات الأتابكية في هذه المدة الأمير طراباي رأس نوبة النوب .

وفيه قرر شمس الدين أبو المنصور القبطي في نظر البيمارستان المنصوري .

وفي أوائل هذا الشهر توفيت عزيزة بنت السطحي ، وكانت من أعيان مغاني مصر ، فريدة عصرها في التشيد مع حسن الصوت وفصاحة باعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحد من النساء المغاني ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة ما لا رآه غيرها من أرباب هذا الفن ، وماتت وهي في عشر الثمانين ، وكان لها بمصر شهرة زائدة . ومما قاله فيها الشهاب المنصوري :

وفتاة نزهت طرفي فيها
شفت مسعى بجوهر فيها
منذ تارت محبها وتغنت
كاد يرمى بنفسه من أيها

وفي ذي القعدة ثار طائفة من المماليك ولبسوا آلة السلاح ، وطلبوا من السلطان نفقة البيعة ، فوعدهم حتى يجمع المال ، فسكن الأمر قليلا . وفيه اجتمع القضاة الأربعة والخليفة وقرىء عهد السلطان بحضرتهم وكان موكبا حفلا .

وفيه قبض على قاضي القضاة برهان الدين بن الكركي الحنفي ، ثم توجهوا به الى دار الأتابكي قيت فوكلوا به بالمدرسة الباسطية ، وقد تكلم بعض الناس في حقه بأن العادل قد أودع عنده مالا فأقام في الترسيم يوما وليلة ، ثم تكلم بعض الأمراء مع السلطان في أمره فرسم بالافراج عنه فعاد الى داره ، وكان معه في التوكيل بدر الدين

السعودي نقيب المعروف بابن الوقاد ، قال أمره أن طلب منه مال وأخذ منه فيما بعد .

وفي يوم الثلاثاء سابعه خلع على الأمير خشكدي البيسقي وقرره في امرية مجلس ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه .

وفيه تزايد أمر التفتيش على العادل فهجموا بسببه دار سيدي علي بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فلم يجدوا بها أحدا ، وهجموا زاوية الشيخ أبو شامة التي بالناصرية ، وصاروا يهجمون عليه عدة بيوت وأماكن . وكان العادل في مدة اختفائه يكتب أوراقا ويرسل يعلقها عند سوق السلاح بالقبو وغير ذلك من الأماكن التي يجتمع بها الأتراك ، ويكتب فيها انه اذا عاد الى السلطنة يتفق على العسكر مائتي دينار لكل واحد منهم وفرس ، وأن الذي وقع منه في الماضي لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، حضر قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة سنة وثلاثة أشهر ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه .

وفيه قبضوا على العادل طومان باي من مكان بالقرب من بيت الأتابكي جرباش كرد الذي عند زاوية الشيخ خلف ، وكان من ملخص أمره أنه لما طال اختفاؤه ، وصارت الأمراء على رءوسهم الطيرة منه ، ولا ينامون في بيوتهم الا ومماليكهم لا بسون آلة السلاح ليلا ونهارا ، فلما تزايد الأمر أخذوا في أسباب عمل الحيلة على العادل ، فاستمالوا جاني بك الذي كان شاد الشراب خاناه وجاني بك الشامي وكان من أخصاء العادل ، فوعدوا كلا منهما بتقدمة ألف ، وكانا يجتمعان

على العادل في مدة اختفائه ، فحسنوا للعادل بأن
يجيء الى بيت جاني بك الشامي الذي بجوار بيت
الأتابكي جرباش كرد ، وكان الأمير مصر باي
الدوادار ساكنا في بيت الظاهر تمر بغا الذي عند
سوق القبو خلف بيت الأتابكي جرباش ، فقرروا
مع العادل أنه اذا حضر الى بيت جاني بك الشامي
يهجمون على مصر باي بعد العشاء وهو جالس
في مقعده ، فيدخلون عليه من باب سر الأتابكي
جرباش الذي خلف بيت تمر بغا فيقتلونه تحت
الليل على حين غفلة ، فاذا قتل مصر باي يركب
العادل من هناك ويحطم باب السلسلة فيملكه ،
فانصاع العادل الى هذا الكلام وحضر الى بيت
جاني بك الشامي ... وكان هذا عين الخداع ،
وصار من تديره ، ما عاد في تديره . فلما صار
عنده في البيت مد له أسطة حافلة وبات عنده ،
فأرسل جاني بك الشامي أعلم مصر باي بذلك ،
فبينما العادل في أرغد عيش فما شعر الا وقد
هجموا عليه وأحاطوا بالمكان الذي به وقد تمت
الحيلة عليه ، كما يقال :

لا تركزن الى الخريف فناؤه

مستوخم وهوأوه خطاف

يمشي مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

قبل لما هجموا عليه قام وهرب فتسلق من على
حائط ورمى بنفسه من أعلى الحائط فوقع على
فخذه فانكسر نصفين ، فأدركه شخص من ممالك
الأشرف جان بلاط يقال له أرزمك فقطع رأسه ،
وصار كل من ممالك جان بلاط وقصروه ، يشتفي
منه ويضربه بالسيف حتى هروه ، فلما قطعوا رأسه
أحضروها بين يدي مصر باي الدوادار ، فوضعها
في طبق من النحاس ، وأخرجها من بيته والمشاعلية

تنادى عليه : « هذا جزاء من يسفك الدماء ويقتل
الأمراء بغير حق » ، فعز ذلك على بعض الأمراء .
فلما عرضت رأسه على السلطان رسم بدفنه وأرسل
معه ثوبا بعلبكيا وعشرين ديناراً ، فأعادوا رأسه
الى جثته ، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ثم
توجهوا به الى تربته التي أنشأها بالقرب من المطعم
السلطاني فدفن بها ، ولما أرادوا التوجه به أدخلوه
من باب زويلة ومعه والي القاهرة وجماعة كثيرة
من الممالك السلطانية وهم لابسون آلة السلاح ،
وكان هذا خوفا على العادل من ممالك الأشرف ،
جان بلاط وممالك قصروه أن يحرقوه وهو في
التابوت ... وكان قصدهم ذلك حقيقة فما قدروا
على ذلك . وواقعة العادل طومان باي تقرب من
واقعة الأتابكي تراز الشسي وقد تقدم ذكر ذلك .
وكان العادل طومان باي ملكا جليلا مهابا ذا

شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكان من مبتداه الى
منتهاه وهو في عز وضخامة ، لكنه لما ولي السلطنة
ظهر منه أمور فاحشة وأخرق في سفك الدماء وقتل
الأمراء ، ولو دام في السلطنة كان يظهر منه أمور
شنيعة ويقتل غالب الأمراء ، وكان عنده مكر
وخداع ... لكنه كان يظهر العدل في بعض الأمور ،
وكان محببا للناس ، ولا سيما طائفة العوام ، وقد
تقدم ما أوردناه من أخباره ، وما ولي من الوظائف
السنية ، وما وقع منه من الأمور في تغيير الدول ،
وما فعل بالملك الناصر والظاهر قانصوه والأشرف
جان بلاط وغير ذلك من الأمراء ، وقد قلت في ذلك :

العادل السلطان لا تعجب له

فيما جرى منه بتغيير الدول

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر قد جازاه من جنس العمل

وكانت مدة اختفائه من حين تسحب من القلعة ليلة عيد الفطر الى حين قبض عليه اثنى وأربعين يوما ، فلما قبضوا عليه وجدوا شعر رأسه قد طال حتى صار كفروة الغنم ، وكانت الناس في مدة اختفائه في جمره نار من هجم البيوت وكبس الحارات ، وقاسوا غاية المشقة بسبب ذلك حتى ظهر . وكانت واقعة من النوادر الغريبة ، فكانت تقرب واقعة من واقعة الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي لما اختفى وحصل للناس الضرر بسببه .

قيل لما قتل العادل تخلق بدمه عيال خوند أم الناصر وأظهروا الفرح والسرور في ذلك اليوم . وكانت معذورة فيما فعلت ، فانه قتل ابنها الناصر ، وسجن أخاها الظاهر قانصوه ، وقتل زوجها الأشرف جان بلاط . وعد قتل العادل من جملة سعد الغوري .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له قرقماس البيسقي تنم نائب الشام وقرره في نيابة القدس ، وكان أحد الأمراء العشراوات .

وفي ذي الحجة حضر من كان سجنه العادل من الأمراء بدمشق وهم قرقماس بن ولي الدين ، وأزدمر بن علي باي ، وقانصوه بن سلطان جركس الذي كان نائب حماة ، وسودون الدواداري . فلما مثلوا بين يدي السلطان خلع عليهم ووعدهم بكل جميل .

وفيه ظهر تمر باي خازندار العادل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر قرر عليه مال وأقام في الترسيم حتى يورد ما قرر عليه من المال .

وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة عزل قاضي القضاة زين الدين زكريا الشافعي عن القضاء ،

وهذا كان آخر عزله وولايته للقضاء ، وقد كف بصره عقيب ذلك . فلما عزل زكريا سعى محيي الدين عبد القادر بن النقيب في عوده الى القضاء ، وقد أورد مالا له صورة ، فخلع عليه وأعيد الى القضاء عوضا عن زكريا بحكم انفصاله عنها ، وهذه ثاني ولاية وقعت لابن النقيب .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر وقطع أضحية لبعض جماعة من الفقهاء والخدام .

وفيه أنعم السلطان بعدة تقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم قرقماس بن ولي الدين قرره في امرية السلاح عوضا عن قيت الرحبي بحكم انتقاله الى الأتابكية ، وقرر أصطمر بن ولي الدين في امره مجلس عوضا عن خشكلدي البيسقي ، وبقي خشكلدي البيسقي مقدم ألف بغير وظيفة وكان يجلس فوق أصطمر ، وقرر أزدمر بن علي باي في حجویية الحجاب عوضا عن أصطمر بن ولي الدين بحكم انتقاله الى امره مجلس ، وأنعم على أرزمك الناشف الذي كان نائب القلعة بتقدمة ألف ، وكذلك قانصوه الخازندار الذي كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكذلك قانصوه الفاجر ، وخشكلدي الذي كان أستاذار الصحة ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ولم يتم له ذلك من بعده وصار أمير طبلخاناه ، وغير هؤلاء جماعة آخرون .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء العشراوات وكان العادل نفاهم الى دمياط فحضروا جملة واحدة ، وكانوا نحو من ثمانية أنفار .

ومن الحوادث الشنيعة أن طائفة المماليك وقفوا وقت طلوع الفجر الى القاضي شمس الدين

أبى المنصور مباشر العادل فقتلوه وهو خارج من بيته الذى بالمقس طالع الى القلعة ، فقتله بعض المماليك بخنجر فى بطنه فمات من يومه ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، كما وقع لأبى البقا بن الجيعان فى البندقانيين وهو طالع من بيته الى القلعة ، وكان أبو المنصور من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة أيام أقيردى الدوادار ، وباشر عدة جهات سنية فى أيامه ، ثم من بعد أقيردى التجأ الى العادل طومان باى من حين كان دوادارا كبيرا وخرج معه الى الشام فى تجريدة « قصروه » ، فلما عاد وهو سلطان تزايدت عظمة أبى المنصور عنده وجعله متكلماً فى الخزائن الشريفة مع صلاح الدين ابن الجيعان ، وكان أصله من بنى الأقباط وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرين^١ تغير خاطر السلطان على قاضى قضاة الشافعية محبى الدين عبد القادر بن النقيب فعزله عن القضاء ورسم بنفيه الى قوص ، فتوجه اليه نقيب الجيش وأركبه على حمار وتوجه به الى البحر ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى وقرر عليه مال ، فكانت مدته فى هذه الولاية الثانية ثلاثة عشر يوماً لا غير ، فانه أعيد الى القضاء بعد عزل قاضى القضاة زكريا فى يوم الخميس ثامن ذى الحجة ، وعزل عن القضاء فى يوم الثلاثاء حادى عشرين ذى الحجة فهى ثلاثة عشر يوماً سوى .

وفى يوم الخميس ثانى عشرين^١ طلب السلطان الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى ، فخلع عليه وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضاً عن عبد القادر بن النقيب ، فكان له

(١) تأمل .

يوم مشهود لما شق من القاهرة وهو لابس الشريف ، وكان كفواً للمنصب .

وفيه اضطربت الأحوال وأرتج الأمر على السلطان من قبل المماليك بسبب نفقة البيعة ، فشكا السلطان بأن الخزائن خالية من المال ، فان المماليك ثائرة بسبب النفقة وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين ظاهرية وأشرفية وإينالية وخشقدمية وقايتبايية وناصرية ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا ممن تقدم ذكرهم ، وقد صار كل أحد منهم يروم له رزقا ، وأن الملك الناصر بن الأشرف قايتباى فرق الأقاطيع التى كانت فى الذخيرة جميعاً فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ذى الحجة اجتمع الأمراء عند السلطان فى الدهيشة وضربوا مشورة فى ذلك اليوم ، وأقاموا فى القلعة الى بعد العصر ، فلما نزلوا أشيع بين الناس أن السلطان يقصد يخرج أوقاف الجوامع والمدارس ويبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، وأنه يفرق بلاد الأوقاف بمثلالات على الأمراء والمماليك ، فلما بلغ الناس ذلك اضطربت الأحوال وكثرت فى ذلك الأقوال .

سنة سبع وتسعمائة (١٥٠١/١٥٠٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب والقضاة الثلاثة — وهم برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد الغنى بن تقى المالكي ، والشهاب أحمد الشيشينى الحنبلى — وتأخر قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، ولكن طلع فيما بعد ، فلما طلعا الى القلعة ليهنوا

الصفدى وكيل بيت المال ، وأن أرباب الأملاك
والحوانيت يتوجهون الى بيت الأمير مصرباى
الدوا دار .

ثم ان السلطان رسم لثمانية من الأمراء المتقدمين
بأن يتكلم كل واحد منهم على قرع من أبواب هذه
المظالم ، فتكلم الأتابكى قيت فى جهات الأوقاف
قاطبة واقطاعات الحلقة ، وقد تقدم ذكر ذلك .
وتكلم مصرباى فى جهات الأملاك قاطبة ، فكتبت
القوائم بأسماء الأقاطيع والرزق من بيت أولاد
الجييعان وطلبت أعيان الناس بالرسل الغلاظ
الشداد ، وطلب مصرباى أرباب الأملاك التى هى
من الصليبة الى مصر العتيقة الى دير الطين ، وتكلم
الأمير قرقماس أمير سلاح على جهات البيوت التى
هى داخل بابى زويلة قاطبة ، وتكلم الأمير أربك
المكحل أحد المتقدمين فى جهات البيوت التى هى
خارج باب الشعرية من جزيرة النيل الى المطرية ،
وتكلم قانى باى قرا أمير آخور كبير فى جهات
المراكب والسواقى قاطبة ، وتكلم الأمير طقطباى
أحد المتقدمين على جهات الغيطان قاطبة ، وتكلم
طراباى رأس نوبة النوب على جهات مصادرات
التجار ومساير الناس ، وتكلم أنص باى أحد
المقدمين هو وأزدمر بن على باى على مصادرات
طائفة اليهود والنصارى وقد قرر عليهم نحوا من
ثلاثين ألف دينار ، وتكلم ناصر الدين الصفدى
وكيل بيت المال على جهات رزق النساء من
الخونندات والأعيان من الستات . ثم قرر
السلطان مالا على جماعة من الخدام منهم محسن
ومختص وغير ذلك من الخدام ، وأطلق فى الناس
جمر نار المصادرات ، وصار كل منهم فى أليم
الغمرات .

السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى بالعام
الجديد تكلم مع القضاة فيما تقدم ذكره فى أمر
الأوقاف ، فلم يوافق القاضى الشافعى على ذلك
ولا القاضى المالكى ولا الحنبلى ، ثم ان القاضى
الحنبلى أغلظ على السلطان فى القول فانحرف منه
وقال له : « اذا ركبوا المماليك وطلبوا منى نفقة
أنا أبعثهم لك فى بيتك كلمهم مثل ما تعرف » .
فانفض المجلس مانعا ونزل القضاة الى دورهم على
غير رضا من السلطان ، ثم طلع القاضى الحنفى
عبد البر الى السلطان فى أواخر النهار فتكلم معه
فى ذلك ، فمشى عبد البر فى غرض السلطان
بما يريد ، ثم اجتمع الأمراء عند السلطان فى مجلس
ثان وضربوا مشورة فى معنى ذلك . فوقع الاتفاق
على أن الأوقاف تبقى على حالها ويؤخذ من ريعها
سنة كاملة ، ومن أجرة أملاك القاهرة من بيوت
وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير
ذلك يؤخذ منهم أجرة عشرة أشهر كاملة ، حتى من
وقف اليمارستان المنصورى وسائر الأوقاف من
عال الى دون ، وكتبت المراسيم بمعنى ذلك الى
نجر الاسكندرية ودمياط حتى الى دمشق وأعمالها
وسائر البلاد الشامية والحلبية . وكان القوائم فى
هذه المظلمة الأتابكى قيت الرحبى . وصار
الأتابكى قيت الرحبى يرسم على أعيان الناس
بسبب ذلك بالمدرسة الباسطية حتى يردوا الأموال ،
لا جزاه الله خيرا !

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من كان
ناظرا على وقف ، وكل من كان له اقطاع من أجناد
الحلقة أو غيرها ، يتوجه الى بيت الأتابكى قيت
الرحبى ، وأن أرباب الرزق من النساء والخونندات
والستات يتوجهن الى بيت القاضى ناصر الدين

ان يوم الاثنين رابع المحرم وثب جماعة
ك على السلطان ولبسوا آلة السلاح ،
لك أن السلطان قد أبطأ عليهم بتفرقة
ثة أشهر فوثبوا عليه وطالبوه بالنفقة ،
م : حتى تجبى الأموال ... فلم يرضوا
تادى لهم أن النفقة تكون بعد مجيء
كن الحال قليلا ، وآل الأمر الى الحث
المصادر في سرعة استخراج الأموال ،
بيهم نيران الأهوال ، وعملوا فيهم بالباع
، ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع
ان أصحاب الأملاك ضيقوا على السكان
بأن يعجلوا لهم من أجرة الدكاكين
عشرة أشهر معجلا لأجل هذه الغرامة ،
م بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت
من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين
ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار
جمرتين ، ويطلبون في اليوم الواحد من
ساعة كثيرة من الحكام مرتين ، حتى
ذلك ، وقلت في المعنى :

١. أملاك مصر والقرى

في عام سبع مئتي الاهلاك

ير يا له من حادث

قد ضج منه الأرض والأملاك

ن يوم الجمعة ثامن المحرم تزايد الأمر ،
نص الجوامع ، ومنعوا منها الخطبة في ذلك
بها جامع الجنيد الذي هو داخل الدرب
رب من قناطر السباع ، وجامع آخر
وق ، وغير ذلك عدة جوامع . فلما
كى قيت الرحبى الى القلعة وصلى
السلطان ونزل ، وقفت له جماعة كثيرة
وشكوا له أن أصحاب الأملاك ضيقوا
ليوهم بعشرة أشهر معجلا بسبب هذه

الغرامة وما لهم قدرة على ذلك ، فلم يلتفت الى
كلامهم ، فلما وصل الى الجامع الصالح الذي تجاه
بابى زويلة فكبروا عليه العوام ورجموه فجاءته
رجمة في كلوته ، وكان الى جانبه الأمير طراباى
رأس نوبة النوب فجاءته رجمة في جبهته حتى سال
منه الدم ، فلما عاينوا المماليك ذلك سلوا
أسيافهم ووقعوا في العوام وجرح منهم جماعة
وقتل في ذلك اليوم نحو من ثلاثة أنصار ثم ان
الزعر والعبيد نهبوا عدة دكاكين من البسطيين الى
داخل باب زويلة ، واستمر النهب والقتل عمالا
الى قريب المغرب ، ونهب للناس مال له صورة
وبضائع كثيرة ، حتى قيل نهب لشخص حريرى
خمسمائة دينار ذهب عين ، وغير ذلك من شمع
وفاكهة وسكر . فلما تزايد الأمر ركب والى
القاهرة وقبض على جماعة من الزعر والعبيد
ووسط منهم نحو من أربعة عشر انسانا ، وكادت
القاهرة أن تخرب عن آخرها مما جرى في هذا
الحادث العظيم .

فلما كان يوم السبت صبيحة ذلك اليوم وقف
جماعة من السوق من أهل الصليبة الى الأمير
أزدمر بن على باى أحد المقدمين وشكوا له حالهم
وكلموه بلطافة وحشمة عن أمر أجرة العشرة
أشهر ، فلما طلع الى القلعة اجتمع بالسلطان وتكلم
معه في ذلك ، فاتفق الحال على أن يحط من
العشرة أشهر ثلاثة أشهر وتصير سبعة كما فعل
الأشرف قايتباى . ثم ان السلطان نادى في القاهرة
للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء وأن
السلطان حط من أجرة البيوت والدكاكين ثلاثة
أشهر وصارت سبعة ، فسكن الحال قليلا .

وفي يوم الثلاثاء ثانى عشره قبض السلطان على
الأمير مصرباى الدوادار وهو بالقلعة ، وقد وقع
اختيار الأمراء على ذلك . فلما قبضوا عليه أدخلوه

البحر وقيدوه . وقبضوا في ذلك اليوم على آخرين من الأمراء العشراوات من غير سب .

وفي يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر بن علي باي وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن مصرباي بحكم القبض عليه ، وأخلع على الأمير خاير بك أخى قانصوه البرجى ، وقرر في حجوية الحجاب ، عوضا عن أزدمر بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى ، وخلع على الأمير مقطباي بن ولى الدين وقرر في التقدمة والوزارة والأستادارية عوضا عن مصرباي .

وفي أثناء هذا الشهر توفي الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وكان من خواص العادل وترشح أمره بأن يلى وظيفة الأتابكية بعد قصره ، وما تم ذلك وجرح لما وثبوا على العادل في رمضان واستمر من ذلك الجرح عيلا حتى مات .

وفيه تقرر جان بلاط الموتى في الحسبة عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انفصاله عنها .

وفي يوم السبت سادس عشر المحرم أشيعت الأخبار بأن جاني بك الشامى الذى كان من أخصاء العادل وخاير بك كاشف الغريبة الشهير باللامى قد تسحبا من البرج الذى بالقلعة وقت الظهر وقتلوا السجناء ، وتسحب معهم عدة ممالك كانوا بالبرج ، فلما تسحبوا اختفوا بالقاهرة فاضطربت الأحوال وكثر القيل والقال ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة ، فحلفوا بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يركبون عليه .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر المحرم الموافق لتاسع مسرى أوفى النيل المبارك ، فلما أوفى لم يجسر

الأتابكى قيت بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه لفتحه مغلباى الشزيفى الزردكاش .

وكان في ذلك اليوم تفرقة الجامكية فلم يطلع الى القلعة أحد من العسكر . ثم في ذلك اليوم لبسوا آلة السلاح وثاروا الفتنة مهولة واستمر الأمر على ذلك الى قريب المغرب ، وكان القائم في هذه الفتنة ممالك الظاهر قانصوه وممالك الأشرف جان بلاط وممالك العادل طومان باي ، فلما ركبوا طلعوا الى الرملة فلم يقد من ركوبهم شيئا ، ونزل اليهم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ومعه جماعة من الأمراء ، فلما عاينوهم هربوا من وجوههم وتمت الكسرة على طائفة الممالك الذين وثبوا .

وفي يوم السبت ثالث عشره نادى السلطان في القاهرة بأن ممالك الظاهر قانصوه والأشرف جانبلاط والعادل طومان باي يخرجون الى جهة الصعيد ويقيمون بها ، وكل من تأخر من بعد المناذاة شتى بلا معاودة . وصاروا يكررون هذه المناذاة ثلاثة أيام متوالية ، فصاروا يخرجون الى جهة الصعيد شيئا فشيئا وهم في غاية الذل .

وفيه خلع السلطان على الأمير بيردى الفهلوان وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن قان بردى بحكم وفاته .

وفي صفر — في أول يوم منه — نزلوا بالأمير مصرباي من القلعة وهو مقيد ، فتوجهوا به الى السجن بشجر الاسكندرية فسجن بها .

وفي يوم الاثنين ثانيه أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، وقد صبرهم نحو من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات ، فأنفق على طبقتين لا غير وصبر الباقين حتى تجمع الأموال ،

ولم يعط لأحد من الممالك مائة دينار كاملة سوى الممالك القايتمانية فقط .

وفيه قبض السلطان على الأمير عبد اللطيف الزمام وقرر عليه مالا له صورة ، فسلمه الى الأمير طراباي وأقام عنده في التوكل به حتى يرد ما قرر عليه من المال ، فباع أملاكه وقماشه حتى سد ذلك ، وصودر عنبر مقدم الممالك ونائبه وشاد الحوش وجماعة آخرون من الخدام . وقد عمت هذه المصادرة حتى غلمان الاسطبل السلطاني والأوجاقية والسر آخورية وتقباء القصر والمعاملين والطباخين ، حتى الفراشين والبابية والشربدارية ، وغير ذلك من غلمان السلطان قاطبة ممن له جامكية في باب السلطان — وكل هذا لأجل النفقة على الممالك — وكانت حادثة عامة على غالب الناس من الأعيان وغيرهم ، وقد وقع الاضطراب في أوائل سلطنته الى الغاية .

وفي يوم الاثنين سادس عشر صفر توفي الأمير بيردي الفهلوان الذي قرر في الدوادارية الثانية ، فأقام بها مدة يسيرة ومات . فلما مات خلع السلطان على جانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن بيردي الفهلوان بحكم وفاته .

وفي سلخ هذا الشهر خلع السلطان على طقطبای العلاي وقرره في نيابة القلعة عوضا عن طوخ المحمدي .

وفيه هجم المنسر تحت الليل على سوق الجملون وسوق الخشبية والوراقين ، ونهبوا منها نحو من عشرين دكانا ... ولم تنتطح في ذاك شاتان ، وراحت على التجار أموالهم .

وفيه ضيق بعض الأمراء الذين تولوا جباية الأملاك عن السبعة أشهر ، فأرسلوا الى أصحاب

الأملاك مهندسين صحبة خاصكى من قبل السلطان ، فطافوا الحارات وهجموا البيوت وقطعوا أجرة الأملاك ثانيا ولم يرضوا بما أخذه الأشرف قايتباي بمقتضى وصولات معهم عما أوردوه في مغرم السبعة أشهر كما تقدم ، فكانت النكسة أمر من الضعف ، وأخذوا منهم مظلمة ثانية وشددوا عليهم واستوفوا أجرة ثانية .

وفيه أرسل السلطان قبض على خوند أصل باي أم الملك الناصر ، وطلع بها الى القلعة ، ووكّل بها عدة من الطواشية ، وأقامت في الترسيم مدة أيام وقاست غاية البهدة ، وقرر عليها مال له صورة فلم تورد منه شيئا وأظهرت العجز ، فرسم السلطان بنفيها الى مكة ، فشفع فيها الأمير قرقماس أمير سلاح والأمير طراباي من النفي ، وأوردت من المال الذي قرر عليها بعض شيء .

وفي هذا الشهر أُنقِ السلطان على العسكر نفقة البيعة ، فأُنقِ على طبقتين كالحكم الأول ، فكان مجموع ما أنفق في هذه المدة على أربعة طباق لا غير .

وفيه تعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب فلوس جدد ضربها السلطان تضر في المعاملة الثلث .

وفيه جاءت الأخبار بقتل كاشف الشرقية ، قتله العرب . فلما قتل خلع السلطان على آقباي وقرره في كشف الشرقية عوضا عن الذي قتله العرب .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي بالحوش ، واجتمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وكان يوما مشهودا ، وهذا كان أول موالد السلطان .

وفيه انتهت زيادة النيل المبارك الى سبعة عشر

أصبعا من عشرين ذراعا واستمر ثابتا الى نصف بابه .
وفي يوم السبت سابع عشرينه خلع السلطان
على موفق الدين بن القصص القبطى وقرره في
التحدث على أوقاف الزمامية نيابة عن عبد اللطيف
الزمام .

وفي سلخ هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة
المالكي عبد الغنى بن تقى ، وكان عالما فاضلا من
ذوى البيوت ، مات وهو في عشر السبعين ، وكان
لا بأس به .

* * *

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار من ثغر
الاسكندرية بأن الأمير مصرباى الدوادار قد كسر
قيده وهرب من البرج ، وقد قيل ان شخصا من
مماليكه يقال له اياس صنع له مبردا من فولاذ
وجعله ضمن موكبة شمع وأدخلها لأستاده وهو في
البرج فبرد به قيده ونزل من أعلى السور ، وأحضر
اليه مركبا صغيرا فنزل به وقد ستر الله عليه وتمت
حيلته فحضر الى القاهرة في الخفية ، فلما أشيع هذا
الخبر اضطربت أحوال الأمراء وبقي على رؤوسهم
منه طيرة ، وصار الوالى في كل يوم وليلة يكبس
بسببه البيوت والحارات ، وحصل للناس غاية
الضرر .

* * *

وفي جمادى الأولى ، في يوم الخميس ثامنه ،
خلع السلطان على العلامة برهان الدين ابراهيم
الدميرى ، وقرره في قضاء المالكية عوضا عن
ابن تقى بحكم وفاته . وقد اشتبه على ولاية قاضى
القضاة برهان الدين الدميرى هل كانت في شهر
ربيع الآخر أو في جمادى الأولى .

وفيه قبض السلطان على جماعة من الأمراء ،
منهم قانصوه الفاجر أحد الأمراء الطبلخانات ،

وتانى بك الأبح ، واسنباى الأصم ، وآخرون من
الأمراء . فأرسل قانصوه الفاجر الى السجن بشعر
الاسكندرية ، ثم ان الأتابكى قيت شفع في تانى بك
الأبح واسنباى الأصم .

وفيه خلع السلطان على الأمير علان بن قراجا ،
وقرره في ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن طومان
باى الجلب ، وخلع على تانى بك الخازندار وقرر في
الحسبة على شخص يسمى محمد بن يوسف ،
وكان جابى أوقاف الجامع المؤيدى ، فقرره في نظر
الأوقاف كما كان محمد بن العظمة ، فحصل للناس
منه غاية الضرر ، وصار يشوش على أعيان الناس
ويهدلهم ، وصار يعضده شخص من الأمراء
العشراوات حتى لا يحتسب عليه أحد من الناس ،
فوقع منه أمور مهولة في حق الناس ، فكان
كما يقال :

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغداد والسفل

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وفيه وثب العسكر ولبس آلة السلاح ، ولم
يكن لهذه الركبة سبب ، فأسفرت القضية على أن
هذه حيلة على الأمير مصرباى حتى يظهر ان كان
هو مختفيا بمصر فيظهر . فلما علم أنها حيلة عليه
لم يظهر ، فخدمت تلك الفتنة في أواخر النهار عن
غير طائل .

وفيه طلع مجد الدين بن كراوية ناظر الدولة ،
وشكا الى السلطان انشحات الديوان وعدم وجود
اللحم ، فوكل السلطان به بالقلعة ، وأقام نحوا من
اثنى عشر يوما وطباق المماليك معطلة من اللحوم ،
فضج العسكر . من ذلك ثم ان السلطان رسم
بقطع لحوم أولاد الناس والمباشرين والفقهاء وغير

ذلك من الناس قاطبة حتى رواتب الخوندات ،
وآلا يصرف سوى للماليك فقط ... فما عن قريب
حتى وصل الأمير طقطبى بن ولى الدين وزير
الديار المصرية — وكان مسافرا الى جهة الصعيد —
فأحضر صحبته اثني عشر ألف رأس من الغنم ،
فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفيه خلع السلطان على ناصر الدين الصفدى ،
وقرره فى نظارة الخاص ، عوضا عن علاء الدين
ابن الامام بحكم صرفه عنها ، فجمع الصفدى بين
وكالة بيت المال ونظارة الخاص كما كان
ابن الصابونى .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمير مصرى
وبقية الأمراء المختفين ، يظهرون وعليهم أمان الله
تعالى ، فلم يظهر سوى جان بردى الغزالى . فلما
ظهر خلع عليه السلطان وقرره فى حجوية الحجاب
بحلب فخرج عن قريب .

وفى جمادى الآخرة دخل الأتابكى قيت الى
القاهرة — وكان توجه الى نحو العباسية على سبيل
التنزه — فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان
ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه أفرج السلطان عن القاضى فخر الدين بن
العفيف كاتب الممالك — وكان له مدة وهو فى
الترسيم — فقرر عليه مالا وأطلقه ، وكذلك
الصيارف .

وفيه قبض السلطان على شخص من الأمراء
العشراوات يقال له ألماس ، فضربه ضربا مبرحا ،
وضرب معه شخصا آخر يسمى جاني بك الأشرفى
جان بلاط ، فمات تحت الضرب فوق الخمسمائة
عصاة ، ورماء فى البرج . وكان سبب ذلك قد أشيع

عنه أنه يرمى الفتن بين الأمراء فصار يضربه
غير ما مرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل الشام
قد رجموا النائب وأخرجوه من البلد . وكان سبب
ذلك أن السلطان لما جى أملاك مصر والقاهرة
بسبب السبعة أشهر التى رسم بها فأرسل مراسيم
الى نائب الشام يأخذ أجرة سبعة أشهر من أملاك
أهل الشام ، فجار على أهل الشام بسبب ذلك ، فما
طاقوا هذا الحال فرجموه حتى أخرجوه من البلد ،
وكادت دمشق أن تخرب عن آخرها فى هذه
الحركة .

وفى رجب كانت وفاة الأمير أقباي الطويل شاد
الشراب خاناه ، فنزل السلطان وصلى عليه وكانت
له جنازة حافلة .

وفيه طلع الى السلطان شخص يقال له صلاح
الدين بن الجنيد ، وكان أصله رسولا عند ناظر
الخاص علاء الدين بن الصابونى ، فلما طلع الى
السلطان اجتمع به وعرض عليه قوائم فيها أسماء
جماعة من أعيان التجار ومسائير الناس ، حتى من
أعيان النساء المسائير من الخوندات والستات ،
وقرر أنه يأخذ على كل رأس من عبد وجارية
دينارا ، ثم قال للسلطان : « ألبسنى خلعة وأنا
أضمن لك مائتى ألف دينار من غير ضرر ولا
أشلة » . فأنصاع السلطان الى كلامه ، وأراد أن
يلبسه خلعة . فلما بلغ الأمراء ذلك شق عليهم ،
وكادت أن تشور فتنة بسبب ذلك ، فاستدرك
السلطان فارطه وأحضر ذلك الرجل المرافع وضربه
بالمقارع وأمر بقطع لسانه وأشهره فى القاهرة على
جمل وهو عريان . فلما شق المدينة كادت العوام
أن ترجمه أو تحرقه ، ثم توجهوا به الى المقشرة
فسجن بها ، وعد ذلك من النوادر . وكان ضربه

بالحوش بين يدي الأمراء حتى أرضاهم بذلك .
وفي يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على
ولده المقر الناصري محمد وقرره في شادية الشراب
خاناه عوضا عن أقباي الطويل بحكم وفاته ، وكان
ابن السلطان حديث السن وقد قامت الأمراء على
السلطان حتى قرره في شادية الشراب خاناه ، وكان
القائم في ذلك الأتابكي قيت الرحبي والسلطان
يتمتع .

المحتسب على السوق من مال يردونه في كل
شهر . وقد أحال السلطان بما تقرر على الحسبة
لبعض الأمراء المقدمين وبعض أمراء عشراوات
عوضا عن الأقطيع ، وكان ما قرر على الحسبة في
كل شهر فوق الألفي دينار وقيل أكثر من ذلك ،
وصارت مقررة على سائر السوق والطحانين وغير
ذلك ، ومن يومئذ تحسنت البضائع في الأثمان
بموجب المشاهدة التي تقرر على السوق .

ومن الحوادث أن السلطان عين شخصا من
الخاصكية يقال له نائق الخازن بأن يتوجه الى جهة
البلاد الشرقية والغربية ليستوفي على المقطعين
ما كانوا أوردوه من الخراج عن السنة التي أفردوها
السلطان على المقطعين . فلما توجه نائق المذكور الى
هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن أصل خراج
كل حصة وما تعمل في كل سنة من الخراج ،
فصارت المقطعون في وجل بسبب ذلك ، ورحل
غالب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما
أورده المقطعون في بيت الأتابكي قيت الرحبي ،
فأرسل الفلاحون يطلبون من المقطعين الرجعات
بما أوردوه ببيت الأتابكي قيت ، فغرم الفلاحون
لنائق المذكور جملة من المال حتى حل عنهم . وقد
ضاع خراج تلك السنة أيضا على المقطعين بين
الفلاحين وبين نائق المذكور ، ثم آل أمر هذه
الحركة الى السكون . وقد تقدم ما وقع لأصحاب
الأملاك ما يقرب من ذلك وغرموا مغرما ثانيا كما
تقدم ، وقد ضاق الأمر على الناس جدا .

وفي يوم الخميس تاسع شعبان عرض السلطان
أولاد الناس أصحاب الجوامك والأيتام من نساء
ورجال ، فلما عرضهم قطع عدة جوامك ممن له
أشرفي أو مائتان فأضر ذلك بحال الأيتام من نساء
وصغار ، ثم قطع عدة جوامك لجماعة كثيرة من
أعيان أولاد الناس والمباشرين ووبخهم بالكلام ،
وقطع جوامك جماعة من الأوجاقية وتقباء القصر
والسراخورية وغللمان الاسطبل السلطاني ، وسائر
من له جامكية في باب السلطان من الفقهاء
والمتممين حتى جماعة من الخوندات والستات ،
فجماعة أبقى لهم النصف من جوامكهم وشيء
قطع لهم الجوامك كلها وصار بالقسم والنصيب ،
وكان القائم في هذه المظلمة أيضا الأتابكي قيت
الرحبي لا جزاءه الله خيرا ، فحصل للناس في ذلك
اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة بغير طائل ،
فكان كما يقال في المعنى :

يا طالب الرزق مهلا . فلا بسعيك تطمع
وثق برب كريم . فالله يعطي ويمنع
وفيه عين السلطان الأمير قانصوه بن سلطان
جركس بأن يتوجه الى الشرقية كاشفا ، فلما
توجه الى هناك لم يقابله من العربان أحد وازدادوا
عصيانا فوق عصيانهم ، وسموه « هات لبن » ،

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وقد نقش
عليها هيئة شباك ، فوقف أمر الفلوس التي كانت
قبل ذلك وصارت السوق لا تأخذ الا الفلوس التي
منقوش عليها الشباك ، فوقف حال الناس وصارت
البضائع تباع بسعرين : بسعر من الفلوس الجدد ،
وسعر بالفلوس العتيق . وفوق هذا كله ما قرره

فأقام بالشرقية نحواً من أربعين يوماً ورجع من غير طائل .

وفيه أكمل السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد طاول العسكر هذه المدة الطويلة واعتذر عن ذلك حتى جمع الأموال ثم أكمل لهم النفقة بعد ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر توفي القاضي زين الدين سالم صاحب ديوان الأتابكي أزبك بن ططخ ، وكان من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة في أيام الأتابكي أزبك ، وكان في سعة من المال وله ثروة زائدة وكان لا بأس به ، ومات وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفيه توجه الأمير طقطباى وزير الديار المصرية الى جهة الصعيد لجمع المغل ، فصلى الجمعة مع السلطان ونزل من القلعة في موكب حافل وصحبته الأمراء المقدمون ، وكان له يوم مشهود .

وفي رمضان ، في يوم مستهله ، نادى السلطان في القاهرة بأن أولاد الناس والأيتام من النساء والصغار يطلعون الى القلعة ، وأشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يرد جوامك الأيتام التى قطعت — وكان قصده ذلك حقيقاً — فلما طلّعوا الى القلعة لم يمكنه الأتابكى قيت من ذلك ، فرد في ذلك اليوم لبعض جماعة من المماليك ، ونزل البقية خائبين من غير طائل ، كما قيل :

سل الله ربك من فضله

إذا عرضت حاجة مقلقه

ولا تسأل الترك فى حاجة

فأعينهم أعين ضيقه

ومن الحوادث أن فى ليلة الاثنين ثانى عشر شهر رمضان طلع الأمراء الى القلعة ليفطروا مع

السلطان على العادة ، فلما فطروا ونزلوا من القلعة ووصلوا الى رأس الصوة وإذا بطائفة من المماليك نحو من اثنى عشر مملوكاً قد أحاطوا بهم ، فأسفرت هذه الواقعة بأن الأمير مصرباى الدوادار ظهر والتفت عليه طائفة من أخمل المماليك فقصده أن يقطع الطريق على الأمراء وهم نازلون من القلعة ، فوقفوا لهم عند باب السلسلة . فلما نزلوا من القلعة خرج عليهم مصرباى بمن معه من تلك المماليك اليسيرة ، فرموا على الأمراء بالنشاب ، فجرح الأمير طراباى والأمير تمر الزردكاش ، لكنه جرح خفيف فما تأثروا له ، ولكن قتل فى تلك الليلة شخص بالرملة من المماليك يقال له جاني بك ، قيل انه قرابة الأمير طراباى . وكان قصد مصرباى قتل أزدمر الدوادار وقيت الرحبى وبقية الأمراء فما قدر على ذلك وانكشف ربه وافتضح ، وكانت هذه غاية الخفة من مصرباى ، فلما جرى ذلك اضطربت الأحوال تلك الليلة ولبس العسكر آلة السلاح وباتوا على وجل ، فوقف مصرباى بالرملة ساعة فلم يحضر عنده أحد من العسكر ، فنزل من الرملة بغير طائل ، ثم رجع الأمير أزدمر الى القلعة وبات بها عند السلطان تلك الليلة ونزل الأتابكى قيت الى داره ، وقد أشيع أن السلطان كان مع مصرباى فى الباطن ، ولم يكن لهذا الكلام صحة . فلما رجع مصرباى من الرملة دار على الأمراء تحت الليل فلم يطاوعه أحد على الركوب معه ، فعند ذلك توجه الى الأزيكية وبات بها وانتظر أحداً يأتيه من المماليك السلطانية فلم يجرى أحد له . فلما طلع النهار اجتمع عنده بالأزيكية نحو من عشرين مملوكاً أو دون ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليه طائفة من المماليك صحبة الأمير علان والى القاهرة فحاربوه هناك ، فلم يكن إلا

ساعة يسيرة وقد كسر الأمير مصرباى وقتل بالأزبكية شر قتلة ، فحمله بعض المماليك قدامه على الفرس وهو ميت وطلع به الى القلعة . فلما عاينه السلطان أمر بدفنه ، فغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، وكانت واقعة من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد خطر بباله أنه يقتل الأمراء ويملك القلعة بهذه الطائفة اليسيرة التى معه من المماليك وهى دون عشرين مملوكا ، وكان هذا غاية الخفة منه ، مع أنه كان من ذوى العقول وعنده ثبات جنان ، وكان دينا خيرا . وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى ولى الدوايرية الكبرى بمصر فى دولة الغورى ، ثم قبض عليه وسجن بشعر الاسكندرية ، ثم تسحب من البرج الذى كان به مسجونا وجرى بسببه على الناس ما لا خير فيه من كبس بيوت وحارات وغير ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك بالرملة كما تقدم فلم يطب طبه ، وكانت الأمراء على رؤوسهم طيرة منه ، فلما توجه الى الأزبكية ويات بها وأصبح فجمع صغار باب اللوق ، ودق له هناك طبخا ناه ، وكانت طبخانة فشار ، وآخر الأمر كسر وقتل فى يومه ، كما تقدم ذكر ذلك ، فكان كما يقال :

ما تبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكان الأمير مصرباى سببا لقتل الملك العادل طومان باى ، وقد عمل عليه حيلة حتى ركن اليه ثم غدره حتى قتل ، ووضع رأسه فى طبق وأشهره بالرملة والمشاعلية تنادى عليه ، وأفحش فى حقه الى الغاية ... فما عن قريب حتى أخذ مصرباى وجرى عليه شذائد ومحن ، واقتضح وهو طالع الى القلعة ميت على فرس وخلفه من

يحضنه والناس ينظرون اليه ، وهذا غار والمجازاة من جنس العمل ، كما يقال :

إذا ما الدهر جر على أناس

كلاكله أناخ بآخرته

فقل للشامتين بنا مهيلا

ستلقوا عن قريب ما لقيته

وكان فى هذه الواقعة عبرة لمن اعتبر

قتل مصرباى خمدت تلك الفتنة ، وه

جملة سعد السلطان .

ثم فى يوم السبت سابع عشر رمة

السلطان ممالك أقبردى الدواidar وو

جماعة منهم الى البلاد الشامية ، فنفى

ثمانين مملوكا فأخرجهم وهم فى زناجير

وقد أشيع عنهم بالركوب مع مصرباى

ذنب كبير .

وفى شوال لم تثبت رؤية الهلال العشاء ، وكان العيد بالجمعة ، فحصد تلك الليلة توعك فى جسده فلم يصل واحتجب عن الناس وكثر القيل والقال فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج

القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ر

أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس

الأول الناصرى محمد بن العلاء على

بك . فلما خرج المحمل رسم السلط

قائم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج

بمكة بطلا ، وكان صحبته قانصوه ال

وفيه خلع السلطان على أقبای به

(1) الرواية الصحيحة :

فقل للشامتين بنا أيقوا

سيلقى الشامتون كما لقد

وقرره في كشف الشرقية عوضا عن قانصوه بن سلطان جركس .

وفي هذا الشهر تحول الأتابكي قيت من بيت الأشرف جان بلاط الذي بحارة عبد الباسط وسكن بالأزبكية في بيت الأتابكي أزيك .

وفي ذي القعدة كان ختان ابن علي بن أبي الجود برددار السلطان .

وأما برددارية السلطان فهي وظيفة حادثة لم تعهد في الدول الماضية وإنما حدثت في دولة الأشرف قايتباي . وأول من تولى بها محمد بن الحمامية ، فلما مات تولاها من بعده جماعة كثيرة ، واستمرت إلى الآن حتى تولاها علي بن أبي الجود ، ففتك بها فتكا ذريعا . فلما كانت زفة ولده رجت لها القاهرة وزينت الدكاكين ، وأوقدوا له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية إلى الصليبة ، ومشى بها أعيان الناس من المباشرين والتجار حتى تغرى بردى الأستاذار وبعض أمراء عشراوات منهم تغرى برمش وجماعة من الطواشية وغير ذلك من الأعيان ، وكان لها يوم مشهود مثل دوران المحمل حتى عد ذلك من النوادر ، ثم اشتهر أمر علي بن أبي الجود من بعد ذلك حتى كان ما سنذكره في موضعه .

وفيه كانت الأسواق معطلة والبضائع مشحونة بسبب الفلوس الجدد حتى يعمل لهم معدل .

وفي ذي الحجة - في يوم الخميس رابعة - كانت وفاة ناصر الدين بن الصفدي ناظر الخصاص ووكيل بيت المال ، مات فجأة . قيل طلب منه السلطان مالا فلم يقدر على ذلك ، فيقال انه ابتلع فصا من الماس فمات من ليلته ، وكان لا بأس به ، وعد من أعيان مصر .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العادة ، ولكن قطع لجماعة من الفقهاء والطواشية والنساء .

وفيه حضر الأمير طقطبای الوزير وكان مسافرا نحو بلاد الصعيد ، فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل إلى داره في موكب حافل .

وفيه رسم السلطان لعلی بن أبي الجود بأن يتكلم في جهات الخاص إلى أن يتولى من يختاره السلطان عوضا عن الصفدي .

وفيه ختم السلطان ضرب الكرة ، وعزم على الأمراء في الدهيشة ومد لهم أسمطة حافلة .

وفيه توفي القاضي شهاب الدين بن البرقي ، وكان من أعيان نواب الحنفية وله شهرة بين الناس وكان لا بأس به .

وفي أواخر هذه السنة صار يحترق في كل ليلة عدة أماكن بالقاهرة بسبب الدريس ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وقد خرجت هذه السنة من الناس وهم في أمر مريب بسبب ما وقع فيها من الفتن والمصادرات ، وكانت سنة كثرت فيها الحوادث والوقائع صعبة شديدة ، فانقضت على خير .

سنة ثمان وتسعمائة (١٥٠٢/١٥٠٣ م) :

فيها ، في المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري .

وأما القضاة الأربعة فالقاضي برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف المقدسي الشافعي ، والقاضي سري الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفي ، والقاضي البرهان ابراهيم الدميري المالكي ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الشيشيني الحنبلي .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان في السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدم ألف منهم أرباب الوظائف وهم الأتابكي قيت الرحبي أمير كبير ، وقرقماس ابن ولي الدين أمير سلاح ، وأصطمر بن ولي الدين أمير مجلس ، وقاني باي قرا بن ولي الدين أمير آخور كبير ، وطرباي الشريفى رأس نوبة النوب ، وأزدمر بن علي باي دوادار كبير ، وخاير بك بن ملباي حاجب الحجاب — وهو أخو قانصوه البرجي نائب الشام — فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف فهم : خشكلدي البيسقى الظاهري خشقدم ، وقانصوه ابن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير سودون العجمي ، وماماى المحمدى المعروف بجوشن ، وأنصباي بن مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباي العلاني نائب القلعة ، وطقطباي بن ولي الدين وهو الوزير والأستادار ، ودولات باي قرموط ، وقانصوه بن طراباي المعروف بكركت ، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك بن طراباي المكحل ، ونوروز بن أزبك أخو يشبك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلي باي السيفى يشبك الذى كان نائب غزة ، وخاير بك السيفى اينال ابن اينال كاشف الغريبة ، وجانبلاط المحمدى أخو قانصوه البرجي

ثم قرر من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميراً ، منهم أرباب الوظائف عشرة وهم : عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محمد بن السلطان شاد الشراپ خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ، ومغلباي الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمر از جوشن رأس نوبة ثانى ، وجان بردى تاجر الممالك ، وطومان باي قرا حاجب ثانى ، وقلج

ابن ولي الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك بن يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان بن قراجا ، وقانصوه ابن دولات بردى أستادار الصلحة ... فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف فهم : قرقماس الشريفى — وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدي بن ولي الدين بتقدمة ألف وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لهما ذلك من بعده وآل أمرهما الى أمرة طبلخاناه — وأزدمر بن يشبك ، وخشكلدي بن ولي الدين ، وقانصوه بن بردبك ، وجاني بك بن أزدمر ، وبرسباي العلاني ، وطوخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الابراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبج ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك بن تبوك ، وبرقوق بن خجا بردى ، وشاد بك الناصرى ، وجانباي المحمدى ، وجانبلاط بن ولي الدين أيضا ، وقرقماس بن يشبك ، وتمر باي بن سيباي ، وبكبلات بن أقباي ، وقاني باي بن يشبك ، وجانم الابراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباي الشريفى ، وطومان باي بن طوبزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط بن حيدر ، ومامش الرجبي ، وكرتباي بن حيدر ، ومغلباي بن بختجا ، وجان بلاط بن قانصوه ، وأصطمر بن بشمان ، وقاني باي بن أزدمر ، وسودون بن مصطفى ، وألماس ابن برد بك ، وقنبك بن شاد بك ، وجانم بن خضر ، وجان بردى بن قانم ، وبرسباي الدمرداشي وتمر الابراهيمى ، وجاني بك الشريفى ، وتنم بن شاد بك ، وماماى بن قيت ، وقانصوه بن يشبك ، وقان بردى بن قانصوه ، وأرزمك بن برد بك ، وتمر باي السيفى قجماس خازندار العادل طومان

باي ، وجانم بن قانصوه ، ومسايد بن حيدر ،
وبرش بن عبد الكريم ، ومسايد أيضا بن قانصوه ،
وجاني بك قرا الشريفي ، وطراباي الشريفي ،
وقايتباي بن جاني بك المعروف بالأشقر ، وشادي
بك اليحياوي ، وقانصوه بن يشبك ، وتاني بك
السيفي أقبردي ، ودولات باي بن مصطفى ،
وقاني بن سودون الابراهيمي ، وجانم بن قجماس ،
وطراباي بن جانم ، ومغلباي بن جانم ، ومصريباي
الأبو بكرى ، وجاني بك بن حيدر .

ثم قرر الأمراء العشراوات مائة وخمسة
وثمانين أميرا وهم : غير مهدم الممالك ،
وخشكلى الشريفي ، وتبك الناصري ، وأسنباي
ابن برسباي ، وقراكر الشريفي ، وجاني باي بن
يشبك ، وبكتر بن ولي الدين ، وسنقر العلاني ،
وقلج السيفي قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفي
قايتباي ، وأسنباي بن قروس ، وطقطمش السيفي
اينال ، وسيباي الأبو بكرى ، واينال بن جانم ،
وقانصوه الابراهيمي ، وسودون بن حيدر ،
ويوسف بن مصطفى ، وعلاز بن ولي الدين ،
وأقبردي الحسنى ، وقنبك الشريفي ، وبهادر بن
قرقماس ، وأزدمر بن عبد الرحيم ، وييردي بن
جانبلات ، وبرد بك الشريفي ، وييردي بن كسباي
وأركماس السيفي قانصوه ، وبكباي بن قراجا ،
وطوماي باي بن مصطفى ، وأقبردي الشريفي ،
واينال باي بن مصطفى ، وخاير بك بن قجماس ،
وجاني بك بن مهدي ، وأقباي السيفي يشبك ،
وطوبى الناصري ، وبرسباي بن بردبك ، وبكبلات
المحسنى ، وأزدمر بن تمر باي ، وناق بن
يخشباي ، ونوروز بن يلباي ، وشاهين الجمالي
يوسف ناظر الخاص ، وجانم السيفي قايتباي ،
ونوروز السيفي قاني باي ، وقنيك السيفي يونس

ودولات باي الابراهيمي ، وجاني باي الحسنى ،
وسنطباي المحمدى ، وتغرى بردى الشرفى ،
ودولات باي السيفي يشبك ، وجاني بك بن
جانبلات ، وأزدمر السيفي اينال ، وقانم بن نائق ،
وقنبك بن قاني باي أمير جندار ، وقصروه بن
قانصوه ، وتغرى بردى الترجمان ، وقرقماس
المحمدى ، وجان بردى بن ولي الدين ، وتغرى
بردى الحسنى ، وأزدمر المهندار ، وأزبك
النصراني أمير شكار ، وقانصوه بن أبى يزيد ،
وقانصوه الناصري ، وأبرك السيفي لاجين ،
ويلباي بن على باي ، وأبو يزيد بن قانصوه ،
ومغلباي بن اياس ، ودولات باي المحمدى ،
وقانصوه بن جانم ، وناق بن أنت ، وتبك بن
أزرم ، وقطلو باي بن عبد الرحيم ، وقاني باي
ابن أزرم ، وسودون بن ولي الدين ، وسيباي بن
جاني باي ، واينال بن ييردي ، وقرقماس
الابراهيمي ، ومغلباي بن حيدر ، وعلى باي بن
شبتان ، وأسنباي اليوسفى ، ودولات باي
الابراهيمي ، وأزبك بن قانصوه ، وماماى بن
قبيد ، وجانم بن قجماس ، وقانصوه العلاني ،
وقلج الشريفي ، وعلى باي بن صدقة ، وبكبلات
ابن قانصوه ، واياس المحمدى ، وقانصوه بن
يشبك ، وبرسباي بن جاني بك ، وقانصوه بن
عبد الرحيم ، وطراباي السيفي أزبك ، ونوروز
العلاني ، وملاج بن برد بك ، وبرسباي السيفي
يشبك ، وجاني باي الحسنى ، وكزيم بردى بن
قروس ، وأزبك بن مصطفى ، وقانصوه بن جان
بلاط ، وقرقماس الشريفي ، وتمر بن ولي الدين ،
ودولات باي بن أزبك ، وأزبك الشريفي ، وجان
بلاط بن مغلباي ، وبكباي السيفي أزبك ، وتغرى
بردى المحمدى ، وتبك المحمدى ، وبرد بك

السيفى قانى باى ، وييرس بن قرقماس ،
وأركماس الابراهيمى ، وأركماس السيفى أزيك ،
ويوسف البدرى كاشف البحيرة — وهو الوزير
الآن — وييرس بن يشبك ، وخاير بك العلاني
وأقباي بن يشبك ، وتبك بن اياس ، وجانم بن
يشبك ، وقانصوه ابن جانم ، ومصرياى بن لاجين ،
وخاير بك الشريفي ، وجانم المحمدي ، وعلى باى
السيفى خشكلدى ، وجانى بك الناصري كاشف
منفلوط ، وجان بلاط الشريفي ، وقان بردى
الشريفي ، وأزيك الابراهيمى ، وقانم بن كرتباى ،
وتغرى برمش السيفى كسباى ، وأبرك الشريفي ،
وجانم بن مصطفى ، وأزبردى بن قلج ، وأقطوه
ابن قانصوه ، ويوسف بن مصطفى ، وقانصوه بن
عبد الرحيم ، وتمرباى بن چكم ، وييسق
اليوسفى ، وأقطوه بن يشبك ، وبرسباى بن
قراجا ، وجان بردى بن مصطفى ، وتتم بن قانى
باى ، وأقبردى المحمدي ، وقانى باى بن حمزة ،
وأقبردى المحمدي أيضا ، وبرمش بن بيردى ،
وبرد بك بن أيدكى ، وأسناى بن برد بك ،
وقطلوباى بن تمر ، وقايتباى بن طوبرزه ،
وكرتباى السيفى يشبك ، وقان بردى بن قجماس ،
وأركماس السيفى قانصوه ، وتتم السيفى أرغون
شاه ، وقراکز بن يشبك ، وجانى بك السيفى
برسباى ، وقراکز السيفى چكم ، وبكيلاط
الأبو بكرى ، ونوروز بن ألماس ، وبرد بك السيفى
يشبك ، واينال السيفى أزيك ، وقانصوه بن
درويش ، وتمراز بن اينال باى ، وخشكلدى بن
أركماس ، وقيت بن حيدر ، وقانى باى الرمضاني ،
وجانى بك بن ولى الدين ، وألماس بن قردمش ،
وتمرباى السيفى أزيك ، وجان بلاط بن جانم ،
ومغلباى بن قيت ، وتمراز بن أقباي ، وقرقماس

السيفى برد بك ، ومامش المحمدي ، وعلى باى
السيفى اينال ، وبرد بك الابراهيمى ، وسودون
ابن درویش ، ومغلباى اليوسفى ، وأيدكى
الشريفي ، وشاد بك بن قانصوه ، وسيباى بن
جانى بك ، وجانى باى المحمدي ، وقانصوه بن
قانى باى ، وقانصوه بن ولى الدين ، وقانصوه
ابن ولى الدين أيضا ، وطراباى بن قانصوه ،
وييرس بن قانصوه ، وخدا بردى الشريفي ،
وشاهين معلم الدبوس .

واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمانمائة
خاصكى على ما قيل ، ثم تزايد عدد الخاصكية
فيما بعد حتى صاروا ألفا ومائتى خاصكى .

وأما النواب بالبلاد الشامية فكان ممن قرر
بها من أوائل هذه السنة وهم . قانصوه المحمدي
المعروف باليرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف
بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وفرر جانم فى
نيابة حماة . وقرر دولات باى فرابة العادل فى
نيابة طرابلس ، وكان قبل ذلك نائب الشام وفر ،
ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون
الدوادارى فى نيابة صفد ، وقرر فى نيابة غزة
قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجبل ، وكان العادل
قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك وهو الآن مقدم
ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس ، وقرر
أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الاسكندرية قانصوه
خمسائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط
شخص من الأتراك يسمى فارس المنصوري
عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى
أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد
ذلك ، وانتقلت النيات الى آخرين من الأمراء
يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعمين وهم :

القاضي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى
 كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضي
 شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر
 الجيوش المنصورة ، والقاضي صلاح الدين بن
 الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن
 الشريفة ، والقاضي محيي الدين عبد القادر
 القصري ناظر الجيش كان ، وهو الآن ناظر
 الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد
 ابن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين
 محمد بن مزاحم ناظر الاسطبل الشريف ، ومجد
 الدين بن كراوية ناظر الدولة والصحة الشريفة ،
 وكان على بن أبى الجود متحدثا فى جهات الخاص
 يومئذ من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى
 عقب ذلك تولى نظارة الخاص علاء الدين بن
 الامام وهذه ثانى ولاية . وقد راج أمره فى هذه
 المرة الى الغاية ، وكان يومئذ القاضي فخر الدين
 ابن العفيف كاتب الممالك السلطانية ، وموفق
 الدين بن القصص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث
 على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط بن تقى الدين
 ناظر الزردخانا ، والشرفى يونس النابلسى ناظر
 الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ،
 وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العيسى ،
 وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين ابن
 الانبأى وشريكه يوسف بن السيرجى .

وأما الوظائف التى غير هؤلاء فكان تقيب الجيش
 يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين
 يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . . . فهذا كان
 ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة
 ثم انتقلت من بعد ذلك الأمريات والوظائف الى
 جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين يأتى الكلام
 عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس
 عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ولا حضر
 المبشر ، فكثرت القيل والقال بسبب ذلك ، فلما كان
 يوم الأحد تاسع عشره حضر هيجان وأخبر أن
 أحوال الحاج مضطربة الى الغاية ، وأن الجازانى
 ابن أمير مكة قد أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ،
 والتف عليه يحيى ابن سبع أمير ينبع ، ومالك
 ابن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز
 يقال لهم بنى ابراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج
 الشامى فى رابع قبل أن يدخلوا الى مكة فنهبوا
 الركب عن آخره ، وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ،
 وفعلوا بهم ما لا فعله تمرلنك لما دخل الى الشام .
 فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة ، اضطربت
 أحوال الناس لهذه الأخبار ، ثم انقطعت أخبار
 الحاج مدة طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه — الموافق
 لرابع مسرى — زاد الله فى النيل المبارك أربعين
 أصبعا فى يوم واحد .

وفى يوم الجمعة خامس مسرى زاد الله فى النيل
 المبارك عشرين أصبعا .

ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى وزاد عن
 الوفاء احدى عشرة أصبعا ، فكان فتح السد
 فى يوم الاثنين تاسع مسرى — الموافق لسابع
 عشرين المحرم — وهو سابق النيل الماضى بيوم
 واحد والفضل بينهما سبع عشرة أصبعا عن النيل
 الماضى ، فكان كما قيل :

النيل قال وقوله اذ قال ملء مسامعى
 فى غيظ من طلب الغلا عم البلاد منافعى
 وعيونهم بعد الوفا قلعتها بأصباعى
 فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجى وفتح
 السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

أخى بركات ودعنا تقتتل في بعضنا وخذ أنت الحاج وامض » ، فلم يسمع أصطر منه ذلك .

ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع وصار عوناً مع الجازاني ، فاتقوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطر بينهم ونادى في الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عوناً على قتال الجازاني ، فاجتمع الجهم الغفير من الجمالة والعكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي . وآل الأمر إلى كسرة أصطر أمير ركب المحمل ، وقتل من كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير الغلمان والطفش ، وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل في ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن وأخذوا عصايهن من على رءوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه .

وتخلف غالب الحاج بالينبع وصاروا ينزلون في مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعد مدة طويلة وهم في أنحس حال ، وقاسوا في هذه السنة غاية المشقة وجرى عليهم كل سوء ... وقيل ان الجازاني لم يفحش في حق من بالركب الأول كما فعل بمن في ركب المحمل . وقد راعى الناصري محمد بن خاص بك دون أصطر وكان متأثراً من أصطر ، فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازاني ، فلما رجع من بقي من الحجاج إلى الأزم ، وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش .

فلما وصل الحجاج إلى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بني لام فعوقبهم عن طلوع العقبة ، وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار ، فجبى أمير الحاج ذلك من الحجاج ، ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم في أسوأ حال .

وفي صفر في مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة . ثم في يوم السبت ثانيه ، دخل المحمل إلى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطر بن ولي الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصري محمد بن خاص بك ، ودخل الحاج وهو في غاية النكد بسبب ما جرى على الناس في طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج - وهو ما استفاض بين الناس - أن أصطر أمير الحاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة ، لاقاه الجازاني من هناك ، فأحضر إليه أصطر خلعة وقال له « ان كنت تستقر أمير مكة أحمل للسلطان خمسين ألف دينار » . فقال الجازاني : « نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر » ، فألبسه الخلعة حتى طمأنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك وجرى منه أمور شتى .

ثم ان أصطر أرسل في الدس مكاتبة للشريف بركات أخى الجازاني بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازاني ، فلما أحس الجازاني بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو . وكان أصطر أرسل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازاني لاقى الركب انشامى في رابع وجرى منهم ما تقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء .

فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك ، اضطربت الأحوال إلى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازاني وعرب بني ابراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال أصطر للشريف بركات : « اخرج معنا ولاق الجازاني » .

فلما خرج الشريف بركات صحبة الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة ، لاقاه أخوه الجازاني في جمع كثير من عرب بني ابراهيم ، فأرسل الجازاني يقول لأصطر : « لا تدخل بيني وبين

قرقماس أمير سلاح وتسلمه من السلطان ، وشفع فيه حتى حط عنه خمسة آلاف دينار ، واستمر عند قرقماس في الترسيم نحو من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال ، وأتى الى بيته وحصل له غاية الضرر .

وفي أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب ان خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه اسماعيل الصوفي . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة في أمر الصوفي ، وعين السلطان تجريدة . ثم انه قبض على جماعة من المباشرين ووزع عليهم مالا له صورة بسبب أمر التجريدة . فقبض على الشهابي أحمد ناظر الجيش وسلمه الى الأمير طراباي رأس نوبة النوب فعرضه للضرب غير ما مرة حتى أورد ما قرر عليه من المال . وقبض على صلاح الدين بن الجيعان ووكل به بالقلعة ، وقبض على فخر الدين بن العفيف كاتب الممالك ، وقبض على موفق الدين بن القمص القبطي ووكل به بالقلعة ، وقبض على عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة وقرر عليه مالا له صورة فلم يثر به ١ فضربه بالحوش ضربا مبرحا ، وضرب أيضا موفق الدين بن القمص وفخر الدين كاتب الممالك . وقبض أيضا على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاسطبل ، فأقام هؤلاء في الترسيم والضرب حتى غلقوا ما قرر عليهم من المال .

ثم في أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر الصوفي رجع الى بلاده وخمدت فتنته وبطل أمر التجريدة . ولكن استمرت المصادرات عمالة في المباشرين وغير ذلك .

ومن الحوادث أن في ليلة السبت ثالث عشرين هذا الشهر ، هجم المنسر على سكان المسطاحي

(١) أي : فلم يستطع الوفاء به .

فلما طلع الأمير أخطم والناصرى محمد بن خاص بك الى القلعة ووقفوا بين يدي السلطان ، وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازاني وابن سبع . ثم رسم بادخال أخطم الى قاعة البحرة ورسم أيضا على الناصري محمد بن خاص بك ووكل به ، ثم أرسل بالقبض على قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ووكل به ، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع ، وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه ، فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل .

وكذلك قبض السلطان على أزدر المهندار ، قيل ان يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم ذنب واستمر الحال على ذلك .

وفي الثلاثاء خامس صفر توفي جانبلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن في تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته في التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفي تاسع صفر رسم السلطان باخراج أخطم منفيا الى ثغر دمياط فنزل من القلعة بعد العشاء ، وتوجهوا به الى البحر ، وسار في مركب الى دمياط وهو مقيد بقيد ثقيل . وأما قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة ، فرسم السلطان بنفيه الى قوص ، وكان بيت تقيب الجيش هو وأزدر المهندار ، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى . ثم بعد أيام خلع السلطان على القاضي عبد البر وأعادته الى القضاء على عادته ، وشفع في أزدر المهندار أيضا .

وأما الناصري محمد بن خاص بك فانه أقام في التوكيل مدة أيام وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير

في الترسيم بسبب ما قرر عليه من المال ، وقد أشرف على تغليق ذلك .

وفي يوم الخميس خامسه ، خلع السلطان على الأمير سودون العجمي وقرره في أمرة مجلس عوضا عن أصطمر بن ولى الدين بحكم توجهه الى دمياط .

وفيما بعد توفي الجمالى يوسف بن الزرايرى — كاشف الوجه القبلى ، وتولى الوزارة أيضا — بالمقشرة مغضوبا عليه وقاسى شدائد ومحنا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالحوش واجتمع به القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة . ومن الحوادث أن في ليلة تفرقة الجامكية ، طلع حمل المال من حارة زويلة وقت صلاة الفجر ، فلما وصلوا به الى رأس البندقانيين في أثناء الزقاق المظلم خرج عليهم جماعة من الأتراك في زى العرب ، فحاشوا البغل الذى عليه المال برسم الجامكية واقتلعوه من الموكل به ، وربما أشيع قتله ، فأخذوا البغل بماعليه من المال ومضوا ، ولم تنتطح في ذاك شاتان . وكان قدر المبلغ اثني عشر ألف دينار مما جمعه على بن أبى الجود من وجوه المصادرات بالضرب والحبس لأعيان التجار ومشاهير الناس وغير ذلك ، فذهب ذلك المال ولم ينتفعوا به ، فكان كما يقال :

« لست أعطى في حرام أبدا الا حراما »

وفي أواخر هذا الشهر أكمل السلطان نفقة البيعة على الجند ، وقد طاولهم نحو من سنة ونصف سنة وهو يحتج بجمع المال ، حتى راج أمره في السلطنة وتمت قواعد دولته ، وكان هذا بتدبير الأتابكى قيت الرحبى حتى خمدت تلك الفتن القائمة .

التي بجوار قنطرة الحاجب ، فقتلوا من الخفراء واحدا ونهبوا عدة بيوت ، ثم دخلوا الى الجسر الذى بجوار بركة الرطللى ، وكان النيل في قوة الزيادة والجسر عامرا بالسكان ، فخطفوا عدة عمائم وشدود ، وكانوا نحوا من ستين رجلا ومعهم قسى ونشاب ، فحططوا تلك الليلة في الجسر والمسطاحى وقام العياط من الطيقان وكانت ليلة مهولة .

فلما بلغ علان والى القاهرة ما جرى بالجسر تلك الليلة ، أخذ جماعة من المماليك وساق خلف المنسر بطول الليل ، فظفر منهم بثمانية أنفس فقبض عليهم من ناي وطنان وهرب الباقيون . فلما طلع النهار وصل بهم الى باب القلعة ، ثم عرضهم على السلطان فرسم بشنقهم على قنطرة الحاجب فسروهم على جمال ، وطاقوا بهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود ، فأتوا بهم الى قنطرة الحاجب ، فشنق منهم جماعة ، ووسط منهم جماعة ، وانطلقت لهم الزغاريت من النساء . ولبس علان الوالى خلعة حافلة في ذلك اليوم لكونه بيض وجهه وقبض على المنسر في ليلته ، وعد ذلك من النوادر ، كما يقال :

كأن فجاج الأرض يملك ان يسر

بها خائف تجمع عليه الأنامل

فأين يفر المرء منك بجرمه

إذا كان تطوى في يديك المراحل

وفي يوم الاثنين ، خامس عشرين هذا الشهر ، كانت وفاة القاضى بدر الدين محمد النويرى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما لا بأس به .

وفي ربيع الأول في مستهله أفرج السلطان عن صلاح الدين بن الجيعان ونزل الى داره ، وكان

ومن الحوادث أن في يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير أزدمر الدوادار الى القلعة وقت صلاة الصبح ، فلما وصل الى باب القلعة التي بالقلعة ، لم يشعر الا وقد جاء سهم نشاب من بعض طباق المماليك ، فجاء السهم من تحت ابطه فأخرق الملوطة التي عليه . فلما جرى ذلك أخذ السهم النشاب ، ودخل به الى السلطان وقال له : « ان كنت تقصد قتلى فلا تخلى المماليك الجلبان يقتلونى » فحلف السلطان على المصحف الشريف أن لم يكن له علم بذلك ولا جرة . ثم بعث خلف أغوات الطباق ، وضرب منهم جماعة ، وقرره عن فعل ذلك ، فأسفرت القضية على أن شخصا من المماليك ، قيل هو أخو الأتابكى قيت الرحبى ، الذى فعل ذلك . فأمر السلطان بنفيه الى الشام فخرج من يومه ، وكان هذا المملوك من شرار المماليك وقيل له عدة قتلى .

وفي ربيع الآخر — في يوم مستهله — طلع ابن أبى الرداد ، وثبت النيل المبارك على خمس أصابع من عشرين ذراعا ، وكان في العام الماضى أرجح من ذلك .

وفيه كسفت الشمس عند طلوعها وقت الاشرار وأقامت على ذلك ساعة حتى انجلت .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة نائبها قانصوه خمسمائة ، وكان أصله من ممالك يشبك الدوادار ، وكان لا بأس به .

وفي ليلة الأحد رابع عشره خسف جرم القمر أيضا ، فكان بين كسوف الشمس وكسوف القمر أيام قلائل ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من أهل حلب انكسر عليه مال ، فشنقه على باب زويلة وهذا أول ما نفذه من أمر القتل في أيام دولته .

وفيه أفرج السلطان عن فخر الدين كاتب المماليك وكان له مدة في الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال ، واستتر على وظيفته .

وفيه خلع السلطان على تانى بك النجمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وقرره في نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بشنق التاجر ابن الملقى وشخص آخر من الأتراك قيل انه كان خازندارا لجانى بك الشامى ، وكان جانى بك الشامى مختفيا فلم يقر بسكانه فسمره السلطان على جمل هو وابن الملقى ونزلوا بهما من القلعة ، فأرسل الأتابكى قيت شفيع فيهما فتوجهوا بهما الى المقشرة فسجنوا بها .

وفيه قبض السلطان على محمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وسجنه بالعرقانة بسبب مال قد انكسر عليه ولم يقم به .

وفيه غمز على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى في مكان عند المدرسة القجماسية ، فتوجه اليهما علان والى القاهرة وهجم ذلك المكان وكانا في ربح هناك ، فقبض على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى وعلى صاحب البيت الذى كانا فيه ، وكان صاحب البيت يبيع البطيخ ، فلما قبضوا عليهما وطلعوا بهما الى القلعة ، رسم السلطان بتوسيطهما عند سلم المدرج ، فوسطوا خاير بك اللامى وجانى بك الشامى هناك ، ثم رسم السلطان بشنق صاحب البيت الذى وجدوا فيه ، فشنق على دكانه وراح ظلما ، فكان كما يقال :

من لا تجانسه احذر تجالسه

فالشمع آفته من صحبة القتل

وكان أصل جانى بك الشامى ، وخاير بك اللامى ، من ممالك الأمير أقبردى الدوادار ، وكانا يعرفان بالشجاعة والاقدام في الحرب ،

لا يفزعان من الموت . فلما تسلطن العورى قبض عليهما وقيدهما وسجنهما في البرج الذى بالقلعة . فلما كان ليلة وفاء النيل في عام سنة سبع وتسعمائة تسجبا من البرج ، وكسرا قيودهما وقتلا السجناء ونزلا من القلعة وقت الظهر والناس مقيمة ، واستمرا في اختفاء وهما بالقاهرة ، فكان السلطان والأمراء على رؤوسهم الطيرة منهما ولا سيما الأمير طراباى . وصار الوالى يكبس البيوت والحارات لأجلهما ، واستمروا على ذلك مدة طويلة حتى ظفروا بهما ، وجرى منهما أمور غريبة في مدة اختفائهما ، حتى قيل انهما اللذان قطعا الطريق على حمل الجامكية وهو خارج من حارة زويلة وقد تقدم ذكر ذلك ، وكانت الأمراء فى وجل منهما .

ومن الحوادث أن الأمير طقطباى الأستاذار ، حسن للسلطان أن يبطل المعتدات التى كانت فى الديوان المفرد ، فأضر ذلك بحال المقطعين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وألبسه خلعة ونزل الى داره ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى التوكل به فى بيت الأمير طراباى بسبب المصادرة كما تقدم ، فباع أملاكه وغيظه الذى أنشأه بفهم الخور ، وباع أشياء كثيرة من وقف والده حتى سد ذلك القدر الذى قرر عليه .

وفيه أفرج أيضا عن الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى الترسيم ببيت الأمير قرقماس أمير سلاح ، حتى أورد ما قرر عليه من المال وهو خمسة عشر ألف دينار ، وكان فى هذا الأمر مظلوما .

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السلطان على ابن أبى الجود وقرره فى نظر الأوقاف عوضا عن محمد بن يوسف ، فتزايدت عظمة على ابن أبى الجود ، ولبس الطوق وركب

الخيول بالأخفاف والمهاميز وصار يعد من جملة رؤساء مصر ، فاجتمع فيه وكالة بيت المال ، ونظر الأوقاف ، وبرددارية السلطان ، وتكلم فى ديوان الوزارة والأستادارية وديوان الخاص ، وغير ذلك من الوظائف ... فاجتمعت فيه الكلمة ، وتصرف فى أمر المملكة بما يختار ، وقمع سائر المباشرين ، وصار فى خدمته الناس قاطبة ، ولا يحتمى عليه أحد من التجار ولا المباشرين ... فأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، حتى فاق على هناد الذى أحدث المظالم . فكان الناس على رؤوسهم طيرة منه ، ودخل فى قلوبهم الرعب الشديد بسببه ، فكان العبد يرفع سيده ويشكوه من باب على بن أبى الجود ، فيتتصف العبد على سيده . وكذلك المرأة اذا تخاصمت مع زوجها تشكوه من باب على بن أبى الجود . وكان من له عدو يشكوه من بابه ويكذب عليه ، ويقول : « هذا لقي مال » ، فيسلب نعمة ذلك الرجل ، ويأخذ منه ما لا يقدر عليه . فأطلق فى الناس النار ، وصار على بابه نحو من مائة رسول . فكانت أرباب الصنائع تترك أشغالها ويعملون رسلا على باب ابن أبى الجود ، وصار غالب الناس لا يشكون خصماءهم الا من باب على بن أبى الجود ، حتى صار بابه أعظم من أبواب أرباب الوظائف من الأمراء المقدمين . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق على بن أبى الجود ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذه الأيام تزايد ظلم على بن أبى الجود ، حتى شاع ذكره فى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وفى بلاد الشرق من ديار بكر وغير ذلك من البلاد ، بسبب مصادرات تجار الأروام وجوره عليهم ، وكان السلطان قرر على بن أبى الجود فى كل شهر اثنى عشر ألف دينار يردها على الجوامك ليس تحتها جهة من الجهات ، وانما هى من أبواب المظالم

فطاش ابن أبي الجود في تلك الأيام الى الغاية ،
وعادى أرباب الدولة قاطبة ، من أمير ومباشر وغير
ذلك حتى ملوك الشرق لأجل تجار الأروام مما
يشكون منه من كثرة المصادرات لهم ، وكان هذا
كله دمارا في حقه ، كما قد قيل :

أقول له اذ طيسته رياسة
رويدك لا تعجل فقد غلط الدهر

ترفق يراجع فيك دهرك رأيه
فما سدت الا والزمان به سكر
وقد قلت فيه أيضا :

بالذي أركبك البغلة بعد المشى حافي
وكسا جسمك بعد العرى خزا ونصافي

لا يكن خلقك يوما يا علاء الدين جافي
وكان أصله سوقيا من الصليبية ، قيل في الأمثال :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

وكان أبوه أصله نجارا ، يقال له المعلم حسن ،
ثم يعلق على صنعة الحلوى ، وسمى نفسه « أبو
الجود » ، وأقام مدة طويلة يبيع الحلوى على باب
حمام شيخو ، واستمر على ذلك حتى مات ،
فاستقر ابنه على في دكانه ، وكان يلقى المشبك بيده
في رمضان ، واستمر على ذلك مدة طويلة ، ثم انه
تكلم في بعض جهات الوزر ، وأبطل بيع الحلوى ،
ثم بقي برددارا عند تغرى بردى الأستاذار ، ثم
سعى في برددارية الأمير طومان باي لما كان دوادارا
كبيرا ، فلما تسلطن وقرر في الدوادارية الكبرى
الأمير قانصوفا الغورى سعى عنده في البرددارية ،
فلما تسلطن الغورى حظى عنده وطاش وجرى منه
ما تقدم ذكره ، وجار على الناس بالظلم ، حتى
أخرب تغر الاسكندرية ، ودمياط ، وبندر جدة ،
وغير ذلك من الثغور ، بسبب مصادرات التجار ،

فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ ، وتضاعف
أمر المكوس جدا حتى جاوزت الحد في ذلك ،
فهابت الناس على بن أبي الجود قاطبة وصارت
له حرمة وافرة بمصر ، فكان كما يقال في المعنى :

إذا ما اللثيم رقا رتبة
تملق له وانتظر وضعها

وقبل يديه إذا مدها
إذا كنت لم تستطع قطعها
وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن
عثمان ملك الروم ، وصحبته مقدمة حافلة الى
السلطان ، فأوكب السلطان في ذلك اليوم موكبا
عظيما بالحوش ، وكان يوما مشهودا ،

وفي جمادى الآخرة ، عزم السلطان على قاصد
ابن عثمان في الميدان الذي تحت القلعة ، وأحضر
في ذلك اليوم عدة ممالك يرمون بالنشاب على
الخيول ونصب لهم هناك القبق يرمون عليه ، وأحرق
النفط بالنهار قدام القاصد ، وكان يوما مشهودا .
وفيه رسم السلطان بشنق شخص من مشايخ
عربان بنى وائل يقال له شرف الدين بن موسى ،
فشنقه على باب زويلة .

وفي سابع عشرينه كانت وفاة الشيخ العارف
بالله برهان الدين ابراهيم المواهبي الشاذلي ، تلميذ
الشيخ العارف بالله أبي الصفا محمد بن أحمد بن
محمد التوئسي الشاذلي الوفائي ، المعروف بأبي
المواهب ، قدس الله روحه . وكان الشيخ ابراهيم
علما فاضلا ، ورعا زاهدا ، من أعيان مشايخ
الصوفية ، وكان لا بأس به .

وفي رجب في خامسه توفي الأمير طقطبای بن
ولي الدين أحد المقدمين الألوف ، وزير الديار
المصرية وأستادار العالية ، وكان ظالما غاشما كثير

الأذى جاهلا لا يعرف الحلال من الحرام ، وهو الذى كان سببا لقطع المعتدات التى كانت تخرج من الديوان المفرد ، وكانت الملوك تسامح بذلك فى الدولة الماضية ، فقطع ذلك فى هذه الدولة ، وحصل للمقطعين بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه — فى يوم السبت خامس عشره — توفى الأمير خشكلى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا من ذوى العقول ، تولى من الوظائف رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم صرف عن أمرة مجلس وبقى مقدم ألف ، ومات عقيب ذلك ، وقاسى فى أثناء عمره شدائد ومحنا ونفى الى الشام ، وأقام بها مدة طويلة ، ثم عاد الى مصر وبقى أمير مجلس ، ومات فى عشر السبعين من العمر ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره توجه الأمير أزدمر الدوادار الى نحو قناطر العشرة ، وكان فى زمن الربيع ، فعزم على قاصد ابن عثمان هناك ومد له أسمطة حافلة ، وأظهر العظمة من الفتك هناك الى الغاية ، وأقام من يوم الثلاثاء الى يوم السبت وهو فى أرغد عيش ثم عاد الى داره .

وفيه عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان ، وأضافه وألبسه خلعة السفر .

وفيه ، فى يوم الأحد ثالث عشرينه ، توفى الأمير شاد بك الفهلوان ، أحد الأمراء العشراوات ، مات فجأة ، وكان لا بأس به .

وفى شعبان خلع السلطان على الأمير أزدمر الدوادار ، وقرره كاشف الكشاف مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره توفى والدى المرحوم الشهابى أحمد ابن المرحوم اياس الفخرى بن جنيد ،

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وقرر دوادارا ثانيا فى دولة الناصر فرج بن برقوق . وأما والدى فانه عاش من العمر نحو من أربع وثمانين سنة ، وجاءته من الأولاد خمسة وعشرون ولدا ما بين ذكور وإناث ، غير المسقوط ، وعاش له من ذلك ثلاثة أولاد صبيان وبنت ، وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير أبناء الناس .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى برمش ، وقرره فى الوزارة عوضا عن طقطبى بحكم وفاته ، وقرر الأمير تغرى بردى فى الأستادارية عوضا عن طقطبى أيضا . وكان على بن أبى الجود هو المشار اليه فى الديوانين وتزايدت عظمته جدا .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الجازانى ابن أمير مكة تحارب مع أخيه الشريف بركات فكسره ، ثم ان الجازانى جمع عربان بنى ابراهيم وهجم على مكة ولعب فى أهلها بالسيف ، ونهب أموال التجار والسرقات التى بمكة ، فكان الشخص الواحد من بنى ابراهيم اذا غرس رمحه على باب بيت من بيوت مكة ، أو سرحة ، فيملك جميع ما فيها من قماش أو بضائع أو بهار ، ويخرج صاحب البيت بمفرده لا مال ولا قماش وربما يقتلونه .

ثم ان الجازانى هجم على تانى بك الجمالى الذى كان أتابك العسكر بمصر ونفى الى مكة ، فلما هجم عليه طلب منه مالا فاعتذر عن ذلك ، فربط خصيته بوتر واستمر يعاقبه الى أن مات ، وأخذ ماله .

وهجم على الناصرى محمد بن جانم نائب الشام ، فأخذ ما فى داره من أثاث وقماش وغير ذلك ، فمات الناصرى محمد بن جانم من الرجفة

عقيب ذلك ، هو وأمه خوند الجركسية زوجة
الظاهر جقمق .

وهجم على الشهابى أحمد ابن العينى ، وكان
مجاورا بمكة ، فنهب جميع ما فى داره ، وهرب
ابن العينى هو وعياله الى نحو المدينة الشريفة .

وهجم على دولات باى السيفى قن بك باش
المجاورين ونهب جميع ما فى داره ، وقتل جماعة
كثيرة من المجاورين ، ومن أهل مكة نحو من
سبعمائة انسان ، حتى هرب غالب أهل مكة ،
وحضر الى القاهرة من البحر الملح ، والذين تخلفوا
بمكة اشتروا أنفسهم منه بمال جزيل ، وكانت واقعة
الجازانى من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد قلت
فى المعنى :

تقول مكة واحرباه

مما جرى من جازانى

سيأخذو ربي وأقول

هذا جزاء من جازانى

وقد كادت مكة أن تخرب فى هذه الواقعة عن
آخرها ، وتقرب واقعة الجازانى من واقعة أبى
ظاهر القرمطى ، وما فعله بمكة من النهب وقتل
الناس ، وكان ذلك فى زمن الخليفة المقتدر بالله
خليفه بعداد ، سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وقد انقطع
الحج من بعداد وغيرها من البلاد نحو من تسع
عشرة سنة لم يحج فيها أحد الى مكة ، وانقطع
بسبب ذلك هذه المدة ، وكانت هذه الواقعة من
أعظم المصائب الكبار ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا
فى الجزء الثانى من تاريخ الخلفاء .

فلما بلغ السلطان هذه الأخبار اضطربت
أحواله الى الغاية ، وعين الأتابكى قيت الرحبى
أمير ركب المحمل ، وعين أنص باى أحد المقدمين
بالركب الأول ، وعين صحبتهم نحو من ستمائة

مملوك من المماليك السلطانية ، ثم بعد أيام أنفق
على المماليك المعينة الى مكة ، لكل مملوك مائة
دينار . وأخذوا فى أسباب عمل بركهم الى السفر ،
ثم ان السلطان رسم لأقباي كاشف الشرقية ، بأن
يرمى على بلاد المقطعين جمالا بسبب التجريدة
المعينة الى مكة ، فشرع يرمى على كل بلد جملين أو
ثمن ذلك خمسين دينارا ، فأضر ذلك بحال المقطعين ،
وقطع هذا القدر من خراجهم ، وخربت عدة بلاد
بسبب ذلك .

وفى رمضان عرض السلطان المحاييس من الرجال
والنساء وأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب
الجرائم على حالهم .

وفى يوم السبت ، سابع عشرين ورمضان ، عرض
السلطان كسوة الكعبة الشريفة والمحمل وخلع
العيد ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخ هذا الشهر تغير خاطر السلطان على
العلاء على بن أبى الجود ، ووكل به بطبقة
الخازندار ، ثم قبض على حاشيته وغلماؤه ، وختم
على حواصله ويوته ، ورسم على نسائه ، وأحاط
به البلاء من كل جانب . وكان هذا آخر سعادته
وأول عكسه ، فكان كما يقال :

إذا كنت فى نعمة فارعها

فإن المعاصى تزيل النعم

وإذا تم أمر بدا نقصه

توقع زوالا إذا قيل تم

واستمر على بن أبى الجود فى التوكل به مدة
أيام ، حتى كان من أمره ما سذكره فى موضعه .

وفى شوال أشيع أمر الركوب على السلطان ،
ووزع الناس قماشهم فى الحواصل ، فلما بلغ

السلطان ذلك أحضر المصحف العثماني ، وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة قاضي القضاة المالكي برهان الدين الدميري ، فلما حلفوا حلف هو لهم أيضا أنه لا يسك منهم أحدا بغير ذنب ، وحلف بعد ذلك المالكين الذين في الطباق طبقة بعد طبقة على المصحف العثماني ، فسكن الأمر قليلا وتمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفيه خلع على قانصوه اليحيياوي الذي كان أتابك العساكر بغزة ، وقرره في نيابة حماة عوضا عن جانم الذي كان بها .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خلع على علاء الدين ابن الامام ، وقرر في نظر الأوقاف مضافا لما بيده من نظارة الخاص ، وكانت نظارة الأوقاف بيد علي ابن أبي الجود .

وفيه خلع على معين الدين بن شمس وقرر في وكالة بيت المال عوضا عن علي بن أبي الجود ، فاجتمع مع معين بن شمس وكالة بيت المال ونظر اليمارستان المنصوري فعظم أمره جدا .

وفيه خلع على الحاج بركات بن موسى وكان أبوه موسى من العرب وأمه تسمى عنقا ، ثم بقي ركاب الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، فاستقر برددار السلطان ومتحدثا على جهات البهار ، وغير ذلك من أمور الملكة ، عوضا عن علي بن أبي الجود . وهذا أول ظهور بركات بن موسى ، واشتهاره في الرياسة ، فعظم أمره جدا وصار معدودا من أعيان رؤساء مصر ، وتزايدت عظمته من بعد ذلك حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه ، فكان كما يقال في المعنى :

هذا الزمان على ما فيه من كدر
من انقلاب ليليه بأهليه
غدير ماء تراءى في أسافله
أشخاص قوم قياما في أعاليه

وكان بركات بن موسى من جملة صبيان البزادرة الذين يحملون الطير على أيديهم .

ثم ان السلطان سلم على بن أبي الجود الى الحاج بركات بن موسى ليعاقبه ، ويستخلص منه الأموال ، فنزلوا بابن أبي الجود من القلعة وهو في الحديد ، وتوجهوا به الى دار بركات بن موسى .

وفي يوم الاثنين في العشرين منه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأتابكي قيت الرحبي ، وبالركب الأول أنص باي أحد المقدمين ، ثم نادى السلطان في القاهرة بأن امرأة لا تحج في هذه السنة خوفا على الحجاج من فساد العربان ، وقد تقدم ما فعله الجازاني بمسكة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشرينه عرض السلطان على بن أبي الجود بالحوش ، وضربه بالمقارع عشرين شبيبا حتى خرق جنبه ، وأشرف على الموت ، فلم يرث له أحد من الناس ، بموجب ما كان يفعله من أنواع المظالم بالناس ، وقد أخذ من الجانب الذي كان يأمن اليه .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه خرج الأمير أزدمر الدوادار الى نحو جبل نابلس بسبب جمع الأموال من مشايخ عربان نابلس ، كما كان يصنع الأمير أقبردي الدوادار ، فتوجه الأمير أزدمر وصحبته جماعة من الأمراء العشراوات والممالك السلطانية .

وفيه خرج الأمير قرقماس أمير سلاح ، وتوجه الى نحو المنزلة بسبب حفر فم البحر الصغير ، الذي تروى منه جهات المنزلة وما حولها .

ومن الحوادث ، أن في أواخر هذا الشهر هجم المنسر على سوق جامع أحمد بن طولون ، وكسر في تلك الليلة نحو من أربعة وعشرين دكانا ، ونهبوا ما فيها من قماش وغير ذلك ، فلما جرى ذلك وقف جماعة من التجار ممن أصيب في ماله الى السلطان ، وشكوا له مما أصابهم من أمر نهب

الدكاكين وذهب أموالهم . فلما وقفوا الى
السلطان ، رسم للوالى بتحصيل غرمائهم ، فلا زال
يفحص عن فعل ذلك ، حتى قبض على جماعة
منهم نحو من عشرين نفرا من المنسر ، فوسطهم
الوالى فى وسط سوق جامع ابن طولون ، ولبس
علان الوالى خلعة بسبب ذلك .

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل على بن
أبى الجود الى بيت الوالى ليعاقبه ، فلما تسلمه
الوالى عصره فى رجليه ويديه ، حتى أورد بعض
شئ من المال الذى قرر عليه .

وفى هذا الشهر تزايد الفساد من العربان
والعشير فى جهة الشرقية والغربية ، وجهة الصعيد ،
حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدي
المقطعين ، فعند ذلك جمع السلطان الأمراء فى
الدهيشة ، وضربوا مشورة بسبب فساد أحوال
البلاد الشرقية والغربية ، فعين فى ذلك اليوم
جماعة من الأمراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان
وطردهم عن البلاد ، فعين طراباى رأس نوبة النوب
الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية ،
وعين الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة
الشرقية ، وعين خاير بك حاجب الحجاب ، وقانصوه
ابن اللوقا أحد الأمراء المقدمين ، الى جهة الصعيد ،
وعين أزبك المكحل أحد المقدمين ، ودولات باى
قرموط أيضا ، بأن يتوجها الى جهة البحيرة ،
فخرج هؤلاء الأمراء وصحبتهم الجم الغفير من
العسكر ، ثم بعد أيام جاءت الأخبار بأن عربان
الشرقية قد كسروا الأمير قانى باى أمير آخور
كبير ، وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه ، فعند ذلك
أرسل له السلطان نجدة ، فعين الأمير تمر
الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ومعه جماعة من
المماليك السلطانية فتوجهوا اليه .

وفى سابع عشره — الموافق لثامن عشر بشنس
القبلى — فيه خلع السلطان الصوف ، ولبس
البياض ، وابتدأ بضرب الكرة . وكان غائبا من
الأمراء المقدمين ثلاثة عشر أميرا ، فجماعة منهم الى
جهة الحجاز ، وجماعة مفرقة فى البلاد الشرقية
والغربية والصعيد وغير ذلك من البلاد . ثم ان
الأمراء الذين توجهوا الى محاربة العربان ، صاروا
يقطعون رءوس شبان العرب ، ويرسلونها الى
القاهرة فى شلف التبن على الجمال . وأشيع عن
الأمير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان
بالمشمار من رءوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم
جماعة كثيرة وراح الصالح مع الطالح حتى مهدوا
البلاد ، وقتل من العربان زيادة على ألفى انسان .
فمن يومئذ سكن الاضطراب انذى كان بالشرقية
والغربية قليلا ، وخف أمر العشير الذى كان
طافشا فى البلاد .

وفى ذى الحجة حضر الى الأبواب الشريفة
جانم الذى كان نائب حماة وانفصل عنها ،
فأكرمه السلطان وأمره بالاقامة فى القاهرة .

وفى ليلة عيد النحر من هذا الشهر ، انتهى
العمل من بناء مدرسة السلطان التى أنشأها فى
الشرابشين ، فعمل هناك فى تلك الليلة وليمة
حافلة ، وحضر فيها الخليفة المستمسك بالله
يعقوب ، والقضاة الأربعة ، واعيان الناس من
المباشرين والأمراء . وحضر فى تلك الليلة قراء
البلد والوعاظ ، ومد أسمطة حافلة ، وعمل
هناك وقدة حافلة ، وزينت الدكاكين التى هناك
من باب زويلة الى الشوايين ، وعلقت تنانير بها
قناديل موقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى
المشهودة .

وكان أصل من بنى أساس هذه المدرسة الطواشي « مختص » الذي كان رأس نوبة السقاة في دولة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد . فلما تسلطن قانصوه الغورى ، تغير خاطره على مختص ، فقبض عليه وصادره ، وقرر عليه مالا له صورة ، فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر عليه من المال ، وكان بنى منها بعض شئ . فلما ملكها الغورى ، هدم ما بناه مختص ، ثم أوسع في بنائها ، وأخذ سوق الجملون وما حوله من الأسواق ، وتناهى في زخرفها ورخامها وبنائها ، فجاءت في غاية الحسن والظرف والرونق ، بحيث لم يعمر في عصرنا مثلها . ولكن شنت عليه الناس ، أن مصروف عبارة هذه المدرسة ، كان من وجوه المطالم ومصادرات الناس ، وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى ، وأخذ رخامها وأبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات . وقد سعى بعض اللطفاء هذه المدرسة « المسجد الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ، ومصروف العبارة من مال فيه شبهات . وقد شنع الناس قبله على المؤيد شيخ ، لما بنى جامعته الذى بجوار باب زويلة ، أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس ، فكان كما قيل :

ومن سوء حظ المرء في الدهر أنه

يلام على أفعاله وهو محسن

ثم ان السلطان رسم باستبدال قيسارية الأمير على التى تجاه جامعته ، وكانت جارية في أوقاف المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، فلما استبدلها من الجكندار شخص يقال له « بره » هدمها وبنى مكانها القببة والمدفن والصهريج والسبيل

وغير ذلك من الأماكن التى استجدها ، وقد قلت في معنى ذلك :

بنى الأشرف الغورى للناس جامعا

فضاع ثواب الله فيه لطالبه

كمثل حمام جمعت في شباكها

متى ألق عنها طار كل لصاحبه

وفيه حضر الناصرى محمد بن قانصوه البرجى نائب الشام ، وكان السلطان وقع بينه وبين أبيه ، فحضر وعلى يده مقدمة حافلة ، وشرع يستعطف خاطر السلطان ، وكان السلطان منع المكاتبة اليه من المراسيم وغيرها ، فلما حضر ابن نائب الشام ، خلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل بدار عمه خاير بك حاجب الحجاب .

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه ، حضر مبشر الحجاج وأخبر أن الأتابكى قيت طرد عربان بنى ابراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه ولم يقابله ، وأنه مهد مكة وقبض على بركات وأخيه قايتباى ، وجماعة من اخوته ، ووضعهم في الحديد وهو واصل بهم . فلما تحقق السلطان ذلك ، أمر بدق الكوسات بالقلعة ، وعلى أبواب الأمراء ، ونادى في القاهرة بالزينة سبعة أيام ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ، وأقامت مزينة سبعة أيام ، وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا من كبار علماء الحنفية ، ومات وهو في عشر السبعين من العمر ، وكان الأشرف قايتباى أخرج مشيخة الجامع المؤيدى عن أولاد الديرى ، وقرر بها الشيخ سيف الدين الحنفى ، فلما مات قرر بها شمس الدين بن الدهانة . وكان المؤيد شيخ قرر

بها شمس الدين الديري ، وجعل مشيخة هذا الجامع بيد أولاد الديري ، واستمروا على ذلك الى دولة الأشرف قايتباي . فلما توفي قاضي القضاة برهان الدين بن الديري ، أخرجت مشيخة الجامع عن أولاد الديري الى جماعة كثيرة من الحنفية ، واستمروا على ذلك الى أن تسلطن الغوري فأعاد المشيخة الى الشيخ بدر الدين بن الديري كما كان أولا ، فعاد ذلك من محاسن الغوري ، واستمر بها الشيخ بدر الدين الى أن مات ، فخلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشيخ حسين الشريف الحنفى ، فقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن الشيخ بدر الدين بحكم وفاته ، واستمر بها الى الآن .

سنة تسع وتسعمائة (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) :

فيها — فى المحرم — جاءت الأخبار من مكة بأن الأتابكى قيت قد قبض على الجازانى ، ففرح السلطان لهذا الخبر ، ونادى فى القاهرة باعادة الزينة . ثم ظهر بأن هذا الخير ليس له صحة ، وهو باطل ، ولم يقبض على الجازانى ، فشق على الناس اعادة الزينة حين راحت فى البطال .

وفيه خرج الأمير تانى بك الخازندار الذى تعين قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان .

وفيه قبض شيخ العرب نجم ، على شخص من العرب العصاة من مشايخ بنى حرام ، يقال له علاء الدين بن قرطام ، فلما قبض عليه قطع رأسه وأرسلها الى القاهرة ، ، وقد قبض عليه من جبل الطور ، وحز رأسه هناك وبعث بها الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ، ثم نقلت الى خانقة سرباقوس فعلقت بها أباما . وقد عد قتل

ابن قرطام من النوادر ، فانه كان فى تحصيله فرصة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه رسم السلطان بشنق على بن أبى الجود ، فشنق على باب زويلة ، واستمر معلقا ثلاثة أيام ، لم يدفن حتى تن وجاف ، ثم نزلوا به ودفن ، ولم يرث له أحد من الناس ، ولا ترحم عليه ، مما سبق منه فى حق الناس من الأفعال الشنيعة كما تقدم ذكر ذلك . وكان السلطان استصفى أمواله ، وعاقبه وعصره ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار ، وقاسى شدائد ومحن ، وكان قد طاش وركب فى غير سرجه ، وكثر فى الناس هرجه ، فأغواه الشيطان ، حتى أطاع أمر السلطان . ثم انه انقلب عليه ، وأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه . فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وفى صفر — فى يوم الثلاثاء ثامن — كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى تاسع مسرى ، فتوجه الأمير سودون العجمى أمير مجلس ، وفتح السد على العادة ، وكان الأتابكى قيت اغائبا فى مكة كما تقدم .

وفى الخميس عاشره ، دخل الأمراء الذين قد توجهوا الى الشرقية والغربية بسبب فساد العربان كما تقدم .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة الميدان الذى تحت القلعة ، فعلى حيطان سوره ، ورمى فى أرضه الطين الكثير قدر أربع أذرع ، وجعل ذلك فى

الجهة الغربية من الميدان ، ثم ساوى أرضه وفرش بها النقارة . ثم شرع فى بناء مقعد وبيت بالميدان برسم المحاكمات ، وأنشأ فى الجهة الغربية من الميدان قصرا حافلا ، ومنظرة ، وبحرة ، وغير ذلك من البناء الفاخر . ثم شرع فى نقل أشجار من سائر الفواكه وأصناف الأزهار والرياحين وغير ذلك ، فغرست بالميدان فى الجهة الغربية ، ثم أجرى إليه المياه من السواقى التى بباب القرافة ، وأجرى إليه المياه أيضا من السواقى التى بحدره البقر . ثم أنشأ قصرا على باب الميدان مطلا على الرملة ، وصنع ممشاة من القلعة الى الميدان بسلام متصلة الى ذلك القصر المطل على الرملة ، وجعل للميدان بابا كبيرا ، وعليه سلسلة حديد ، وإلى جانبه باب صغير أيضا ، وعليه سلسلة من الحديد مثل الباب الكبير . ثم أمر بعمارة سبيل المؤمنين ، وعقد سقفه بالحجر النحيت ، وأنشأ الى جانبه حوضا وساقية ، وصنع هناك مغسلا برسم الأموات ، وميضة وغير ذلك مما ينتفع به . وقيل ان السلطان صرف على بناء هذا الميدان من مبدئه الى منتهاه نحو من ثمانين ألف دينار ، ولكن وقع له فى بناء هذا الميدان أمور غريبة لم تقع لأحد قبله من الملوك ، وكان غالب مواكبه به ، ووقع له به محاكمات غريبة ، وأوقات عجيبة ، يأتى الكلام عليها فى مواضعه .

* * *

وفى ربيع الأول — فى يوم الخميس ثانيه — دخل الأتابكى قيت الرحبى وصحبته الحجاج الذين حجوا معه تلك السنة ، فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان صحبته أولاد أمير مكة ، وهم الشريف بركات ، وأخوه قايتباى ، وبقية اخوته ، والوزير عنقا ، وأخوه ،

وهم الجميع فى زناجير حديد . فما شكر الأتابكى قيت على تلك الفعلة ، فلم يقدر على تحصيل الجازانى ، فقبض على اخوته هؤلاء ، وأحضرهم فى الحديد وعمل حكمه فيهم . وأظهر بمكة غاية الجور والمظالم ، وما حصل بتوجهه الى مكة خير ، بل تزايد أمر الفتنة التى كانت بين أولاد أمير مكة ، ووقع من بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها فى مواضعه ، فكان كما يقال :

حجبت البيت ليتك لا تحج

فظلمك قد فشا فى الناس ضج

حجبت وكان فوقك حمل ذنب

رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

فلما طلع الأتابكى قيت الى القلعة ، وعرض الشريف بركات واخوته على السلطان ، رسم بفكهم من الحديد ، ونزلوا مع الأتابكى قيت الى داره ، وأقاموا بها حتى كان من أمرهم ما سذكره فى مواضعه .

ولما دخل الحاج الى القاهرة أشيع بين الناس وفاة الشهابى أحمد بن العينى ، توفى بالمدينة الشريفة ، وكان لما توفى ولده الناصرى محمد توجه الى مكة وأقام بها نحو من ست سنين . فلما جرى من الجازانى ما تقدم ذكره ، فر منه الشهابى أحمد بن العينى الى المدينة الشريفة فأدركته المنية هناك ، فمات بها ودفن بالبقيع . وكان رئيسا حشما . وهو أحمد بن عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى رحمة الله عليه . وكانت والدته ربيعة الملك الظاهر خشتقدم ، فلما تسلطن رقى الشهابى أحمد بن العينى فى أيامه الى الغاية ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، حتى صار فى زمرة أولاد السلاطين . وأنعم عليه الظاهر خشتقدم بتقدمة ألف ، وهى مقدمة قائم التاجر لما قرر فى الأتابكية ، ثم بقى أمير آخور كبير

في المؤيدي لما قرر في الأتابكية بعد موت
ر قانم التاجر . ثم بقى أمير مجلس في دولة
رى بلباي ، لما قرر تمرىغا في الأتابكية ،
على ذلك حتى تسلطن الأشرف قايتباي ،
عليه وضر به كما تقدم ، واستصفى أمواله ،
منه فوق المائتى ألف دينار . وقاسى بعد
لظاهر خشقدم شدايد ومحن ، وآخر الأمر
طن الغورى أرسل يطلبه في الحديد ، فلما
الأتابكى قيت الى المدينة الشريفة وجده قد
وكان السلطان رسم للأتابكى قيت الرحبى
بض على ابن العيني ويحضر به في الحديد
خل المدينة وجده قد مات ودفن بالبقيع وكفاه
الغورى . وقد تقدم من أخباره ما يغنى عن

كان السلطان رسم للأتابكى قيت عند عوده
كة أن ينقل قانصوه الفاجر ، وقانم أخا
ر قانصوه ، من مكة الى القدس ، وكان
طان نقاهما الى مكة ، ثم بدا له نقلهما الى
ى ، فلما حضرا صعبة قيت شق ذلك على
طان وبعث بهما الى القدس ، ولم يقبل فيهما
ة . وكان من أمر قانصوه الفاجر ما سنذكره
وتسعه .

فيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
العادة ، وخلع السلطان على الأمير أنص باي
المقدمين ، وقرره أمير ركب المحمل ، وقرر
كب الأول تانى بك الأبح .

في ربيع الآخر - في يوم الجمعة مستهله -
ب في جامع السلطان الذى أنشأه في الشرايشيين
تم بناؤه وجاء غاية في الحسن والتزخرف ،
نعم به مئذنة لها أربعة رءوس ، وهو أول من
ذ ذلك ، وانتهى العمل من المدرسة التى تجاه

الجامع ، وعقد هناك قبة كبيرة على المدفن ، وغلفها
بقاشانى أزرق ، فلم ينطل ذلك على الناس . فكان
أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق
الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى ، فلبس
السواد وخطب ، وكان المرقى قدامه القاضى
عبد القادر القصرى . وحضر في ذلك اليوم الخليفة
المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، وهم :
برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد البر
ابن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى
المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى . وحضر
غالب الأمراء المقدمين ، وولد السلطان المقر الناصرى
وأعيان المباشرين قاطبة ، والجسم الغفير من الأمراء
العشراوات والخاصكية وأعيان الناس ، وزينت
الشرايشيين في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .
وخلع السلطان في ذلك اليوم ، على قاضى القضاة
عبد البر بن الشحنة ، لكونه حكم بصحة الخطبة في
هذا الجامع ، وخلع على اينال شاد العمارة خلعة
حافلة ، وأنعم عليه بأمرة عشرة ، وخلع في ذلك
اليوم على عدة وافرة من المهندسين والبنائين
والمرخين والتجارين وغير ذلك من أرباب الصناعات
ممن كان بالجامع ، وأنعم على الفعلاء لكل واحد
بألف درهم .

ثم في الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة
عبد البر بن الشحنة بأن يخطب بهذا الجامع ، فخطب
تلك الجمعة خطبة بليغة ، ولكن ميزوا خطبة قاضى
القضاة عبد البر عن خطبة ابن فرفور .

وفي ربيع الآخر ثبت النيل المبارك على احدى
عشرة أصبغا ، من تسع عشرة ذراعا ، وكان نيلا
شحيحا وشرق غالب البلاد ، ولكن ثبت الى
العشرين من توت .

وفيه حضر الأمير أزدمر الدوادار وكان مسافرا
الى جهة نابلس ، وكان صحبته ماماي جوشن ،

وقانصوه كرت ، فلما صعدا الى القلعة خلع عليه
السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على الأمير جانم وأعاده الى
نيابة حماة كما كان ، وصرف عنها قانصوه اليحياوى
الذى كان أتابك العسكر بغزة .

وفي جمادى الأولى ، نادى السلطان فى القاهرة
بأن أصحاب الدكاكين قاطبة يقطعون الطرقات من
الشوارع قدر الذراع بالعمل ، وكانت الطرقات قد
عليت جدا ، فلما رسم السلطان بذلك ، حصل
للناس الضرر الشامل بسبب الكلفة على ذلك ، وقد
استحثوا الناس فى سرعة العمل ، وعز وجود الترابية
وصار الطلب فى ذلك حثيثا ، وقد قلت :

من دولة النورى ومن جوره

لقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى من فعله ما جرى

من قلة الأمن وقطع الطريق

وفي خامس عشره خلع السلطان على شخص من
الأمراء العشراوات يقال له « قنبك » فقرر فى نيابة
غزة وخرج عن قريب .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل
فى رجب ، وتلعب الرماحة على العادة القديمة ،
وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنتين وسبعين
وثمانمائة ، من دولة الظاهر خشقدم ، ونسى هذا
الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا
الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا
الفن ، فعين الأمير تسر الحسنى المعروف بالزردكاش
بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه من الباشات
أربعة وهم : أبو يزيد أحد الأمراء المقدمين ، وجانم
الدوادار الثانى ، وهو قرابة قانصوه خمسمائة ،
وعلان والى القاهرة ، وقرقماس المقرى . وعين من

الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة
القديمة .

وفي جمادى الآخرة ، خرجت الرماحة المعينون
للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبو العباس
الحرار رحمة الله عليه .

وفيه خلع السلطان على شرف الدين الصغير
وقرره فى نظر الدولة ، عوضا عن مجد الدين بن
كراوية بحكم صرفه عنها .

وفيه كان انتهاء عمارة المقعد والمبيت التى أنشأها
بالميدان ، فجلس السلطان فى المقعد ، ورسم
للرماحة بأن يسوقوا قدامه فى الميدان ، فساقوا
وهو جالس وحوله الأمراء . فلما ساقوا عيبت
عليهم المماليك القرانصة ، وخطأهم فى طريقة لعب
الرمح عما كان يفعله الأقدمون من البنود التى
كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة .

وفي يوم الخميس ثالثه كانت وفاة الشيخ
الصالح المعتقد سيدى أبو الخير الكليباتى المجذوب
رحمة الله عليه ، وكان من أعيان الأولياء ، فلما
توفى دفن بجوار جامع الحاكم وبني له السلطان
هناك زاوية .

وفي رجب حضر الأتابكى قيت ، وكان توجه الى
العباسة على سبيل التنزه ، فأرسل له السلطان
خلعة بسبب دوران المحمل .

وفيه ثار ريح أسود حتى أظلم منه الجو ، ووقع
فى ذلك اليوم بيوت وعدة أماكن ونخيل ، ثم فى
عقيب ذلك جاءت الأخبار من ثغر دمياط ، بأن فى
ذلك اليوم هاج الرياح هناك جدا ، حتى فاض ماء
البحر الملح ، وأغرق عدة بساتين من دمياط ،
وكذلك بفارسكور وحصل هناك للناس الضرر

الشامل ، وغرق في ذلك اليوم عدة مراكب بناسها من المسافرين وكان أمرا مهولا .

وفي يوم الخميس ثامنه ، نادى السلطان في القاهرة بالزينة بسبب دوران المحمل .

ثم في يوم السبت عاشره لبس الرماحة الأحمر على العادة القديمة ، وطافت المسابقات بالقاهرة . ثم في ليلة الاثنين ثانى عشره بات السلطان بالقصر ، وأحرق تلك الليلة احراقة نقط بالرملة ، وكانت ليلة مشهودة ، ورأت الناس أشياء كانت قد نسيته . فلما كان يوم الاثنين جلس السلطان في الخرجاة المطلة على الرملة ، وساق الرماحة قدامه بالرملة ، ثم طافوا بالكسوة الشريفة والمحمل على العادة مرتين ، باكر النهار ، وبعد الظهر ، كما كان يفعل فيما قبل . فخرجت البنت من خدرها تتفرج على المحمل بعد ما كان قد نسي أمره ، فجاءت الناس أفواجا من الخانكاه ، ومن بلبس ، وغير ذلك من أماكن شتى بسبب الفرجة على الرماحة ودوران المحمل ، حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل
وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد
فلما انقضى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير
تمر معلم الرماحة أطلسين ، وخلع على الباشات
الأربعة كوامل بسمور ، ونزلوا الى دورهم ،
وانقضى أمر المحمل ، فعد ذلك من محاسن الغورى
حيث فرج الناس على أشياء كانت قد نسيته
فجدها ، حتى يصير له بذلك التذكار بين الملوك
بعد ما نسي هذا الأمر .

وفي يوم دوران المحمل توفى الأمير مغلباى
صصرق ، وكان من أعيان اشرفية برسباى ، وكان

أميرا جليلا حشما رئيسا لا بأس به ، ولكن قاسى
شدائد ومحنا ، ونهب بيته فى وقعة أقبردى
الدوادر ، وقاسى ما لا خير فيه .

وفي شعبان قبض قاضى القضاة الشافعى برهان
الدين بن أبى شريف المقدسى ، على محمد بن
يوسف ، الذى كان ناظر الأوقاف ، فضربه ضربا
مبرحا ، وأشهره فى القاهرة على حمار وهو عريان
مكشوف الرأس ، لأمر أوجب ذلك . وكان منفصلا
عن نظر الأوقاف ، والمتحدث بها يومئذ ناظر الخاص
علاء الدين بن الامام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن بك باى
دوادر الأتابكى أزبك قد احتال على الجازانى ابن
أمير مكة الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فقتلته
المماليك المجاورون بمكة حين دخل الى الحرم ، فلما
تحقق ذلك سر الناس لهذا الخبر . وكان الجازانى
هذا جاهلا عسوقا سفاكا للدماء ، وجرى منه أمور
شتى ، والتف عليه عربان قبيلة بنى ابراهيم ،
وحصل منه غاية الضرر كما تقدم .

وفي رمضان خسف جرم القمر عند آخر الليل ،
واستمر فى الخسوف نحو من عشرين درجة .

ومن الحوادث أنه فى سابع عشر هذا الشهر
قبض الوالى على أربعة أنفار من العوام وجدتهم
فى بستان ومعهم امرأة ، وهم يأكلون ملوحة
بالنهار ، وربما قيل كانوا سكارى . فلما قبض عليهم
هربت تلك المرأة فقبض على الرجال ، وضربهم
بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ثم سجنهم بالمقشرة
فأقاموا مدة طويلة .

وفي شوال وقعت حادثة ، وهى أن الشريف
بركات أمير مكة ، الذى كان مقيما بيت الأتابكى

قيت ، هرب هو واخوته من بيت الأتابكى قيت الذى بالأزبكية . وكان السلطان قرر على الشريف بركات واخوته مالا له صورة ، فما وافقوا على ذلك ، وهربوا على حين غفلة . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ولام الأتابكى قيت على ذلك ، ووقع فى المجلس بعض تنافس بين الأمير قرقماس أمير سلاح والأتابكى قيت ، وقال قرقماس لقيت : « هذا كله شغلك أنت الذى هربته من بيتك » ، فأتسع بينهما الكلام حتى دخل بينهما السلطان بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ، وكان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير أنص باى أحد المقدمين ، وبالركب الأول تانى بك الأبح أحد الأمراء الطبلخانات ، ولم يحج فى تلك السنة امرأة لفساد العربان بطريق مكة .

وفى ذى القعدة حضر تانى بك الخازندار ، وهو المحتسب أيضا ، الذى كان قد توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته فى هذه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف .

وفيه أرسل أقبای الكاشف برأس شخص من عربان الشرقية ، وكان من العصاة ، يقال له ابن بيسار وله حكايات غريبة يطول شرحها ، وكان من شرار العربان . فلما أحضرت رأسه بين يدى السلطان ، رسم بتعليقها على باب زويلة .

وفى عقيب ذلك قبض أقبای الكاشف أيضا على شخص من العربان المفسدين يقال له ابن

بهيج ، فلما قبض عليه بعث به للسلطان فرسم بشنقه فشنق على باب النصر .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره توفى الأمير أبو يزيى الصغير أحد المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه وفى أثناء هذا الشهر ظهر الطاعون بالديار المصرية وفشا ، لكنه كان خفيفا بالنسبة للطاعود الذى كان فى السنة التى تليها ، وهى سنة عشرين وتسعمائة كما سنذكره .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة .

وفيه رسم السلطان بأن يقطعوا الخلجان على قدر ثلاثة أذرع ونصف ، فشق ذلك على أصحاب الأملاك ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك وعز وجود الترابية لأجل شيل التراب ، فلما عظم الأمر ، باع غالب الناس أملاكهم التى على الخلجاء بأبخس الأثمان ، فى نظير شيل التراب .

وفى ذى الحجة أشيع بين الناس بأن عنبر مقدم الممالك ، قد هرب وتوجه الى نحو بلاد التكرور . وسبب ذلك أن السلطان طلب منه مالا لم يقدر عليه ، فهرب وظن أنه يختفى أمره . ثم بعد مضي أربعة أيام قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان فرسم بسجنه فى العرقانة . قيل لما قبض عليه : ووقف بين يدى السلطان ، وبخه بالكلام وقال له : « من ايش هربت وانت بقيت مقدم الممالك أمير عشرة » ، فقال له عنبر : « من عادة العبيد السودان الهروب » . فاستحسن السلطان منه ذلك الجواب .

وفى أواخر هذا الشهر قوى أمر الطاعون بالقاهرة ، وفشا أمره بعد مضي أيام فطر النصارى ،

وهي التي يسمونها الخماسين . وقد ظهرت التريا ، واستمر الطعن عمالا حتى دخل شهر بؤونة القبطى ونزلت النقطة ، وهذا بخلاف العادة حتى عد من النوادر . لكنه كان خفيفا بالنسبة لما جاء بعده في سنة عشر وتسعمائة . وقد وقع الطاعون في سنتين متواليتين حتى عد من النوادر .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشرينه ، كانت وفاة خوند فاطمة ابنة العلاء على بن خاص بك ، وهي زوجة الملك الأشرف قايتباى ، ثم تزوجت بعده بالعادل طومان باى ، وقيل تزوجت بالأشرف قانصوه خمسمائة في الخفية على ما يقال ، وكانت من مشاهير الخوندات في سعة من المال وقد ظهر لها فيما بعد تركة حافلة ، وأقامت في الخونداتية وهي صاحبة القاعة نحو من ثلاثين سنة ، وأظهرت من الفتك والعظمة ما لا أظهره غيرها من الخوندات ، وماتت وهي في عشر الستين سنة من العمر . ولما ماتت أخرجت في بشخانة زركش ، ومشت قدامها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون . ونزل السلطان وصلى عليها في سبيل المؤمنين ، ونهب العوام الكفارة من قدامها ، حين وصلت الى رأس الصليية ، وكان لها جنازة حافلة .

وجرت عليها في أواخر عمرها شدائد ومحن ، منها أن المماليك الجلبان ، هجموا عليها وهي في دارها التي بجوار قنطرة سنقر ، وطلبوا منها نفقة ، وأغلظوا عليها في القول ، وقصدوا الإخراق بها . وكان القائم في ذلك طائفة من المماليك ، من حلف الأمير أقبردى الدوادار . فلما بلغ الملك الناصر ذلك تعصب لها ، ونادى في القاهرة بأن طائفة المماليك قاطبة لا يتوجهون الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقفون لها على باب ، وكل من فعل ذلك شتى بلا معاودة ، فانكفوا عنها من

يومئذ . وسبب ذلك أنه قد بلغ المماليك بأن خوند قد تزوجت بقانصوه خمسمائة في الدس ، فلما قتل تحرشوا بها وطلبوا منها نفقة ، واستمرت مخفية عن بيتها مدة من بعد ذلك .

ومنها أن الظاهر قانصوه صادرها ، وأخذ منها مالا له صورة ، ووكل بها جماعة من الخدام حتى أوردت ما قرر عليها . وكذلك الملك الناصر أخذ منها جملة مال . ثم أنها تزوجت من بعد ذلك بالعادل طومان باى فأقامت معه نحو من شهرين ، وجرى له ما جرى . واستمرت من بعد ذلك مريضة وقد طلع لها في خدها آكلة ، وأقامت بها مدة طويلة ، فلما ثقلت في المرض توجهت الى بولاق ، ثم ماتت هناك ، وحملت وهي ميتة الى دارها التي بجوار قنطرة سنقر ، فأخرجت جنازتها من هناك .

وفي أثناء هذه السنة كانت وفاة العلامة الحافظ فخر الدين عثمان الدينى شيخ الحديث ، وكان عالما فاضلا محدثا دينا خيرا ، ومات وهو في عشر الثمانين ، وكان لا بأس به .

وفيها توفي أيضا القاضى ولى الدين محمد النحريرى المالكى أحد نواب المالكية ، وكان رئيسا حشما فاضلا في مذهبه من أعيان المالكية ، وكان لا بأس به .

سنة عشر وتسعمائة (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) :

فيها — فى المحرم — خلع السلطان على عنبر الطواشى وأعاده الى مقدمة المماليك كما كان أولا ، وقد قاسى شدائد ومحن وسجن فى العرقانة مدة ، ثم رضى عليه السلطان وأعاده الى وظيفته ، وقد استحسن منه السلطان جوابه أن من عادة السودان الهروب فعفا عنه فيما بعد .

وفيه أخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع
على حكم السنة الماضية .

وفيه ، في الثالث والعشرين ، دخل الحاج الى
القاهرة مع السلامة .

وفيه أشيع بين الناس بوقوع فتنة كبيرة فوزع
الناس قماشهم في الحواصل ، فلما بلغ السلطان
ذلك جمع الأمراء ، وأحضر لهم المصحف العثماني ،
وحلفهم عليه ، فخدمت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفي صفر عرض السلطان جماعة من أولاد
الناس ، ومن الماليسك السيفية ، ممن كان قطع
جوامكهم ، وقرر لجماعة منهم جوامكهم وجماعة
بحكم النصف .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ستة أيام ، فقلقت
الناس لذلك ، وتشحطت الغلال ، وتكالب الناس
على مشتري الغلال ، ثم ترادفت الزيادة من بعد
ذلك حتى أوفى عن قريب .

وفي ربيع الأول ، خلع السلطان على الشهاب
أحمد بن فرفور الدمشقي قاضي القضاة بدمشق ،
وقرره في قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن القاضي
برهان الدين بن أبي شريف المقدسي بحكم صرفه
عنها . وقد جمع الشهاب بن فرفور بين قضاء
الشافعية بمصر والشام في وقت واحد ، فعد ذلك
من النوادر .

وفي سابعه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى
في خامس عشرين مسرى ، فتأخر عن النيل الماضي
سبعة عشر يوما ، فزاد عن الوفاء في ذلك اليوم
خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فكان كما
قيل في المعنى :

يانيل مصر كم يد لك بالسوفا
أوليتنا بالكسر جبيرا دائما

قد زدت قبل الكسر خمس أصابع
كرما فكانت للوفاء خسواتما

فلما أوفى توجه الأتابكي قيت وفتح السد على
العادة ، وكان يوما مشهودا . وهذا كان آخر فتح
الأتابكي قيت للسد وقد أخذ عقيب ذلك وكان
من أمره ما سنذكره في موضعه .

وفيه حضر سيف قانصوه المحمدي المعروف،
بالبرجي نائب الشام ، وكان أصله من مماليك
الأشرف قايتباي ، وولى عدة وظائف سنية وآل
أمره الى أن بقى نائب الشام ومات بها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي وكان حافلا .

وفيه خلع السلطان على قاني باي قرا أمير
آخور كبير وقرر في أمرة ركب المحمل ، وقرر
بالركب الأول جان بردي تاجر المماليك .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على شيخ العرب
بيرس بن أحمد بن بقر ، وأعادته الى مشيخته كما
كان أولا .

وفيه خسف جرم القمر عند طلوعه واستمر في
الخشوف نحو من خمسين درجة .

وفيه خلع السلطان على قن بك بن شاد بك ،
وقرر في رأس نوبة الثانية ، عوضا عن تمرار
جوشن بحكم وفاته بدمشق ، وكان قد توجه
في بعض مهمات السلطان فمات هناك .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره قبض السلطان
على القاضي بدر الدين محمد بن مزهر ، الذي كان
متوليا لكتابة السر وعزل عنها . فأرسل اليه
السلطان بعض البايية ، فتوجه الى بيته الذي ببركة
الرطلي ، فقال له : « قم كلم السلطان » فقام وطلع

معه الى القلعة ، فلما وقف بين يدي السلطان وبخه بالكلام ، ثم شكه في الحديد ، وسجنه بالعرفانة ؛ وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان بأن بدر الدين بن مزهر اجتمع بالأتابكي قيت الرحبي ، وقال له : « قم وتسلمن وضمان نفقة البيعة على » ، وقيل انه كتب فوائهم بأسماء جماعة من حاشية السلطان ، ووزع عليهم مالا له صورة ، وذكر في القوائم جماعة من المباشرين وغير ذلك ، حتى أسمى فيهم ابن السلطان ، وخاير بك الخازندار ، وبركات ابن موسى ، وآخرين من جماعة السلطان ، فتكلم الأعداء في حق بدر الدين بن مزهر بسبب ذلك ، وغيروا خاطر السلطان عليه ، وآل أمره من بعد ذلك الى كل سوء ، حتى كان ما سنذكره في موضعه .

* * *

وفي ربيع الآخر ، عمل السلطان الموكب بالحوش ، وخلع على الأمير سودون العجمي ، وقرره في نيابة الشام عوضا عن قانصوه البرجي بحكم وفاته . وخلع على الأمير خاير بك ، أخى قانصوه البرجي الذي كان نائب الشام ، وقرره في نيابة حلب عوضا عن سيباي الذي كان بها ، ورسم لسيباي بأن يحضر الى القاهرة ليلي أمرة مجلس عوضا عن سودون العجمي بحكم انتقاله الى نيابة الشام ، فلم يتم هذا الأمر وكان ما سنذكره في موضعه .

وفي هذا الشهر ثبت النيل المبارك على ثلاث عشرة أصبغا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى ثامن عشرين توت .

وفيه خلع السلطان على الأمير أنص باي بن مصطفى ، وقرر في حجوبة الحجاب ، عوضا عن خاير بك بن يلباي ، أخى قانصوه البرجي الذي

كان نائب الشام ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب كما تقدم .

وفي هذا الشهر اهتم السلطان بعمارة قاعة اليسرية وقاعة العواميد ، وغير ذلك من الأماكن التي بالقلعة ، فجدد ما فيها من العمارة ، وزخرفها الى الغاية . لكن حصل منه عاية الضرر ، منها أنه رسم للقاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بأن ينفك رخام قاعة والده ناظر الخاص يوسف ، التي سماها نصف الدنيا ، وكان فيها الرخام المثلث الذي لا يوجد . وفد أفنى ناظر الخاص يوسف عمره على بناء هذه القاعة ، فلا زال به السلطان حتى فك رخام نصف الدنيا ، ونقله الى قاعة اليسرية ، وقاعة الأعمدة ، وغير ذلك مما أنشأ بالقلعة ، فحصل على أولاد ناظر الخاص ، بسبب ذلك ، ما لا خير فيه . وكانت هذه الواقعة من أقبح الوقائع . ولو أن السلطان نقل هذا الرخام الى مدرسته لكان أولى من وضعه في قاعة اليسرية . كما يقال : « فأفقرني فيمن أحب ولا أستغنى » . وقد قلت في هذه الواقعة مطلع زجل في معنى ذلك : سلطاننا الغوري قد جار والصبر مناقد أعيا وصار في ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا وفيه جاءت الأخبار من غزة بوفاة الشيخ الصالح المعتقد المسلك ، سيدي محمد الغزاوي ، رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية .

* * *

وفي جمادى الأولى كملت عمارة مدرسة السلطان التي أنشأها تجاه جامعته الذي بالشرابشين ، وأنشأ هناك مدفنا له ، وعقد فوقه قبة ، وأنشأ صهريجا ومكتبا ، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية ، يحضروا بكرة والعصر ، وجعل قاضي القضاة برهان الدين بن أبي شريف شيخ

الحضور باكر النهار ، ومحج الدين الحلبي الامام شيخ الحصور العصر ، كما أمر بذلك . فجاءت هذه المدرسة من محاسن الزمان ، ولا سيما في هذا الخط الذي لم يتفق لأحد من الملوك البناء فيه ، فعد ذلك من جملة سعد قانصوه الغورى . وكان أصل هذا المكان قيسارية تسمى قيسارية الأمير على ، فاستبدلت من وقف الناصر محمد بن قلاوون .

ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغیره من الملوك ، منها : أنه نقل الأثر الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل ، فجعله في مدرسته ، حتى عد ذلك من النوادر . وقد تعب صاحب بهاء الدين بن حنا في نقل هذا الأثر الشريف . وكان عند جماعة من بنى ابراهيم بالينبع ، فلا زال يتلطف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهم بالدراهم القديمة ، ثم نقله الى الديار المصرية وبنى له مسجدا مطلا على بحر النيل . وكان الناس يقصدون الزيارة اليه في كل يوم أربعاء . فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الأثر الشريف استفتى السلطان العلماء ، فأفتوه بنقله الى مدفنه بالقبة ، وهذا بخلاف شرط الواقف .

ثم ان السلطان نقل المصحف العثماني الى مدرسته أيضا ، وعد ذلك من النوادر . ثم نقل الى المدرسة أيضا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخاتقاء البكتيرية التى بالقرافة . قيل ان مشتراها على الواقف ألف دينار ، ولم يكتب نظير هذه الربعة ، سوى ربعة أخرى بخاتقة سرياقوس ، اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضا . وأخرى بالمدينة الشريفة ، وأودعها بهذه الخاتقة .

وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى في مدرسته

من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود . ولما نقل الأثر الشريف والمصحف العثماني الى مدرسة السلطان ، كان له يوم مشهود ، ونزل قدامه القضاة الأربعة ، والأتابكى قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا بالأعلام وهم يذكرون .

وفي ذلك اليوم ، خلع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف ، وقرره في مشيخة هذه المدرسة . وقد صرف عن قضاية القضاة ، وانفرد بمشيخة مدرسة السلطان ، واستمر بها الى الآن . وقد قلت من قصيدة مدحت بها السلطان ، وقد عرضت عليه واستحسنها ، فمن أبياتها قولى في جامعہ الذى أنشأه ، وهو قولى :

بنى بمصر لله بيتا رخامه قائم ونائم
فجاء في حسنه فريد من كل عيب يقال سالم
قليس يبنى له نظير في سائر المدن والأقالم
وفيه — في يوم الخميس — ثانى عشرينه —
عرض السلطان القاضى بدر الدين بن مزهر
بالحوش بين العسكر ، وهو في الحديد فوبخه
بالكلام ، ثم بطحه وضربه ضربا مبرحا حتى كاد
أن يهلك وهذا أول عقابه .

وفيه أحضرت جثة قانصوه المحمدى البرجى الذى كان نائب الشام ، فلما حضرت دفنت بتربة أخيه الأمير خاير بك التى أنشأها بباب الوزير .

وفي جمائ الآخرة رسم السلطان للراحة بأن يسوقوا على العادة ، ويدور المحمل في رجب كما فعل في العام الماضى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سيباى نائبها ، امتنع عن الحضور الى القاهرة ، ولم يوافق بأن يلى أمير مجلس ، وقد أظهر العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك ، بطل أمر سودون العجمى من نيابة

الشام ، وأعيد الى أمرة مجلس كما كان ، وأرسل السلطان خلعة وتقليدا الى أركماس نائب طرابلس ، بأن يكون نائب الشام عوضا عن سودون العجمي الذي كان قد قرر بها .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، توفي الحافظ تقي الدين بن الأوجاقي ، وكان من أعيان مشايخ الحديث ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، ومات وقد جاوز المائة سنة من العمر .

وفي يوم الأحد تاسع عشره توفي ابن المحرقى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه خرج الأمير خير بك الذي قرر في نيابة حلب ، فكان له يوم مشهود ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامه الأمراء قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن دولات باي ، قرابة العادل طومان باي ، الذي كان نائب الشام ، وولني أيضا نيابة طرابلس ، وقد أظهر العصيان ، والتف على سييى نائب حلب ، وقد توجهوا الى دمشق ، وحاصروا المدينة ، وقد أشرفوا على أخذها . فلما تحقق السلطان ذلك ، اضطربت أحواله ، وأراد أن يبطل دوران المحمل في رجب ، فمنعه الأمراء من ذلك . ثم انه جمع الأمراء في قاعة البحرة ، وضربوا هناك مشورة في أمر سييى نائب حلب ، ودولات باي ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب العصر .

وفيه عاقب السلطان بدر الدين بن مزهر ، وعصره في أكعابه وركبه ، ودق القصب في أصابعه ، وأحرقها بالنار حتى وقعت عقد أصابعه ، ثم نوعوا له أنواع العذاب ، فأخذوا له كماشة حديد ، وأحموها بالنار واختطفوا بها أبنائه وأطعموها له ، ثم أخذوا له جبل قنب ولووه على أصدائه حتى نفرت عيناه من وجهه وسالت على

خسديه ، وقاسى ما لا خير فيه ، وعذب بأنواع العذاب الشديد . وكان المتولى عقابه الحاج يركات ابن موسى ، ومعين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وإبراهيم دوادار الوالى ، والريس كمال الدين المزين ، فما أبقوا ممكنا في عذابه . وكان هذا من مقت الله تعالى في حق بدر الدين بن مزهر ، وقد روى في بعض الأخبار أن الله تعالى يقول « اذا عصاني من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » .

وفي رجب — في يوم الأربعاء رابعة — توفي القاضي بدر الدين بن مزهر بالقلعة ، وقد مات تحت العقوبة ، فغسل بالقلعة وكفن وصلى عليه ، ونزلوا به من القلعة وتوجهوا به الى تربة أبيه فدفن عليه . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية منها نظارة الخاص ، والحسبة ، وكتابة السر تولاه عن أبيه ، وكان جميل الهيئة مليح الشكل ، وتوفي عن ثلاث وخمسين سنة من العمر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر أنصارى الأصل ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، الشهير بمزهر الدمشقى الأنصارى الشافعى ، وكان له اشتغال بالعلم لكنه كان يتقرب الى خواطر الملوك بايذاء الناس ، فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وقد رثيه بقولى مع التضمين :

خسف البدر المفدا وبسحب الترب غابا
يا ترابا ضم بدرى ليتنى كنت ترابا
وفي هذا الشهر جاءت الأخبار بأن دولات باي أخا العادل توجه الى حماة ونهب غالب ضياعها ، وفر منها النائب الذى كان بها ، وقبض على أعيان أهلها . فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة الى البلاد الشامية ، وعين الأتابكى قيت باش العسكر وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم بطل ذلك

فيما بعد وعين الأمير أزدمر الدوادار باش
العسكر ، وصحبته جماعة من الأمراء غير تلك
الطائفة التي تعينت صحبة قيت ، ولم يتم ذلك
أيضا وكان من الأمر ما سنذكره

وفيه ترفع الشيخ أبو شامة مع خليفة سيدي
أحمد البدوي رضي الله عنه ، فرسم السلطان
بايداع خليفة سيدي أحمد البدوي في الترسيم ،
ثم ان السلطان خلع على ولد خليفة سيدي أحمد
البدوي ، وقرره في المشيخة ، عوضا عن أبيه ،
وأشرك معه شخصا من الأتراك يقال له لاجين
رأس نوبة الجمدارية ، وقرره أيضا ناظرا على
مقام سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه .

وفي يوم تاسعه نودي في القاهرة بالزينة ،
بسبب دوران المحمل ، ولبس الرماحة الأحمر
على العادة ، وكان معلم الرماحة تمر الحسنى
الزردكاش أحد المقدمين والباشات الأربعة على
حكم السنة الماضية . غير أنه لما توفي الأمير
أبو يزيد ، وكان أحد الباشات ، قرر عوضه
شخص من الأمراء الطلخانات ، يقال له
مصرياى ، فساقوا في هذه السنة أحسن مما ساقوا
في العام الماضي ، وبات السلطان بالقصر وأحرقوا
قدامه احراقة تفت حافلة ، ودارت المسابقات في
القاهرة على العادة القديمة ، ثم ساقوا الرماحة
بالرملة مرتين على العادة ، ونزلوا عن خيولهم
وباسوا الأرض للسلطان في الرملة عند انتهاء
اللعب ، كما كان يفعل للملك الظاهر خشقدم ،
قأول من أحدث ذلك السلطان قايتباى لما كان
يسوق في المحمل ، ثم دار المحمل وكسوة الكعبة
الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، فلما انقضى
أمر المحمل خلع السلطان على المعلم والأربعة
باشات ونزلوا الى دورهم

وفي هذا الشهر خلع السلطان على شيخ

العرب بيبرس بن بقر وقرره في شياخة العرب
على عادته ، وقرر أقبای في كشوفية الشرقية على
عادته ، وكانت الشرقية يومئذ في غاية الاضطراب
بسبب فساد العربان .

ومن الحوادث أنه في يوم الاثنين سادس عشر
رجب ، قبض السلطان على الأتابكى قيت الرحبى ،
وهو واقف بالحوش بين الأمراء فأدخلوه قاعة
البحرة ، وقبضوا معه على الأمير أزيك المكحل ،
فكش القيل والقال في ذلك اليوم ، ثم ان السلطان
نادى في القاهرة بالأمان والاطمان ، والبيع
والشراء ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا . وكان
الأتابكى قيت ظالما غاشما عسيفا ، واسطة سوء
قليل الخير كثير الأذى ، وهو الذى كان سببا لأخذ
أجرة الأملاك سبعة أشهر ، وكذلك خراج الاقطاعات
والرزق عن سنة كاملة ، ثم تسبب في قطع جوامك
أولاد الناس والأيتام والنساء ، وحصل منه غاية
الضرر للناس قاطبة ، وكان اذا استعمل صانعا
يقطع أجرته ، وقد اجتمع فيه أشياء كثيرة من
المساوىء . وقد اسود وجهه من كثرة المظالم ،
فكان كما يقال في المعنى :

يا مشبها في فعله لونه

لم تخط ما أوجبت القسمه

فعلك من لوناك مستخرج

والظلم مشتق من الظلمه

ولما قبض السلطان على قيت ووبحه بالكلام
أنكر ما نقل عنه ، فأحضر له السلطان عدة مراسيم
بما كان يكاتب بها النواب مما نقل عنه ، فعند ذلك
تبين صحة ما نقل عنه ، واقتضح بين الأمراء . وكان
سبب تغير خاطر السلطان على الأتابكى قيت
الرحبى ، أنه كان له الغرض التام بأن يتسلطن ،
فكاتب سيباى نائب حلب بأن يظهر العصيان ، حتى

يخرج اليه قيت في التجريدة ، فاذا توجه الى البلاد الشامية ، التف عليه دولات باى الذى كان نائب طرابلس ، وسيباى نائب حلب ، وغير ذلك من النواب ، ويتسلطن هناك كما فعل العادل طومان باى . فلما تحقق السلطان ذلك ، أبطله من باشية العسكر ، بعد أن عينه صحبة التجريدة التى تعينت الى سيباى نائب حلب . ثم لما اقتضى أمر المحمل ، قبض عليه عقيب ذلك ، وأدخله الى قاعة البحرة ثم قيده وزنجره ، وقبض معه على الأمير أزيك المكحل . ثم ان السلطان احتاط على موجود الأتابكى قيت من صامت وناطق ولم يترك له شيئا ، فوجد عنده أشياء كثيرة من آلة السلاح ، ووجد له من الذهب العين ستين ألف دينار ، ومن البرك والخيول والقماش أشياء كثيرة ، فاحتاط السلطان على ذلك جميعه ، واستمر قيت في التوكيل به في قاعة البحرة .

وفي سلخ هذا الشهر ، بات السلطان بالقصر ، وعمل الموكب بالشاش والقماش ، فلما أصبح يوم الاثنين ، خلع على المقر السيفى قرقماش بن ولى الدين أمير سلاح ، وقرره أتابك العساكر بمصر — عوضا عن قيت الرحبى — بحكم القبض عليه ، فنزل من القلعة في موكب جافل ، وقدامه سائر الأمراء وغالب العسكر .

وفي شعبان — في يوم السبت حادى عشره — رسم السلطان باخراج قيت الرحبى الى ثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من القلعة وهو مقيد مزنجر وخلفه أوجاقى بخنجر ، وقدامه أزيك المكحل أحد الأمراء المقدمين .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بنفى شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له يلباى ، قيل انه قرابة سيباى نائب حلب .

فنزلوا بالأتابكى قيت ومن معه من الأمراء بعد العصر من باب الدرفيل وتوجهوا به من خلف القلعة الى البحر فأنزلوه في مركب وأقلعوا به في يوم هوا مريسى ، وكان المتسفر عليه الأمير جانم الدوادر الثانى ، وعلان والى القاهرة ، ونحو من خمسين مملوكا من الممالك السلطانية ، فسجنوا قيت بثغر الاسكندرية . وكان يومئذ خدابردى مملوك السلطان متوليا نيابة الاسكندرية ، فسب قيت الرحبى عند ما سجن بالبرج ، وما قاسى منه خيرا ، وكان خدابردى تقرر في نيابتها — عوضا عن تانى بك النجمى — بحكم انتقاله الى التقدمة من نيابة الاسكندرية . وتوجهوا بأزيك المكحل الى نحو دمياط فسجن بها ، فعد نفى الأتابكى قيت من جملة سعد السلطان ولم تنتطح في ذاك شاتان ، وقد قلت في ذلك :

قد كان قيت باغيا ولكل شر يسرع
فجنى عليه بغيه ولكل باغ مصرع

وفيه خلع على الأتابكى قرقماش بن ولى الدين خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة ، وتوجه الى البيمارستان المنصورى ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع على الزينى بركات بن موسى وقره فى حسبة القاهرة ، وقد عد من جملة أعيان الرؤساء بمصر ، وقد عظم أمره جدا ، وقد قيل فى المعنى :

من ولى الحسبة يصير على
تعرض الواقف والعائى

فليس يحظى بالمنى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصابى

وفيه رجع الأمراء الذين توجهوا صحبة الأتابكى قيت فسجنوه بالاسكندرية ورجعوا .
وفيه عرض السلطان المحسايس من الرجال

والنساء ، فأفرج عن جماعة منهم ، وصالح عنهم
أرباب الديون وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفي رمضان خلع السلطان على الناصري محمد
ابن القماري ، وقرره أمير شكار ، عوضا عن محمد
ابن أحمد بن أسنبغا الطياري بحكم صرفه عنها .

وفيه تسحب من سجن العرقانة التي بالحوش
السلطاني ، شخص من الأتراك يقال له أرزمك ،
وكان له مدة طويلة وهو في السجن ، وقيل انه هو
الذي قتل المعادل طومان باي فلما تسحب خنق
السجان حتى مات ، وأخذ ثيابه ولبسها ونزل من
باب السبع حدرات ، فاضطربت القلعة في تلك
الليلة ، وهرب بعض الطواشية ، ثم بعد ثلاثة أيام
أرسل يطلب من السلطان الأمان وقد شفّع فيه
الأتابكي قرقماس ، فعفا عنه السلطان من القتل
ورسم بنفيه .

وفي أثناء هذا الشهر أفسا الطاعون بالديار
المصرية ، وقد وقع في أواخر السنة التي قبلها ،
وكان تارة يقوى ، وتارة يخف ، ثم قوى أمره في
هذه السنة ، وهجم في هذا الشهر جملة واحدة ،
فلما تزايد الأمر فتح السلطان مغسلا للأموات
بجوار سبيل المؤمنين فحصل به للناس غاية
النفع .

وفي يوم السبت تاسع عشره توفي القاضي كمال
الدين بن مزهر أخو القاضي بدر الدين كاتب السر
كان ، وكان شابا رئيسا حشما وولي كتابة السر
بعد أخيه بدر الدين في دولة الظاهر قانصوه .

ومن العجائب أن أولاد القاضي أبو بكر بن
مزهر كاتب السر ماتوا الثلاثة في سنة واحدة ،
فبدر الدين مات تحت العقوبة كما تقدم ، وأخوه
يوسف شق نفسه من خوفه من السلطان ، وأخوه

كمال الدين مات مطعونا ، فكانت آجالهم متقاربة
من بعضهم ، وكانوا أشكالا حسنة ولا بأس بهم .

وفي شوال كان العيد بالجمعة ، وخطب في ذلك
اليوم خطبتان ولهج الناس بزوال السلطان عن
قريب ولم يكن ذلك .

وفيه حضر قاصد على دولات وقد أرسل يشفع
عند السلطان في سييأي نائب حلب ، ودولات باي
نائب طرابلس ، وكان قد أشيع عنهما العصيان ،
وأنها من عصابة قيت الرحبي ، وقد تقدم القول
على ذلك .

وفيه تزايد أمر الطاعون ، وفتك في الأطفال
والمماليك والعبيد والجوار والغرباء ووصل الى
أربعة آلاف جنازة كل يوم ، وعز وجود السكر
النبات حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ، وعز
وجود البطيخ الصيفي والرمان .

وفيه توفي القاضي ابراهيم اللادني مستوفى
الزردخانه ، ومات ابنه محمد عقيب موته
رحمهما الله تعالى ، وكان رئيسا حشما من أعيان
المباشرين .

وفيه نودي في القاهرة من قبل السلطان بأن
لا يعمل عزاء بطارات ولا نائحة تنوح على ميت ،
ثم غمز على نائحة عملت عزاء بطارات ، فجرسها
بركات بن موسى على حمار ، والطارات معلقة في
عنقها ، ووجهها ملطخ بالسواد ، فلما جرى ذلك
رجع النساء عن تلك الأفعال الشنيعة . ثم نادى
الوالى أن النساء لا يخرجن في نعي بالليل .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحمل ، قانى باي قرا أمير آخور كبير ، وبالركب
الأول جان بردى تاجر المماليك ، فلما تزايد أمر
الطاعون نادى السلطان بأن أرباب الوظائف من

الأمراء ، يمنعون النقباء من جلوسهم على أبوابهم قاطبة ، وألا يشتكى أحد خصمه الا من الشرع الشريف ، ثم رسم السلطان لحاجب الحجاب ، ووالى القاهرة ، بأن يكبسوا بيوت النصارى ويكسروا ما عندهم من جرار الخمر ، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة ، ولا يبقوا فى ذلك ممكنا ، وقد وقع فى دولة الأشرف شعبان ابن حسين ما يقرب من هذه الواقعة حتى قال فى ذلك الأديب ابراهيم المعمار مواليا فى المعنى :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران
لا تمنع القس يملأ الدن والمطران

وأمر بيلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتتم دعوة المصطول والسكران
وكان ذلك فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

وفى خامس عشرينه خلع السلطان على قاصد على دولات ، وأذن له بالعود الى بلاده ، وكتب له الجواب عن أمر سيباى نائب حلب ودولات باى نائب طرابلس .

وفى ثامن عشرينه توفيت للسلطان ابنة وكانت مستحقة للزواج ، فأخرجت فى بشخانة زركش وقدامها كفارة ، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ، ودفنت فى مدرسة أبيها داخل القبة ، وكان لها جنازة مشهودة .

وفى ذى القعدة — فى يوم مستهله — توفى الأمير جانم الدوادار الثانى ، وكان يقرب الى الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان شابا جميل الهيئة ، شجاعا بطلا مشهورا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى جماعة كثيرة من الأمراء العشراوات ومن الخاصكية .

وفيه توفى للأمير طراباى ابن صغير عمره دون العشر سنين ، وتوفى له عبد حبشى كان جمقدارا له ، فوجد عنده من الذهب العين ثمانية آلاف دينار غير القماش ، وتوفى له بواب الواحى فوجد له من الذهب العين ألف دينار خارجا عن مساطير على الناس .

وفى هذا الشهر أظهر السلطان العدل فى الرعية ونادى فى القاهرة بأن المشاهدة التى كانت مقررة على الحسبة قد أبطلها السلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح الناس بذلك ، فلما مضى أمر الطاعون أعيدت كما كانت وزيادة .

وفى يوم الجمعة سادسه كانت وفاة المقر الناصرى محمد ولد السلطان ، وكان متولى شادية الشراب خاناه ، وكان شابا جميل الصورة ، مليح الشكل ، بهى المنظر ، توفى وله من العمر نحو من ثلاث عشرة سنة ، وكان وافر العقل ، قليل الأذى ، فكثرت عليه الأسف والحزن من الناس ، وكانت وفاته بالقلعة وصلى عليه بعد صلاة الجمعة عند باب الستارة ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء فتوجهوا الى الدرب الأحمر وأدخلوه من خوخة أيدغمش ، وكانت له جنازة مشهودة ، ونهب العوام الكفارة من قدامه عند باب الوزير ، واستمر الأمراء ماشين حتى أتوا به الى مدرسة أبيه فدفن بها داخل القبة ، وقد رثيته بقولى :

لهفى على من كان ظنى أننى
أفنى المدايح فى الثناء قوافيا

فمضى وأثكلنى فيها أنا ناظم
تلك المعانى الغر فيه مراثيا

ثم فى عقيب ذلك توفيت للسلطان سرية جركسية وهى أم ولده الصغير فدفنت داخل القبة أيضا .
وفى يوم الثلاثاء عاشره توفى جان قلعج الخازندار

وفيه جاءت الأخبار بوفاة القاضى بهاء الدين بن قدامة الحنبلى ، وكان تولى قضاء مصر ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ثم قرر فى قضاء الحنابلة بدمشق فخرج اليه ومات فى أثناء الطريق .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى حادى عشرين بشنس القبطى ، ثم ابتداء بضرب الكرة .

وفيه دخلت خماسين النصارى والطعن عمال ، وقد فتك فى الناس فتكا ذريعا وأفنى من الممالك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء ما لا يحصى ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين الأسيوطى من أبيات :

يا رب بالهادى النبى المجتبى
أغمد عن الاسلام أسياف الوباء
يارب لا نشكو أليم عذابه
الا اليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل فى دار فبدد شمل من

فيها فلا يجدون منه مهربا
يا رب لطفنا بالعباد فما لهم
رب سواك يقيهم المستصعبا

انا اعترفنا بالذنوب فكلنا
عاص مسىء للعذاب استوجبا
لكن اذا قرنت عظيم ذنوبنا
بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا

ان كان لا يرجوك الا محسن
فى العالمين فمن يجير المذنبنا

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب بما وقع فيها من الفناء والغلاء وفساد العربان بالشرقية والغربية حتى بأرض الحجاز ، والأمر الى الله تعالى .

سنة احدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥ — ١٥٠٦) :
فيها ، فى المحرم ، اهتم السلطان باصلاح بناء

أحد الأمراء العشراوات ، وكان من خواص السلطان وكان شابا جميل الهيئة مليح الصورة ، وقد أقيمت له الدنيا ، وكان تعين للدوادارية الثانية قبل موته .

وفى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على علان بن قراجا والى القاهرة ، وقرره فى الدوادارية الثانية — عوضا عن جانم قريب قانصوه خمسمائة — بحكم وفاته . وخلع على قانصوه المعروف بأبى سنة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن علان بحكم انتقاله الى الدوادارية الثانية ، وخلع على الأمير طومان باى قريب السلطان وقرر فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ابن السلطان بحكم وفاته .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه ، توفى الناصرى محمد بن الأمير تانى بك قرا أمير مجلس كان ، وكان من أعيان أولاد الأمراء رئيسا حشما لا بأس به .

وفى سادس عشرينه توفى أنليك النصرانى أحد الأمراء العشراوات أمير شكار ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى الشهابى أحمد خليفة سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله عنه وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على القاضى محبى الدين عبد القادر القسروى ، وقرر فى نظر الجيش عوضا عن الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان باحضار أربعة من الأمراء العشراوات الذين كانوا نفوا الى ثغر دمياط ، فلما حضروا ألبسهم سلاريات بسنجاب ونزلوا الى دورهم .

الدهيشة ، وسد البحرة التي كانت بها ، وفرش أرضها بالرخام الملون ، وصارت مدهشة للناظرين ، ولكن حصل منه الضرر الشامل ، وذلك أنه رسم بفك رخام قاعات كاتب السر أبو بكر بن مزهر ونقله الى الدهيشة ، وجدها من سقوفها وأبوابها وما بها من المعالم قاطبة .

وفيه في ثامنه ، حضر هجان من الحجاز وأخبر أن المبشر معوق عند العرب ، وأخبر ب وفاة مختص الطواشي ، وكان من أعيان الخدام رئيسا حشما جميل الهيئة ، وهو الذي بنى أساس جامع السلطان الذي بالشرابشين ، وكان عمره أولا لنفسه ، ثم أخذه منه السلطان ، وزاد في اتساعه كما تقدم ذكر ذلك .

ومن الحوادث أنه في يوم عاشوراء سقط ربع من داخل المشهد الحسيني ، فمات في ذلك اليوم تحت الردم نحو من عشرين انسانا من رجال ونساء .

وفيه أنعم السلطان على تاني بك النجمي بتقدمة ألف وبقي من جملة الأمراء المقدمين .

وفيه خلع السلطان على تمرباي خازن دار العادل طومان باي ، وقرر في الأستاذانية الكبرى ، عوضا عن تغري بردى بن يلباي بحكم صرفه عنها

وفيه أخذ قاع النيل وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة في أول يوم من المناداة خمس أصابع

وفي الرابع والعشرين منه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى في هذه السنة مشقة زائدة من موت الجمال والعطش وفساد العربان .

وفي صفر تغير خاطر السلطان على الأمير محسن الخازن الطواشي الحبشي ، فرسم بنفيه الى

سواكن ، ورسم بنفى جوهر الشمسي شاد الحوش فنفاه الى مكة ، وكان سبب ذلك أنه غفل عن أرزمك الذي تسحب من العرقانة .

وفيه خلع السلطان على سرور الزيني ، وقرره في شادية الحوش — عوضا عن جوهر الشمسي بحكم نفيه الى مكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له أزبك الصوفي ، وقرره في نيابة القدس — عوضا عن ملاج — بحكم صرفه عنها .

وفيه أذن السلطان لحريمه أن يصعدن الى القلعة ، وكان في هذه المدة لم تصعد خوند زوجة السلطان الى القلعة ، وكانت مقيمة ببيت الأمير ماماي الذي بين القصرين . فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا ، فصعدت الى القلعة في محفة زركش وكان لها موكب حافل . فلما صعدت الى القلعة حملت على رأسها القبة والطيور ، وثرث عليها خفاف، الذهب والفضة ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى قاعة العواميد ، ومشت قدامها الخوندات حتى جلست على المرتبة ، وكان السلطان في هذه المدة جدد عمارة قاعة العواميد وزخرفها بخلاف ما كانت عليه أولا .

وفي ربيع الأول — في يوم السبت ثانيه — كان وفاء النيل المبارك ، وقد وافق ذلك تاسع مسرى ، فتوجه الأتابكي قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وقد أوفى وزاد عن الوفاء ثلاث أصابع ، وكان نيلا عظيما كما يقال :

ذا النيل ما يبرح في سعده

وحاله الماشي حالا

يجرى لنا ماض ومستقبلا

لا أوقف الله له حالا

وكان من مبتدأ زيادته الى هبوطه لم يتوقف يوما واحدا .

وفي يوم الاثنين رابعه حضر الى الأبواب الشريفة ، سييى نائب حلب ، الذى كان قد أظهر العصيان بسبب واقعة قيت الرحبى ، فلما جرى له ما جرى ونفى أرسل سييى يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له مندبل الأمان ، ورسم له بالحضور الى القاهرة ، فلما طلع بين يدى السلطان ، حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا ، وفكك أزراره كما فعل قانصوه خمسمائة لما قابل الأشرف قايتباى ، فلما قابل السلطان ، خلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا فاحشا واستمر فى الخسوف الى آخر الليل .

وفي حادى عشرينه عمل السلطان الموكب ، وخلع على سييى نائب حلب ، وقرره فى امرة السلاح ، عوضا عن قرقماس بن ولى الدين بحكم انتقاله الى الأتابكية .

وفيه خلع السلطان على أيدكى والى قطيا ، وقرره فى نيابة القدس عوضا عن أربك الصوفى ، ونقل أربك الصوفى الى نيابة غزة عوضا عن ملاج الذى كان نائب القدس ، وسجن ملاج .

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه توفى الأمير تغرى بردى بن يلبى المعروف بالقادرى أمير أستادار العالية ، فلما مات دفن بجوار الامام الشافعى رضى الله عنه بتريته التى أنشأها هناك ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا رئيسا حثما ، وكان من جملة الأمراء العشراوات ، وولى الأستادارية الكبرى غير ما مرة ، وأقام بها مدة طويلة ، وكان

ينتج بالسداد والناس عنه راضية ، وكان أقل ظلما من غيره من الأستادارية وكان لا بأس به .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قايتباى من طوبرزه ، وقرره فى نيابة الكرك فخرج اليها عن قريب .

وفيه عرض السلطان العسكر وعين ثلاث تجاريد ، واحدة الى مكة بسبب يحيى ابن سبع أمير الينبع ، وواحدة الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام ، وواحدة الى الهند بسبب تعبت الفرنج بسواحل الهند ، فعين فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العسكر وأخذوا فى أسباب عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى ابراهيم الشرايشى ، المعروف بابن البابا ، مباشر الأتابكى قيت الرحبى ، وقرره متحدثا على أوقاف الزمامية وناظر الذخيرة ، وغير ذلك من الجهات السلطانية ، عوضا عن شهاب الدين المرقبى بحكم صرفه عنها .

وفيه استعفى الأمير تمر باى خازندار العادل من الأستادارية ، فأعفاه السلطان منها ولم ينتج بالسداد فيها .

وفي جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السلطان على القاضى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد وقرره فى الأستادارية الكبرى عوضا عن الأمين تهرباى بحكم انفصاله عنها ، وهذه الوظيفة لم يلها متعتم من بعد القاضى تاج الدين بن المقسى ، لما جمع بين نظارة الخياص والأستادارية فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، سوى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد .

وفيه ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبا

من عشرين ذراعا ، واستمر في تبات الى آخر يابه
وكان نيلا مباركا .

وفي يوم الخميس تاسع هذا الشهر كانت وفاة
شيخنا الحافظ العلامة جلال الدين الأسيوطى .
وهو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق
ابن أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن
أيوب بن محمد بن الهمام الخيضرى الأسيوطى
الشافعى . وكان عالما فاضلا ، بارعا فى الحديث
الشريف ، وغير ذلك من العلوم . وكان كثير
الاطلاع ، نادرة فى عصره ، بقية السلف ، وعمدة
الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحو من ستمائة
تأليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل ،
وكانت مدة حياته نحو من اثنتين وستين سنة
وأشهر ، وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة تسع
وأربعين وثمانمائة ، ولما مات دفن بجوار خاتنة
قوصون ، التى هى خارج باب القرافة ، قيل لما
غسل أخذ الغاسل قميصه ، وقبعه ، فاشتري بعض
الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرك به ،
وابتاع قبعه الذى كان على رأسه بثلاثة دنانير
للتبرك به ، ولما مات رثاه شيخنا عبد الباسط بن
خليل الحنفى بهذه الأبيات وهو قوله :

مات جلال الدين غوث الورى

مجتهد العصر امام الوجود

وحافظ السنة مهدي الهدى

ومرشد الضال لنفع يعود

فيا عيون انهملى بعده

ويا قلوب انقطرى بالوقود

واظلمى دىناى اذ حق ذا

بل حق أن ترعد فيك الرعود

وحق للضوء بأن ينطفى

وحق للقائم فيك القعود

وحق للنور بأن يختفى
وللىالى البيض أن تبق سود

وحق للناس بأن يحزنوا

بل حق أن كلا بنفس يجود

وحق للأجبال خرا وأن

تطوى السماء طبا كيوم الوعود

وأن يغور الماء والأرض أن

تمسك اذ عم المصاب الوجود

مصيبة جلت فحلت بنا

وأورثت نار اشتعال الكبود

صبرنا الله عليها وأو

لاه نعيما حل دار الخلود

وعمه منه بوبل الرضا

والغيث بالرحمة بين اللحدود

وفيه مالت مثذنة جامع السلطان الذى أنشأه
بالشرابشين . فلما تشققت وآلت الى السقوط
رسم بهدمها ، وقد ثقلت من علوها كون أنها
بأربعة رءوس ، فلما هدمت أعيدت على الصحة ،
وقد بنى علوها بالطوب وصنعوا عليه قاشانى
أزرق . وقد تقدم مثل هذه الواقعة للمؤيد شيخ ،
فلما بنى جامعته الذى هو داخل باب زويلة مالت
مثذنته الشرقية عند انتهاء العمل منها فأمر بهدمها ،
فهدمت وأعيدت على ما كانت عليه وذلك فى سنة
احدى وعشرين وثمانمائة .

وفى جمادى الآخرة — فى يوم مستهله — أنفق
السلطان على من تعين من العسكر صحبة التجريدة
المعينة الى بلاد الهند ، فأعطى لكل مملوك عشرين
دينارا وصرف لهم جامكية أربعة أشهر معجلا
وكذلك العليق ، فكان جملة ما صرف لهم نحو

من خمسين دينارا لكل شخص ، وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد ناس ، وبعض ممالك سلطانية ، والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والفعلاء ، بسبب تلك الأبراج التى أنشأها السلطان فى جدة وأنشاء السور .

وفى يوم الخميس ثانيه ، كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شهاب الدين أحمد المعروف بابن فرفور الدمشقى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، فى سعة من المال ، ذا شهامة وعظمة ، وقد جمع بين قضاء الشافعية بمصر والشام وهذا لم يتفق لأحد قبله من القضاة ، ولما توفى الشهاب بن فرفور رسم السلطان لقاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، بأن يخطب به ويصلى صلاة الجمعة بالقلعة الى أن يلى قاض شافعى .

فلما كان يوم الجمعة خرج عبد البر وخطب بالسلطان وهو لابس السواد ، فصعد المنبر وخطب خطبة مختصرة .

وفى يوم الاثنين سادسه ، خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهند ، وكان لها يوم مشهود ، فكان باش الممالك الذين توجهوا فى المراكب الى جدة ، والتركمان والعبيد الذين بها ، حسين المشرف ، وباش المغاربة الذين بها ، الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى ، فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك فى مراكب الى جدة ، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك .

وفيه كانت وفاة الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير الأولياء .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الشيخ ولى الدين محمد ولد قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور وقرره فى قضاء الشافعية بدمشق عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يلتح بعد .

وفى يوم الجمعة رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب به ويصلى الجمعة كما فعل فى الجمعة الماضية .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على الشيخ جمال الدين القلقشندى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن شهاب الدين بن فرفور بحكم وفاته .

ومن الخوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا من الأمراء العشراوات ، يقال له مغلباى المقترع ، قتله عبده تحت الليل ، فلما بلغ السلطان ذلك ، شنق العبد على باب سيده فى مكان قتله به .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على أقبای كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضا عن أزبك الصوفى الذى كان بها وصرف عنها .

وفى رجب — فى يوم مستهله — كانت وفاة الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان شابا رئيسا حشما ، أضيلا عريقا ، سبط الملك الظاهر جقمق ، وأمه خوند بنت البارزى ، ابنة الظاهر جقمق ، وكان من جملة الأمراء العشراوات . وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابعه خلع السلطان على شخص يقال له أقطوه ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن أقبای بحكم انتقاله الى نيابة غزة .

وفى يوم الأحد سابعه جلس السلطان بالميدان
عرضوا عليه أبقار الجراريف وأبقار الدواليب ،
ما عرضوا على السلطان ، ورجعوا ، نهب صبيان
خولة عدد دكاكين من باب النصر الى باب زويلة .
كادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم عن آخرها
سج أصحاب البضائع واستغاثوا وطلعوا الى
سلطان وقد نهب لهم بضائع وقماش ، نحو من
حسمائة دينار ، فلما بلغ السلطان ذلك تشوش
من الغاية ، ووبخ الجمالى يوسف بن أبى أصبع
— وكان هو المتحدث على تلك الجهات — وألزمه
حضار من فعل ذلك من صبيان المربعين ، فنزل
ترينى بركات بن موسى ويوسف بن أبى أصبع
يحررا ما نهب للناس ، ويرضاهم فى بضائعهم
عسبما رسم السلطان بذلك ، فلما نزل ابن موسى
يوسف بن أبى أصبع قبضا على جماعة من
عمل ذلك ، فرسم السلطان بشنق أربعة أنفس منهم
ضرب جماعة منهم بالمقارع ، وكانت هذه الواقعة
من أشنع الوقائع .

وفيه خرج الأمير قايتباى الرمضانى ، الذى
على نيابة الكرك ، الى محل ولايته وخرج صحبته
لعسكر المعين الى الكرك بسبب فساد عربان
بنى لام .

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد
لأمير قانصوه قرا ، وكان أصله من مماليك
الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض السلطان المحاييس فأطلق منهم
جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه خرج الأمير أقبابى كاشف الشرقية الذى
قرر فى نيابة غزة الى محل ولايته بها .

وفيه خلغ السلطان على الأمير خاير بك كاشف

الغربية أحد الأمراء المقدمين وقرره أمير حاج
بركب المحمل ، وقرر قنبل رأس نوبة ثانى بالركب
الأول ، ولم يتم ذلك وبطل .

وفيه خلغ السلطان على شخص من الأمراء
الطبلخانات يقال له قانى باى العثمانى ، وقرره فى
نيابة صفد — عوضا عن قانصوه قرا — بحكم
وفاته .

وفيه حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له
مهدي ، فلما مثل بين يدى السلطان قامت عليه
البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستنجى
به ، وذكروا عنه أشياء كثيرة من هذا النمط
تخالف الشريعة ، فأرسله السلطان الى قاضى
القضاة المالكى ، فحكم بكفره ، بموجب ما قامت
به عليه البينة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة
الصالحية ، بعد أن أشهروه على جبل وهو عريان .
وفيه كان دخول الأمير طراباى رأس نوبة
النوب ، على أخت خوند الخاصبكية وهى زوجة
الأمير أقبردى الدوادار ، فكان لهما مهم حافل .
وفيه خرج قانى باى العثمانى الذى قرر فى
نيابة صفد الى محل ولايته بها .

وفيه وقعت نادرة لطيفة وهى أن الشيخ جمال
الدين السلمونى الشاعر ، هجا القاضى معين الدين
ابن شمس ، وكيل بيت المال هجوا فاحشا ، فمن
جملة ذلك هذا البيت :

وحرفته فاقت على كل حرفه

يركب ياقوتا على فص خاتمه

فلما بلغ معين الدين ذلك ، شكوا السلمونى الى
السلطان ، فقال له ان وجب عليه شيء بالشرع
أدبه ، فنزل ووضع السلمونى فى الحديد ، وأتى
به الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن
الشحنة ، وأدعى عليه ، فضربه عبد البر وعزده
وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس . وقد

ورد في بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وقد قال بعض شعراء العصر في واقعة السلموني بيتين هما :

وشاعر قد هجا شخصا فحل به

من حاكم الشرع تويخ وتعزير

فأشهره وجازوه بفعلته

تبا له شاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله معين الدين بن شمس بالسلموني ، شق ذلك عليه ووكل به وأمر بقطع لسانه ، فانه قال السلطان رسم لي بأن أشهر السلموني ، ولم يكن السلطان رسم بشيء من ذلك ، واستمر ابن شمس في الترسيم مدة طويلة حتى تراضى السلطان بمال له صورة ، حتى رضى عليه وألبسه خلعة .

وفي رمضان تغير خاطر السلطان على شخص من الأتراك ، يقال له الشيخ سنطباي ، وكان يدعى التصوف ، وكان مقيما بالمدرسة السنقرية التي تجاه خانقة سعيد السعداء ، فوشى به عند السلطان أنه يضرب الدراهم والدنانير الزغل ، فأرسل قبض عليه ، فوجد عنده عدة ضرب الزغل ، وكان عنده جماعة يفعلون ذلك ، فأمر السلطان بقطع أيديهم ، وأما الشيخ سنطباي فشنع فيه الأتابكي قرقماس من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه الى القدس ويقم به بظالا . وكان الشيخ سنطباي أصله من ممالك الأشراف قايتباي ، وكان يدعى الصلاح فأنكشف ربه وظهر للناس أمره ، وقد قال فيه القائل :

يا من بضرب الفلس صار مشتغل

وما رأيناه قط يضرب ذهب

الا بطول الدهر ضراب فلوس

ولحد ضرب الفلس عقله ذهب

وفيه جاء شخص من بلاد جركس وهو صبي صغير زعموا أنه أخو السلطان ، وكذلك حضر آخر زعموا أنه أخو الأمير أزدمر الدوادار فأنزلوهما بالطبقة .

وفيه كان ختم قراءة صحيح البخاري ، وكان الختم بالحوش السلطاني ، وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة بأن البخاري يقرأ بالقصر ، ويختم بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود ، وتفرق هناك الخلع على القضاة ومشايخ العلم وكذلك الصرر ، فبطل ذلك وصار البخاري يقرأ بجامع القلعة ، ويختم بالحوش ، فتكون ساعة يسيرة ، ثم ينفض ذلك المجلس عن أمر هين .

وفي شوال كان موكب العيد حافلا وفرقت الخلع على الأمراء ونزلوا الى دورهم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن أهل المدينة ثاروا على نائبها أركماس بن طراباي ، ورجموه وأخرجوه من المدينة ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل بالحضور الى أركماس نائب الشام ، وعين نيابة الشام الى سييأي أمير سلاح . ثم ان السلطان قبل أن يخلع عليه ، رسم له بأن يتوجه الى بيت الأمير أزدمر الدوادار ، وأن يحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، ويحلفوه بحضرتهم . فلما تكامل المجلس أحضروا سييأي وحلفوه على مصحف شريف ، وكتبوا عليه صورة حلف بأنه لا يعصى على السلطان ، ولا يخامر ولا يخون الأيمان ، وشهد عليه الخليفة والقضاة الأربعة بذلك .

ثم في يوم الخميس سابع عشره خلع السلطان على سيباي وقرره في نيابة الشام عوضا عن أركماس الذي كان بها ، فنزل من القلعة في موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان بني ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومي أمير خليص ، وقد اشتد الأمر في ذلك جدا ، فلما تحقق السلطان ذلك أمر بإبطال التوجه الى الحجاز في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأعمال قاطبة وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلث في الدين . وقد حضر الركب التكروري والركب المغربي ولم يحج منهم أحد في تلك السنة . ثم ان السلطان أرسل كسوة الكعبة الشريفة ، وصرر الحرمين ، والزيت ، من البحر المالح في مراكب من الطور ، ويتوجهون من هناك الى جدة .

ثم ان السلطان عزل يحيى بن سبع عن أمرة الينبع وولى بها شخصا من أولاد دراج الذي كان أمير الينبع قبل ذلك ، ولم يسمع من مبتدأ دولة الأتراك والى الآن ، بأن الحجاج امتنع خروجهم الى مكة سوى هذه السنة ، وهي سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وقد تقدم ما وقع من الجازاني في حق الحجاج بالركب الشامي والعراقي والمصري ، وما صنع بالمجاورين بمكة في سنة ثمان وتسعمائة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وقد جرى على الناس من الحوادث القديمة ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن في سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، في دولة الخليفة القاهر بالله أبي منصور محمد بن الخليفة المعتضد بالله العباسي ، خليفة بغداد ، لما تغلبت على الخلفاء طائفة من العربان يقال لهم القرامطة ، وكان أميرهم شخصا يسمى أبو ظاهر القرمطي ، وكان يدعى أنه علوي . من

أولاد الامام على رضى الله عنه ، وكان يقول نحن أفضل من بنى العباس ، وكانت هذه القبيلة دون الألف انسان ، وكان أبو ظاهر القرمطي خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه القرامطة يسكنون بهجر ، فلما خرج ركب الحاج من بغداد ، وكان أمير الركب يسمى منصور الديلمي ، فلما وصل بالحاج الى مكة ، وأقام بها الى يوم الصعود ، هجم عليهم أبو ظاهر القرمطي بسن معه من العربان ، فقتل محارب أمير مكة ، وقتل منصور الديلمي أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التي بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل في هذه الحركة نحو من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتلاء ببئر زمزم حتى امتلأت بالقتلاء ثم دخل الى البيت الشريف وأخذ ما كان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة ، وقلع الحجر الأسود وعري الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها .

ثم ان أبا ظاهر القرمطي نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى هجر ، واستمر الحج منقطعا من بغداد وغيرها من البلاد نحو من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت أحد .

فلما كانت خلافة الرازي بالله أحمد بن المقتدر ، مشى أبو على بن يحيى العلوي بين طائفة هذه القرامطة وبين الخليفة بالصلح ، حتى أذنوا للناس بالحج ، وجعلوا على الحجاج في كل سنة نحو من خمسين ألف دينار تعطى حتى يمكنهم من الدخول الى مكة ، وهذا أول مكس أخذ على الحجاج من يومئذ ، وكان ذلك في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة . وقيل ان أبا على بن يحيى العلوي تلفظ بالقرامطة حتى ردوا الحجر

الأسود وباب الكعبة الى مكانهما بعد جهد كبير .
أورد ذلك ابن الجوزى ، انتهى ما أوردناه من
هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبار دولة
الغورى .

وفى ذى القعدة ، ركب القاضى كاتب السر
محمود بن أجا ، وطلع الى القلعة ، وكان له مدة
طويلة وهو منقطع فى داره بسبب توعك جسده
حتى شفى ، فلما طلع الى القلعة ، خلع عليه
السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه
القضاة الأربعة وأعيان المباشرين قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير جانم
المصبغة ، الذى كان حاجب الحجاب بمصر ،
وخرج مع الأمير أقبردى الدوادار لما انكسر ، فلما
مات أقبردى أقام جانم هذا بدمشق ، وقد نسى
أمره مدة طويلة ، فشنع فيه بعض الأمراء ، فرسم
السلطان باحضاره الى القاهرة ، فلما وصل الى
غزة مرض واستمر عليلا حتى دخل خانقة
سرياقوس ، فمات بها ولم يدخل الى القاهرة ،
فلما مات هناك حملت جثته ودفن بالصحرى .
وكان أميرا جليلا ، رئيسا حثما ، وولى عدة
نيابات سنية ثم بقى حاجب الحجاب بمصر ، وكان
من حلف أقبردى الدوادار ، وجرى عليه شذائد
ومحن ، وفاته القتل مرارا عديدة ، وكان من خيار
ممالك الأشرف قايتباى .

وفيه سافر تغرى بردى الترجمان الى نحو بلاد
الفرنج ، وأخذ معه كتاب البترك ، وكان قد تزايد
تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه ، خلع السلطان
على قاضى القضاة الشافعى ، محبى الدين
عبد القادر بن النقيب ، وأعادته الى قضاء الشافعية
— عوضا عن جمال الدين القلقشندى — بحكم

صرفه عنها ، فكانت مدة جمال الدين القلقشندى
فى القضاء نحو من ستة أشهر ، وقد سعى فيها
بثلاثة آلاف دينار ، ثم سعى عليه ابن النقيب
بخمسة آلاف دينار ، وغرم نحو من ألفى دينار
للذى سعى له من الأمراء وغيرهم ، وكان الساعى
له الأمير أزدمر الدوادار وغيره من خواص
السلطان ، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب
بمصر ، وقد نقد منه مال له صورة على ولاية
القضاء ، ولم يقيم بها فى الثلاث مرات الا مددا
يسيرة ويعزل عنها ، فكان كما يقال فى المعنى :

يفنى البخیل بجمع المال مدته
وللحوادث والأيام ما يدع

كدودة القز ما تبنيه تهدمه
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وكان غير مشكور السيرة ، رث الهيئة ، يجافى
النفس ، يزدريه كل من يراه ، وقد قال فيه بعض
شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما
الى جدال بحكم غير منفصل

يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها
جهرا ويقبل سرا بكرة الجمل

وقال آخر وقد أفحش فى حقه جدا ، فلا حول
ولا قوة الا بالله وأنا استغفر الله تعالى من ذلك :

ياأيها الناس قسوا واسمعوا
صفات قاضينا التى تطرب

يلوط . يزنى . ينتشى . يرتشى
ينم . يقضى بالهوى . يكذب

وفى هذا الشهر كثر الحريق بالقاهرة ، وصار
فى كل ليلة يحترق عدة أماكن ، بسبب الدريس ،
الذى يكون بيوت الأتراك ، وكانت الممالك

أكثر من خزن الدريس في هذه السنة ، وصارت
الممالك يسكنون الناس من الطرقات غصبا ،
ويحبسونهم عندهم أياما بسبب ثقل الدريس ،
وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك ، حتى صنف
العوام رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس ... والا يحملوك الدريس

وفي ذى الحجة — في يوم الخميس سابعه —
خرج سيباى الذى قرر في نيابة الشام ، فكان له
يوم مشهود .

وفيه ، في ثامنه ، حضر المقر السيفى أركماس
الذى كان نائب الشام وانفصل عنها ، فلما حضر
وقابل السلطان أكرمه ، وخلع عليه ورسم له بأن
ينزل في الأزبكية ، ويسكن في بيت الأتابكى أزبك .
وفيه بلغ السلطان أن طائفة من الممالك الذين
توجهوا الى الكرك ، صعبة التجريدة ، قد دخل
منهم جماعة في الخفية الى القاهرة من غير اذن
السلطان ، فصار يكبس عليهم ، وحصل لهم
الضرر الشامل من السلطان ، ونادى لهم بأن
يعودوا الى الكرك ، والا تقطع جوامكهم ويحصل
عليهم ما لا خير فيه ، فخرجوا من يومهم على
وجوههم .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ،
وذلك في ثالث عشر بشنس القبطى ، ثم ابتداء
بضرب الكرة ، وكانت الأمراء المقدمون جميعهم ،
حاضرة بمصر لم يكن منهم أحد غائبا في السفر ،
فكانت للسلطان في هذه السنة مواكب مشهودة
حافلة ، كما يقال في المعنى في ضرب الكرة :

يا حسنها كرة كالنجم سائرة

قد طال ترددها بين الجواكين

تفرق الهم اذ كانت مؤلفة

بين القلوب بأراء السلاطين

لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا

مع الملوك وهم بعض المساكين

وفيهما أنعم السلطان على قرابته الأمير طومان
باى ابن أخيه بتقدمة ألف ، مضافا لما بيده من
شادية الشراب خاناه .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأنه وقعت هناك
معركة مهولة بين شيخ العرب بيبرس بن بقر ،
وبين نجم شيخ العايد ، فقتل في هذه المعركة
جماعة كثيرة من العربان ، واستمر الحرب ثائرا
بين الفريقين ، ودخل أقطوه الكاشف الى القاهرة
وهو مشحوت من العرب .

وفيه حضر شخص من أولاد على دولات ،
أخى سوار ، أمير التركمان وصحبته تقدمه حافلة
للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه ، ثم قرره في تقدمه
ألف بخلب فيما بعد .

وقد وقع في هذه السنة الخصب والرخاء في
سائر الغلال والبضائع ... وكانت سنة هادئة من
الفتن بين الأتراك ، ولكن كان معظم الأمر فيها
بطلان الحاج بسبب عصيان يحيى بن سبع أمير
الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، ولم يبطل
الحاج في هذه السنة كبير أمر أوجب ذلك ، وانما
السلطان أهمل الأمور في أول الأمر حتى تزايدت
الفتن بين قبيلة بنى ابراهيم والتفوا على الجازانى ،
وجرى منهم ما تقدم ذكره ، وغلب القضاء والقدر
في هذا الأمر . والحكم لله فيما يريد .

سنة اثنتى عشرة وتسعمائة (١٥٠٦ - ١٥٠٧) م

فيها — في المحرم — جاءت الأخبار من الكرك
بأن أهل الكرك قد وثبوا على النائب الذى توجه
اليها ، فخرج منها هاربا وأتى الى غزة ، وسبب
ذلك أن نائب الكرك لما تولى عليها أراد أن يظهر

له حرمة ، فشئق حاجب المدينة وأخاه وأولاده ، فما طاق ذلك أهل الكرك ووثبوا عليه ، فلمسا بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على نائب الكرك ، ورسم بنفيه الى القدس بطالا .

وفيه كبا الفرس بالأمير طراباي رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان فانزعجت يده ، ومات الفرس الذي كان تحته ، فأنعى السلطان عليه بفرس غيرها .

وفيه ، في يوم عاشوراء ، أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج ، فاجتمع هناك الجهم الغفير من الفقراء والحرافيش ، ونزل السلطان بنفسه ، ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج ، وصار يعطى لكل انسان من الفقراء من رجل وامرأة ، وكبير وصغير ، أشرفيا ذهبا ، فوقع الازدحام بين الفقراء ، حتى قتل منهم في ذلك اليوم ثلاثة أنفار ، من شدة ازدحامهم ، فكان كما يقال في المعنى :

أفيا له من عمل صالح

يرفعه الله الى أسفل

وقيل انه فرق في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف دينار ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فلما رأى ازدحام الفقراء ، لم ينزل مرة أخرى ، ولم يفرق شيئا ، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى .

وفيه خلع السلطان على ملاج وأعاده الى نيابة القدس ، كما كان أولا ، وأضاف اليه نيابة الكرك والتحدث على مدينة لد والرملة ، وكان ملاج غير مشكور السيرة سيء التدبير في أفعاله .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر أن طائفة بنى ابراهيم قد دخلوا تحت طاعة أمير مكة ، وتلاشى أمر يحيى بن سبع ، فلم يثق السلطان بذلك .

وفي ثامن عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع وعشر أصابع أرجح من النيل الماضى بعشر أصابع .

وفي يوم سلخه خرج ملاج الى محل نيابته بالقدس ، وخرج صحبته المماليك الذين كانوا حضروا من الكرك بغير إذن كما تقدم .

وفي صفر كان ختام ضرب الكرة ، فجمع السلطان الأمراء ، ومد لهم مدة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه أخرج السلطان له خرجا من المماليك ، نحو من أربعمئة مملوك ، وأخرج لهم خيلا وقماشاً ، ولم يخرج من بعد انفصل خرجا سوى هذا ، وصاروا يسمون الأشرفية الغورية .

وفيه حضر القضاة الأربعة ببيت الأمير أزدمر الدوادار بسبب عقد مجلس ، فوقع في ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وبين قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، فتفاوضا في الكلام حتى خرجا في ذلك عن الحد ، فدخل بينهما الأمير أزدمر الدوادار حتى سكن الأمر بينهما قليلا ، وسبب ذلك لأجل خزانة الكتب التى بالمدرسة المحمودية ، وأمر هذه الواقعة قد اشتهر بين الناس .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ووقفوا بالجبل ، فتنكد السلطان بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك في حقه نقضا بين ملوك اليمن وغيرها .

وفيه جاءت الأخبار من اليمن بأن التجريدة

التي خرجت الى الهند ، بسبب تعبث الفرنج ،
لما وصلوا الى الينبع اتفقوا مع يحيى بن سبع
أمير الينبع فهرب من وجههم ، وكانت الكسرة
عليه وقتل من عربانه لجماعة كثيرة ، وأحرقوا
الدور التي على ساحل البحر الملح التي ينسدر
الينبع ، وخربوا غالب دكاكينه ، وشتتوا العربان
التي به . ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل
الى جدة ، شرع حسين باش العسكر وسنقر أحد
الزردكاشية ، وعلى المسلاتى المغربى ، فى بناء
أبراج على ساحل بندر جدة ، وكان هذا عين
الصواب ، ومن أحسن المباني .

ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى
سواكن ملكوها بالأمان واحتاطوا على ما فيها من
بهار وغيره وشتتوا أهلها عنها ، فانشرح السلطان
لهذه الأخبار .

وفيه خلع السلطان على ابن على دولات وأذن
له بالسفر الى أبيه ، وعين معه شاد بك نائب
المهمندار ، وأرسل صحبته مقدمة حافلة الى على
دولات .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين الزعر فى الرملة
تحت القلعة ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب ومعه
جماعة من المماليك وهم لابسون آلة السلاح ،
فاتقوا معهم فى وسط الرملة فقتل من الزعر فى
ذلك اليوم سبعة أنفار وانهزم الباقون .

ومن الحوادث أن جارية سوداء قتلت سبتها
وابن سبتها وأخا سبتها ، فلما عرضت على السلطان
رسم بقطع يدها وشهزت فى القاهرة ، ثم كلبت
وعلفت عند خوخة المغازلين فى مكان قتلت فيه
سبتها .

وفيه خلع السلطان على قانصوه روح لو ،
وأعيد الى كشوفية الشرقية كما كان أولا ، وقد

اضطربت أحوال الجهات الشرقية الى الغاية فخرج
قانصوه المذكور ، وصحبته جماعة كثيرة من
العسكر ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا من
جملة الأمراء المقدمين فعظم أمره جدا .

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة الى القلعة
لأجل التهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أصلح
السلطان بين القاضى الشافعى عبد القادر بن النقيب ،
وبين القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وكان
بينهما وحشة كما تقدم ، فلما اصطلحا خلع
السلطان عليهما ونزلا الى دورهما .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأن العرب
العصاة قطعوا جسر سنيت والحلفاية على الجرون
حتى غرقت ، وكان النيل قد أشرف على الوفاء ،
وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتوقف النيل
عن الزيادة لأجل المقاطع التى قطعت عليه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفى العشرين منه كان وفاء النيل المبارك ، وقد
أوفى فى العشرين من مسرى وكبر فى الحادى
والعشرين منها ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس ،
وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن الأتابكى
قرقماس ، لما أراد أن يطلع من الحراقة ، عند
المقياس ثر خازن داره على رأسه خفاف الذهب
والفضة ، فتكاثر عليه الناس ، فجفل الفرس به
فقلبه فى البحر ، فلاقته النواتية وطلعوا به فى
المركب ، وقد انبل شاشه وقماشه حتى غيرهما ،
وتوجه الى نحو المقياس وهو ماش ، وقيل أن
الفرس غرق ، وطلعوا به وهو يعرج . وحصل
للأتابكى قرقماس فى ذلك اليوم مشقة زائدة
بسبب ذلك .

ومن الحوادث في هذا الشهر كان انتهاء العمل من الجامع الذي أنشأه الشيخ عبد القادر الدشطوطي ، بجوار بركة الرطلي ، على أرض الطبالة ، وبركة القرع ، فلما كمل خطب به الشيخ علاء الدين الاخيمسي النقيب ، واجتمع به في ذلك اليوم قضاة القضاة وأعيان الناس ، وكان يوما مشهودا . ثم ان الشيخ عبد القادر أشار بفتح فم بركة القرع ، حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلي ، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمي ، من عند ديل التمساح ، فلما كان يوم الجمعة دخل فيها المراكب وانطلقت لها ألسن النساء بالزغاريت ، وكان يوما مشهودا ، وعد ذلك من النوادر ، وصارت المراكب تدخلها في كل سنة من يومئذ .

* * *

وفي ربيع الآخر تغير خاطر السلطان على أربعة من الأمراء الطلبة خانات ، فقبض عليهم ، وهم جان بردي تاجر الممالك ، وقلج أمير آخور ثاني ، ويبردي أخو جان بلاط الذي تسلطن ، وتم المقرى . فلما قبض عليهم قيدهم . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان أن هؤلاء الأمراء كانوا قد اتفقوا على قتله لما ينزل الى الميدان وقت الظهر ، وقد أقر بعضهم على نفسه بصحة ما نقل عنهم ، فلما تحقق السلطان ذلك قبض عليهم ورسم بنفيهم . وفيه توفي القاضي شمس الدين محمد بن مزاحم الطرابلسي ناظر الاسطبل ، وكان رئيسا حشا ، وولى عدة وظائف سنية ، لكنه كان غير مشكور السيرة ، وعنده ظلم وعسف .

وفيه خلع السلطان على الأمير ماماي جوشن ، وقرره كاشف الغريبة ، عوضا عن الأمير خاير بك ابن اينال الذي كان بها ، وقد تعين باش التجريدة الى الحجاز .

وفيه وقع أن شخصا من الأتراك ، يسمى ماماي الداودي ، أبا الأمير أبي يزيد أحد المقدمين ، ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بغل ، فلما ضربه سال دمه ، فطلع التاجر شكاه الى السلطان ، فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، وأن ينفيه الى الواح . فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده تلك الليلة ، فحصل على نقيب الجيش ما لا خير فيه بسببه ... فلما هرب ماماي المذكور ، اختفى الأمير أبو يزيد بسبب ذلك ، ثم ان ماماي توجه الى الأتابكي قرقماس ليشفع فيه عند السلطان ، فطلع به وقابل السلطان ، فحط عليه وقصد ضربه ثم رسم بنفيه الى الواح . وكان ماماي هذا من شرار الممالك ، وكان مشددا على جهات المكوس بقطيا

وفي هذا الشهر وقع الاضطراب بين الأمراء ، وأشيع أمر الوثوب على السلطان بسبب الأمراء الذين رسم بنفيهم كما تقدم ، وقد صمم على نفيهم لأمر أوجب ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على الزيني فرج الحاجب ، ورسم بتسليمه الى بركات بن موسى ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، ثم آل أمره الى أن حط عنه خمسة آلاف دينار ، ويرد خمسة آلاف ، فباع جميع قماشة ورزقه وما يملكه ، وأقام مدة طويلة وهو في التشكيل به ، وقاسى شداثد ومحن عظيمة . وسبب ذلك أن أنصبای حاجب الحجاب أمره أن يحرس بعض الجسور في أيام النيل ، فامتنع من ذلك ، فطلع أنصبای وشكاه الى السلطان ، فجري عليه ما جرى ، وموجب هذا كله خسة نفسه وشحه أوجب ذلك ، كما يقال :

ورب جار لنا شحيح ليس له بالجميل عاده
أعظم شيء تراه منه مساكم الله بالسعادة

وفيه جلس السلطان بالحوش ، وأحضر المصحف
العثماني ، وحلف عليه سائر الامراء من الأكابر
والأصاغر ، وموجب ذلك كثرة الاشاعات بأمر
الوثوب على السلطان .

وفي ذلك اليوم خلع على الأمير نوروز أغات
أزدهر الدوادار وقرره تاجر الممالك عوضا عن
الأمير جان بردى المغضوب عليه .

وفيه خلع على بيبرس قريب السلطان ، وقرر
أمير آخور ثاني ، عوضا عن قلج المغضوب عليه .
وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد
ابن فخر الدين ، كاتب الممالك ، وقرره في نظر
الاسطبل عوضا عن ابن مزاحم بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان باخراج هؤلاء الأمراء الذين
قبض عليهم ، فنفي بيبردى أخا الأشرف جان بلاط
وتنم المقرى الى البلاد الشامية ، فتسلمهما الوالى
وهما في قيود ، وتوجه بهما الى الخانكاه ، فرسم
لأحدهما بالتوجه الى طرابلس ، والآخر الى حلب .
وأما جان بردى وقلج فاستمرا في البرج ، وهما
في قيود وزناجير حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفيه جاءت الأخبار من الكرك بأن عربان بنى
لام كسروا ملاح نائب القدس ، وقتلوا من
الممالك السلطانية الذين خرجوا معه في التجريدة
جانباً كبيراً ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى
الغاية ، وكتب عدة مراسيم الى نائب الشام ، ونائب
طرابلس ، ونائب صفد ، بأن يجمعوا العساكر
وينحفوا على العربان من بنى لام .

وفي هذا الشهر تزايد فساد العربان بالشرقية
والغربية ، حتى أعياء الكشف أمرهم ، واضطربت
الأحوال جدا .

وفيه توفي الصارمى ابراهيم بن جكم ، وكان
من أعيان أولاد الناس وكان لا بأس به .

وفيه كانت الأسعار مشتتة في سائر البضائع
والغلال .

وفي جمادى الأولى تغير خاطر السلطان على
القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب الممالك ،
ورسم عليه أربعة من الخاصكية ، وأقام مدة وهو
في الترسيم ، وقرر عليه مالا حتى يرده لما تقتضيه
الآراء الشريفة في أمره .

وفي يوم الاثنين عاشره أنفق السلطان على
العسكر المعين الى تجريدة الحجاز ، فأنفق لكل
مملوك مائة دينار وسبعة أشرفية ثمن جمل ، وقرر
معهم بأن يكون السفر أول رجب ، فشرعوا في عمل
البرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى فخر الدين
كاتب الممالك ، وأعادته الى وظيفته ، بعد أن أورد
نحو من ألفى دينار وكسور .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعاً
وأصبعين من عشرين ذراعاً ، وهبط قبل دخول بابه
وكان نيلاً متوسطاً .

وفيه عقد للأمير طومان باى قريب السلطان ،
على ابنة الأمير أقبردى الدوادار ، وكان العقد
بالقلعة وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان
الناس ، وكان الأمير طومان باى يومئذ في غاية
العظمة ، وقد جمع بين شادية الشرايخانة وتقديم
ألف .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص يسمى عمر
— وكان مباشراً بالواح — فشنق على باب زويله ،
وشنق معه شخص آخر يسمى الشيخ حسن ، من
مباشري الواح أيضاً .

وفي أواخر هذا الشهر رسم السلطان بعقد
مجلس في الميدان ، فاجتمع هناك القضاة الأربعة ،

وذلك بسبب شخص يسمى شمس الدين بن أبى عبيد ، وقصته مشهورة بين الناس ، فوقع في ذلك المجلس بسببه بين القضاة ما لا خير فيه ، وآل أمره بأن السلطان رسم بعزله عزلا مؤبدا ، وانفصل المجلس على ذلك .

وفي جمادى الآخرة قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد خالف العادة فلبس الصوف في سادس عشرين بابه قبل دخول هاتور بأربعة أيام ، ولم يكن الحال يقتضى ذلك ولا أفرط البرد في تلك الأيام ، فعند ذلك من النوادر ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من أبناء التجار ، يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته في بنية خشب ، وأحرقها بالنار لأمر وقع منها ... وكانت هذه الواقعة برشيد . فلما بلغ السلطان ذلك ، أحضره في الحديد ، فلما حضر عاقبه على ذلك أشد العقوبة فلم يقر بشيء ، فاحتاط على موجوده جميعا وسلب نعمته ، وكان في سعة من المال ، ثم سجنه وأقام به مدة طويلة ، نحو من أربع سنين ، وقاسى شدائد ومحن وأمره مشهور .

وفيه أنعم السلطان على أركماس بن طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف ، وجعل له مرتبا على الذخيرة من غير اقطاع ، ورتب في كل شهر له ألف دينار ، وفي كل سنة ألف أردب قمح ، ورسم له بأن يقف في المواكب فوق الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفا من تخفيفه التى بالقرون الطوال فألبسها له ، وقلع من عليه سلارى وشق وألبسه له ، فحصل له في

ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان ، واستمر ساكنا بالأزبكية .

وفيه توفي الركنى عمر بن تغرى بردى السيفى ، سودون بقجة ، الذى كان دوادار الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما كثير العشرة للناس ، وكان لا بأس به في أولاد الناس .

وفيه سافر ناظر الخاص علاء الدين بن الامام الى جهة الطور ، بسبب تجهيز العليق لأجل العسكر المعين الى مكة ، فخرج ومعه جماعة من المماليك السلطانية .

وفي رجب خلع السلطان على شرف الدين النابلسى الأستاذار ، باستمراره في الأستاذارية ، وكان أشيع عزله .

وفي يوم الاثنين سابعه حضر دولات باى ، قرابة العادل طومان باى الذى كان نائب الشام ، وولى نيابة طرابلس أيضا ، وكان أظهر العصيان والتف على سيباى نائب حلب . فلما حضر سيباى وقابل السلطان ، فر دولات باى والتجأ الى على دولات وأقام عنده . فأرسل على دولات ولده الى السلطان ليشفع في دولات باى ، فأجابه السلطان الى ذلك ، وأرسل له أمانا على يد شاد بك نائب المهنسدار . فلما وثق من ذلك حضر الى القاهرة ، وقد حدثت من دولات باى هذا أمور شتى ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، على أن يشير فتنة كبيرة ، فما طلع من يده شيء ، وآل أمره الى أن حضر بالأمان ، فلما قابل السلطان حمل تحت ابظه ثوبا بعلبكيا أى كفته ، كما فعل قانصوه خمسمائة فعفا عنه السلطان ، وخلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة في موكب حافل .

وفي هذا الشهر خرج العسكر المعين الى مكة ، وكان باش العسكر خاير بك بن اينال كاشف الغربية ، أحد المقدمين ، وصحبته قنك بن شاد بك رأس نوبة ثاني ، وخرج صحبتهم جماعة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، وخرج صحبتهم هجار بن دراج الذي قرر في امرة الينبع ، عوضا عن يحيى بن سبع ، وخرج صحبتهم المحمل الشريف ، فكان لهم يوم مشهود ... لكن رسم السلطان بأن امرأة لا تخرج صحبة العسكر ، ومنعوا من ذلك ، وخرج صحبة الأمير خاير بك نحو من مائة قواص ، فأقام المحمل لما خرج بالريدانية الى يوم الأربعاء ، تاسعه ، ثم رحل من هناك صحبة العسكر . ولما خرج الأمير خاير بك رسم السلطان لجان بردى ، تاجر المماليك الذي كان غضب عليه وسجنه بالبرج ، بأن يخرج صحبة العسكر منفا الى مكة ويقيم بها .

وفي ذلك اليوم رسم باخراج قلج أمير آخور ثاني الى حلب منفا ، وقد تقدم أنه غضب عليه . وفي يوم الجمعة حادى عشره صلى السلطان بالجامع ، وجلس على باب الستارة ، وخلع على الأمير دولات باي المقدم ذكره ، وقرره في امرة السلاح عوضا عن سيباي بحكم انتقاله الى نيابة الشام .

وفي شعبان عرض السلطان المحاييس والنساء التي بالحجرة ، وأطلق منهم جماعة وصالح عنهم من أرباب الديون من ماله .

وفيه وصل الى السلطان من البلاد الشامية صناديق خشب وفيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامى وكشرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب ، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض ، وسبوسان ،

وزنبق ، وغير ذلك من الأزهار الشامية ، حتى أحضر اليه شجرة جوز هند بطينها ... فغرس ذلك جميعه بالميدان الذي تحت القلعة ، فكانوا نحوا من مائة وخمسين حملا ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة .

وقد تقدم أنه أنشأ به مناظر ومقاعد وأماكن للمحاكمات ، ورمى بأرضه الأحمال الطين . وكان السلطان مولعا بغرس الأشجار ، وحب رؤية الأزهار ، والرياضات . وهذه الأخبار تقرب من أخبار خمارويه بن أحمد بن طولون ، حيث أنشأ بستانا بالقرب من جامع أبيه الذي أنشأه بأعلى الكبش ، وقد تقدم ذكر ذلك . ولما كملت عمارة هذا الميدان صار من جملة متنزهات الديار المصرية ، وصار السلطان ينزل اليه في كل يوم ، ويعمل به المواكب في غالب الأيام ، وكان أكثر إقامته به لأجل التنزه . وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق ، ما بين أشجار ومياه جارية حتى عد ذلك من النوادر ، وقد قلت في المعنى :

عاينت بالميدان بستانا زها
أشجار أومت لنا بسلام

والزهر مختلف به ألوانه
ولقد يجلس ثراه عن نمام

ولقد وقع للأشرف قانصوه الغورى أشياء كثيرة من الفرائب لم تقع لغيره من الملوك السالفة ، وربما يأتى الكلام على ذلك في موضعه .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من الطور ، بأنه قد غرقت مراكب مسارى كبار ، فيها قمح للشيشة التي رتبها الأشرف قايتباي الى المدينة الشريفة ، وكان في تلك المراكب أصناف بضائع بنحو عشرة آلاف دينار للأتابكى قرقماس ، فغرق جميعه ، وغرق فيها ما لا يحصى من رجال ونساء

وصغار عند بركة غرندل ، فشق ذلك على الناس ،
ولا سيما أهل المدينة الشريفة فقد كان بها الغلاء
الشديد .

وفي رمضان في مستهله عرض القاضي شرف
الدين الصغير ، ناظر الدولة ، اللحم والحبز والدقيق
والسكر على السلطان وهو بالميدان ، وطلع به
مزفوفاً على رءوس الحمالين على جاري العادة ،
فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى
المحتسب ، وخلع في ذلك اليوم على شيخ العرب
نجم ، شيخ العايد ، باستمراره على عادته ، وطلع
القضاة الأربعة والخليفة على الدكة بالحوش
جلوساً عاماً ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي ذلك اليوم حضر علاء الدين ناظر
الخاص ، وكان توجه الى الطور بسبب ارسال
عليق العسكر الى المتوجه الى التجريدة ، فأرسله
في مراكب من البحر الملح الى جدة .

وفي يوم الاثنين خامسه طلع الأمراء الى
الخدمة ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان
المصحف العثماني بين العسكر ، وحلف عليه
الأمير دولات باي الذي قرر في امرة السلاح ،
وحلف أيضاً أركماس الذي كان نائب الشام ،
فحلفا للسلطان بأن يكونا تحت طاعته ، فلما حلفا
ألبس كلا منهما سلارى صوف بسمور ، وانفض
الموكب على ذلك .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، خلع السلطان
على قاضي القضاة جمال الدين القلقشندي وأعاده
الى قضاء الشافعية ، وهذه الولاية الثانية ، وعزل
عبد القادر بن النقيب ، فكانت مدته في هذه
الولاية تسعة أشهر ، وعشرين يوماً وهي الولاية
الثالثة . وكان في هذه الولايات في غاية الضنك
وكان غير محبب للناس .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره توفي الأمير
طقطبای قرابة آقيردي الدوادار ، وكان أحد
الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفي ثامن عشره حضر هجان من مكة ، وأخبر
بأن العسكر الذي توجه الى مكة قد انتصر على
عربان بنى ابراهيم ، وهرب يحيى بن سبع ، وقتل
من العربان ما لا يحصى ... فلما تحقق السلطان
ذلك أمر بدق الكوسات ثلاثة أيام ، وسر الناس
قاطبة لهذا الخبر .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره عرضت كسوة
الكعبة على السلطان ، وهي مزفوفة على رءوس
الحمالين ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان يوماً
مشهوداً .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر
الخاص خلع العيد على السلطان وهي مزفوفة ،
فألبسه السلطان خلعة حافلة ، لكونه سار في هذه
السنة بالسداد .

وفي شوال في يوم عيد القطر خلع السلطان
على من له عادة ، وكانت الخلع في غاية الوحاشة
من القماش القطنى الملون ، تساوى الخلعة من ذلك
نحو ثلاثة دنائير ، وكانت الخلع من قديم الزمان
من المنسوجات الحرير الملون بفرو وسنجاب .

ومن جملة ما بطل من شعائر المملكة ،
موكب الوزير في يوم العيد ... فكان ينزل من
القلعة وهو راكب بغلة بزئارى ، وعلى رأسه
طرحه بيضاء ، وتحت عمامته عرقية بذهب — وهي
التي يسمونها الطاسة — ويتقلد بسبحة بأكبر من
غيره ، وتركب قدامه الأوجاقية وهي بالنتريات
الحرير الأصفر قائددة الجنايب ، وقدامه مبخرة
السلطان بالبخور ، ويستمر في هذا الموكب الحافل
حتى يصل الى داره . وآخر من أدركناه يفعل

ذلك صاحب علاء الدين على بن الأهناسي ، فصار الآن تغرى برمش الوزير ، اذا نزل من القلعة في يوم العيد ، لم يشعر به أحد من الناس اذا شق من القاهرة .

وفيه نادى السلطان في القاهرة للمقطعين بأن كل من كان له حصة خراب ينزل يعمرها ، ويجرف جسورها ، ويرد فلاحيتها المتسحين حيث كانوا .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان بالشرقيسة قد قطعوا الطريق على القفل الذي جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه ، وكان فيه حمل مال للسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ، قيل انهم من سياس الأمير أزدمر الدوادار ، وسبب ذلك أنهم قتلوا قتيلا في بولاق فشبقوا هناك .

وفيه حضر أقبای نائب غزة ، وقد حصل بينه وبين ملاج نائب القدس تشاجر فشكاه أقبای الى السلطان ، فأرسل باحضار ملاج فلم يحضر ، وأظهر العصيان ، فتغير خاطر السلطان عليه .

وفيه تغير خاطر السلطان على تغرى برمش الوزير ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وقد رافعهما بعض العمال على أنهما يأخذان الغلال من البلاد بالكيل الكبير ، ويصرفانه من الشئون بالكيل المصرى ، فقرر السلطان عليهما في نظير ذلك عشرة آلاف دينار يردانها للخزائن الشريفة .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشرة ، فأمر في هذا الشهر نحوا من أربعين أميرا ، زياة على ما ذكرناه في أخبار سنة ثمان وتسعمائة .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه ، حضر شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خاير بك المعمار ،

وصحبته نحو من خمسين رأسا ممن قتل في الواقعة من العربان من بنى ابراهيم ، وهى الواقعة الأولى . فلما حضر خاير بك المعمار الى القاهرة أنعم عليه السلطان بامرة طيلخانا بمصر ، فلما حضروا زينت لهم القاهرة ، ودقت الكثوسات ، ودخلت تلك الرءوس وهى مشهورة على رماح ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج ، وينهب أموالهم » . فلما عرضوا على السلطان خلع على خاير بك المعمار ، ورسم بتعليق تلك الرءوس على أبواب القاهرة . وقد قامت حرمة المملكة بعد ما كانت قد انتهكت ، وتبهدلت الأتراك ، وكاد الحاج أن ينقطع عن التوجه الى مكة .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرينه ، توفي الشهابى أحمد بن الأمير تهرباى رأس نوبة النوب ، وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سنة من العمر . وكان لا بأس به رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس .

وفي يوم الاثنين سلخ هذا الشهر رسم السلطان للأمير أزدمر الدوادار ، بأن يخرج على حين غفلة ، ويسافر الى جهة الكرك ونابلس بسبب فساد العربان من بنى لام ، فخرج عن قريب ، وعين معه نحوا من خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

وفي ذى القعدة ، في يوم مستهله ، خلع السلطان على أقبای نائب غزة ، وسافر اليها على عادته . وقد تقدم سبب حضوره الى القاهرة .

وفي ذلك اليوم حضر عدة هجانة من مكة ، وأخبروا بأن العسكر المتوجه الى يحيى بن سبع ، قد انتصر عليه نصره ثانية ، وكان من ملخص أخبار هذه النصر ، أن العسكر لما اتقع مع يحيى ابن سبع ، وانكسر أولا ، توجه الى طائفة من العربان

يقال لهم العنزة ، وهم من بنى لام ، فالتجأ اليهم واستمر مقيما في مكان بالقرب من الينبع .

فلما مضى شهر رمضان ، ودخل شوال حضر الشريف بركات أمير مكة ، وحضر أخوه الشريف قايتباي ، وحضر معهما من العربان نحو من ألف انسان .. فركب الأمير خاير بك باش العسكر ، ووزع تلك العربان ، وأكمنهم في مواضع متفرقة ، فلما وصل العسكر الى مكان يسمى السويق ، بالقرب من الينبع ، أتى اليهم بن سبع ، وقد التف عليه مالك بن الرومي . أمير خليص ، وأمير المدينة ، وحميضة أخو الجازاني ، فاتقوا هناك وقعة مهولة ، فقتل بها من العربان ما لا يحصى ، ومن الأتراك أيضا ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر يحيى بن سبع ومن كان صحبته من العربان . فلما انهزموا خرج عليهم الأكمنة التي أكنمها الأمير خاير بك فاحتاطوا بهم ولم ينج منهم الا القليل ، بعد ما قتل منهم نحو من ثمانمائة انسان ، وأسر منهم قدر ذلك . وجرح في هذه الواقعة الشريف بركات أمير مكة في وجهه ... فلما هرب يحيى بن سبع وقع النهب في نجع العرب فغنم منهم الأتراك أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش ، مما نهبوه من ركب الحاج الشامى والعراقى كما تقدم . وقد تمت الكسرة على يحيى ابن سبع ، وأمير المدينة ، وحميضة أخى الجازاني ، فهربوا ولم يعلم لهم خبر .

فلما صحت هذه الأخبار زينت القاهرة سبعة أيام ، واستمرت الكوسات عمالة ، وصارت الأمراء تخلع على الهجاة الذين أتوا بهذه البشارة ، كوامل وسلاريات ، وكانت هذه النصره على غير القياس . ثم في عقيب ذلك جاءت الأخبار بأن الشريف بركات وأخاه قايتباي ، لما رجعوا من الينبع ،

وأتوا الى خليص ، اتقوا مع مالك بن الرومي أمير خليص واقعة مهولة ، فانكسر ابن الرومي وهرب ، فلما هرب غنم منه عربان الشريف بركات أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش وسلاح ، مما كان نهبه من الحجاج .

وفي هذا الشهر كان دخول الأمير طومان باي قريب السلطان على ابنة الأمير أفرحى الدوادار فكان لها مهم حافل ، وزف لها الجهاز الحافل ، حتى رجت له القاهرة . فلما كان ليلة الدخول مشى في زفة الأمير طومان باي الأتابكى قرقماسى وسائر الأمراء قاطبة ، وبأيديهم الموكبيات الشمع الموقدة . وكانت هذه الزفة تعادل زفة الأمير جانم قرابة الأشرف قايتباي لما تزوج بأخت خوند ابنة خاص بك .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن اليه .

وفي أثناء هذه السنة توفى الشيخ بدر الدين محمد الماردىنى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكانت له يد طائلة في علم الميقات ، وغير ذلك من العلوم .

وفي هذه السنة توفى أيضا خشكلى المعروف بنصف وجه ، وكان أحد الحجاب بالديار المصرية ، وكان مفردا في فتنه ، بعثوا عليه الناس حتى السلطان وكان قد كبر وشاخ .

ومن الحوادث ، أن شخصا من المماليك القرانصة في سن الشيخوخة ، طلع الى القلعة وقت صلاة الصبح ، وكان يوم الجامكية ، فينما هو طالع برأس الصوة واذا بثلاثة أنفار من المماليك الجلبان خرجوا عليه هناك ، فقتلوه بخنجر في بطنه فمات لوقته ، وقتلوا عبده أيضا وكان ماشيا معه حاملا قماشه التى يلبسها عند طلوعه الى القلعة ،

قال أمره بأن ذلك الجندي كان له اقطاع فمرض ، فلما ثقل في المرض طلع هؤلاء المماليك يطلبون اقطاعه ، فقال لهم السلطان : « حتى يموت خذوه » . ثم ان الجندي عوفى من ذلك المرض ، فلما طاب وطلع الى القلعة ، قتله هؤلاء المماليك من قهرهم منه . وأعجب من ذلك أن السلطان أخرج الاقطاع الى غير هؤلاء المماليك الذين قتلوا الجندي ، بسبب اقطاعه ، فكان كما يقال :

فغض الطرف انك من نمير

فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن الحوادث في هذا الشهر ، أن الأمير طراباي رأس نوبة النوب ، كان له حاصل في درب الخازن ، وفيه دريس فحرق بالنهار وقت الظهر ، فذكر بعض الجيران أنه رأى شخصا في صفة فلاح ، كان هناك في عمارة مع جملة الفعلاء ، فرمى في ذلك الدريس نارا ، وربما كان هذا الكلام كذبا عليه ، فأرسل من قبض عليه وضربه بالمقارع ، ثم قطع يده اليمين ، وأشهره في القاهرة ، ثم أراد حرقه بالنار فشفع فيه بعض الأمراء .

وفي سادس عشره ، توفي القاضي بدر الدين محمد ابن القاضي شمس الدين بن محمد القرافي المالكي ، وكان من أعيان نواب المالكية ، وكان ينتسب الى الشيخ عبد الله بن أبي جمرة رحمة الله عليه .

وفيه توفي شخص حريري ، كان له دكان على رأس عطفة الماطيين ، تجاه سوق اليوسفية ، فوجد عنده في دكانه أربعة آلاف دينار ما بين ذهب وفضة وهي موزعة في براني في سقف الدكان ، وكان رث الهيئة يدعى الفقر .

ويقرب من ذلك أن امرأة كانت تستعطى عند جامع ابن طولون ، فلما ماتت وجد عندها سبعمائة

دينار ، ما بين ذهب وفضة ، ووجد عندها أمطار فيها فلوس جدد ، ووجد عندها ربع غزل ، نحو من ثمانمائة ربة ، فتعجب الناس من ذلك .

وفي ذى الحجة ، في يوم سابعه ، خرج الأمير أزدمر الدوادار مسافرا الى جهة الكرك ، ونابلس ، بسبب فساد بني لام ، وخرج صحبته الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تاني بك النجمي ، وجماعة كثيرة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، فكان له يوم مشهود .

وفيه خلع السلطان على قانصوه كاشف الشرقية ، وعلى ماماي جوشن كاشف الغربية ، بأن يكونا على عادتهما ، وكان أشيع عزلهما .

وفيه ركب القاضي كاتب السر محمود بن أجا ، وكان عليلا منقطعا عن الركوب . فلما طلع الى القلعة ، خلع عليه السلطان كاملية ونزل من القلعة في موكب حافل .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، ووافق ذلك خامس بشنس القبطي ، ثم ابتداء يضرب الكرة ، ففي أول يوم من ذلك تقنطر أمير كبير قرقماس ، ووقع الى الأرض ثم قام وركب .

وفيه هجم المنسر على شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خشكلدي الهواري ، وكان دوادار الأتابكي قيت الرحبي ، وكان ساكنا بالقرب من حدرة الكماجين ، فلما هجم عليه المنسر تحت الليل ، ذبحوه وهو راقد في فراشه ، وأخذوا كل ما في البيت ولا يعلم من فعل ذلك . وقد أشيع بين الناس أن زوجة خشكلدي المذكور كانت هي السبب في قتله ، فأقامت مدة وهي في الترسيم بيت بركات بن موسى .

وفي هذه السنة تزايد ظلم الأمير طراباي رأس
نوبة النوب ، وشرع يأخذ أوقاف الناس ، من بلاد
وبيوت وغير ذلك ، فيحطها في ساعة واحدة ،
ويرسم عليهم ، ويأخذ أماكنهم بأبخس الأثمان ،
وكل من امتنع من ذلك يضربه ضرباً مبرحاً ويدعه
في الترسيم حتى يعذر له ، ولا سيما ما وقع ليونس
ابن جانم الزردكاش ، أخذ منه بيت أبيه الذي
أنشأه بزقاق حلب ، فامتنع يونس من ذلك ، فضربه
ضرباً مؤلماً حتى أعذر له ، وهو تحت العقوبة ،
وفعل مثل هذه الواقعة بجماعة كثيرة يطول الشرح
في ذكرهم

ومن الحوادث اللطيفة ما وقع في أواخر هذه
السنة ، أن السلطان أبطل المجرة القديمة التي
كانت عند درب الخولي بمصر العتيقة ، وشرع في
بناء مجرة جديدة ، فجمع المهندسين فاختاروا أن
يكون مبتدأها من عند موردة الخلفاء ، بالقرب
من الجامع الجديد ، فأنشأ هناك بئراً ، وجعل لها
مسرباً من بحر النيل ، وصنع على هذه البئر عادة
سواقى ثقالة ، وأنشأ من هناك مجرة على قناطر
معقودة على دعائم متصلة إلى باب الزغلة ، ومن
هناك تتصل إلى الميدان والقلعة ، فجاءت هذه
المجرة من العجائب والغرائب ، لكن صرف على
بنائها ما لا يحصر من الأموال ، وغالبه من وجوه
الظلم والمصادرات .

وقد وقع في زمن الشيخ زين الدين بن الوردي
رحمة الله عليه ما يشبه ذلك ، وهو أن بعض
الملوك أجرى قناة بدمشق إلى بعض الجوامع ،
وكان ذلك المصروف من مال فيه شبهة ، فأنشأ
الشيخ زين الدين في هذه الواقعة وهو يقول :

كرهت وضوءاً من قناة تساق من
دماء الرعايا أو مال محرم

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما
انتصر على يحيى بن سبع ، توجه إلى مكة ووقف
بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ،
وأن مكة مغلقة ^(١) ، وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر
تعبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باش العسكر
التوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل
جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى
عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ... لكن تزايد
الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج
ببحر الحجاز ، حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ،
وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ،
ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ،
ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود
الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد .
وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى
فتحوا السد الذي صنعه الاسكندر بن فلبس
الرومي . وكان هذا تقباً في جبل بين بحر الصين
وبحر الروم ، فلا زال الفرنج يعبثون في ذلك
النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه
المراكب إلى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر
أسباب الفساد (١) .

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد
الصعيد ، ولم يقع بها في سنة عشر وتسعمائة لما
ظهر بالقاهرة

وفي هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى
أبو الخير المرافع ، وقال له : « أنا ألتزم لك بمائتين
 وخمسين ألف دينار ، أستخلصها لك ممن أعرفه ،
ولا تنتطح في ذاك شاتان » ١ فقال السلطان إلى
كلامه ، وقصد أن يخلق عليه ويشرع في ذلك ،
فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك
فرجع والله الحمد .

(١) مغلقة : أي بها فلاء (٢)

سيشرق في يوم الحساب ندامة

كما شرقت صدر القناة من الدم
وفي هذه السنة طلعت جزيرة بولاق تجاه ربع
قائم التاجر ، فصارت هذه الجزيرة في كل سنة
تزرع أمقنة ورياحين ، فتوجهت إليها الناس ،
وخرجوا في القصف والفرجة هناك عن الحد ،
وضربوا الخيام الكثيرة ، وتعمل هناك أخصاص
للمتفرجين بها ، وصاروا يبيتون هناك ليلا ونهارا ،
وصار الناس يخوضون في البحر الى نصف الليل ،
وقد قال القائل في المعنى :

في جزيرة بولاق رأينا عجب

أسد ساروا معهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أذهلونا خضنا مع الخايضين
وقال آخر وأجاد :

امض لبولاق ترى بجزيرة

حور وولدان لها تأنيق

لى من تحابى وردها نشرها

ولها بقلبي هزة وعلوق

وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم في أمن
وسلامة ، وكانت سنة مباركة على الناس ، أخصب
فيها الزرع ، ووقع بها الرخاء في سائر البضائع
والغلال ، وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ،
وقد حصلت بها هذه النصر العظيمة على عربان
الحجاز ، بعد ما كاد الحاج أن ينقطع من فساد
الطرق الى مكة من عرب بنى ابراهيم فله الحمد .

سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (١٥٠٧/١٥٠٨ م) :

فيها — في المحرم — كان خليفة الوقت : الامام
المستمسك بالله أبو النصر يعقوب ، الهاشمي
الأبوين ، ابن المتوكل على الله عبد العزيز .
والسلطان يومئذ : الملك الأشرف ، أبو النصر
قانسوه بن بيردى الغورى عز نصره .

والقضاة الأربعة : جمال الدين ابراهيم
القلقشندى الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن
الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين ابراهيم الدميرى
المالكى ، وشهاب الدين أحمد الشيشينى الحنبلى .
وأما الأمراء أرباب الوظائف من المتقدمين فهم :
الأتابكى قرقماس بن أركماس بن ولى الدين أمير
كبير ، ودولات باى قرابة العادل أمير السلاح ،
وسودون العجمى أمير مجلس ، وقانى باى قرا
الرماح أمير آخور كبير ، وطراباى الشريفى رأس
نوبة النوب ، وأزدمر بن على باى دوادار كبير ،
وأنصباى بن مصطفى حاجب الحجاب .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين : فالقاضى
محب الدين محمود بن أجا الحلبى كاتب السر
الشريف ناظر ديوان الانشاء بالديار المصرية ،
والقاضى محبى الدين عبد القادر القصرى ناظر
الجيش ، والقاضى علاء الدين بن الامام ناظر
الخاص ، والأمير تغرى برمش متحدث مع القاضى
شرف الدين الصغير فى الوزارة ، وشرف الدين
يونس النابلسى متحدث على وظيفة الأستاذية
الكبرى ، وبقية المباشرين من أرباب الوظائف على
حكم ما شرح فى السنة الخالية .

وفى هذا الشهر وقع لقاضى القضاة الحنفى عبد
البر بن الشحنة واقعة غريبة ، وهى أن جمال
الدين السلمونى الشاعر هجا القاضى عبد البر بن
الشحنة هجوا فاحشا . بقصيدة مطولة يأتى الكلام
عليها . وسبب ذلك أن السلمونى كان قد هجا معين
الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر
ذلك ، فشكاه معين الدين الى القاضى عبد البر ،
فأحضر السلمونى بين يديه ، وضربه وعززه وأشهره
فى القاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس . فلما
بلغ السلطان ذلك ، أرسل من خلصه من القاضى

عبد البر . فلما خلاص هجا عبد البر بهذه القصيدة الفاحشة ، وقد دارت بين الناس ، فلما بلغ القاضي عبد البر ذلك ، شكوا السلمونى الى السلطان لما طلع الى القلعة فى يوم التهنئة بالشهر ، وعرض عليه تلك القصيدة التى هجاه بها ... فأحضر السلطان السلمونى بين يديه ، ووبخه بالكلام وقال له : « أتتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟ » فأنكر السلمونى ذلك وقال : « أنا ما قلت فيه هذا كله » ، فقامت عليه البيعة بأن هذا نظمه ، فرسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بأن يتوجه بالسلمونى الى المدرسة الصالحية ، ويعمل معه ما يقتضيه الشرع الشريف ، فنزل بالسلمونى وهو فى الحديد . وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى الباطن . فلما أتوا به الى الصالحية ، تعصب عليه القضاة قاطبة وقصدوا ضربه بالسياط ، واشهاره فى القاهرة ... وهذه ثانى واقعة وقعت للسلمونى بسبب الهجاء .

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أول من عاقب على الهجاء ... فلما أرادوا ضرب السلمونى وتعزيره ، تعصب له جماعة كثيرة من العوام ، وقصدوا يرحمون قاضى القضاة عبد البر وهو فى وسط ايوان المدرسة الصالحية ، وجمعوا له الحجارة فى أكمامهم ، فما وسع القاضى عبد البر الا أنه عفا عن السلمونى من التعزير والاشهار فى القاهرة . ثم ان القضاة أمروا بسجن السلمونى ، فسجن وأقام مدة طويلة فى السجن ، يأتى الكلام عليها . وأما القصيدة الموعود بذكرها فهى قصيدة مطولة فيها ألفاظ فاحشة الى الغاية ، واساءة مفرطة لا ينبغى أن تذكر ، ولكن نورد منها بعض آيات مما نظمه جمال الدين السلمونى ، وهو قوله من آيات :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زور وباطل
وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة
يرى أنه حل على شبهاتها
فاسلام عبد البر ليس يرى سوى
بعته والكفر فى سنناتها
أجاز أمورا لا تحل بملة
بحل ويرم مظهرا منكراتها
ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها قضاياء بالأذى
وبالبيع شبه الأسد فى وثباتها
فان كان فى الأوقاف ثم بقية
تكذبنى فيما أقول فهاتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك
الجماعات منها مبطل جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبدا
بأحرارها يبعوا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها
وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصدق قولى أنه كان مغريا
ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها
وقد كان ذئبا لابن سبع وقومه
يطالع بالأخبار قبل رواتها
ولو يعط ديناراً وطاوعه الورى
لأسقط عنها صومها وصلاتها
شكت ملة الاسلام مما ينالها
بأفعاله ، يا هل تزيل شكاتها ؟
فبيكى على الدين القويم وشرعه
وأحكامه فيها بمنعوجاتها

نمي مذهب النعمان من قبج فعله
على فتوات الزور لا عن ثقاتها
تعقب يعقوبا وخالف رأيه
فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
وعن زفر قد زفر النقل كاذبا
بتزويج أرحام لحين يراتها
وقد خان قاضي خان في فتواته
بتغييرها عن مقتضى موجباتها
فلا تخش اثما أن تخوض بعرضه
فغيته للناس خير لغاتها
فماذا على الاسلام حل من الردى
بأيام عبد البر مع سنواتها
اتمى ذلك على سبيل الاختصار ، وأنا أستغفر
الله العظيم وأتوب اليه .

وفي رابع هذا الشهر ، خرج الأتابكي قرقماس
الى نحو الشرقية والغربية ، وقد سرح في البلاد
وغاب فيها .

وفي حادى عشره كان بيولاى ليلة حافلة بسبب
وقت مولد سيدي اسماعيل الانبأى رحمة الله
عليه ، فضربت في تلك الجزيرة التي تجاه بولاى
نحو خمسمائة خيمة ، صنعوا سقوا بدكاكين ،
وخرج الناس في الفتك والفرجة عن الحد ، وأقاموا
هناك ليالى متوالية ، وموجب ذلك أن كان الرخاء
والأمن موجودين .

وفي عقيب ذلك عمل مولد الشيخ سويدان
المجذوب ، في مدرسة ابن الزمن التي بيولاى عند
الرصيف ، فكان له مولد حافل ، وضربت هناك
الخيام الكثيرة عند المدرسة ، لكن حدث تلك الليلة
حادثة مهولة ، وهو أن امرأة طبخت على شاطيء
البحر ، فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك

كان فيها كتان فعلت فيه النار ، وكان تلك الليلة
الريح عاصفا ، فمشت النار الى شونة تبين في معصرة
هناك فعلت فيها النار فاحترقت المعصرة ، ونهب
ما فيها من قصب وسكر وعسل ، وحصل للناس
تلك الليلة غاية النكد ، ولولا لطف الله تعالى ،
ثم بركة الشيخ سويدان ، لاحتقرت تلك الأماكن
التي هناك عن آخرها .

وفيه تغير خاطر السلطان على أبى الخير المرافع ،
بعد أن قرب ، وكان قد أخذ في أسباب مصادرات
الناس ، ولو دام لحصل للناس منه كل سوء ،
فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فنزل به من
القلعة وهو في الحديد ، فلما شق من القاهرة
كادت العوام أن ترجمه ، وارتفعت الأصوات لابن
موسى بالدعاء لأنه كان سببا لذلك . فلما أتى الى
داره ضرب أبى الخير المرافع بالمقارع ، وبعث به
منفيا الى الواح .

ومن الحوادث أن مملوكا من المماليك الجلبان
نزل الى سوق الرقيق ليشتري عبدا أو يرد عبدا ،
فوقع بينه وبين الدلال تشاجر . فلما تزايد الأمر
بينهما ضربه المملوك بقبقاب على رأسه في السوق
بين الناس ، فحمل الى داره ، فأقام نحو شهر ثم
مات ، فلم تنتطح في ذاك شاتان .

وفي عقيب ذلك ، ضرب الأمير أرزمك الناشف ،
أحد الأمراء المقدمين ، شخصا من النواتية فمات
تحت الضرب . وسبب ذلك أن هذا النوتى حمل
للأمير أرزمك مغلا فنقص ، فضربه بسبب ذلك .
فلما مات النوتى وقف أولاده للسلطان ، فلما علم
بهذه الواقعة تغافل عن ذلك وقال للأمير أرزمك :
« ارض أولاد هذا المقتول » ، وانفض المجلس على
ذلك وراحت على من راح .

وفي صفر كان ختام ضرب الكرة ، ثم ان
السلطان أضاف الأمراء بالبحر ، ومد لهم أسمطة
حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه طلع ابن أبي الرداد بيشارة النيل ، وجاءت
القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة في أول يوم
من المنادة خمس أصابع .

ومن الحوادث أنه في يوم الخميس ثالث عشره
تسحب من سجن القلعة ، وقت الظهر ، نحو سبعين
انسانا من المحاييس ، ما بين مشايخ عربان
وفلاحين وغير ذلك فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ،
فمضوا ولم تنتطح في ذاك شاتان .

وفيه جاءت الأخبار أن عربان الشرقية هاجوا
ونهبوا الضياع ، فعين لهم السلطان في ذلك اليوم
تجريدة ، وعين بها من الأمراء سودون العجمي
أمير مجلس ، وأنصبأى حاجب الحجاب ، وتمر
الزردكاش أحد المقدمين ، ودولات باي قرموط ،
ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة
مملوك ، فخرجوا من يومهم ... وقد تقدم القول
بأن الأتابكي قرقماس خرج قبل ذلك الى نحو
الشرقية والغربية ، فلما سمع بمجيء العسكر
لاقاهم من هناك .

وفي ربيع الأول رسم السلطان للقاضي
علاء الدين ناظر الخاص بأن يتوجه الى جدة .
وقد بلغ السلطان أنه وقع تشاجر بين حسين باش
العسكر الذي هناك ، وبين علي المسلاتي المغربي ،
فخرج ناظر الخاص ليكشف عن حقيقة ذلك ،
وعين معه السلطان نحو من خمسين مملوكا تقوية
للعسكر الذي هناك .

وفيه كان رجوع الأمراء والعسكر الذين
توجهوا للشرقية ، بسبب فساد العربان ، فرجعوا
بغير طائل من ذلك .

وفيه رسم السلطان بشنق أحمد بن مهنا شيخ
بنى وائل ، فسمره هو وأقاربه ، وطاقوا بهم
القاهرة ، ثم شنقوا أحمد بن مهنا على باب النصر .
وكان ذنبه أنه هرب من السجن ، وقتل السجنان
وكسر القيد ، وكان من شرار العربان ، فلما ظفر به
شنقه .

وفي يوم الثلاثاء عاشره ، كان دخول العسكر
المتوجه الى الحجاز بسبب محاربة يحيى بن سبع ،
فدخل الأمير خاير بك باش العسكر ، وقبلك رأس
نوبة ثاني المتوجه صحبته ، وبقية الأمراء
والعسكر ، فكان لهم يوم مشهود . ودخل المحل
صحبتهم ، فزينت لهم القاهرة ، ودقت لهم
الكوسات بالقلعة ، ودخل صحبتهم ثمانمائة رأس
من رؤوس العربان ، من بنى ابراهيم الذين قتلوا
في المعركة ، فأشهروهم على رماح ، والمشاعلية
تنادى عليهم .. فلما طلع الأمراء الى القلعة خلع
عليهم السلطان ، ونزلوا الى دورهم . فكانت مدة
غيبتهم في هذه التجريدة ثمانية أشهر وأياما . وقد
بيضوا وجههم بهذه النصرة التي وقعت لهم ،
وفتحوا درب الحجاز فتحا ثانيا في الاسلام ، بعد
أن كاد الحج ينقطع ، فله الحمد على ذلك ...

وقد شق على السلطان مجيء العسكر ، وكان
قصده أن يتبعوا يحيى بن سبع حيث توجه حتى
يقطعوا جادة بنى ابراهيم عن آخرهم . وكان
العليق هناك ما يوجد ، والموت في الجبال كثيرا
فتقلق العسكر ، وطلب المجيء .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره عمل السلطان
المولد النبوى ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء
المقدمون على العادة ، ونصب الخيمة الكبيرة
المدورة التي صنعها الأشرف قايتباي وصرف
عليها نحو من ثلاثين ألف دينار ، وكان مولدا
حافلا .

وفي رابع عشره جاءت الأخبار من عند الأمير
أزدمر الدوادار أنه لما توجه إلى الكرك ونابلس ،
قاتل عربان بنى لام الدين كانوا من عصبة يحيى بن
سبع ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة ،
وأسر من كبارهم نحو عشرة أنفار ، وملك منهم
مدينة الكرك . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بدق
الكوسات بالقلعة ، وكانت القاهرة مزينة من حين
دخل العسكر ، فصارت الفرحة فرحتين .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، خلع السلطان
على الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره في
امرة ركب المحمل ، وقرر قانصوه أبا سنة وإلى
القاهرة بالركب الأول .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان في القاهرة بأن
الناس تحج في هذه السنة مطلقا من رجال ونساء
على العادة ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان
من أعظم فرحات الاسلام .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضي فخر الدين
ابن العفيف كاتب الممالك ، فعزله ورسم عليه ،
وقرر عليه ألفى دينار يوردها للخزائن الشريفة ،
وكان هذا آخر عزل القاضي فخر الدين وولاياته .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك عاشر
مسرى ، وفتح السد في اليوم الحادى عشر من
مسرى ، ووقع في زيادة هذا النيل أمور غريبة ،
وهو أنه سلسل في أول الزيادة ، فلما كان سادس
مسرى زاده الله ثلاثين أصبعا في يوم واحد ، ثم في
اليوم السابع منها زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم
في اليوم الثامن منها زاد الله فيه أيضا عشرين
أصبعا ، وكانت زيادته سبعين أصبعا في ثلاثة
أيام ... واستمرت الزيادة عمالة مترادفة حتى أوفى
الله ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على
العادة ، وكان له يوم مشهود ، كما يقال في المعنى :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طرا فكل قد غدا مسرورا

البحر سلطان فكيف تواترت
عنه الأشائر اذ غدا مكسورا

وفيه توفي شرف الدين بن أبى الخير كاتب
الجرافة مباشر الأمير طراباى ، وكان من وسائط
السوء عنده .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على القاضي
شرف الدين الصغير وقرر في كتابة الممالك عوضا
عن فخر الدين بن العفيف بحكم صرفه عنها ،
فتضاعفت عظمة شرف الدين الصغير ، وصار ناظر
الدولة كاتب الممالك مستوفيا على الدواوين وغير
ذلك من الوظائف .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
اسماعيل شاه بن حيدر الصوفى ، المقدم ذكره ،
قد تحرك على بلاد السلطان ، ووصل أوائل
عسكره إلى ملطية ، وحكوا عنه أمورا شنيعة في
أفعاله .. فلما بلغ السلطان ذلك تنكد إلى الغاية ،
وجمع الأمراء وضربوا مشورة في أمر الصوفى ،
فأشار الأمراء على السلطان بأن يرسل إليه
تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض ، فطلع العسكر
قاطبة إلى القلعة فعرضهم — وكان قاصد ابن عثمان
حاضرا ، و خليل بيك بن رمضان أمير التركمان —
فكتب من العسكر نحو من ألف وخمسمائة
مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين في ذلك اليوم
خمسة ، وهم : قانى باى قرا أمير آخور كبير ،
وجعله باشا على العسكر ، وصحبته أرزمك
الناشف أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط ،
وقانصوه كرت ، وتانى بيك الخازندار . وعين من
الأمراء الطبلخانات والعشراوات نحو من عشرين
أميرا . ثم عين بيبرس أمير آخور تانى قرابته

ذلك اليوم غاية العظمة في الفرش وفي الأسمطة
والفواكه والحلوى ، وملاً صحن فرعون الذي
تحت شباك قاعة البحرة سكراماء الليمون ، برسم
جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد
كاملية مخملاً أحمر بسمور فاخر ، وكان يوماً
حافلاً جداً .

وفي تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة ،
شخص يقال له كمال ، من خواص جماعة ابن
عثمان ، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة ،
بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلاً
ونهاراً ، حتى أعيى الفرنج أمره ، وأنه رأس
المجاهدين المرابطين في الاسلام . فلما حضر أكرمه
السلطان وبألف في اكرامه وخلع عليه ، فأقام بمصر
مدة يسيرة ورجع الى بلاده .

وفي العشرين من هذا الشهر جاءت الأخبار
من غزة ، صحبة هجان ، بوفاة الأمير أزدمر بن
علي باي الأشرفي أمير دوا دار كبير ، توفي بغزة
يوم الخميس خامس عشر هذا الشهر ، وقد مرض
مدة ثلاثة أيام ومات . فلما جاء هذا الخبر تأسف
عليه الكثير من الأمراء ممن كان من عصبته ، وكان
موته بغتة على حين غفلة ، وأشيع بين الناس أنه
مات مشغولاً ، وكان أميراً جليلاً رئيساً حشماً ، لين
الجانب قليل الأذى ، وكان في عنفوان شبوبيته ،
وكان مرموقاً بالشجاعة والفروسية .. وهو من
مشتريات الأشرف قايتباي ، وولى عدة وظائف
سنية ، منها شادية الشراب خاناه ثم بقى مقدم ألف ،
ثم ولى الدوا دارية الكبرى بعد الأمير مصرباي في
سنة سبع وتسعمائة ، فكانت مدته في الدوا دارية
الكبرى نحواً من ست سنين وخمسة أشهر الا أياماً .
فلما تحقق السلطان موته ، ضرب الحوطة على

بأن يتوجه الى حلب ، ويعلم النواب بمجيء
العسكر ، وليجتهدوا في عمل اليرق ، وأن نائب
حلب يجمع عساكر حلب ، ويخرج ليحرس أطراف
البلاد ويكشف الأخبار ، ثم بطل ذلك جميعه فيما
بعد ، كما يأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وفي جمادى الأولى — في ثامنه — حضر أبرك
نائب قلعة حلب ، وقد انفصل عنها ووقع بينه وبين
نائب حلب تشاجر ، وأصله من ممالك السلطان .
فطاش وقتك بحلب ، ولم يستثن لنائب حلب
بشأن .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفي عدت
من الفرات ، ووصل جاليسهم الى أطراف بلاد
السلطان ، وأن على دولات جمع التركمان ، وخرج
اليهم وتحارب معهم .

فلما جاءت هذه الأخبار ، اضطربت القاهرة
وماجت ، ونادى السلطان للعسكر بأن أول
النفقة يوم الاثنين . وكان قد أشيع بين الناس بأن
التجريدة بطالة ، فأهمل العسكر ذلك حتى طرقتهم
هذه الأخبار ، فعند ذلك شرع المماليك
يكبسون على الطواحين والاسطبلات بسبب البغال
والأكاديش ، وكان السلطان آخر أمر النفقة الى
أن يحضر الأمير أزدمر الدوا دار ، وكان توجه الى
الكرك ونابلس بسبب عريان بنى لام . فلما جاءت
هذه الأخبار أفتق السلطان على العسكر المعين
للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار على
العادة ، وجامكية أربعة أشهر معجلاً ، وثمان جمل
سبعة أشرفية ... فكان ما خص كل مملوك نفقة
وجامكية وثمان جمل مائة دينار وثلاثين ديناراً .
ثم شرعوا في عمل اليرق .

وفي يوم الأربعاء ، رابع عشره ، عزم السلطان
على قاصد ابن عثمان في قاعة البحرة ، فأظهر في

موجوده ، ورسم على جماعته وغلماؤه ومباشره
وقرر عليهم مالا له صورة .

وفيه حضر تغرى بردى الترجمان ، وكان توجه
الى بلاد الفرنج ، وأقام بها نحو من سنتين ، فلما
حضر خلع عليه السلطان وأقره على وظيفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على ثمانى عشرة أصبعا
من تسع عشرة ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح
من ذلك بثمانى أصابع .

وفيه توفى القاضى جمال الدين الأتميدى أحد
نواب الحكم الشافعى ، وكان لا بأس به

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا يقال
له عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى ، وكان
خطيبا ببعض الجوامع ، فقبل عنه انه وقع فى حق
سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام بكلام فاحش
لا ينبغى أن يذكر ، فضبطوا عليه ذلك ... ثم ان
بعض القضاة استتوبه ، وحكم شمس الدين
الحلبى بحقن دمه . فلما بلغ السلطان ذلك تعصب
لابراهيم الخليل عليه السلام ، وقال : « ما أرجع حتى
أضرب عنق هذا القائل لهذا الكلام » . فأمر بعقد
مجلس بحضرته وجلس فى الدهيشة وأرسل خلف
القضاة الأربعة ، فحضر جمال الدين القلقشندى
الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة
الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب
أحمد بن الشيشينى الحنبلى ، ثم أمر السلطان
باحضار القضاة المنفصلين ، فحضر شيخ الاسلام
زين الدين زكريا الشافعى ، وحضر برهان الدين
ابن أبى شريف الشافعى ، وبرهان الدين بن
الكركى الحنفى ، وجماعة من مشايخ العلم ، منهم
الشيخ نور الدين المحلى ، والشيخ عبد الحق
السنباطى الشافعى وغير ذلك من المشايخ والعلماء .
فلما تكامل المجلس تباحثوا فى هذه المسألة ، فقال

الشيخ زكريا : « مذهبنا أن هذا القائل اذا تاب الى
الله تعالى واستغفر تقبل توبته » . ووافقه على ذلك
ابن أبى شريف ، فحصل فى ذلك المجلس بعض
تشاجر بين قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وبين
الشيخ نور الدين المحلى ، وأحضر كل من العلماء
النقول فى هذه المسألة ... وانفصل المجلس مانعا على
أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، ثم
انقض المجلس على ذلك ، والسلطان قد صمم
على ضرب عنق هذا القائل ، فتوجهوا به الى
السجن فسجن ، وهذا ما كان من ملخص هذه
الواقعة .

وفيه حضر الأمراء الذين كانوا توجهوا صحبة
الأمير أزدر الدوادار الى نابلس ، وأحضروا
صحبتهم جثة الأمير أزدر وهى فى سحلية ،
فدفن فى تربته التى أنشأها بالقرب من باب الزغلة ،
وانطوى أمره ، وخلا منه المكان ، ودخل فى خير
كان .

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم السبت ثانيه ، رسم
السلطان بتوسيط شخص من العربان المفسدين ،
يسمى عبيد بن أبى الشوارب ، فوسطه عند
قنطرة الحاجب ، ووسط معه أيضا شخصا يسمى
قاسم الغريب ، وكانا من كبار المفسدين بالشرقية .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على الأمير
طومان باى ابن أخيه وقرر فى الدوادارية الكبرى
عوضا عن الأمير أزدر بن على باى بحكم وفاته ،
فنزل من القلعة فى موكب حفل ، وسكن فى دار
الأمير أزدر فيما بعد ، ورسم السلطان للأمير
يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا عند الأمير
أزدر ، أن يستمر دوادارا عند الأمير طومان باى
على عادته ، فامثل ذلك .

وفيه خلع السلطان على شيخ العرب عبد
الدايم بن أبي الشوارب ، وقرر في مشيخة العرب
بالقليوبية .

وفيه خلع السلطان على مملوكه أبرك الذي
كان نائب قلعة حلب وحضر الى مصر ، فقرره في
شادية الشراب خاناه عوضا عن الأمير طومان باي
بحكم انتقاله الى الدوايرية الكبرى .

وفي يوم الثلاثاء سادسه حضر قاصد من عند
على دولات ، وأخبر أنه لما توجه الى عسكر
الصوفي ، تحارب معهم فكسروهم كسرة قوية ،
فانهزموا نحو بلادهم مكسورين ، وقتل منهم جماعة
كثيرة . وأرسل على دولات عدة رءوس ممن قتل
من عسكر الصوفي ، وفيهم شخص من أمرائه بالحياة
وعلى رأسه طرطور أحمر ... فلما عرضوا على
السلطان سر بهذه الواقعة ، وأمر بأن تعلق تلك
الرءوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه
الواقعة بطل أمر تلك التجريدة التي كان عينها
الى الصوفي ، ورسم بإعادة الثقة التي كان أنفقها
على العسكر بسبب التجريدة ، فتوجهت اليهم
الطواشية واستعادوا منهم الثقة ، فشق ذلك على
المماليك ، وكانوا قد تصرفوا في غالبها . فلما بلغ
السلطان ذلك رسم بأن يترك لهم ثمن الجمل
الذي كان أعطاه لهم ، وقدره سبعة دنائير ويعيدوا
الباقى ، فامتلوا ذلك وأعادوا ما أخذوه ، والذي
تأخر عليه من ذلك شيء قطع من جامكيته .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، خلع السلطان
على قاصد أبي يزيد بن عثمان خلعة سنية ، وألبس
جماعته سلاريات وشقا وسمورا وأذن لهم بالعود
الى بلادهم ، فمضوا وهم شاكرون من السلطان .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، خلع السلطان

على الأمير طومان باي الدواير خلعة الأنظار ،
فنزل من القلعة في موكب حافل .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ،
ووافق ذلك عاشر هاتور .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات
أمير مكة ، توجه الى مالك بن الرومى أمير خليص ،
وكبس عليه على حين غفلة ، فظفر به وحز رأسه
وحز رءوس جماعة من أقاربه ، وأن ناظر الخاص
علاء الدين واصل بذلك عن قريب ... فسر السلطان
لهذا الخبر .

ومن الحوادث في أواخر هذا الشهر ، وقعت
فتنة مهولة ببولاق حتى كادت تخرب عن آخرها .
وسبب ذلك أن جماعة من الجوابر الذين ببولاق
وقع بينهم وبين جماعة من النفر ، بسبب ضائع
ضاع لهم ، فتعصب الجوابر على النفر وضربوهم
وجرحوا منهم جماعة ، واستخلصوا منهم الضائع .
فلما بلغ ذلك طائفة النفر اجتمع منهم السواد
الأعظم ، وتوجهوا الى بولاق ، ووثبوا على
الجوابر ، ونهبوا ما في مراكزهم من الغلال ، ونهبوا
دكاكين بولاق ، وخطفوا عمائم الناس ... فلما
تزايد الأمر من النفر ثار عليهم الجوابر والنواتية
الذين ببولاق ، وأثوا اليهم بالسيوف والمقاليع
فسقط بينهم ساقط ، فاستتعت الفتنة واستمرت
على ما ذكرناه ثلاثة أيام متوالية . فلما بلغ السلطان
ذلك تنكد ، وكانت الجوابر في حماية الأتابكى
قرقماس ، والنفر في حماية قائى باي قرا ، أمير
آخور كبير ، فتعصب كل منهما لجماعته فتحير
بينهما السلطان ، وراح على الناس ما نهب لهم في
هذه الحركة .

وفي رجب كان انتهاء العمل مما جددده السلطان

من العمارة بالقصر الكبير ، فلما تم ذلك صنع به
وليمة حافلة ، وعزم على القضاة الأربعة ، والأمراء
المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأحضر
قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ومد به أسمطة حافلة ،
وبات تلك الليلة هناك .

وفيه نزل السلطان الى خلف القلعة عند قبة
الهوا ، وجربوا قدامه مكاحل نحاسية كان
سبكها ، فأقام هناك ساعة يسيرة ثم عاد الى
القلعة .

وفيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفي
فضربه ، ووكل به ثلاثة من المماليك الخاصكية ،
وسبب ذلك أن الممسكر تضرر من كثرة الفضة
النحاس التي يجدونها في الجامكية فشكوه الى
السلطان ، فقبض عليه وقرر عليه مالا له صورة
بسبب ذلك .

وفي شعبان ، حضر قاصد من عند اسمعيل شاه
الصوفي ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذي
وقع من عسكره في دخولهم الى أطراف بلاد
السلطان ، لم يكن ذلك عن اذنه ولا علم بذلك ،
فأكرم السلطان ذلك القاصد وأوكل له بالحوش
موكبا حافلا ، وكان هذا القاصد هو وجماعته في
غاية الغلاسة ، وعلى رؤوسهم طراير حمر ليس
عليهم رونق بخلاف قصاد ابن عثمان .

وفيه وقعت فتنة مهولة بين مماليك السلطان
وبين مماليك الأمير خاير بك الخازندار بسبب
حمير النقارة ، فقتل من مماليك السلطان مملوك ،
فتعصب له خشداشيته ، ونزلوا من الطباق مشاة
وتوجهوا الى بيت خاير بك ونهبوا ما فيه وأحرقوا
بابه ، فهرب منهم واختفى وطلع الى السلطان .
وقد اتسعت هذه الفتنة . فلما جرى ذلك أرسل

السلطان قبض على مملوك خاير بك الذي فعل
هذه الفعل ، فوسطه في الرمل ، حتى خمدت هذه
الفتنة قليلا .

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، دخل القاضي
علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم أنه توجه
الى جدة ، بسبب تجهيز المراكب صحبة العسكر
الذي توجه الى عدن ، بسبب تعبث الفرنج هناك .
فلما تم أمره من جدة ، وقصد الرجوع الى مصر ،
أرسل صحبته الشريف بركات أمير مكة رأس مالك
ابن الرومي أمير خليص ، وعدة رؤوس ممن قتل
معه من العربان في المعركة كما تقدم ، فكان عدتهم
نحو من تسعة وعشرين رأسا ، فارتجت لهم القاهرة ،
وأشهبوا على رماح ، فلما عرضوا على السلطان
وهو بالميدان ، خلع على ناظر الخاص كاملية
مخملا أحمر بسمور ، وأركبه فرسا بسرج مغرق
وكنبوش ، وتوجه الى داره في موكب حافل
وصحبته قضاة السلطان ، ورسم بأن تعلق تلك
الرؤوس على أبواب القاهرة .

وفي يوم السبت سابع عشرينه نزل السلطان
الى الميدان وعزم على قاصد الصوفي هناك ،
وأحضر قدامه مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ،
وهم بألة السلاح ، فأظهروا في فنون النشاب
أشياء غريبة ، وأحرق قدام القاصد احراقة فقط
بالنهار ، ثم مد له أسمطة حافلة وخلع عليه وعلى
جماعته ، وأذن لهم بالعودة الى بلادهم فسافروا
فيما بعد .

وفيه كانت واقعة الناصري محمد ابن بنت جمال
الدين الأستاذار ، مع الناصري محمد بن قجق
نديم السلطان . وملخص هذه الواقعة أن محمد
ابن بنت جمال الدين ، كان له عبد حبشي ، فأفسد
جارية لمحمد بن قجق ، فشكاه للسلطان ، فطلب
ابن بنت جمال الدين ، وقصد الصلح بينه وبين

ابن قجق ، وأن يرضيه في جاريته ، فتواحش ابن بنت جمال الدين في حق ابن قجق ، وسبه في مجلس السلطان ، وكان ابن بنت جمال الدين أهوج أحرق رهاجا . فلما جرى ذلك تغير خاطر السلطان عليه ، ورسم بتسليمه الى تقيب الجيش ، فاستعت هذه الواقعة على ابن بنت جمال الدين ، وقرر عليه السلطان عشرة آلاف دينار ، فاستمر في الترسيم وضرب في بيت الوالى ، وباع جميع موجوده ولم يف بهذا القدر ، وآخر الأمر رسم السلطان بنفيه الى الواح ، فنفى وجرى عليه شدائد ومجن . وكان قليل الدربة ، فلو سد هذه القضية بدون الخمسين دينارا كانت تستد ، ولا كان يجرى عليه هذا كله ... وهذه الواقعة تقرب من واقعة الزينى فرج الحاجب ، وقد تقدم ذكر ذلك فيما جرى عليه . ويقرب من هذه الكائنة ، ما وقع لشخص من أبناء الناس ، يقال له محمد بن سودون السودونى ، وقد تغير خاطر السلطان عليه ، وحصل له منه ما لا خير فيه ، وسجنه وقاسى شدائد ومحن وأمره مشهور .

وفي اسلخ هذا الشهر حضر الأتابكى قرقماس وكان مسافرا في اقطاعه بالمنزلة ، ودخل صحبتته بعدة رءوس من العربان العصاة ، فعرضوا على السلطان بالميدان ، فخلع عليه ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي رمضان - في يوم مستهله - عرض القاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، والزينى بركات ابن موسى المختسب ، اللحم والغنم والدقيق والسكر ، على السلطان وهو بالميدان ، فطلعا به مزفوقا على العادة فخلع عليهما .

وفي يوم الخميس ثالثه عرض السلطان المحاييس

بالميدان فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى منهم أصحاب الجرائم والفلاحين . وفيه وقف شخص من الغلمان للسلطان وهو مقطوع اليد ، وأنهى في قصته أن الأمير طراباى قطع يده لأجل بغلة ماتت منه في الربيع فلم ينصفه السلطان من طراباى .

وفي يوم الجمعة خامسه ، أفرج عن عبد العظيم الصيرفى ، وقد أورد نحوا من عشرة آلاف دينار ، وقرر عليه باقى المال .

وفيه توفى أحمد بن اسمعيل رأس نوبة الأمير طراباى ، وكان على عوج فيه خيرا من غيره من الظلمة .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن جمال الدين السلمونى الشاعر ، وكان فى السجن من حين وقع له مع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ما تقدم ذكره ، وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى الباطن .

وفيه خلع السلطان على مملوكه الأمير أبرك ، وأعادته الى نيابة قلعة حلب ، كما كان أولا ، مع استمراره على شادية الشراب خاناه بمصر ، وصار يحمل اليه معلومها وخراج الاقطاع وهو بحلب ، فعند ذلك من النوادر . ثم خرج فى أثناء هذا الشهر الى حلب متكلما على نيابة القلعة بها ، ومتوليا شادية الشراب خاناه بمصر . وأعجب من هذا أن السلطان أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف بمصر ، وصار يحمل اليه خراج اقطاع التقدمة وهو بحلب .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن جماعة من السراق نقبوا قاعة الذهب ، وذبحوا البواب ، وأخذوا من القاعة سبائك ذهب وفضة بنحو

عشرة آلاف دينار ، فراحت ولم تنتطح في ذلك شاتان .

وفي هذه الليلة تقبوا من سوق مرجوش أربعة دكاكين .

وفي ليلة الثلاثاء ثانی عشرینة هجم ذلك المنسر على شخص أعجمی تاجر ، وكان في سعة من المال ، وكان ساكنا عند باب سر المدرسة الصالحية ، فذبحوه وذبحوا عبده معه ، وأخذوا كل ما في داره من مال وقماش ، فقتلوا الوالي أمر هؤلاء السراق ، حتى ظفر بجماعة منهم فشنقوا على باب ذلك التاجر الذي قتل .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرینة ، كانت وفاة قاضي القضاة المالكي برهان الدين ابراهيم الدميري ، وكان عالما فاضلا ، دينا خيرا ، رئيسا حشما ، لين الجانب كثير التواضع ، وانتهت اليه رئاسة المالكية في عصره ، ولم يكن يومئذ في المالكية أعلى طبقة منه على الاطلاق ، ومات وهو في عشر الثمانين ، وكانت مدته في منصب القضاء ، الى حين توفي رحمة الله عليه ، ست سنين وستة أشهر الا أياما ، وكان نادرة عصره في الخط الجيد ، والعبارة الحسنة ، وكان عارفا بالأحكام الشرعية . فلما بلغ السلطان وفاته ، نزل من القلعة ليصلي عليه فتبين أنهم توجهوا به الى الجامع الأزهر فصلوا عليه هناك .

فلما تحقق السلطان ذلك توجه الى نحو القرافة وزار الامام الشافعي ، والامام الليث رضي الله عنهما ، فنزل عن فرسه ودخل فزارهما بقواضع . وتصديق في ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان ذلك أول نزوله في حال السلطنة .

وفيه توفي ابن سلطان العلایا الذي كان مقيما بمصر .

وفي سلخ هذا الشهر ، نزل السلطان على حين غفلة ، وتوجه الى المجرة التي أنشأها فكشفت عن بنائها ، وكان معه الأمير طومان باي الدوادار وبعض أمراء عشراوات ، ومن مماليكه نحو من خمسمائة مملوك ، وأول ما نزل من القلعة خرج من باب القرافة ، وتوجه الى تربة الأمير أزدمر الدوادار ، ونزل عن فرسه وزار قبره . ثم ركب من هناك ، وتوجه الى نحو كوم الجارح ، وزار الشيخ أبا السعود الذي كان هناك مقيما . ثم توجه من هناك الى المجرة وكشف عليها وغسل وجهه من ماء النيل .

فلما رجع الى القلعة ، رجع من على مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وزار وهو راكب على فرسه ، ورسم لخدام السيدة بعشرة دنانير ، ثم خرج من باب القرافة ، وطلع الى القلعة وتصديق في ذلك اليوم بمال له صورة ، وأنعم على البنائين والمهندسين في ذلك اليوم بمائة دينار .

وفي شوال عمل السلطان موكب العيد ، وكان خافلا وفرق الحطب على العادة .

وفي يوم الخميس ثامن ، عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، ومقام ابراهيم عليه السلام ، وقد شقوا من القاهرة ، وهي على رءوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضي ناظر الجيش عبد القادر القسروي في ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن المماليك الجلبان ، وثبوا على السلطان بالقلعة ، ونزلوا من الطباق بكباشيات مقلوبة ، فقطعوا بالقلعة ، وأظهروا العصيان ، وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الفساد ، وقصدوا أن يهجموا على السلطان

وهو جالس في الدهيشة ، فخرج اليهم جماعة من
الأمراء العشراوات وتكلموا معهم فلم يسمعوا
لهم ، وقالوا ما نرجع حتى ينفق علينا لكل واحد
مائة دينار ، فباتوا وأصبحوا على ذلك ، ومنعوا
الأمراء من الطلوع الى القلعة ، فلم يخرج
السلطان في ذلك اليوم ، ولا قعد على السباط ،
وقصد أن ينزل من القلعة ويختفي من قهره من
المماليك ، فلم يمكنه الأمير طومان باي الدوادار
من ذلك ، فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام
والقلعة مائجة ، ثم سكن الحال قليلا عن غير رضا
من المماليك .

وفي يوم السبت سابع عشره خلع السلطان على
الشيخ محيي الدين يحيى ابن قاضي القضاة برهان
الدين الدميري المالكى وقرر قاضي قضاة المالكية
عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وقد ولى منصب
القضاء وهو شاب ، وكان حسن السيرة وله
اشتغال بالعلم ، فما استكثر عليه أجد ذلك ،
وخضعت له المالكية قاطبة .

ومما وقع لوالده قاضي القضاة برهان الدين
الدميري ، أن السلطان رسم لقضاة القضاة بأن
يخطب به كل واحد منهم جمعة ، وكان قاضي
القضاة الشافعى جمال الدين القلقشندي غير
ماهر في الخطبة ، فرسم له السلطان ألا يخطب
به ، فخطب به قاضي القضاة الحنفى سري الدين
عبد البر بن الشحنة عدة مرار ، فلما جاءت نوبة
قاضي القضاة برهان الدين الدميري المالكى صعد
المنبر بجامع القلعة فأرتج عليه أمر الخطبة ، وأنجبه
من ذلك وتعفش ووقع عند نزوله من المنبر ، فلما
صلى ونزل من القلعة مرض ولزم الفراش واستمر
عليلًا الى أن مات عقيب ذلك بمدة يسيرة .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل
من القاهرة في تجمل زائد ، ولا سيما قد أذن

السلطان للناس في الحج بالتوجه الى الحجاز على
العادة ويكون ذلك مطلقا من نساء ورجال ، فخرج
في هذه السنة من الناس ما لا يحصى ، وكان أمير
ركب المحمل طراباي رأس نوبة النوب ، وبالركب
الأول قانصوه أبو سنة والى القاهرة ، فكان لهما
يوم مشهود . وحج في هذه السنة من الأعيان
جماعة كثيرة ، منهم القاضي صلاح الدين بن
الجيعة ، والقاضي شمس الدين التتاي المالكى ،
وكان قاضي المحمل . وحج جماعة من الأمراء
العشراوات ، وحجت خوند أصل باي أم الملك
الناصر ، سريّة الأشرف قايتباي ، وحجت خوند
جان كلدى زوجة الظاهر قانصوه ، خال الملك
الناصر ، وحجت زوجة الأمير تاني بك قرا وهي
ابنة الأمير برد بيك صهر الأشرف اينال ، وحج غير
ذلك من الأعيان جماعة كثيرة .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه توفي الركنى
عمر ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ،
أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وكان
شابا رئيسا حشما ، أسمر اللون جدا ، أمه جارية
حبشية ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرينه توفي الشيخ
أبو الفضل بن المحرقى ، وكان من خيار الناس
لا بأس به .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه ، حضر الأمير
بيبرس قريب السلطان ، وكان مسافرا نحو البلاد
الشامية بسبب الكشف على القلاع .

وفي ذلك اليوم حضر الأمير علان الدوادار
الثانى ، وكان توجه الى نحو عجرود بسبب اصلاح
السواقي التى فى مناهل الحاج . فعمر ما فسد منها
ورجع .

وفي هذا الشهر لم ينزل السلطان الى الميدان
ولا جلس به ، وسبب ذلك أنه قد تخيل من المماليك

الجلبان ، وقد تقدم ما وقع له معهم ، وطلبوا منه نفقة فلم يعط لهم شيئا ، واستمر مصمما على عدم ذلك ، فلم ينزل الى الميدان حتى يرى ما يكون من أمر المماليك .

وفي ذى القعدة عين السلطان تجريدة الى بلاد الفرنج ، وقد تزايد منهم الأذى والتعبث بالناس في البحر الملح ، وكان الباش على هذه التجريدة الأمير محمد بيك قريب السلطان ، وصحبته جماعة من المماليك السلطانية ، وأولاد الناس وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثالث بشنس القبطى .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، توفى الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرئ ، وكان علامة في عصره شيخا عارفا بطريقة القراءة ، وكان رئيسا حشما عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على الأمير بيبرس قرابته بتقدمة ألف ، وخلع على أقبأى الطويل وقرره أمير آخور ثانى ، عوضا عن بيبرس ، بحكم انتقاله الى التقدمة .

ومن الحوادث أن جماعة من عبيد السلطان تحاسدوا في بعضهم فقتلوا منهم واحدا كان مقربا عند السلطان من بينهم ، فلما قتلوه رموه في سراب من أسربة القلعة ، فلما فحص السلطان عن أمره طلع به من ذلك السراب ، ثم قبض على من فعل ذلك من العبيد ، فوسط منهم أربعة في الرملة وهرب منهم جماعة .

وفيه وجدت امرأة موسطة نصفين كل نصف منهما مرمى في حارة فلا يعلم من فعل ذلك بها .

وفيه غمز على فران قتل صبيا كان عنده ، ورماد

في جورة الفرن فاحترق وهرب الفران ، ولم تنتطح في ذلك شاتان .

وفيه قتل بعض الغلمان يباع لبن لأجل شقفة لبن لم يبعها له اللبان فقتله ، فلما بلغ السلطان ذلك وسط الغلام الذى قتل اللبان ، فراح هذان الرجلان لأجل شقفة لبن ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفي أثناء هذه السنة توفى الأستاذ على بن غانم وكان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنعام ، وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ، ولحنها في التلاحين الغربية ، حتى أبطل بها فن الموسيقى .

وفي ذى الحجة فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء وغير ذلك .

وفيه توفيت امرأة يقال لها خديجة الكليباتية ، وكانت تدعى الصلاح ، وتدخل بيوت الأكابر ، فوجد لها ذهب عين ثلاثة آلاف دينار ، وأثاث البيت بنحو من خمسمائة دينار ، فعد ذلك من النوادر ، ومع ذلك كانت تأخذ من الناس الصدقة . وفي يوم الخميس تاسع عشره توجه ناظر الخاص علاء الدين ، الى نحو الاسكندرية ورشيد ، بسبب تجهيز المراكب التى عينها السلطان للتجريدة صحبة محمد بيك .

وفي رابع عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر عن الحجاج بالأمن والسلامة والرخاء .

سنة أربع عشرة وتسعمائة (١٥٠٨ - ١٥٠٩) : فيها ، في المحرم ، ابتداء السلطان بضرب الكرة وكان أكثر ضربه للكرة في الميدان ويعمل به المواكب الحافلة .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ممن كان

سرق السبائك الذهب من قاعة الذهب ، وكان منهم شخص يسمى يوسف المصارع ، وكان مقربا عند السلطان ، فظهر أنه كان موالسا مع السراق ، فمات تحت العقوبة بالمقشرة ولم يشنق معهم .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة ، ابن يحيى ابن سبع الذى جرى من أبيه على الحجاج ما جرى ، فحضر بالأمان من السلطان ، فلما قابله خلع عليه وقال له : « على أبيك يحضر وعليه منى أمان الله تعالى » .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن قد ظهر بساحل البحر الملح سمكة عظيمة الخلقة ، قيل أن طولها سبع وعشرون ذراعا ، وعرضها عشرة أذرع ، فأرسل السلطان يقول لنائب غزة ان كان ممكن احضارها الى القاهرة فيحضرها ، فتعذر ذلك عليه . ثم أرسل نائب غزة فيما بعد عظمتين من أضلاعها حتى شاهدها السلطان ، وقد وضعهما عند باب القلعة تجاه السبيل الذى هناك ، وهما باقيتان الى الآن ، وهما عظمتان من أضلاعها على ما قيل .

وفيه تزايدت عظمة الأمير طومان باى الدوادار ، واجتمعت فيه الكلمة ، ومما عاد من محاسنه أنه حجر على النقباء والرسل الذين على بابه ، ورسم لهم ألا يأخذوا من الغرماء الذين يطلبون من بابه أكثر من نصفين فضة ، ومن يأخذ أكثر من ذلك لا يقف له على باب ، وضيق عليهم أياما بسبب ذلك ... وبالجمل فعهده لين جانب ، وقلة أذى ، بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم السبت عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة ، فطلع الأمير طرباى أمير ركب المحمل ، وقانصوه أبو سنة أمير ركب الأول ، فخلع عليهما السلطان ونزلا فى موكب حافل . ثم شاعت الأخبار بأن السلطان رد خوند أصل باى

أم الملك الناصر من الينبع ، ورسم لها بأن تقيم بمكة ، وقد تغير خاطره عليها ، فرجعت من الينبع الى مكة واستمرت هناك حتى كان من أمرها ما سذكروه فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى ثانيا ، بعد ما أفرج عنه ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فعاقبه وقرر عليه مالا له صورة .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشرينه ، توفى نور الدين على المسلاتى المغربى ، وقد قاسى شدايد ومحن ، وكان توجهه صحبة العسكر الذى خرج الى التجريدة ، نحو بلاد الهند ، ورجع مع ناظر الخاص وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

وفى تاسع عشرينه ، جاءت الأخبار بوفاة جان بلاط نائب غزة ، وكان من نواب طقطباى نائب القلعة ، فأقام فى نيابة غزة مدة يسيرة ومات . وفى سلخه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نحوا من ربع درجة والأرض تضطرب .

وفى صفر كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبائى ، ونصبت الخيام فى الجزيرة التى تجاه بولاق ، وخرجت الناس فى تلك الليلة عن الحد فى القصف والفرجة ، وكانت ليلة حافلة .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشر أصابع ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء بقساعة البحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفى يوم الخميس سلخه ، عزل السلطان قاضى

الجزيرة الوسطى ، ونزل وعام في البحر وهو
سكران ، فغرق تحت الساقية التي بالجزيرة ،
وكان غير محمود السيرة في أفعاله .

وفيه نزل السلطان ، وتوجه الى القرافة وزار
الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم
توجه الى نحو المجرة فكشف عليها وعاد الى
القلعة .

وفيه أمطرت السماء أيضا بعد العشاء مطرا
غزيرا ، ووافق ذلك ثالث مسرى ، والنيل في
قوة الزيادة ، فلم يتأثر البحر لذلك . وقد وقع أمر
هذا المطر في هذه السنة مرتين والنيل في الزيادة
فتعجب الناس من ذلك .

وفيه خلع على مامى جوشن وقرر أمير الحاج
بركب المحمل ، وقرر قائلوه أستاذار الصحة
بالركب الأول .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان لخاير بك المعمار
بأن يتوجه الى عقبة أيلة ، ويأخذ معه جماعة من
البنائين والمهندسين . وقد شرع السلطان في بناء
خان بالعقبة ، والبروج وفساقي ، برسم
ملاقة الحجاج ، وعمر رصيفا على البحر عند
العقبة ، ورسم باصلاح العراقيب التي بالعقبة ،
وكانت تتضرر منها الحجاج ، فقليل أصلح ذلك
وجاء من أحسن المباني في ذلك المكان .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى تاجر الماليك
بتقدمة ألف ، وهى تقدمه على باى المقدم ذكرى
وفاته .

وفيه ، فى حادى عشر مسرى ، زاد الله فى النيل
المبارك خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان قبل
ذلك توقف أياما ، فرسم السلطان لقضاة القضاة
بأن يتوجهوا الى المقياس ويبينوا به ، فتوجهوا
الى هناك ، واجتمع قراء البلد ، ومد السلطان
بالمقياس أسطة فاخرة وكانت ليلة حافلة . ثم

القضاة الشافعى جمال الدين القلقشندى ، وخلع
على الشيخ كمال الدين محمد الطويل ، المعروف
بالقادري ، وقرره فى قضاء الشافعية بمصر ، عوضا
عن جمال الدين القلقشندى بحكم صرفه عنها . وقد
اجتمع مع الشيخ كمال الدين مشيخة الخاتناه
البيرسية ، وقضاة القضاة الشافعية ، ولم يتفق
مثل ذلك سوى للعلامة شهاب الدين بن حجر ،
وشمس الدين القاياتى . وكان أصل قاضى القضاة
كمال الدين هذا من أبناء الأتراك ، وهو كمال
الدين أبو الفضل محمد بن نور الدين على بن
الناصرى محمد بن السيفى بهادر العمرى القادري .

وفى ربيع الأول كان مستهله بالجمعة ، فطلع
قاضى القضاة كمال الدين فى ذلك اليوم ، وخطب
بالسلطان خطبة بليغة فأعجب السلطان والأمراء ،
وقد جاء فى القضاء على الوضع .

وفى سادسه توفى الأمير على باى السيفى يشبك
أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وفيه أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ،
وكان ذلك فى أيب من الشهور القبطية ، وكان
النيل فى قوة الزيادة فلم يتأثر البحر لذلك حتى
عد من النواذر .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة
وكان حافلا ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء ،
وكان يوما مشهودا .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المجرة
وكشف على عمارتها ، ثم عاد الى القلعة !

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأنه وقع خسف
بجزيرة تجاه مدينة اقريطش ، فهلك به من الناس
والبهائم ما لا يحصى .

وفيه غرق شخص من الخاصكية يقال له
أقبائى ، وكان دواذرا سكيرا ، توجه الى نحو

في القاهرة بما ذكرناه ، ولم يتم ذلك ، وعاد كل شيء على حاله .

وفيه رسم السلطان بنفى ابراهيم ، والى مصر العتيقة ، فنفى الى الواح ، وكان مستحقا لذلك ، وهو الذى كان متوليا عقاب بدر الدين بن مزهر الذى كان كاتب السر ، فعذبه بأنواع العذاب . وفيه تغير خاطر السلطان على مغلباى الزردكاش ، ومباشري الزردخاناه ، وقرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فرسم على عبد الباسط بن تقى الدين ووضعه فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

وفي جمادى الأولى ، فى يوم مستهله ، كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية .

وفي يوم الأربعاء ثانيه توفى الامام العالم العامل ، الورع التقى ، الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، من أعيان علماء الحنفية ، ومات فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به ، رحمة الله عليه . فلما مات خلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشريف حسين ، وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن الشيخ بدر الدين الديرى بحكم وفاته ، وخلع على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقرره فى مشيخة المدرسة الصرغتمشية ، عوضا عن القاضى نور الدين على الدمياطى الحنفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن بعض الفلاحين كان معه جملان محملان كتانا ، فدخل بهما وقت العشاء ، وشق بهما من السوق التى عند بيت الخليفة ، فتعلق فى ذلك الكتان الذى على ظهرهما نار من مسارج البياعين الذين هناك ...

فى اليوم الثانى ، وهو ثانى عشر مسرى ، زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى ثالث عشر مسرى زاد الله فيه عشرين أصبعا ، فكانت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين أصبعا ، ولم تقح مثل هذه الزيادة من مبتدأ الاسلام سوى مرتين . مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فانه زاد فى أول يوم من مسرى اثنتين وستين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثالث يوم من مسرى زاد خمسين أصبعا ، فكانت زيادته فى أربعة أيام سبع أذرع ونصف وأصبعين ... ولم يسمع بمثل ذلك من مبتدأ الاسلام حتى الآن . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى ، سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فانه زاد فى يوم واحد خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان الوفاء فى تاسع عشرين أيب . ثم فى هذه السنة فى دولة قانصوه الغورى زاد تسعين أصبعا فى ثلاثة أيام كما تقدم ، وكان الوفاء فى رابع عشر مسرى . فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، كما يقال :
لله در الخليج ان له تفضلا لا نطبق فشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لا يزال يكسره

وفيه رسم السلطان بنقل عبد العظيم الصيرفى من بيت الزينى بركات بن موسى الى بيت الوالى ليعاقبه ، فتسلمه الوالى وعاقبه أشد العقوبة وعصره فى رأسه وأكعابه ، واستمر فى العقوبة مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا من الناس لا يرافع فى أحد ، ولا يأخذ منه شيئا بغير حق ، وأن من ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ... فارتفعت الأصوات له بالدعاء . فكان سبب ذلك أن بعض التجار وقف للسلطان وشكا فى بركات ابن موسى بحضرة الأمراء ، وكان ذلك التاجر مظلوما ، فاستحى السلطان من الأمراء ، ونادى

فلما أحس الجملان بالنار طفشا في الناس ، فمات بعض صغار ، وداسا الناس ، فتعطب جماعة كثيرة ، ودهكت بضائع الناس ... وكانت ساعة مهولة ، فلم يقدر أحد من الناس على مسك الجملين ، واستمرا طافشين حتى وصلا الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فوقع هناك أحد الجملين فمات .

وفي جمادى الآخرة — في يوم الخميس ثانيه — توفي الشيخ بدر الدين محمد بن جمعة الحنفى ، ودفن في قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وكان من أهل العلم والفضل وله شعر جيد ونظم رقيق ، ومن مخترعاته وهو قوله :

ورب غزال بالقرافة شمته
مجاور قبر الليث بارقة الغيث

فلم أر قبل اليوم خشعا من الظبى
تأنس حتى في مجاورة الليث
ومات وهو عن ستين سنة ، وكان يقول فيه
الشهاب المنصورى :

بدر تم مذقر طرفى منه
بطلوع شأهت أحسن طلعه

عجبا كيف فاق أهل المعانى
في فنون العلوم وهو ابن جمعه

وفيه يقول الشهاب بن صالح :
لا يشبه بالبدر بدرى سناء
وسنا فهو منه أكمل طلعه
ذاك تم ابن جمعتين سناء
وحبيبي أتم وهو ابن جمعه

ومن الحوادث الشنيعة في هذا الشهر ، أن السلطان شرع يخرج اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وغير ذلك من النساء اللاتى لهن

الرزق وربما تعرض للرزق الأعباسية والأوقاف ، فأخرج نحو من ثلثمائة اقطاع ورزقة من غير جنحة ولا سبب ، وصار ينعم بها على المماليك بمكاتبات ، وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السالفة . .
فحصل للناس الضرر الشامل ، ولا سيما أولاد الناس صارت المماليك يهجمون عليهم ، ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ، ويهدلونهم بالضرب ، وكانت حادثة مهولة لم يسمع بشئها ، وأنا من جملة من وقع له ذلك ، وخرج اقطاعى لأربعة من المماليك ، ولكن أعان الله تعالى ورجع الى اقطاعى والله الحمد ، وقد قلت هذين البيتين المواليا في المعنى :

يا مالك الملك يامن بالعباد ألطف
دبر عبيدك وأصلح دولة الأشرف
كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف
وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف
وفي ذلك يقول محمد بن قانصوه بن صادق :
أيا بنى الأتراك أرزاقكم
ما قطعت الا لأمر عجيب

لا تضجروا من قطعها واصبروا
ستكشف الغمة عنكم قريب

لا تضجروا ترجع فادعوا بنا
في السر والجهر السميع المجيب

واحتسبوا من رموا سهام الدعا
فكل سهم حيث يرمى مصيب

ومن الحوادث أن عبد العظيم الصيرفى ، رافع صلاح الدين بن الجيعان ، وقال : « أنا أثبت في جهته أربعمئة ألف دينار أخذها من الخزانة أيام الملك الناصر محمد بن قايىباى » ، فمال السلطان الى هذا الكلام ، ورسم على صلاح الدين بن الجيعان ، وعلى علم الدين كاتب الخزانة ،

وبانوب النصراني ، وقرر عليهم مائة ألف دينار .
ثم قبض على تاج الدين ابن كاتب الدواليب ،
وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، واستمروا على
ذلك وهم في الترسيم حتى يكون من أمرهم
ما يكون .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعاً ،
وثبت إلى العشرين من بابه ، ثم هبط . وكان نيلاً
عظيماً قوى العزم مباركاً ، وحصل به غاية النفع ،
فكان كما يقال في المعنى لبعضهم :

كأن النيل ذو فهم ولب
لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي عند حاجتهم إليه
ويمضي حين يستغنون عنه

وفي النيل يقول محمد بن قانصوه :

اضمر على النيل فانظر ما تسر به

إذا ضمرت فما في الفال أشكال

لنالك الماء رمل والنسيم به

مبدي ضميرك والتجعيد أشكال

ومن الحوادث : أن في هذا الشهر وقع غالب
البيوت التي بالروضة من قوة عزم الماء ، وقد هري
البحر الجانب الغربي ، فرمى البيوت المحكمة البناء ،
وهذا قط ما اتفق سوى في هذه السنة .

وفيه كان انتهاء العمل من المجراة ، التي أنشأها
السلطان كما تقدم ، فدارت هناك الدواليب ،
وجرى الماء في المجراة ، حتى وصل إلى الميدان
الذي تحت القلعة ، ثم إن السلطان صنع هناك
سواقى نقالة ، وبني ثلاثة صهاريج تمتلئ من
ماء النيل ، يرسم الممالك الذين يلعبون الرمح في
الميدان ، وشرع في بناء بحرة في وسط ذلك
البستان الذي أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك
البحرة نحواً من أربعين ذراعاً ، وقيل أكثر من

ذلك ، وبني هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على
ذلك البستان ، وفك رخام قاعات الأتابكي أزيد
التي أنشأها بالأزبكية ، ونقل ذلك إلى الأماكن
التي أنشأها بالميدان ، وصارت هذه البحرة تمتلئ
كل يوم بماء النيل ، وفائضها يسقى البستان
فجاءت كما يقال في المعنى :

تهناً بها يا أيها البحر بحرة

حككتك فما تنفك بأسطة يدا

لها في هبوب الريح تجعيد مبرد

فمن أجل ذا تجلو عن المهج الصدا

وقال آخر :

عجبت منها بحرة بيضت

بخافقى كسنا البارق

كيف غدا الماء بها ساكنا

يرهو وقلب الماء خافق

وفي رجب حضر يحيى بن سبع ، الذي كا
أمير الينبع ، وجرى منه في حق الحجاج ما تقد
ذكره ، فأرسل إليه السلطان منديل الأمان ، فحظ
وقابل وكان قد أظهر العصيان مدة طويلة . فط
وعلى رأسه منديل الأمان ، فخلع عليه السلطان
فلما نزل من القلعة ، كادت العوام أن ترجمه
وسبوه سباً فاحشاً ، ولولا كان صحبة الأ
الدوادر لرجموه لا محالة ، فلما بلغ السلط
ذلك نادى في القاهرة بأن لا أحد من النا
يتعرض لابن سبع ، ولا يسبه ، ومن فعل ذا
شنق من غير معاودة ، فتكلم الناس في
السلطان ، بأنه أخذ من ابن سبع مالا له صو
وضيع حقوق الحجاج فيما فعل بهم .

وفي يوم الجمعة الموافق لثامن هاتور القبطي
قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وكان أشد

بين الناس أن السلطان ينزل الى المطعم ، ويلبس
الأمراء الصوف هناك ويوكب ويشق القاهرة ، فلم
يتم ذلك وبطل هذا الأمر ، فلبس الصوف يوم
الجمعة وخرج الى الجامع .

وفي هذه السنة كبرت الأمراء تخافينهم ،
وطولوا قرونها ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ،
وقد قال القائل في المعنى :

قد لبس الصوف كل كبش

قرونها يا لها قرون

فرحت من ذلك مستريحا

لا صوف عندي ولا قرون

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن
عوض ، واستقر به مستوفى الدواوين .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين
يونس النابلسي الأستاذار ، فرسم عليه ووضعه في
الحديد ، وسجنه بالعرقانة هو وأخاه زين الدين .
وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان
مسافرا نحو الرشيد بسبب أمر المراكب التي عمرها
السلطان لأجل التجريدة ، فلما قابل السلطان خلع
عليه ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم حضر الأمير محمد بيك ، وكان
توجه بسبب عرض المراكب المعينة للتجريدة .

وفي هذا الشهر وقعت تشحيطة بالقاهرة ، وعز
وجود الخبز من الأسواق ، وبلغ سعر القمح كل
أردب خمسمائة درهم ، وعز وجود التبن أيضا
وتناهى سعره كل حمل بدينار .

وفي شعبان طلع القضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، وطلع الخليفة المستمسك بالله
يعقوب ، فوقع بينه وبين ابن عم أبيه خليل

تساجر فاحش بمجلس السلطان ، فقال
خليل للخليفة يعقوب . « أنت ولايتك ما تصح
فائك أعمى » ، وكان الخليفة يعقوب بعينيه
ضعف ، فقام اليه الناصري محمد بن الخليفة ،
وقال له « وأنت ما تصح خلفك صلاة لأنك
ما تحسن قراءة الفاتحة » ، وكان خليل ألثغ لا
ينطق بحرف الراء ، ثم ألزمه السلطان بأن يقرأ
بحضرة القضاة فلما قرأ تعفش في القراءة بين
الناس ، ثم سكت ولم يكمل قراءة الفاتحة ،
وانفض المجلس مانعا وكان مجلسا مهولا ، فقال
السلطان : « يوم الاثنين نعقد مجلسا في أمر من
يصلح للخلافة » . فقام الخليفة يعقوب والقضاة
على أن الميعاد يوم الاثنين ، وقد ترشح أمر
الناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب ليلى الخلافة
عوضا عن أبيه ، وكان السلطان محظا على الخليفة
يعقوب ، رائما منه مالا ، كما سيأتى الكلام على
ذلك .

وفي يوم السبت ثابته توفي الأمير أربك اليوسفى
المعروف بفستق ، وكان أصله من مماليك الظاهر
جقمق ، وقرر في مقدمة ألف في دولة الناصر محمد
ابن الأشرف قايتباى ، وكان شاخ وكبر ومات وهو
في عشر الثمانين ، ومات وهو طرخان ، وكان له
مرتب على الذخيرة حتى مات ، وكان لا بأس به .

في يوم الاثنين رابعه حضر القضاة الأربعة
والخليفة يعقوب وولده محمد وابن عمهم خليل ،
وكان الخليفة يعقوب عهد لولده محمد بالخلافة عندما
حصل له ذلك في المجلس المقدم ذكره ، فعرض
ذلك العهد على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل ، وكان الخليفة عبد العزيز عهد بالخلافة
من بعده لولده يعقوب ، ثم من بعده لولد ولده
محمد ، فلما وقف قاضى القضاة على هذين

العهادين قال : « الحق للناصرى محمد بن الخليفة يعقوب » .

ثم ان الخليفة قال للسلطان : « أنا قد شخت وكبر سننى ، وقد عزلت نفسى من الخلافة ، وعهدت الى ولدى بالخلافة ، فان شاء السلطان يولييه أو لا » ، فقال السلطان : « قد وليت ولدك » . وساعدته الأمراء على ذلك ، فتقدم كاتب السر محمود بن أجا ، واسترعى الشهادة على السلطان بولاية الناصرى محمد بن يعقوب ، ثم خطب خطبة بليغة وقال : « يا مولانا السلطان ، نشهد عليك أنك وليت الخلافة للناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب فقال : « نعم » . فشهد القضاة عليه بذلك .

فقام الخليفة يعقوب وودع السلطان ، فأكرمه وعظمه ، ونزل الى داره ، وهو فى غاية العز والعظمة ، وألبسه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملايسه ، وألبس سيدى خليل أيضا سلارى من ملايسه ، وألبس ولديه أيضا سلارين يستجاب ، ثم أحضروا للناصرى محمد شعار الخلافة ، فأقيض عليه ، وتلقب بأبى عبد الله المتوكل على الله ، فولاه السلطان الخلافة على أتم وجه جميل ، ولم يراع من الأنام خليل ... فكان السادس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . فلما لبس الشعار جلس بين يدى السلطان ، ثم ان القضاة شهدوا عليه بأنه فوض للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ، ما فوضه اليه والده المستمسك بالله يعقوب ، فقال : « نعم » ، ثم قام وقد ارتفعت الأصوات للسلطان بالدعاء ، كون أنه لم يخرج الخلافة عنهما ، وكان ابن عمهم خليل سعى على الخلافة بمال جزيل ، فلم ينل من ذلك مناه ، فما كان عن ذلك السعى أغناه ، فولى خليل بوجه طويل ، ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه بنار الخليل ، فكان كما يقال فى المعنى :

ألا قل لمن كان لى حاسدا
أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله
لأنك لم ترض لى ما وهب
فجازاك عنه بأن زادنى
وسد عليك وجوه الطلب

ثم ان المجلس انفض ، وقام الخليفة المتوكل على الله ، وقد تلقب بلقب جده عبد العزيز ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس وزينوا له حارته ، وأوقدوا له الشموع بالصليية ، وكان له يوم مشهود ، وولى الخلافة وهو شاب ، وكان مولده سنة سبعين وثمانمائة ، ولم يتفق لأحد من خلفاء مصر بأنه ولى الخلافة ووالده فى قيد الحياة ، مقيما معه فى بيت واحد ، سواء .

وكانت مدة خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب اثنتى عشرة سنة الا ثلاثة أشهر ، فانه ولى الخلافة يوم السبت ثالث صفر سنة ثلاث وتسعمائة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، وخلع نفسه من الخلافة رابع شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة ، وقيل انه تكلف فى هذه الحركة الى اثنى عشر ألف دينار ، ولولا فعل ذلك كان انتهى الى دمياط أو الى القدس ، فكان ما فعله عين الصواب كما يقال :

يعوض الله مالا أنت متلفه

وما عن النفس ان أتلفتها عوض
وهذا ما كان من ملخص أخبار الخليفة يعقوب وولاية ولده الناصرى محمد .

وفى يوم الجمعة ثامنه ، نزل السلطان الى الميدان ، ورسم بجمع الحرافيش ، فاجتمع هناك السواد الأعظم من رجال ونساء ، ففرق على

كل واحد منهم نصفين فضة ، فليل انه فرق فى ذلك
اليوم نحو من أربعائة دينار .

وفيه نزل السلطان من الدهيشة ، وتمشى ودخل
الى الزردخانة ، وعرض الأسلحة التى كانت فى
الزردخانة من قديم الزمان ، فرأى أشياء كثيرة
منها تلفت من الصدأ ، فطلب عبد الباسط ناظر
الزردخانة ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه فى
ذلك اليوم على باب الزردخانة ، فألزم باصلاح
ما قسد من الأسلحة ، واستمر فى الترسيب بعد ذلك
مدة طويلة وهو فى الحديد .

وفى يوم الاثنين حادى عشره عزل السلطان
شرف الدين النابلسى الأستاذار ، وخلع على الأمير
طومان باى الدوادار ، وقرره فى الأستاذارية ،
عوضا عن شرف الدين النابلسى ، فصار الأمير
طومان باى أمير دوادار كبير وأستاذار العالية ،
وكاشف الكشاف كما كان الأمير أقبردى . وخلع
على شمس الدين بن عوض وقرره ناظر ديوان المفرد .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه
الى نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر
على الفرنج الذين كانوا يتعشون فى البحر ، وغنم
منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسر السلطان لهذا
الخبر ، وأمر بدق الكوسات ، فدقت ثلاثة أيام
متوالية ، ثم ان حسين أرسل يطلب عسكرا ثانيا
حتى يتقوى به على من بقى من الفرنج .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض المحاييس ،
فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى
الفلاحين وأصحاب الجرائم .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه حضر مراكب
أغربة عدتها ست ، وهى التى كان ناظر الخاص
توجه الى رشيد بسبب عمارتها ، فلما وصلت
أرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى ، فخرج

الناس يتفرجون عليها ، وقد زينت بالصناجق
والشطقات ، ودقت فيها الطبول ، وزعقت الزمور ،
 واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا .

فلما كان يوم الثلاثاء ، سادس عشرينه ، نزل
السلطان من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة
والمباشرون ، وتوجه الى نحو طرا ، وضربت له
هناك الخيام . ثم أحضر بين يديه تلك المراكب
الأغربة ، فلعبوا قدامه فى البحر ذهابا وإيابا والطبول
والنفوط عمالة ، ورموا قدامه فى البحر عدة مدافع ،
وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجيم الغفير من
الناس . وأقام السلطان هناك الى بعد العصر ، ومد
له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ، ولم يقع
للسلطان من حين تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى
القصف والفرجة . فلما ركب من هناك خلع على
ناظر الخاص كاملية بسمور ، وخلع على رئيس
المراكب وجماعته الخلع السنية ، ثم عاد الى القلعة .

وفى رمضان — فى يوم مستهله — نزل السلطان
الى الميدان ، وطلع اليه الخليفة محمد المتوكل على
الله بن يعقوب وهنا بالشهر ، وهو لابس العمامة
البغدادية ، وهذا أول مواكبه فى الخلافة ، فقام
اليه السلطان وعظمه الى الغاية ، فلما قام دخل
بعده قضاة القضاة .

وفى ذلك اليوم طلع شرف الدين الصغير ، ناظر
الدولة ، والزينى بركات بن موسى المختسب ،
وعرضوا عليه اللحم والغنم والخبز والدقيق
والسكر وهو فوق على رءوس الحمالين ، فخلع
عليهما السلطان ، وخلع على تغرى برمش الوزير ،
وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأحد تاسع شهر رمضان ، حضر الى
الأبواب الشريفة قاصد صاحب بغداد ، وهو
شخص يسمى بيرك . فلما بلغ السلطان حضوره

أنزله بدار الأشرف جان بلاط التي بحارة عبد
الباسط ، ورتب له ما يكفيه .

فلما كان يوم الخميس ، ثالث عشر رمضان ،
أوكب السلطان بالحوش بغير شاش ولا قماش ،
 واجتمع بالحوش سائر الأمراء ، ورسم بأن يزينوا
باب الزردخانه الذي عند الجامع ، فزينوه
باللبوس وآلة السلاح والصناجق السلطانية ... ثم
طلب السلطان القاصد ، فطلع صحبة المهندار
وقابل السلطان ، وقرأ كتابه الذي حضر على يده .

وكان سبب حضور هذا القاصد أن متملك بغداد
مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل ، كان متوليا
على بغداد ، فزحف عليه شاه اسمعيل ابن حيدر
الصوفي فتغلب عليه عسكره ومال الى الصوفي ،
فلما رأى ذلك هرب ودخل الى بلاد السلطان
وأرسل قاصده الى السلطان بأن يبعده بعسكر
حتى تحارب الصوفي ، فأكرم السلطان ذلك القاصد
وأحسن اليه ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة القان
أحمد ابن أويس ، متملك بغداد ، وقد زحف عليه
تمرلنك ، فهرب منه والتجأ الى الملك الظاهر
برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك في موضعه .

وفيه ترفع شمس الدين ابن عوض والمعلم
يعقوب اليهودي ، فقال ابن عوض أنا أثبت في جهة
يعقوب ستين ألف دينار بطريق شرعي ، فمال
السلطان الى كلام ابن عوض واعتدل على يعقوب
اليهودي ، وأودعه في الترسيم على مال يرده .

وفيه أرسل خاير بيك المعمار ، الذي توجه الى
عقبه أيلة ، بسبب عمارة الأبراج التي أنشأها
هناك ، والخان والحواصل واصلاح طريق العقبة ،
فأرسل للسلطان حجارة زعم أن داخلها معسدة
النحاس الأصفر ، وأنه وجد تلك الأحجار في واد
بالقرب من العقبة ، فرسم السلطان بسبك تلك

الأحجار ، فظهر منها بعض شيء من النحاس
لا يساوي تبعه ، فرجع عن ذلك .

وفي سابع عشره ، خلع السلطان على الجمالي
يوسف البدرى ، وقرره في الحسبة عوضا عن
الزيني بركات بن موسى ، بحكم انفصاله عنها ،
وخلع على أحمد بن العكام وقرر في بردارية
السلطان عوضا عن بركات بن موسى ، وكان
السلطان تغير خاطره على بركات بن موسى ، وأخذ
في أسباب الهبوط حتى أخرج عنه التحدث على
خاتناه سرياقوس ، والتحدث على جهات البرلس
وجعلها لناظر الخاص ، وغير ذلك من الجهات
التي كان يتحدث عليها ، فانه كان متحدثا على
ست عشرة جهة .

وفيه خلع السلطان على معين الدين بن شمس ،
وقرره نائب كاتب السر عوضا عن الشهابي أحمد
ابن الجيعان بحكم انفصاله عنها ، وقد اجتمع مع
معين الدين هذا وكالة بيت المال ونيابة كتابة السر
وغير ذلك من الوظائف ، وكان هذا من أكبر
أسباب الفساد في حقه كما يأتي الكلام على ذلك
في موضعه ، وقد سعى معين الدين بن شمس بمال
له صورة حتى استقر في نيابة كتابة السر ، وكان
معين هذا شنيع المنظر ، بشع الوجه ، فكان اذا
وقف وقرأ القصص بين يدي السلطان يقول
السلطان : « والله تعالى انى لأستحي من العسكر
لما يقف ابن شمس يقرأ على القصص قدامهم » .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر فجلس
بالميدان وكان يوما مطرا .

وفيه قويت الاشاعات بأن الصوفي زاحف على
بلاد السلطان ثم خمدت تلك الاشاعات عن قريب .

وفي ثامن عشرينه ، جاءت الأخبار من دمياط
بوفاة الأمير أطمير بن ولى الدين الذي كان أمير
مجلس ، ونفى الى دمياط بسبب واقعة الحجاج ،

موته ، عين باشية مكة الى شخص من الأمراء
الطبلخانات يقال له جان بردى بن قائم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من
القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
ماماى جوشن ، وبالركب الأول قانصوه بن دولات
بردى أستاذار الصحبة أحد الأمراء الطبلخانات ،
وكان يوما مشهودا .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من الطينة بأن
الأمير تمر باى الهندى لما توجه الى هناك بسبب
عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك على
ساحل البحر المالح ... فبينما هو هناك جاءت
اليهم مركب فيها فرنج فتعشوا بالسواحل ، فجمع
الأمير تمر باى جماعة من الخفراء الذين هناك ،
وممن كان معه من المماليك ، وتحارب مع تلك
الفرنج ، فانتصر عليهم وأسر منهم نحو من سبعة
وعشرين نفرا وملك مركبهم وما كان فيها ، وأرسل
الفرنج الأسرى ومركبهم الى السلطان فسر ذلك .

وفيه حضر قاصد من عند صاحب قبرس وعلى
يده مقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه .

وفيه خلع السلطان ، على الزينى بركات بن
موسى وأعاده الى الحسبة ، وعزل يوسف البدرى
عنها . وكان قد وقع فى تلك الأيام تشحيطة فى القمح
وارتفع الخبز من الأسواق ، وكادت العوام أن ترجم
يوسف البدرى . فلما خلع على ابن موسى وأعاده
الى الحسبة ، فرح به الناس قاطبة ، وسكن ذلك
الاضطراب .

وفيه خلع السلطان على قاصد صاحب بغداد
وأذن له بالسفر . وكان يروم أن السلطان يمد
صاحب بغداد بعساكر من مصر حتى يحارب
الصفوى ، فما طاع السلطان على ذلك .

وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أصله من مماليك
الأشرف قايتباى ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما
وكان عنده لين جانب ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض على السلطان خلع العيد وهو
بالميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخه حضر كاشف الشرقية وصحبته شيخ
العرب عبد الدايم بن الأمير أحمد بن بقر ، وقد
قبض عليه بحيلة عملها حتى مسكه ، وكان له مدة
طويلة وهو عاص يفسد فى البلاد ، فلما قابل
السلطان رسم بتقييده وإيداعه فى البرج .

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وكان يرك
قاصد صاحب بغداد حاضرا فألبسه السلطان سلارى
صوف بسمور من ملايسه ونزل صحبة الأمراء .
وفى يوم الخميس ، رابعه ، نزل السلطان الى
الميدان ، وجلس بالمقعد الذى به ، واجتمع حوله
الأمراء ، ثم حضر قاصد صاحب بغداد . وفى ذلك
اليوم ساق الرماحة بالميدان قدام السلطان ، ودخل
المحمل وكسوة الكعبة ، وطافوا بها فى الميدان ،
واجتمع هناك الجهم الفقير من الناس بسبب الفرجة ،
وكان يوما مشهودا ، ولا سيما كان ذلك بحضور
قاصد صاحب بغداد .

ثم بعد أيام عزم السلطان على القاصد بالميدان
وأحضر قدامه جماعة من المماليك ، وهم لابسون
آلة السلاح ، فرموا فى ذلك اليوم رماية نشاب
على الخيول ، وأظهروا أنواعا غريبة فى فن النشاب ،
أدهشوا ذلك القاصد ، وأحرق السلطان فى ذلك
اليوم احراقة نطف بالنهار فى الميدان ، وقد فعل مثل
ذلك مرتين بحضرة القاصد وهو بالميدان .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة قرقماس
الشريفى باش المجاورين ، فلما تحقق السلطان

وفيه جلس السلطان في الدهيشة ، وعرض
الأستادار شرف الدين النابلسي ، وكان له مدة
وهو مسجون بالعرقانة في قيد وزنجير ، وقاسى
ما لا خير فيه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأفرج عنه ،
وقد ضمنه الزينى بركات فيما بقى عليه من المال ،
وفيه يقول محمد بن قانصوه :

يارب نج الخلق من ذى حسبة
في كعبه التعسير لا التيسير

ان سعر الأشياء غلت من كعبه
وغلت وزاد بكعبه التسعير

وفي ذلك اليوم عرض السلطان عبد الباسط بن
تقى الدين ناظر الزردخانة ، وكان له مدة طويلة
وهو في الترسيم بجامع القلعة وهو في الحديد .
وكان السلطان أوعده بالشنق ، فأفرج عنه في
ذلك اليوم ، وأورد بعض ما قرره عليه من المال ،
وضمنه في الباقي الأمير مغلباى الزردكاش ، وكان
السلطان قد قرر على مغلباى الزردكاش ،
وعبد الباسط الناظر ، وعبد الكريم بن اللاذنى
المستوفى ، ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ...
فقرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، فأوردوا
منها شيئا ، وتأخر عليهم باقى ذلك حتى يعلقوه .
وكان قد رافعهم أحمد بن قراكر أحد الزردكاشية ،
ومحمود وعلى باى وغير ذلك من الزردكاشية ،
فخلع السلطان على مغلباى الزردكاش ، وعلى
عبد الباسط ، وعلى عبد الكريم اللاذنى ، ونزلوا
الى دورهم بعد ما قاسوا شدايد ومحن .

وفيه قبض السلطان على يوسف ابن أبى أصبع
الحلبى — وكان من خواصه — فقاسى غاية الضرر
والأنكداد ، وأمره قد شهر بين الناس بما جرى عليه
من الضرر البالغ .

واستمر المعلم يعقوب اليهودى في الترسيم ،

وعلم الدين المتحدث في الخزانة ، وبانوبه
النصرانى ، حتى يعلقوا ما قرر عليهم من الأموال
الجزيلة . وكذلك صلاح الدين بن الجيعان ، وقد
تقدم القول على ذلك بما قرر عليهم من المال .

وفيه أفرج السلطان عن عبد العظيم الصيرفى ،
وكان له مدة طويلة وهو في الحديد موكل به في
جامع القلعة ، فأورد مما قرر عليه من المال شيئا ،
وبقى عليه من ذلك المال بعض شيء ، فضمنه بعض
الأمراء ، وتكلم له مع السلطان بأن يطلقه حتى
يسعى في بقية المال . وقد قاسى عبد العظيم من
الشدة ما لا خير فيه ، وضرب وعصر غير ما مرة
في أكعابه وأصداعه وأضلاعه ، وغير ذلك من
أنواع العذاب .

وفي ذى الحجة ، خرج الأمير طومان باى
الدوادار ، وسافر الى جهة الصعيد ، فنزل من
القلعة في موكب حافل .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن
له عادة .

ومن النوادر أن شخصا من الناس ، قيل هو
بواب جامع الحاكم ، طلع الى السلطان وذكر له
أنه رأى في المنام قائلا يقول له : قل للسلطان ان في
جامع الحاكم في بعض دعائمه دعامة تحتها دنانير
ذهب لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك
مال لكلامه ، وظن أنه حق ، فأرسل الأمير خاير
بيك الخازندار ، وبركات بن موسى ، وجماعة
آخرين من أخصائه ، وأخذوا معهم جماعة من
المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل
وقالوا له : « أرنا الدعامة التى تحتها الذهب » .
فقال : « لا أعلم أيها الدعامة التى تحتها الذهب » .

قال المهندسون : « ما يظهر حتى تهدم جميع الدعائم
تى هنا » .

فاجتمع فى ذلك اليوم الجهم الغفير من الناس
لجامع ، وكثر القال والقليل فى ذلك ، وكذبوا
لك الرجل . ثم شاوروا السلطان على هدم دعائم
جامع ، فلم يوافق على ذلك ، ورجع عن هذا
لأمر من قريب ... وقد وقع مثل ذلك فى دولة
ملك الأشرف برسباى ، وفى أيام الظاهر جقمق
الظاهر خشقدم ، ونزل الأمير خاير بيك
خازندار الى هناك .. ثم وقع مثل ذلك فى دولة
لأشرف قايتباى ، ولم يظهر من هذه القضية
نتيجة قط ، ولم يفد من هذا الكلام شيء .

وفى ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج ، وأخبر
الأمن والسلامة ، وقد جد فى السير حتى وصل
، هذه المدة اليسيرة .

وفيه وقع تشاجر بين أنصباى حاجب الحجاب ،
بين الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، فوصل
مرهما الى السلطان ، فأ نصف السلطان أنصباى
لى نوروز . وكان سبب ذلك أن ربعا بجوار
نطرة الموسيقى ، وهو بالقرب من بيت نوروز ،
كان يسكن به بنات الخطأ يعملن الفاحشة ،
قصد أنصباى حاجب الحجاب كبس ذلك الربع ،
كان الربع للأتابكى أربك ، فتوجه اليه دوا دار
نصباى وجماعة من النقباء ، فلما وصلوا الى
نناك ، ثارت عليهم غلمان نوروز وعبيده ،
ضربوا جماعة حاجب الحجاب ، ومنعوه من
بس ذلك الربع . فلما بلغ أنصباى ذلك ركب
نفسه ، وكبس ذلك الربع ، وضرب النساء اللاتى
ن به ، وأشهرهن فى القاهرة على حمير . فطلع
رروز ، وشكا أنصباى الى السلطان ، فخط
لسلطان على نوروز وقصد الاخراج به واقتصف
ليه أنصباى .

وفيه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ولم يشعر
بها أحد من الناس الا القليل .

وفى هذه السنة صار السلطان يعمل غالب
المواكب بالميدان ، وأبطل لبس الشاش والقماش
فى المواكب ، وصار لا يلبس الا فى يوم الجمعة فقط
عند صلاة الجمعة وفى الأعياد وعند خروج الحاج ،
أو عند حضور قاصد ... وقد أبطل أشياء
كثيرة كانت من شعار المملكة ، مما كان يعمل
من النظام القديم .

وفى هذه السنة كثر الموت فى الدجاج حتى
شح جماعة من الفلاحين من ذلك ، وصار يموت
منهم فى كل يوم ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه ، حصل للسلطان
توعك فى جسده واسهال مفرط ، وامتنع عن
الخروج الى الأمراء أياما ، ثم عوفى من ذلك
وخلع على الحكماء .

ومن النوادر أن البلسان ، وهو الذى يسميه
الناس البلسم ، كان قد انقطع زريعته من أرض
المطرية من أوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع ،
وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد ، وكانت
ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه
بثقله ذهبيا ، ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا
من دهنه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسوا فيه .
وكان يستخرج دهنه شيئا فى فصل الربيع فى
برمهاة ... فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية
تكد السلطان لذلك ، ولا زال يفحص عن أمره
حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن
بالبحر ، وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى مكانه
المشهور به ، فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البر
التى هناك ، فنتج فى هذه السنة وطلع ما كان قد

بطل أمره من مصر ، فقد ذلك من محاسن الملك
الأشرف قانصوه الغوري .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ،
وكانت سنة كثيرة الحوادث ، وقد وقع فيها عزل
وولاية ومصادرات ... فمن ذلك عزل الخليفة
المستمسك بالله يعقوب وولاية ولده محمد المتوكل
على الله .

ومنها عزل قاضي القضاة الشافعي برهان الدين
القلقشندي وولاية الشيخ كمال الدين الطويل .
ومنها عزل شرف الدين يونس النابلسي
الأستادار وولاية الأمير طومان باي الدوادار
واستقراره في الأستادارية مع ما بيده من
الدوادارية الكبرى .

ومنها عزل الشهابي أحمد بن الجيعان عن نيابة
كتابة السر وولاية معين الدين بن شمس .
ومنها عزل الزيني بركات بن موسى عن الحسبة
وولاية الجمالي يوسف البدرى .

وكانت سنة شديدة البرد حتى عدم أشياء
كثيرة من الفواكه والتقاء وغير ذلك ، ووقع فيها
أيضا تشحيطة في القمح حتى بلغ سعره الى
أشرفين كل أردب ، وعز وجود التبن والدريس .
ومنها عزل فخر الدين بن العفيف عن كتابة
الممالك وولاية شرف الدين الصغير لها .

ومنها مراقة عبد العظيم الصيرفي لصالح الدين
ابن الجيعان ، وعلم الدين المتحدث في الخزانة
الشريفة ، وبانوب النصراني . وقد صودروا ،
وأخذ منهم مال له صورة بسبب مراقة عبد العظيم
الصيرفي لهم .

ومنها مصادرة مغلباي الزردكاش ، ومباشري
الزردخاناه ، وجماعة من الزردكاشية .

ومنها مصادرة يوسف بن أبي أصبع الحلبي
وكان من أخصاء السلطان .

ومنها مصادرة المعلم يعقوب اليهودي . وصودر
تاج الدين بن كاتب الدواليب ، وقرر عليه نحو
عشرة آلاف دينار . وصودر في هذه السنة جماعة
كثيرة من أعيان الناس .

ومنها ما وقع لأولاد الناس من أجناد الحلقة
وغيرها ، في خروج اقطاعاتهم من غير سبب ولا
موجب لذلك ، فأخرج السلطان في هذه السنة
نحو من أربعمئة اقطاع ورزقة ، حتى الرزق التي
كانت بيد النساء ، وربما تعدلوا الى الجهات التي
هي موقوفة على جهات بر وصدقة ورواج
الصالح . وقاست أولاد الناس من الممالك ما لا
خير فيه ، وصاروا يهجمون عليهم في بيوتهم ،
ويضربونهم وييهذلونهم أشد البهذلة والأمر لله .
وجرى في هذه السنة من الحوادث ما لا يحصى .

سنة خمس عشرة وتسعمائة (١٥٠٩ - ١٥١٠ م)

فيها ، في المحرم في رابعه ، الموافق لأول
يوم من بشنس القبطي ، أظلم الجو وأمطرت
السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ،
واستمرت تمطر يومين متواليين ، حتى عد ذلك من
النوادر ، حيث أمطرت في بشنس .

وفي حادي عشره خرج علاء الدين ناظر الخاص ،
وتوجه الى نحو الطور لأجل عمارة المراكب التي
أنشأها السلطان هناك بسبب تجريدة الهند

ومن الوقائع اللطيفة ، أنه في يوم الخميس ليلة
الجمعة ، خامس عشره ، نزل السلطان الى الميدان
ونصب به خيمة كبيرة مدورة ، وملا البحرة التي
أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التي أنشأها ،
ثم رسم بجمع كل ورد في القاهرة ووضع في تلك

البحرة ، وجمع قراء البلاد قاطبة والوعاظ . وعلق
أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش
الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء
من كبير وصغير ، وأرباب الوظائف من المباشرين ،
وأعيان الناس قاطبة ، ويات السلطان تلك الليلة
بالميدان ، ويات عنده الأتابكي قرقماس وجماعة من
الأمراء . ومد تلك الليلة أسبطة حافلة ، أعظم من
سماط المولد ، فمد في السمات أربعمئة صحن
حسيني . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية ، وكل
قطعة نصف رطل ، وكان من الأوز والدجاج والغنم
ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمئة رطل ،
ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمئة طير ،
ومن الغنم المعاليف خمسون معلوقا ، ومن الرمان
الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك
السمات فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة
وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ،
ووافق ذلك تاسع بشنس القبطي ، ثم في عقيب ذلك
ابتدأ يضرب الكرة .

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وأحضر جماعة
من المماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بآلة
السلاح ، وأحرق في ذلك اليوم احراقة نفط
بالنهار ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، في ثاني عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة
مع الأمن والسلامة ، وكانت سنة رخية مباركة .
ولما رجع الحجاج ، أخبروا بما فعله السلطان من
وجوه الخير من العمارة بالعقبة ، وقد أنشأ هناك
خانا وفيه عدة حواصل ، برسم الودائع ، وأبراجا ،
وجعل بها جماعة من الأتراك قاطنين هناك ، يقيمون
بها سنة ثم يعودون الى مصر ، ويتوجه جماعة غيرهم
الى هناك ، وأصلح طريق العقبة وقطع الأماكن
الصعبة التي كانت بها العراقيب ، وأنشأ برجا

بمعجود ، وبرجا بنخل ، وأصلح عدة مناهل بطريق
مكة ، وبنى هناك أشياء كثيرة من هذا النمط ،
وحصل بها غاية النفع ، وأنشأ بالأزلم برجا أيضا ،
وجعل به جماعة من المماليك يقيمون به وكلما مضت
سنة يحضرون ، ثم يتوجه غيرهم^١ .

وفيه عين السلطان الأمير علان الدوادار الثاني ،
بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان
قد أشيع في تلك الأيام بأن ابن عثمان قد مات ،
وربما صلوا عليه صلاة الغيبة في جامع الأزهر ، ثم
ظهر بأن هذا الكلام كذب ، وأسفرت هذه الاشاعة
عن أنه كان مريضا وشفى ، فعين السلطان علان
بأن يتوجه اليه ويهنئه بالعافية .

وفيه حصل للسلطان بعض قولنج ، فامتنع أياما
عن ضرب الكرة ، ثم شفى من هذا العارض وضرب
الكرة في الميدان ، وهذا بخلاف العادة القديمة أن
الكرة تضرب في الميدان .

وفي صفر جاءت الأخبار من دمياط بأن شخصا
من أولاد ابن عثمان يقال له قرقد بيك ، قد وصل
الى دمياط . فلما تحقق السلطان ذلك عين الى ملاقاته
الأمير أقباي أمير آخور ثاني ، وأزدر المهندار ،
ونائق الخازن . وأرسل صحبتهم ملاقة حافلة من
كل نوع فاخر . وجهاز المراكب حتى الحراقة الكبيرة
التي يكسر فيها السد ، برسم ابن عثمان ، ليحجى
فيها في البحر . وجهاز له احراقة نفط تحرق قدامه
في البحر لما أن يقلع ، وما بقى من اكرامه ممكن .
فتوجهوا الى دمياط بسبب الملاقة .

وفي يوم السبت سابعه ، قبض السلطان على
الشهابي أحمد بن الجيعان ووكل به وقرر عليه
خمسة آلاف دينار ، وكان في هذه المصادرة مظلوما .

(١) لعله يعنى : « يتوجهون » ثم « يحضرون » غيرهم .

ما لا خير فيه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشر صفر وصل قرقد بيك بن عثمان الى شبرا ، وهو قرقد بن أبى يزيد ابن محمد بن مراد بيك المتصل بالنسب الى جدهم عثمان . فلما وصل الى شبرا آخلى له السلطان قاعات البرابخية التى ببولاق ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر اليه جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصينى وغير ذلك من الاختياج ، فخرج جماعة من الأمراء الى ملاقاته . وكان السلطان رسم للكشاف ومشايخ العربان ، بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسطة والمدات الحافلة ، فرموا على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك ، فاستمر على ذلك حتى وصل الى قاعات البرابخية وهو فى الحراقة التى يكسر فيها السد . فلما دخل البرابخية مد له السلطان هناك مدة حافلة .

ثم توجه اليه الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون قاطبة فسلموا عليه . ثم توجه اليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجىء اليه من الناس ... واستمر على ذلك الى يوم الاثنين ثالث عشرين صفر ، فأرسل السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ... منهم أربع جنائب بالسروج الذهب والكنابيش الزركش والغواشى الحرير الأصفر .

ثم ان السلطان رسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء قاطبة ، ويعلمهم بأن الموكب فى الحوش بالشاش والقماش . ثم ان السلطان نصب السحابة الزركش على الدكة وغشى الدكة بالأطلس الأصفر ، ورسم بأن تزين القلعة عند باب الزردخانا بالصناجق السلطانية وآلة السلاح ، وأن تصف المكاحل الكبار ، على باب الزردخانا ... ثم

وفيه أفرج السلطان عن شرف الدين يونس النابلسى الأستاذار ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى السجن بالعرقانة نحو من عشرة أشهر وهو فى زنجير وقيد مخشب اليدين .

وفى يوم الأربعاء ، حادى عشره ، كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبائى ، وكانت ليلة حافلة . وضرب فى الجزيرة التى تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفيه ، فى ليلة الأحد ، خامس عشره ، خسف جرم القمر وأقام فى الخسوف نحو احدى وأربعين درجة .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، تسحب جمال الدين الزغلى من المقشرة وهرب ، وكان التزم بدار الضرب وقرر عليه للسلطان فى كل شهر مال له صورة ، فأتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة ، وظهر بها الزغل كالشمس ، حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء ، وصارت معاملة السلطان لا تمشى فى غالب البلاد ، وامتنع الذهب البرسبية والجقمتقى والأينالى والخشقدى والقائيتية ، وصار الذهب الغورى والفضة هى التى عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش . فلما تزايد الأمر فى ذلك شك بعض الأمراء هذا الحال الى السلطان فقبض على جمال الدين الزغلى وضربه ضربا مبرحا وسجنه بالمقشرة ، فأقام بها أياما وهرب . فلما هرب مقت السلطان قانصوه أبا سنة الوالى بسبب ذلك ، وقصد الاخراق به ، ثم قرر عليه خمسة عشر ألف دينار . وهرب معلوم المقشرة واختفوا ، وضرب بسبب ذلك يحيى بن نوكار دوادار الوالى ، وحصل على جماعة من الناس بسبب جمال الدين الزغلى

رسم للمهندار ورعوس النوب ، بأن يتوجهوا الى ابن عثمان وهم بالشاش والقماش ويطلعوا قدامه الى القلعة ، فتوجهوا الى بولاق وأركبوه من البرابجية على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه الجنايب السلطانية ، فطلعوا به من على المقس وأتوا به من على سوق مرجوش ، وشقوا به القاهرة ، فكان له يوم مشهود . وخرج الناس أفواجا أفواجا لرؤيته .

واستمر في ذلك الموكب الحافل حتى وصل الى القلعة ، فطلع وهو راكب الى عند الحوش السلطاني ونزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا حريرا ، فاستراح ساعة نحو درجة ثم دخل الحوش . فلما وصل الى أوائل البساط نزل السلطان من على الدكة واستمر واقفا حتى وصل اليه ابن عثمان فتعانقا ، وقيل ان ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عينيه . ثم تحدث معه السلطان ساعة وهو واقف على أقدامه ، فلما خلع عليه السلطان وخرج من الحوش ركب من على مصطبة شاد الحوش .

وكان سبب مجيء قرقد بن عثمان الى مصر ، قيل حصل بينه وبين أبيه حظ نفس ، فأتى الى السلطان ليصلح بينهما .

وكانت صفة قرقد بيك بن عثمان رجلا شابا في عشر الأربعين : معتدل القامة ، عربي الوجه ، يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة ، وعلى رأسه عمامة تركمانى ، وهى صغيرة دون عمام جماعته . وقيل انه كان أكبر أولاد أبى يزيد بن عثمان .

ثم ان السلطان طلب خلعة فأحضر اليه خلعة جر ذهب منسوجة شغل القاعة تلمع كالبرق ، فأفيضت على قرقد بيك بن عثمان ، وكان عليه لما طلع الى القلعة دلالة حرير أصفر وفوقها جندة

صوف أخضر مفتوحة ، فنزع ذلك من عليه ولبس خلعة السلطان . وقد بالغ السلطان في اكرامه جدا ، بخلاف ما وقع لجمجمة بن عثمان مع الأشرف قايتباى ، فانه لما دخل عليه لم يقيم له ، ولا وصل الى الحوش وهو راكب ، ولا أنعم عليه بأشياء حافلة كما فعل الغورى مع قرقد هذا .

وفى ذلك نكتة لطيفة وهى أن الجمجمة لعلها لقب لقب بها بعض أولاد آل عثمان وليس علما لواحد منهم ، ومع ذلك ما اشتهر بها رجل منهم فى بلاد الروم وغيرها اللهم الا فى مصر ، ثم أخى يعتقد أن المراد به هو السلطان جم ابن السلطان أبى الفتح محمد خان ، هرب الى مصر لما تسلطن أخوه السلطان بايزيد خوفا منه على نفسه . وقضيته مشهورة لم يل ملك الروم ، وقرقد ولى على اسطنبول كرسى مملكة الروم مدة يسيرة لما مرض أبوه وأشرف على الموت ، فولى على الروم عوضه حتى شفى ، وكان أكبر أولاده .

ثم ان السلطان رسم للأمراء بأن ينزلوا صحبة قرقد بن عثمان ، فنزلوا معه الى الصليبة ، فحلف عليهم بالرجوع الى دورهم ، وتوجهوا به الى بولاق من على الجزيرة الوسطى ، وصحبته الرعوس النوب بالشاش والقماش حتى وصل الى البرابجية ، ثم انفض ذلك الموكب . ومد له السلطان هنا مدة حافلة . ثم فى أثناء ذلك أرسل اليه السلطان مقدمة حافلة . قيل بعث اليه بعشرين ألف دينار ، عشرة فضة وعشرة ذهب وعدة بقج فيها قماش مفتخر ، ما بين سكندرى ومنزلاوى ، وغير ذلك . ثم قدم ابن عثمان للسلطان فيما بعد مقدمة حافلة ما يحضرنى قدرها .

وفى هذا الشهر توفى الأمير مغلباى دجاج أحد الأمراء الطيلخانات .

وتوفي أيديكي دوا دار علان الدوا دار الثاني ،
وكان غير مشكور السيرة في أفعاله .

ومن الحوادث أن في يوم الخميس ، سادس
عشرته ، توفي أحمد بن الحكام برداد السلطان ،
وقد مات قتيلا . وسبب ذلك أن بعض أعدائه سلط
عليه من قتله بخنجر في البندقانيين وهو طالع الى
القلعة بعد صلاة الصبح ، كما جرى لأبي البقا ابن
الجيعان ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توجهت طائفة من الممالك الى بيت
شخص من الأمراء الرؤوس التوب يقال له اينال
باي ، فأحرقوا بيته ونهبوا ما فيه . وكان سبب
ذلك أن صبيا أمرد كان بجمقدارا عند بعض
الممالك ، فهرب من عنده واحتتمى بهذا الأمير ،
فدخل اليه المملوك يطلب الصبي من عنده ، وادعى
أنه سرق من عنده شيئا ، فأغلظ المملوك على ذلك
الأمير في القول ، فأدبه وضربه . فتعصبت له
خشداشينه وأتوا الى بيت اينال باي المذكور
ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين ، فتأكد السلطان
يلتفت الى كلامه وراح النهب في كيسه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه
الى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم
الفرنج كسرة فاحشة ، وقتلوا العسكر عن آخره ،
ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين ، فتأكد السلطان
لهذا الخبر .

وفيه سافر ناظر الخاص ، والأمير محمد بيك
قريب السلطان الى ثغر الاسكندرية ، بسبب تجهيز
المراكب التي يتوجه فيها الأمير علان الى بلاد ابن
عثمان .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابي أحمد بن

الجيعان ، وكان له مدة وهو في الترسيم حتى غلق
ما قرر عليه من المال .

وفي ربيع الأول طلع ابن أبي الرداد ببشارة
النيل ، وجاءت القاعدة ست أذرع وثمانى عشرة
أصبع ، وكانت أزيد من العام الماضى بثمانى أصابع .
ومن النوادر اللطيفة أن بركة الرطلى زرعت في
هذه السنة حشيشا ، وهذا لم يتفق قط . وكان
الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان ، وقد
استأجر أرض بركة الرطلى ، فكان كل من دخل
اليها يبتهج بذلك ، ولا سيما أصحاب الكنبه من
الحشاشين ، فجاءت اليها الناس أفواجا يتفرجون
على ذلك الحشيش ، وقد وضع من أهله في محله ،
حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وفيه يقول
بعض شعراء العصر :

تساهت بركة الرطلى حسنا

وضارت جنة فيها عروش

ومذ زرعوا الشرائق في ثراها

يبدو نسيمها طلع الحشيش

وفي يوم الثلاثاء ، ثامنه ، عزم السلطان على قرقد
بيك بن عثمان في الميدان ، ولعب السلطان والأمراء
قدامه بالكرة ، ومد له أسطة حافلة بالبحرة التي
بالميدان ، ولم يحضر في ذلك المجلس سوى
عثمان وجماعته . ثم ان ابن عثمان تكلم مع
السلطان في أمر الأمير أزيك المكحل الذى نفى
الى دمياط بسبب الأتابكى قيت الرحبي ، كما
تقدم ، فلما قدم ابن عثمان الى دمياط ترمى عليه
أزيك المكحل بأن يشفع فيه عند السلطان أن يعود
الى مصر ، ويقيم بها بطلا ، فشفع فيه ابن عثمان
في ذلك المجلس ويأس يد السلطان ، فرسم باحضاره
الى مصر ، فلما أراد ابن عثمان الانصراف ، خلع

(١) اسم «الحشيش» باللاتينية «Cannabis indica»

عليه السلطان كاملية تماشيح على أحمر ، وأركبه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش .

وفي يوم الجمعة ، حادى عشره ، عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة على العادة ، وحضر قرقد بيك بن عثمان ، فلما طلع قام له السلطان وأجلسه عن يمينته فوق المرتبة التى هو جالس عليها ، فوق القاضى الشافعى . وفي ذلك اليوم لبس السلطان الشاش والقماش ، ولم يكن عادة أن السلطان يلبس الشاش والقماش فى المولد . وإنما فعل ذلك لأجل ابن عثمان ، وأظهر السلطان فى ذلك اليوم غاية العظمة بخلاف كل سنة .

وفي يوم الخميس ، سابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طقطبى نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر مغلبى الزردكاش بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان جماعة من المماليك وأولاد الناس ، وعين منهم جماعة الى الطينة يقيمون بها سنة فى الأبراج التى أنشأها هناك ، ويهيرون بالنوبة ، كلما مضت سنة يأتى تلك الجماعة ويتوجه خلافهم الى هناك ، ويقيمون بها سنة كاملة .

وفي يوم السبت ، تاسع عشره ، حضر أزبك الملكحل من دمياط ، وكان منضيا بها ، فشفع فيه قرقد بيك بن عثمان كما تقدم ذكر ذلك . فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره ، ورث له ما يكفيه من الذخيرة بغير اقطاع ، واستمر طرخانا .

وفيه خلع السلطان على علوى البرماوى وقرره فى برددارية السلطان ، عوضا عن أحمد بن العكام بحكم موته ، وصار البرماوى من تحت يد الزينى بركات بن موسى .

وفيه كان ختم ضرب الكرة ، وحضر ابن

عثمان عند السلطان ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ووقع خصمانية فى لعب الرمح فى ذلك اليوم قدام السلطان والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفي ربيع الآخر قبض على جمال الدين الرغلى الذى تسحب من المقشرة ، فرسم السلطان بشنقه ، فأشهره وهو عريان على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه حتى أتوا به الى بيت شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمرباى ، وكان ساكنا فى مصر العتيقة على البحر ، فشنى هناك على بابيه ، وشنى معه خمسة أنفار كانوا يعملون الزغل معه . وسبب ذلك أن تمرباى المذكور كان هو الذى عرف بين السلطان وبين جمال الدين وقال للسلطان ان جمال الدين يعرف صنعة الكيمياء ، فظهر أن ذلك كذب .

وفيه فى ليالى وفاء النيل وقع بركة الرطلى حريق فى بعض بيوت الجسر التى بها ، فاحترق نحو سبعة أماكن ، ولا يعلم من فعل ذلك . وكان الجسر خاليا بغير سكان .

وفيه تغير خاطر السلطان على علاء الدين ناظر الخاص بسبب العجمى الذى كان عند السلطان الشنقى ، وهذه الواقعة مشهورة بين الناس بما كان سببها ، فكادت ديار ناظر الخاص أن تخرب فى هذه الحركة ، وألزمه السلطان بأن يعتق عبيده وجواريه قاطبة .

وفيه وقع تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى ربيع كاتب السر البدوى محمود بن أجا بسبب وقف كان بينهما بحلب ، فرسم السلطان بعقد مجلس بينهما بالمدرسة الصالحية ، فلما توجهوا الى هناك انتصف كاتب السر على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة واستخلص منه الوقف الذى

بحلب ، وكان السلطان قائما مع كاتب السر ،
ومحظا على عبد البر بن الشحنة .

وفيه تغير خاطر السلطان على سودون نائب
دمياط بسبب ما وقع منه في حق ابن عثمان لما
دخل الى دمياط ، فلما حضر سودون المذكور
ضربه بين يديه وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه حضر تمر باي الهندي أحد الأمراء
العشراوات الذي كان توجه الى الطينة بسبب
عمارة الأبراج التي أنشأها السلطان هناك ، فلما
انتهى منها العمل وحضر خلع عليه بسبب ذلك .

وفيه انقطع جسر أم دينار الذي بالجيزة ،
وكان ليالى وفاء النيل فاضطربت الأحوال لذلك ،
وخرج قانى باي قرا أمير آخور كبير على جرائد
الخيول ، وعدى الى الجيزة فأعياه سده ، فأرسل
يطلب من السلطان عونة على ذلك ، فرسم السلطان
لجماعة من الأمراء المقدمين بأن يتوجهوا الى هناك
ويتعاونوا على سده ، فتوجه الأمير دولات باي
أمير سلاح ، والأمير طرا باي رأس نوبة النوب ،
والأمير تمر الحسنى أحد المقدمين ، والأمير ماماي
جوشن وجماعة آخرون من الأمراء العشراوات .
فلما توجهوا الى هناك أعياهم سد ذلك الجسر ،
وحصل للناس بسببه الضرر الشامل ، وضاروا
بمسكون الناس من الطرقات ويرمونهم في
الحديد ويتوجهون بهم الى جسر أم دينار ،
وخولوا اليه بأخشاب كثيرة وسلب ، ومع هذا
أعياهم سده ، حتى عد ذلك من الوقائع الغريبة .
وفيه يقول محمد بن قانصوه :

مذ نقص النيل ليالى الوفا

وأمتع البر من البر

وأى لقلبي البر فى كسره

فخصه بالجبر فى الكسر

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة خوند

أصل باي أم الملك الناصر ، وسرية الملك الأشرف
قايتباي ، وأخت الملك الظاهر قانصوه ، وزوجة
الملك الأشرف جان بلاط ، توفيت بمكة ودفنت
هناك . وقد تقدم القول بأن خاطر السلطان قد
تغير عليها ، فلما حجت وقصدت العود الى مصر
أرسل السلطان مراسيم بعودها الى مكة ، فعادت
اليها من أثناء الطريق ، واستمرت مقيمة بمكة الى
أن ماتت بها بعد مضي سنين .

وفيه كان وفاء النيل المبارك الموافق ذلك
لرابع عشر مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى
قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان له يوم
مشهود .

وفيه شرع السلطان يقبض على جماعة خوند
أم الناصر ، وقد ظهر لها أشياء كثيرة من أموال
وتحف فى عدة حواصل ، وقد حصل على جماعة
من النساء بسببها ما لا خير فيه ، وضربوا وعصروا
غير ما مرة ، وما قاسوا خيرا فى جرتها ، واستمروا
فى التراسيم مدة طويلة وهم الى الآن على ذلك .
وفيه كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه
السلطان خلف الميدان عند حوش العرب وخطب
به ، وقد جاء فى غاية الحسن .

وفى جمادى الأولى ، حضر الأمير طومان باي
الدوادار ، وكان قد سافر الى جهة بلاد الصعيد ،
فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، ونزل الى
داره فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس ، سادسه ، توجه الأمير علان
الدوادار الثانى الى السفر ، وقد تقدم أن السلطان
عينه قاصدا الى ابن عثمان ، وكان تقرر الحال
أولا على أنه يسافر من البحر الملح فما تم له
ذلك وسافر من البلاد الشامية ، فخرج فى ذلك
اليوم فى موكب حافل .

الخليج ، فقتل تحت الردم شخص يقال له شمس الدين البهواشي ، أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان لا بأس به ، وقتل شخص معلم صاجاتي ، وقتل جماعة آخرون ممن كانوا ساكنين في ذلك الربع ، وكانت حادثة مهولة .

وفي رجب نادى السلطان بأن لا يتجاهر الناس بالمعاصي ، ولا يمشى بسلاح من بعد المغرب ، وأن الناس يواظبون على الصلوات الخمس في الجوامع ، فسمعوا من أذن وخرج من أخرى .

وفيه قبض السلطان على الشمسي محمد ابن فخر الدين كاتب الممالك ، الذي قرر في نظر الاسطبل السلطاني ، كما تقدم ، فلما قبض عليه قرر عليه مال ووكل به ، وكان مظلوما في هذه الواقعة .

وفيه قبض السلطان على جلال الطنبدي ، أحد نواب الحنابلة ، وقد كذب عليه بعض أعدائه وأوحى للسلطان بأن قانصوه خمسمائة الذي تسلطن قد أودع عنده مالا ، فطلبه السلطان ورسم عليه ، وقاسى شدايد ومحنة ، وصودر غير ما مرة بسبب قانصوه خمسمائة فانه كان من جملة أصحابه .

وفيه توفي والد معين الدين بن شمس وكيل السلطان ، مات بغتة ، قيل طلب منه السلطان مالا فابتلع فصا من الماس فمات في ليلته ، فكانت الواقعة تقرب من واقعة فاصر الدين الصفدي وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه قبض الوالي على امرأة تسمى أنس ، وكانت قبيحة السيرة تجمع عندها بنات الخطاء ، وكانت ساكنة بالأزبكية ، فلما تولى الأتابكي قرقماس توجهت الى قليوب ، فأرسل السلطان بالقبض عليها ، فلما قبضوا عليها رسم السلطان

وفيه طلع الأمير طومان باي الدوادار الكبير بتقدمة حافلة الى السلطان ، كون أنه جاء من الصعيد ، فكان من جملة التقدمة : عشرة آلاف دينار ، ومائة فرس ، ومائة بقرة ، وخمسمائة رأس غنم ، وثلاثون رأس رقيق ، وغير ذلك أشياء كثيرة . وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلي ، فشنق على باب زويلة .

ومن الحوادث أن شخصا شابا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشيء ، فرسم بتسليمه الى الوالي ، فعاقبه فلم يقر بشيء ، فسجن بالمقشرة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان توجه الى ثغر الاسكندرية بسبب تجهيز المراكب المعينة لصحبة الأمير محمد قريب السلطان .

وفي هذا الشهر وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر فلم يشعر بها الا القليل من الناس .

وفي جمادى الاحره ، في يوم تاسعه ، نزل السلطان الى الميدان وحضر عنده ابن عثمان . ووقع في ذلك اليوم خصمانية في لعب الرمح ، وأحرق السلطان قدامه احراقة نفض بالنهار في الميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفيه ثبت النيل المبارك على اثنتين وعشرين أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى أواخر بابه .

وفيه ظهرت امرأة غريقة عند قناطر الأوز ، ووجد عليها ثياب فاخرة ، وفي آذانها حلق بلخش ، وفي يدها سوار ذهب ، فطلع بها والي القاهرة ووضعها في تابوت عند جامع الظاهر ، فأقامت يوما وليلة ولم يظهر لها معرفة فدفنت بعد ذلك .

وفيه وقع ربيع في الكداسين ، وكان مطلا على

بتعريقها ، ويقال انها فدت نفسها بخمسمائة دينار ورسم بنفيتها .

وفيه خلع السلطان على أقبای وأعاده الى كشف الشرقية ، كما كان قبل ذلك ، وصرف عن كشف الشرقية كرتباى مملوك السلطان .

وفي هذه السنة أرسل السلطان تقليدا الى يوسف الناصري وقرره في نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها ، وقرر جان بردى الغزالي في نيابة صفد عوضا عن سودون الدوادارى ، وقرر سودون الدوادارى في نيابة طرابلس ، وقرر في نيابة الكسرك يوسف دوادار ملاج نائب القدس .

ومن الحوادث في هذا الشهر ، أن قرقماس المقرى ، أحد الأمراء العشراوات كان ساكنا في زقاق الكحل فسرق من بيته عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين ، وسلمهم الى الوالى فعاقبهم أشد العقوبة ، وغرمهم أضعاف ما سرق له ، وكانوا في هذه الواقعة ليس لهم ذنب ، وقد ظهرت هذه العملة فيما بعد عند جماعة قرقماس المقرى ، بعد ما عاقب جماعة من مشاهير الناس ، منهم أولاد ابن البقرى ، وغير ذلك من جيران الحارة من أعيان الناس .

وفي يوم الخميس حادى عشره جاءت الأخبار بأن سيباى نائب الشام قد وصل الى خانقة سرياقوس ، وقد حضر ليزور السلطان ، وكان قد وقع بينه وبين حاجب دمشق حظ نفس ، فحضر الى السلطان يشكو له من ذلك . فلما حضر دخل الى القاهرة ليلة الجمعة ، ونزل في مدرسة السلطان التى أنشأها في الشرايشين فبات بها ، فلما أصبح يوم الجمعة ، ودخل وقت صلاة الجمعة ، أرسل السلطان خلفه فطلع الى القلعة وهو بالشاش والقماش ، وأرسل اليه السلطان

جنائب بسروج ذهب وكنائش ، فركب من المدرسة وطلع الى القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة وجلس معه في المقصورة ، فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه السلطان ونزل من القلعة ، وصحبته الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، وقدامه تلك الجنائب . واستمر في هذا الموكب الحافل حتى أنزله في بيت قرقماس الجلب الذى بالتبانة ، وقد خلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وكان له يوم مشهود ، وقيل وصل من الشام الى القاهرة في سبعة أيام وقد جاء على جرائد الخيل ، وكان قد بلغه أن أركماس يسعى عليه في نيابة الشام فاضطربت أحواله ، وجد في السير حتى أتى الى مصر في سبعة أيام .

وفيه قبض السلطان على أصيل برددار الأتابكى قيت الرجبى وسلمه الى الوالى ، فعاقبه وضربه كسارات حتى مات تحت العقوبة . وكان سبب ذلك أن قد وشى به عند السلطان أنه يعانى صنعة الزغل ، وقد اشتهر بذلك بين الناس ، وكان أصيل هذا من وسائط السوء ظالما غاشما يستحق كل أذى .

وفيه عزم السلطان على سيباى نائب الشام في الميدان ، وجلس هو وإياه على البحرة التى به ، ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، ثم ألبسه كاملية بسمور ، وتوجه الى المكان الذى نزل به ... ولما حضر سيباى نائب الشام لم يحضر مواكب السلطان بالقلعة . وسبب ذلك أن الأمير دولات باى أمير سلاح لم يوافق على أن سيباى نائب الشام يجلس فوقاً منه . وقد تقدم أن الأمير دولات باى ولى نيابة حلب ونيابة الشام قبل سيباى ، فبموجب ذلك لم يوافق الأمير دولات باى على أن سيباى يجلس فوقاً منه .

لع السلطان على أبي البقا ابن ابراهيم
الخاص ، وقرره في نظر الاسطبل
عوضا عن محمد بن فخر الدين كاتب
حكم صرفه عنها . وقد جمع أبو البقا
الخاص ونظر الاسطبل .

م الجمعة لبس السلطان الصوف وقلع
ووافق ذلك سادس هاتور القبطى .

عاد خاير بيك المعمار من بناء الخان
لتى أنشأها السلطان في العقبة ، فلما
دنة يسيرة ورسم له السلطان بأن يتوجه
من البحر الملح ، ويأخذ صحبته جماعة
من التجارين والمهندسين ، وقد أمر
، ببناء مارستان ورباط في مكة ، وأن
م ويجرى عين ماء بازان الى مكة ، فخرج
هذا الشهر وتوجه الى الطور .

وقعت فتنة بين العبيد وصاروا يقتلون
مضا حتى أعيا الوالى أمرهم .

جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
محمد بيك لما توجه الى الجون بسبب
الأخشاب صادف مراكب فيها فرنج
، البحر على التجار فتحارب معهم
بليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر
، منهم ، وغنم ما كان معهم في المراكب ،
كثيرة تقدر بنحو من مائة ألف دينار ،
لمطان لهذا الخبر .

نزل السلطان الى الميدان ، وحضر
مد بيك بن عثمان . ورسم للرماحة الذين
في أيام المحمل بأن يسوقوا في الميدان
عثمان حتى يتفرج عليهم ، فساقوا وهم
آلة السلاح ، وكان يوما مشهودا .

أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين

وثلاثين ألف دينار . وكان سبب ذلك أن تغرى
بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى
من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من
خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان
أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى
بمصر وبالاسكندرية في نظير ما غرمه .

وفيه ظهر في السماء ، من جهة القبلة ، نور ساطع
مثل قلع المركب ، يظهر وقت طلوع الفجر ثم
يختفى ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى ولم يعلم
ما سبب ذلك .

وفيه لما قوى البرد ، رسم السلطان لابن عثمان
بأن يتحول من بولاق ، ويسكن في بيت الأشرف
جان بلاط الذى في حارة القاضى عبد الباسط ،
فأقام به مدة يسيرة ثم عاد الى بولاق كما كان .

وفي شعبان ، خلع السلطان على سيابى نائب
الشام وأذن له بالعودة الى محل نيابته ، فسافر
في أثناء ذلك .

وفي رابع عشره توفي الطواشى عنبر التكرورى
مقدم المماليك ، وكان ديننا خيرا لين الجانب ، وكان
أصله من طواشية الأمير جانى بيك المرتد .

وفي يوم الخميس ، سادس عشره ، حضر الأمير
محمد بيك الذى كان قد توجه الى الجون بسبب
احضار الأخشاب ، وحضر صحبته تلك الفرنج
الذين أسرهم كما تقدم ، فكانوا نحو من خمسين
نقرا ، فشق بهم من القاهرة وهم في زناجير ، وكان
لهم يوم مشهود . فلما عرضوا على السلطان ،
وهو بالميدان ، خلع على الأمير محمد بيك ورسم
بسجن الفرنج فسجنوا بالمقشرة ، وقيل أسلم منهم
خمسة أنفار .

وفي ذلك اليوم كان قدام السلطان رماية
نشاب على الخيل ، وأحرق قدامه في ذلك اليوم

واشتهر عنها أنها تقيم المقعد وترد بصر الأعمى ...
وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لها
صحة ، فبلغ كرى كل حمار من القاهرة الى قليوب
أشرفيا ، وتوجه اليها جماعة من الخاصكية والأمراء
العشراوات وأعيان الناس ، ووقع لها سمعة زائدة
بالقاهرة .

وفي هذا الشهر ، أو في الذى قبله ، توفي الشرفى
يونس بن الأمير طوخ بونى بازق ، وكان أبوه أمير
مجلس فى دولة الأشرف اينال ، وكان الشرفى
يونس من أعيان أولاد الناس ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، خلع السلطان
على الطواشى سنبل العثمانى الهندى وقرره فى
تقدمة الممالك عوضا عن غير التكرورى ، بحكم
وفاته ، وخلع على الطواشى جوهر الزومى وقرره
نائب مقدم الممالك عوضا عن سنبل ، بحكم
انتقاله الى تقدمه الممالك ، وخلع على الطواشى
بشير وقرره رأس نوبة السقام عوضا عن خشقدم
الرومى بحكم وفاته .

وفيه نزل السلطان الى الميدان فوقف اليه جماعة
من المغاربة ، نحو من سبعين انسانا ما بين رجال
ونساء ، وقد قصدوا الحج فى هذه السنة ، فرسم
لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط .
وفيه ، فى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، طلع
قرقد بن عثمان الى القلعة ، وأفطر عند السلطان
تلك الليلة وبات ، فلما أصبح ألبسه السلطان
سلارى صوف أبيض بسمور من ملايسه .

ومن الحوادث أن فى ليلة الأحد خامس عشرينه
وجد اثنان من ممالك السلطان من طبقة الصندلية
قتلى عند بركة باب اللوق ، بالقرب من شاطيء
الخليج ، ولا يعلم من قتلها ، فلما طلع النهار نزل
من القلعة الجهم الغفير من الممالك من خشداشين
أولئك الممالك الذين قتلوا ، فنهبوا عدة دكاكين

أحراقه فقط بالميدان بالنهار ، وكانت نوبة آنياب
الأمير بهادر القورى ، وكان ابن عثمان حاضرا
والأمراء المقدمون ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث أن الأمير طومان باى الدوادار
خرج يسير نحو المطرية وصحبته الأمير خاير بيك
كاشف الغريبة أحد المقدمين ، فساقوا فى الرمل
فتقنطر الفرس بالأمير خاير بيك فانكسر بعض
أعضائه ، ورد وهو محمول وقد أشرف على
الموت ، وأقام أياما وهو فى الفراش منقطعا حتى
شفى بعد مدة طويلة .

وفى رمضان ، كان مستهله يوم الخميس ، فنزل
السلطان الى الميدان ، وعرضوا عليه اللحم والخبز
والدقيق والسكر والغنم وهو مزفوف على رءوس
الجمالين على جارى العادة ، وخلع فى ذلك اليوم
على تغرى برمش الوزير ، وعلى شرف الدين
الصغير ناظر الدولة ، وعلى الزينى بركات بن
موسى المحتسب .

وفيه كان انتهاء العمل من المقعد الذى أنشأه
السلطان خلف جنيحة البحرة ، المطل على الحوش
السلطاني ، وقد جعل طوله ستين ذراعا وعرضه
نحو عشرين ذراعا ، وجعل له شبائيك على الحوش ،
وشبائيك على جنيحة البحرة ، وجعله مقعدا قبليا
بغير أعمدة ، ورخمه وزرة عالية . فلما كان أول
ليلة من شهر رمضان أفطر فيه واجتمع عنده الأمراء
ومد السباط به ، وأظهر غاية العظمة فى تلك الليلة .

وفيه خلع السلطان على الأمير شاهين الجمالى
وقرره فى مشيخة الحرم النبوى كما كان أولا .

وفيه ظهرت بقليوب ، وقيل بقلمه ، ابنة صغيرة
دون البلوغ ، قيل انها رأت النبى صلى الله عليه
وسلم فى المنام مرارا متعددة ، وظهر لها كرامات
خارقة ، فتوجه اليها الناس أفواجا أفواجا ،

من باب اللوق ، وكادوا أن يحرقوا البيوت التي هناك حتى أدركهم الوالى ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وألزم الوالى بتحصيل من فعل ذلك ، فنزل الوالى وقبض على جماعة كثيرة من أرباب الإدراك الذين هناك ، ومن الغيطانية والمرايعين ، وغير ذلك ممن لا ذنب له فى ذلك ، وربما عوقب من لا جنى . فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم فى المقشرة . وفى أثناء هذا الشهر ظهر محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف ، فترامى على بعض الخاصكية بأن يسعى له عند السلطان فى عوده الى نظر الأوقاف ، فلما ذكر للسلطان مال اليه ، فلما بلغ محمد بن العظمة ذلك طاش وشرع يطلب أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد . وكان علاء الدين ناظر الخاص متحدثا فى نظر الأوقاف ، فلما بلغه ما فعله ابن العظمة طلع الى السلطان وشكا له من ابن العظمة ، فقال له السلطان : « أنت تشتكى عندى من هذه الوظيفة وتقول باخسر فيها » ! فقال ناظر الخاص : « أسد فيها بسعادة السلطان » . فألبسه كاملية ونزل الى داره ، فلما نزل قبض على محمد بن العظمة وضربه وسجنه بالمقشرة واستمر بها مدة طويلة .

وفى خامس عشرينه كان ختم البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمه بالحوش واجتمع القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، وفرفت الخلع والصرر على العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، فخلع عليه السلطان .

وفيه وصل الى السلطان مقدمة حافلة من عند نائب الشام ، وهى ما بين خيول وممالك وقماش ومال وغير ذلك .

وفيه توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن جرياش ،

وكان من أعيان علماء الحنفية ، وكان ديننا خيرا لا بأس به .

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وحضر قرقد بيك بن عثمان وصلى مع السلطان صلاة العيد ودخل فى المقصورة وهو بغير كلفتاة . وكان الجمجمة ابن عثمان لما حضر مع الأشرف قايتباى صلاة العيد ألبسه الكلفتاة وصلى بها معه ، فلما خرج السلطان من الجامع مشى قدامه قرقد بيك ابن عثمان مع الأمراء من الجامع الى الحوش ، فلما خلع على الأمراء خلع على ابن عثمان أيضا كاملية تماسيح على أحمر بفرو سمور ، ورسم له بأن يركب من الحوش ، فركب ونزل مع الأمراء فى موكب حافل ، حتى وصل الى بولاق ونزل بالبرابخية . ومن جملة ما بالغه السلطان فى اكرام قرقد بيك بن عثمان أنه أرسل اليه بكتاب على يد كاتب السر بأن يرتب له فى كل شهر ألفى دينار برسم نفقته ما دام بمصر ، فكأنت تصرف له من الذخيرة فى مدة اقامته بمصر .

وفى يوم الاثنين عاشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وطاقوا بهم فى القاهرة مع المحمل ، وكان لهم يوم مشهود .

وفيه حضر القاضى محب الدين كاتب سر دمشق فأكرمه السلطان الى الغاية ، وحضر صحبته مقدمة حافلة للسلطان .

وفيه توفى للأمير طومان باى الدوادار ولد صغير من سرية ، وعمره نحو من ثلاث سنين ، فتأسف عليه ودفن وقت صلاة الفجر على الفوانيس ، فرسم السلطان بأن يدفن فى مدرسته التى بالشرابشين فدفن بها .

الحبش ووصل الى طرا ، ثم عاد من يومه وشق
من على ساحل البحر .

ثم في يوم الأربعاء ، حادى عشره ، نزل من القلعة
وتوجه الى نحو الصحراء وزار سيدي عبد الله
المنوفي رحمة الله عليه ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه ضيق السلطان على جماعة من المباشرين
وأفرد عليهم نحو من ستمائة ألف دينار . وسبب
ذلك أن كل من كان عليه مال منكسر في الديوان
من قديم وحديث يرده ، فجلس بنفسه في الدهيشة
وعمل حسابهم بحضرته فاضطربت أحوال المباشرين
قاطبة ، وضيق عليهم في سرعة استخراج تلك الأموال
على تفرقة الأضحية . وكان غالب هذه الأموال بقايا
مصادرات قديمة على صلاح الدين بن الجيعان
وعلم الدين المتحدث في الخزائن وبانوب النصراني
وشمس الدين بن عوض وشرف الدين الصغير
ناظر الدولة وشرف الدين النابلسي الأستاذار
ويوسف بن أبي أصبع الحلبي وفخر الدين بن
العفيف الذي كان كاتب الممالك . ومنهم ناظر
الجيش عبد القادر القسروي وبركات بن موسى
وغير ذلك جماعة آخرون ، فنزلوا من القلعة وهم
سكارى بغير مدام .

وفي يوم السبت ، رابع عشره ، نزل السلطان
وسير وتوجه الى نحو تربة الأشرف قايتباي ، فنزل
عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على
قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم رسم للبوايين وللصوفة
بمائة دينار ، وركب من هناك وتوجه الى تربة
العادل طومان باي ، فنزل عن فرسه وزار قبره
وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم
ركب من هناك ورجع الى تربة الأمير يشبك
الدوادار فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له
الفاتحة ، ثم ركب من هناك ونزل من على سوق

وفي يوم الاثنين سابع عشره خرج المحمل من
القاهرة في تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
طقطباي نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول
مغلباي الزردكاش أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان
لهما يوم مشهود ، وحضر أمير من أمراء ابن عثمان
الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف
دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء
مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج .

ومن الحوادث أن شخصا يسمى بركات من
فراشي الأمير طومان باي الدوادار قتل صبيا من
صبياناه وكان شابا صغيرا جميل الصورة ، فلما عرض
بركات المذكور وغرمائه على السلطان دفعهم الى
قاضي القضاء المالكي ، فحل في أمر بركات لما علم أنه
من فراشي الدوادار ، فسجنوه حتى تقام عليه البينة
بأنه قتل . وفي عقيب ذلك قتل ساعي الدوادار
أيضا قتيلا وهو شخص يعرف بالشقيفاتي ، وكان
شيخا مسنا . فلما عرض الساعي على السلطان
وعلم أنه من جماعة الدوادار دفعه للشرع أيضا ،
فحلوا عنه ولم يجيء أحد يشهد عليه بأنه قتل ،
وكان قتله بالنهار بعد العصر في وكالة الأشرف
برسباي التي بالصليية ، وراح أمر القتلين على
أقاربهما وأولادهما ، والأمر الى الله تعالى .

وفي ذي القعدة الشريفة ، في يوم الخميس
خامسه ، حضر سودون الدواداري الذي كان
نائب طرابلس ، وقد حصل بينه وبين أهل طرابلس
تشاجر ، فأرسل السلطان خلفه بأن يقيم بمصر .
وفيه نزل السلطان وسير نحو المجرة ، ولما عاد
الى القلعة طلع من الصليية في موكب حافل .

ثم في يوم الأحد ، ثامنه ، نزل وسير نحو بركة

الدريس وأتى الى تربة الأشرف جان بلاط التي
بباب النصر فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له
الفتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من
هناك وعاد من الصحراء وطلع الى القلعة وكان في
نفر قليل من العسكر .

وفيه توفي جانم كاشف الوجه القبلى ، وكان
من الأمراء العشراوات .

وفيه توفي القضاى صالح بن طه أحد نواب
الشافعية ، وكان من قضاة الجاه .

وفيه توفي الخواجا عطية ، وكان في سعة من
المال ، وكان أغلس خلق الله على الإطلاق ، وهو
من البخل على جانب عظيم ، كما قيل :

لبست ثياب لئوم عنك شقت

ومن يكسى ثياب العار عارى

قلو لبس الحمار ثياب خز

لقال الناس : يالك من حمار !

وفيه توفي الشيخ عبد القادر الدماصى ، وكان
فاضلا ناظما ناثرا فكه المحاضرة ، بقية السلف ،
عشير الناس . وكان له شعر جيد . ومن نظم ما
ألغزه في غزال وبعث به الى الشهاب المنصورى :

مولاي ما اسم لوحش ناقر أنس

في مأربى منه أشياء جمعت فيه

حروفه أربع لكنها عجب

ان زال أول حرف زال باقيه

فأجابه الشهاب المنصورى عن ذلك :

مولاي ألغزت فيما ناب عن قمرى

جيذا وحاكى سوادا فى أماقيه

فالبعض لام حكت لامات سالفه

وبعضه قد غزا فى الله باقيه

وفى ذى الحجة قبض السلطان على المعلم على
الصغير أحد معاملى اللحم ، فلما قبض عليه قرر

عليه ستين ألف دينار وأستمر فى التوكيل به ، وكان
المعلم على هذا من خيار الناس ، ناتجا بالسداد ،
وله شهرة طائلة وبر ومعروف . وكان كثير الحشمة
فى حق الناس .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ،
وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء
كانت على الذخيرة ، حتى قطع السكاكين التى
كانت تفرق على الناس فى عيد النحر من الزردخاناه
وكانت من العادات القديمة ، فأبطلها فى هذه السنة
بواسطة شخص من الزردكاشية يقال له أحمد بن
قراكر .

وفيه كان الأتابكى قرقماس مسافرا فى بعض
جهاته ، وقد فر لأجل تفرقة الأضحية .

وفيه توفي الأمير قانصوه جوشن أحد الأمراء
الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفيه كان موكب العيد حافلا وأوكب السلطان
على العادة ، فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان
فى اليوم الثانى من العيد وتوجه الى قبة الأمير
يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام هناك الى بعد
العصر . ووافق ذلك اليوم عيد النصرى وأول
الخماسين فأنشراح هناك ومد أسمطة حافلة . وحضر
عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسم
لبعض الأمراء العشراوات بأن يرقص فقام ورقص بين
يذى السلطان فرسم له بمائة دينار . ولما صار العصر
وركب من هناك أخذ فى جييه كيسا فيه ذهب وصار
يفرق منه بطول الطريق على الفقراء ومن يقف له
من الناس ، فشرع يعطيهم من يده بغير واسطة
بحسب ما يقسم لهم ، واستمر على ذلك حتى طلع
الى القلعة وكان يوما بالسلطاني .

ولما مضى العيد وأيام التشريق عزل السلطان
قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخلع
على الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة

صلاح الدين المكنى وقرره في قضاء الشافعية بمصر
عوضا عن كمال الدين الطويل بحكم صرفه عنها ،
وقد جمع بدر الدين المكنى بين قضاء الشافعية
ومشيخة الخشائية والشريفة ، وقد سعى في ولاية
القضاء بثلاثة آلاف دينار ، وباليته ما سعى فكان
سعيه غير مشكور ، فكان كما يقال في المعنى :

الحمد لله كم أسعى بعزى في
نيل القضا وقضاء الله ينكسه

وكان غالب الأمراء والعسكر مائلا الى قاضى
القضاة كمال الدين وسيعود الى القضاء عن قريب .
وفيه توفيت الست آمنة والدة أمير المؤمنين
المستمسك بالله يعقوب ، وهى ابنة أمير المؤمنين
أبى الربيع المستكفى بالله سليمان ، وكانت دينة
خيرة سالحة ، وقد كف بصرها في أواخر عمرها .
وكانت لا بأس بها .

وفيه وصل مبشر الحاج في ثلاثة عشر يوما ،
وأخبر بالأمن والسلامة لجميع الحاجاج .

وفيه توفى الرئيس بركات السكندري رئيس
الطب ، وكان عارفا بأمر الطب لطيف الذات عثير
الناس ، وكان لا بأس به .

وتوفى القاضى شمس الدين محمد بن بدر الدين
ابن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث
أحد نواب الحكم المالكي ، وكان عالما فاضلا شابا
رئيسا حشما لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة على الناس على خير ،
وكانت سنة مباركة رخية خصبة ، وكان نيلها نيلا
مباركا عاليا ، وثبت الى نصف هاتور القبطى ،
وزاد في هاتور ثمانى أصابع حتى عد ذلك من
النوادر الغريبة ، ولكن حصل منه للناس بعض
ضرر وغرق البذار الذى كانوا بذروه في أراضى
الجيزة عند هبوط النيل ، ثم زاد بعد ذلك هذه

الثمانى أصابع ، فرسم السلطان للقضاة الأربعة بأن
يتوجهوا الى المقياس ويسعوا الى الله تعالى في
هبوطه ، فتوجهوا الى هناك وباتوا بالمقياس ، وقرأ
السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة
حافلة ، فانهبط في تلك الليلة نحو من نصف ذراع .
فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

وفي هذه السنة آينعت الأشجار التى غرسها
السلطان بالميدان ، وأخرجت ماشتله به من الأزهار
ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان ، وغير
ذلك من الأزهار العريبة . ولقد عاينت به وردا
أبيض ذكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى
بمصر وقد نقل من الشام ، وكان يطرح في أوان
الصيف والنيل في قوة الزيادة ، وهو نوع غريب
لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة
مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعدا
مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين
وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات
ينشون عليه ، ويعلق في الأشجار أقفاص فيها طيور
مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير
وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع .
ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى
وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة
يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا
وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقي تقالة من
المجراة تجرى ليلا ونهارا ، فيجلس على سرير
هناك في غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه من
الأمراء أحد الا من يختاره . وقد وقع له من
المحاسن أشياء غريبة لم تقع لغیره من السلاطين ،
وقد صار هذا الميدان جنة على وجه الأرض ، كما
يقال في المعنى :

وشدت على العيدان ورق أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب

قالورق تشدو والنسيم مشبب
والماء يسقى والجداول تشرب
واذا تكسر ماؤه أبصرته

في الحال بين رياضه يتشعب
ومما وقع لي أن السلطان كان قد أخرج اقطاعي
في حركة الممالك لما أخرج اليهم أقاطيع أولاد
الناس كما تقدم ذكر ذلك ، فوقفت اليه بقصة في
الميدان ، فرد الى اقطاعي وحصل لي منه غاية
الجبر ونصرني على الممالك الدين كانوا أخذوا
اقطاعي ، فعند ذلك امتدحته بهذه القصيدة ،
وذكرت فيها أشياء كثيرة مما وقع له من المحاسن ،
وقدمتها اليه على يد شخص من خواصه . وهي
هذه القصيدة :

بالأشرف الغوري المفدا
أصبح ثغر الزمان باسم
يا قانصوه العلي قدرا
فقت على من مضى وقادم
فكل يوم تراه عيدا
به فأوقاتنا مواسم
تشرف الغور باسمه مذ
رفرف طير السرور حائم
اختاره الله من امام
لقمع أهل الفساد صارم
قالشكر الله مذ تولى
على جميع الأنام لازم
هذا الذي عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة في حماه
تمشى مع الذئب والضراغم
قد جاءه السعد عبد رق
والنصر أضحى لديه خادم

له بقلب الملوك رعب
أغنى عن السمر والصوارم
وسيفه في الوغى طويل
له نفوس المدى غنائم
جيوشه كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالهزائم
تاريخه في الملوك أضحى
يحير العرب والأعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر
واصغ لأخباره العظام
ليس له في الملوك ند
في البأس والجلود والمكارم
مظفر ظاهر عزيز
مؤيد عادل الأقاليم
بتى بمصر لله يتنا
رخامه قائم ونائم
فجاء في حسنه فريدا
من كل عيب يقال سالم
فليس يبنى له نظير
في سائر المدن والأقاليم
وقلعة السعد مذ حواها
جدد بها سائر المعالم
بعزمه الماء جاء يجري
بمجرة تحتها دعائم
دارت دواليبها فهامت
لحسن أصواتها البهائم
فاقت بناء الملوك طرا
فالمدح في وصفها يلائم
تسقى بسيدانه رياض
ناحت بأغصانه الحمام

أشجاره بالنسيم مالت
وزهرها فاح في الكمائهم

وأنشأ به بحرة تحاكي
كالنبيل أمواجها ملاطم

وغردت حولها القمارى
سماعها هيج العزائم

فعش هنيئاً بملك مصر
في نصره دائم الدوائهم

ما رقص الريح غصن روض
ونقطت لؤلؤ الغمامهم

ابن اياس محمد قد
أتى بدر المديح ناظم

عرائسا بالعقود تجلى
تأليفها حير النواظم

ختمتها بالصلاة منى
على نبي للرسل خاتم

محمد أشرف البرايا
في الخلق والخلق والعزائم

صلى وسلم عليه ربى
ما دام هذا الوجود قائم

والآل والصحب ما تغنى
حام بواد العقيق هائم

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس عشرة
وتسعمائة ، وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتونى
في معنى ما قلته هذه الأبيات ، وهو قوله من
قصيدة مطولة :

يا حبذا الميبدان من جنة
مساكن الولدان والحدود

أغصانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصود

أطيّاره في دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور

وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزرور

وبلبل هيج بلبالنا
ومن هزار حول شحور

وبحرة مذهب فيها الهوى
جعلها تنقيش تصوير

في جمع تصحيح ترى ماءها
وبالهوى في جمع تكسير

ومجرة الميبدان انشاء
عقودها دور على دور

وعمر الروضة صارت به
أماكننا عامرة الدور

وجدد المقياس حتى غدت
تزهر بمنظوم ومنتور

وفي طريق الحج كم منهل
عمره في غاية الحير

وعين بازان جرى مأوها
تجديدها آمنا من الغور

وأنشأ بمصر جامعا لم يزل
يتنا بذكر الله معصور

والقبة الزرقاء وصهريجها
والمساء والكيزان والزيار

كأن برد الشلج في مائه
لكل عطشان ومحور

وكم له قنطرة جددت
بأمره من غير مأمور

على الخليج الحاكم وضعها
قد شاع في طول وتقدير

كم ناصب أعرب في رفعها
لمركب في الكسر مجرور
أكرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعز منصبور
ينصره الله ويجعل لنا
أيامه أماناً بلا جور
ما أقبل الصبح بأنواره
وأدبر الليل بديجور
انتهى ذلك ، ثم قال في استشهادها منها :
وصل يا رب على المصطفى
منقذنا من كل محذور
صلاة عوفي برى نشرها
أطيب من مسك وكافور
والآل والأنصار مع صحبه
أهل الشنا والفضل والخير
ما ماس من غصن بروض زها
وغردت في دوحه الظير

سنة ست عشرة وتسعمائة (١٥١٠ - ١٥١١ م) :
فيها ، في المحرم ، نزل السلطان الى الميدان ،
وطلع اليه القضاة الأربعة يهتئونه بالعام الجديد ،
وحضر قاضي القضاة الشافعي بدر الدين المكيئي
وهذا أول تهنئته بالشهر ، فلما انقض المجلس قام
السلطان ودخل الى البحرة التي أنشأها بالميدان
وعزم على الأمراء وحضر الأتابكي قرقماس والأمراء
المقدمون ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان فوطه
فيها ورد من بستان الميدان ، فأخذ من ذلك الورد
وردة وشمها ثم دفعها الى الأتابكي قرقماس فأخذها
وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم
دفعها الى دولات باي أمير سلاح فأخذها وقام وقبل
الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى

سودون العجمي أمير مجلس ، فأخذها وقام وقبل
الأرض . ثم فرق على جميع الأمراء المقدمين لكل
واحد وردة فيأخذها ويقوم ويقبل الأرض ، فقبل
له الأرض الأمراء المقدمون جميعهم في ذلك اليوم
لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر ، ثم مد لهم
في ذلك اليوم أسبطة حافلة وأقاموا عنده الى بعد
الظهر ، وأبطل المحاكمات في ذلك اليوم .

وفيه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وعاد
الى القلعة ، ثم نزل بعد ذلك وسير الى نحو طرا
وعاد الى القلعة ، وفي مدة سلطنته لم يشق من
القاهرة قط .

وفي يوم السبت ، حادى عشره ، ثار جماعة من
المماليك الجلبان ورجموا الناس من الطباقي ،
فأسفرت هذه الواقعة على أن المماليك يرومون من
السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار . وكان في تلك
الأيام اللحم معطل بسبب المعلم على الصغير فانه
كان في الترسيم ... فلما جرت هذه الحركة أراد
السلطان أن يوسط المعلم على الصغير فشنع فيه
بعض الأمراء . ثم ان المماليك نزلوا من الطباقي وهم
مشاة وتوجهوا الى بيت الأتابكي قرقماس فأركبوه
غصبا وقالوا له : « اطلع الى السلطان وقل له ينفق
علينا » ، ثم توجهوا الى سودون العجمي أمير
مجلس وأركبوه غصبا ، ثم توجهوا الى الأمير
طراباي رأس نوبة النوب وأركبوه غصبا ، ثم توجهوا
الى الأمير طومان باي الدوادار وأركبوه غصبا ،
فلما طلوعوا بهم الى القلعة تكلموا مع السلطان في
أمر النفقة فامتنع من ذلك غاية الامتناع وكاد أن
يخلع نفسه من السلطنة ، فلما ردوا الجواب على
المماليك بأن السلطان امتنع من اعطاء النفقة فاستعت
الفتنة ونزل المماليك من الطباقي أفواجا أفواجا
وهم بزموط وكباشيات ومطارق في أيديهم ،
فتوجهوا الى سوق جامع أحمد بن طولون فنهبوا

منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبية ، ثم توجهوا الى سوق تحت الربيع فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين البسطيين وغير ذلك من الأسواق حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها في ذلك اليوم . وأغلقت الأمراء أبوابها خوفا من المماليك ، فاستمروا ذلك اليوم على هذا الحال والأمر مضطرب ، وقد نهب للناس أشياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار . والتف على المماليك الجهم الغفير من الغلمان والعبيد ... وبات الناس تلك الليلة على وجل ولم يجدوا من يرد المماليك عن ذلك ، وكانت ليلة مهولة وكل مفعول فيها جائز ، وقد قلت في ذلك :

يارب ان المماليك جاروا علينا بعسف واستفتحوا العام فينا بوقع نهب وخطف ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف ، وتزايد الأمر جدا ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور في الطرقات ، وغلقت الأسواق ، ثم ان السلطان نادى للمماليك بالعرض في الحوش ، فلم يطلع منهم أحد ، واستمروا على ذلك الى يوم الاثنين فلبسوا آلة السلاح وتوجهوا الى الأزبكية وهجموا على الأمير دولاب باي أمير سلاح وأرادوا أن يسلطنوه ، ففر منهم وطلع الى عند السلطان . ثم ان المماليك بلغهم أن الأمراء يقصدون الوثوب عليهم ويقبضون منهم على جماعة فعند ذلك قلعوا آلة السلاح وطلعوا الى الطباق ، ثم ان الوالي نادى في القاهرة بأن لا مملوك ولا عبد ولا غلام يمشى في الأسواق من بعد المغرب ، وصار كل من رآه يمشى من بعد المغرب يوسطه . فوسط في ذلك اليوم من العبيد والغلمان جماعة كثيرة ، فسكن الحال قليلا . ثم ان الأمير طومان باي الدوادار صار يركب في عدة مماليك ويطوف الأسواق والحارات ويكبس على المماليك في اسطبلاتهم فمن

وجد عنده شيئا من النهب أخذه ورده الى أصحابه . وصار الناس يغمزون على كل من كان عنده نهب فيكبسون عليه ويأخذون ما عنده من النهب ، فردوا منه لأصحابه بعض شيء . ثم ان تجار جامع ابن طولون وتجار تحت الربيع وقفوا الى السلطان بقصة وشكوا له ما أصابهم من المماليك ، فرسم السلطان الى بركات بن موسى بأن ينزل ويحرر عن أمر النهب ، فوجد ما نهب للناس خمسمائة وسبعون دكانا ، وراحت على الناس أموالها . وقد قدروا ما نهب للناس في هذه الحركة أشياء بنحو من عشرين ألف دينار . فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !

وفيه غيب شرف الدين الصغير ناظر الدولة بسبب تعطل اللحم في تلك الأيام ، وهذا كان سببا لاقامة الفتنة المقدم ذكرها .

وفي يوم الأربعاء ، خامس عشره ، توفي القاضي صلاح الدين بن الجيعان وهو محمد بن يحيى بن شاعر ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم واجتمعت فيه الرياسة دون بنى الجيعان ، وولى من الوظائف استيفاء الجيش والتكلم على الخزائن الشريفة ونيابة كتابة السر ، ثم ولي كتابة السر في دولة الأشرف جان بلاط ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وصودر في دولة الغوري غير ما مرة ، ومات وهو في عشر السبعين .

وفي يوم الجمعة ، سابع عشره ، توفي الأمير جان بردى أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به . وتوفي أسنباي أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشرينه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

وفيه ظهر شرف الدين الصغير ، وكان مختفيا
من حين ركب المماليك بسبب تعطل اللحم ، فلما
قابل السلطان خلع عليه وأقره في نظر الدولة
كما كان .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشره أيضا ، توفي
الشيخ أبو السعود بن الشيخ الصالح المسلك
سيدى مدين رحمة الله عليه ، وكان ديناً خيراً رئيساً
حشماً ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع أن طومان باى قرا الحاجب الثانى
قد قتل دوا داره وخنقه بوتر ودفنه فى الاسطبل ،
وقد فعل ذلك وهو سكران ، فلما بلغ السلطان
ذلك تغافل عن هذه الواقعة .

وفيه رسم السلطان بتسليم يوسف بن أبى
أصبح الى الوالى يعاقبه ، وكان له مدة طويلة وهو
فى السجن بالعرقانة ، وقرر عليه نحواً من أربعين
ألف دينار فتراقد عن وزن المال فسلمه الى الوالى ،
وكان يوسف بن أبى أصبح من خواص السلطان .
وفى يوم الأحد سادس عشره أخرج السلطان
خرجا من المماليك نحواً من خمسمائة مملوك وفرق
عليهم زرديات وسيوف وتراكيش .

وفى يوم الاثنين سابع عشره خرج الأمير
طومان باى الدوا دار وسافر الى جهة الصعيد ، وقد
بلغه أن قد وقعت هناك فتنة مهولة بين قبيلة
بنى عدى وبين بنى كلب ، وكادت جهات الصعيد
أن تخرب عن آخرها . فتوجه بسبب ذلك وكان
أوان ضم المغل .

وفيه جلس السلطان على الدكة وأحضر المصحف
العثمانى وحلف عليه المماليك الجلبان كل طبقة على
انفرادها ، وحلف أغواتهم أيضا ، فحلفوا على
العثمانى أنهم لا يشيرون فتنة ولا يركبون ولا يرمون
فتنة فى بعضهم ، ثم فرق عليهم الرماح ورسم بأن

يلعبوا الرمح فى الميدان ، ورسم لكل مملوك بثلاثة
أشرفية ثمن البعلبكي ، وانفض المجلس على ذلك
وخمدت تلك الفتنة .

وفى يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس
البياض ، ووافق ذلك سابع عشر بشنس ، وكان
الوقت فى تلك الأيام رطباً والبرد موجوداً .

ومن الوقائع أن الأمير قرقماس المقرى كان قد
سرق له من داره عملة بنحو ألف دينار فاتهم بها
الجيران أضعاف ما سرق له ، وقد تقدم القول على
ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك أن الذى سرق العملة
مملوكه وهرب وسافر الى الحجاز من البحر المالح ،
فلما توجه الحجاج الى مكة قبض أمير الحاج على
مملوك قرقماس المقرى ووضعه فى الحديد وأحضره
صحبه الى القاهرة ، فسلمه الى أستاذة فضربه
وقرره ، فاعترف أنه هو الذى سرق الذهب ، وقد
تصرف فى غالبه وهو بمكة وقتك هناك وقد بقى
معه البعض من المال . فلما بلغ الجيران ذلك طلّعوا
الى السلطان وشكوه بقصة فيما فعل بهم ، فطلبه ،
فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام وسبه وألزمه بأن
يرضى الجيران فيما تكلفوه من الغرامة بسبب ذلك ،
فلما نزل أرضاهم فى جميع ما تكلفوا من الغرامة
فعد ذلك من النوادر ، واستمر قرقماس المقرى
مفقوتاً عند السلطان ، وكان غير محمود السيرة .

ومن الحوادث أن شخصا يقال له تقى الدين بن
الرومى أحد نواب الحنفية ، قيل عنه انه وقع فى
حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات غير
مشكورة ، فضبط عليه ذلك جماعة كثيرة ممن
كان حاضراً فبلغ السلطان ذلك .

وفى صفر طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فلما اجتمعوا بين يدى السلطان قال لهم :
احصوا عن أمر ابن الرومى فيما قيل عنه

ثم راجعوني فيما يثبت عليه ، وكان ابن الرومي قد اختفى بسبب ذلك ، فانفض المجلس من قدام السلطان على احضار ابن الرومي ، واستمر في طلب من السلطان حثيث وأمره في ذلك الى الله .

وفيه خلع السلطان على الشهابي أحمد بن الجيعان وقرره في استيفاء الجيش والتكلم في الخزانة الشريفة عوضا عن عمه صلاح الدين بحكم وفاته ، وأشركوا معه أولاد عمه صلاح الدين في الوظيفة ، فتضاعفت عظمة الشهابي أحمد وصار بيده هذه الوظائف مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر ، وكان كاتب السر البدرى محمود بن أجا حصل له عارض في جسده وانقطع في داره عن الركوب نحو من عشرة أشهر ، وصار التكلم في هذه المدة للشهابي أحمد وصار هو كاتب السر لا محالة واجتمعت فيه الكلمة وكان أهلا لذلك .

وفي يوم الاثنين خامسه خلع السلطان على الجمالي يوسف البدرى وقرره في الوزارة عوضا عن تغرى برمش بحكم انفصاله عنها ، واستمر شرف الدين الصغير على حاله في نظر الدولة .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه كرتباي الذي كان كاشف الشرقية وقرره في ولاية القاهرة عوضا عن قانصوه أبى سنة بحكم انفصاله عنها ، وصار قانصوه أبو سنة من جملة الأمراء المقدمين وجلس معهم وبقي مقدم ألف ، ورتب له في نظر الاقطاع شيئا من الذخيرة .

وفي ذلك اليوم قبض على شخص من غلمان الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مطلوبا بما يقال عنه انه عنده سروج مغرق وكنابيش للأمير أقبردى ، فقبضوا عليه من المحلة وأحضروه في الحديد ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشيء فرسم بتوسطه فوسطوه .

وفي يوم السبت تاسعه ابتداء السلطان بضرب

الكرة في الميدان ، قفى ذلك اليوم تقنطر من على الفراس الأمير نوروز أخو شبك الدوادار أحد المقدمين ، فأغمر عليه وتشوش لذلك ونزل الى داره وهو محمول .

وفي حادى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبأى وكانت ليلة حافلة ، ونصب في الجزيرة التى تجاء بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرجت الناس في القصف والفرجة عن الحد .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره أنفق السلطان على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ، ممن كان يرمى بالنشاب على الخيل في الميدان ويلعب الرمح ، لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، وأعطى لجماعة منهم ستة آلاف درهم ، ولم ينفق لبقية الممالك شيئا ، فبلغت هذه النفقة السيرة نحو من أربعين ألف دينار ، وقد تأثرت بقية الممالك لذلك ولكن لم يلتفت السلطان اليهم .

وفيه تغير خاطر السلطان على مهتار الطشتخاناه محمد ومنعه من الطلوع الى القلعة وأقام بداره أياما وهو مختف ، فتكلم له مع السلطان الأمير طومان باى وبأس رجله بسبب ذلك حتى رضى عليه ، ولكن قيل انه أورد للخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار حتى رضى عليه وأعاده كما كان وخلع عليه ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على المهتار محمد أن شخصا شابا يقال له محمد بن سعيدة كان قد تحشر في السلطان وصار يتقرب اليه بمرافعة الناس ، فرافع في محمد المهتار وجماعة آخرين من خواص السلطان فوزع عليهم مالا له صورة بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان معين الدين ابن شمس نائب كاتب السر بأن يتوجه قاصدا الى ملك الهند ، ثم يطل سفره الى بلاد الهند ، وكان غير مقبول الشكل يشبه وجه المصاصة العتيقة ، وقبض عليه السلطان

عقيب ذلك وسجنه بالعرقانة وقد وشى به عند السلطان بأنه يدعو عليه ويقصد زواله .

وفيه حضر قاصد الملك محمود شاه صاحب كنباية ، وآخرين من ملوك الهند ، وعلى أيديهم مثالات للسلطان تتضمن سرعة تجهيز تجريدة الى جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك ، وقد تزايد أمرهم وطعموا في أخذ البلاد ، من حين كسروا حسين الذي أرسله السلطان باش التجريدة التي أرسلها الى هناك .

وفيه في سلخه خلع السلطان على الشيخ حسام الدين محمود بن قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وقرره في نظر البيمارستان المنصورى عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، وقد تقدم للبدرى محمود هذا أنه ولى قضاء الحنفية بحلب فيما بعد وأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

وفي ربيع الأول — في يوم مستهله — خلع السلطان على قاضى القضاة محبى الدين عبد القادر ابن النقيب ، وقرره في قضاء الشافعية عوضا عن بدر الدين المكينى بحكم صرفه عنها فكانت مدة ولاية بدر الدين المكينى في وظيفة قضاء الشافعية شهرين وأربعة عشر يوما ، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار وأقام فيها هذه المدة اليسيرة وعزل عنها والناس غير راضية عنه ، كما يقال :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق وكان في هذه الولاية في غاية العكس ومنعه السلطان ألا يخطب به في مدة ولايته ، وقد سعى عليه ابن النقيب بمال حتى عزله وتولى ، وهذه رابع ولاية وقعت لابن النقيب في قضاء الشافعية بمصر ، وقد نقد منه في هذه الأربع ولايات نحو

من سبعة وعشرين ألف دينار وهو غير مشكور ، وكان عزله عن قريب في هذه الولاية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان وأعاده الى نيابة كتابة السر عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، ومما قلته فيه من المديح :

وكم حاز الأكابر من ثناء
به حمدوا ولكن أنت أحمد
ففتت على بنى الجيعان قدرا
وسعدك في الورى قد صار أسعد

وتعينت وكالة بيت المال الى شمس الدين بن عوض .

وفيه عين السلطان تجريدة الى الجون وكتب بها نحو من مائتى مملوك وأنفق عليهم ، وعين الأمير محمد بيك قرييه باشا على ذلك العسكر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن جماعة من عسكر الصوفى طرّقوا أطراف ضياع البيرة ونهبوا أغنام جماعة من الأكراد ، فلما بلغ نائب البيرة ذلك ركب واتق معهم ثم خمدت هذه الاشاعة .

وفي يوم الاثنين عاشره وصل الأمير علان الدوادار الثانى الذى كان السلطان أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنّية ونزل في موكب جافل ، وقيل ان ابن عثمان بالغ في اكرامه وأحسن اليه ، ثم ان السلطان في عقيب ذلك أنعم على الأمير علان بن قراجا بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الدوادارية الثانية .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى وسجنه بالعرقانة ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفي حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان مولدا جافلا ، وحضر ذلك قرقد

بيك بن عثمان وأجلسه السلطان معه على المرتبة وبالغ في اكرامه ، وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشره ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع زيادة عن العام الماضي بعشر أصابع ، وكانت الزيادة في أول يوم من المناداة خمس أصابع .

وفي هذا الشهر ارتفع سعر البصل حتى بلغ سعر كل قنطار اثنين وعشرين نصفا ولا يوجد ، حتى عد ذلك من النواذر .

وفي يوم الاثنين ، سابع عشره ، خرج الأمير تمرباي الهندي أحد الأمراء العشراوات ، وقد عينه السلطان قاصدا الى اسماعيل شاه الصوفي متملك العراق ، فخرج مسافرا في ذلك اليوم وكان له موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وعينه أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير نوروز تاجر الممالك وعينه أمير حاج بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان معين الدين بن شمس الذي تغير خاطره عليه كما تقدم ، فضربه بالمقارع بين يديه نحووا من مائة شبيب حتى أشرف على الموت ، وقد أخذ بخطيئة كاتب السر بدر الدين بن مزهر فانه كان متوليا عقابه فعذبه بأنواع العذاب ولم يرث له فيما جرى عليه ، فما عن قريب حتى أذاقه الله تعالى طعم العذاب ، فكان كما يقال :

جرع كأسا كان يسقى بها

والمرء مجزى بأعماله

ظن بأن الدهر يصفى له

فخيبت من ذاك آماله

وفي رابع عشره خرج الأمير محمد بيك الذي تعين الى نحو الجون بسبب قطع الأخشاب لأجل

عمارة المراكب المعينة الى تجريدة الهند ، فخرج في موكب حافل ، وكان ذلك آخر سعده .

وفيه خرج الطواشي بشير رأس نوبة السقا وقد عينه السلطان بأن يتوجه الى بلاد الهند ، وقد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكونوا مع السلطان عوناً على قتال الفرنج الذين صاروا يتعشون بسواحل بلاد الهند وقد كثر منهم الفساد هناك ، وبلغت عدة المراكب التي يعشون بها في السواحل نحووا من خمسين مركبا ، والأمر الى الله في ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين النابلسي الأستاذار بسبب انشحات الجامكية ، فبطحه بين يديه وضربه نحووا من مائة عصا .

وفيه تغير خاطر السلطان على محمد بن سعيدة المقدم ذكره الذي كان عوانيا عند السلطان وينقل له أخبار الناس ، وكان حظى عنده بحيث أنه كان يجلس معه على المرتبة ويلعب معه الشطرنج ، واشتهر بين الناس بالمرافعة ، وهو الذي سعى لقاضي القضاة محيي الدين ابن النقيب في عوده الى القضاء ، ثم وقع بينه وبين محمد بن سعيدة فطلع ابن النقيب وشكاه الى السلطان بأنه سبه وشتمه ، فحنق السلطان من محمد بن سعيدة وكان قد طاش في تلك الأيام الى الغاية ، وعادى الناس بسبب مرافعته لهم ، وكثر الكلام في حق السلطان بسبه — فانه كان جميل الصورة — فلما تغير خاطر السلطان عليه طلبه وبطحه بين يديه وضربه ضربا مبرحا ورسم بنفيه الى الواح فنفي ، فكان كما يقال في المعنى :

اياك أن تفرط في حق من

يعرف بالجوود فقد يحنق

ولا تقل ذا حلمه واسع

فالماء ان أسختته يحرق

وفيه تسحب من البرج الذى بالقلعة أربعة أنفار منهم شيخ العرب ابن مهنا وآخرون من العربان ، فلما تسحبوا قبض شيخ العرب ابن بغداد على ابن مهنا الذى تسحب من البرج ، فقطع رأسه ورأس آخرين ممن تسحب معه وأرسل بهم الى السلطان .

وفى ربيع الآخر كان ختم ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وجلس فى المقعد الذى أنشأه بالميدان عن قريب .

وفى يوم الخميس رابعه طلع قرقد بيك بن عثمان الى القلعة واستأذن السلطان فى عوده الى بلاده فأذن له فى ذلك ، وخلع عليه خلعة سنينة وهى منسوجة بالذهب شغل القاعة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأتابكى قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وجماعة من الرؤوس النوب ، فاستمروا معه الى بولاق فقدموا له الحراقة التى يكسر فيها السلطان السد ، وجهاز معه عدة مراكب فيها زوادة برسم الاقامات ، وأرسل معه السلطان أزدمر المهندار وناق الخازن وغير ذلك من غلمان السلطان يستمرون فى خدمته حتى يصل الى رشيد . وقد بالغ السلطان فى اكرام قرقد بن عثمان هذا ووقع له معه أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك السالفة فيما تقدم ، ولا وقع قبل ذلك للقان أحمد ابن أويس صاحب بغداد لما حضر الى مصر فى دولة الظاهر برقوق لما حضر بسبب تمرلك فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، فما فعل الظاهر برقوق معه كما فعل الأشرف قانصوه الغورى مع قرقد بيك ابن عثمان ، ولا بالغ فى اكرامه مثله ، فانه رتب له فى كل شهر ألفى دينار بسبب نفقته ، وكان كلما طلع اليه يلبسه سلارى بسمور من ملابسه قيمته مائتا دينار ، ويركبه فرسا يسرج ذهب وكنبوش ،

وذلك غير ما يرسل اليه من الانعامات وغير ذلك ، وكان يقوم له كلما طلع اليه ويجلسه فوق أمير كبير معه على المرتبة ، وقد بالغ فى اكرامه جدا ، وكذلك الأمراء المقدمون أرسلوا اليه تقادم حافلة له ولجماعته ، فما خرج من مصر الا شاكرا ناشرا ، كما يقال فى المعنى :

طوقتني نعماتها أنا ساجع

شكرا ولا عجب لسجع مطوق
وفيه خرج الأتابكى قرقماس الى السرحة نحو الشرقية والغربية .

وفيه حضر أمير عربان الوجه القبلى عمر من أولاد ابن عمر أمير هواره ، فأقام فى الترسيم بيت الأمير الدوادر الكبير ، وقد قرر عليه السلطان مالا له صورة .

وفيه غيب المعلم خضر أحد معاملى اللحم ، وقد قرر عليه السلطان مالا فما أقام به وفر خوفا من السلطان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة جان بردى الغزالى نائب صنف ، وقد حضر بطلب من السلطان ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وأقام بمصر أياما .

وفيه توفى الشرفى يحيى الرشيدى خطيب جامع الأزبكية ، وكان من أهل الفضل ماهرا فى الخطب .

وفيه حضر الى السلطان فيل من بلاد الزنج ، وكان صغيرا قدر الجاموسة ، عمره نحو من سنة ، فلما طلع الى السلطان رجت له القاهرة ، وكانت الأفيال قد انقطعت من مصر نحو من أربعين سنة حتى نسي بين الناس هيئته فصاروا يعجبون منه ، ثم بعد مدة حضر فيل آخر وقد أشيع بين الناس وصوله عن قريب ، ومما وقع لابن المعتز فى تشبيه الفيل وأجاد بقوله :

كأنما الفيل الذي يبدو تعجبنا به

ليل قد افترس النهار فبان في أنيابه

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن ثلاثة من المماليك قد خطفوا نسوة من طريق المقس كانوا مع مودنات كعادة النساء فى الأعراس ، فلما قبضوا عليهن خلصت منهن واحدة وتوجهوا بالبقية الى اسطبلاتهم ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب وهجم على أولئك المماليك وقبض عليهم أجمعين ، فلما عرضوا على السلطان ضرب المماليك ضربا مبرحا حتى كادوا يهلكون ورسم بسجنهم فى المقشرة ، وكان عرضهم يوم الجامكية فرسم السلطان لكاتب الممالك أن يدفع جامكية الممالك الى تلك النسوة فى نظير ما شوش عليهن الممالك ، فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم ، فعد ذلك من النوادر الغريبة . وفى يوم الثلاثاء سلخه وقعت طبقة الحوش ، فقتل تحت الردم خمسة من الممالك وتعطب آخرون منهم ، وكانت حادثة مهولة .

وفى جمادى الأولى فى ثانيه قرأ السلطان ختمة فى المقياس ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وحضر القضاة وأعيان الناس ، وسبب ذلك أن البحر سلسل فى الزيادة وقد مضى من مسرى ستة عشر يوما ولم يف ، فلما توجه القضاة الى هناك زاد النيل تلك الليلة ثمانى أصابع ، ثم فى الليلة الثانية زاد خمس عشرة أصبعا ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أوفى فى العشرين من مسرى ، وفتح السد فى الحادى والعشرين من مسرى الموافق لثامن جمادى الأولى ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى سبعة أيام ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وكان هذا آخر فتح الأتابكى قرقماس للسد ، وقد مات فى أواخر هذه السنة كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأحد ثانى عشره توفى قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما تولى مشيخة الخشائية والشريفية ، ثم سعى فى قضاية القضاة بثلاثة آلاف دينار فأقام بها شهرين وأربعة عشر يوما وسعى عليه محبى الدين بن النقيب فعزل ، فلما عزل حصل له غاية القهر فاعتل ومات ، فكان بين عزله وموته شهران واثنى عشر يوما فمات قهرا لا محالة ، وكان له من العمر نحو من ستين سنة ، فجاءه القضاء الأكبر وفاته القضاء الأصغر ، كما قيل :

حضيت عزمى شوقا اليكم

فلم أطلق مكثة بأرض

وجئت لم أحظ بالتلاقى

فغاييتى أن ألوم حضى

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين الطويل وخلع عليه وأعادته الى قضاء الشافعية كما كان ، وعزل عنها محبى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية شهرين وستة عشر يوما ، ونفذ منه مال له صورة على هذه المدة اليسيرة ، فكان كما يقال :

لم أستتم عناقه لقدمه

حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ثم وكل به السلطان وبعثه الى بيت ناظر الخاص وقد بقى عليه ألف دينار من بقية ما سعى به فلم يتركها له السلطان ، فلم يرث له أحد من الناس فيما جرى عليه ، ولم ينطل على أحد منهم ، وقد تعصبت الأمراء قاطبة لقاضى القضاة كمال الدين حتى أن بعض الأمراء لم يصل بالقلعة فى مدة ولاية ابن النقيب ولم ينطل على أحد منهم . فلما كان يوم الجمعة المذكور طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين وهو بالميدان فخلع عليه هناك ،

وشق من القاهرة في موكب حافل ، وزينت له الدكاكين بالشموع والأمتعة الفاخرة ولاقتهم المغاني والطبل والزمر وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، واستمر في هذا الموكب الحافل حتى وصل الى الخانقاه البيبرسية . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم طلع وخطب بالسلطان خطبة بليغة في معنى عوده الى القضاء ، وقرأ في المحراب « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه ثانياً وأشيع أنه قرر في مشيخة الخشائية والشريفية عوضاً عن بدر الدين المكينى ، وقد صار يده مشيخة الخانقاه البيبرسية ومشيخة الخشائية والشريفية مع قضاية القضاة وهذا لم يتفق لغيره من القضاة ، بل وقع لابن حجر والقياتي أنهما جمعا بين قضاية القضاة وبين مشيخة الخانقاه البيبرسية وهذا عزيز الوقوع جداً ، وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين سعى في قضاية القضاة ومشيخة الخشائية والشريفية بخمسة آلاف دينار ، وكانت مشيخة الخانقاه البيبرسية يده من قبل ذلك .

وفي يوم السبت ثامن عشره رسم السلطان للزنى بركات بن موسى بأن يتسلم جماعة كانوا في الترسيم بسبب ما قرر عليهم من المال فتراقدوا عن ايراد ذلك ، فرسم لابن موسى بأن يتسلمهم ويعاقبهم على استخراج الأموال ، فتسلم بهاء الدين مباشر قانصوه خسمائة وكان له نحو من ست سنين وهو في الترسيم ، وتسلم معين الدين ابن شمس الذى كان وكيل السلطان ، وتسلم علم الدين الذى كان يتحدث في الخزائن ، ومحمد ابن فخر الدين كاتب الممالك وقاضيا حنفيا من قضاة الشام ، فلما تسلمهم ابن موسى أقاموا عنده أياماً ولم يردوا شيئاً من المال فشاور عليهم السلطان فرسم للوالى بأن يتسلم بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين وقاضى الشام وشفع في

محمد بن فخر الدين كاتب الممالك ، فلما تسلمهم الوالى عاقب بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين أشد العقوبة وبعث بهم الى المقشرة ، وكان من أمرهم ما سذكروه في موضعه

وفي هذا الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين ، حتى انه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة وقرر عليهم مالا له صورة ، وقال لهم : « اتتو عملتو كيمان تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتال ولا بعشرة آلاف دينار » ، وجعل ذلك حجة عليهم .

وفيه توفي تغرى بردى السيفى يونس الدوادار ، وكان أمير آخور ثالث وأحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب ، وهذه المدينة من أجل مداين الغرب وهى مدينة عاصية ولولا أن الفرنج تحايّلوا على أخذها لما قدروا على ذلك ، وقد أحاطوا بها برا وبحرا فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة وقتل من المسلمين نحو من أربعين ألف انسان ، وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة ، وقد جاءها الفرنج من البحر فى مائة مركب ، ومن المراكب طلّعوا الى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكّد الى الغابة وكذلك الناس قاطبة

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة قبض على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا الى مكة وهم فى زى الأروام ، فلما قبض عليهم وجدّهم بغير ختان فتحقق أنهم فرنج وأنهم دواسيس من عند بعض ملوك الفرنج ، فقبض عليهم ووضعهم فى الحديد ، وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب البيرة بأنه

قبض على جماعة من عند اسمعيل الصوفي وعلى أيديهم كتب من عند الصوفي الى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عوناً على سلطان مصر ، وأنهم يجوا الى مصر من البحر ويجي هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم الى السلطان . وفيه جاءت الأخبار بأن صاحب تلمسان من بلاد الغرب قد انتصر على الفرنج الذين كانوا قد أخذوا مدينة طرابلس الغرب وطردهم عنها ، وكانت النصرة للمسلمين عليهم ، فسر السلطان والناس قاطبة لهذا الخبر .

وفي جمادى الآخرة حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان مسافراً الى جهة الصعيد وصحبه خاير بيك كاشف الوجه الغربي أحد المقدمين ، وكان طومان باي الدوادار له نحو من خمسة أشهر وهو مسافر في الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى الأمير خاير بيك ونزلا في موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بيك بن رمضان أمير التركمان ، وكان رئيساً حشماً لا بأس به . وفي يوم الأربعاء سادسه انتهى العمل من مكاحل سبكها السلطان ، فرسم بنقلها الى نحو تربة العادل التي بالريداية ، فسحبوها على العجل وكانوا نحو من خمس عشرة مكحلة فقاموا في نقلها ما لا خير فيه ، وقتل في ذلك اليوم شخص من العتالين يقال له المقدم خطاب وتعطب منهم جماعة آخرون من النجارين ، وكان يوماً مهولاً .

وفي يوم الأحد عاشره جاءت الأخبار من عند نائب طرابلس بأن الفرنج خرجوا على الأمير محمد بيك قريب السلطان الذي كان قد توجه الى الجون بسبب احضار الأخشاب ، فخرج عليه طائفة من الفرنج بالقرب من ساحل قلعة اياس ، فتحارب

معهم الأمير محمد بنفسه وقد فر عنه من كان معه من العسكر ، فقتل ، وقتل من كان معه من الجند ، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب وكانت نحو من ثمانية عشر مركباً ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج في هذه السنة وكثر تعبتهم بالناس في البحر الرومي والبحر الهندي والأمر الى الله تعالى ، وقد ارتج الأمر على السلطان في هذا الشهر من جهات عديدة واضطربت أحواله جداً ، فكان كما يقال في المعنى :

لا تجزعن فبعد العسر تيسير

وكل شيء له وقت وتدير

وللمهين في أحوالنا نظر

وفوق تديرنا الله تدير

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان الى نحو تربة العادل التي بالريداية وجربوا قدامه تلك المكاحل التي سبكها كما تقدم ، فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقوا أجمعين وبقي نحاسهم طائر مع الهوا ولم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحو من خمس عشرة مكحلة ، فتزايد نكد السلطان في ذلك اليوم الى الغاية ورجع الى القلعة سريعاً ، وكان عول على أن يمد هناك أسطة للأمراء وينشرح في ذلك اليوم فلم يتم ذلك .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على الرهبان الذين بالقيامة التي بالقدس ، وكذلك قبض على سائر الفرنج الذين بالاسكندرية ودمياط وغير ذلك من السواحل ، وهذا بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد وأخذوا مراكب السلطان .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على جان بردى الغزالي ، وأقره في نيابة صفد على عاداته وأضاف اليه نيابة الكرك أيضاً ، فخرج اليها من يومه وتوجه نحوها ، وخلع على « قانصوه روح

توت والنيل في قوة الزيادة ، حتى عند ذلك من النواذر .

وفيه قام الأتابكي قرقماس على السلطان ومنعه من السفر الى ثغر الاسكندرية وقبل له الأرض عدة مرار ، وقال له ان الطرقات وحل من ماء النيل وسلوك البر صعب في هذه الأيام ، وكان يقصد السفر من البر فبطل ذلك .

وفيه نبت النيل المبارك على احدى وعشرين أصبعا من ثمانى عشرة ذراعا وانهبط في أواخر توت ولم يثبت ، وكان نيلا شحيحا فشرق غالب البلاد ولولا لطف الله تعالى لوقع غلاء عظيم ، وكان عند جماعة الأقباط عادة أن في ليلة عيد ميكائيل صبحه نزول النقطة يزنون الطينة وعددوها على ستة عشرة قيراطا فمهما زادت عن القراريط يكون بقدرها أذرع في زيادة النيل ، فوزنوها في هذه السنة وجاءت قريب عشرين قيراطا ، فتفأل الناس بأن النيل يبلغ في هذه السنة عشرين ذراعا فلم يكن ذلك ، وهذه القاعدة قط ما أخرمت عند القبط سوى هذه السنة ، فعد ذلك من النواذر .

وكذلك البئر التي في منيل أبى شعرة بنواحي البهنسا ، قيل ان في ليلة الخامس والعشرين من بشنس يطف ماء تلك البئر في الليل ، فمهما تغطى من الدرج التي في تلك البئر يكون فألا للنيل ، فطف مأوها وغطى نحو من عشرين درجة من درج البئر ، فتفأل الناس بأن النيل يبلغ في هذه السنة نحو من عشرين ذراعا فلم يكن ذلك وأخرمت هذه القاعدة أيضا . وقيل ان امرأة صالحة رأت في المنام أن ملكين نزلا من السماء وتوجها الى البحر فرفسه أحدهما برجله فانهبط سريعا ، ثم قال أحدهما الى الآخر : « ان الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد الى عشرين ذراعا فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو في ثمانى عشرة ذراعا »

لو « أحد الأمراء المقدمين ورسم له بأن يتوجه الى قطيا ويقيم بها دائما خوفا من الفرنج أن يهجموا على من بالطينة ، وجعل « قانصوه روح لو » باشا على العسكر الذى بالقلمة التي أنشأها السلطان بالطينة ، وأنعم عليه بخراج قطيا ما دام هناك وعين معه جماعة من الماليك السلطانية .

ومن العجائب أن « قانصوه روح لو » الذى ولى نيابة قطية كان قبل ذلك نائب غزة ، فلما تسلم العادل قرره في نيابة حلب وأرسل اليها متسلمه فلم يتم له ذلك ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم آل أمره الى أن بقى نائب قطية وهذه سفلى درجة الى الغاية ، فعد ذلك من النواذر الغريبة .

وفيه خلع السلطان على عمر من أولاد ابن عمر أمير عربان هواره وأقره على عادته في امرة هواره . وخلع على شخص من أولاد ابن رمضان وأقره أميرا للتركمان عوضا عن خليل بيك المقدم ذكر وفاته ، وخلع على الشيخ أبى بكر الجيوسى وقرره في مشيخة جبل نابلس .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ليتفقد الأبراج التي هناك خوفا من طروق الافرنج لثغر الاسكندرية ، فنزل الى الميدان وعرض مماليكه وفرق عليهم عدة خيول وبغال وسلاح من سيوف وزرديات وغير ذلك ، وأخذ في أسباب عمل يرق ثقيل وأشيع سفره بين الناس حقيقا .

وفيه جاءت الأخبار بأن وقع باسطنبول زلزلة مهولة حتى رمت المآذن وخربت عدة أماكن وهلك بسببها من الناس ما لا يحصى ، وهذه كرسى مملكة ابن عثمان ، وكانت حادثة عظيمة .

وفيه ثارت رياح عاصفة وأمطرت السماء مطرا غزيرا وقام الرعد والبرق ، وكان ذلك في أواخر

قلما اتبعت من المنام انهبط النيل في تلك الليلة
دفعه واحدة .

وفيه توفي جانم الابراهيمي أحد الأمراء
الطبخانات وكان مسرفا على نفسه ، مات قتيلا .
وقد وقع من مكان عال وهو سكران فمات لوقته .
وفيه رسم السلطان بشنق شخص من العربان
المفسدين يقال له عمر بن موسى النفعى من عربان
ثعلبية ، وكان من شجعان العرب .

وفيه نزل السلطان الى عند قبة الهوى التي
تحت القلعة وجربوا قدامه مكاحل ، وأقام هناك
الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة .

وفي رجب خرج الأتابكي قرقماس وتوجه الى
بغداد الاسكندرية وصنعبته الأمير علان الدوادار
الثاني ، وكان سبب ذلك أن السلطان لما قصد أن
يسافر الى الاسكندرية ليكشف على الأبراج التي
هناك ويصلح ما فسد منها فقال له الأتابكي
قرقماس أنا أسافر وأكشف عن ذلك عوضا عن
السلطان ، فسافر بسبب ذلك .

وفيه توفي بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة ،
مات وهو بالمقشرة وقاسى شدايد ومحن ، وأقام
في الترسيم نحو من ست سنين ، وآخر الأمر
سلمه السلطان للوالى فعاقبه الى أن مات .

وفيه توفي الصارمى ابراهيم بن الأمير برد بيك
صهر الملك الأشرف اينال ، وكان لا بأس به .

وفيه طلع الى السلطان شخص من أبناء الناس
يقال له يونس بن سودون الفقيه ، وكان ساكنا
بالقرب من زقاق حلب على بركة الفيل ، فأنشأ
عنده جنية وزرع فيها شجرة جوز شامى فنتجت
وطلع فيها الجوز بعد ثلاثين سنة حتى طرحت ،
فجمع من ذلك الجوز ستين جوزة وطلع بها الى

السلطان فابتهج بها ولم يصدق بأن هذا الجوز
يطرح بمصر ، فكشف عن حقيقة ذلك حتى ظهر
له مصداق ذلك ، فأنعم على يونس المذكور بعشرة
دنانير وبالع في اكرامه .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة رهبان القيامة
التي بالقدس ، كان السلطان أرسل خلفهم بسبب
الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب
السلطان ونهبوا ما في المراكب التي جهزها السلطان
صحبته ، فلما وقفوا بين يدي السلطان وبخهم
بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان ، وقال
لهم : « كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذهم
الفرنج من المراكب والسلاح وان لم يردوا ذلك
هدمت القيامة وأشنق الرهبان » ، فتسلمهم ناظر
الخاص على ما يحرر من أمرهم ، وكانوا نحو من
عشرين راهبا . وفي عقيب ذلك قبض نائب
الاسكندرية على جماعة من تجار الفرنج الذين
كانوا بغير الاسكندرية وبعث بهم الى السلطان ،
وكانوا نحو من خمسين انسانا .

وفيه توفي القاضى تقى الدين محمد بن بدر
الدين محمد الزجاجى أحد نواب الحنفية ، وكان
فاضلا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت
الأسواق وحصل للناس وقوف حال بسبب ذلك
وتعطلت الأسباب عن البيع والشراء ، واستمرت
تمطر ثلاثة أيام متوالية حتى انخفض غالب القبور
التي بالصجرء ، وكان ذلك في أوائل هاتور .

وفيه توفيت زوجة الأتابكى قائم التاجر ،
وكانت جركسية ، وكانت في سعة من المال ،
فاختلط السلطان على موجودها قاطبة .

وفيه خلع السلطان على مهتاره محمد مهتار
الطشتخاناه وأعاده على ما كان عليه ، وكان تغير
خاطره عليه وصادره كما تقدم ذكر ذلك ، فشفع

فيه الأمير طومان باي الدوادار وبأس رجل
السلطان بسبب ذلك حتى رضى عليه .

وفيه عين السلطان الأمير أقباي الطويل أمير
آخور تاني بأن يتوجه الى القدس ويحتاط على
مال الفرنج الذي في القيامة ، فخرج وسافر من
يومه .

وفيه حضر يونس العادلي وكان السلطان أرسله
الى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشابا وحديدا
وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي
كان مع يونس العادلي وقال : « أنا أجهز من
عندي زردخاناه للسلطان » ، فحضرت فيما بعد .
وفيه خلع السلطان على أقباي كاشف الشرقية
وأعادهم الى كشف الشرقية عوضا عن كرتباي الذي
كان بها ، وخلع على يخشبای قرا أخى الوالى
وقرره فى شادية الشون عوضا عن تاني بيك الأبح
بحكم صرفه عنها ، وأشرك معه فى الشادية شخصا
من الأمراء العشراوات يقال له خشقدم .

وفيه حضر الأتابكى قرقماس والأمير علان
الدوادار الثانى وكانا قد توجهما الى ثغر
الاسكندرية ، بسبب الكشف على الأبراج التى
هناك ، فخلع عليها السلطان ونزلا من القلعة فى
موكب حافل .

وفى شعبان قلع السلطان البياض ولبس
الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .
وفى ليلة الجمعة ثانى عشره كان دخول الأمير
أنصباى حاجب الحجاب على ابنة الأشرف قانصوه
خمسمائة ، فكانت له زفة حافلة مشى فيها الأتابكى
قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وهم بالشاش
والقمماش وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من
الصلبية فى هذا الموكب الحافل حتى دخل الى قاعة
الفرح بيت يشبك الدوادار الذى بحذرة البقر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان
وتوجه الى نحو المطرية عند تربة العادل ، وكان
المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس
فى الأرض صفة مدينة ثغر الاسكندرية وعدد
أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان
بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب
ذلك حتى تأملها وتفرج عليها ثم عاد الى القلعة من
يومه .

وفى هذا الشهر كثرت الأمراض بالناس وحدث
لهم السعال وذات صدر حتى صاروا يتساقطون
على بعضهم ، ولكن كان الغالب فيه السلامة .

وفيه توفى القاضى نور الدين على الدمياطى
أحد نواب الحنفية ، وكان لا بأس به ، وقاسى
شدائد ومحن ، وصودر وأخذ منه مال له صورة .

وفى رمضان فى يوم مستهله عرض الوزير
الجمالى يوسف البدرى اللحم والخبز والسكر
والدقيق والغنم ، فطلع بذلك وهو مزفوف على
رعوس الجمالين ، وكان السلطان فى الميدان فخلع
عليه وعلى الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة
الشريفة .

وفى يوم الأربعاء عاشره توفى القاضى ابراهيم
بن البابا المعروف بالشرائشى ناظر الذخيرة
والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وكان رئيسا
حشما لين الجانب ، ومات وهو فى عشر الثمانين
وزيادة ، وكان لا بأس به ، فلما توفى خلع
السلطان على ولده الشمسى شمس الدين محمد
وقرره فى تلك الجهات كما كان والده .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره توفى القاضى كمال
الدين محمد بن القاضى خير الدين الشنشى أحد
نواب الحنفية ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفي ليلة الثلاثاء ثالث عشرينه كانت وفاة
الأتابكي قرقماس بن ولي الدين أتابك العساكر
بالديار المصرية ، فرجت لموته القاهرة ، وكانت
جنازته مشهودة ومشى فيها القضاة الأربعة وسائر
الأمراء من كبير وصغير ، وكذلك أعيان المباشرين
ومشاهير الناس بحيث لم يتأخر منهم أحد ،
وكانت جنازته حافلة وأخرجوا قدامه كفارة ما بين
خبز وتمر وغنم ، فلما وصلوا به الى مدرسة
السلطان حسن نهب العوام تلك الكفارة عن
آخرها ، ثم ثروا على نعشه الفضة في عدة
أماكن ، وكثر عليه الحزن والبكاء من الناس فانه
كان لين الجانب وعنده تواضع ، فلما وصل الى
سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وهو
راكب وأتى الى سبيل المؤمنين فنزل عن فرسه
ودخل الصلاة ، فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله
وهو في النعش وبكى عليه بكاء كثيرا ، فلما
صلوا عليه حمل نعشه ومشى به خطوات حتى
أخذه منه الأمراء وتوجهوا به وهم قدامه مشاة
الى تربته التي أنشأها بالصحراء ، بجوار تربة
الأشرف اينال ، فدفن بها داخل القبة رحمة الله
عليه ، وقد رثيته وهو قولي :

يا عين جودي بفيض دمع
وأكثرى في البكا انتحايك
على قرقماس قد رزينا
واستوحشت مصر للأتابيك

وكان الأتابكي قرقماس أميرا جليلا مبجلا
معظما ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي
وأعتقه فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف امرة
آخورية الثانية ثم بقى مقدم ألف ثم بقى رأس
نوبة النوب وقرر في نيابة حلب في دولة الأشرف
جان بلاط ولم يتم ذلك ، ثم سجن بقلعة الشام لما

توجه مع الأمير طومان باي الدوادار ، فلما
تسلطن هناك سجنه مع جملة من سجن من الأمراء
بقلعة دمشق ، فلما تسلطن قانصوه الغوري أفرج
عنه من سجن قلعة دمشق ، فلما حضر قرره في امرة
السلح ثم بقى أتابك العساكر بمصر عوضا عن
قيت الرحبي لما نفى الى ثغر الاسكندرية سنة عشر
وتسعمائة . فأقام في الأتابكية ست سنين وشهرين
الا سبعة أيام ومات وهو في عشر الستين وزيادة ،
وكانت مدة توعكه أربعة أيام ، وخلف أولادا
صغارا ما بين ذكور وإناث عدتهم أربعة ، وظهر له
من الموجود نحو من سبعين ألف دينار خارجا عن
بركه ، وأعتق جميع من عنده من مماليك وعبيد
وجوار . فلما مات استمرت الأتابكية بعده شاذرة
لم يلها أحد من الأمراء ، ورسم السلطان للزيني
بركات بن موسى أن يتحدث في جهات الأتابكية
الى أن يليها من يختاره السلطان .

وفيه ، في ثامن عشرينه ، كان ختم البخاري
بالقلعة على العادة وحضر القضاة الأربعة ، ونصب
السلطان خيمة كبيرة بالحوش وحضر بين القضاة
في ذلك اليوم ، وخلع على من له عادة من الفقهاء
وفرقت الصرر ، وكان ختما حافلا .

وفي تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد
على السلطان ، وطلع بها الى القلعة وهي مزفوفة
على رءوس الجمالين .

وفي ليالى العيد اشتد البرد وأمطرت السماء
مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، وجاءت
الأخبار من الشرقية والمنوفية بأن قد وقع في تلك
الأيام برد كل واحدة قدر أحد عشر رطلا فقتلت
عدة بهائم وتعطب منها أولاد الفلاحين ، وأفسدت
بعض الزروع ، وكانت حادثة مهولة .

وفي شوال — في يوم سابعه — حضر الأمير
أقبای الطویل أمير آخور ثانى الذى كان قد توجه
الى القدس بسبب القيامة ، وأشيع بين الناس أنه
احتاط على ما فى القيامة من مال الفرنج ، وربما
يحصل من هذه الحادثة مفسدة كبيرة من قبل
الفرنج .

وفي يوم الخميس تاسعه حضر الى الأبواب
الشريفة المقصر السيفى خاير بيك بن ملباى نائب
حلب ، وقد حضر ليرى وجه السلطان ويزوره ،
فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان متمر وفوقه
فوقانى بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية .
ونزل من القلعة فى موكب حافل وتوجه الى بيت
الأمير قرقماس الجلب الذى بالتبانة فنزل به . وقد
عظمه السلطان الى الغاية وأوكب بالقصر ولبس
الأمرء الشاش والقماش بسببه .

وفي يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل
الشریف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير
ركب المحمل قانصوه ابن سلطان جركس ، وبالركب
الأول نوروز تاجر الممالك أحد الأمراء الطبلخانات
وكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .

وفيه تغير خاطر السلطان على جماعة من
الزردكاشية فقبض على شخص يسمى أحمد بن
قراکز ، وعلى شخص يسمى محمود الأعور ، وغيب
عبد الكريم بن اللاذنى مستوفى الزردخاناه ،
ورسم على عبد الباسط بن تقى الدين الناظر ،
فسلمهم السلطان الى الأمير مغلباى الشریفى
الزردكاش ، ووضع أحمد بن قراکز فى الحديد ثم
ضربه فيما بعد هو وابنه ، وقد قرر عليهم السلطان
عشرة آلاف دينار ، وكان أحمد بن قراکز هذا

سببا لمصادرة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط
الناظر ، وغرموا مالا له صورة ، وقد تقدم ذكر
ذلك . وكان أحمد بن قراکز ما أبقي ممكنا فى
مرافعة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط الناظر
ومباشرى الزردخاناه ويحيى بن يونس أحد
الزردكاشية ، وكان حظى عند السلطان بسبب
المرافعة وداخله فى أمور شتى ، فما عن قريب حتى
تغير خاطر السلطان عليه ورافعه جماعة وأثخنوا
جراحاته عند السلطان ، فغضب عليه وسلمه الى
الأمير مغلباى الزردكاش فظفر به واشتفى منه ،
فكان كما يقال فى المعنى :

قل للعذول يرعوى

ويستهى عن عتبه

ولا يكون فى الهوى

يشمت بى أشمت به

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من
الممالك السلطانية يقال له شاهين ، وهو فى سن
الشيخوخة ، قصد الحج فى هذه السنة ، فخرج
هو وزوجته الى بركة الحاج ، ثم عرضت له حاجة
فى بيته فرجع تحت الليل ، فخرج عليه جماعة من
العربان فقتلوه عند سبيل علان ، فحملوه وآتوا به
الى داره حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه ، فرجعت
زوجته من بركة الحاج ولم يقسم لهما الحج فى
هذه السنة ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه طلعت الى السلطان مقدمة حافلة من عند
نائب حلب وهى أطباق فيها ذهب عين وممالك
جراكسة نحو من ثلاثة وأربعين مملوكا ، ومن
الخيول خمسين فرسا منها فرس بسرج بلور
وكنبوش ذهب وأنعاله من الذهب ، قيل ان مشتراه

ألف دينار ، وعدة حمالين عليها زرديات وصوفة ،
وسمور ووشق وسنجاب وغير ذلك من الأصناف
الفاخرة .

وفيه أنفق السلطان الجامكية على العسكر ،
وجعل للمماليك الذين استجدهم طبقة جامكية
خامسة في أواخر الجوامك تصرف لهم على
انفرادهم .

وفيه غيب المعلم على الصغير ، وكان السلطان
قرر عليه مالا لم يقدر عليه فهرب ، وقرر عوضه
المعلم خضر ، وقد تعطل اللحم في هذه الأيام الى
الغاية .

وفيه توعك جسد السلطان وأفصد واحتجب
عن الناس ولم يخرج الى صلاة الجمعة ، فكثر
القيح والقال بسبب ذلك . واستمر منحجبا أياما
فطلع اليه الخليفة المتوكل على الله وعاده ، ثم طلع
اليه القضاة الأربعة وعادوه ، ثم بعد أيام شفى
وخرج الى صلاة الجمعة وهو راكب ، فخطب
قاضي القضاة الشافعي خطبة بليغة مختصرة ، ثم
انقضى أمر الصلاة وعاد السلطان الى القبة التي
أنشأها الأشرف جان بلاط بجوار الدهيشة فأقام
بها .

وفيه توفي قاضي قضاة غزة شمس الدين محمد
ابن النحاس الشافعي ، وكان من خواص السلطان ،
وكان لطيف الذات عشير الناس رئيسا حشما ،
وكان لا بأس به .

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان
ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان ، فوصلت الى
بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها الى
القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة

ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود مطيب
أربعون قنطارا ، ومقاذيف خشب ، العدة ألفا
مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل
وحبال وسلب ، ومراسي حديد ، وغير ذلك مما
تحتاج اليه المراكب ، فشكره السلطان على ذلك ،
وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلي
الى بلاد ابن عثمان ليشتري له بها أخشابا ونحاسا
وحديدا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال
وجهاز ما ذكرناه من عنده مقدمة للسلطان .

وفي هذه القعدة جاءت الأخبار من بلاد الغرب
بأن صاحب تلمسان تحارب مع الفرنج وقتل منهم
نحو من عشرين ألف انسان ، واستخلص منهم
ما كانوا قد استولوا عليه من جهات الأندلس
وغيرها ، فسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفيه ، في يوم الاثنين حادي عشره ، نزل
السلطان الى الميدان وعزم على خاير بيك نائب
حلب ، واجتمع الأمراء المقدمون ، وساق قدامهم
في ذلك اليوم الرماحة وهم لابسون الأحمر وآلة
السلاح ، كما يفعلون في أيام دوران المحمل . وكان
معلم الرماحة الأمير تمر الحسيني أحد المقدمين
المعروف بالزردكاش ومعه أربعة باشات ، فساقوا
أحسن سوق ونزلوا عن خيولهم وباسوا الأرض
للسلطان على جاري العادة ، فخلع على المعلم وأركبه
فرسا يسرج ذهب وكنبوش . وخلع على الأربعة
باشات ، ثم خلع في ذلك اليوم على الأمراء المقدمين
كوامل الشتاء ، ثم تحول ودخل الى البحرة التي
بالميدان ومد الى نائب حلب هناك أسمطة حافلة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ثلاث
جوار وغلام قد قتلوا سيدتهم ، وهي أم كسباي

الذى كان دوادارا ثانيا وقتل في معركة قانصوه
خمسمائة كما تقدم ذكر ذلك ، فشنقوا على باب
سيدتهم في مكان قتلوها فيه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء
المقدمون قاطبة وعليهم كوامل الشتاء التى ألبسها
لهم السلطان ، وصحبته أيضا أعيان المباشرين ،
فشق من الصليبية وتوجه من على قناطر السباع
الى الجزيرة الوسطى ، ثم أتى الى بولاق ومر من
على الرصيف ووقف عند مدرسة ابن الزمن ، وزار
سيدي سويدان الذى هناك مقيما بالمدرسة ، ثم
عرج من على جزيرة الفيل وأتى الى شبرا ، واستمر
على ذلك حتى وصل الى قناطر أبى المنجا حتى
كشف على الأخشاب التى أرسلها ابن عثمان
وكانت هناك فى حاصل ، ثم رجع من على المنية
وطلع من على قنطرة الحاجب ودخل من باب
الشعرية ، فزينوا له الحشايب وارتفعت له الأصوات
بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان .
ثم خرج من باب القنطرة وعرج من بين الصوريين
وطلع من باب الخرق وشق من سبوق تحت الربع .
ثم طلع من على البسطيين واستمر على ذلك حتى
طلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود . ومن حين
سلطنته الى ذلك اليوم لم يقع له موكب مثل
ذلك .

وفى هذه السنة تعطبت سائر الفواكه ، حتى
البطيخ والثوم والبصل وغير ذلك من الفواكه
والخضر ، حتى الرياحين والأزهار والغلال ، وكانت
غالب الأراضي مجدبة .

وفيه قبض السلطان على شرف الدين الصغير
كاتب الماليك وعلى شرف الدين النابلسي

الأستادار ، وقرر عليهما مالا له صورة ، ووضعهما
فى الحديد وسجنهما بالعرقانة ، واستمرا على
ذلك حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفى يوم السبت سادس عشره حضر قاصد من
عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة
للسلطان ، فلما ناولها له قبلها السلطان ووضعها
على عينيه ، ثم ناولها الى كاتب السر فقراها بحضرة
السلطان والأمراء ، وكانت ألفاظ هذه المكاتبة
مرجزة ، صنعة البديع ، وقد نعت فيها السلطان
نعتا عظيما . وكان من مضمونها ، أنه أرسل
للسلطان عدة مراكب فيها زردخاناه فما يدرى هل
وصلت الى السلطان أم لا ، وأخبر فيها أن الرئيس
كمال المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر ، فأقام
القاصد بمصر أياما قلائل وكتب له الجواب عن
مكاتبته وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان على الأمير خاير بيك
الخازندار بتقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء
المقدمين .

وفيه توفى شمس الدين محمد الصالحى وكيل
الشرع الشريف ، وكان علامة فى صنعة التوكيل
عارفا بأمر الشرع ، وكان لا بأس به .

ومن النوادر اللطيفة ما وقع فى هذا الشهر وهو
أن السلطان رسم بشيل الدكة التى كانت بالحوش
يجلس فوقها السلاطين للمحاكمات ، وقد جلس
فوق هذه الدكة جماعة كثيرة من الملوك ونفذوا
عليها الأحكام السلطانية ، وكانت عوضا عن كرسى
المملكة ، فعز على الناس تغييرها ولم يتفاءلوا
بذلك ، ثم انه بنى مكان هذه الدكة مصطبة بالحجر
الفص وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى
والمرسينى وغير ذلك من أصناف الرخام الملون
الفاخر ، ونقش بروزها وألبسها بالذهب وجعل

لها افريزا من الرخام الأبيض وله رماقتا رخام ،
وكسا هذا الافريز بالذهب ونقش عليه اسمه ،
وصنع فوق هذه المصطبة وزرة من الرخام
الملون طولها أربع أزرع ، فجاءت هذه المصطبة
غاية في الحسن بحيث لم يعمل مثلها قط ولا سبقه
أحد من الملوك الى ذلك ، وقد قلت في هذه الواقعة
هذه الأبيات وهو قولي :

قد جدد الأشرف سلطاناً
مصطبة أوصافها تحكه
رخامها شبهت ألوانه
جواهر في عقد مشبكه
ألبسها الحسن لباس البها
حتى غدت تزهر على الدكة
يجلس للموكب من فوقها
يظهر في أحكامه فتكه
فاق ملوك الترك فيما مضى
ولم يضاه ملكهم ملكه
بخدمة البيت وما حوله
وفارس البيداء في العرکه
قد خصه الرحمن بالملك في
مصر ، ومن عاداه في هلكه
أيده الله بطول البقا
ما طافت الحجاج في مکه

وقولي أيضا :

بنى الأشرف الغوري في الحوش بسطة
ليغنى بها عن دكة الحكم بالأمس
فجاءت من الآيات كرسى ملكه
وظلعت فافت على البدر والشمس
فحضنته لما استوى بجلوسه
عليها يرب الناس مع آية الكرسى

وفيه جاء الى السلطان شخص شريف وأخبره
أنه وجد معدن البارود في بلد خراب بالقرب من
الكرك ، وترباها كله من ذلك البارود ، فطبخوه
فوجدوه بارودا جيدا ، ففرح السلطان بذلك وأنعم
على ذلك الرجل الذي أحضره بعشرة دنانير وأرسل
يحضر منه أشياء كثيرة . وقبل ذلك بمدة ظهر معدن
الرخام السماقي والزرزوري في جبل بالقرب من
البدرشين ، فأرسل السلطان وقطع منه فوجده
رخاما جيدا ففرح بذلك وعد من النوادر .

ومن الوقائع أن الأمير أركماس الذي كان نائب
الشام طلع الى السلطان بقطعة فولاذ هيئة الكرة
وزعم أنها صاعقة نزلت ببعض الجبال وأن أعرايا
أهداها اليه ، ففرح السلطان بذلك وجمع السباكين
فقالوا انها صاعقة لا محالة ، فنظر اليها بعض
الزردكاشية فأفكر ذلك وقال : هذه حجر مرقشيتة
وهو حجر صلب ، فلما سمع السلطان ذلك شق
عليه ونزل الى الميدان وجمع السباكين وحضر
الأمير أركماس ، ووضعوا ذلك الحجر الذي على
هيئة الفولاذ في النار ، فجرد ما وضعوه في النار
صار مثل الخرنفش وتفتت ، فخبجل الأمير أركماس
من ذلك ، وانتصف عليه ذلك الزردكاش ، وهو
الجمالى يوسف أخو مؤلفه ، وعد ذلك من النوادر .
ومما حكى عن أمر الصاعقة الحقيقية : أن سنة
ست وتسعين وثلاثمائة وقعت صاعقة عظيمة
بجرجان ، فرجت لها الأرض وسقطت من هولها
الحوامل ، فخرج الناس الى مكان سقطت فيه ،
فوجدوها قد ساخت في الأرض على قدر قامة ،
فنبشوا عليها فوجدوها قد بقيت قطعة حديد قدر
مائة وخمسين منا ، وهى أجزاء جاروشية صغار
مستديرة قد التصق بعضها ببعض ، فسمع بذلك
السلطان محمود بن سبكتكين صاحب خراسان ،
وهو أول من تلقب بالسلطان ، فكتب الى عامل

جرجان بنقل هذه القطعة الحديد فتعذر عليهم نقلها ، فحاولوا كسر قطعة منها فلم تعمل فيها الآلات ، فعولج كسر قطعة منها بعد جهد كبير فحملت اليه ، فرام أن يصنع منها سيفاً له فتعذر عليه ذلك ولم يتم له ما أراد .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه قناصلة الفرنج ، منهم القنصل الذى بشعر الاسكندرية ، والقنصل الذى بدمشق ، والقنصل الذى بطرابلس . فلما وقفوا بين يديه وبحهم بالكلام ووعدهم بالشئ . وسبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دواسيس من عند اسمعيل الصفوى^(١) ، وعلى أيديهم مكاتبات الى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بأن يأتوا فى سراكب من البحر ، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم ، فانكشف رخصهم واقتضحوا فى هذه الواقعة ، فرسم السلطان بتسليمهم الى ناظر الخاص ليقردهم عن حقيقة ذلك ، وان لم يقرروا يسلمهم الى الوالى ، فانفضوا على ذلك .

وفي ذلك اليوم عرض السلطان الدنوشرى مباشر الأتابكى قرقماس ، وقد غمز عليه بأن عنده مالا لأمير كبير ، فلما عرضه لم يقر بشئ فرسم بتسليمه الى عقيب الجيش فقبض عليه وعلى الخازندار أيضاً ، واستمر فى الترسيم لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمرهما .

وفي ذلك اليوم توفيت خوند جان كلدى زوجة

(١) هو اسماعيل شاه بن حيدر الصفوى . وقد ورد اسمه « الصفوى » خطأ بين الصفحات ٧٥٧ و ٨٠٠ من الكتاب . وهو مؤسس الأسرة الصفوية التى حكمت فارس من سنة ١٤٩٩ الى سنة ١٧٣٦ . وقد نبهنا الى ذلك الدكتور جمال مرسى بدر جزاه الله خيراً .

الملك الظاهر قانصوه المسجون بشعر الاسكندرية ، فأخرجت وعلى بعشها بشخانة زركش ، وكانت ذات عقل ودين لا بأس بها ، ولكن قاست شدائد ومحنا ، وعصرت فى أكعابها وأكتافها حتى أشرفت على الموت . وسبب ذلك أن زوجها الظاهر قانصوه لما وثبوا عليه وانكسر نزل من القلعة واختفى أياماً فلم تقر بمكانه ، فعوقبت بسبب ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى استجدها بسبب الممالك الذين استجدهم ما بين تراكمه وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفرادهم دون جوامك العسكر . وقد تزايد أمر هذه الممالك الأراذل الذين صار يستكثر منهم فى الديوان ، ففهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمسك الرمح وهذا أمر عجيب ! يشح فيمن يستحق الجامكية ، ويعطيها لغير مستحقها ... كما قيل :

انى أشح بدرهم متصدقا
وأجود فى قدح بما ملكت يدي

وفيه وصل الى السلطان فيل صغير غير ذلك الفيل المقدم خبره لما وصل .

وفيه توفى تانى ييك النجمى المعروف بالأبج الذى كان شاد الشون وصرف عنها ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به . وفي عقيب ذلك توفى أيضاً شخص من الأمراء العشراوات يسمى تراز الشهابى .

وفي ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم السبت ، فعمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس

على المصطبة التي أنشأها بالحوش مكان الدكة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان سبب هذا الموكب أن السلطان خلع على خاير بيك نائب حلب وأذن له بالسفر الى محل ولايته بحلب على عادته ، وخلع في ذلك اليوم على الأمير طومان باي الدوادار وخرج الى السفر نحو الشرقية والغربية ، وقد غيب لأجل أمر الأضحية ولعله يغيب في هذه السفرة نحو من شهرين .

وفي ذلك اليوم طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا ، ولا سيما كان أول جلوس السلطان على هذه المصطبة فكان لها موقع عظيم .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق والشوارع ، وكان ذلك ليلة الأحد ثانيه ، ولم يقع في هذه السنة من الأمطار أعظم من هذه المطرة .

وفيه عين السلطان شادية الشراب خاناه الى ولده الصغير ، عوضا عن أخيه المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، في يوم الثلاثاء رابعه ، فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفيه كانت الأضحية غالية ومشحوة بسبب تشويش المماليك على المتسبين ، وقد صاروا يخرجون الى المطرية ويقطعون الطريق على ضيافات الأمراء حتى صارت الأمراء يرسلون مماليكهم يلاقون ضيافاتهم . وقد خرج المماليك عن الحد في الأذى للناس في هذه السنة الى الغاية ، وحصل منهم غاية الضرر والفساد في حق الناس ، والأمر لله . وفيه — في يوم الجمعة سابعه — وقعت زلزلة

خفيفة بعد العصر وارتجت منها الأرض ، ولم يشعر بها من الناس الا القليل .

وفيه كان موكب العيد حافلا ، وجلس السلطان بالحوش على المصطبة التي أنشأها وضحي بالايوان الكبير على العادة .

وفيه ، في يوم عيد النحر ، وقعت حادثة مهولة ، وهو أن شخصا من أبناء الأتراك صغير السن دخل الى اسطبل أبيه فرفسه بغل على قلبه فمات في ذلك اليوم ، فحصل على أهله من الأكاد ما لا خير فيه بسبب فقد ولدهم ولا سيما في يوم العيد .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العسراوات يقال له أزدمر ، وهو أنى الأمير قاني باي قرا أمير آخور كبير ، وقرره في نيابة عينتاب .

وفيه جلس السلطان على المصطبة التي أنشأها مكان الدكة وأنفق الجامكية على العسكر ، فقام له الأمراء المقدمون ، وقبلوا له الأرض وهنوه بجلوسه على تلك المصطبة حيث كملت ، ومن العسكر من لم ينظر عليه ذلك وقال : « الدكة كانت أعظم حرمة من هذه المصطبة » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الصفوى قد انتصر على أذربك خان ملك التتر وقتله وقطع رأسه ، فتأكد السلطان لهذا الخبر وأقام عنده الأمراء الى قريب الظهر وهم في ضرب مشورة بسبب ذلك . وكان أذربك خان ضد الصفوى وكان مشغولا بمحاربته عن ابن عثمان وسلطان مصر ، فلما أشيع قتل أذربك خان خشي السلطان من أمر الصفوى أن يزحف على البلاد .

وفي أواخر هذه السنة توفي الشيخ أبو النجا

(١) يريد أن يقول إن أمير العشرة أزدمر كان مملوكا «يقتنيه» الأمير قاني باي قرا ..

القمنى ، وكان شاعرا لطيف الذات عشير الناس ،
وقد ناف عن السبعين

وفيه توفي رضى الدين حسن بن عبد القادر
ابن حسين المقرئ ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب موت رضى الدين توفي أيضا الناصرى
محمد بن عبد العزيز المقرئ ، وكان علامة فى فن
القراءات حسن الصوت عارفا بطريقة القراءات ،
وكان لا بأس به .

وفيه نادى السلطان بالألا يمشى أحد من الناس
من بعد العشاء فى الطرقات ، ومن وجدوه يمشى
ومعه سلاح يشنق من غير معاودة فسكن الأمر
قليلا وكان قد فسدت الأحوال فى تلك الأيام الى
الغاية .

سنة سبع عشرة وتسعمائة (١٥١١ م) :

فيها - فى المحرم - كان مستهل الشهر
بالأحد . ففيه ، فى يوم الجمعة سادسه ، كانت وفاة
الأمير طراباى الشريفى رأس نوبة النوب . وكان
أصله من ممالك الأشرف قايتباى فهو من معاتيقه ،
وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية ، ثم
بقى رأس نوبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط
عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى
الأتابكة فيما بعد . وكانت وفاة الأمير طراباى فى
ليلة الجمعة ، ودفن صبيحة يوم الجمعة ، وكانت
جنازته مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى
سبيل المؤمنين ، وأخرجت قدامه كفارة ونهبت من
على بابه ، ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء ،
وكانت مدة انقطاعه بهذا العارض نحو شهر ، وقد
اعتراه ورم فى رجله وركبته ، وكان له بمصر حرمة
وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة لم تقع لأحد من
الأمراء فى عصرنا غيره . فرجت لموته القاهرة وفرح
بذلك غالب الناس ، فانه كان صارما عسوقا شديدا

البأس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من
أنواع المظالم بالديار المصرية لم تقع من غيره من
الأمراء فيما تقدم ، وحصل منه الضرر الشامل
لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت
ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده . وقد
قلت فيه هذه الأبيات :

بموت طراباى أفرج الله كربة
عن الناس من خلق السموات والأرض

فهذا فتوح عاد فى مصر ثانيها
وعمت به الأقطار فى الطول والعرض

وقد كان جبارا عيدا معاندا
فكم جار فى الأحكام بالبرم والنقض

ويطل حق الناس من كل واجب
ويقضى خلاف الشرع فى النذب والفرض

ولما طغى ظلمها وزاد تجبرا
فعجل عزرائيل للروح بالقبض

وأسكنه ضيق اللحود معذبا
وأخلى منازل فى طرفه الغمض

وقد جاء يسعى للجحيم برجله
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض

ومذ شاع بين الناس أخبار موته
فصار يهنى بعض من سر للبعض

فيا رب فابله بما يستحقه
وأودعه فى الأغلال للبعث والعرض

كان الأمير طراباى من مبتدأ أمره وهو فى عز
وشهامة لم ينتكب ولم ينف قط ، واستمر فى سعده
الى أن مات ، ومات وهو فى عشر السبعين . فلما
كان يوم السبت صبيحة موته عرض على السلطان
ماليكه فوزعهم فى الطباق ، وأشيع بين الناس بأن
ظهر له من الموجود ما لا ينحصر من أموال وخيول

وجمال وسلاح وبرك وغير ذلك ، فكان موجوده أعظم من موجود الأتابكى قرقماس بأشياء كثيرة ، وكان بين موت الأتابكى قرقماس وبين موت الأمير طراباى ثلاثة أشهر واثنى عشر يوما ، حتى عد ذلك من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى الذى ورث هذين الأميرين فى هذه المدة اليسيرة واحتاط على موجودهما من صامت وناطق .

وفى يوم الاثنين تاسعه حضر الطواشى بشير الذى كان توجه الى بلاد اليمن قاصدا الى بعض ملوكها ، فلما حضر خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم بعد أيام أهدى الى السلطان هدية حافلة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره قبض السلطان على تغرى بردى الترجمان ، ووضع فى الحديد ووكل به ، وأرسل ختم على بيته واحتاط على موجوده ورسم على عياله ، وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان أن تغرى بردى كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر ، وأن السلطان ليس له همة الى ارسال تجريدة ، وأن السواحل خالية ليس بها مانع . وقد أحضروا الى السلطان مكاتبات بخط تغرى بردى بمعنى ذلك ، فأحضر السلطان تغرى بردى وأوقفه على تلك المطالعات ، فأنكر ذلك ، فغضب عليه وشكه فى الحديد ووكل به وأحضر خيوله وقماشه ، واستمر فى الترسيم الى الآن .

وفى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على شخص من الخاصكية يسمى طومان باى ، وهو خازندار كيس ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام ليصلح بين سيباى نائب الشام وبين جان بردى الغزالى نائب صفد . وكان قد بلغ السلطان بأن قد حصل بينهما تشاجر مفرط حتى خرجا فيه عن الحد ، فرسم السلطان لطومان باى بأن يتوجه

ويصلح بينهما ، ورسم له بخمسة آلاف دينار تسفيرا عليهما .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره توفيت الست زينب ابنة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، وهى أخت أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وعمة ولده المتوكل على الله محمد خليفة الوقت الآن ، وكانت لا بأس بها

وفى يوم الاثنين ثالث عشره حضر الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان مسافرا نحو الشرقية والغربية ، فأهلك الحرث والنسل وأفرد على سائر البلاد التى بالشرقية والغربية الأموال الجزيلة ، حتى أفرد على بلاد الأوقاف التى على الجوامع والمدارس ، فضج من ذلك المقطعون ، وما حصل على الناس بنزوله الى البلاد خير .

وفى يوم الخميس سادس عشره دخل الحاج الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه بن سلطان جركس ، وبالركب الأول توروز تاجر الممالك . وقد قاست الحجاج فى هذه السنة مشقة زائدة من الوخم وموت الجمال ، وقد ضبط من مات من الحجاج فى هذه السنة فكان جملة ذلك ألفا وثمانمائة انسان . وكانت سنة شديدة صعبة على الحجاج والذين سلموا ردوا ضعافا ، حتى قانصوه أمير ركب المحمل رد وهو عليل

وفيه نادى السلطان بأن أصحاب الأملاك التى على الخلجان يقطعون أراضى الخلجان قدر ثلاث أذرع ونصف ، فامثلوا ذلك ولكن حصل للناس غاية الضرر من الغرامة والبهدة من جماعة حاجب الحجاب بسبب شيل التراب ، وكان السلطان نادى بأن الذى يعجز عن القطع يكون بيته للسلطان ، فقاست أصحاب الأملاك التى بالجزيرة الوسطى ما لا خير فيه بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار صعبة الحجاج بوفاة هجار
أمير الينبع الذي كان السلطان ولأه امرة الينبع
عوصا عن يحيى بن سبع ، وحضر جماعة من أقاربه
يسعون في امرة الينبع ، فتم الأمر .

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه توفي شاهين معلم
الدبوس ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان
علامة في فن الدبوس .

وقبه توفي معين الدين بن شمس الذي كان
وكيل بيت المال ونائب كاتب السر ، مات بالمقشرة
وقد قاسى شدائد ومحن ، وضرب بالمقارع غير
ما مرة وعصر في أكعابه وأخذ منه جملة مال . وكان
تغير مشكور ، فما رتب له أحد من الناس فيما جرى
عليه .

وفي يوم الاثنين سلخ المحرم حضر الى الأبواب
الشريفة الأمير يوسف الناصري الذي كان نائب
حماة وعزل عنها ، فنقل السلطان نائب طرابلس
الى حماة عوصا عن يوسف الناصري ، وقرر في
نيابة طرابلس أبرك ، مملوك السلطان الذي كان
نائب قلعة حلب ، وقرر في نيابة قلعة حلب شخص
من ممالك السلطان . ولما حضر يوسف الناصري
حلب عليه السلطان ، ونزل الى داره واستمر
طرخانا .

وفي صفر صعد الخليفة الى القلعة ليهنئ بالشهر ،
وكذلك القضاة الأربعة ، فحصل في ذلك اليوم
للقاضى شمس الدين التحليبي غاية المقت من
السلطان وكاد يبطش به . وسبب ذلك أنه حكم
في بعض الوقائع بما اعترض عليه في ذلك فتغير
خاطر السلطان عليه ولم يقبل له في ذلك عدرا ،
وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا .

وفي يوم الخميس ثالث نزل السلطان وشق من
الصلية ، وتوجه الى المنشية فكشف عن مراكب
عمرها هنالك ، ثم توجه الى الجزيرة الوسطى
وكشف عن قطع الخليج ، ودخل من تحت قنطرة
قديدار ، وشق من بطن الخليج وكشف على
القطع واستحث الناس على ذلك ، فبينما هو شاقق
من بطن الخليج كبا به الفرس في جورة من القطع
التي هناك ، فلم يتأثر الى ذلك واستمر شاققا من
بطن الخليج حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع
من هناك وشق من الحسينية ، ثم دخل من باب
النصر أو باب الفتوح وشق من القاهرة على حين
غفلة ، فوقدت له الشموع على الدكاكين ،
وانطلقت له الزغاريت من النساء في الطيقان ، ثم
ارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام ، وكان له
موكب حافل وقدامه جماعة من الأمراء والمباشرين .
ولكن شق من القاهرة وهو لا لبس تخفيفه صغيرة
مملسة . وسبب ذلك أنه كان قد طلع له دمل في رأسه
فلم يستطع لبس التخفيف الكبيرة التي بالقرون
الطوال .

واستمر في هذا الموكب حتى خرج من باب
زويلة وقد زينت له ، ثم طلع من البسطين ، وشق
من على بيت الظاهر ثم بغا وطلع من هنالك الى
الرملة ودخل الميدان . ولم يشق من القاهرة منذ
تسلطن سوى في ذلك اليوم فقط ... ومما أحدثه
عند دخوله من القاهرة في ذلك اليوم أنه أمر
المشاعلية تنادى قدامه بالأمان والاطمئنان والبيع
والشراء ، وأن أحدا لا يشوش على أحد ، وكان
ذلك غاية الخفة منه ، وترك هذا كان أوجب .

وفي يوم الثلاثاء ثامنه نزل السلطان من القلعة
أيضا ، وسير من على ساحل البحر حتى وصل الى
البهظة ، فقدمت له الحراقة التي يكسر فيها
السد ، فنزل بها وعدى الى المقياس ، فطلع من

السلم التي تجاه بر الجزيرة ، وتمشى ودخل الى المقياس ، نزل الى الفسقية التي يقاس بها النيل فتوضاً منها ، وطلع وصلى هناك ركعتين ... ثم نحول ودخل الى قاعة المقياس ، فمد له هناك علاء الدين ناظر الخاص وبركات بن موسى المحنسب اسمطة حافلة ولم يبقوا في ذلك ممكنا ، وكان مع السلطان من الأمراء المقدمين الأمير طومان باي الدوادار الكبير ، والأمير خاير بك كاشف الغريبة أحد المقدمين ، والأمير خاير بك الخازندار أحد المقدمين ، وجماعة من الأمراء العشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية . وكان معه من المباشرين القاضي عبد القادر القصروي ناظر الجيش ، وعلاء الدين ناظر الخاص ، والشهابي أحمد بن الجمان نائب كاتب السر وغير ذلك من الأعيان .

فلما فرغ من الأكل ، أمر باصلاح ما فسد من عمارة المقياس ، وأمر ببناء جامع بجوار المقياس تجاه دير النحاس فأخذوا في أسباب ذلك . ثم نزل في الحراقة ونصب له سحابة حرير أصفر ، وأحضرت حوله مراكب كثيرة برسم العسكر ، وفيهم غراب قد زين بالصناجق والشطقات ، ثم شق من على بر الروضة فانطلقت له النساء بالزغاريت ، واستمر على ذلك حتى طلع من عند قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، ثم شق من بطن الخليج ، وطلع من الناصرية من على بيت قانصوه خمسمائة ، وطلع من على قناطر السباع ، وشق من الصليبة وقدامه المشاعلية تهادى بالأمان والاطمان كما فعل لما شق من القاهرة .

وفي يوم الخميس عاشره عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير وأمر الأمراء والعسكر بلبس الشاش والقماش ، فلما تكامل الموكب خلع على المقر

السيفى دولات باي بن أركماس المعروف بالساقى أمير سلاح . فقرره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأتابكى قرقماس بن ولى الدين بحكم وفاته . وكانت الأتابكية شاغرة نحو أربعة أشهر ونصف شهر من حين توفى الأتابكى قرقماس في ثالث عشرين شهر رمضان سنة ست عشرة وتسعمائة

وخلع في ذلك اليوم على المقر السيفى سودون العجمى ، وقرره في امرة السلاح عوضاً عن دولات باي بحكم انتقاله الى الأتابكية

وخلع على المقر السيفى أركماس بن طراباي ، وهو الذى ولى نيابة الشام قبل ذلك ، فقرره في امرة مجلس عوضاً عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى امرة السلاح .

وخلع على المقر السيفى سودون الدوادارى الذى كان نائب طرابلس وقرره راس نوبة النوب عوضاً عن طراباي الشريفى بحكم وفاته ، فلبس هؤلاء الأربعة أمراء هذه الوظائف السنية في يوم واحد ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل .

وفي ذلك اليوم توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له ييسق اليوسفى ، وأصله من مماليك الأشرف اينال فيما يقال ، وكان لا بأس به

وفي يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع بشنس القبطى

وفي يوم الجمعة حادى عشره كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبأبى بولاق ، وكانت من الليالى المشهودة في القصف والفرجة وخرج الناس فيها عن الحد ، وضربت نحو من خمسمائة خيمة في الجزيرة التي طلعت تجاه بولاق . وصنعوا هناك سوقاً بدكاكين مبنية ونقلوا اليه من سائر البضائع الفاخرة ، وكانت ليلة هادئة من الفتن والشور .

وفي يوم السبت ثلثي عشره ابتداء السلطان بضرب الكرة في الميدان ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش ، والأوزان عمال والمغانى على جارى العادة .

وفي يوم الأحد ثالث عشره جاءت الأخبار من الغربية بقتل شيخ العرب عيسى بن يوسف المعروف بابن جميل ، وكان من أعيان مشايخ الغربية وكان في سعة من المال ، فقتلوه شر قتلة وقتلوا ولده معه وجماعة من حاشيته ونهبوا أمواله وأغنامه ، ولم تنتطح في ذاك شاتان ، وكانت في تلك الأيام الفتن قائمة بالشرقية والغربية واقليم الصعيد ، والأمر لله .

وفي يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على شخص يقال له أجود بن مسفار — وهو ابن عم هجار — فقرره في امرة الينبع عوضا عن هجار بحكم وفاته ، وقد سعى يحيى بن سبع بأن يعاد الى امرة الينبع كما كان ، فلم يوافق السلطان على ذلك .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره جاءت الأخبار من الغربية بأن الجويلي قبض على جماعة من العربان الذين قتلوا عيسى بن جميل ، فحاشهم في مكان مضيق وأرسل يعلم السلطان بذلك ، فرسم السلطان للأمير طومان باي الدوادار بأن يخرج من يومه على جرائد الخيل ويتوجه الى الغربية ، فخرج تحت الليل . وصحبته خاير بك الكاشف أحد المقدمين وآخرين من الأمراء والعسكر .

وفي يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر وشرع كل من أخذ جامكيته يقول له : « عبيء بركك للسفر » . وأشيع بين الناس أنه يعين أربع تجاريد ، وانفض الموكب على ذلك . وفي هذا الشهر رسم السلطان بعمارة قنطرة الخروبي وعلاها مقدار ثلاث أذرع ، وكذلك قناطر

السباع ، فانه كان حصل لهما تشعث وآل أمرها الى السقوط .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرته ضرب السلطان الكرة بالميدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على الفرس بهادر الغوري أحد الأمراء الطبلخانات وكان من خواص السلطان ، فلما تقنطر أغمى عليه فنزل الى داره وهو محمول على بغل وقد انقطع نخاعه ، فلما وصل الى داره مات من وقته ، وكان من المتكبرين وعنده الششم الزائد فعد موته من الغرائب ، فكان كما يقال في المعنى :

فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من غليل عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرته نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ونصب له هناك وطاqa عظيما ، وكان معه بعض أمراء مقدمين ، فان الأتابكي دولات باي كان مريضا على خطة ، وكذلك سودون العجمي أمير سلاح ، وكان الأمير طومان باي الدوادار مسافرا نحو الغربية بسبب فساد العربان مما تقدم ذكره من قتل عيسى بن جميل ، وكان سبب نزول السلطان الى هناك قيل انه عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق عند الرصيف ، فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طرا وعرضوه على السلطان في البحر ، ورموا قدمه بالمدافع ذهابا وايابا كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأخرية ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فمد هناك أسمطة حافلة وابتهج في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، فلما رجع من طرا رجع من البحر فأحضروا له الحسرة التي بكسر فيها السد فنزل بها ، ونزل الأمراء والعسكر في عدة

مراكب ، واستمر حادرا في البحر حتى طلع من رأس الجزيرة الوسطى من تحت قصر ابن العيني ، ثم طلع من هناك الى القلعة وشق من سوق جامع ابن طولون ، وكان يوما بالسلطاني .

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه كانت وفاة الأتابكي دولات باي بن أركماس المعروف بالساقى ، وكان أصله من مساليك الأشرف قايتباي ، وقد ساعدته الأيام حتى ولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة طرابلس ، ثم حضر الى مصر ، وولى امرة السلاح في دولة الأشرف قانصوه العوزى وأقام بها مدة طويلة ، ثم بقى أتابك العساكر بالديار المصرية بعد وفاة الأتابكي قرقماس بن ولى الدين ، فأقام في الأتابكية خمسة عشر يوما ومات ، فانه ولى يوم الخميس عاشر صفر ومات ليلة الجمعة خامس عشرينه ، فكانت مدته في الأتابكية خمسة عشر يوما لا غير وقد قلت في معنى ذلك :

ان دولات باي لما أن رقى امرة الكبراء ولى مسرعا جاء للمنصب يحكى زائرا ثم ما سلم حتى ودعا وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجهوا به الى تربة العادل طومان باي فدفن بها فانه كان قرابته . وكان الأتابكي دولات باي أميرا جليلا جميل الصورة مليح الهيئة طويل القامة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر شابا في عنفوان شبابه ، مات وله من العمر نحو من أربعين سنة ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس فانه كان لين الجانب قليل الأذى لا ينسب اليه خير ولا شر ، وكان مشغولا بملاذ نفسه ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان موته فجأة ، وخلف من الأولاد صبيين ، قيل وبنات أيضا ، وظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وغير ذلك مما لا ينحصر ،

فكان بينه وبين موت الأمير طراباي دون الشهرين . وقد توفي في مدة يسيرة من الأمراء المقدمين ثلاثة كانوا نوابغ الأمراء وهم : الأتابكي قرقماس ابن ولى الدين ، وطراباي رأس نوبة النوب ، والأتابكي دولات باي ، هذا غير ماتوفى من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفي يوم السبت سادس عشرينه ظهر المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان له مدة وهو مختف ، فقابل السلطان في ذلك اليوم وقيل خلع عليه كاملية بسنور .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان توجه الى نحو الغربية بسبب فساد العربان ، وقد خرج اليهم على جرائد الخيل ثانيا ، فلما وصل الى هناك هربت العرب من وجهة فتبعهم الى قريب السباح ، فلم يظفر بأحد منهم وقاسى من المشقة ما لا خير فيه ، فلما رجع وطلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة حافلة ونزل الى داره في موكب عظيم .

وفي أثناء هذا الشهر وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين ، وكانت ليلة شعث قام فيها ريح عاصف ، فاحترق تلك الليلة نحو من أربعين دارا ، وكان ذلك وقت المغرب ، فلعبت النار في البيوت وأعيى الناس طفيها ، واستمرت على ذلك أياما ، وذهب للناس جملة أموال وقماش وبضائع وغير ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر تشحط القمح وارتفع سعره الى أشرفى كل أردب بعد ما كان كل أردبين بأشرفى ، وسبب ذلك أن النيل كان في العام الماضى خسيسا وشرق غالب البلاد ، ثم حدث أمر الفأر تسلط على الجرون وصار يقرض القمح والشعير

وهو في سنبله . وهذا الفأر أمر من الله تعالى لا يقدر أحد على رده ولا يطاق لكثرتة .

ووقع في هذا الشهر من الحوادث أشياء كثيرة .

وفي ربيع الأول في يوم الاثنين سادسه خلع السلطان على جاني بك دوادار الأمير طراباي رأس نوبة النوب ، وقرره في نظر الديوان الشريف المفرد لمشاركة الأمير طومان باي الدوادار الكبير في الأستادارية ، وهذه مصادرة لجاني بيك في أخذ ماله بحسن عبارة وأقرب طريقة .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع به القضاة الأربعة والأمراء ، ولم يكن تقرر أحد في الأتابكية من بعد الأمير دولات باي الى يوم تاريخه .

وفي ذلك اليوم توفى القاضى تاج الدين ابن القاضى شمس الدين نصر الله المعروف بابن النجار ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت ، تولى والده القاضى شمس الدين الوزارة في دولة الأشرف اينال سنة تسع وخمسين وثمانمائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ومات القاضى تاج الدين وهو في عشر السبعين ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وقتل منهم نحو من سبعة آلاف انسان ، وأسر منهم جماعة كثيرة ، ثم بعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسرى الفرنج وعليهم آلة السلاح ، فشكر لهم السلطان ذلك ، وسر بهذه النصرة التى وقعت لهم .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره توفى الشهاب أحمد المحلاوى مؤذن السلطان ، وكان حسن

الصوت مطبوعا في فنه مقاتلا على الدخول ، وكان لا بأس به ، ومات وقد ناف عن الأربعين سنة من العمر ، وقيل جاوز الخمسين .

وفي يوم الجمعة سابع عشره في ليله توفى الرئيس شمس الدين محمد القوصونى ، وكان علامة في فن الطب ، فريد عصره في ذلك ، وكان رئيسا حشما في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت ثامن عشره دخل قاصد اسماعيل شاه الصفوى فأنزلوه في بيت قانى باي سلق الذى في رأس الرملة عند سوق الجلاق ، فاستقر هناك الى أن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان للأمراء والعسكر بأن يخرجوا الى المطرية ويلاقوا القاصد ففعلوا ذلك ، وخرج الجهم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء ، ولكن وقع من السلطان في ذلك اليوم غاية الخفة وهو أنه نزل وسير الى نحو المطرية فوقف عند تربة الملك العادل طومان باي ليرى القاصد والعسكر عن بعد ، فانعقد هناك الغبار فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد والعسكر فرجع الى القلعة ، فعد هذا من النوادر الغريبة ، فلما طلع الى القلعة دخل الى القصر الكبير ليرى القاصد من الرملة وهو داخل الى بيت قانى باي سلق ، وكان ذلك غاية الخفة من السلطان .

وفي يوم الاثنين عشرينه عمل السلطان الموكب بالحوش بغير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة الجديدة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بتزيين باب الزردخاته فزينوه بالصناجق السلطانية والشطقات وآلة السلاح من بركىستوانات وزرديات وأطبار وسيوف وغير ذلك ، فلما تكامل الموكب واجتمعت

الأمراء أذن إلى قاصد اسماعيل شاه الصفوى بالطلوع إلى القلعة فطلع من بيت قانى باى سلق الذى بارملة ، وطلع صحبته المهندار ووالى القاهرة ، فلما مثل بين يدى السلطان ، قبل الأرض وباس رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبتة بين يدى السلطان ، ثم ان القاصد قدم للسلطان مصحفا شريفا وسجادة برسم الصلاة ، فقبل السلطان ذلك المصحف وأخذه ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى أزبك خان وهو الذى قتله الصفوى وأخذ بلاده ، فرسم السلطان بدفن تلك الرأس ، ثم أحضر القاصد صحبته قوسا عريضا عرضه نحو شبر ، فندب السلطان شخصا من الزردكاشية ، وهو انزردكاش الثانى ، يقال له الأمير يوسف ، فجذب القوس بحضرة السلطان فكسره وذلك بعد نزول القاصد ، وكان ذلك الموكب حافلا من المواكب المشهودة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على المقر السيفى طوماى باى الدوادار الكبير وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وخلع على شخص من الأمراء العشرافات يقال له بك باى وقرر أمير الحاج بالركب الأول ، وكان بك باى هذا أصله من مناليك الأتابكى أزبك وولى نيابة القدس وصار من الأمراء العشرافات .

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وجاءت القاعدة ست أذرع سوى ، وكانت فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وخلع على المقر السيفى سودون العجمى واستقر به أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن دولات باى بن أركماس بحكم

وفاته كما تقدم ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وكان له يوم مشهود ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى دولات باى . ولما قرر سودون العجمى فى الأتابكية قلت فى ذلك :

أميرنا الأكبر المشهور بالعجمى
وجوده فى الورى قد آل للعدم
تقول مصر لأن ولوه سلطنة
ياضيعة الناس بين العرب والعجم

وفى ذلك اليوم حضر الرئيس حامد المغربى وصحبته جماعة من الفرنج نحو من مائتى انسان وجدهم يتعشون بسواحل البرلس فقبض عليهم وشكهم فى زناجير ، وشق بهم من القاهرة وطلع بهم إلى القلعة ، فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم حتى يحرر أمرهم فيما يكون .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه عزم السلطان على قاصد الصفوى فى الميدان وضرب الكرة هو والأمراء المقدمين قدامه ، فلما انتهى ضرب الكرة دخل السلطان إلى البحرة التى أنشأها بالميدان ، فلما جلس عليها طلب قاصد الصفوى وأضافه هناك ضيافة حافلة وألبسه سلارى صوف فستقى بسمور من ملايسه ، ثم عاد إلى المكان الذى أنزلوه به .

وكان السلطان وكل به جماعة من الخاصكية يمنعون من يدخل إليه من الناس قاطبة ، ولا يمكنون أحدا من جماعة القاصد بخرج إلى الأسواق ولا يجتمع بأحد من الناس ، ثم انه فى هذه المدة ركب مرة وصحبته أزدمر المهندار فزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم عاد إلى المكان الذى أعد له .

ومن النكت اللطيفة ما أشيع بين الناس أن القاصد لما قابل السلطان أول مرة وصحبته رأس

أزبك خان ملك التتار والقوس العريض المقدم
ذكر ذلك ، فلما قرئت مطالعة الصفوى بين يدى
السلطان وجدوها مكتوبة باللغات الأعجمية ،
فأحضروا من قرأها وهو شخص شريف يقال له
الشيخ حسين من أبناء العجم ، ثم وجدوا ضمن
تلك المطالعة هذين البيتين ، الحمد لله ، ولما أرسل
الصفوى فى كتابه بهذين البيتين الى السلطان أرسل
الى سليم شاه بن عثمان أيضا بهذين البيتين وهو
يقول :

نحن أناس قد غدا شأننا

حب على بن أبى طالب

يعيينا الناس على حبه

فلعنة الله على العائب

فأجابه ابن عثمان عن ذلك :

ما عيبكم هذا ولكنه

بغض الذى لقب بالصاحب

كذبتمو عنه وعن ابنته

فلعنة الله على الكاذب

وأرسل يهدد أهل مصر لما قتل أزبك خان ملك
التتار بهذين البيتين وهما :

السيف والخنجر ريحانا

أف، على النرجس والآس

مدامنا من دم أعدائنا

وكأسنا جمجمة الراس

وكان لما حز رأس أزبك خان ملك التتار جعل
جمجمة رأسه كأسا يشرب فيها الخمر فى المقامات
كما قيل عنه .

وقد أشيع فى بلاد الصفوى بأن السلطان قد
اشتغل بما أنشأه فى الميذان من غرس الأشجار
وشتول أنواع الأزهار والرياحين ، فقصدوا ينكتون

عليه بذلك ، وهذا من نوع التهكم على السلطان ،
فأجبت عن ذلك بقولى :

بالسيف والخنجر نفنى العدا

وكم لنا فى الحرب من بأس

نسلب بالرعب عقول الورى

وعقلنا وافر فى الراس

وقد عمل فى ذلك جماعة كثيرة من الشعراء عدة
مقاطيع على أنواع مختلفة ، وقد قلت أيضا :

ندفع بالصدى كيد العدا

ونرفض الباغى الذى يأسى

ومن نراه زاغ عن شرعنا

جوابه بالسيف فى الراس

وقيل ان السلطان لم يعجبه شيء من هذه
الأجوبة التى أجابت بها الشعراء ، وانما أعجبه
قول صفى الدين الحلى فكتبه عن جواب الصفوى ،
وهو قوله :

ولى فرس للخير بالخير ملجم

ولى فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمى فانى مقوم

ومن رام تعويمى فانى معوج

وقلت أيضا بخلاف ما تقدم من المعنى من زيادة
فيها :

بالسيف والخنجر نفنى العدا

وكم لنا فى الحرب من بأس

وليس شرب الدم فى شرعنا

بجائز والذم للآسى

من يبغض الصديق أو صحبه

فذاك أشقى الخلق فى الناس

ان كان قد ضلت عقول لكم

فعقلنا الواقع فى الراس

ومن مخترعاتي قولي في أشكال الشطرنج ملتزما
القافة على المعنى بما تقدم :

عساكر الصفوى ان فرزنت
فرخهم مكشوف للناس
ونفسهم قد أوجست خيفة
من عزمنا مع شدة الباس
وفيلهم قد صار ناموسة
مذ قابل الأسد بأفراس
ودستهم نصباً على رقعة
ان ديدبوا مرمادهم خاسي
فان مشى من جيشنا يبدق
يسوت شهاب طايح الراس
وقولي أيضاً في مديح السلطان :
سلطان مصر لم يزل شأنه
على ملوك الأرض ذا باس
أعيذه من شر أعدائه
بسورة الفتح وبالناس
عسكره يوم الوغى طعنهم
فاق على طاعون عمواس
وان آتاه الخارج المعتدى
يجعله جسماً بلا راس
ينسى الورى طاعون عمواس
وقال الأشمونى :

يراعنا الرمح وقرطاسنا
صدر عدو منكر الباس
مدادنا من دمه خطنا
تاريخ طعن مذكر الناس
وقال ابن الحجار :

يا قائلاً أف على نرجس
أف على الباغي على الناس

فان خير الناس من لا يرى
شرب دم المسلم في الكاس
وللناصري محمد بن قانصوه بن صادق :
والعسد والحلم لنا حلة
حيكت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها
وذكرنا تاج على الراس
وقوله أيضاً :

نحن نجوم والسما ملكنا
يهدى بنا من ضل في الناس
كم من مريد صار من شهنا
شبه مريد وهو ذو باس
وقال الشرييني :

مغارس السنة بستاننا
تقطع منه هامة الراس
والدم لا يشرب في شرعنا
لكن فينا قوة الباس
والعلم ثم الحلم من شأننا
كذا الحجا كالجيل الراسي
وفي ميادين الوغى عزمنا
يعجب منه سائر الناس
وقوله أيضاً :

السب لا ينسب من شأننا
لكل سنى من الناس
وجيشنا كالرمل تعداده
ولم يرعنا بعشة الراس
وقال على الغزى :

نحن أسود الحرب غاباتها
رماحنا للطعن والباس

وخيلنا تسرع في سوقها
شدت لحرب المعتدى القاسى
وسيفنا الهندى رقا للوغى
يمسح للكف مع الراس
فدأبنا يوم لقتل العدا
ويوم للرجس والآس
والمجد لا ينسب الا لنا
مقامنا الأشرف عباسى
من خالف السنة فى شرعنا
رد على أعقابها خاسى
ولابن العاقل :

نلاوة القرآن ريحاننا
تنشق منه خير أنفاس
شرابنا الذكر به يرتوى
سبنا قلب غافل قاسى
والعدل والانصاف من دأبنا
من أجل ذا سدنا على الناس
تناؤنا بين الورى نشره
أذكى من الرجس والآس
والحمد لله على أننا
أهل العلا والأيد والباس
من أظهر الغدر لنا فالجفا
مننا له والسيف للراس
ومن آتانا مخلصا وده
له لدينا كل اينساس
وقال آخر :

صحابة المختار ساداتنا
وما على المحسن من باس
نزھتنا وصل طراد العدا
وسيفنا يقطع للراس

ومن أسا ييأس من عقونا
أف على الأيس والآسى
وقال الشريف العباسى :
وسنة المختار خير الورى
جنتنا من كل وسواس
العدل والانصاف ريحاننا
خل شذى الرجس والآس
وشربنا من صفو توحيدنا
ليس من الجرة والكاس
وشأنا الحلم على من جنى
وديننا صون دم الناس
وقال شهاب الدين البحرى المالكى :

السيف والخنجر ريحان من
يخشى من الضراء والباس
والعادل المنصف إذا الحجا
ريحانه الاحسان للناس
شرابنا الذكر بكاس الهنا
أف على جمجمة الراس
وقال الشيخ ناصر الدين بن الطحان :
أسد الوغى فرساننا كم نسقت
كأس المنايا باغيا آسى
ومن يزغ عن أمرنا طاغيا
نذقه مر الباس والكاس
وقوله أيضا :

شجعان مصرهم أسود الوغى
بقوة السطوة والباس
وفخرهم بالسيف والرمح قد
خص بهم عن سائر الناس

وقوله أيضا :

شم الرياحين يزيد القسوى
وشدة البطشه والباس
والفتك في الحرب هو القخر لا
لعق الدما كالكلب في الراس
وقال الفقيه موسى بن بقسماطة :

ان كان جبد السيف ريحانكم
وكاسكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعدائكم
أف عليكم أرذل الناس
نحن تشرفنا على غيرنا
بخدمة البيت فلا باس
أعداؤنا من تحت أقدامنا
وليس نخشى قط من خاسي

وقال الشيخ جمال الدين السلموني :

أف على أفك يا خارجا
حجاك محتاج الى الآس
ما أنت الا جعلى على
رفضك شم الورد والآس
ولنور الدين بن حشيش :

ان كان ضرب السيف ريحانكم
وكأسكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعدائكم
أف عليكم أرذل الناس
وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :
السمر والبيض غراس لنا
في وسط النمام والآس
وحلمنا ستر لمن قد جنى
ان لم يكن في الناس ذا باس

وقال محمود الحلي :

العز والسطوة ريحاننا
لا من شذى النرجس والآس
شرابنا التوحيد لا من دم
يشرب من جمجمة الراس
وقال اسماعيل :

خدمة بيت الله والمصطفى
كلاهما لى نوره كاسي
وملء ذاك الكاس توحيد من
شرفنا بالملك في الناس
وصرت في مصر عزيزا بها
لا أختشى من كيد خناس
كنانة الله فمن شأنها
أهلكه ذو الأيد والباس

وقد نظم في هذا المعنى جماعة كثيرة من فضلاء
العصر فوق المائتى انسان ، وقد جمعوا بين الغث
والسمين ، وهذا ما وقع عليه اختياري من هذا
المعنى بحسب ما تيسر لى من المقاطيع الرقيقة من
هذه الأجوبة والخنجر المقدم ذكر ذلك في أول
المقاطيع من هذا المعنى ، فمن ذلك قولى :

من عاب للنرجس والآس
أف عليه فى الورى آسى
ومن يكون السيف ريحانه
لا رافة فى قلبه القاسى
من كان شرب الدم من شأنه
وكأسه جمجمة الراس
فذاك كالكلب العقور الذى
لا يختشى فى الناس من باس

اتتهى ما أوردناه من هذا المعنى . ويقرب من
واقعة هذين البيتين اللذين أرسلهما الصفوى في
معنى : السيف والخنجر ريجاننا ، فقد تقدم أن
هلاكو ملك التتار لما استولى على بغداد وخربها
وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل سائر أمرائه .
فلما فعل ذلك ببغداد طمع في أخذ مصر فأرسل
كتابا الى سلطان مصر والى أمرائه ، وذكر فيه ألفاظا
في ذيل كتابه هذين البيتين وهما :

آين المفر ولا مفر لهارب
ولنا البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيئتنا الأسود وأصبحت
في يدنا الأمراء والخلفاء

وقال بعد ذلك :

ستعلم ليلى أى دين تداينت

وأى غريم بالتقاضى غريمها

وكان سلطان مصر يومئذ المظفر قطز المعزى ،
فلما سمع ذلك جمع العساكر ، وخرج الى هلاكو
بعد أن وصل الى أطراف البلاد الشامية فتحارب
معه ، فانكسر هلاكو كسرة مهولة وغنم منه عسكر
مصر أشياء كثيرة من سلاح ودواب وغير ذلك .
وقد أوضحنا ذلك في أوائل ابتداء الدولة التركية
في الجزء الرابع من التاريخ ، فالصفوى بالنسبة
الى هلاكو لا شىء ، وقد قال القائل :

لو كل من قال نارا أحرقت فمه

لما تفوه باسم النار مخلوق

وفي ربيع الآخر أمر السلطان بحفر الخليج ثانى
مرة ، ورسم للأمير أنص باى حاجب الحجاب بأن
يتوجه الى قناطر الأوز ويياشر حفر هذا الخليج
بنفسه ، فتوجه الى هناك وأقام به وضرب له

الخيام ، واهتم بحفر الخليج من القنطرة الجديدة
الى قناطر الأوز الى سد الخشب الذى عند ناي
وطنان ، فاحتفل بحفره الى أن كاد أن ينبع الماء
من أرضه وأحضر الجراريف والأبقار ... ولكن
حصل من هذه الحركة غاية الضرر وهو أن السلطان
رسم بأخذ خراج الحصص والرزق قاطبة التى
تروى من هذا الخليج ، فأخذوا منهم خراج سنة
كاملة وتحصل من هذه الجهة نحو من خمسين ألف
دينار على ما قيل ، فصرف منها البعض على حفر
الخليج وحمل الباقي الى الخزائن الشريفة وحصل
للمقطعين الضرر الشامل .

وفيه أمر السلطان بعمل جسر في خليج الزربية ،
فوضعوه عند قنطرة موردة الجبس ، فامتعت
المراكب من الدخول الى الزربية ، وحصل لسكان
الجزيرة الوسطى غاية الضرر ، ولم يسكن من
بيوتها في هذه السنة الا القليل وبارت من الكرى
الذى جرت به العادة ، وكانت تتراحم الناس على
كراها ولا تلحق ، وكان القائم في عمل هذا الجسر
ابن فرو شيخ جهات المطرية ، وقد حسن للسلطان
بأن يسد خليج الزربية من جهة بولاق ، ويصير
الماء يدخل بعزم من تحت قصر ابن العيني الذى
بالمشية ويدخل الى الخليج الناصرى ليملك الماء
في الخليج حتى تروى منه أراضى المطرية والبلاد
التي تحتها .

وفي يوم الثلاثاء خامسه كان ختام ضرب الكرة
بالميدان . فلما اتتهى ذلك أحضر السلطان ثيرانا
وكباشا يتساطحون قدامه ، ووقع في ذلك اليوم
خصمانية بين المماليك في لعب الرمح وكان قاصد
الصفوى حاضرا ، فلما انقضى أمر الكرة طلع
السلطان من الميدان الى الحوش وجلس بالمقعد
الذى أنشأه هناك ومد به أسمطة حافلة ، وكانت

الأمراء حاضرين ، وانشرح السلطان في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو خليج الزعفران وكشف على حفر الخليج الذي رسم به ، وكان معه جماعة من الأمراء المقدمين وبعض خاصكية . فلما نظر الى ما حفروه من الخليج لم يعجبه ، ومقت الأمير أنص باي حاجب الحجاب فيما صنعه ، ثم توجه من هنالك الى تربة العادل التي بالريداية فأقام بها الى بعد العصر ، وجرب هناك مكاحل ، ومد له بركات ابن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ثم ركب بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفي يوم الخميس رابع عشره قبض نائب الغيبة بالشرقية على شخص من العربان العصاة يقال له أحمد بن شكر ، وكان من شرار المفسدين ، فلمسا قبض عليه سلخ جلده وحشاه تبنا وأرسله الى السلطان ، فسر الناس لذلك فانه كان من كبار المؤذين وكان يشوش على المسافرين ففرح به كل أحد من الناس ، فكان كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفي يوم الأحد سابع عشره نزل السلطان أيضا وتوجه الى تربة العادل ، وجربوا قدامه مكاحل غير تلك المقدم ذكرها .

وفي ذلك اليوم توفي أيدكي دوادار سكين ، وقد بقى من الأمراء العشراوات ، وكان لين الجانب قليل الأذى ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره جلس السلطان في المقعد الذي بالميدان وسافت الرماحة قدامه وهم لا بسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحل في رجب ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان المعلم نمر الحسنى أحد المقدمين الألوفا

فساقوا أحسن سوق ، وكان قاصد الصفوى فتعجب من ذلك غاية العجب .

وفي هذا الشهر أمر السلطان بهدم خان ا وقد ملكه بطريق شرعى ، فلما هدمه أنشأه جديدا وجعل به الحواصل والدكاكين ، و تزخرفه جدا .

وفي أواخر هذا الشهر توفيت الريسة ا ريصة خوند الخاصكية ، وكانت من أعيان البلد ، وكانت لا بأس بها .

وفي جمادى الأولى ، في يوم الاثنين ثانيه ختام سوق الرماحة ، وخلع السلطان على والأربعة باشات على جارى العادة ، وكان مشهودا .

وفي يوم الجمعة سادسه خلع السلطان قاصد الصفوى وأذن له بالعود الى بلاده ، في باكر النهار ، ولم يعلم ما أجابه به السلطان جواب البيتين اللذين تقدم ذكرهما في م السيف والخنجر ريحانا ، ولم يكتب له شيء أجاب به الشعراء ، وفي مدة اقامته بمصر و السلطان جماعة من الخاصكية ومنعوا الاجتماع بالناس قاطبة .

وفيه قبض السلطان على المعلم على الص وأخيه المعلم أحمد والمعلم خضر المعاملين في ال فلما قبض عليهم وضعوهم في الحديد وسد بالعرقانة . وسبب ذلك أن ديوان الدولة ك غاية الانشحات واللحوم معطلة ، وانكسر للع نحو من ثلاثة أشهر لم يصرف فيها لهم لحو وقد جرى بسبب ذلك ما لا خير فيه ، وس الكلام على ذلك في موضعه .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره تسلسل النيل الزيادة بعد ما كان قد أشرف على الوقاء ، فر

السلطان لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجهها ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة ، فتوجه الى الروضة أنص باى حاجب الحجاب ووالى القاهرة ، فلم يشوشا على أحد من المتفرجين ، وناديا بالأمان والاطمئنان ، وأن أحدا لا يتجهر بالمعاصى ، وخرقا بعض خيام ، وكان يوما مهولا .

وسبب ذلك أن النيل كان قد أشرف على الوفاء ، وبقي عليه من الوفاء خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة أصبعين وتأخر عن الوفاء ثلاث أصابع ، ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر عن الوفاء يومئذ أصبعا واحدة فضج الناس من ذلك ، وأشيع بين الناس أن الروضة كثر فيها الفسق والمعاصى ... فعند ذلك رسم السلطان لحاجب الحجاب والوالى بكبس الروضة ، فتوجهوا الى هناك ، وكبسا على الناس الذين بالحيام ولم يفحشا كل الافحاش فى ذلك . وكان السلطان قبل ذلك توجه الى المقياس وصلى هناك ودعا الى الله تعالى بالوفاء ، ثم انه رسم للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، وقرأوا هناك ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، واجتمع هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغير ذلك من مشاهير الناس

ثم فى يوم الخميس ثانى عشره نزل السلطان الى المقياس ، فقدموا له الحراقة المعدة لكسر السد ، فنزل بها وتوجه الى المقياس ، فطلع من على القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، فأقام هناك الى بعد الظهر ، ومد هناك مدة حافلة ، ثم نزل من المقياس فى الحراقة وشق من بر الروضة . فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، ولا سيما كانت ليلة وفاء النيل وكانت الروضة فى غاية البهجة وهى محتبكة بالخيام ، فكان له يوم مشهود ، فاستمر شاققا فى

البحر حتى طلع من عند قصر ابن العينى . فلما طلع الى القلعة أوفى النيل فى تلك الليلة ، وكسر فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى الموافق لخامس عشر مسرى ، فاستبشر الناس بنزول السلطان الى المقياس وكونه أوفى النيل تلك الليلة بقدمه الى المقياس .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو قناطر الأوز وكشف على الحفر الذى حفره أنص باى حاجب الحجاب ، وشق من بطن الخليج فلم يعجبه القطع فأمر بإعادته ثانيا ففعلوا ذلك . فكان كما قيل فى المعنى :

مولاي ان النيل لما زرتة
حيالك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرخی عليه الستر لما جئته
خجلا ومد تضرعا بالأذرع

وكان النيل قد توقف عن الوفاء على أصبع واحدة فأوفى تلك الليلة وزاد عن الوفاء أصبعين . وكان مع السلطان لما نزل الى المقياس الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والعشراوات . فلما وفى النيل علقوا الستر فى شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، ثم رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فنزل فى الحراقة وأتى للمقياس وخلق العمود ، ثم توجه الى فتح السد ، وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو فى الأتابكية فأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة ولكن لم يصل فى ذلك الى من تقدمه من الأتابكية . فلما فتح السد قدموا له فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم طلع الى القلعة وخلع عليه السلطان خلعة حافلة على العادة . وقد سر الناس بوفاء النيل قاطبة

بعد ما كان قد تسلسل في الانكسار وتشحطت
الغلال فجاء الفرج من عند الله تعالى ، فكان كما
قيل في المعنى :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

ومما وقع في يوم فتح السد من الوقائع المهولة
أن الناصرى محمد بن العلاء على بن خاص بك
توجه الى دار عند قنطرة سنقر ليتفرج هناك على
قتال الزعر ، فلما قعد في تلك الدار اجتمع فوق
سطحها نحو من مائتى انسان بسبب الفرجة ،
فهجم عليهم طائفة من المماليك ، وطلعوا فوق
السطح فوقع بهم على من في الدار فقتل من المماليك
سبعة أنفس وقتلت امرأة صاحبة الدار وجارياتها
ومن كان عندها من العيال ، ثم وقع سقف الدار
على الناصرى محمد بن خاص بك فتصلب عليه
الخشب هو وولده فلم يضره ذلك لكن حصل له
تشویش في بعض أعضائه وانزعاج وكانت سلامته
على غير القياس هو وولده ، ومات من جماعته
شخص يسمى أحمد كنيئوا وكان من أولاد الناس
وهو حوالیه يتقاضى أشغاله وكان لا بأس به ،
فرجع ابن خاص بك الى بيته وهو محمول ودفن
أحمد كنيئوا في ذلك اليوم ، وكان عدة من قتل
في ذلك اليوم تحت الردم سبعة عشر انسانا ما بين
رجال ونساء ، وكانت حادثة مهولة لم تكن لأحد
في اكتلاء والمقدر كائن ، كما يقال في أمثال الصادح
والباعم حيث يقول :

والمرء لا يدري متى يمتحن
فانه في دهره مرتين

وقوله أيضا :

وليس في العالم ظلم جارى

اذ كان ما يجرى بحكم البارى

وفيه أفرج السلطان عن أبى البقا ناظر الاسطبل
بعد ما قاسى شدائد ومحنا وضرب بين يدي السلطان
وصودر ، فطلع علاء الدين ناظر الخاص وتسلمه
من قدام السلطان وضمنه في ثمانية آلاف دينار ،
فخلع عليه السلطان ونزل الى داره واستمر يورث
ما قرر عليه من المال .

ومن الوقائع أن السلطان قبل وفاء النيل أمر
يعمل جسر على خليج الزربية من عند قنطرة موردة
الجبس ، حتى يحوش الماء ويدخل الى الخليج
الناصرى وتروى منه جهات المطرية . فلما صنع
هذا الجسر حصل لسكان الزربية غاية الضرر ،
وامتنعت عنها المراكب من نحو بولاق ، وصار ماء
الخليج راكدا ، فلم يسكن بالزربية بيت في هذه
السنة ولا عمل بها مقصف ولا فتح بها دكان وآل
أمرها الى الخراب . وكان القائم في عمل هذا
الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية حتى يحوش
الماء من الخليج الناصرى ، وكان النيل في هذه
السنة عاليا فلم يحتج الى عمل هذا الجسر .

وفي هذا الشهر منع السلطان جماعة من المباشرين
ألا يسكنوا في بركة الرطلى ، وضيق عليهم في
ذلك ، وقال لهم : « أنتم تضيعون مالى في بركة
الرطلى فلا يسكن أحد منكم بها » ، فلم يسكن بها
أحد من المباشرين في هذه السنة حتى ولا القضاة
فكانت بركة الرطلى في هذه السنة في غاية الانهمال
وقلة البهجة ، حتى ولا بيوت الجسر لم يسكن بها
الا القليل .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد سد فم
البركة ويمنع المراكب من الدخول اليها ، فحصل
للناس غاية المشقة بسبب هذه الاشاعات ، فلم يكن

لهذا الكلام صحة ، ولكن لم يسكن بها أحد من المباشرين في هذه النيلية . وقد تقدم ما أشيع من أن الملك الظاهر جقمق أمر بسد خوخة باب الجسر ومنع الناس من سكنته ، فسدت خوخة باب الجسر وأقامت وهي مسدودة أياما حتى تكلم ناظر الخاص يوسف مع السلطان في أمرها فرسم بفتحها على العادة .

وفي يوم الخميس تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعته ، وأوكب له في الجوش ، وجلس على المصطبة التي أنشأها عوضا عن الدكة بالجوش .

وفي يوم الأحد رابع عشرين مسرى زاد الله في النيل المبارك بعد الوفاء ثمانى أصابع دفعة واحدة فعد ذلك من النوادر ، وقد بلغ الى ثمانى عشرة ذراعا قبل مضى مسرى .

وفي ليلة الثلاثاء رابع عشرينه أشيع بين الناس أن المعلم على الصغير معامل اللحم قد تسحب من السجن المسمى بالعرقانة التي هي من داخل الجوش السلطاني ، قيل انهم بقبوا حائط السجن ونزلوا في حبال الى تحت القلعة ، وكان بالعرقانة جماعة من المعاملين وهم المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد والمعلم خضر وأخوه المعلم محمد ، فأما المعلم على الصغير لما تدلى في الحبل انقطع به فنزل على ضلعه فانكسر فأغمى عليه ، واستمر باركا مكانه حتى قبضوا عليه . ثم في صبيحة ذلك قبضوا على المعلم خضر والمعلم أحمد أخى على الصغير وآخرين منهم ، فلما عرضوا على السلطان وبجهم بالكلام واشتد غضبه عليهم ورسم بتسليمهم الى الوالى .

ومما وقع للسلطان في أمر المصادرات من الغرائب ، أنه في أوائل دولته قبض على شموال اليهودى الصيرفى وعاقبه وعصره هو وزوجته ،

واستخرج منه فوق الخمسمائة ألف دينار ، حتى أخذ رخام بيته الذى في حارة زويلة فوضعه في مدرسته ، واستمر يعاقب شموال هو وزوجته حتى ماتا تحت العقوبة .

وفي يوم الثلاثاء المذكور قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده ووكل بهما في الجامع الذى بالجوش ، وكان شمس الدين بن عوض رأس المرافعين في المباشرين قاطبة وهو غير محب للناس .

وفي يوم السبت ثامن عشرينه فيه ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، وركبوا وطلعوا الى الرملة وهم بزموط وكبورة . وكان سبب ذلك أن اللحم الذى كان يصرف للمماليك في كل يوم تعطل بواسطة المعلم على الصغير والمعلم خضر بسبب ما تقدم لهما ، وكان العليق أيضا معطلا ، فما طاق المماليك ذلك فثارت الفتنة من كل جانب وركبوا على السلطان ، وقصدوا قتل الوزير يوسف البدرى فهرب وغيب من بيته ، ثم ان المماليك طلبوا من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار ، وكان للمماليك مدة يقصدون الوئوب على السلطان فما صدقوا بأمر اللحم والعليق فجعلوا ذلك حجة .

فلما ثارت هذه الفتنة اضطربت أحوال القاهرة ووزع الناس قماشهم وغلقت الأسواق والدكاكين خوفا من النهب كما فعل المماليك قبل ذلك من أمر النهب كما تقدم لهم ، فبات الناس على وجل .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك خشى السلطان من اتساع الفتنة فنادى للمماليك بأن ينفق عليهم لكل مملوك مائة دينار في أول شهر رجب ، فلما سمع المماليك ذلك خمدت الفتنة قليلا ، وسكن الحال بعد ذلك الاضطراب .

وفي هذا الشهر أفرج السلطان عن القاضى

شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب الممالك ، وكان له مدة وهو في الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد بن صلاح الدين وكانا في الحديد وهما في الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن علم الدين المتحدث في الخزائن الشريفة ، وأفرج عن المعلم يعقوب اليهودي وبانوب النصراني الكتائب في الخزانة ، فلما أفرج عن هؤلاء وزع عليهم أربعمائة ألف دينار ، فقرر على عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد خمسين ألف دينار ، وقرر على شرف الدين الصغير عشرين ألف دينار ، وقرر على علم الدين خمسين ألف دينار ، وقرر على المعلم يعقوب اليهودي مائة وأربعين ألف دينار ، وأفرج عن شمس الدين بن عوض وعن ولده ، وقرر على شمس الدين بن عوض مائة ألف دينار ، وقرر على بانوب النصراني عشرين ألف دينار ، وهذا على ما أشيع بين الناس ان كان صحيحا ، فقليل كتبوا خطوط أيديهم بذلك .

وفي جمادى الآخرة ، في يوم الخميس ثالثه ، نزل السلطان من القلعة وشق من القاهرة وقدامه ولده ، فزينت له القاهرة ، واستمر حتى نزل في جامع الذي أنشأه في الشراشيين ، فكشف عليه وعلى المدرسة ، فمد له هناك الأمير خير بك مدة حافلة ، وأنعم في ذلك اليوم على صوفية المدرسة لكل واحد منهم ، وأنعم على البوابين والفراشين وأيتام المكتب ، ففرق في ذلك اليوم نحو من خمسمائة دينار بأشرفي ، وأنعم على مشايخ الدرس لكل واحد بعشرة أشرفية ، وحضر قدامه قراء البلد والوعاظ ، وكان له موكب حافل ، ومشت قدامه الأمراء الرؤوس النوب بالعصى من باب زويلة الى

الجامع ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له الزغاريت من الطيقان ، ولم يقع له من حين عمر الجامع والمدرسة أنه نزل وكشف على عمارتهما سوى هذه المرة ، وكان له يوم مشهود .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما طلع الى المدرسة تزاحمت الناس على سلم المدرسة فوقق الاقريز الرخام الذي كان على السلم فانعطب من تحته شخص كان تحت السلم فانكسرت رجله ، وحصل لجماعة آخرين الضرر الشامل بسبب ذلك . وكان معه من الأمراء الأتابكي سودون العجمي ، وأركماس أمير مجلس ، والأمير طومان باي الدواداري رأس نوبة النوب ، والأمير طومان باي الدواداري قريب السلطان ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية .

وفيه توفي شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له أزيك الشريفي ، وكان يعرف بأزيك اليهودي ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم السبت خامسه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو المطرية ، ثم رجع ودخل من باب النصر وأتى الى خان الخليلي وكشف عن العمارة التي أنشأها هناك ، وقد ملك خان الخليلي وهدمه وأنشأه عمارة جديدة .

وفي يوم الاثنين رابع عشره عمل السلطان الموكب في الحوش بالشاش والقماش وخلع على الأتابكي سودون العجمي خلعة الأنظار ، وكذلك سودون الدواداري رأس نوبة النوب .

وفي يوم الخميس سابع عشره عرض السلطان المعلم على الصغير وأخاه المعلم أحمد والمعلم خضر وكانوا في الترسيم مدة ، فلما عرضوا على السلطان قرر عليهم اثني عشر ألف دينار وألزمهم بأن يحضروا ذلك في تلك الساعة وكان يوم الجامكية ، فقالوا

ما تقدر على ذلك ، فحنق السلطان منهم ، فأمر
بضربهم بالمقارع فضربوا ضربا مبرحا حتى أشرفوا
على الموت ، ولم يقدر أحد من الأمراء يشفع فيهم ،
وقد قيل في المعنى :

ومن خدم السلطان أكرم نفسه

ولكنه عما قليل أهانها

كمن عبد النيران لم ينتفع بها

ولم يلق الا حرها ودخانها

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وتوجه
الى نحو المطعم السلطاني ، فجربوا هناك قدامه عدة
مكاحل فصح منها بعض شيء ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرينه توجه السلطان الى
سد أبي المنجا ففتح بحضرته ، وكان يوما مشهودا ،
ثم توجه من هناك ونزل في الحراقة الى نحو المقياس
فمد له هناك الزيني بركات بن موسى المحتسب مدة
حافلة فأقام هناك الى بعد الظهر ، ثم نزل في الحراقة
وأتى الى بولاق فكشف عن المراكب التي أنشأها
هناك ، ثم عزم عليه الأمير خاير بك الخازندار في
السبكية التي ببولاق فمد له هناك مدة حافلة ،
فأقام هناك الى بعد العصر فركب وشق من على
جزيرة الفيل من بين الغيطان ، واستمر شاققا حتى
طلع من على قنطرة باب البحر وشق من المقس ، ثم
أتى الى باب القنطرة وكشف على الربيعين اللذين
أنشأهما هناك ، ثم شق من سوق مرجوش الى
القاهرة وخرج من باب زويلة وطلع من هناك الى
القلعة ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم السبت سادس عشرينه رسم السلطان
بتوسيط تسعة أنفار ، منهم مشايخ عربان ومنهم
جماعة كانوا نقبوا حائط المقشرة وقصدوا التسحب
من هناك فأدركوهم وقبضوا عليهم ، ثم وسطوهم
في أماكن شتى .

وفي هذا الشهر عم النيل أراضى الديار المصرية
وتطنبت منه الحلجان ، وكانت البهجة في هذه السنة
للخليج الحاكى لكون أن السلطان على قنطرة
الخروبي وقنطرة باب القنطرة ، وصار يدخل من
تحتهما المراكب المسترة بالدلور ، فصار الناس
ينزلون في المراكب ويشقون الخليج الحاكى الى
عند قنطرة السد ويرجعون ، فحصل للمتفرجين
بهجة ثانية . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتوبى في
هذه الواقعة بديعية كلها غرر ، وذكر فيها ما جده
السلطان من قناطر وعمائر وغيطان وغير ذلك من
التذكار الحسن بالديار المصرية وغيرها من الجهات ،
كما سيأتى الكلام على ذلك في القصيدة التي
نوردها هنا وهى هذه :

قد جدد الغورى سلطاننا

قناطر للأجر والخير

أكرم به من ملك أشرف

مؤيد بالعز منصور

على الخليج الحاكى وضعها

قد شاع في طول وتقدير

قناطر الوز لقد أقلت

تزهو بشنين وفرفور

كذا بنى وائل معمورة

بأمره من غير مأمور

وجدت قنطرة بعدها

بالكحل قد ضاءت من النور

قنطرة الحاجب تجسديده

والعين للحاجب ذو نور

فاق على الخروب فيما بنى

من ضيق بنيان وتحقير

وكان في تجديدها حكمة

لم يحتكمها صاحب السور

قنطرة الباب ترى فوقها
بابا بها يسمى بتقدير
على بناها صار في وسعة
يدخل فيها كل شـخـتور
بعده القلع وان شاء في
مستر فيها بدلور
لا يقطع الموصول مع منشد
غنى على دف وطنبور
وكل عواد نرى عوده
صحة جنكلى وسنطير
ناصبها أعرب في رفعها
مركب في الكسر مجرور
والموسكى صلح ببيانها
بسرعة منه على الفور
كذا حسين صار مع سنقر
بناها في مصر كالطور
وباب خرق حار لما رأى
قنطرة فاقت على السور
طقزدمر شيد بنيانه
كذا عمر شاه بعد تأخير
وكم سباع قادها نصره
تسلسلت من غير تكبير
ومن بكى في السد يوم الوفا
يجبر قلب غير منكور
فهو نهار الكسر مع جبره
ما بين مكسور ومجبور
وجسر البحر بزرية
فجاء جسر غير مشكور
وانقطعت لذات سكانها
من مقلع يأتى ومحدور

وجدد المقياس حتى غدا
يزهو بمنظوم ومنتور
ومجرة الميدان انشاءه
عقودها دور على دور
ميدانه يحكى لنا جنة
مساكن الولدان والخور
أغصانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصود
أطياره في دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور
وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزر زور
وبلبل هيج بلبانها
وكل قمرى وشحرور
ومن هزار بات مع الفه
مطوقا بالوصل مسرور
وفاخت في شكره دائما
في ضيقة الأقفاس مأسور
وبجرة هب عليها الهوا
جعلها تنقيش تصوير
في جمع تصحيح برى ماءها
وبالهوا في جمع تكسير
وعمر القلعة صارت به
أماكن عامرة الدور
وقد حوى في مصر من جامع
فرد بذكر الله معمر
والقبة الزرقا وصهرجهما
والماء والكيان والزير
كأن برد الثلج في مائه
لكل عطشان ومحروور

وفى طريق الحج كم منهل
 عمره قصدا الى الخير
 وعين بازار جرى ماؤها
 تجديدها أمنا من الغور
 فالله ينصره ويبقى لنا
 أيامه أمنا بلا جور
 وصل يا رب على المصطفى
 منقذنا من كل محذور
 صلاة زيتون يرى شرها
 أطيب من مسك وكافور
 والآل والأنصار مع صبيه
 أهل الثنا والفضل والخير
 ما أقبل الصبح بأنواره
 وأدبر الليل بديجور
 * * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — توجهت طائفة
 من المماليك الجلبان الى شوبة السلطان ونهبوا
 أشياء كثيرة من الشعير ، فعز ذلك على السلطان ،
 وكانت المماليك متفحمة على الشر ، وأشيع أمر
 الركوب وكثر القال والقليل بين الناس بسبب ذلك
 وفى يوم الجمعة ثلثه ، الموافق لسابع عشرين
 توت القسطنطين ، ثبت النيل المبارك على تسع أصابع
 من عشرين ذراعا ، وكان نيلا حمدا لكن كان حب
 البرسيم غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل
 أردب ، وارتفع سعر سائر الغلال ، واستمر النيل
 ثابتا الى أواخر بابه .

وفى يوم الأحد خامسه ، قوى أمر الاشاعة
 بركوب المماليك ووزع التجار ما كان عندهم من
 القماش وغلقت الأسواق قاطبة ، وسبب ذلك أن
 السلطان رجع عن أمر النفقة بعبد أن لادى فى

القاهرة للعسكر بأن النفقة مع جامكية شهر رجب
 فلما رجع عن ذلك أشيع أمر الركوب .
 وفى يوم الأحد خامسه : عرض السلطان
 المماليك فى الحوش وهم مماليكه الجلبان فقط ،
 فلما عرضهم وبجهم بالكلام وقال : أنا أخلع نفسى
 من السلطنة وولوا من تختارونه ، فأقام يعرض
 المماليك الى بعد العصر ، قال الأمر الى أن وقع
 الاتفاق على أنه ينفق على مماليكه المشتريات فقط .
 وأن النفقة تكون أربعين دينارا . فامتنع المماليك
 من ذلك ، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان بأن
 تكون النفقة خمسين دينارا وهو يقول : « ما أقدر
 على ذلك » ، فانفصل المجلس على أنه ينفق عليهم
 لكل مملوك خمسين دينارا ، ثم ان السلطان شرع
 فى بيع أملاك ورزق مما كان أوقفهم على مدرسته
 بسبب تحصيل المال لأجل النفقة ، وأظهر أن الخزان
 مشحونة من المال وأنه عاجز عن تحصيل المال .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشره فيها خسف جرم القمر
 خسوفا فاحشا ، وأقام فى الخسوف نحو من
 خمسين درجة حتى أظلمت الدنيا ، ولم ينجل الى
 قريب التسبيح ، وفى واقعة حال الخسوف يقول
 بعض الشعراء :

كأنما البدر وقد شانه
 خسوفه فى ليلة البدر
 وجهه مليح حسن وجهه
 جارت عليه ظلمة الشعر

ثم ان السلطان رمى على التجار قاطبة شاشات
 وأزرا وأثوابا صوفا ، ورمى على السوق زيتسا
 وعسلا وزيبيا وأصناف بضائع يحسرون فيها الثلث .
 وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ،
 فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت وهى مغلقة
 أياما ، ثم ان السلطان رمى على بعض جماعة من
 الأمراء المقدمين رزق مشترياته ، وحشهم فى سرعة

قبض ثمن ذلك ، ورمى على جماعة من أعيان أولاد الناس قبل ذلك وحثهم في سرعة قبض ثمن ذلك . ومن جملة أولاد الناس الناصري محمد بن خاص بك ، وغيره من أولاد الناس أيضا وحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذه النفقة ، ثم ان السلطان أنفق على ممالكه المشتريات فقط ولم يعط الممالك القرائصة شيئا ولا ممالك الأشرف قايتباي ولا الممالك السيفية ، فأنفق على ممالكه لكل مملوك خمسين دينارا ، فعز ذلك على الممالك القرائصة وكثر القال والقييل في ذلك ، وأشبع أمر الركوب على السلطان بسبب ذلك ، فلم يطلع من يدى الممالك القرائصة شيء وراحت على من راحت ، وأكمل السلطان النفقة على ممالكه ولم يعط القرائصة شيئا .

وفي يوم الأحد سادس عشرينه تشحط اللحم من القلعة وأقام أياما لم يصرف للعسكر لحم سوى للممالك الذين في الطباق فقط ، فنهب الممالك القرائصة اللحم وهو طالع الى القلعة ففعلوا ذلك مرتين في هذا الشهر

وفي شعبان — في يوم الخميس مستهله — خلع السلطان على الأمير يوسف الناصري ، الذي كان نائب حماد وولى نيابة ملطية وحماة ونيابة قلعة حلب ثم حضر الى الديار المصرية ، فقرره في شادية الشراب خاناه ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين توجه الأمير أبرك مملوك السلطان الى حلب وأعيد الى نيابة قلعتها كما كان ، وذلك قبل أن يلى نيابة طرابلس .

وفي هذا الشهر تشحط اللحم البقرى والضاني أيضا واضطربت أحوال القاهرة ، وكان سبب ذلك أن السلطان قد رمى على الجزارين نيران الأكرة

وأقامها عليهم كل ثور بأربعين دينارا ، فهرب الجزارون من هذه الرماية وتعطل بيع اللحم البقرى والضاني ، فأقامت المدينة معطلة أياما حتى تراجع الأمر قليلا ، وكانت لحوم العسكر معطلة نحوا من أربعة أشهر لم تصرف بسبب ما جرى للمعلم على الصغير والمعلم خضر كما تقدم .

وفي يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو تربة العادل وجرب هناك مكاحل ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان وشق من القاهرة وتوجه الى خان الخليلي وكشف عن عمارته التي أنشأها هناك ، ثم توجه الى باب الفتوح وكشف عن عمارة الأتابكي قرقماس التي أنشأها هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الثلاثاء عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو بولاق وكشف على المراكب التي عمرها هناك ، ثم نزل في الحراقة وتوجه الى المقياس وجلس في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، ثم صلى العصر وعدى من المقياس الى بر مصر وطلع الى القلعة وشق من الصليبة في موكب حافل .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه ، الموافق لسابع عشر هاتور القبطي ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

ثم في يوم السبت صبيحة ذلك نزل السلطان وتوجه الى نحو مدرسته التي بالشرابشين ، فمد له هناك الأمير خير بك الخازن دار مدة حافلة فأكل منها ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أنعم السلطان على الأمير أزبك المكحل بتقدمة ألف كما كان أولا ، وكان من حين شفع

فيه قرقد بك بن عثمان وحضر من دمياط وهو
طرخان ، وأنعم على قانصوه الفاجر بتقدمة ألف
أيضا .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد سماطا
حافلا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، وعدى من
هناك الى نحو بولاق فكشف على المراكب ثم عاد
الى القلعة .

وفي رمضان — وكان مستهله يوم السبت —
طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع
الوزير يوسف البدرى الى القلعة والزينى بركات
ابن موسى المحتسب ، وطلعوا باللحم والخبز
والدقيق والسكر وهو مزفوف على رءوس الحمالين
وكان السلطان فى الميدان فخلع عليهما ، وكان يوما
مشهودا .

وفيه وزع السلطان على اليهود السمرة نحوا من
سبعين ألف دينار فتشكوا من ذلك ، وسبب توزيع
هذا المال أن المعلم يعقوب اليهودى لما صادره
السلطان قرر عليه مائة ألف دينار فشكا من ذلك
وأظهر العجز ، فرسم السلطان بأن طائفة اليهود
السمرة والربان تساعد المعلم يعقوب فى هذه
المصادرة ، فوزعوا ذلك على السمرة والربان
والقراء وجماعة من التجار اليهود ، فحصل لهم
الضرر الشامل قاطبة ، وقيل تضاعفت هذه المصادرة
الى دون المائة ألف دينار .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من البلاد الحلبية
والشامية بأن الموت قد كثر فى الأبقار فمات منها
ما لا يحصى ، وقد وقع مثل ذلك بالديار المصرية
فى أيام الخلفاء الفاطميين .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان من القلعة
وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطانى

وجلس على المصطبة التى هناك ، فرموا قدماه رماية
بالطيور والكلاب وانشرح فى ذلك اليوم ، وسير
الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، ثم عاد الى
القلعة من يومه .

وفى يوم الخميس ثالث عشره حضر الى الأبواب
الشريفة قانصوه خازندار الأمير أزدمر الدوادار
الكبير كان ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا فى
نيابة عينتاب فسعوا عليه حتى عزل ورجع الى مصر
وهو معزول ، بعد أن سعى فى ذلك بسال له صورة
فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

وفيه تغير خاطر السلطان على الرئيس كمال
الدين بن شمس المزين ، وكان من خواصه ، فمنعه
من الطلوع الى القلعة ورسم له بأن يتوجه الى
بلادهم ويقيم بها .

وفى يوم الأحد سابع عشره توفى الأمير عبد
اللطيف الزمام وكان أصله من خدام الأشرف اينال
وكان دينا خيرا لين الجانب قليل الأذى ، وكان
قد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر
وكان رومى الجنس أبيض اللون طويل القامة
نحيف الجسد .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره تغير خاطر السلطان
على القاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ومستوفى
الخاص ، فوضعه فى الحديد وعراه من أثوابه
وكشف رأسه وكان ذلك فى قوة البرد ، فسلمه الى
الوالى فى ذلك اليوم ونزل من القلعة وهو ماشى
عريان مكشوف الرأس فى الحديد ، وحلف السلطان
بحياة رأسه أنه لا يلبس أثوابه ولا عمامته حتى
يغلق ما قرره عليه من المال ، ورسم للوالى بأن
يقعده على البلاط من غير فرش ، وهذه ثانى نكبة
وقعت لأبى البقاء مع السلطان وكان مظلوما مع
السلطان فى هذه الواقعة ، فإن أمره كان رائجا
وله دوايب قصب بدمياط تسد ما عليه فوضع

السلطان يده على الدواليب وطلب منه بعد ذلك
المال الذي قرره عليه فحصل له الضرر الشامل
بسبب ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

يا من يرى خدمة السلطان عمدته

هل أرت ذلك الا الهم والهم

فقلبه وجل والنفس خائفة

وعرضه عرض والدين ملتئم

هذا اذا كان في أيام دولته

فكيف بالمرء ان زلت به القدم

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر وكانت
في غاية الانشحات من تعطيل المباشرين .

وفي يوم السبت ثاني عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة شخص من أمراء عربان الشام يقال له
محمد بن ساعد ، وكان من العصاة لم يدخل قط
تحت طاعة السلاطين ولا نواب الشام ، وكانوا
يخشون من بأسه ، فحضر في دولة الغوري الى
الديار المصرية وصحبته مقدمة حافلة الى السلطان
ما بين مال وخيول وسلاح وغير ذلك ، فعد حضور
ابن ساعد الى مصر من جملة سعد السلطان قانصوه
الغوري وكيف دخل تحت طاعته ، وقد قيل في
المعنى :

أياميك العصر لا زلت في

عز وتأييد ونصر وفي

صارمك المشهور ماضي الشبا

ونورك بالسعد لا ينطفى

وفي يوم الأحد ثالث عشرينه نزل السلطان من
القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى المقياس وأقام
به ساعة ، ثم نزل في الحراقة وأتى الى بولاق
وكشف على المراكب التي عمرها هناك ، ثم ركب
من هناك وأتى الى قنطرة الحاجب فطلع من عليها
ودخل من باب الشعرية ، ثم أتى الى باب القنطرة

وكشف على الربع الذي عمره على القنطرة من
الجهتين ، وخرج من باب القنطرة وشق من سوق
مرجوش ، ثم شق من القاهرة وطلع من بابي زويلة
الى القلعة ، وكان في نفر قليل من العسكر ، ومشى
الى ورووس النوب قدومه بالعصى والزيني
بركات بن موسى المحتسب من بولاق الى القلعة .
وفي يوم الأربعاء سادس عشرينه نزل السلطان
وسير الى جهة المطرية ثم عاد الى القلعة .

وفي ذلك اليوم كان ختم البخاري بالحوش
السلطاني في خيمة كبيرة وحضر القضاة الأربعة
ومشايع العلم ، وفرقت الصرر على من له عادة من
الفقهاء ، وخلع على القضاة الأربعة ومن له عادة
من العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفي هذا الشهر كان سعر الحلوى المشبك
والمنفوش في غاية الارتفاع بموجب غلو السكر
والفستق فرفعت هذه القصيدة الى القاضي بركات
ابن موسى المحتسب بمعنى أنواع الحلوى وذكرت
فيها أشياء لطيفة فمن ذلك قولي :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا

بأنواع حلوى نشرها بتضوع

حكمتها شفاه الغانيات حلاوة

ألم ترني من طعمها لست أشبع

فلا عيب فيها غير أن محبها

يبدد فيها ماله ويضيع

فكم ست حسن مع أصابع زينب

بها كل ما تهوى النفوس مجمع

وكم كعكة تحكى أساور فضة

وكم عقدة حلت بها البسط أجمع

كفوف من الحلوى غدت مبسوطة

لكم بدعاء صالح تنزع

(١) الشطرة مكسورة .

وكم قد حلا في مصر من قاهرة
كذلك المشبك وصله ليس يقطع

وفي ثوبه المنفوش جاء بروثق

فيا حبذا أنواره حين تسطح

وقد صرت في وصف القطايف هائما

تراني لأبواب الكنافسة أقرع

فيا قاضيا بالله محتسبا عسى

ترخص لنا الحلوى نطيب وترتع

وفي يوم السبت تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص
خلع العيد على السلطان وهي مزفوفة على رؤوس
الجمالين ، وكانت في هذه السنة في غاية الوحاشة
وهي من القماش القطنيات الملون التي مثل
العنكبوت وغالبها بلا طرز ، ولم يعطوا لأحد عاداته
غير أصحاب الوظائف فقط ، فجل عند الناس كسر
خاطر وراحت على من كان له عادة بخلة في العيد ،
وكان ناظر الخاص في هذه السنة في غاية الانشحات
والمطل للناس .

وفي يوم الأحد ، وهو الثلاثون ، غمى الهلال
ولم ير ، وكان في أوائل رمضان جاءت الأخبار
بأن أهل الاسكندرية ودمياط والمحلة قد صاموا
يوم الجمعة ، فكان يسكن أن يجيء رمضان ناقصا
بناء على أن غالب البلاد قد صاموا يوم الجمعة ،
وكان الصيام في مصر يوم السبت ، وكان ذكر في
التقاويم على أن رمضان يجيء ناقصا فجاء تماما ،
فقامت الأثلة على قاضي القضاة الشافعي كمال
الدين الطويل وقالوا : « قد فطرنا في أول رمضان
وصومنا في يوم العيد » . وقال :

يا قاضيا بات أعسى عن الهلال السعيد

أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد

وقال آخر :

ان قاضينا لأعسى أم على عمد تعامى
سرق العيد كان ال عيد من مال اليتامى

وقد وقع مثل ذلك في أيام الهروي وكان سببا
لعزله من القضاء .

وفي شوال ، كان مستهل الشهر يوم الاثنين ،
وكان موكب العيد حافلا ، فخلع على الأمراء
وأرباب الوظائف . وكانت الخلع سبة من السبب ،
وكان القاضي كاتب السر محمود بن أجا متوعكا
في جسده وكان له مدة وهو منقطع في داره فحصل
له الشفاء ، فدخلت اليه في يوم العيد وسلمت عليه
وهنيته بالعيد وبالشفاء وقدمت اليه هذين البيتين
وهما :

قد عم بالعيدين فرحات الوري
بشفائكم وبعيد فطر أشرفا

فالشكر لله الذي عافاكمو
لما توسلنا بآيات الشفا

وكان حاضرا في المجلس جماعة من الأعيان
فطربوا لذلك ، ولى فيه قبل ذلك من المديح وقد
صرحت باسمه بما وافق التورية في المعنى ، وهو
قولي :

يا قاضيا شأنه الأسرار يكتمها
لا يعدم الناس جودا فيك موجود

فالناس تحسد من فعل تسود به
وأنت في سائر الأفعال محمود

وفي يوم السبت سادسه نزل السلطان وتوجه
الى المقياس ، وصنع له الزينى بركات بن موسى
المحتسب طواجن بوزى ومأمونية وحلوى وأشياء
مؤثقة ، فأقام هناك الى بعد العصر ، وانشرح في
ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه نزل السلطان وتوجه الى
خان الخليلي وكشف على عمارته التي أنشأها هناك

ثم عاذ الى القلعة من يومه ، وقد أضر الناس كثرة نزول السلطان وتعطلت أحوال الرعية من عدم المحاكمات فى أشغال الناس وقد قلت العلامة على المراسيم ، فكان السلطان يفعد تحوا من أربعين يوما لا يمسك فيها قلما ، ولا يعلم على مرسوم ، حتى عزت العلامات جدا ، وبيعت ، وكان السلطان يكره المحاكمات ويكره العلامات على المراسيم ، وكان دأبه الركوب فى كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما .

وفى يوم الاثنين ثامنه حضر الى الأبواب الشريفة أيرك نائب طرابلس ، وهو من ممالك السلطان ، وكان ولى نيابة قلعة حلب ، ثم حضر الى القاهرة فى سنة احدى عشرة وتسعمائة ، فلما حضر قرره السلطان فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ولده لما توفى ، فأقام بمصر تحوا من شهر وعاد الى حلب وقرر فى نيابة قلعتها ، ثم ولى نيابة طرابلس فتغير خاطر السلطان عليه فأرسل خلفه فحضر ، فلمسا قابل السلطان لم يخاطبه ولا خلع عليه ، ثم نزل فى مكان أعد له

وفى يوم الاثنين خامس عشره جلس السلطان فى الميدان جلوسا عاما ، ثم عرض كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل الشريف ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود

وفيه ظهر بالقبة التى أنشأها السلطان فى مدرسته تشقق فاحش حتى آلت الى السقوط ، فأمر بهدمها فهدمت من سفليها ، ثم علقوها ورموها وما حافلا ، وقد تقدم أن المسندة التى بالجامع هدمت قبل ذلك وأعيدت ثانيا

وفى يوم الخميس ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجميل زائد ، وكان له يوم مشهود حتى ارتجت له القاهرة ، وكان أمير ركب

المحمل الأمير صومان باى الدوادار الكبير ابن أخى السلطان . وبالركب الأول الأمير بك باى أحد الأمراء العشراوات الذى كان نائب القدس قبل ذلك .

وفى هذه السنة حج جماعة كثيرة من الأعيان منهم الأمير خاير بك ، أحد المقدمين الألوف الذى كان كاشف الغريبة قبل ذلك ، وحج الشرفى يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وغير ذلك جماعة من الرؤساء بالديار المصرية . وحجت فى هذه السنة زوجة الأمير طومان باى ابنة الأمير أقبردى الدوادار ، ووالدتها بنت خاص بك ، وحجت ايضا زوجة الأتابكى سودون العجمى ، وغير ذلك جماعة من مشاهير الستات ، وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وحج حسام الدين بن بغداد وجماعة من مشايخ عربان هواره . وغير ذلك من الأعيان .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة يخشباى حاجب حجاب دمشق ، وكان ولى نيابة صفد ونيابة حماة ثم ولى نيابة طرابلس ثم بقى بعد ذلك حاجب حجاب دمشق ، وكان صهر الأتابكى دولات باى قرابة العادل ، فحضر الى الديار المصرية بطلا ، فعين له السلطان لما حضر مقدمة ألف وصار يقف مع الأمراء المقدمين

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه رسم السلطان بتوسيط أربعة أنفار قد سرقوا وقتلوا ووجب عليهم القتل ، فوسطوهم فى الرملة .

وفى ذى القعدة — فى يوم الأربعاء ثاليه — نزل السلطان وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وطلع وشق من الصليبة فى موكب حافل

وفى يوم الخميس ثالثه قبض السلطان على

شمس الدين بن عوض ووكل به بجامع القلعة الى
أن يكون من أمره ما يكون .

وفي يوم الاثنين رابع عشره نزل السلطان وتوجه
الى المقياس ، وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة ،
وجلس هو واياهم في القصر الذي أنشأه على
بسطة المقياس ، ومد لهم في ذلك اليوم أسمطة
حافلة ، ونصبت الأمراء لهم صواوين على شاطئ
البحر الذي تجاه الجيزة ، وأغدق عليهم في ذلك
اليوم بأشياء كثيرة من حلوى وفاكهة وغير ذلك ،
فأقام هناك الى قريب العصر ثم نزل في الحراقة
وتوجه الى بولاق ، ونصب له في الحراقة سحابة
أطلس أصفر ، وقيل انه ألبس الأمراء المقدمين في
ذلك اليوم لكل واحد منهم سلاري ما بين وشق
وسمور ، وكان ذلك اليوم بالسلطاني .

وفيه أحضروا بين يدي السلطان شخصا من
الشحاتين الجعيدية ، وجدوا معه مائة وسبعين
دينارا ، وهي ضرب الأشرف برسباي ، فقال له
السلطان : « من أين لك هذا الذهب ؟ » فقال :
« ورثتها من أمي » . فأخذ السلطان منه ذلك
الذهب وسلمه الى محمد مهتار الطشتخاناه ،
ورسم بأن يشتري للشحات من ذهبه جوخة
وقميصا وعمامة ، وأن يصرف له في كل يوم نصفين
فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه ، فلم يرض
الشحات بذلك ، وصار يقول : « عيدوا لي ذهبي
ومالي حاجة بكسوتكم » . واستمر الذهب تحت
يد محمد المهتار .

وفي ذي الحجة — في يوم الاثنين خامسه —
فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع
لجماعة كثيرة من الفقهاء والأيتام ، وضيّقوا كتاب
الممالك على الناس في هذه السنة في تفرقة
الوصولات الى الغاية ، وراحت الأضحية في هذه
السنة على كثير من الناس .

وفي يوم الخميس^١ خامس عشره ركب القاضي
كاتب السر محمود بن آجا وطلع الى القلعة ،
وكان له مدة خمسة أشهر لم يركب وهو منقطع
في داره فركب في ذلك اليوم ، وخلع عليه السلطان
كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل الى داره وهو
في غاية العظمة ، وقد قلت في ذلك :

سيدي أنت معدن التشريف

بدر تم منزله عن خسوف

فابق واسلم ودم وعش في شفاء

لألوف من كل عصر ألوف

وفي هذا الشهر نادى السلطان على الفلوس
الجدد والعق بآن الرطل منهم بثمانى عشرة نقرة ،
وضرب فلوسا معاددة تخسر فيهم السوقة الثلث ،
وهم في غاية الخفة ، فصارت البضائع تباع
بسعرين : سعر بالفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس
العق .

وفي يوم الخميس^١ خامس عشره المذكور أعلاه
توفي الشيخ علاء الدين الملة على العجني الشافعي
شيخ تربة جاني بك نائب جدة ، وكان من أعيان
علماء الشافعية ، وله شهرة في مصر بين العلماء ،
وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت^١ سابع عشره رضى السلطان
على أبى البقا ناظر الاسطبل ، وخلع عليه واستمر
على وظيفته كما كان بعد أن قاسى شدائد ومحن ،
وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توفي القاضي نور الدين الأشمونى ، وكان
من أعيان نواب الشافعية ، بقية الناس ، وله شهرة
بين النواب ، وكان لا بأس به .

وفيه أذن السلطان للخليفة المنفصل المستمسك
بالله يعقوب ، والد المتوكل على الله محمد ، بأن

(١) كان في الاصل الثلاثاء خامس عشره ، وصحتها الخميس
وكان في الاصل الخميس سابع عشره ، وصحتها السبت كما
أثبتناه .

يركب الى صلاة الجمعة ويسير ويزور القرافة ، وكان من حين انفصل من الخلافة وولى ولده وهو مختف في داره لم يركب ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى أذن له السلطان في الركوب .

وفي يوم الثلاثاء^١ عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد على دولات وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ، فمن جملتها ممالك وخيل وجمال بخاتني ، ومن جملة ذلك خيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون صفة أشجار مزهرة وعليها أطيبار ، ومن جملة المقدمة خرگاه خشب مدهونة بماء ذهب ولازورد وألوان غريبة وهي منقوشة هيئة وحوش كاسر ومكسور ، ولهذه الخرگاه غشى جوخ أزرق مقصص ، ولها أطناب وعراوى حرير أحمر ولها باب خشب موشق وعليه ضبة ، ولتلك الخرگاه بساط مدور على قدرها منقوش صنعة غريبة لم يعمل مثله ، وكانت هذه الخرگاه من تحف حسن بيك الطويل فوصلت الى اسمعيل الصفوى ، والصفوى أرسلها الى على دولات وعلى دولات أرسلها الى السلطان ، فكانت هذه الخرگاه والخيمة من جملة التحف الغريبة ، فأمر السلطان بنصبهما في الحوش للفرجة ، وأوكب في ذلك اليوم لأجل القاصد موكبا حافلا بغير شاش ولا قماش .

وفي أواخر هذه السنة توفي القاضي شمس الدين المنوفي أحد نواب الشافعية .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وكان أشيع بين الناس عن الحجاج أخبار مهولة فبطل ذلك حين جاء المبشر وكان من أهل الفضل .

وفي يوم الثلاثاء^٢ سابع عشرينه عزم السلطان

(١) كان في الأصل الخميس عشرينه ، وصحبته الثلاثاء كما أبتناه .
(٢) كان في الأصل الأربعاء سابع عشرينه ، وصحبته الثلاثاء أبتناه .

على قاصد على دولات في الميدان ، وجلس هو وإياه على البحرة التي في البستان ، ومد له هناك مدة حافلة ، وقد عزم عليه قبل ذلك مرة أخرى فأقام عنده الى بعد الظهر في الميدان ، ثم انصرف القاصد وطلع السلطان الى القلعة ، وألبس القاصد سلارى بسمور من ملايسه .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه رسم السلطان بتسمير ثلاثة أنفار ، قيل انهم سرقوا حجرة^١ من حجرة السلطان تسوى نحو مائتى دينار ، فسروهم ووسطوهم ، وقيل ان الحجرة^١ سرت وهي في الربيع في بر الجيزة

اتتهى ما أوردناه من أخبار هذه السنة ، وقد خرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة لم يقع فيها طاعون ولا فتن ، غير أن كان البرد فيها شديدا ووقع فيها عدة أيام أفرط فيها البرد حتى جمدت المياه وصارت جليدا ، وأحرق غالب الأشجار ، ووقع فيها تشحيطة في سائر الغلال وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، وكذلك الشعير والفول ، وجميع الحبوب كانت مشتتة في أسعارها ووقع الغلاء فيها أيضا ، حتى وقع الغلاء في أصناف الحضر أيضا ، وفي سائر البضائع من السكر والعسل والزيت والسمن والسيرج ، حتى الزيت الحار والزبيب والأرز وسائر الأصناف ، حتى البرسيم وغير ذلك .

سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (١٥١٢ م) : فيها — في المحرم — كان مستهل الشهر بالجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة يهنون السلطان بالعام الجديد .

وفي يوم الأحد ثالثه نزل السلطان من القلعة ، وصحبته ولده ، فتوجه الى القرافة وزار

(١) الحجرة : الأتني من الخيل (المختارة) .

الصالحين ، ثم توجه من هناك الى شاطئ البحر فشق من عليه وطلع من على الصليبية الى القلعة . وفي يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على قاصد على دولات وأذن له بالسفر الى بلاده . وفي يوم الثلاثاء خامسه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، وكان يوما مطرا مغيما ، فنزل من هناك في قبة الأمير يشبك التي بالمطرية ، فأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الأربعاء سادسه توفي الشيخ شمس الدين محمد الغزى خطيب جامع السلطان الذى فى الشرايشيين ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان علامة فى الخطب فصيحاً فى عبارته ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الجمعة ثامنه توفي القاضى عز الدين عبد العزيز بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، وهو ابن أخى القاضى جلال الدين بن الأمانة .

وفي يوم السبت تاسعه طلع الرئيس كمال الدين بن شمس المزين وقابل السلطان ، وقد تقدم القول بأنه قد تغير خاطره عليه ومنعه من الطلوع الى القلعة ، فاختفى هذه المدة ولم يعلم له خبر ، فطلع فى ذلك اليوم وصحبته فقراء من مقام سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه وهم يذكرون ومعهم أعلام ومصاحف فدخلوا الحوش ، وكان السلطان عرض فى ذلك اليوم ممالك كناية وأخرج منهم خرجا على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم فى غاية السودنة ، فلما دخل أولئك الفقراء عليه وهم على هذه الهيئة ازداد سودنة ، فلما وقفوا بين يديه رأى كمال الدين بن شمس وعليه احرام صوف أبيض وهو بطيلسان وعذبة فى عمامته ، فلما رأى ذلك نهر الفقراء الذين معه وشتمهم ، ثم التفت الى كمال الدين بن شمس ،

ووبخه بالكلام وشتمه وسبه سبا فاحشا وقال له : « أنا ما قلت لك لا ترينى وجهك ، فأنا ما شوشت عليك ولا صادرتك ، فما تروح عنى بشيهم كلاك ، غبت وجئت الى شيخ من المشايخ ! متى بقى لك سر وبرهان ؟ ! » ، ثم ان السلطان رسم بتسليمه الى الوالى يعاقبه ... ثم فى ثانى يوم أشيع بين الناس أن السلطان أرسل كمال الدين الى المقشرة . فما أحد شكر كمال الدين على ذلك ، وكان عدم مقابلته له أصوب . وكان كمال الدين من خواص السلطان ويكبسه وقت الظهر اذا نام ، ثم تغير خاطره عليه . وكان سبب ذلك أن السلطان حصل له قرو فى محاشمه فقصده كمال الدين فى محاشمه عدة مرار ، فبلغ السلطان أن كمال الدين قد شرع يقول للأمراء والناس : « ان السلطان بقى مقيط » . فتغير خاطره عليه بسبب ذلك . وقيل كان كمال الدين يبلص الأمراء والمباشرين على لسان السلطان ، فكثرت فيه المرافعات من كل جانب وسقط نجمه من السماء .

وفي يوم الأحد ، وهو يوم عاشوراء ، فيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك ، وكان معه جماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى قريب المغرب ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ومد هناك أسمطة خافلة ، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ... ثم ان شخصا مضحكا يقال له على باى الذى يعمل عفريتاً فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه ، ثم سحب أمير آخور ثانى أقبای الطويل فرقصه ، ثم سحب بركات بن موسى المحشوب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، وثرى بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى فتخاطف ذلك الممالك ، وابتهج

في ذلك اليوم ، ثم عدى أواخر النهار من الروضة وطلع من عند قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، وطلع من هناك الى القلعة .

وفي يوم الاثنين حادى عشره حضر الى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنج الفرانسة ، وكان هؤلاء القصاد من رؤساء الفرنج ، فأرسل لهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق الى القلعة ، فلما طلّعوا أوكب لهم السلطان بالحوش ، وزينوا لهم باب الزردخاناه وباب القلعة بالصناجق واللبوس وآلة السلاح ، فلما طلّعوا الى القلعة فكانوا نحوا من خمسين نفرا ، ومن أعيانهم اثنان لابسان ثياب محمل كفوى ، في رقابهما سلاسل من ذهب ، فلما وقفوا بين يدي السلطان أظهروا التعاضم ثم باسوا له الأرض ، فلما قرأوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم في بيت كاتب السر أبو بكر ابن مزهر الذى فى بركة الرطلى ، ونزل نائب المهندار صحبتهم ، وشقوا من القاهرة ، وكان ذلك يوما مشهودا .

وفي يوم الخميس رابع عشره توفي شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمر الذى كان كاشف الجيزة فيما بعد ، وكان موته فجأة .

وفي هذا الشهر قرر السلطان قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى فى خطابة جامعته الذى بالشرابشين عوضا عن شمس الدين الغزى بحكم وفاته ، فلما سعى الشرفى يحيى فى الخطابة رسم له السلطان بأن يخطب به حتى يسمع خطبته ، وكان ذلك فى أول جمعة فى السنة ، وخطب قاضى القضاة الشافعى كمال الدين فى ذلك اليوم فى جامع السلطان ، فلما خطب الشرفى يحيى بالسلطان أعجبه خطبته فقرره فى خطابة جامعته عوضا عن الغزى .

وفي يوم الخميس حادى عشرينه دخل أمير الحاج بالركب الأول وهو الأمير بكباى ثم فى يوم السبت ثالث عشرينه دخل المحمل الى القاهرة صحبتته أمير الحاج طومان باى الدوادار الكبير ، فطلع الى القلعة وخلع عليه السلطان فوقانى بطرز يلبغوى عريض ، وخلع على من حج معه من الأعيان وهم الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين ، والشرفى يونس تقيب الجيوش المنصورة ، وشيخ العرب أحمد بن بقر ، وغير ذلك من مشايخ العربان ممن كان فى الحجاز ، ومنهم ابن بغداد وآخرون من الأعيان ، فنزل الأمير طومان باى فى موكب حافل وقدامه الأمراء المقدمون قاطبة ، وكان له يوم مشهود ، وقد رجع من هذه السفرة والناس عنه راضية ، وأشيع عنه أخبار حسنة مما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والاحسان وفعل الخير وحمل المتقطعين والصدقات بطول الطريق على الفقراء والمساكين ، فشكر له الناس ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه ، ورد على السلطان أخبار ردية من البحيرة بأن العربان قد جالت هناك وقتل بينهم عمال ، وقد آل أمر تلك الجهات الى الحراب ، وقيل تحالفت سبع طوائف من العربان بأن يكونوا كلمة واحدة على العصيان ، فلما تحقق السلطان ذلك عين جماعة من الأمراء ، فلم يبادروا بالعزم الى ذلك ، فحنق منهم وقال : « أنا أخرج الى ذلك بنفسى » ، فشرع فى ذلك اليوم بعرض السنيح والخيول والجمال والسقاين ، ورسم بعمل حراقة فقط على أنه يتوجه من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فقوى عزمه على ذلك وأقام يعرض أشياء كثيرة فى الميدان الى بعد العصر ، وما يعلم ما بعد ذلك .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه جاءت الأخبار من البحيرة بأن عرب غزاة وغيرهم من العربان قد

أظهروا العصيان ، وزحفوا على البلاد وأفسدوا
الزروع ونهبوا المثل ، وأن شيخ العرب الجويلي
معهم في المحاصرة ، وطردها كاشف المنوفية وغيره
عن البلاد ... فلما تحقق السلطان ذلك عين لهم
تجريدة وبها من الأمراء الأمير طومان باي الدوادر
الكبير قريب السلطان الذي كان في الحجاز ، وعين
أيضا الأمير خايز بك كاشف الغريبة أحد
المقدمين ، وعين الأمير علان الدوادر الثاني أحد
المقدمين ، وآخرين من الأمراء والعسكر ... فصلوا
صلاة الجمعة وخرجوا على جرائد الخيل ، فرجت
لهم القاهرة ، فخرج الدوادر ومن معه من الأمراء
ونزلوا بانباية حتى يتكامل خروج بقية العسكر ،
وقد كثر الكلام وزادت الاشاعات بسفر السلطان
الى ثغر الاسكندرية ، وأنه أرسل يقول للخليفة
والقضاة الأربعة : « جهزوا لكم برك حتى تخرجوا
صحبتى الى ثغر الاسكندرية » ، وكذلك أعيان
المباشرين ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك .

وفي يوم السبت سلخه جلس السلطان بالميدان
وعرض جماعة من العسكر فكتب منهم نحواً من
مائتى مملوك ، وأمرهم بسرعة الخروج مع
الدوادر الى البحيرة ، وكتب طائفة من المماليك
الى جهة الفيوم والبهنسا ... فيئما السلطان يعرض
العسكر ، ورد عليه قصاد من عند نائب حلب ،
وأخبروا بأن أوائل عسكر اسمعيل شاه الصفوى
قد وصل الى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة
التف على عسكر الصفوى . فتأكد السلطان في
ذلك اليوم لهذه الأخبار ، واضطربت أحواله بين
أمر العربان الذين جالت وبين أمر الصفوى . والله
الأمر في ذلك .

وفي هذا الشهر طلع قاصد ملك الفرنج بتقدمة
حافلة للسلطان ما بين أوانى بلور مزينة بذهب ،
وحمالين عليهم جوخ ومخمل وتماسيح مذهب ،

وقيل ذهب عين ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح
للملوك .

وفي أواخر هذا الشهر خلع السلطان على شرف
الدين بن روق وقرره في نظر الخزائن الشريفة
وجعله مستوفيا على أولاد الجيعان ، وقد سعى في
ذلك بخمسة آلاف دينار ، فاستخف الناس عقله
على ذلك الذي يستوفى على أولاد بنى الجيعان
وهذه غاية الخفة ، وأشيع أنه متحدث في وكالة
بيت المال أيضا ، وغاية الأمر أن كان معه مال
فأذهبه في البطال على شيء لا يظهر له منه نتيجة ،
وكان ساعيا قبل ذلك في قضاء الشافعية بمصر فما
تم له ذلك ، وقد خف وركب الخيل وطاش في
الحال .

وفي أواخر هذا الشهر توفيت الست بنت خوند
بنت الملك المؤيد شيخ ، وهى بنت الأمير يشبك
الفقيه الذى كان دوادرا كبيرا فيما بعد ، وكانت
من أعيان الستات .

وفي صفر بطل سفر السلطان الى ثغر
الاسكندرية بموجب ما ورد عليه من أخبار
الصفوى فتأكد لذلك .

وفي يوم الاثنين ثانيه خرج الأمير قانصوه بن
سلطان جركس أحد المقدمين والأمير ماماي جوشن
فتوجها الى نحو البهنسا والفيوم ، وخرج
صحبتهما نحو من مائتى مملوك .

وفي يوم الخميس خامسه رسم السلطان بشنكة
شخص من الغلمان زعموا أنه حرق بيت أستاذه
لأجل النهب ، فاحترق في ضميمته عدة بيوت
وربوع ، فلما قبضوا عليه عرضوه على السلطان
فرسم بأن يشنكل ويعلق في مكان حرقه ، ففعلوا
به ذلك .

وفي يوم الاثنين تاسعه توفيت الريسة خديجة

أم خوخة ، وكانت من أعيان مغاني الدكة ، ولها في هذا الفن اليد الطويلة ، وقبل ذلك بأيام قلائل توفيت الرئيسة بدرية بنت جريعة وكانت من أعيان المغاني أيضا ، ولها شهرة بين المغاني بذلك .

وفي يوم الخميس ثاني عشره توفي الأمير طوخ المحمدي أحد الأمراء الطليخانات ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وقيل إن أصله كان من مماليك تنم نائب الشام ، وكان لا بأس به عشرة لطيف الذات .

وفي يوم الاثنين سادس عشره حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان قد توجه الى البحيرة بسبب فساد العربان كما تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الجمعة عشرينه عرض السلطان العسكر في الميدان باكر النهار ، فعين من فرسانهم جماعة يتوجهون صحبة الجويلي شيخ جهات البحيرة ، ورسم السلطان الى العسكر بأن يقيموا بالبحيرة بعد وفاء النيل .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره غيب القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، فلما غيب اختفى جميع أقاربه حتى غلمانه وحاشيته ، فرسم السلطان للقاضي بركات بن موسى أن يكبس على داره ويفحص عن أمره ، وقد اشتد الأمر في طلبه جدا . وسبب ذلك أن كان عليه تقاسيط من المال على الجوامك في كل شهر فلم يف بذلك فتغيب واختفى .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة ، فكان له يوم مشهود ، وأوكب السلطان في ذلك اليوم وزين باب الزردخانة باللبوس والسلاح ، ثم طلع القاصد وصحبته مقدمة حافلة نحو من مائة حمال ما بين أواني بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماشيح وشقق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة ، فطلع

القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيول والباقي مشاة ، فكانوا نحو من خمسين انسانا من جماعة القاصد الذين جاءوا صحبته . وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار ، وكان لابسا خلعة جر ذهب على حرير أصفر فطلعوا الى القلعة وقابلوا السلطان ، ثم نزلوا الى مكان أعد لهم ، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى عند السلطان في فتح القيامة التي بالقدس الشريف ، وكان السلطان أغلق بابها ومنع الفرنج من الدخول اليها بسبب ما تقدم منهم .

وفي ذلك اليوم أطلق السلطان شيخ العرب بقر بن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة طويلة وهو في البرج بالقلعة ، فأفرج عنه في ذلك اليوم وكان له نحو من اثنتي عشرة سنة وهو في البرج بالقلعة مقيد ، فشفع فيه أبوه الأمير أحمد بن بقر وضمنه حتى أطلقه السلطان .

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثامن عشر بشنس قبطي ، وقد أبطأ في قلع الصوف هذه السنة بموجب أن الوقت كان رطبا .

ومن الحوادث في أواخر هذا الشهر أن قد سرق من سوق الباسطية ثلاثة دكاكين ، وكذلك من الصاغة ، فراح على التجار جملة أموال لها صورة ولا يعلم من فعل ذلك ولا تقب لهم حائط ، وراحت على من راح .

وفي يوم السبت ثامن عشرينه أرسل الأمير قانصوه بن سلطان جركس الذي توجه الى الصعيد فبعث ثمانية رعوس من عرب عزالة منهم شخص يسمى خضر بن كروان وكان من كبار المفسدين ، وقيل هو الذي كان سببا في قتل ابن جميل ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان بعرض السادة الأشراف ، وسبب ذلك أن السلطان فصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهات الموقوفة عليهم مثل بركة الحبش وبلقس وغير ذلك من الجهات ، وكان القائم في مرافعتهم الشريف بن مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان من هذه الجهات في كل سنة عشرة آلاف دينار ، فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاء الأربعة بسبب الأشراف ، وقد طعنوا في أنساب جماعة منهم ، وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وفي ربيع الأول طلع القضاء الأربعة للتهنئة بالشهر ، فكان في ذلك اليوم عقد مجلس بين يدي السلطان بسبب بنت يشبك الدوادار زوجة قاني باي قرا أمير آخور كبير وبنت جاني بك حبيب زوجة الأمير دولات باي قرموط .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة التي جلددها لأجل الممالك التراكمة وأولاد الناس الذين نزلهم ، فقبل انه عوق جوامك جماعة منهم وقطعها .

وفي يوم الخميس رابعه ظهر بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وكان له مدة وهو محتف كما تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامن خلع السلطان على مملوكه أبرك وأعاده الى نيابة طرابلس كما كان أولا ، فنزل من القلعة في موكب حافل وصحبته الأمراء .

وفي يوم تاريخه رسم السلطان بنقل المكاحل التي سبكها في المسبك الذي بجوار الميدان ، فأمر بأن يتوجهوا بها الى نحو تربة العادل حتى يجربها هناك ، فوضعوها على عجل وسحبته

الأبقار ، فنزلوا بها من الصليبة ، فرجت لها الأسواق وصاروا يتصلبون بين الدكاكين فما خلصوا الا بعد جهد كبير . فلما وصلوا الى بيت الأمير تاني بك قرا الذي عند حمام الفارقاني ، انخسف بإحداها سرداب هناك ، فوقعت تلك المكحلة الكبيرة في السرداب فأعيا الناس طلوعها ، وأقامت على ذلك الى قريب المغرب وهى على حالها ، وقيل ان السلطان سبك نحوا من سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد ، فكان منها أربع كبار فقليل وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار شامى ، فكان طول كل واحدة نحوا من عشر أذرع ، فحصل في ذلك اليوم غاية المشقة بسبب ذلك ، وكان صحبة المكاحل الأمير مغلباي الشريفى الزردكاش فما قاسى في ذلك اليوم خيرا من التعب الزائد والمشقة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي الأمير دولات باي قرموط أحد الأمراء المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وكان له جنازة حافلة ، وكان أصله من ممالك الأشراف قايتباي ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان من أعيان المقدمين ، وتولى من الوظائف ولاية القاهرة ثم بقى مقدم ألف . وقد توفي من الأمراء المقدمين خمسة في مدة يسيرة ، وكانوا من أجل الأمراء وأعظمهم ، وقد قلت في ذلك :

إذا صفا الدهر يوما عن ذلك الصفو يرجع
هل من لييب تراه بأيسر العيش يقنع
فكم نرى الأمير من مصرع بعد مصرع
وفي يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، وصادف ذلك أنه جاء في ليلة الجمعة فاجتمع القضاء الأربعة في ذلك اليوم بالحوش السلطاني ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وكان مولدا حافلا على جارى العادة .

وفي يوم الأحد رابع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وكشف على المكاحل التي توجهوا بها الى هناك حتى يجربوها ، فلما توجه الى هناك أقام ساعة وعاد الى القلعة سريعا .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمين طومان باي الدوادار وسافر الى جهة الصعيد بسبب ضم المغل ، وسافر معه جماعة من الأمراء والمساليك السلطانية ، وكان صحبته الأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين ممن كان من مضافاته ، فخرج في موكب حافل وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الخميس ثامن عشره أرسل نائب سيس الى السلطان عشرة رعوس وعليهم طراير حمراء ، وزعموا أنهم من عسكر الصفوى كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رعوسهم وأرسلهم الى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم باشهارهم على رماح فأشهرهم في القاهرة ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويت الاشاعات بأن الصفوى متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل الى السلطان .

وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه خلع السلطان على الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، وقرره في أمرة الحاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذي كان نائب حماة فيما تقدم وقرره في أمرة الحاج بالركب الأول فتشكى من ذلك فلم يقبل .

وفيه رسم السلطان لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلا على البلاد ، ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشيخة وقدم الكشاف عن سنة ثمانى عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل ، وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر وصارت الكشاف تنزل على

على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذين يهربون يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم . فخرّب غالب البلاد ، ورحل عنها الفلاحون ، فصار الذى تخرب بلاده من المقطعين يأخذون جامكيتة في نظير الحماية والشيخة ، وصارت الكشاف يستخرجون المال من البلاد ، وجانى بك يستخرج من المقطعين بالقاهرة ، فضاع الخراج بينهما ، والذى يكون مسافرا من المقطعين يرسمون على زوجته وأولاده ووحيه حتى يأخذوا منهم الحماية . وكان القائم في ذلك جانى بك الذى كان دوادار الأمير طراباي رأس نوبة النوب ، وقد بقى الآن ناظر الديوان المفرد ، فنوع في أيامه أنواع المظالم التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم .

ومن العجائب أن المغل كان قائما على أصوله في الأرض لم يحصد بعد ، والعسكر لم يقلعوا الصوف ، وصار جانى بيك يكبس على ييوت الأمراء العشراوات بالطواشية ويقبض منهم الحماية بالعسف ، ويرسم على الخاصكية ، ويدعهم في التراسيم بسبب الحماية والشيخة وقدم الكشاف ، ولا يعرف ان كانت البلاد خرابا أو عامرة ، فجرى على المقطعين ما لا خير فيه من المغارم والبهدلة .

وفي يوم السبت في العشر الثالث من هذا الشهر ابتداء السلطان بضرب الكرة فلعب هو والأمراء بالميدان .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه قبض السلطان على المهتار حنين الشراب دار ، ورسم عليه وختم على ييوته وحواصله ، وقرر عليه عشرين ألف دينار فأورد من ذلك نحو من ثمانية آلاف دينار ، وقسط الباقي عليه في كل شهر ألف دينار على الجوامك ، وكتب عليه بذلك التزام ، واستمر في

الترسيم حتى يعلق ما كتب عليه ، وكان سبب
مصادرة المهتار حسن أن شخصا من غلمان
الشراييناه يقال له أبو الخير الاسمر رافع المهتار
حسن عند السلطان ، وقال له لما قتل الملك الناصر
محمد بن الأشرف قايتباي أحضر نجارا وصنع عدة
مفاتيح للحواصل التي بالقلعة وأخذ منها ما قدر
عليه ، ومن جملة ذلك سكرجة زمرد وحمل
ما أخذه على بغل من بغال الحمامة . فلا زال
السلطان يفحص عن حقيقة هذا الأمر ، فأحضر
التجار الذي صنع المفاتيح فاعترف بذلك وأحضر
الحمار الذي حمل الحوائج من القلعة فاعترف
أيضا بذلك وقال : « ما أعرف ما كان في العلب
التي حملتها » ، فعند ذلك قبض السلطان على
المهتار حسن ورسم عليه وشكه في الحديد ، وقرر
عليه عشرين ألف دينار ، فأورد منها سبعة آلاف
دينار وكسور وحلف أنه لا يملك غيرها ، فلم
يقبل منه السلطان ذلك واستمر في التوكيل به
حتى يعلق ما قرره عليه .

ثم بعد ذلك بمدة فعل ذلك بمهتاره الحاج على
متهتار الخيل وقرر عليه مالا نحو ذلك ، ورسم
عليه حتى يرد ما قرره عليه من المال ، وقيل انه
عرض ما كان في تسليمه من السروج المغرق
والكنابيش فوجد ذلك قد نقص منه أشياء كثيرة .
وفي أثناء هذا الشهر قبض السلطان على شرف
الدين بن روق الذي كان قد سعى في استيفاء
الخزائن الشريفة ، فلم ينتج أمره في ذلك ولا عرف
يياشر في مصطلح الخزائن ولا عرف يكتب
وصولات الرجعات ، وكان رجلا أهوج وغنده
خفة ورهيج فلم يرث له أحد فيما جرى عليه . فلما
قبض عليه السلطان سلمه الى الزينى بركات بن
موسى المحتسب وكان ابن روق هذا زوج أخت

علم الدين الذي كان متحدثا في الخزائن ، فلما
قبض السلطان على علم الدين واختفى فضمنه ابن
روق في عشرين ألف دينار ، فلما قبض السلطان
على ابن روق طلب منه ما ضمنه بسبب علم الدين .
وكان ابن روق يتهم بسعة المال ، وكان قصده
يسعى في قضاء الشافعية ، فما تم له ذلك ولم
يساعده الزمان على ذلك ، وكان من أعيان الشافعية
ولكن كان أرشل قليل الحظ ، كما يقال :

إذا أذن الله في حاجة

أناك النجاح بها يركض

فلا رشد الا بتوفيقه

وان محض الرأي من يحض

فمن ذا يدبرنا غيره

ومن يبرم الأمر أو ينقض

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه حضر جماعة من
الأمراء الذين كانوا توجهوا الى نحو بلاد الصعيد
بسبب فساد العربان ، وكان الذي توجه من
الأمراء المقدمين قانصوه بن سلطان جركس والأمير
ماماي جوشن ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات
والماليك السلطانية . فلما طلوعوا الى القلعة خلع
السلطان على الأمراء المقدمين ونزلوا الى دورهم .

* * *

وفي ربيع الآخر - في يوم الأحد سادسه -
نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التي
بالريدانية ، وجلس هناك ونصب له سحابة واجتمع
حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجهم الفقير من
العسكر ومن الناس المتفرجين ، ثم جربوا قدامه
مكاحل كبار وصغار التي كان سبكههم بالميدان ،
فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطيء
منها سوى واحدة وقيل اثنتان ، والذي صح من
المكاحل فيها من عدى حجره الى قريب بركة
الحاج ، فانشرح السلطان في ذلك اليوم الى الغاية ،

وأقام هناك الى بعد العصر ونصب له خيمة كبيرة وهي الخيمة التي أهداها اليه على دولات وقد تقدم ذكر ذلك ، ومد هناك أسمطة حافلة وكان يوما مشهودا .

وفي ذلك اليوم طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع ، أنقص من العام الماضي بذراع . ولما عاد السلطان الى القلعة طلع من بين التراب ولم يشق من القاهرة .

وفي يوم السبب ثلثي عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير تمر باي الهندي أحد الأمراء العشراوات ، الذي كان قد توجه قاصدا الى الصفوى شاه اسماعيل ملك العراقين ، وكانت مدة غيبته في هذه السفرة نحو من سنتين ، وقد قاسى شدائد ومحن ، وماتت خيوله وجماعة من غلمانته ومن الخاصكية الذين كانوا صحبته ، ولم ينصفه الصفوى ولا أكرمه ، وقيل لم يقابله غير مرة واحدة ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان التي أرسلها اليه ، وأرسل جوابه صحبة قاصده .

فلما نزل تمر باي الى خانقة سرياقوس أرسل يعرف السلطان أن قاصد الصفوى جاء صحبته وقاصد من عند ملك الكرج ، فعين السلطان الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهم ويمد لهم هناك مدة ، فتوجه الى الخانكاه ومد لهم هناك مدة حافلة ، فلما دخل قاصد الصفوى أنزلوه في بيت قاني باي سلق الذي في رأس الرملة عند سوقة عبد المنعم ، وكان مع هذا القاصد شديد البأس أغاظ على نائب حلب في القول لما قدم عليه .

وفي ذلك اليوم ضرب السلطان الكرة في الميدان فتقنطر في ذلك اليوم الأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب ، فنزل على كتفه فانصدع فتألم لذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشره طلع قاصد الصفوى الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكله السلطان بالحوش من غير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة التي أنشأها ونصب السحابة الزركش ، وحضر الأمراء المقدمون واجتمع الحسكر ، وأمر بأن يزين باب الزردخاناه فزينوه في ذلك اليوم بآلة السلاح والصناجق واللبوس ، فخرج القاصد من بيت قاني باي سلق وصحبته آردمر المهندار والأمير كرتباي والى القاهرة ، فطلع القاصد وصحبته مقدمة الى السلطان فكانت نحو من أربعين حمالا ، عليها من الفهود سبعة وقيل كانوا تسعة فمات منهم اثنان ، فلما طلعا بهم الى القلعة جعلوا عليهم أجلا حريرا ، ومن جملة هذه المقدمة طوالة خيل ، ومنها حمال عليه فضيات ما بين أباريق فضة وشربات وطاسات ذهب ، ومنها حمالان عليهما زرديات وخوذ خاص واثواب مغل ملون ولبوس خيل مكففة ، ومنها حمالان عليهما أقواس حلقة ، وحمالين عليها شقق حرير برصاوى مقصب ، وحمالان عليهما بعلبكي ، وغير ذلك أشياء كثيرة ما بين سجاجيد رومى ومديات وغير ذلك . فلما طلع القاصد بين يدي السلطان وكانا اثنين ، قيل هما من أعيان أمراء الصفوى ، فبأسا الأرض للسلطان ، ثم تقدما وبأسا ركة السلطان ، وقدا اليه مطالعة شاه اسمعيل الصفوى ، فلما قرئت بين يدي السلطان بحضرة الأمراء وجد فيها ألفاظا يابسة وكلاما فججا ، فلم يشرح السلطان لذلك وظهر في وجهه الكظم ، ثم نزل القاصد من عند السلطان الى المكان الذي أعد له .

ثم في عقب ذلك اليوم طلع قاصد ملك الكرج ، وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ما بين

سمور ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك
أشياء حافلة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الناصري محمد
ابن الشهابي أحمد بن الأمير أسنغا الطياري
الكلبي أمير شكار ، فلما تغير خاطره عليه قبض
عليه وأودعه في الترسيم وقرر عليه ألف دينار
فأغلظ على السلطان في القول ، فحنق منه فرسم
بنفيه الى قوص ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن
يشفع فيه ، وكان الناصري محمد عنده شمم زائد
ورقاعة فلم يرث له أحد من الناس ، فكتب وصيته
وتوجه الى نحو الصعيد ، والذي أكله كركى
تقاياه بلشون .

وفيه ، في يوم الأحد عشرينه ، نزل السلطان
وتوجه الى نحو تربة العادل ، وجلس على المصطبة
التي هناك ، وجربوا قدامه بقية المكاحل المقدم
ذكرها ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد هناك
سماطا حافلا ، ونصب له هناك وطاقا ، واجتمع
عنده جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم ركب بعد
العصر ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ،
وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له يوم
مشهود .

وفيه ، في يوم الثلاثاء ثالث عشرينه ، حضر الى
الأبواب الشريفة طراباي أخو الأتابكي قيت
الرحبي ، وكان مسجوناً بقلعة دمشق ، وكان
سبب نفيه الى هناك أنه في سنة تسع وتسعمائة
خلى الأمير أزدمر الدوادار طالعا الى القلعة فلما
وصل الى باب القلعة رمى عليه من الطبقة ثلاث
فردات نشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما بلغ
السلطان ذلك نفاذ الى دمشق وسجنه بقلعتها ،
فاستمر هناك حتى شفع فيه الأمير طومان باي
الدوادار .
وفيه خلع السلطان على شخص يقال له

طراباي ، وكان طراباي هذا ولي الأتابكية بحلب
ثم حضر الى مصر وسعى في نيابة صند بمال له
صورة حتى تولاه من يشبك ، واستقر نائباً بصند
عوضاً عن جان بردى الغزالي بحكم انتقاله الى
نيابة حماة ، وكان طراباي هذا من مماليك يشبك
ابن حيدر الذي ولي حماة .

وفيه ، في يوم الخميس رابع عشرينه ، نادى
السلطان في القاهرة أن لا أمير ولا جندي يركب
بغدارة في سرجه ومن فعل ذلك لا يلوم الا نفسه .
وكان سبب ذلك أن مملوكاً من مماليك السلطان
تشاجر مع شخص من المماليك يقال له جانم ،
وكان أصله من مماليك الأمير طراباي رأس نوبه
النوب ثم بقى مملوك سلطان ، فلما تشاجر معه
لحل عليه الغدارة وضربه على يده قطعها ، فوقف
ذلك المملوك للسلطان ويده مقطوعة ، فشق ذلك
على السلطان ونادى في ذلك اليوم بأن لا أحد
من العسكر يركب بغدارة قط ، فرجعوا المماليك
عن ذلك . ورسم للأمير مغلباي الزردكاش بأن
يكتب قسائم على الصناع أن لا يصنعوا لأحد من
المماليك غدارة ، وكان بهذه الغدارات يحصل
من المماليك الضرر الشامل .

وفيه ، في يوم الجمعة خامس عشرينه ، رسم
السلطان لأزدمر المهندار بأن يأخذ قاصد الصفوى
وجماعته ويتوجه بهم الى جامع السلطان الذي
أنشأه في الشرايشيين ، فيصلوا الجمعة هناك .
فلما حضروا بالجامع اجتمع به القضاة الأربعة
وأعيان الناس وجماعة من الأمراء ، فخرج قاضي
القضاة المالكي يحيى بن الدميري ، وكان قرر قبل
ذلك في خطابة جامع السلطان ، فصعد المنبر وهو
لابس السواد ، وخطب خطبة بليغة ، وذكر فيها
مناقب الامام أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان

بالجماع يوم مشهود ، واجتمع به قراء البلد والوعاظ .

ومن النوادر الغريبة أن قاضي القضاة محيي الدين يحيى بن الدميرى لما ولى القضاء لبس له طوقا ، وهذا بخلاف زى القضاة ، ولا يعلم حجته فى ذلك .

وفيه رسم السلطان الى الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يتسلم شرف الدين بن روق الذى كان ولى التحدث على الخزائن الشريفة ، فتسلمه على عشرين ألف دينار . فلما تسلمه شكه فى الحديد ونزل به من القلعة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه ، فى يوم السبت سادس عشرينه ، خلع السلطان على قاصد ملك الفرنج الفرنسية وأذن له بالسفر .

وفيه عزم السلطان على قاصد ملك الكرج ومد له سماطا بالبحرة التى بالميدان ، وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه ، فى يوم الأحد سابع عشرينه ، عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصفوى فجلس معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القاصد ، ومد له هناك أسمطة حافلة ، حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثامن عشرينه ، حضر قاصد ابن رمضان أمير التركمان وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان .

ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك قاصد شاه

اسماعيل الصفوى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه الى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرنسية ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة بالميدان ، وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين ، فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع الى الحوش وجلس بالمقعد ، وأحضروا قدامه ثيرانا تتناطح وكباشا ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة وكذلك القصاد . فلما صلى الظهر خرج وأحضر ممالك يلعبون بالرمح فوق وقع بينهم فى ذلك اليوم خصمانية ، حتى تعجب القصاد من ذلك ، وكان يوما مشهودا بالحوش ، فاستمروا على ذلك الى بعد العصر فنزلت الأمراء وانقض ذلك الجمع .

وفى يوم الأربعاء سلخه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وعاد الى القلعة .

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليوم طلع قاصد صاحب تونس وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ، قيل انها قومت بعشرة آلاف دينار ، وهى ما بين قماش فاخر

وخيول وسلاح وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان
كاملية صوف بسمور ونزل من القلعة .

وفيه طلع قاصد ابن عثمان ملك الروم وعلى
يده مطالعة للسلطان ، فأشيع بين الناس أن ابن
عثمان أبا يزيد ضعيف على خطة ، وقد نزل عن
الملك الى ولده الصغير الذى يسمى سليم شاه
وصار متملكا على بلاد الروم عوضا عن أبيه
يزيد ، فجاء القاصد ببشارة ذلك .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة
التي استجدها برسم الممالك التراكمة وأولاد
الناس ، كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشهر وردت الأخبار
بوفاة السلطان المعظم المفخم المغازى المجاهد
المرابط ملك الروم وصاحب مدينة الروم
بالقسطنطينية العظمى وما مع ذلك من الفتوحات ،
وهو السلطان أيو يزيد بن السلطان محمد بن
السلطان مراد خان بن أبي يزيد المعروف بيلدرم
ابن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان
ابن عثمان الأكبر الذى مات شهيدا بالغازاة وكان
مولد السلطان أبا يزيد سنة احدى وخمسين
وثمانمائة ، وولى على ملك الروم وجلس على سرير
الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست
وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيه الى سنة ثمان عشرة
ووتسعمائة ، فقدمت الأخبار بوفاة يوم الجمعة
ثانى جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة
ولايته على مملكة الروم نحو من ثلاث وثلاثين
سنة الا أشهرها ، وفتح فى أيامه عدة مدن من بلاد
الفرنج ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ،
وكان من خيار ملوك بنى عثمان قاطبة .
ولما مات خلف من الأولاد الذكور ثلاثة : هم

قرقد بك وكان أكبرهم ، وأحمد بك ، وسليم
شاه الذى عهد له بالملك بعده ، فتولى على ملك
الروم فى حياة والده أبى يزيد ، وقد جاءت الأخبار
بولايته على مملكة الروم قبل وفاة أبيه .

فلما تحقق السلطان وفاته بكى عليه وأظهر
الحزن والأسف ، ثم صلى عليه صلاة الغيبة
بالقلعة ، فلما شاع الخبر بموته فى ذلك اليوم
بين الناس صلوا عليه صلاة الغيبة بعد صلاة
الجمعة فى الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع
ابن طولون وفى جامع السلطان الذى بالشرابشين
وغير ذلك ، وقد حزن عليه الناس فانه كان قامعا
للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلا ولا نهارا ،
وكان به نفع للمسلمين .

وفى يوم الأحد رابعه أشيع بين الناس بموت
أمير مكة الشريف قايتباى ، وبموت الشيخ عامر
صاحب اليمن وكان من خيار ملوك اليمن ،
وبموت الخواجه عيسى القارى وكان من أعيان
تجار مكة وهو فى سعة من المال وله شهرة زائدة .
وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمير بيبرس بن
الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب الى السلطان
وقابله ، فخلع عليه ونزل الى داره ، وكان له مدة
طويلة وهو عاص على السلطان فقابله فى ذلك
اليوم

وفيه طلع الأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء
المقدمين الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية
بسمور . ونزل الى داره فى موكب حافل وصحبته
الأمراء ، فزيئت له القاهرة ، وسبب ذلك أنه كان
قد مرض مرضا خطرا وأشرف فيه على الموت ثم
شفى من ذلك .

وفى يوم الأربعاء سابعة نزل السلطان الى
المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وكان النيل قد

قارب الوفاء فزاد في تلك الليلة أربعاً وعشرين أصبعا في دفعة واحدة ، فتفأل الناس بنزول السلطان الى المقياس .

وفي يوم الخميس ثامنه جلس السلطان في الميدان ، وأحضر قصاص الصفوى وخلع عليهم كوامل مخمل أحمر كهرى بسمور ، وعلى بقية جماعته سلاريات صوف مفرية ما بين سمور ووشق وسنجا ، ودفع اليهم جواب كتابهم ، ولكن كتب الى الصفوى في جوابه عبارة ألفاظها يابسة في الكلام ، وكان الصفوى أرسل الى السلطان في كتابه ألفاظا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة ، وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة بين السلطان وبين شاه اسماعيل الصفوى ، وكان الصفوى قد حصل منه في حق قاصد السلطان الأمير تهرباى الهندى لما توجه اليه غاية الفحش به .

وفي هذا الشهر وقعت نادرة وهو أن أشيع بين الناس أن رودس قد فتحت على يد المسلمين بحيلة من غير قتال ولا حرب ، فقويت الاشاعات بذلك ، وهم أن يدق السلطان الكوسات في ذلك اليوم ويزين القاهرة ، وكان سبب ذلك أن شخصا من أبناء الشام جاء الى شخص من مماليك الأمير خاير بيك كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين ، وكان هذا المملوك شادا في بلد تسمى زفته ، فجاء اليه ذلك الرجل الشامى ودفع اليه عدة مطالعات ، وقال له : هذه من عند الأمير محمد بك قرابة السلطان الذى أشاعوا قتله ، وقد ظهر أنه في قيد الحياة وقد تحيل على أهل رودس حتى أخذها منهم وملكها وأسر أهل المدينة بحيلة ، وأن الأمير محمد بك قد وصل الى الطينة وأرسل يطلب فرسا وقماشاً ، فأخذ المملوك منه المطالعات وحضر الى عند السلطان ، فلما قرأ تلك المطالعة انصاع

لذلك الكلام وظن أنه حق ، فخلع على ذلك المملوك حلعة ، وفرق على الأمراء مطالعاتهم ، وهم أن يدق الكوسات لهذا الخبر ، وأرسل صحبة ذلك المملوك فرسا وبقجة فيها قماش ، وكذلك الأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، فأخذ المملوك القماش والخيل ومضى ، ثم ظهر في عقيب ذلك أن هذا الكلام كذب مصنوع ، فعين السلطان يحيى بن نكار دوا دار والى القاهرة بأن يتوجه خلف ذلك المملوك ويحضره ويحضر الرجل الشامى الذى دفع اليه المطالعات ، فغاب أباما وأحضر المملوك وما أخذه من الخيول والقماش ، وأحضر ذلك الرجل الشامى الذى جاء بالمطالعة ، فلما حضر بين يدي السلطان حرق عليه بالكلام فاعترف أنه صنع تلك الكتب افتعالا عن الأمير محمد بك ، وأن شدة الفقر أحوجته الى ذلك ، فقال له السلطان : « كنت أنت وقفت الى وطلبت منى شيئا كنت أنعم عليك به » ، ثم عراه بين يديه ليضربه بالمقارع فوجد في أجنابه أثر الضرب بالمقارع ، فسأله عن ذلك ، فاعترف أنه كذب مرة أخرى على خاير بك نائب حلب فضربه بالمقارع وقطع أنفه ، ثم ان السلطان ضربه بين يديه وبعثه الى المقشرة من يومه ، واستعاد الخيول والقماش من ذلك المملوك الذى أتى بالمطالعات .

وفيه أنعم السلطان على تهرباى الهندى الذى توجه قاصدا الى الصفوى بامرة طبلخاناه ، وكان قبل أن يسافر أمير عشرة .

وفي يوم الجمعة تاسعه تلاقى ماء النيل ودخل الى الزربية ، وكان له يوم مشهود ، وكان السلطان في العام الماضى سد خليج الزربية وعمل له جسرا من عند قنطرة موردة الجبس ، فلم تسكن بيوت الزربية في العام الماضى ، ولم يدخل خليجها المراكب

على جارى العادة بالغالل ، فوجدوا فم الخليج قد
تربى فيه الطين نحوا من سبع أذرع ، فرسم
السلطان بإبطال ذلك الجسر ، ففرح به سكان
الزربية .

وفى يوم السبت عاشره خلع السلطان على قاصد
ملك الكرج وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، كان وفاء النيل
المبارك ، وقد أوفى فى أول يوم من مسرى وفتح
السد فى اليوم الثانى منها ، ووقع مثل ذلك فى
دولة الأشرف قايتباى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة
أن النيل أوفى فى آخر يوم من أيب وفتح السد
فى أول يوم من مسرى ، فلما أوفى فى هذه السنة
زاد عن الوفاء عشر أصابع من الذراع السابعة
عشرة ، فعد ذلك من النوار .

وفى اليوم الثانى من بعد الوفاء زاد النيل اثنتى
عشرة أصبعا ، وزاد فى اليوم الثالث ست عشرة
أصبعا فغلق سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع من
ثمانى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوار
الغربية . فلما أوفى النيل رسم السلطان للأتابكى
سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على
العادة ، فتوجه وفتح السد وكان له يوم مشهود ،
وقد قيل فى المعنى :

النيل زاد زيادة قد أذنت

من كل باسقة النخيل بقلعها

فلکم به من مركب فى الجو قد

أمسى عمود الصبح صارى قلعها

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى
المقياس وبات به ، وكانت ليلة البدر فبات بسطح
القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد هناك
أسطة حافلة ، وقرأ ختمة وحضر سائر قراء
البلد والوعاظ ، وأقام هناك الى اليوم الثانى وطلع

بعد العصر ، وكانت ليلة الجامكية ، وهذا أول
بياته عن القلعة ، ولم يقع له من حين ولى السلطنة
أنه بات عن القلعة سوى هذه الليلة ، وكان ولده
المقر الناصرى محمد صحبتته ، قيل انه قرأ فى تلك
الليلة عشرين ختمة بالنجرتية ، وانشرح تلك الليلة
الى الغاية ، ثم فى اليوم الثانى نزل السلطان من
المقياس فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، وكان
الأمير خاير بيك الخازندار عليلا وهو مقيم فى
البيت المعروف بالسبكية ، فطلع عنده السلطان
وعاده فمد له خاير بك هناك مدة حافلة ، فأكل
منها ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى هذا الشهر تنهى النيل فى الزيادة الى اثنتى
عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وذلك قبل
دخول النوروز بسنة عشر يوما ، حتى عد ذلك
من النوار ، فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر
جدا ، حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب
والرمان وسائر الفواكه ، لكن الزبيب كان غاليا
وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل قنطار ،
وصاروا يخلطون مع الأقساماء العجوة ، وكانت
أصناف الغلال جميعها مشططة ، وسائر البضائع
من السيرج والزيت والزيت الحار والسمن مشططة
فى السعر ، وكذلك سائر الأجبان حتى السكر
والقطر ، وتشحط اللحم الضانى والبقرى ، وغلا
سعر الأرز ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى جمادى الآخرة تغير خاطر السلطان على
الزینى برکات بن موسى المحتسب ، وسبب ذلك
أنه حصل بينه وبين الجمالى يوسف البدرى الوزير
تشاجر بحضرة السلطان ، فخرج الزينى برکات
على البدرى فى القول قدام السلطان وأساء عليه .
فحق السلطان من الزينى برکات وأمر بالقبض

عليه ، و وكل به ألباس دوا دار سكين وشخصا آخر من دوا دارية السكين ، فأطلعوه الى طبقة الحوش ، ورسم له السلطان بأن يقيم له حساب أربع سنين عن الجهات التي كان يتكلم عليها ، فاستمر في الترسيم ثمانية أيام وهو في كل يوم يدفع الى ألباس ورفيقه مائة دينار ، ولم يجسر أحد من الأمراء أن يكلم السلطان في أمره .

فلما كان يوم السبت تاسع هذا الشهر أفرج السلطان عن الزيني بركات وألبسه كاملية صوف بسمور ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، ومعه جماعة من أرباب الدولة ، فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين ، وتخلق الناس بالزعران ، حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون فعلقت في الطيقان ، وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء ، وكان ساكنا ببركة الرطلى في أيام النيل . وكان الزيني بركات محببا للناس في أيام ولايته على الحسبة ، ولما قبض السلطان عليه رثى له الناس ، وكانت الأعداء شنعت عليه أن السلطان يقصد شنقه مثل على بن أبى الجود ، فنجاه الله تعالى من ذلك ، وقد هنيته لما خلاص بهذين البيتين وهما :

تاب اليك الدهر مما جنى
من فعله في حكمه الجاير
فما نجا من شر كيد العدا
سوى الفتى المحتسب الصابر

وقيل ان السلطان قرر عليه نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وقيل أربعين ، يقوم بشيء من ذلك في كل شهر على الجوامك .

ومن الوقائع الشنيعة أن الوالى قبض على

شخص من الأتراك يقال له دمرداش ، وكان مشدا على دار البطيخ التي بباب النصر ، وقد غمز عليه أنه ينبش على القبور ويأخذ رءوس الموتى ولحمهم ويبيع ذلك للفرنجة يعملون منه المومية ، وقيل السم ، فلما قبضوا عليه وجدوا عنده من عظام الموتى أشياء كثيرة من جماجم وأعضاء ، فحملوا ذلك في قفاف على حمير وطلعوا بها الى السلطان حتى شاهد تلك العظام . فلما وقف دمرداش المذكور بين يدي السلطان ، سأله عن أمر هذه الجماجم ، فقال : هذه من قبور النواويس يأتيني بها العربان فأصنع منها المومية وأبيع ذلك في بلاد الفرنج ، ثم وجدوا على العظام لحما طريا ، وشهد عليه الناس أنه في كل يوم يتوجه الى الصحراء وينبش قبور الموتى الحدد ويأخذ لحمهم وعظمهم يبيع ذلك على الفرنج . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بشنقه ، فسمروه على جمل وأشهروه في القاهرة حتى أتوا به الى داره بالقرب من دار البطيخ فشنق هناك ، وكان له يوم مشهود .

وقد تقدم مثل هذه الواقعة بعينها في دولة الأشرف برسباي . وذلك أن رجلا أعجيا كان بمصر ينصب على النساء والأطفال ويقتلهم وينزع لحمهم عن عظمهم ، ويبيع اللحم على الفرنج كل قنطار بخمسة وعشرين دينارا ، فلما غمز عليه قبض عليه السلطان وأشهره في القاهرة وقطع يديه وعلقهما في رقبتة ثم وسطه ، وكان ذلك في ستة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه من بين الكيمان الى أن وصل الى السواقى التي في الهد ، فنزل من هناك في الغراب الذى عمره ، ثم انحدر الى المقياس وطلع الى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ثم ان السلطان

عزم هناك على الأمراء قاطبة من المقدمين والطبلخانات والعشراوات وغالب العساكر ، فنصب الأمراء لهم خياما على شاطئ البحر الذى تجناه بر الجيزة ، فبات السلطان تلك الليلة فى المقياس هو والأمراء قاطبة ، فمد له هناك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا أسمطة حافلة ، وما أبقي فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسكر حريف وأقسام وبطيخ صيفى وأجبان مقلّى فى الطواري ، وعزم ذلك على سائر الأمراء قاطبة ، وممن كان صحبة السلطان من المباشرين وأرباب الدولة ، فألبسه السلطان هناك كاملية مخمل أحمر بسمور من ملايسه ، وشكر له السلطان ما صنعه من ذلك ... فكان مصروف تلك الأسمطة نحو من سبعمائة دينار ، وعزم السلطان هناك على القضاة الأربعة وأعيان الناس ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ . ثم ان السلطان أوقد فى قاعة المقياس وقدة حافلة باطنا وظاهرا ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر الذى أنشأه على شرفات المقياس ، قناديل فى أحمال وأمشاط ، حتى أوقد جامع المقياس والمئذنة ، ثم ان سكان بر مصر وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين ، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة . ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار فأرسوا به قبالة المقياس ، وصنعوا له ثمانية مراس فى البحر ، وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط ، فكان الذى وقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل . ثم صنع السلطان فى تلك الليلة حراقة فكان مصروفها نحو من مائة وسبعين دينارا مثل حراقة نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة ، فشقوا بالنفط من القاهرة وهو مزفوف وقدامه

الطبول والزمور ، فكان عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستين مئذنة ، وأزيار عشرة ، وجرر أربعين جرة ، وصواريخ كبار ثلاثمائة ، ومأويات ألفا ومائتين ، وشجرات عشرة ، وتنانير عشرين ، وقطع ألفين ، وشعل أربعين ، فلما وصلوا بالنفط الى شاطئ البحر أنزله فى خمسين مركبا ، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البهظة . ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات مثل صوت الرعد القاصف . فلما صلى السلطان العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط ، وكان النيل فى ثلاث أصابع من عشرين ذراعا ، وكانت ليلة البدر ، فكانت تلك الليلة ، فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين ، وهم أربعة وعشرون مقدم ألف ، فقاموا فى صعيد واحد عند احراق النفط ، فكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلا فيما تقدم ، ولم يقع لأحد من الملوك قبله مثل هذه الواقعة ، ولا للمؤيد شيخ ولا للناصر فرج ابن برقوق .

وقد وقع للأمير جاني بك نائب جدة أمير دوا دار كبير أنه لما أنشأ القبة التى فى منشية المهرانى وكملت أوقد فيها تلك الليلة وقدة حافلة ، وأحضر مراكب وعلق فيها أحمالا بقناديل وركز صواري قدام القبة وعلق فيها قناديل فى حبال ، وكانت له ليلة حافلة ، وذلك فى أواخر سنة سبع وستين وثمانمائة . وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الظاهر خشقدم ، ولكن لم تعادل ليلة وقعت للأشرف الغورى فانها كانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى كل مركب فى تلك الليلة

خمسة دنائير وأكثر من ذلك ، والمراكب التي هي
مرسية على البر انشجنت بالحلايق ، فأخذوا على
كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك جملة
مال للنواتية .

وكان بطول الليل والى القاهرة يدور في مركب
وينادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد
يشوش على أحد ولا مملوك يعث على امرأة ،
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت
الأصوات بالدعاء للسلطان ، ولكن عبث الممالك
في الطرقات على الناس وصاروا يخطفون العمائم
والشدود ، وقتل مملوك امرأة في طريق مصر وقد
ساق الفرس فقوى رأسه عليه فداس امرأة راكبة
على حمار فماتت من وقتها ، وغرقت مركب تلك
الليلة بمن فيها من الناس ، وكانت ليلة كثيرة
الاضطراب ماجت فيها الناس وخرجت البنت في
خدرها حتى تنظر وقدة السلطان وحرقة النفط ،
فأقام السلطان في المقياس يوم الأربعاء ويوم
الخميس الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة ، وكان
ولده المقر الناصري محمد صحبتته وغالب الأمراء ،
وقد نظمت هذه القصيدة في هذه الواقعة حيث
أقول :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج
كليلة سمحت للأشرف الغورى
فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا
في وقدة الليل بالأملأك والدور
من بر مصر ومقياس يقابله
كان التقابل بين النور والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا
ما أزهرت بالدجى في ليل ديجور
وكم رأينا قلاعاً في ذخائرها
صوارخ بضياء في الجو منشور

كواكب النفط قد حاكت لنا قمرا
بضوء زهر بدا في الماء منشور
قلوب أزياره صارت مفرقة
من وهج نيرانها في زى مقهور
وصوت باروده مثل الرعود اذا
ما صرخوه يحاكي نفخة الصور
وضاق رجب الفضا في البحر من سفن
لما بدت في ازدحام كل شخثور
وكم سمعنا مغن صوته طرب
يشهدو على آلتى عود وطنبور
قالت لنا روضة المقياس ذا عجب
هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور
تاريخ سلطاننا فساك الملوك اذا
تفاخروا فهو تاج الكل بالدور
حفت عساكره من حوله زمرا
فكم سبا جمع أحزاب على الفور
لو عاش من أنشأ المقياس قال له
الآن أنت علينا خير مشكور
فلا الرشيد ولا المأمون ناسبه
في أمره ناهيا عن كل منكور
فالله يقيه في عز وفي شرف
أعيذه من شرار الناس بالطور
ما غرد الطير في روض وناشده
على الغصون هزار حول شحور
محمد بن اياس نظمته درر
وقد أضاءت بمدح الأشرف الغورى
ثم الصلاة على المختار ما طلعت
شمس الضحى واستنار الأفق بالنور
وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه خلع السلطان
على ناظر الخاص وخرج على الهجن وسافر الى

مكة ، وخرج صحبته جماعة من مصر يرومون الحج .

وفي يوم الخميس رابع عشرينه توفي قراكر الشريفي الفهلوان أحد الأمراء العشاوات ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم الخميس ثامن عشرينه أشيع بموت علم الدين الذي كان متحدثا في كتابة الخزانة ، وقد قاسى شدائد ومحنا وصودر ، واستمر في المصادرة من سنة أربع عشرة وتسعمائة الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وضرب غير ما مرة وعصر وأخذ منه مال له صورة نحو من مائة وعشرين ألف دينار على ما قيل ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وآخر الأمر مات وهو تحت العقوبة في الترسيم .

وفيه قبض السلطان على تاج الدين ابن كاتب الدوايب وسلمه الى الزيني بركات بن موسى ، وسبب ذلك قيل عنه أن عنده لعلم الدين المذكور وديعة .

وفيه حضر الناصري محمد بن الشهابي أحمد ابن أسنغا الطياري أمير شكار ، وقد تقدم أن السلطان تغير خاطره عليه بسبب علم الدين جلبي السلطان فرسم بنفيه الى قوص ، فلما توجه الى هناك كان الأمير طومان باي الدوادار مسافرا نحو الصعيد ، فلما وصل الناصري محمد الى هناك ترامى على الأمير طومان باي بأن يشفع فيه عند السلطان ، فأرسل شفع فيه ، فرسم السلطان بعوده الى مصر ، فلما طلع السلطان خلع عليه ونزل الى داره ، لكن غرم مالا له صورة .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه هجم المنبر ليلة السبت على سكان الزربية من المتفرجين ، فدخلوا المقاصف ونهبوا عمائم الناس وقماشهم وعبئهم وقتلوا شخصا من الخفراء ، وكانت ليلة مهولة ، وراحت على من راح .

وفي يوم الجمعة المذكور صنع الأمير قانصوه ابن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وقدة وحرقة نبط في بركة الفرايين ، مكان داره التي أنشأها هناك ، فكانت له ليلة حافلة وعزم على الأمراء عنده ، ونقل مراكب صغارا على جمال الى بركة الفرايين فكانوا نحبوا من ثلاثين مركبا أو دون ذلك ، وأمر سكان البركة بأن يوقدوا في بيوتهم القناديل والثريات والأمشاط ، فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ، ومد أسمطة حافلة للأمراء ، ولم يقع قط في بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة في الفرجة والقصف .

وفي رجب ، كان مستهله يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنة بالشهر ، فحصل للقاضي الشافعي من السلطان بعض مقت ، وسبب ذلك أن قوس الهلال كان تلك الليلة لا يرى ، فقيل رآه بعض الناس ، وكان قوسه تلك الليلة على درجتين ونصف ، وكان عسر الرؤية وحكم أرباب التقويم أنه لا يرى تلك الليلة ، فثبت رؤيته على قاض في الصليبية يقال له شمس الدين الأتميدي ، فلما طلع القضاة الى السلطان وقال للقاضي الشافعي : أحضر لي القاضي الذي ثبت عليه برؤية الهلال على درجتين ونصف وهو غير ممكن الرؤية ، فنزل القاضي الشافعي كمال الدين الطويل وهو في غاية التعفيش وأشيع عزله .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وكان بلفسه مجيء الأمير طومان باي الدوادار من الصعيد ، فلما أن وصل بالمركب نزل الى المقياس وسلم على السلطان هناك ، ثم في ثاني يوم طلع وليس خلعة حافلة ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على

قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب
وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاضى القضاة
كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عنها ، وهذه
خامس ولاية وقعت لابن النقيب ، وقد سعى
فى هذه المرة بثلاثة آلاف دينار وقيل انه تقدم منه
فى هذه الخمس ولايات نحو من سبعة وعشرين
ألف دينار ، غير ما سعى به للمتكلمين له على
ما قيل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان الى
المطرية وأقام فى قبة يشبك الدواidar الى بعد
العصر ، وأكل السماط هناك ، ثم عاد الى القلعة .
وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، الموافق لأول يوم
من بابه ، ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من
احدى وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف
هاتور . وقد تقدم القول أن فى سنة ثلاث وثمانين
وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، ثبت النيل
المبارك على احدى عشر أصبعا من احدى وعشرين
ذراعا ، فكان أزيد من هذا بثلاث أصابع .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه فرق السلطان على
المماليك القرائضة الخيول التى كانت لهم فى
الديوان ، فأعطى لهم عن كل فرس فحل خمسة
آلاف درهم ، والذى له فحل واكديش ثلاثة آلاف
درهم عن الاكديش وأعطاه فحلا مع الثلاثة آلاف ،
ومن حين تسلطن الى يوم تاريخه لم ينفق على
المماليك القرائضة ثمن خيول الرد سوى فى هذا
الشهر .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان
الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة مستهل الشهر .

وفى شعبان طلع الخليفة والقضاة الأربعة الى
السلطان ليهنوه بالشهر ، فقبل لهم بأن السلطان
فى المقياس لم يطلع الى الآن ، فرجع الخليفة الى

داره ، وقيل ان القضاة عدوا له الى المقياس وهنوه
بالشهر هناك ، وكل هذا استخفاف بالناس ، ولم
يكن له فى ذلك اليوم شغل يقتضى قعاده فى المقياس
ذلك اليوم ، فكان يوم تفرقة الجامكية الخامسة
التى استجدها .

وفى يوم الثلاثاء ثانى نزل السلطان الى الميدان
وجلس فيه الى قريب الظهر ، ثم طلع الى الدهيشة
فلم يأكل السماط على جارى العادة ، وحصل له
توعك فى جسده ودخل الى دور الحرم ، وأقام فيه
يوم الأربعاء والخميس ، فكثر القال والقليل بين
الناس ، وأشيع أنه قد أصابه القولنج . ثم خرج
يوم الجمعة وصلى فى الجامع فأبطل ذلك القيل
والقال .

وفى هذا الشهر قبض السلطان على أقبای
كاشف الشرقية ووكل به بالقلعة وتغير خاطره
عليه ، فنادى فى القاهرة كل من كان له ظلامة عند
أقبای كاشف الشرقية فعليه بالأبواب الشريفة .
وكان أقبای أفحش فى الشرقية غاية الافحاش ،
حتى ضج منه جميع المقطعين وكثرت فيه الشكاوى
من العسكر . ثم رسم السلطان بنزوله الى بيت
تقيب الجيش حتى يرضى العسكر فيما أخذه من
البلاط غير العادة ، فلم يقد من ذلك . وأرضى
السلطان بمال وراح على المقطعين ما أخذه من
بلادهم عن سنة ثمانى عشرة الخراجية معجلا .
وفعل أشياء بالشرقية لم يفعلها غيره من الكشاف .
وفى يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان
على قانصوه العادلى وقرره كاشف الشرقية عوضا
عن أقبای بحكم انفصاله عنها ، وخلع على جان
بلاط الأشرفى كاشف الغربية وأقره على حاله
بالغربية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره رسم السلطان
بالافراج عن شرف الدين يونس النابلسى الذى

كان أستاذاراً وعزل عنها ، وقد قاسى شدائد
ومحننا ، وأقام نحواً من ثلاث سنين وهو في
الترسيم بالجامع الصغير الذى هو داخل الحوش
السلطاني ، وربما كان في الحديد في هذه المدة ،
وضرب بين يدي السلطان غير ما مرة ، وصودر
وقرر عليه مال له صورة يرد منه على الجوامك في
كل شهر خمسمائة دينار .

وفيه كانت كاينة الخواجا شمس الدين الحلبي
مع السلطان ، وسبب ذلك أن السلطان كان صادره
مراراً عديدة وأخذ منه جملة مال ، فأرسل الحلبي
الى مكة كتاباً بخط يده الى شخص من أصحابه
بمكة وذكر فيه ما فعله به السلطان ، وأرسل يقول
له : « ادع على السلطان في تلك الأماكن الشريفة
فانه ما هو مسلم ولا في قلبه رحمة قليل الدين » .

فظفر بعض أعداء الحلبي بهذا الكتاب
فأوصله الى السلطان ، فلما قرأه أحضر الحلبي
وأطلعاه على ذلك الكتاب فأنكر الحلبي
ذلك وقال : « هذا ما هو بخطي » . فشهد
عليه جماعة أن هذا خطه ، فرسم السلطان عليه
وشكه في الحديد ، وقصد عليه أن يثبت عليه
كفراً كون أنه عمله قليل الدين وما هو مسلم . ثم
آل أمره على أن السلطان قرر عليه مالا له صورة .

وفيه فرق السلطان اطلاقات الطين على الأمراء ،
ولكن أحدث شيئاً ما فعله أحد من الملوك قبله ،
وهو أنه نقص من اطلاقات الأمراء أشياء كثيرة
وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة ، فنقص من
اطلاق أمير كبير سودون العجمى مائتى فدان ،
وكان قبل ذلك سلخ من اقطاعه جهات بنحو من
عشرين ألف دينار كون أنه كان لين الجانب
فاستضعفه ، ونقص من اطلاق بقية الأمراء المقدمين
كل واحد مائة فدان ، ومن اطلاقات الأمراء
الطبلخانات كل واحد عشرين فداناً ، ومن اطلاقات

الأمراء العشراوات كل واحد خمسة عشر فداناً ،
وفرق على أصحاب الوظائف لكل واحد أشرفيين ،
وبقية الممالك كل واحد أشرفياً ، وآخرين أشرفياً
ونصف .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه نزل السلطان
الى المقياس وأقام به الى آخر النهار ، ومد هناك
سماطاً حافلاً ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفي يوم الخميس خامس عشرينه خلع السلطان
على المعلم يعقوب اليهودى ، وقرره متحدثاً على
دار الضرب ، كما كان ابن نصر الله الذى تسحب
كما تقدم ذكر ذلك ، فألبسه كاملية صوف أزرق
بسمور ونزل من القلعة وهو في غاية العظمة .

وفي يوم الجمعة سادس عشرينه ، الموافق لتاسع
هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس
الصوف .

وفي يوم الأحد ثامن عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى المقياس ، ثم نزل في خرطوم الروضة
ونصب له هناك خياماً وأقام الى أواخر النهار .
وانشرح في ذلك اليوم ، وكان صحبتته ولده المقر
الناصرى محمد وجماعة من الخاصكية . وأشيع
أن خرطوم الروضة أعجبه فأمر أن يبنى هناك
قصر بأربعة أوجه .

وفي أواخر هذا الشهر لم يعرض السلطان
المسجونين الذين في الحبوس على جارى العادة ،
وكان له عادة يعرض من في الحبوس قبل رمضان
بأيام قلائل ، ويطلق من المحاييس جماعة ، وينعم
على المديونين بشيء ، ويصالح عنهم الغرماء ،
ويفعل أشياء كثيرة من هذا النمط ، فلم يعمل في
هذه السنة شيئاً من ذلك وتغافل عن هذا الأمر .

وفي رمضان كان مستهله يوم الأربعاء ، فطلع
الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس

السلطان في الميدان وعرض عليه الوزير يوسف
البدرى اللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم
وغير ذلك ، على جارى العادة ، وهو مزفوف على
رءوس الحمالين ، فخلع الوزير على الزينى
بركات بن موسى المحتسب ونزلا من القلعة في
موكب حافل .

وفي أوائل هذا الشهر عز وجود الحطب قاطبة ،
وصار الناس يقدون الجلة والكرس وقش
الفيضان ، وتعطلت مطابخ الأمراء بسبب ذلك
ولا سيما في رمضان ، واستمر الحال على ذلك
الى أواخر الشهر .

وفي يوم الخميس ثانى رمضان حضر الى الأبواب
الشريفة قاصد من عند ملك الهند ، وصحبته فيلان
عظيما الخلقة ، وعليهما بركستوانات مخمل أحمر
بمسامير كف ، وعلى ظهورهما صنّاجق ، وعلى
أنيابهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القاهرة
لما دخلوا ، وكان السلطان في الميدان فعرضا
عليه وقدامهما الطبول والزمور ، فتسارع الفيلان
قدام السلطان في الميدان ، وانشرح في ذلك
اليوم الى الغاية ، ثم رسم بأن يتوجهوا بهما الى
بيت الأتابكى تمرّاز الذى عند القبو فأقاما به ،
وحضر ضحبة القاصد أولاد الخواجا عيسى القارى
الذى توفى بمكة ، فقرّر عليهما مائة ألف دينار ،
فتشكوا من ذلك فحلف بحق رأسه ما يأخذ منهم
الا مائتى ألف دينار ، فرجعوا من عنده وهم في
أسوأ حال .

وفي يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان وتوجه الى
نحو المطعم الذى بالريدانية وجلس على المصطبة
التى هناك ، وأطلقوا قدامه الكلاب والصقورة
والفهودة ، وانشرح في ذلك اليوم ، ثم عاد الى
القلعة من يومه .

وفي يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على
المقر السيفى طومان باى أمير دوا دار وقرره متحدثا
على ديوان الوزارة والأستادارية وسائر الدواوين
قاطبة ، وأشيع أنه بقى نظام المملكة ، فتضاعفت
عظمته جدا ، واجتمع فيه عدة وظائف سنّية
ولا سيما لكونه قرابة السلطان ، فلما نزل من
القلعة كان له يوم مشهود ، ونزل صحبته سائر
الأمراء وأرباب الدولة حتى الفيلىن المقدم ذكرهما ،
وهما مزينان بالصنّاجق واللبوس ، وقدامهما الطبول
والزمور .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الرئيس حامد
المغربى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان
ليشتري أخشابا وحبالا ومكاحل نحاس . فلما
بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته الى
السلطان عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشاب
وحبال ، وغير ذلك أشياء كثيرة في مراكب موسوقة .

وفي يوم الجمعة عاشره حضر على الجركسى
قاصدا من عند خاير بك نائب حلب ، وكان
السلطان أنعم على الجركسى بأمرة عشرة بحلب
وجعله حاجبا ثانيا هناك ، وذلك لأجل خاطر خاير
بك نائب حلب ، ويقال ان على الجركسى هذا كان
أصل أبيه فرانا ، وكان على حسن الشكل فأخذه
الأمير خاير بك عنده بجمقدار ورباه صغيرا حتى
كبر ، فلا زال يرقى حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ،
والعبد بسعيه لا بأبيه ولا بجده .

وفيه كان ما وقع لرئيسة المغانى ، وهى امرأة
يقال لها هيئة اللذيذة ، وقد رافعها بعض أعدائها
بأن لها دائرة كبيرة من المال ولها حلة للكرى ،
فلما سمع السلطان ذلك قبض عليها وأقامت في
الترسيم ، وعرضت للضرب غير مرة ، وقرّر عليها
خمسة آلاف دينار ، فباعته الحلى وجميع ماتملكه
وأوردت ألف دينار ، وقد تكلم لها القاضى بركات

ابن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد في كل شهر مائة دينار على كل جامكية ، وقد طفّل السلطان نفسه الى مصادرات المغاني أيضا ، والأمر لله .

وفي يوم الخميس سادس عشره فرق السلطان الكسوه مع الجامكية ، ولكن جعل كسوة أولاد الناس والممالك العواجز ألقي درهم ، وصار لا يأخذ كسوة ثلاثة آلاف درهم سوى الممالك القرائنة وجلبانه فقط .

وفي ذلك اليوم حضر سيف نائب كختا ، وأشيع أنه مات قتيلا من بعض التراكمة .

وفي يوم الأحد تاسع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة ونزل في مدرسته وزار قبر أولاده ، ثم عرض الأيتام الذين بالمكتب ورسم لهم بكسوة على العيد ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفي يوم الاثنين عشرينه خلع السلطان على الشيخ خليل بن اسمعيل بن شبانة ، شيخ عربان جبل نابلس ، وقرره على عادته في مشيخته بجبل نابلس ، وقد سعى في ذلك بمال له صورة .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن شخصا من النصاري يقال له عبد الصليب ، وهو من نواحي دلجة من الجهات القبلية ، فقبل عنه انه وقع في حق النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بكلمات فاحشة . فشهد عليه جماعة بذلك وكتبوا به محضرا وثبت على قاضي الناحية ، فلما أحضروا النصرائي بين يدي السلطان اعترف بما قاله في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، فعرضوا عليه الاسلام فأبى ، فبعثه السلطان الى بيت الأمير طومان باي الدوادار ، فعقد له مجلس فاعترف بين يدي القضاة بما قاله وصمم على ذلك ، وقد بايع نفسه على عدم تغيير

دينه ، فحكم القضاة بسفك دمه ، وثبت ذلك على بعض نواب المالكية فأركبوه على جمل وهو مسمر وأشهروه في القاهرة حتى أتوا به الى عند المدرسة الصالحية ، فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة . ثم ان العوام أحضروا له النار والحطب وأحرقوا جثته في وسط السوق ، فلما دخل الليل أكل الكلاب عظامه ومضى أمره .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرينه عرض السلطان خلع العيد ، وكانت في هذه السنة في غاية الوحاشة ، وهم بحكم النصف عن كل سنة ، وتعوق غالب الخلع . وسبب ذلك أن ناظر الخاص كان مسافرا في الحجاز .

وفي ذلك اليوم كان ختم البخاري بالقلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وفرقت الخلع والصرر على من له عادة ، وكان ختما حافلا بالحوش السلطاني في الخيمة المدورة .

وفي يوم الخميس سلخ الشهر حضر الأمير حسين الذي كان توجه باش التجريدة التي توجهت الى بلاد الهند ، وكانت مدة غيبة الأمير حسين في هذه السفرة نحو من سبع سنين وثلاثة أشهر ، وتوجه الى بلاد الهند واتقع هناك مع الفرنج وكسروه ونهبوا ما كان معه من المراكب والسلاح ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وهو الذي كان شادا على عمارة الصور والأبراج التي أنشأها السلطان بجدة وجاءت من أحسن المباني . وكان الأمير حسين قرر في نيابة جدة في هذه المدة ، وأظهر هناك الفتك والعظمة ، وجار على التجار في أمر العشر ، وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا منه ، وتوجه في هذه المدة الى جماعة من ملوك الهند . ولما حضر الأمير حسين جاء صحبته أقاصد من عند الملك مظفر شاه ابن الملك محمود شاه صاحب كنباية ، الذي توفي الى رحمة الله تعالى ، فحضر

قاصد الملك مظفر شاه حتى يأخذ له من الخليفة
تقليدا بولايته على كنيابة ، فطلع السلطان على
الأمير حسين وعلى قاصد ملك الهند ، ونزلا في
موكب حافل .

وفي شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب في
ذلك اليوم خطبتان ، وكان موكب العيد حافلا .
وفي يوم الاثنين رابعه طلع الأمير حسين بتقدمة
حافلة للسلطان ، ومثلها تقدمه من عند قاصد ملك
الهند صاحب كنيابة ، وكانت تقدمه الأمير حسين
لها المنتهى من كل صنف فاخر .

وفي يوم الثلاثاء خامسه حضر القاضي علاء
الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم القول على أنه
توجه الى مكة لينظر في أمر من يلي امرة مكة
عوضا عن الشريف قايتباي الذي توفي . فلما حضر
ناظر الخاص حضر صحبتته ابن الشريف بركات ،
وحضر صحبتهم موزن عزورة أمير مكة وهو صبي
صغير السن يقال له محمد أبو نسي ، وحضر معه
ابن عمه الشريف عرعر ، وحضر صحبتهم قاضي
قضاة مكة الشافعي والقاضي المالكي ، فلما أقبلوا
قام لهم السلطان وأكرمهم غاية الاكرام ، وخلع
عليهم كراامل بسمور ، وعلى ناظر الخاص . وقد
لاقاهم لما دخل قضاة مصر الأربعة والقاضي كاتب
السر ابن أجا وأعيان الناس ، فنزلوا في مكان
أعد لهم .

وفي يوم الأربعاء سادسه نزل السلطان الى قبة
الأمير بشبك التي بالمطرية ، فأقام بها الى ما بعد
الظهر ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان
بالميدان ، وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة

والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل ،
وشقوا بها من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .
وفي يوم الاثنين ثامن عشره خرج الحاج من
القاهرة وصحبته المحمل الشريف ، وكان أمير
ركب المحمل تمر الحسنى أحد الأمراء المقدمين ،
وبالركب الأول يوسف الناصري شاد الشراب
خاناه الذي كان نائب حماة ، وخرج صحبتها
الأمير قطنوباي الذي قرر باش المجاورين ، فكان
لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم أطلاب حافلة
حتى رجت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل
الأفيال الكبار وهي مزينة باللبوس ، وعلى
ظهورها الصناجق ، وقدامها الطبول والزمور .
وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة
الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة ، وخرج
قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوما
مشهودا .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى نحو قبة مصطفى التي في المرج والزيات
وبات بها تلك الليلة وأقام هناك .

وفي يوم الأربعاء سابع عشرينه نزل السلطان
الى نحو تربة العادل وجلس هناك ، وجربوا قدامه
عدة مكاحل ، ثم أقام هناك الى بعد العصر وعاد
الى القاعة .

وفيه توفي المعلم عبد القادر الشماع ، وكان
علامة في فن التقويم وأخبار الفلك .

وفي أواخر هذا الشهر توفي الأمير اينال شاد
العمائر السلطانية ، وكان أصله من مماليك
الأتابكي أذربك بن ططخ ، وأنعم عليه السلطان
بأمرة عشرة ، وكان عنده من المقربين ، وكان عارفا
بأمور الهندسة وأحوال البناء وكان لا بأس به .
وفي هذا الشهر رسم السلطان بتجديد عمارة

ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع ،
فشرع فى ذلك وأمر الأمير قانى باى قرا أمير آخور
كبير بأن يتولى أمر العمارة ويأشر ذلك بنفسه .
فامتثل ما رسم به وأظهر العزم فى ذلك .

وفى ذى القعدة ، فى يوم الأربعاء خامسه ، نزل
السلطان الى نحو تربة العادل التى تجاه المطرية ،
وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه
عدة مكاحل بأحجار كبار ، ثم توجه الى قبة
يشبك التى هناك ، وأمر بعمارة فساقى وحفر
بئر بسبب مرور المسافرين من هناك ، وشرع
فى فتح عمارة كبيرة . وجعل الأمير تانى بك
الخازندار أحد الأمراء المقدمين شادا على هذه
العمارة ، فقدروا على مصروف هذه العمارة مالا
جزيلا ، وما كان الوقت محتاجا الى تلك العمارة
هناك ، وتكلموا بأنه ينشئ هناك قصرا عظيما ،
وبحرة طولها نحو من مائة ذراع ، وينشئ هناك
غير ذلك أشياء كثيرة .

ومما وقع فى هذه الأيام أن كلبة فى الأذربكية
ولدت أحد عشر كلبا فى بطن واحدة فعد ذلك من
النوادر الغريبة .

وفى يوم الخميس سادسه حضر الى الأبواب
الشريفة أحد أولاد أحمد بك بن عثمان ملك
الروم ، وهو شخص يسمى سليمان بك ، فلما
حضر أكرمه السلطان وألبسه سيلارى صوف
بسمور من ملايسه ، وقيل ان والده أحمد بك
فر من أخيه سليم شاه الذى تولى على مملكة
الروم ، وقصد أنه يحضر الى عند السلطان ، فبدا
له من بعد ذلك أمر ، فتوجه الى عند شاه اسماعيل
الصفوى وحضر ابنه الى عند السلطان ، فما انشرح
السلطان لذلك وخشى مما يأتى من هذه الحركة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير
أقبای الطويل أمير آخور تانى ، وعينه بأن يتوجه
قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، ليهنيه
بالمملك ، وينسج مودة بينهما . فنزل أقبای من
القلعة فى موكب حافل .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشرفى يونس بن
الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وقرر عليه
عشرين ألف دينار وكتب خط يده بذلك ، وكان
سبب هذه الكاينة له أن يونس السيفى قيت
الرحبى كاشف منفلوط تغير السلطان عليه وقرر
عليه مالا له صورة ، وسلمه الى يونس نقيب
الجيش . فلما نزل به الى داره تسحب من عنده
واختفى فتغير خاطر السلطان على نقيب الجيش
وقال : « ما أعترف بالمال الذى عليه الا منك » .
فكان هذا سببا لكاينة نقيب الجيش مع السلطان ،
وكان نقيب الجيش من وسائط السوء اذا وقف
بين يدى السلطان ما يتحدث فى أحد من الناس
بخير ، ويحصل للناس منه الضرر الشامل ، فكان
يستحق كل سوء ، فلما جرى عليه ذلك شرع فى
بيع أملاكه ورزقه وقماشه وخيوله ، وجاء عليه
السلطان مجيء وحش ، والمجازاة من جنس
العمل .

وفى يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على
قاضى القضاة كمال الدين وأعاده الى منصب
القضاء ، وصرف عنه محبى الدين بن النقيب ،
وهذه ثالث ولاية وقعت لكمال الدين الطويل ،
وقد نفذ منه فى هذه الثلاث ولايات فوق العشرة
آلاف دينار ، وأما محبى الدين بن النقيب فانه
تولى خمس ولايات ، فكانت مدته فى هذه الخمس
ولايات سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام لا غير ،
كما يقال فى المعنى :

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر قد جازاه من جنس العمل

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره نزل السلطان وكشف على العمارة التي في الميدان ، كما تقدم ذكر ذلك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم الجمعة رابع عشره صلى السلطان صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم ركب ونزل وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه ثلاث طوايل خيول بسروج ذهب وكنائش ، وقدامه من الأمراء الأمير طومان باي الدوادار الكبير فقط ، ومن الأمراء الطبلخانات أقباي أمير آخور ثاني وكرتباي والي القاهرة ، وجماعة من الخاصكية والسلحدارية ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة لمساء ، وعليه سلاري صوف فستقي بسمور ، وهو راكب فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وأشيع أنه يتوجه الى نحو الأهرام ويقيم به أياما ، فنصب هناك وطاقا . وأشيع أنه يتوجه من هناك الى الفيوم كما وقع للأشرف قايتباي نظير ذلك ، فرجت القاهرة لسفره على حين غفلة ، وماج العسكر الذي لم يكن على فقرة من احتياج السفر . ولما نزل السلطان من القلعة توجه الى المقياس وبات به ليلة السبت ، فلما طلع النهار عدى من هناك وطلع الى بر الجيزة وتوجه الى الوطاق الذي نصبه عند الأهرام .

وقيل ان السلطان أخذ معه جماعة من المغاني وأرباب الآلات ، فمنهم محمد بن عوينة العواد وجلال السنطيري والبواقلة وابن الليموني وغير ذلك من المغاني . فلما توجه الى الوطاق أقام به يوم السبت والأحد ، ثم رحل عن الوطاق يوم الاثنين سابع عشره وقصد التوجه الى نحو الفيوم وكان صحبته من الأمراء الأتابكي سودون

العجمي وقاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فتوجهوا على الهجن وساروا الى الفيوم .

وفي يوم الاثنين المذكور فرقت الجامكية على العسكر في غيبة السلطان بسباب القلعة . واحضر ذلك مقدم الممالك والأمير خاير بك الخازندار والوزير يوسف البدرى ، وغير ذلك من الأعيان مثل القاضي بركات بن موسى المحتسب وغيره

ومن الحوادث في غيبة السلطان قد حضر المقر علاء الدين بك أخو سليمان بك أولاد المقر الشهابي أحمد بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، وكان توجه الى زيارة بيت المقدس فلم يحضر صحبة أخيه سليمان بك لما حضر ، فأنزله عند ما حضر في بيت الأتابكي تمرار الذي عند القبو الى أن يحضر السلطان

فلما توجه السلطان الى الفيوم وجدها خرابا وشرق غالبها ، وقد تقطع الجسر الذي بها ، فلم يقم بها السلطان سوى ليلة واحدة ، ورسم للأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين بأن يقيم هناك حتى يعمر الجسر الذي بها ، ثم ان السلطان رسم له بأن يفرد على البلاد التي هناك من اقطاعات ورزق على كل فدان طين عشرة أنصاف ، وقيل أفرد على المقطعين هناك ثلث ما لهم من الخراج ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاة الضرر .

وكان قبل ذلك رسم السلطان بعمارة جسر ام دينار الذي بالجيزة ، فندب الى عمارته الشرفي يونس نقيب الجيش وشخصا آخر من المباشرين يقال له جمال الدين ، فأفردوا على البلاد والرزق والاقطاعات التي هناك في اقليم الجيزة الثلث من الخراج ، فحصل للمقطعين الضرر الشامل ، وصار

يتعسف معهم ويستخرج منهم المال ، وصار
السلطان يعوق جوامك الممالك الذين لهم
اقتاعات في اقليم الجيزة بسبب عمارة هذا الجسر ،
فما أبقي نقيب الجيش في ذلك ممكنا من باب
المظالم ، لا سيما شدة عسفه في المظالم السلطانية .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد قصد العود
من الفيوم ، فخرج الى تلقيه أمير المؤمنين وهو
المتوكل على الله محمد فلاقاه من دهشور وهي بلد
الخلافة ، فأقبل عليه السلطان ورحب به وبالغ في
اكرامه وتعظيمه وألبسه سلاوى صوف فستقى
بسمور من ملابسه ، قيل ان مشتري سموره
ثلثمائة دينار .

وكان الخليفة لما توجه السلطان الى الفيوم مر
من على دهشور بلد الخليفة فقدم اليه الخليفة
مهارة وأغناما وأبقارا وأشياء كثيرة من دجاج وأوز
ومن أنواع الأكل قدور عسل نحل وجرر لبن وغير
ذلك أشياء كثيرة ، فشكر له ذلك .

ثم ان السلطان أتى الى الوطاق الذي تركه
منصوبا تحت الأهرام ومضى الى الفيوم ، فلما نزل
بالوطاق تسامعت به الناس فتوجه اليه قضاة
القضاة ، وهم كمال الدين الطويل الشافعى ومحيى
الدين يحيى الدميرى المالكى والشهاب أحمد
الشيخينى الحنبلى ، وخرج اليه غالب أعيان
الناس ، فنزل السلطان بالوطاق يوم الأربعاء
سادس عشرينه ، فأقام به يومى الأربعاء والخميس
وأحرق هناك احراقة نطف ثانية .

فلما كان يوم الجمعة عدى السلطان من هناك
ونزل بالمقياس فأقام به الى يوم الأحد سلخ الشهر
فتوجه اليه هناك أولاد ابن عثمان الذين حضروا
كما تقدم القول على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ، عدى
السلطان من المقياس وأتى الى بر مصر وركب من
هناك ، ومشى قدامه الرءوس النوب بالعصى ،
ومشى قدامه الجهم الغفير من الخاصكية بغير
شاش ولا قماش ، وركب قدامه الأتابكى سودون
العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير
طومان باى الدوادر الكبير وحاجب الحجاب
أنص باى ، وجماعة من الأمراء المقدمين والأمراء
الطبخوانات والأمراء العشراوات وأعيان المباشرين
من أرباب الوظائف ، وكان قاضى القضاة الحنفى
عبدالبر بن الشحنة مسافرا صحبة السلطان فركب
قدامه ، فألبس السلطان الأمراء المقدمين كوامل
مخمل أحمر بسمور ، وهم أمير كبير وأمير مجلس
والدوادر الكبير ، وألبس بقية الأمراء المقدمين
كوامل صوف بسمور ، وكذلك جماعة من الأمراء
الطبخوانات من أرباب الوظائف ممن كان مسافرا
مع السلطان ، وألبس قاضى القضاة الحنفى عبد البر
كاملة صوف أبيض بسمور وكان مسافرا معه ،
وركب قدامه العسكر قاطبة ، فشق من الصليبة مع
طلوع الشمس وهو فى موكب حافل ، وعليه كاملية
مخمل أحمر بسمور ، وهو راكب على فرس بسرج
ذهب وكنبوش ، وقدامه ثلاث طوايل خيل بسروج
ذهب وكنابيش ، وقدامه حجورة بسروج بداوى
وركب مغربى ، وكان قدامه أربع نوب هجن فيها
نوابتان بأكوار زركش ، وكان قدامه الفيالان
الكبيران وعليهما البركستوان المخمل الأحمر ،
وعلى ظهورهما الصناجق الحرير الملون ، وكان
قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى والطبردارية .
قد شاهدت هذا كله بعينى ، وركب قدامه أولاد ابن
عثمان ملك الروم ، وركب قدامه جماعة من أولاد
ابن قرمان كانوا بمصر ، وركب قدامه جماعة من

مشايخ عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من الأعيان ، فاستمر في هذا الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة ، وهذه كانت أول سفرات السلطان ، وكانت مدة غيبته في هذه السفرة سبعة عشر يوما ذهابا وايابا .

ووقع له في هذه السفرة امور غريبة لم يقع للأشرف قايتباي مثلها لما سافر الى الفيوم ، وقد بلغني ممن أثق به أن السلطان فتك في هذه السفرة فتكا زائدا وأظهر أنواعا من العظمة ، وصار يسد للأمراء بطول الطريق أسمطة حافلة وطواري فاخرة في كل يوم أربع مرار ، ما بين حلوى وفاكهة وأجبان مقلّى وجلاب وغير ذلك من الأسمطة الحافلة ، ولا يمنع من يأكل على السباط من الغلمان وغيرهم . وكان يطوف على العسكر بالسكر في قرب مع السقاين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء غريبة من هذا النمط ، ورتب العليق لخيول العسكر بطول الطريق ، وكانت هذه السفرة على سبيل التنزه .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان توجه الى هناك بسبب مطلب وجد هناك ، والأصح أنه توجه بسبب الكشف على الجسر الذي هناك ، وهو جسر اللاهون ، وجسر آخر هناك ، فإنه كان تقطع حتى شرق منه اقليم الفيوم . فلما توجه السلطان الى هناك صار يتصيد في جهات الفيوم ودخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان وغيرهم .

وقد بلغني ممن أثق به أن السلطان فرق على الأمراء الذين كانوا معه من التقادم التي دخلت عليه ، فأعطى الأتابكي سودون العجمي ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات ، وأعطى الأمير أركماس أمير مجلس مائتي دينار وفرسا وأربعين رأس غنم وأربع بقرات ، وأعطى الأمير طومان باي الدوادار الكبير مثل ذلك ، وأعطى الأمير أنص باي حاجب الحجاب مثل

ذلك ، وأعطى لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم مائة وخمسين دينارا وفرسا وبقرتين وأربعين رميسا ، هذا خارجا عن الأوز والدجاج . وأعطى للأمراء الطلبخانات لكل واحد منهم أربعين دينارا وللأمراء العشرافات لكل واحد منهم عشرين دينارا وفرق عليهم أغناما بحسب مقام كل واحد منهم ، وأنعم على جماعة من الخاصكية من أرباب الوظائف بحسب ما يختاره ، ثم أنعم على من كان معه من المغاني لكل واحد منهم عشرين دينارا وحين صوف بسنجاب . وهذا على ما نقل ولم ألتزم صحة ذلك .

ثم ان السلطان ألبس الأمراء المقدمين عند عوده الى القلعة لكل واحد من أرباب الوظائف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وألبس قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة كاملية صوف أبيض بسمور ، وألبس جماعة ممن كان معه من أرباب الوظائف لكل واحد منهم كاملية صوف بسمور ، وقد تقدم القول على ذلك .

فلما طلع السلطان الى القلعة دخل الى الميدان وكان مستهل الشهر ، فطلع القضاة الى الميدان وهنوه بالشهر ، ثم نزلوا صحبة قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة .

وهذا ملخص ما وقع للسلطان في هذه السفرة الى الفيوم .

وفي يوم الأربعاء ثالثه نزل السلطان الى قبة يشبك التي في المطرية وكشف على العمارة التي أنشأها هناك .

وفي يوم الخميس رابعه ابتدأ السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ابن حمادة شيخ العرب بالقيونية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، وكانت الأضحية في هذا العيد في غاية الانشحات من الغنم والبقر وذلك بسبب تسلط المماليك الأجلاب على الفلاحين الذين يحضرون البقر والغنم ، فكان المماليك يخرجون الى المطرية والى الخانكاه ويخطفون الغنم غصبا ، فحصل للناس غاية الضرر بسبب ذلك ، حتى الفحم كان مشحوتا والحطب في هذا العيد .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له جان بلاط وقرره في نيابة كختا ، فخرج في ذلك اليوم الى محل نيابته بكختا ، وخرج بطلب لطيف .

وفي يوم الأحد حادى عشرينه نزل القاضى بركات ابن موسى المحتسب ونادى على الفلوس الجدد بأن تكون الفلوس الجدد والعق بالميزان وهى بنصفين الرطل ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه أظلم الجو وثار ربح عاصف واشتد البرد ، وكسفت الشمس في ذلك اليوم كسوبا فاحشا ، وكان ذلك قبل العصر بأربع عشرة درجة ، وأقامت في الكسوف نحو ساعة .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه أمطرت السماء بردا غزيرا مثل الحصى التى في الصحراء .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة خصبة نتج فيها الزرع وأفلح فيها البطيخ العبدلي والبطيخ الصواصلى وسائر الفواكه ، ووقع فيها الرخاء ، وكان فيها النيل عاليا وثبت فيها ثباتا جيدا ، وكانت سنة هادئة من الفتن والشور ، ولم يظهر فيها الطاعون بمصر بل ظهر بشجر الاسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل منه الى مصر شيء .

سنة تسع عشرة وتسعمائة (١٥١٣ م)

وكان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، ففيه في المحرم طلع أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد . وفي ذلك اليوم أمطرت السماء مطرا غريزا وفيه حصى وهبت رياح عاصفة .

وفي يوم السبت رابعه نقلت الشمس الى برج الحمل وهو أول فصل الربيع ، فلما نقلت الشمس الى برج الحمل ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من الأطفال والعبيد والجوارى ، فخرجت طائفة من الواحية وتوجهوا الى بلادهم فرارا من الطعن وقد فشا أمره .

وفي يوم الأحد خامسه نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، وانشرح في ذلك اليوم ، وطلع القلعة بعد العصر .

وفي يوم الثلاثاء سابعه كانت كايمة قرقماس المقرى ، وذلك أنه قد اتهم بقتل امرأة ومملوك . وسبب ذلك أنه كان ساكنا على غيط المرستان في زقاق الكحل ، فطلعت غلماناه وعبيده الى هذه الامراة والمملوك وفي أيديهم السيوف وزعموا أنهم منسروا ، فضربوا الامراة والمملوك زوجها ، وقطعوا آذان ابنتها وأخذوا منها الحلق ، فماتت البنت في ليلتها ، فلما طلع النهار وجد في الامراة والمملوك جروح بالغة ، حتى قيل وجد فيه ست عشرة ضربة بالسكاكين ، فحملوهما على أقفاص حمالين وعرضوهما على السلطان ، فقال له المملوك والامراة : ما لنا غرماء سوى قرقماس المقرى وغلماناه . وكان هذا المملوك ساكنا بالقرب من بيت قرقماس المقرى في زقاق الكحل ، فلما تحقق السلطان من ذلك شك قرقماس المقرى في الحديد

وسلمه الى الوالى هو وغلماناه ورسم له بأن يعاقب
الغلمان والعبيد حتى يقرأوا على من فعل ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأمير يخبى
الذى كان كاشف البهنسا ، وعرض أغاته الأمير
قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات ، وكان له مدة
وهو مختف لأمر أوجبه ، فلما عرضوهما على
السلطان شك الأمير يخبى فى الحديد وسلمه
للوالى ، وكذلك الأمير قنبك الشيخ ، واستمر
عند الوالى حتى يكون من أمرهما ما يكون .

ثم ان السلطان حل بعد ذلك فى أمر قرقماس
المقرى ، ولم يأخذ بيد المملوك الذى جرح ولا
بيد المرأة التى ماتت ابنتها لما قطعوا آذانها ،
وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان
على شخص من مماليكه يسمى جان بردى وقرره
فى نيابة طرسوس ، وكان من الأمراء العشراوات .
وفى يوم الأحد تاسع عشره كان فيه فطر
النصارى ، فنزل السلطان فى ذلك اليوم الى قبة
يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ،
وعزم على جماعة من الأمراء ومد هناك أسمطة
حافلة وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة
قبل غروب الشمس ، وكان يوما حافلا .

وفى يوم الاثنين عشرينه كان أول يوم فى
الخماسين وهو عيد النصارى ، فكانت النصارى
فى هذا العيد فى غاية النكد بسبب ما قرر عليهم
السلطان من المال ، وهو نحو من عشرين ألف
دينار ، وذلك بسبب أنهم يشتري لهم جوار
للخدمة ، فتغير خاطر السلطان عليهم ومنعهم من
ذلك ، وقد ترفعوا فى بعضهم فحنق منهم السلطان
وصادرهم وضيق عليهم ، فكانوا فى هذا العيد فى
غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين المذكور وقعت زلزلة خفيفة ،
واستمرت تعاود الناس ثلاث مرار والأرض
تضطرب اضطرابا ظاهرا ، وكان هذا كله دلائل
على تزايد أمر الطاعون ، فلما دخلت الخماسين
تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا .

ثم ان بعض الحكماء أشار على السلطان بأن
يلبس فى أصابعه خواتم ياقوت أحمر فانه ينفع
لمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصى ياقوت أحمر
مثمنا وصاغهما على ذهب خاتمين ، وصار يلبسهما
دائما ويجلس فى المواكب وهو لابس تلك الخواتم
فى أصابعه ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولا سيما
من سلطان تركى .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه ثارت رياح
عاصفة ، وقام فى الجو رعد شديد وبرق وأمطرت
السما مطرا غزيرا ، وذلك بعد نقل الشمس الى
برج الحمل بأيام عديدة .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه دخل أمير الحاج
بالركب الأول وهو يوسف الناصرى ، وصحبته
الأمير خاير بك العلاء المعمار باش المجاورين .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه دخل المحمل
الى القاهرة صحبة الأمير تمر الزردكاش أحد
الأمراء المقدمين ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه
السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب
حافل ، ولكن كان الثناء الحسن من الحجاج
بالركب الأول للأمير تمر يوسف الناصرى ، ولم يشن
الحجاج على الأمير تمر أمير المحمل خيرا ، وشكا
من بخله فى الطريق الحجاج قاطبة .

وفى يوم الجمعة فى الرابع والعشرين منه
أمطرت السماء حصى قدر البندق وذلك وقت صلاة
الجمعة ، حتى أعاق الناس عن دخول الجامع من
شدة الأمطار والوحل ، وذلك بعد نقل الشمس الى
برج الحمل ، فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه نخرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير وتوجه الى نحو جهات الصعيد بسبب مساحة الأراضى وضم المغل ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وطلب طلبا حربيا ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه نزل السلطان وعدى الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وأشيع بين الناس أنه عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منها العمل أمر بأن تزين بالصناجق ويضعوا فيها الطبول والزمور النفوط ، وتجنىء وهى على هذه الهيئة من بولاق الى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو بالمقياس ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية وابتهج ، ثم صلى العصر وعدى وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود .

وفي صفر تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب ، فهرب قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم الى نحو جبل الطور ، وله بذلك عادة بأنه يهرب أولاده الصغار الى جبل الطور فى أيام الفصول ويسلمون من الطاعون ويحيئون بعد مضى الفصل وهم سالمون ، لا يفقد منهم أحد حتى ولا من عياله ، ويقال ان تلك الجهات لا يدخلها الطاعون ..

ثم ان القاضى عبد البر حسن للسلطان عبارة بأن يرسل ولده الى هناك فلم يوافق على ذلك . ثم ان الأمير قانى باى أمير آخور كبير لما رأى قاضى القضاة عبد البر أرسل أولاده الى الطور ، فقامت زوجته بنت الأمير يشبك الدوادار الى أمير آخور وقالت له : أرسل ولدى صحبة أولاد

القاضى ، فعمل لها سنيح وخرجت فى محفة وابنها صحبتها ، ثم عمل مثل ذلك الأمير جان يردى الذى كان باش المجاورين فأرسل ولده صحبة ابن أمير آخور . ثم ان الأمير نوروز تاجر الممالك أرسل ولده وسراريه صحبة ابن أمير آخور ، ثم ان أنص باى حاجب الحجاب أرسل جماعة من مماليكه الى هناك ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وتبعهم جماعة من أعيان الناس على ذلك وأرسلوا أولادهم الى الطور خوفا عليهم من الطعن ، وهذا شيء لم تفعله الأمراء قط سوى فى هذا الفصل من عظم ما وقع فى قلوب الناس من الرعب من هذا الطاعون ، ومع أنه كان خفيفا جدا بالنسبة الى الطواعين المتقدمة .

وفي هذا الشهر أمر السلطان بهدم القبة التى أنشأها بمدرسته التى فى الشرايشيين وكانت قد تشققت وآلت الى السقوط ، فهدموها عن آخرها ثم أعادوها ثانية .

وفي يوم الأربعاء سابعه كانت وفاة قاضى القضاة الحنبلى ، وهو شهاب الدين أحمد بن على ابن أحمد الشيشينى الحنبلى ، وكان علامة فى مذهبه من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة ، وكان قد شاخ وكبر سنه وناف عن السبعين سنة من العمر ، ومات بالطاعون ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وكانت جنازته حافلة .

وفي يوم الخميس توفى الأمير تغرى برمش السيفى كسباى الششمانى المؤيدى المعروف بالرماح ، وكان تغرى برمش رئيسا حشما تولى الوزارة غير ما مرة وأقام بها مدة طويلة ، وكان قد طعن فى السن وذهل فى عقله ، وقد باشر ديوان الوزارة أحسن مباشرة .

وفي يوم السبت عاشره نزل السلطان وتوجه الى

ميدان المهارة الذي بقناطر السباع وكشف على العمارة التي أنشأها بالميدان ، ثم توجه من هناك الى الروضة وأقام بالمقياس ذلك اليوم .

وفي ذلك اليوم كان عقد مجلس بالمدرسة الصالحية ، وحضر قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة وقاضي القضاة المالكي يحيى الدين يحيى ابن الدميري ، وكان هذا العقد للمجلس بسبب شرف الدين بن روق ، ومن ملخص واقعته أنه كان رجلاً أهوج ، وعنده خفة ورهج ، وكان السلطان حاططاً عليه بسبب علم الدين الذي كان متحدثاً على الخزانة وقد تقدم القول على ذلك ، وكان شرف الدين بن روق صهر علم الدين زوج أخته ، فلما جرى لعلم الدين ما تقدم ذكره فضمنه شرف الدين بن روق فيما تأخر عليه من المال الذي قرره عليه السلطان ، فلما مات علم الدين رسم السلطان على ابن روق وطالبه بما على علم الدين وجرى على ابن روق بسبب ذلك شذائد ومحن يطول شرحها .

ثم ان ابن روق وقع من لسانه بكلمات فاحشة في حق قضاة العصر وغيرهم من الناس حتى قيل عنه انه قال : « لم أستكمل الآن أحداً من القضاة ولا غيرهم بأن أصلي خلفه » فضبطوا عليه ذلك ، فلما أحضروه في المدرسة الصالحية فجر على قاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة وعلى قاضي القضاة المالكي يحيى بن الدميري ، وكان شرف الدين بن روق من أهل العلم والفضل بارعاً في أصول الدين . فلما أفحش في حق عبد البر بن الشحنة ، عزره قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، ووسطحه على ظهره في وسط المدرسة الصالحية ، وضربه على رجليه بعض عصيات بسبب إساءته على قاضي القضاة عبد البر ، فلما

جرى ذلك كادت العوام أن ترجم عبد البر بن الشحنة وتعصبوا الى ابن روق ، ثم انقض ذلك المجلس مانعاً ، وكان السلطان قائماً في أن يثبت على ابن روق كفراً ويضرب عنقه فلم يتم له ذلك ، وكان قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل قائماً في الباطن مع ابن روق ، فلما بلغ السلطان ذلك مقت القاضي الشافعي بسبب أنه لم يوافق على ائتلاف ابن روق .

فلما انقض المجلس من الصالحية تسلم القاضي بركات المحتسب ابن روق ومضى به الى بيته ليعاقبه ، فوضعه في الحديد وحصل له غاية البهدة في ذلك اليوم ، حتى قيل ان ابن موسى ضربه فوق المائة عصاً ، واستمر عنده في الحديد حتى يستخلص منه المال الذي ضمن فيه علم الدين . وقيل ان شرف الدين ابن روق لما عرضوه على السلطان كلمه بكلام فاحش حتى حنق منه السلطان وقصد أن يوقع فيه فعلاً ويتلفه ، فلم يتم له ذلك .

وفي يوم الأربعاء رابع عشره توفي القاضي شرف الدين يحيى الأنصاري قبيب القضاة الحنفي ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان لا بأس به . وفي هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك في الممالك وفي العبيد والجواري والأطفال والغرباء ، وصار يوماً يزيد ويوما ينقص ، وتناهت ورقة التعريف في هذا الشهر بعدة من يموت في كل يوم ، فبلغت الى ثلاثمائة وخمسة وستين انساناً ممن يرد التعريف ، والعادة في الفصول الكبار أن الواحد من التعريف بعشرة ممن لا يرد التعريف ، فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل السبيل على جاري العادة في الفصول المتقدمة .

ومما أحدثه السلطان من أبواب المظالم في هذا الفصل أنه رسم للأمير مغلباي الزردكاش بأن

يأخذ من موجود من يموت من الممالك السلطانية ممن له جامكية ، فيرسم على وصى الميت حتى يحضر بسيف مسقط بفضة وزردية وخوذة وتركاش ، فصار الزردكاش يرسم على زوجة الملوك الذى يموت حتى يأخذ منها ما ذكرناه ، ثم رسم للأمير آخور كبير بأن يأخذ ممن يموت من الممالك ممن له جامكية وعليق فيأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما ، والخاصكى ثلاثة رعوس خيل وبغلة ، وأصحاب الوظائف ممن يموت منهم فيأخذ من وصيه خمسة رعوس خيل وبغلة ، فيرسم على الوصى وزوجة الميت حتى يأخذ منها ما ذكرناه .

وما هو أعظم من هذا كله أنه رسم الى الماس دوا دار سكين بأن يأخذ ممن يموت من ممالكه الأجلاب خمسين ديناراً ، وهى النفقة التى كان قد أنفقها عليهم ، ويأخذ من الجنادر عشرين ديناراً ، فأطلق فى أوصياء الممالك النار وصاروا يمتنعون من الوصية ، فما طاق العسكر ذلك وكادت أن تنشأ من ذلك فتنة كبيرة ، فأقام الحال على ذلك أياماً ثم رجع عن بعض شئ من ذلك ، وهذا الأمر لم يقع قط من ملك قبله ولا أحدث هذه المظلمة ، فلما تزايد أمر الموت رسم السلطان بشيل الدكك التى على أبواب الحكام ، ومنع النقباء قاطبة من على أبواب الأمراء وأرباب الوظائف ، ووقع له أيضاً مثل ذلك فى سنة عشر وتسعمائة لما وقع فيها الطاعون فرسم بشيل الدكك ومنع النقباء قاطبة ، وهذا ثالث فصل وقع فى أيامه فان الطعن وقع فى أيامه سنة تسع وتسعمائة ، وكان خفيفاً جداً وتناهد فيه ورقة التعريف الى مائة انسان ممن يريد التعريف ، ثم اختفى الطعن وغاب ثمانية أشهر وظهر فى سنة عشر وتسعمائة وتناهد فيه ورقة التعريف الى أربعمائة

وخمسة عشر انساناً ممن يريد التعريف ، ثم وقع الطاعون فى أيامه فى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة وتسعمائة ، ومن العجائب أن هذه الطواعين التى ذكرناها يستمر الطعن فيها عملاً حتى تنزل النقطة ويزيد النيل ، وقد تناهد فيه ورقة التعريف الى ثلاثمائة وخمسة وستين انساناً ممن يريد التعريف .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره نزل السلطان وتوجه الى العمارة التى أنشأها فى المطرية وكشف عليها ، ثم عاد ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، ثم طلع الى مدرسته وكشف عن القبة التى بها ، وقد تقدم القول على أنها قد تشققت وآلت الى السقوط فأمر بهدمها عن آخرها ، وقد رممها ثلاث مرار ولم يقد من ذلك شيئاً ، فلما شق السلطان من القاهرة أسمعته العوام الكلام بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين الناس أن السلطان يشتري القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل اردب قمح الى سبعة أشرقية ، وكذلك حلب أيضاً ، فكان يشتري القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشطحت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام المنكى وقالوا له جهاراً : « الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين » فسمع ذلك بأذنه فتشكد فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الرئيس الأصيل العريق ، وهو سليمان بك بن أحمد بك بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، فلما بلغ السلطان وفاته تأسف عليه فانه كان حسن

الشكل جميل الهيئة ، وكان حضر الى مصر فرارا من عمه سليم شاه لما تولى على مملكة الروم ، وقد تقدم القول على ذلك ، فتوفي ببولاق في المكان الذي أنزلوه به فأخرجت جنازته من هناك ، ومات بالطاعون ، فصنع له السلطان كفارة قدام جنازته ، وأخرجوا قدام جنازته خيوله وهي مقصوصة الأذنان وقد قلبوا سروجها ، ووضعوا عمامته على نعشه ، وكسروا أقواسه ووضعوها على نعشه ، وهذه على طريقة بلادهم ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وعاتب الأمراء الذين لم يمشوا قدام جنازته من بولاق ، ثم توجهوا به الى الصحراء فدفنوه في تربة البجاسي .

وفي أثناء هذا الشهر عرض السلطان محاييس الحجرة من النساء وأطلق من كان بها من النساء ، وهن زوجة رمضان المهتار وسريته وقد سجننا بسبب خوند أم الملك الناصر ، وأطلق تحفة التي كانت دوادارة خوند أم الناصر ، وأطلق أم معين الدين بن شمس الذي كان وكيل السلطان وجرى عليه ما جرى ، وأطلق فاطمة بنت عاقولة وكانت سجننا بسبب بنت خوند بنت المؤيد شيخ ، وأمرها مشهور ، وأطلق زوجة القاضي هاني وكانت مسجونة على دين ، ولم يعرض من في الحبوس من الرجال واستمر الحال على ذلك .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير سودون بن حيدر ، ويعرف أيضا بسودون الفقيه ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي .

وفي ذلك اليوم توفي القاضي كمال الدين محمد الأبو تيجي ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين سادس عشره نادى السلطان بمنع بيع النيذ والحشيش والبوزة ، ومنع النساء

الخواطي من عمل الفاحشة ، واستمر يشهر المنادة بذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان قد تزايد أمر الطاعون وصار الناس كل من يموت له بنت عروسة يجعل على نعشها شربوش الحلبي مع الطرحات ، ويضعون عصافير الحلبي في أرجل النعوش ، فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الخميس تاسع عشره فيه أحضرت جثة كاشف الغريبة وهو الأمير جان بلاط ، وأصله من مماليك الأشرف الغوري ، وكان من الأمراء العشراوات ، فلما أحضرت جثته دفن بالقرافة .

وفي ذلك اليوم توفي منلباي دوادار سكين ، وكان من أعيان الخاصكية .

ومن الفرائب ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وذلك أن في يوم الخميس المذكور بعد انقضاء المركب ، نزل الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة من القلعة ، وقدامه مشاعليين ينادون في مصر والقاهرة حسبما رسم به المقام الشريف بإبطال المشاهرة والمجامعة . وإبطال المكوس قاطبة التي كانت مقررة على السوق وعلى أصحاب البضائع من المتسبين قاطبة حتى على الطواحين التي في القاهرة قاطبة ، ورسم بإبطال ما كان يؤخذ على مشتري كل اردب من الغلال موجب ، فكان يؤخذ على كل اردب قمح نصف فضة ثم صارت نصفين موجب ، وكيالة فتصل الى ثلاثة أنصاف على كل أردب ، واستمر ذلك على سائر مشتري الغلال ، فلما رسم السلطان بإبطال ذلك ارتفعت له الأصوات بالدعاء ثم انطلقت له النساء بالزغاريت من الطبقان ، وكانت الأسعار قد غلت في سائر البضائع بموجب ذلك وصارت تباع المثل مثلين ولا يقدر أحد يزجر البياعين على ذلك فانه أمر سلطاني ، وكان متحصل هذه الجهات في كل سنة فوق الأربعين ألف دينار ، بل أكثر من ذلك مما كان من مشاهرة وغير ذلك

من مكوس ، وكان السلطان يحيل بهذا القدر جماعة من الأمراء عوضا عن الاقطاعات ، وهذا كان أشد الظلم على الناس قاطبة أمر هذه المشاهدة والمجاعة ، وكان ابطال ذلك في أيام السلطان من العجائب التي لم يسمع بمثلا ، وسبب ذلك أن الطعن كان كل يوم في تزايد وكان السلطان موهوما على نفسه ، وقد أشيع بين الناس أنه رأى مناما بأن النجوم قد تساقطت من السماء الى الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر ، فأول ذلك بأن النجوم هي العسكر والقمر هو الملك ، فعند ذلك أخذ في أسباب اظهار العدل وابطال شيء من المظالم ، والله الحمد على ذلك .

وفي يوم الجمعة سلخ هذا الشهر قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، وذلك في حادى عشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

وفي ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة للتهنئة بالشهر ، ففى ذلك اليوم خلع السلطان على العزى عز الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد الشيشينى الجنبلى وقرره في قضاء الخابلة عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا حسن السيرة لا بأس به ، وقد سعى في هذه الوظيفة جماعة من الخابلة منهم شهاب الدين الفتوحى وغيره فلم يوافق السلطان على ذلك ، وأرسل يقول لعز الدين : أورد ألف دينار والبس وظيفة أبيك ، ففعل ذلك .

وفي يوم الاثنين ثالثه نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وأشهر المناذاة عن لسان السلطان بتسعير البضائع حتى الدقيق ، فعز ذلك على السوق وغلقوا الدكاكين أياما واضطربت بسبب ذلك القاهرة ، ثم امتثلوا ذلك وسكن الاضطراب .

وفي يوم الثلاثاء رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من العسكر وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى الغربية ، فان العربان من حين مات جان بلاط الكاشف اضطربت أحوال الغربية ، وكان السلطان لما توفى جان بلاط الكاشف خلع على أخيه وولاه على كشف الغربية عوضا عن أخيه ، فلما توجه الى هناك فزعت عليه العربان وطرده وقتل خاصكى كان صحبتته وجماعة من البلاصية ، فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة وخرجت على الفور .

وفي يوم الأربعاء خامسه توفى شخص من الأمراء العشاوات يقال له جانم البواب ، وكان أصله من مماليك الأشرف قانصوه الغورى ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت ثامنه توفى الرئيس الأصيل العريق علاء الدين بك ، أخو سليمان بك ابن أحمد بك ابن السلطان أبى يزيد بن عثمان ملك الروم ، وقد تقدم ذكر وفاة أخيه سليمان فتبعه أخوه علاء الدين على بك ، وكان ترابهما بمصر ، وماتا بالطاعون ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليه ، ومشت الأمراء قدام نعشه ، وأخرجوا قدامه كفارة كما فعلوا بأخيه سليمان ، ودفن على أخيه بالصحراء .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى مدرسته التى أنشأها بالشرابشين فقام بها الى آخر النهار ، ونصب له سحابة على سطح المدرسة حتى يكشف على عمارة القبة التى هدمت وأعيدت ثانيا .

وفي يوم الاثنين عاشره جاءت الأخبار بوفاة مصرباى أخى جان بلاط الذى قرر في كشف الغربية عوضا عن أخيه جان بلاط ، فلم يقم في كشف الغربية بعد أخيه الا أياما ومات ، فلما مات خلع

السلطان في ذلك اليوم على شخص يقال له ألماس الساقى ، فقرره في كشف الغريبة عوضا عن مصرباى الذى توفى كما تقدم .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، ولكن كان الطعن عمالا والناس في غاية النكد ، ومات بالطاعون من العسكر ما لا يحصى .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد ابن عثمان بأن سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم بعد أبيه أبى يزيد بن عثمان ، وقد وقع بينه وبين أخيه قرقد شقيقه وهو الذى حضر الى مصر كما تقدم ، فلما وقع بينهما احتال عليه حتى حضر الى عنده فقتله وقيل خنقه بوثر ، وأشيع أيضا أنه قتل اخاه أحمد بك الذى حضر أولاده الى مصر وماتوا بالطاعون كما تقدم ، وأشيع أنه قتل جماعة من وزرائه ، وقد صار ملك الروم في اضطراب وربما يخشى عليه من الفرنج ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وقد فنى أكثر أولاد ابن عثمان ، وكان ابن عثمان ماسك زمام البلاد لطرده الفرنج عنها .

وفي يوم السبت خامس عشره توفيت ابنة السلطان الأشرف جان بلاط ، فصلى عليها السلطان ودفنت في مدرسة أبيها بباب النصر ، وكان لها من العمر نحو من اثنتى عشرة سنة ، وكانت جنازتها حافلة .

وفي ذلك اليوم نزل السلطان الى مدرسته وكشف على عمارة القبة ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة ، ونصب له السلطان سحابة على سطح المدرسة ، ونظر الى عمارة القبة واستحث البنائين على سرعة البناء .

وفي هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك في الممالك حتى صار يموت منهم في كل يوم نحو من خمسين مملوكا ، وكان قوة عمله بعد الخماسين وظهور الثريا ، ونزلت النقطة والطعن عمال .

وفي يوم الاثنين سابع عشره احتجب السلطان في الدهيشة ولم يخرج الى الناس ، وتزايد به ذلك العارض الذى في عينه ، وأشيع بين الناس أن جفونه ارتخت على عينه ، ولم يحضر تفرقة الجامكية وكثر القال والقليل بين الناس ، فلما كان يوم الجمعة لم يخرج السلطان الى صلاة الجمعة ، فلما انقضت صلاة الجمعة دخل قاضى القضاة الشافعى والأمراء المقدمون أوسلموا على السلطان وهو في الدهيشة فأسقامهم سكرًا ، ثم سلموا عليه وانصرفوا .

وفي يوم السبت ثانى عشرينه حضر هجان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم يحاصروا مدينة سواكن ، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من الممالك المجاورين الذين هناك بمكة ، وأقاموا بجدة خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه ، فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء هذا الخبر تنكد له السلطان الى الغاية ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد .

فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، فلما خرج قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ورقى الى المنبر خطب خطبة بليغة في معنى هذه النازلة التى وقعت بسبب الفرنج وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما قامت الصلاة قال المؤذنون : « القنوت عقيب

الصلاة » . فلما صلى قاضى القضاة صلاة الجمعة قنت فى الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة ، فقنت السلطان والأمراء ومن فى الجامع قاطبة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأمر بعرض العسكر الذين استجدهم فى الطبقة الخامسة ، فعرضهم وهم لابسون الزرديات والخوذ وفى أوساطهم السيوف ، وكان منهم رماة بالبندق الرصاص . فلما عرضهم كتب منهم جماعة نحو من ثلاثمائة انسان ، وعين باشهم الأمير أركماس أمير مجلس ومعه الأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ، وعين معهم جماعة من الممالك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتوجهوا الى السويس وقيموا به بسبب عمارة المراكب التى عمرها السلطان هناك .

وفيه عين السلطان الأمير حسين بأن يتوجه الى جدة ويستقر فى نيابتها على عادته ، وعين الأمير خشقدم شاد الشون بأن يتوجه الى جدة وقيم بها لأجل الكشف على أخبار الفرنج وغير ذلك . وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من الزردكاشية ورماة البندق الرصاص والنفطية ، وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى جدة صحبة الأمير خشقدم وقيموا بها الى أن يعين لهم السلطان تجريدة .

وفيه صلى السلطان صلاة الجمعة ودخل الى الدهيشة واجتمع هو والأمراء وضربوا معه مشورة فى أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فأشيع بين الناس أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربع تجاريد الى جهات معلومة ، فأقام الأمراء عند السلطان فى ضرب هذه المشورة الى قريب العصر وتخفوا من ثيابهم ،

وكان مجلسا حافلا ، ووقع فيه بعض جدال بين السلطان وبين الأمراء بسبب من يسافر منهم . وفيه تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى بلغت ورقة التعريف فى يوم واحد ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ، خارجا عن يخرج من المغاسل والأسبله ، فيقال ان ورقة التعريف فى أيام الفصول الواحد فيها بعشرة ، فعلى هذا يقاس أن كان يموت فى كل يوم ثلاثة آلاف وكسور ، وصار يزيد يوما وينقص يوما ، وكان أكثر فتكه فى الجوارى والعبيد والممالك والأطفال .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له ورديش بن قانصوه ، وتوفى سيدى يحيى بن تانى بك قرا الأينالى أمير مجلس كان ، وكان شابا لا بأس به ، فكان بينه وبين وفاة أخيه سيدى محمد ثمانى سنين .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تراز بن أقبای .

وفيه توفى شخص من أولاد ابن قرمان أمير التركمان يقال له مصطفى بن حمزة ، وكان مقيما بمصر فمات بالطاعون .

وفيه سرقت عملة ثقيلة من بيت الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وكانت عملة بنحو خمسة آلاف دينار ، فاتهموا بها جماعة من الجيران منهم ابن اينال باى دوادار سكين وجماعة من الغلمان ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للوالى بأن ينزل الى بيت ابن الجيعان ويحرر أمر هذه العملة ويفحص عن فعل ذلك ، فلما حضر الوالى الى هناك وحرق على جماعة ممن اتهم بذلك فظهر من تلك العملة أشياء كثيرة ، منها بشبخاناه عنبر ومخدرات

عنبر وصيحوون صيني ونحساس أصفر مكفت وفواتى مقفولة لم يعلم ما فيها ، وغير ذلك من مقاعد وألحفة ، واستمر الوالى يحضر فى كل يوم الى هناك ويقرر من فعل ذلك والعملة يظهر منها شىء بعد شىء ، حتى ظهر غالبها فى عدة أيام متفرقة .

وفى أواخر هذا الشهر رسم السلطان بإبطال مولد سيدى احمد البدوى رضى الله عنه ، وسبب ذلك أن العربان كانت تائرة فى البلاد ، والطن كان عمالا فى القاهرة ، والأحوال مضطربة من كل وجه ولا سيما بتوعك السلطان بعينه ، والاشاعات قائمة باثارة فتنة كبيرة .

وفى ربيع الآخر ، ففى يوم الاثنين ثانیه ، خلع السلطان على الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين وقرره فى امرة ركب المحمل ، وخلع على الأمير طومان باى حاجب ثانى وقرره فى امرة الحاج بالركب الأول ، وكان من الأمراء الطبلخانات .

وفى تلك الليلة نزلت النقطة وكان عيد ميكائيل .

وفى ذلك اليوم كان وفاة على الجركسى ، وكان من أخصاء خاير بك نائب حلب ، فحضر الى مصر فى بعض أشغال نائب حلب فمات بالطاعون بمصر ، وكان رقى فى أيام خاير بك نائب حلب حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، وهى فى منزلة امرة طبلخاناه بمصر .

وكان أصل على الجركسى هذا ابن قران ، وكان فى صغره مليح الشكل فحظى عند الأمير خاير بك حتى بقى عنده بجمقدارا ، فلما قرر خاير بك فى نيابة حلب سعى له عند السلطان فى الحجوية الثانية بحلب وصار من جملة الأعيان بمصر

وحلب ، وكان حضر الى مصر وتوجه الى الحجاز فحج ورجع من الحجاز وأقام بمصر مدة يسيرة ومات مطعونا ، وكانت له جنازة حافلة .

وفيه أبطل السلطان ضرب الكرة بسبب ذلك العارض الذى حصل له فى عينه ، ولأجل أن الطعن كان عمالا ، وكان غالب الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم .

وفيه تزايد بالسلطان رخو فى جفونه ، فجمع الأطباء والكحالين وعقدوا له مجلسا بسبب ذلك الرخو الذى فى جفونه ، فاجتمع رأى الحكماء والكحالين على أنهم يقصوا من جفنه ما طال ، فلم يوافق السلطان على ما قالوه من قص جفنه ، فطلعت اليه امرأة تركية وقالت له : « أنا أداويك من غير أن أقص جفنك بشىء من الفسولاد » . فأقامت عند السلطان مدة وهى تعالج فى عينه .

وفى يوم الاثنين تاسعه جلس السلطان فى شباك الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، وعرض جماعة من المماليك السيفية وغير ذلك من أولاد الناس ، وكتب منهم نحو من ثلاثمائة ملوك بأن يتوجهوا الى السويس صحبة الأمير أركماس أمير مجلس والأمير قانصوه أبو سنة ، بسبب الكشف على المراكب التى عمرها السلطان هناك واستعجال سرعة العمل فى ذلك ، ثم إن السلطان عين الأمير مغلباى الزردكاش الكبير وعين معه ثلاثين انسانا من الزردكاشية بأن يتوجهوا الى نحو السويس صحبة المكاحل التى يرسلها السلطان الى هناك ، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين ، وعين معهم جماعة من الرماة بالبندق الرصاص وجماعة من النفطية ، ورسم لهم بأن يخرجوا الى هناك بسرعة من غير نفقة فتضرروا من ذلك ، ثم بلغ السلطان أن المماليك المتعينين الى السفر قد صمموا على عدم السفر ،

وكان منهم ناصرية وظاهرية وأشرافية وعادلية وغير ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به ورسم بعرض الممالك المعينة الى السفر ، فلم يطلع منهم في ذلك اليوم أحد ، فبلغ السلطان أنهم قالوا : « نحن نسافر بلا نفقة نموت في البزاري بالجوع والعطش » . فتأكد السلطان في ذلك اليوم الى الغاية ، وقام من المجلس سريعا ، وكان في غابة التشويش بسبب عينه ، وأشيع في ذلك اليوم الركوب على السلطان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره نزل السلطان وتوجه الى المطرية وكشف على العمارة التي أنشأها هناك ، ثم أقام في قبة يشبك التي هناك الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الخميس ثاني عشره جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن اسمعيل شاه بن حيدر الصفوى ملك العراقيين قد خرج عليه بعض أعدائه من ملوك التتر ، فتحارب معهم فانكسر الصفوى وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا ، وأن الصفوى جرح وفقد ولم يعلم له خبر ، فكاتب السلطان بهذا الخبر سبعة من النواب ، فلما سمع السلطان هذا الخبر سر به .

وفيه توفي الرئيس عبد القادر القطبي ، وكان من أعيان الأطباء .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس وصلى هناك صلاة الجمعة ، وتوجه الى هناك قاضي القضاة الشافعي وخطب به في جامع المقياس وصلى صلاة الجمعة هناك ، وأقام بالمقياس الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ، فتزايد به رخو الجفون في عينيه وأشيع بين الناس أنه قد عمى وغارت عينه ، فاحتجب أياما عن الناس في القبة

الأشرافية ، وكثر القال والقليل بين الناس بسبب ذلك ، فتعطلت الناس في هذه المدة من المراسيم لأجل قلة العلامة وعدم المحاكمات ، حتى أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يخلع نفسه من الملك ويولى ولده عوضا عنه لأجل العلامة على المراسيم والمحاكمات ، فلم تتم تلك الاشاعة التي أشيعت بين الناس بذلك . ومما بلغني من بعض اخصاء السلطان أنه لما تزايد به هذا العارض في عينيه واضطربت به الأحوال ، كان يقف في شباك قبة الأشرافية بطول الليل ويتضرع الى الله تعالى ويقول : « يا من لا يوصف بالظلم والجور ، ارحم عبدك قانصوه الغورى » . ثم يقول : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وكان يكثّر من قول : يا بصير يا بصير ، وقد خشي مما شاعت به أعداؤه ، ونسى ما قدمت يداه ، وقد قلت في معنى ما وقع له :

سلطاننا الغورى غارت عينه

لما اشترى ظلم العباد بدينه

لا زال ينظر أخذ أرزاق الورى

حتى أصيب بأفة في عينه

وفيه شاوروا السلطان على إعادة الدكك التي على أبواب الحكام فلم يوافق على اعادتها ، وقال : « أنا تركت ما كان على الحسبة من المجامعة والمشاهرة وكانت بنحو ثلاثين ألف دينار في كل سنة ، فكيف ما تبطل الأمراء ما كان يحصل لهم من أمر الدكك ؟ » .

وكان الطعن قد أخذ في التناقص قليلا .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر .

وفي ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاء القاع ست أذرع وست عشرة أصبعا ، فلما أنفق السلطان الجامكية لم يحضر تفرقة الجامكية

الى آخرها ، وكان ذلك اليوم في غاية التشويش من عينه .

وفيه توفي شخص كان من العوانية الخوارج ، يقال له محمد بن طاهر ، يرافق الناس عند السلطان ، فلما وقع الطاعون بمصر طعن ابن طاهر هذا ومات بالطعن ، فأراح الله تعالى المسلمين منه ، فعد موته من حسن الزمان .

ومما وقع له في المرافعة أنه رافع امرأة جارية بيضاء يقال لها زوجة اينال باي ، وكانت ساكنة في درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر ، فرافعها بأن عندها مالا وديعة لبعض الأمراء فطمعت عليه ، فلما سمع السلطان ذلك أرسل قبض على تلك المرأة ورسم عليها عشرة آلاف دينار ، فباعته جميع ما تملكه وأوردت من ذلك شيئا ، فلما رأت أنها لم تقدر على ما قرر عليها من المال وصارت في الترسيم شنقت نفسها بيدها تحت الليل ، ووقعتها مشهورة بين الناس ، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر ، فعجل الله تعالى بروحه الى النار ، كما يقال :

زبانية النيران تكره وجهه

ومنه استعادت مذ رأته جهنم

ويقال ان ابن طاهر هذا كان من أقارب ابن علم الدين رأس باش الأوجاقية .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه قويت الاشاعة بالركوب على السلطان ، ولم يفتح في ذلك اليوم باب السلسلة ولا باب المدرج ولا باب الميدان ، ووزعت الأمراء قماشهم وغالب الناس ، واضطربت الأحوال على السلطان وضاق به الأمر حتى صار يدعو على نفسه بالموت . ثم ان السلطان أرسل خلف الأتابكي سودون العجبي وبقية الأمراء . فلما طلّعوا الى القعلة جلس السلطان معهم في

الدهيشة وعينه مرفودة بخرقة بيضاء ، ثم التفت الى الأمراء وقال لهم : « بلغني أنكم بتوزعوا قماشكم » . فقالوا له : « نعم قد بلغنا أن المماليك الجلبان يقصدون قتلنا ونهب بيوتنا فلما سمعنا ذلك وزعنا قماشنا » . فلما سمع السلطان ذلك أحضر مصحفًا وحلف عليه بأنه لا يخونهم ولا يغدرهم ولا يمسك منهم أحدا ، ثم انه حلف الأمراء أيضا بأنهم لا يخامرون ولا يركبون عليه ، فحلفوا بذلك على المصحف ، ثم قامت الأمراء من عنده وانفض المجلس .

فلما نزلت الأمراء رسم السلطان للوالى بأن ينادى في القاهرة للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء ، وأن أحدا من الناس لا ينقل له قماشاً من مكان الى مكان ، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ونهب ما معه من القماش ، وأن لا مملوك ولا غلام ولا عبد يمشى من بعد المغرب بسلاح ، ولا مملوك يعبث على سوقى في دكانه ولا متسبب .

ثم بعد ذلك قبض الوالى على غلام الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين ، فلما قبض عليه بالليل وجد معه بغال محملة قماشاً فاخرا ، فأخذ منه القماش وأمر بشنقه حتى شفّع بعض من كان مع الوالى من الأمراء حتى أطلقه ، وقيل عرض على السلطان فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء ، وكان الوالى في مدة توعك السلطان يطوف في القاهرة من بعد العشاء ومعه جماعة من الخاصكية نحو من مائة انسان ، وكان غالبهم لا بس زرديات وفي أيديهم رماح ، فيطوف في كل ليلة المدينة والحارات والأزقة ويقبض على من يجده يمشى من بعد العشاء .

ومن الحوادث أن جماعة من الصنائع دخلوا الى الزردخاناه ليصحنوا البارود ، فصعد منه الدخان فاحترق سقف الزردخاناه وعمت فيه النار ،

فاضطربت القلعة لذلك ، وكان السلطان في شباك
الأشرفية فقام واختفى من عظم الدخان ، فاحترق
من الصناعات ثلاثة أنفار حتى ذاب لحمهم عن عظمهم
من النار فنزلوا بهم الى بيوتهم فقاموا ثلاثة أيام
وماتوا الثلاثة قاطبة ، فتفاءل الناس بأن حرق
الزردخافه قال على السلطان .

ولما تزايد بالسلطان ذلك العارض في عينه طلع
الخليفة وسلم عليه ، فأشيع بين الناس بأن السلطان
أرسل خلف الخليفة ليخلع نفسه من الملك ويولى
ولده ولم يكن لهذا الكلام صحة ، فاضطربت
الأحوال لذلك ، فسلم الخليفة على السلطان ونزل
الى بيته ، فلما نزل خمدت تلك الاشاعات الفاسدة .
وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه جلس السلطان في
القبلة الأشرفية وحضر عنده الأتابكي سودون
العجمي وعلم على المراسيم وحكم وهو جالس في
الشباك ، وأظهر أنه قد شفى من ذلك العارض والا
لما حاذر على عينه الأخرى التي كان ينظر بها ،
وفي هذه الواقعة يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

شفاك الله يا ملك البرايا
من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللطف منه
سقاما محدثا رخو الجفون
لتبقى في هناء بها قريرا
قريبا والتحرك في سكون
بمن لقتادة قد رد عيننا

وقال كأختكى في الحسن كوني
ومن رمد بتفلقته عليا
شفى في الحال من ألم ميين
ثم ان جماعة من الكحالين قالوا للسلطان :
ما تصح عينك حتى تقطع ما طال من جفنك ، فامتنع

السلطان من ذلك فأحضروا قدامه أربع أنفاس بهم
رخو في جفونهم ، وكان فيهم شخص يسمى
سیدی محمد بن منكلی بغا فقصوا جفنه بحضرة
السلطان على أنه يشجعه على ذلك ، فلم يوافق
السلطان على القص ، فأقام الناصري محمد
ابن منكلی بغا أياما وشفى مما كان به في عينه وطلع
الى السلطان فرأى عينه وقد طبأت .

وفي يوم الأربعاء خامس عشرينه تزايد الأمر في
الاشاعة بالركوب على السلطان ، فلما بلغ السلطان
ذلك نزل الميدان وجلس به وأرسل خلف الأمراء
قاطبة ، فلما طلوعوا اليه وبخهم بالكلام وقال لهم :
« ما هذه الاشاعة التي تبلغني عنكم في أمر
الركوب على ؟ ان كان عندكم من تسلطنوه فأنا
أخلي لكم القلعة وأنزل أقعد في جامعي الى أن
أموت » ، فقام له الأمراء قاطبة وباسوا له
الأرض واستغفروا له ، ثم التفت الى الأمير
أركماس أمير مجلس ووبخه بالكلام ثم قال له :
« الزم بيتك » . والتفت الى قاضي باي قرا أمير
آخور كبير ووبخه بالكلام وأغلظ عليه في القول لأمر
بلغه عنه في أمر الركوب ، ثم التفت الى الأمير أنص
باي والأمير تمر والأمير سودون الدواداري
والأمير علان ووبخهم بالكلام لأمر بلغه عنهم ، ثم
ان المماليك الجلبان صارت متقحمة على مسك
الأمراء في ذلك اليوم ، فما نزلوا من القلعة وفي
عينهم قطرة وقد ملثوا منهم رعبا ، فلما نزلوا من
القلعة أشيع الركوب على السلطان ووزع الأمراء
قماشهم في الحواصل .

واشتد وجع عين السلطان وارتخى جفنه على
عينيه واحتجب عن الناس في الأشرفية أياما ، وكثر
القييل والقال بين الناس ، وأشيع أن السلطان قد
عمى فصار يجلس في شباك الأشرفية قدر درجة
حتى ينظره الناس ، فكانت الكحالين يصنعون له

رفادة على عينيه وفي الرفادة لزق بعلوكات حتى يرتفع جفنه قليلا عن عينه وينظر الناس ما دام جفنه مرتفعا فاذا قلت تلك اللزق ارتخى جفنه كما كان أولا .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه توفي شخص من الأمراء العشراوات يقال له جان بلاط بن تغرى بردى ، وكان أصله من مماليك الملك الأشرف قايتباى .

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه لم يخرج السلطان ولا صلى الجمعة ، وكثر الاضطراب بسبب ذلك . وفي يوم السبت ثامن عشرينه فرق السلطان على مماليكه سيوفا وزرديات ، وصاروا يياتون في القلعة كل ليلة ومعهم آلة السلاح ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وأن السلطان يقصد القبض على بعض الأمراء ، فأخذت الأمراء حذرهم من السلطان وصاروا لا يطلعون القلعة الا قليلا . وفي هذه المدة أشيع بأن السلطان أرسل الى ثغر الاسكندرية مراسم بأن نائب الاسكندرية يضيق على الظاهر قانصوه وهو في السجن ويمنع عنه من كان يدخل اليه من الناس حتى من غلمانه الذين كانوا يدخلون عليه ، وصار الظاهر في غاية الضنك ، وقيل ان الأمراء يقصدون عوده الى السلطنة ، فأشيع ذلك حتى أرسل السلطان ضيق عليه .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه أراد السلطان بأن يظهر العدل بين الناس فجلس في شباك الأشرية وأمر بعرض المخايس الذين في الحبوس ، فلما عرضوا عليه من في الحبوس الأربعة أمر بعرض من في البرج الذى بالقلعة ومن كان بالعرقانة التى بالحوش السلطاني . فلما عرضوا عليه أمر بإطلاق جماعة منهم ممن كان بالعرقانة ، وهم : الأمير تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن

أبى أصبع الحلبي وكان من جملة أخصاء السلطان ، ثم تعير خاطره عليه وجرى عليه شدائد ومحن . وأطلق صهره عبد الرحمن ، وكان له مدة طويلة وهو في العرقانة ورسم السلطان بأنه لا يحلق له رأس ولا يقص له أظفار ، فلما خرج من العرقانة طال شعره حتى صار مثل شعر النساء فعجب منه الناس لما خرج ورأوا شعره .

وأطلق ابن الخولى المتحدث وكان مسجوناً بسبب المماليك الذين قتلوا في باب اللوق . وكان من أمراء الشام . ومن في المقشرة وبقية الحبوس جماعة كثيرة منهم الرئيس كمال الدين ابن شمس المزين ، وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه فسجنه في المقشرة .

وأطلق الشيخ شمس الدين بن روق بعد ما جرى عليه شدائد ومحن ووافعته مشهورة . وأطلق الخوaja شمس الدين الحلبي التاجر ، وأطلق شخص يسمى تمر باى أبو قورة الذى كان أمير الحاج بالركب الشامي وكسره الجازاني ، فغضب عليه السلطان لكونه فرط في أمر الحاج حتى نهب الركب الشامي فأقام في البرج مدة طويلة نحو من عشر سنين .

وأطلق الأمير قنك الشيخ أحد الأمراء العشراوات وكان في البرج لأمر أوجب ذلك .

وأطلق يخشباى الكاشف خازندار الأتابكى قرقماس ، وكان تغير خاطر السلطان عليه فسجنه ، وأطلق تانى بك ، وشيخ العرب عبد الدائم ابن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة وهو في البرج مقيدا بموجب عصيانه على السلطان فضمنه لأبيه وأطلقه وخلع عليه .

وأطلق ابن فتوح برددار الأمير حسين نائب جدة وكان تغير خاطر السلطان عليه كونه أحدث أشياء كثيرة من المظالم بجدة .

وأطلق يحيى بن أحمد بن قراكر أحد الزردكاشبة
وكان السلطان سجنه بالمقشرة لما هرب أبوه وواقعه
مشهورة .

وأطلق شخصا يسمى محمد سكيكر وكان أشيع
عنه أنه قد قتل أباه فلما عرضوه على السلطان
أطلقه وقال : « اذا كان يوم القيامة ، هو وأبوه
يتحاكمان بين يدي الله تعالى » .

وأطلق بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان
مسجوناً على مال فلما أطلقه من المقشرة سلمه
للزنى بركات بن موسى حتى يعلق ما عليه من
المال .

وأطلق أخاه نجم الدين قاضى أسيوط أيضاً
وولده محمد ، وأطلق شخصاً شريفاً كان من
منفلوط وقد اتهم بقتل شخص ، وأطلق شهاب الدين
المرقبى الذى كان متحدثاً فى أوقاف الزمامية
وسجنه السلطان على مال ، وأطلق محمد بن العظمة
الذى كان ناظر الأوقاف وكان ناظر الخاص وسجنه
لكونه قد سعى عليه فى نظر الأوقاف .

وأطلق ابن الطحاوية أحد مشايخ عربان الشرقية ،
وأطلق محمد بن سودون السودونى وكان له مدة
طويلة وهو فى السجن بسبب احضار مكتوب
وقف ، وأطلق الشبراوى التاجر . وفى ذلك اليوم
أطلق جماعة كثيرة من مشايخ العربان والمدركين
والفلاحين والغلمان ممن كان عليه مال أو دين
فسامحهم بذلك جميعه ، وأطلق من كان فى سجنه
قaptive دون من سجن فى أيام غيره ، حتى الجرامية
استنوبهم وأطلقهم ، حتى أصحاب الجرائم والزغلية
والعمال ممن عليه مال منكسر ، فأطلق فى ذلك اليوم
واحداً وثمانين انساناً ، وأظهر العدل فى ذلك اليوم
جداً حتى ارتفعت له الأصوات بالدعاء وكبر من
كان حاضراً فى الحوش السلطانى من الجرم الغفير
من الناس حتى سمعهم من الجبل المقطم ، وكان

يوماً مشهوداً ، فانطلقت النساء له بالزغاريت فى
الحوش وضجت له الرعية بالأدعية السنية .

ثم فى ذلك اليوم شاوروه على إعادة الدكك
التي كانت على أبواب الحكام فلم يوافق على ذلك
وقال : « الذى له حق يتوجه بغريمه الى الشرع ،
والحرامية يتوجهون بهم الى بيت الوالى » .

وفى ذلك اليوم أشهر السلطان المناداة للعسكر
بالعرض ولا يتأخر منهم لا كبير ولا صغير ، فصار
العسكر لا يدرون ما سبب هذا العرض ، وكان
الطعن قد أخذ فى التناقص عما كان .

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة
للتهنئة بالشهر ، وجلس السلطان فى المقعد الذى
بالميدان ، وطلع اليه العسكر والأمراء قاطبة من
كبير وصغير ، فلما قام الخليفة والقضاة وانصرفوا
رسم السلطان باحضار المصحف العثمانى فتوجه
لاحضاره ألباس دواidar سكين ، فلما أحضروه بين
يدي السلطان تقدم القاضى كاتب السر محمود بن
أجا وحلف عليه الأمراء المقدمين قاطبة ثم الأمراء
الطبليخانات ثم جماعة من الأمراء العشراوات ،
فحلفوا على المصحف العثمانى بأنهم لا يخامرون على
السلطان ولا يركبون عليه ولا يثيرون فتنة بين
المماليك وبين السلطان ، فلما حلفوا حلف لهم
السلطان أيضاً بأنه لا يفدرهم ولا يخونهم
ولا يمسك أحداً منهم لا كبيراً ولا صغيراً ، ثم
أحضروا الأمير أركماس أمير مجلس فحضر وهو
بتخفيفة صغيرة ، وقد تقدم القول على أن السلطان
تغير خاطره عليه وقال له ، الزم بيتك أو توجه الى
دمياط ، فلما طلع رضى عليه السلطان وألبسه
كاملية مخمل أحمر بسمور من ملايسه وأقره فى
امرة مجلس على عادته .

فلما نزلت الأمراء التفت الى العسكر وشرع يأخذ بيخواطرهم وقال لهم : « أنا مقصر في حقكم لا تؤاخذوني ونحن أولاد اليوم فكل من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور أصرفه له » ، ثم نادى للعسكر في الميدان بأن النفقة مع الجامية لكل مملوك ثلاثون ديناراً من كبير وصغير حتى أولاد الناس والأمراء المقدمين ، لكل واحد منهم ألف دينار ، والأمراء الطبلخانات لكل واحد مائتا دينار ، والأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار ، فلما سمع العسكر ذلك ضجوا له بالدعاء ونزلوا وهم في غاية الجبر من السلطان . وكان سبب هذه النفقة أن السلطان لما حصل له هذا العارض في عينه أشاعوا عنه أنه قد عمى فاتفق رأى الأمراء على خلعه من السلطنة ، وذكر للسلطنة جماعة من الأمراء ثم ذكر الظاهر قانصوه الذي بالسجن بشعر الاسكندرية ، وذكر للسلطنة سيبى نائب الشام ، وذكر أيضاً للسلطنة ابن السلطان . وكان العسكر قاطبة مقلوباً على السلطان بسبب أن لهم عليقاً مكسوراً ، وكذلك اللحوم ولم ينفق عليهم شيئاً لما أنفق على ممالكه ، وكانوا يشكون من خراب اقطاعاتهم من جور الكشاف ومشايخ العربان ووزن الحمايات فضجوا من ذلك ، فكان كما يقال في أمثال الصادح والباغم وهو قوله :

ومن أضاع جنده في السلم
لم يحفظوه في لقاء الخصم
فالجند لا يرعون من أضاعهم
كلا ولا يحمون من أجاعهم
وأضعف الملوك طراً عقداً
من غره السلم فأقصى الجندا

فلما رأى السلطان أن العسكر قد تغلب عليه نادى لهم بالنفقة وشرع يستجلب خواطرهم مما تقدم منه قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

وفي ذلك اليوم ظهر محمد بن نصر الله الذي كان ناظر دار الضرب واختفى من السلطان مدة طويلة ، فلما أظهر السلطان العدل في هذه الأيام أرسل يطلب منه الأمان فبعث اليه بمنديل الأمان حتى ظهر .

ثم بعده ظهر القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك وكان له مدة وهو مختف من السلطان ، فلما طلع وقابله خلع عليه ونزل الى داره في موكب حافل ، وكان السلطان قد أرسل اليه متديلاً الأمان حتى ظهر ولكنه لما خلع عليه لم يعده الى وظيفته في كتابة الممالك كما كان أولاً .

ثم شرف الدين الجويني الذي كان مباشر الأمير أزدمر الدوادار وكان له مدة طويلة وهو مختف فظهر بالأمان من السلطان .

وفي يوم الثلاثاء ثانيه ظهر المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد ، المعاملين في اللحم ، وكان المعلم على له مدة وهو مختف من السلطان فنادى له بالأمان حتى ظهر هو وأخوه المعلم أحمد .

وفي يوم الأربعاء ثالثه جلس السلطان في شباك الأشرفية وأنفق على الممالك الذين عينهم صحبة الأمير خشقدم شاد الشون ، فأنفق على كل مملوك ثلاثين ديناراً ، وأنفق لكل مملوك جامكية أربعة أشهر ، واستحثهم في سرعة الخروج صحبة قاصد ملك الهند الذي حضر قبل تاريخه .

وفيه ظهر القاضي تقي الدين بن الرومي الحنفي وكان له مدة وهو مختف بسبب ما وقع له من أمر الواقع الكفري الذي وقع فيه ، وكان السلطان متطلبه طلباً حثيثاً ، فلما أفرج السلطان عن المسجونين ظهر في هذه الحركة وقابل السلطان فعفا عنه .

وفي يوم الخميس رابعه شاوروا السلطان في إعادة الدكك التي كانت على أبواب الأمراء

الحكام ، وكان السلطان لما تزايد أمر الطاعون رسم بشيل الدكك من على أبواب الأمراء كما تقدم ، فلما شاوروا السلطان على ذلك قالوا له : « السلطان ما ييحكم شيء والأمراء ما بتحكم شيء وضاعت حقوق الناس عليهم » . فعند ذلك أشهر المنسادة في القاهرة بإعادة الدكك على أبواب الحكام ، وأن النقباء والرسل لا يجورون على الأخصام في غرامتهم لهم على حق طريقهم ، ولكن المجامعة والمشاهرة التي كانت على الحسبة استمرت بطالة ، وكذلك المكوس التي كانت على القمح والبطيخ وسائر الغلال أبطلها جميعها ، فياليت شعري هل يتم ذلك أم لا !

ثم نادى في القاهرة أن كل من قهر أو ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ، وأن لا ظلم اليوم . فارتفعت الأصوات له بالدعاء من الخاص والعام ، وتمنى كل أحد له البقاء على الدوام ، فكان كما يقال في المعنى :

لم يبق للجور في أيامكم أثر
الا الذي في عيون الغيد من حور

فلما أظهر السلطان العدل شفعوا عنده في الناصري محمد ابن بنت جمال الدين ، وكان السلطان تغير خاطره عليه بسبب واقعة ابن قجق فرسم السلطان بنفيه الى الواح . فلما شفعوا فيه رسم باحضاره الى مصر ، ثم رسم باحضار شبك حباص الاينالى وكان ثقاه الى الصعيد بسبب الأتابكي قيت الرحبي كونه كان عشيره ، ورسم باحضار ابراهيم بن السكر والليمون وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى مكة ، فلما شفعوا فيه رسم بعوده الى مصر .

ومما فعله من وجوه البر والاحسان أن وقف له القاضي فخر الدين بن العفيف الذي كان كاتب

المماليك ، فلما وقف له شكاه من ضيق حاله فرسم له بجامكية ألفى درهم في كل شهر وزبديتين لحم في كل يوم ، ورسم بإعادة جامكية الناصري محمد بن الشهابي أحمد بن أسنغا الطياري الذي كان أمير شكار وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى قوص وقطع جامكيته ، فلما رضى عليه أعاده الى مصر وصرف له ما قطع من جامكيته .

ثم ذكر له الشرفي يونس النابلسي الذي كان أستاذارا وعزل عنها فسامحه بما بقى عليه من مال المصادرة ، وقيل انه رتب له على الجوالي في كل شهر ثلاثة آلاف درهم ورسم له بإعادة بلد في نابلس كانت أخذت منه في المصادرة ، بعد ما قاسى شدائد ومحن فعطف عليه ورتب له ذلك ... هذا على ما قيل وأشيع بين الناس ولم ألزم صحة ذلك .

وقيل ان السلطان فرق في هذا الشهر نحو من ثلاثة آلاف دينار على مجاوري جامع الأزهر والزوايا التي بالقرافة والمزارات ، وفعل في هذا الشهر أشياء كثيرة من هذا النمط من وجوه البر والاحسان حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع بين الناس أن السلطان قد رد لبغض جماعة من أولاد الناس ما كان أخرجه عنهم من اقطاعاتهم ، ووعد برد الجوامك التي قطعت للنساء والأيتام بواسطة الأتابكي قيت الرحبي أن يعيدها اليهم عن قريب . ومما وقع لى أننى امتدحت السلطان نصره الله تعالى بقصيدة سننية ومن جملة أبياتها :

قد أظهر العدل في الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذي عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم

يسير الشاة في حماه
تمشى مع الأسد والضراغم

فلامنى الناس على قولى :

قد أظهر العدل فى الرعايا

وأبطل الجور والمظالم

وكان السلطان فى قوة عسفه على الناس فى تلك
الأيام فما عن قريب حتى أظهر السلطان هذا العدل
العظيم الذى وقع منه فى هذه الأيام ، فكان الفأل
بالمنطق فى اظهار عدله وقد ألهمه الله تعالى
الى ذلك .

وفى يوم السبت سادسه جلس السلطان فى
شباك الأشرفية وفرق على ممالكه الدين أخرج
لهم الخيل والقماش وفرق عليهم فى ذلك اليوم
سيوفا وأقواسا وتراكيش ونشابا وزرديات ،
وكانوا نحو من ثلاثمائة مملوك . وفى اليوم الثانى
فرق على ثلاثمائة آخر .

وفى يوم الأربعاء عاشره ابتداء السلطان فيه
بتفرقة النفقة على الأمراء المقدمين ، فأرسل أولا
الى الخليفة المتوكل على الله ألف دينار على يد
بدر العادلى فراش الخزانة ، فلما أحضر للخليفة
ألف دينار ، ألبسه كاملية صوف بسمور وأعطاها
خمسین ديناراً ، ثم أرسل للأتابكى سودون
العجمى ألفى دينار ، وأرسل لبقية الأمراء المقدمين
لكل واحد منهم ألف دينار ، وأرسل للأمراء
الطبلخانات لكل واحد منهم مائتى دينار ، وأرسل
للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار .

وفى يوم الخميس حادى عشره ابتداء السلطان
بتفرقة النفقة على العسكر فأعطى لكل مملوك
ثلاثين ديناراً .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره خرج الأمير

خشقدم شاد الشون الذى تعين صحبة قاصد
الهند . وفى ذلك اليوم توفى شخص من الأمراء
العشراوات يقال له شاهين ، وكان كاشف البحيرة .
وفى يوم الاثنين خامس عشره فرق السلطان
الجامكية على العادة ومعها النفقة ، فأعطى ثلاثين
ديناراً لكل مملوك ، وأعطى للعواجز منهم عشرين
ديناراً ، وللشيوخ الضعفاء منهم عشرة دنائير ،
وأنفق على الممالك الكتابية لكل مملوك خمسة
دنائير ، وأنفق على بعض جماعة من الأيتام ممن له
جامكية أشرفى فأعطاهم أشرفيين ، وأعطى لمن له
جامكية ألف عشرة دنائير ، فقليل كان جملة هذه
النفقة على ما قيل ثلاثمائة ألف دينار ، وقيل فوق
ذلك ، حتى عدت هذه النفقة من النواذر الغريبة
كونه صرف ذلك بطيب من خاطره من غير كره
منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

كأنه فى العطاء بحر ندا

وبذله النقد فيه تيار

ان استمال القلوب لا عجب

الله عند القلوب أسرار

قد راقب الله خشية وله

عند اكتساب الثواب أوطار

ثم انه فى يوم الثلاثاء سادس عشره نادى فى
الحوش بأن كل من كان قطعت له جامكية من رجال
أو نساء فيطلع فى أول الشهر حتى ينظر السلطان
فى حالهم ويرد لهم ما قطع لهم ، فارتفعت الأصوات
له بالدعاء فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره رسم السلطان بأن
يطل ما كان على الخائكان من المشاهرة والمجامعة
التى كانت على الحسبة .

وفيه أرسل السلطان للخليفة المنفصل المستمسك
بالله يعقوب والد المتوكل على الله ، وقد تذكره

السلطان ، فأرسل اليه نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطبای نائب القلعة ، ورسم بأن أحدا لا يكلفه بشيء . فلما نزل اليه الأمير طقطبای قال له : « السلطان يسلم عليك ويقول لك ادعوه له وابرى ذمته ولا تؤاخذ به بما وقع منه في حقتك » . فكان في حظ نفس ، فقال له : « والله أنا داعي للسلطان وخاطري طيب عليه وما حصل منه الا خير » . وقد تقدم القول على أن السلطان لما ترفع سيدي خليل مع الخليفة يعقوب تعصب السلطان لسيدي خليل وقال للخليفة يعقوب : « أنت ضعيف النظر فلا تصح ولايتك على المسلمين » . وكسر بخاطره وغرمه مالا وخلعه من الخلافة بغير ذنب كما تقدم ذكر ذلك ، فلما حصل للسلطان هذا العارض في عينه ظن أن ذلك بخطيئة الخليفة يعقوب ، فأرسل الأمير طقطبای نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين يتعطف بخاطره ويسأله له الدعاء وأرسل اليه خمسمائة دينار ... فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه أنفق السلطان على أولاد الناس والتراكمة الذين في الطبقة الخامسة المستجدة ، فأعطى لكل مملوك عشرة أشرفية ، وأعطى لجماعة منهم ثمانية أشرفية ، وأنفق عليهم النفقة مع الجامكية ، وفي ذلك اليوم فرق السلطان على مماليكه أتراسا وخوذا وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة .

وفي جمادى الآخرة طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان بالميدان ، ففرق في ذلك اليوم على جماعة من المماليك القرائصة خيولا نحو من ألف فرس ، وذلك لمن كان له فرس في الديوان مدونا ومات .

وفي يوم الخميس ثانيه خرج الأمير أقبای الطويل أمير آخور ثاني الذي عينه السلطان بأن يتوجه قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فخرج بطلب حافل ، وهذا قط لم تتفق لقاصد قبله أنه خرج على هذه الهيئة الجميلة حتى عد ذلك من النوادر ، فشق ذلك الطلب من داخل الميدان حتى نظر اليه السلطان وهو جالس في المقعد الذي بالميدان .

وفيه حضر قانصوه العادلي كاشف الشرقية وصحبته شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح ، وهو من بنى حرام ، فسلب جلدته وحشاه تبنا ، وأركبوه على فرسه وألبسه زمطه على رأسه وألبسه كبرة حرير ، وكان شابا جميل الهيئة فتأسف عليه الناس ، فلما عرضه على السلطان شق ذلك عليه ولم يكن يرسم بسلطه قبل ذلك ، فلما جرى ذلك ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الخلفاية فساح على الأرض في غير مستحقه وكان ذلك ليالى الوفاء .

وفي يوم الجمعة ثالثه خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة وهو بالشاش والقماش وكان له نحو من ست جمع لم يخرج ولم يصل الجمعة بسبب ذلك العارض الذي حصل له في عينه ، فشال الرفادة عن عينه وخرج وصلى الجمعة ، فسر الناس لذلك وتخلقت الخدام بالزعفران وكذلك الغلمان ، وكان شفاؤه على غير القياس ، وكانوا أشاعوا عنه أنه قد عمى لا محالة .

وفي يوم الأحد خامسه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك رابع عشر مسرى ، فأوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وكان عرس النيل ، وفتح السد في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة الموافق لخمس عشر مسرى ، وفي ذلك يقول القائل :

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى
فملا بشره قلوب العباد
جاء فى وقته اذا قلت أهلا
بحبيب قد جاء فى الميعاد

فرسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن
يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له يوم
مشهود ، فلما عاد من فتح السد كان له موكب
حافل ومشت قدومه الأفيال الكبار وهى مزينة
بالصناجق والطبول ، فطلع الى القلعة فألبسه
السلطان خلعة على جارى العادة

وفى يوم السبت حادى عشره ركب السلطان
ونزل من القلعة ، ولم يركب من حين حصل له ذلك
العارض فى عينه ، فلما ركب سير نحو المطرية
وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، فمد له
الزىنى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة
حافلة ، وأقام بقبة الأمير يشبك الى بعد العصر ،
ثم عاد الى القلعة ولم يشق من القاهرة ، وكانت
الناس شرعوا فى الزينة على أنه يشق من القاهرة ،
فطلع من بين التراب ولم يشق من المدينة فى ذلك
اليوم .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره نزل السلطان الى
الميدان وجلس به ، وخلع على الأمير حسين نائب
جدة وأقره فى نيابتها على عادته وسافر من يومه .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأيتام من
الرجال والنساء فرد لجماعة منهم ما قطع من
جوامكهم ، وذلك بحكم النصف ، فرد منها شيئا
يسيرا .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس السلطان
على الدكة التى بالحوش وحكم بين الناس وأنفق
الجامكيه ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر لم يجلس
على الدكة ولا حكم بين الناس بالحوش على

جارى العادة . وقد هنيته بهذين البيتين لما شفى
من ذلك العارض الذى حدث له فى عينه من رخو
الجفون ، فقلت فى ذلك مع اظهار التورية :

بعافية السلطان قرت عيوننا
ونال الورى منه بلوغ المقاصد
وقالوا به عين أصابت لعينه
فلما شفى غارت عيون الحواسد
فلما قرنا على السلطان استحسنهما وابتهج
بهما

وفى يوم السبت ثامن عشره جاءت الأخبار بوفاة
الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين أستادار
العالية ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وجرى
عليه شدائد ومحن ، ونفاه السلطان الى الواح
بسبب جارية ابن قجق كما تقدم ذكر ذلك . فلما
أظهر السلطان العدل وأطلق من فى السجون قاطبة
شفع بعض أخصاء السلطان فى ابن بنت جمال
الدين فرسم بأحضاره من الواح ، فلما وصل الى
منفلوط مرض هناك ومات فدفن بمنفلوط ولم
يدخل الى مصر .

وفى يوم الاثنين عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة نائب طرابلس ، وهو أبرك مملوك
السلطان ، فحضر هو وعياله بطلب من السلطان ،
فاستمر بالقاهرة حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى المطرية ، ثم فتح سد الأميرية بنفسه ،
فدخل الماء الى الملقه ثم رجع وشق من باب الشعيرية
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت
له الأصوات بالدعاء ، فطلع من على الناصرية
وقناطر السباع وشق من الضليية ، ثم طلع الى القلعة
وهو فى غاية السودة ، وقد وقفت له العوام
وتسيبوا عليه بسبب الفلوس الجدد ، وقد وصل

صرف النصف الفضة الى عشرين من الفلوس الجدد ، وصارت البضائع نباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، وتشحط الخبز من على الدكاكين في تلك الأيام ، وغلقت الأسواق بسبب الفلوس ، وحصل للناس غاية الضرر .

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ، وكان مسافرا في جهات بلاد الصعيد ، فحضر في ذلك اليوم وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم في الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل من أيام ابن ثعلب وغيره من المباشرين ، حتى قيل كان عليهم نحو من سبعين ألف أردب من القمح . فلما طلع الأمير الدوادار الى القلعة ألبسه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامه أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين والجسم الغفير من العسكر ، فلما عرضوا على السلطان هؤلاء الفلاحين والمزارعين وهم في الحديد قال : « ما بال هؤلاء ؟ » . فقالوا له : « ان عليهم مغل منكسر من السنين الخالية من أيام ابن ثعلب وغيره نحو من سبعين ألف أردب » . فسكت ساعة قال : « أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان فيهم الشيوخ والضعفاء والعواجز والصبيان الصغار ، فأطلقوهم من الحديد أجمعين وهو ينظر اليهم ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فكان أحق بقول القائل :

فاذا سطا ملأ القلوب مهابة

واذا سخا ملأ العيون مواهبا

وفي يوم الأحد سادس عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطرية وكشف على العمارة التي

هناك ، ثم أتى الى قبة الأمير يشبك فأقام بها الى بعد العصر ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فتعشى بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه كان يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ، ففي ذلك اليوم قبض السلطان على شخص من الأتراك وقد نقل عنه أنه كاتب نائب حلب وجماعة من النواب بأن السلطان قد عمى ولم صار ينظر شيئا ، فأرسلوا المكاتبات الى السلطان ، فلما أحضر السلطان ذلك المملوك وعرض عليه تلك المكاتبات أنكر ذلك ، فلما قامت عليه البينة بذلك رسم السلطان بضربه ف ضربا مبرحا وسجنه السلطان بالبرج حتى نقر على من ألجأه الى ذلك من الأمراء فلم يقر بشيء .

وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فجلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنئونه بالشهر .

فلما كان يوم الأحد رابعه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فأنشراح في ذلك اليوم الى الغابة ، وكان النيل يومئذ في عشر أصابع من تسع عشرة ذراعا .

وفي يوم الثلاثاء سادسه نزل السلطان وكشف على العمارة التي بالمطرية ، فلما عاد شق من المدينة ودخل من باب النصر ، فلما أن وصل الى مدرسته نزل عن فرسه ودخل اليها ، فتوشحت الغلمان بالبنود الحرير الأصفر حتى توشح بذلك جماعة من المباشرين ، فنهاهم السلطان عن ذلك ، وأقام السلطان هناك الى بعد الظهر ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الخميس ثامنه خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وأقره في الجلسة الشريفة

على عادته ، وكان أشيع عزله بسبب اضطراب
البلد لأجل الفلوس ، ثم ان السلطان أشهر المنادة
في القاهرة بأن الفلوس تصرف بالميزان بعدما كانت
معاددة ، فخر الناس في هذه الحركة جملة ما له
صورة .

ومن العجائب أن السلطان لما حصل له ذلك
العارض في عينه جاد مع الناس وأبطل المجامعة
التي كانت على الحسبة والمشاهرة وأشياء كثيرة
من المكوس ، مما كان على القمح والبطيخ وغير
ذلك ، فلما شفى من ذلك العارض وشق من المدينة
ضجت له العوام بسبب الفلوس الجدد ، فلما طلع
الى القلعة حنق منهم ورسم باعادة المجامعة
والمشاهرة والمكوس التي كانت على القمح والبطيخ
وغير ذلك كما كانت وزيادة ، وقال : « أنا أبطلت
عنهم أشياء كثيرة بنحو ألفين دينار في كل شهر
وهم يتضررون من الفلوس ! » . ثم ان السلطان
شرع في مطالبة من كان عليه بواقى مال من
المصادرات التي تقدم ذكرها واعاد القاضى ابن
ثعلب الى المقشرة بسبب ما تأخر عليه من المال ،
وكان أشيع بين الناس أن السلطان لما كان عليلا
بعينه سامح أرباب المصادرات بما عليهم من
الأموال ، فلم يتم ذلك وشرع يطالب كل من كان
عليه شيء من المال وقد ندم على ما فعله من اظهار
العدل في تلك الأيام ، وقد قلت في معنى ذلك :

سلطاننا مذ كان في ضعفه

يمنحنا عدلا واحسانا

فمذ شفاه الله من دائه

أحدث ظلما فوق ما كانا

فكان الفأل بالمنطق ، ورجع كل شيء الى ما كان
عليه من وجوه الظلم كما كان أولا .

وفي هذا الشهر قوى عزم النيل حتى قطع جسر

أم دينار الذى بأراضى الجيزة وشرق غالب أرضها
بسبب ذلك ، وكان السلطان أمر الوزير يوسف
البدرى بأن يهتم بعمارة جسر أم دينار هذا .
فندب اليه شخصا من المباشرين يسمى جمال الدين
فما أبقي ممكنا في الظلم ، وأفرد على كل فدان
بأراضى الجيزة ألف درهم ، فحصل على المقطعين
بتلك النواحي ما لا خير فيه وضاع عليهم خراج
تلك السنة من أجل هذا الجسر ، ولم يفد من ذلك
شيئا ، وشرق غالب الأراضى بالجيزة لأجل ذلك
الظلم .

وفي يوم الأحد حادى عشره أشيع بين الناس
أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر من
بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان ،
فلما أحضرت بين يدى السلطان فرح بها وقيل انه
أطلقها في البحرة التي في الميدان ، وقد أخبرنا
بصفاتها الياس أحد الأمراء الآخورية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره ترافع أحمد ابن
الصايغ برددار الزينى بركات بن موسى ، ترافع
معه ، وكان الزينى بركات تشكى بأنه يخسر في
تلك الجهات التي في تحدته ، فقال أحمد بن
الصايغ : على السداد ، فخلع عليه السلطان كاملية
وأشرك بينه وبين بركات بن موسى في التحدث
على البلاد التي في تقسيطه والحمايات ، ولم يشركه
معه في التحدث في الحسبة الشريفة .

وفي يوم الخميس خامس عشره أنفق السلطان
الجامكية على العسكر ، فحست الجامكية تسعمائة
دينار فغلقها ابن الصايغ من ماله ، فكان هذا أول
عكسه .

وفي يوم الجمعة سادس عشره توفى شخص من
الأمراء العشراوات يقال له مصرباى بن شبك .

وفيه ثبت النيل المبارك على أربع أصابع من

عشرين ذراعا وكان في العام الماضي غلق العشرين ذراعا وزاد ثمانى أصابع من واحد وعشرين ذراعا ، واستمر في ثبات الى نصف هاتور القبطى .

وفي يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى فى المطرية ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى مدة حافلة . فتعشى هناك ثم طلع الى القلعة .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره جلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وخلع على شخص من الأمراء كان بطالا يقال له جانم بن ولى الدين ، واستقر به نائب طرابلس عوضا عن الأمير أبرك مملوك السلطان بحكم انفصاله عنها ، وجانم هذا تقدم أنه تولى نيابة حماة ونيابة طرابلس قبل ذلك ، وكان السلطان عين نيابة طرابلس الى الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب فلم يوافق على ذلك وأبى ، فخلع السلطان على جانم هذا وأقره فى نيابة طرابلس كما كان قبل ذلك ، وقيل انه سعى فى نيابة طرابلس بستين ألف دينار على ما قيل .

وفي يوم الخميس ثانى عشرينه احتجب السلطان ولم يخرج الى الأمراء ، وأشيع أنه قد قص ما طال من جفنه وقطبوه له فتشوش من ذلك .

فلما كان يوم الجمعة لم يخرج ولم يصل الجمعة ورسم للأمراء ألا يطلعوا الى القلعة بسبب الصلاة ولا يكلفوا خاطرهم فان السلطان شارب فى ذلك اليوم دواء ، فلم تطلع الأمراء فى ذلك اليوم الى صلاة الجمعة فى القلعة .

وفي ذلك اليوم توفى القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب الممالك وعزل عنها ، فأقام مدة وهو بطل حتى مات ، وكان من أعيان المباشرين وقد قارب الثمانين سنة من العمر ،

وقاسى شدائد ومحنا وصودر غير ما مرة ، وكان أصله من أبناء الأقباط .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بفتح سد أبى المنجا ، فتوجه الأمير كرتباى والى القاهرة وفتح السد على العادة .

وفي يوم الأحد سادس عشرينه توفى الأمير نانق بن يخشباى أمير شكار كان ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عرض السلطان للمماليك الذين قررههم فى الطبقة الخامسة ، وهو العسكر الملقق ، فرسم لهم بأن يعملوا برقمهم ويتوجهوا الى السويس لأجل حفظ المراكب التى أنشأها السلطان هناك ، فقالوا : « نحن ما نساfer بلا نفقة » . فحنق السلطان منهم وقال : « أنا أسافر الى السويس بنفسى » . وقد تقدم القول على أن الفرنج قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهات الهند . وقد تكامل من مراكب الفرنج فى البحر نحو من عشرين مركبا ، فكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس .

وفي شعبان كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فلم يجتمعوا بالسلطان وقيل لهم قد دخل الحمام ، وقد حصل له الشفاء لما قطبوا له جفنه ، وكان السلطان يظن الهلال لا يرى تلك الليلة فدخل الحمام فى ذلك اليوم .

وفي يوم السبت ثانیه نزل السلطان الى الميدان وشال الرفادة عن عينه وجلس وحكم بين الناس ، ورسم للعسكر بأن يصرف لهم العليق شعير ،

وكان يصرف لهم العليق مثنى فرسم لهم بأن
يصرف العليق شعير .

وفي يوم الاثنين رابعة طلعت الأمراء الى القلعة
على العادة ، فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو
ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة
المسماة بالناعورة ، وهى الآن فى مقام التاج للملوك
مصر من حين تولى بها الأتراك ، وكانت التيجان
يلبسها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت
التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلطين
مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ،
وقد جاء فى بعض الأخبار أن العمائم تيجان العرب
وكان السلطان له نحو من أربعة أشهر لم يلبس
هذه التخفيفة الكبيرة ولا جلس على المصطبة التى
يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج تمشى وجلس
على تلك المصطبة ، فباس له الأمراء الأرض
وهنوه بلبس التخفيفة الكبيرة ، ثم أحضروا له
بالدواة فعلم فى ذلك اليوم على عدة مراسيم ونفذ
عدة محاكمات ، ثم قام وطلع الى المقعد الذى
أنشأه بالحوش ، فلما قام نثر على رأسه المعلم
يعقوب اليهودى خفاف من ذهب وفضة ،
فتخاطفتها الخاصكية وتزاحموا على السلطان حتى
كاد أن يقع من شدة الازدحام . فلما طلع الى
المقعد خلع فى ذلك اليوم عدة كوامل صوف
بسمور ، فخلع على الرئيس شمس الدين بن
القيصونى ، وخلع على الرئيس عبد الرحمن بن
الشرىف الكحال ، وخلع على الرئيس تقي الدين
المنوفى الكحال الذى قطب له عينه ، وخلع على
الرئيس صلاح الدين الشامى ، وقيل رسم لكل
رئيس منهم بمائة دينار ، ثم خلع على محمد مهتار
الطشتخاناه كاملية حافلة بسمور ، وخلع على علم
الدين الحليى كاملية حافلة بسمور ، ثم ان خوند

زوجة السلطان أرسلت لكل واحد من هؤلاء
المذكورين كاملية حافلة بسمور ، ثم ان الحكماء
صاروا بدخلون الى بيوت الأمراء المقدمين
ويبشرونهم بعافية السلطان فيخلعون عليهم
الكوامل الحافلة ، وكذلك أرباب الوظائف من
المباشرين قاطبة وأخصاء السلطان ، فدخل عليهم
عدة كوامل بسمور حافلة ، وقد قلت لما شفى
السلطان ولبس التخفيفة الكبيرة فى ذلك اليوم
فهنيته بهذين البيتين وهما :

لما شفى السلطان من رمد به
بوسيلة من صاحب المعراج
فتفاءلت كل الأنام بأنه
فى الملك باق يوم لبس التاج
وهنأه الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق
بهذه الأبيات :

يا ملكا عدله أرانا
تبسما فى فم الزمان
وقد جانا بحار جود
يقصر عن عدها لسانى
اهناً براء يلى بقاء
مؤيدا مظهر التهانى
لا زلت للملك ذا نظام
تبدي به جوهر المعانى

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره حضر الأمير أوزمك
الناشف أحد المقدمين ، وكان السلطان رسم له بأن
يقيم فى الفيوم حتى يعمر الجسر الذى هناك ،
فأقام بالفيوم مدة حتى انتهى ذلك العمل من
الجسر ، فلما حضر خلع عليه السلطان كاملية بسمور
حافلة ونزل الى داره ، ولكن حصل منه غاية الضرر
على كل من كان له فى الفيوم رزقة أو اقطاع ،
فأفرد عليهم ثلث خراجهم فى هذه السنة بسبب

عمارة الجسر المقدم ذكره الذى سافر السلطان الى الفيوم بسببه ، فجار الأمير أرزمك على أصحاب الرزق والاقطاع غاية الجور ، وراح على المقطعين خراجهم في هذه السنة بسبب عمارة هذا الجسر .

وفى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته أعيان المباشرين وأرباب الدولة وهم موشحون بالحرير الأصفر لأجل عافية السلطان ، فشق من القاهرة وقدامه الحكماء بالخلع ، فنادى فى القاهرة بالزينة لأجل عافية السلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، ثم ان الزينى بركات بن موسى أشهر المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك . فانطلق سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ... ودارت الطبول والزمر فى المراكب يهنون أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان ، ثم ان سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمالا وأمشاطا فيها القناديل ، فاحتفل سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية ، وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ، ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانيا . وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد ، وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه زينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق ، وهم سوق الشرب والباسطية وسوق الحاجب وسوق الفاضل وسوق جامع ابن طولون وسوق مرجوش

وسوق الوراقين وسوق الجواهره وغير ذلك من الأسواق ، وزينوا مصر العتيقة وبولاق حتى زينوا أسواق الخانكاه ، وزينوا حارة زويلة وخان الخليلي وغير ذلك من أسواق القاهرة ، ثم ان الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من الأمراء الطبلخانات زينوا أبوابهم بالصناجق والخيام الحافلة مثل زينة العيد ، ثم ان الخليفة زين بابيه بشتور ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها . ثم ان قضاة القضاة زينوا أبوابهم بالبشاخين المخمل والنواميس الحرير ، ولا سيما قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فانه خرج فى الزينة عن الحد ، فزين بابيه بالبشاخين الزركش والعنبر فعد ذلك من البدع المنكرة ، ثم ان الزينة أقامت سبعة أيام متوالية ، والكوسات عمالة كل يوم نوبتين باكر النهار وبعد العصر ، وهى بالقلعة وعلى أبواب الأمراء المقدمين . ولم يقع قط بمصر مثل هذه الواقعة فى عافية سلطان ولا أمير ، وهذا من باب الوجاهة والزوكره للسلطان ، فان قضاة القضاة زينوا أبواب المدارس التى يسكنون بها حتى باب المدرسة الصالحية وخانقاه بيبرس وغير ذلك من الأماكن الجليله ، فعاب بعض الناس على القضاة هذه الفعلة ، وقد صنع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ردكا بأشجار وأحواض جلد على باب الخانقاه البيبرسية ، فعد ذلك من البدع المنكرة وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لبرئك يا ذا الملك سرت نفوسنا

وقد زينت من بعد ما عطلت مصر

وأصبح ثغر الدهر مبتسما لنا

وفى وجنة الدنيا غدا ينظر البشر

وكان سبب اسناع هذه الزينة أن الأخبار قد شاعت فى البلاد الشرقية والغربية بأن السلطان قد

عمى بعينيه الاثنتين ، فأراد السلطان اظهار هذه الزينة حتى يشاع في البلاد أن السلطان قد شفى وزال عنه الألم الذي كان في عينيه ، فأمر بزيينة القاهرة ودق الكوسات حتى يشاع ذلك بدق الكوسات بالقلعة وعلى أبواب الأمراء .

وفي يوم الخميس سابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وعين في ذلك اليوم خمسة أنفس من الأمراء المقدمين بأن يعملوا يرقهم ويتوجهوا الى السويس ، ثم بطل ذلك فيما بعد ولم يسافر منهم أحد ، وكان أشيع سفر السلطان بنفسه الى السويس ولم يتم ذلك ، فشرع يقول للعسكر والأمراء : « جهزوا يرقكم فاني أسافر نصف الشهر » ، وصنع أربع محفات ، وجعل يعرض نوب هجن وبغال وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين حادى عشره جلس السلطان في الميدان وفرق اطلاقات الطين على العسكر وكان غالب أراضى الجيزة شراقي ، فردوا وصولات الاطلاقات ، وكادت أن تكون فتنة .

وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ورسم لنقيب الجيش بأن يطوف على الأمراء المقدمين قاطبة ويعلمهم بأن السلطان يركب من القبة ويشق من القاهرة ، وأرسل يعزم على الأمراء فى القبة ، فحضر اليه الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، فباتوا عند السلطان بالقبة ومد لهم هناك أسمطة حافلة ، فلما كان يوم الأحد ركب السلطان من القبة وقدمه الأمراء المقدمون قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأعيان الدولة والعسكر قاطبة . وكان السلطان قصد أن تحمل على رأسه القبة

والطير فنهاه الأمراء عن ذلك وقالوا له : « ما هى عادة أن السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسه القبة والطير » ... فرجع عن ذلك .

ثم ان السلطان دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، ولاقته طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، وسارت قدامه أرباب الوظائف من المباشرين وهم متوشحون بالحرير الأصفر ، وكذلك نقيب الجيش والوالى وأعيان الخدام وولد السلطان ، ومشت قدامه الرؤوس النوب بالعصى من باب النصر الى القلعة ثم سحبت قدامه الجنائب بالكنائش الزركش ومشى قدامه الأوزان والشبابة السلطانية والنفير البرغشى والمجامع السلطانية بالغشاء الحريري الأصفر ، ولم تلبس الأمراء ولا أحد من العسكر فى هذا الموكب الشاش والقماش ، ولم يستطع السلطان لبس التخفيف الكبيرة من العارض الذى فى عينه ، بل كان فى هذا الموكب بتخفيف صغيرة مكسى وسلاوى بعلبكى أبيض ، ومشى قدامه غالب الخاصكية من باب النصر الى القلعة ، فكان له يوم مشهود ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة عليه ، وتركزت له الطبول والزمور فى عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكانت القاهرة مزينة زينة حافلة منذ سبعة أيام ، وأوقدوا له الشموع والقناديل فى الأحمال بالنهار على الدكاكين ، وأطلقوا له البخور فى المجامر ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب الحافل على ما ذكرناه حتى طلع الى القلعة . وقد قلت فى هذه الواقعة أبيات مواليا وهى هذه :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفه
ولو مواكب لها أوقات معروفه

مذخف عنو الرمد بالطاف محفوفه

أوكب لها أوقات مصر مصفوفه

ولما شق السلطان من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وقال له جماعة من العوام : ابطل عنا أمر المجامعة والمشاهرة التي على الحسبة ، فلم يلتفت الى كلامهم وتغافل عن ذلك .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن امرأة خرجت تنفرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها في الحال وماتت من يومها ، فرجعت الى بيتها في تابوت وذلك بالقرب من باب النصر .

ثم شرع كل أحد من أعيان المباشرين يقدم للسلطان تقادم حافلة بما بين ذهب وقماش وسكر وأغنام وغير ذلك ، وقدم اليه أيضا جماعة من الأمراء من أخصاء السلطان تقادم حافلة ما بين خيول وصوف ووشق وسنجاب وغير ذلك ، فخلع عليهم في ذلك اليوم كوامل مخمل أحمر بسور ، والذي لم يقدم له شيئا لم يخلع عليه .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه عرض السلطان عسكر الطبقة الخامسة التي استجدها ، فلما عرضهم عين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى السويس فشرع مقدم الممالك سنبل يقول لهم : « يا أغاوات عبوا يرقكم حتى تسافروا الى سويسة ! » فضحكت عليه الناس بسبب ذلك .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرينه صنع السلطان ستورا من حرير أسود بطرز مزركشة ، وكانوا نحو من سبعة ستور لبقية الأنبياء الذين هناك ، ولأجل ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الطبل والخيلة ، وكان لهم يوم مشهود ، وكان خادم حرم الخليل عليه

السلام حاضرا فنزل قدام الستور هو وجماعة من الفقراء .

وفي يوم الخميس رابع عشرينه دخل جماعة من الممالك الذين تعينوا الى السويس على الأمير طومان باي الدوادار وشكوا له سفرهم الى السويس بلا نفقة ، وصمموا على عدم السفر الى السويس ، فطلع الأمير طومان باي وذكر للسلطان ما قاله الممالك ، وكاد أن يقع من ذلك فتنة ، فلما سمع السلطان ذلك أمر بيطان السفر الى السويس وخشى من اقامة فتنة .

وفي يوم الجمعة نزل السلطان وعدى الى الروضة ، ونصب له خياما على خرطوم الروضة وبات هناك ومد له الزينى بركات بن موسى هناك أسمطة حافلة ، فأقام الى يوم الأحد وطاب له ذلك المكان وانشرح به ، وكان صحبتته مغاني وأرباب الآلات ، فطلع الى القلعة يوم الأحد أواخر النهار .

وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج الأمير جانم الذي قرر في نيابة طرابلس كما تقدم ذكر ذلك ، فكان له يوم مشهود .

وفي يوم الخميس من أواخر هذا الشهر كانت وفاة الأمير برد بك تفاح ، وكان من الأمراء الطليخانات ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباي ، وكان أميرا من جملة الأمراء المقدمين الألوف بالشام ، فأتى الى مصر ليسعى في الحجوية الكبرى بالشام فلم يتم له ذلك فاستمر مقيما بمصر ، وكان له مرتب على الذخيرة في كل شهر حتى مات وكان له مدة وهو عليل ، فلما مات كانت له جنازة حافلة ومشت قدامه خشداشيه من الأمراء وأخرجوا قدامه كفارة ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان وسير الى مصر العتيقة وشق من على ساحل البحر ، ثم طلع من على قناطر

السباع وشق من الصليبة وطلع الى القلعة ، فلما شق من الصليبة ضجت له العوام بالدعاء وذكروا له أمر الفلوس الجدد وأن البضائع صارت تباع بسعرين ، فلما طلع الى القلعة نادى في ذلك اليوم بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل ، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل ، فخسرت السوق في هذه الواقعة نحو الثلث من أموالها ، وكانت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، ففرح غالب الناس بهذه المنادة .

وفي يوم السبت سلخ الشهر نزل السلطان الى المطرية وتوجه الى قبة يشبك وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي رمضان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس السلطان بالميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر على جرى العادة

وفي ذلك اليوم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب باللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهم على رءوس الجمالين وقدامهم الطبول والزمور ، وشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود ، فخلع السلطان على الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى ونزلوا الى بيوتهما فى موكب حافل ، ثم ان السلطان رسم المزينى بركات بن موسى بأن ينادى فى القاهرة بتسعير البضائع : بأن البطة الدقيق بسبعة أنصاف واللحم الضانى بتسع نقر الرطل واللحم البقرى بست نقر الرطل ، وسعر الأجبان والسيرج والزيت وغير ذلك من البضائع ، وأن النصف الفضة لا يصرف بأكثر من اثنى عشر درهما ، وأن الفلوس العتق والجدد بالميزان وكل رطل بنصفين .

وفي يوم الجمعة سادسه قلع السلطان اليباض ولبس الصوف ، ووافق ذلك ثامن هاتور القبطى .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الكسوة مع الجامكية على العسكر

وفي ذلك اليوم كانت وفاة المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، ولكن قاسى فى أواخر عمره شدايد ومحن وصودر غير ما مرة ، وضرب بالمقارع على أجنابه بين يدى السلطان ، وسجن بالعرقانة مدة وتسحب من هناك وتدلى بحبل فانقطع به ووقع على الأرض فانكسر ضلعه ، واستمر مختفيا مدة ، وسافر الى الحجاز وهو مختف ، ثم ظهر عند ما أفرج السلطان عن أصحاب الجرائم كما تقدم ذكر ذلك ، فظهر واستمر عيلا مما قاساه حتى مات ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر ، وكان من أعيان المعاملين ناتجا بالسداد ، وقد ذكر فى أيام الأمير أقبردى الدوادار بأن يلى الوزارة مثل البياى فلم يتم له ذلك .

وفي هذا الشهر أشيع بين الناس بأن الناصرى محمد بن أزدمر نائب حلب كان قد قتل فى معركة ببلاد ابن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان تغير خاطره عليه فرسم بشنقه فى حلب ، فلما بلغه ذلك فر الى بلاد ابن عثمان فقتل هناك ، وكان غير مشكور السيرة فى سائر أفعاله .

وفي يوم الأحد ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وكشف على العمارة التى هناك ، فلما رجع دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ، وأشيع بين الناس بأن السلطان يقصد أن ينشئ هناك قصرا بأربعة وجوه .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمة

كبيرة بالحوش على العادة ، وحضر هناك القضاة الأربعة ومشايخ العلم وأعيان الفقهاء ففرقت عليهم الخلع والصرر لمن له عادة ، وكان ختما حافلا .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التي بالمطرية فجلس على المصطبة التي هناك وجربوا قدامه عدة مكاحل بحجارة كبار ، فأقام هناك ساعة ثم عاد الى القلعة . وفيه عرض ناظر الخاص خلع العيد وكانت في غاية الوحاشة .

وفيه أنفق السلطان الكسوة والجامكية على عسكر الطبقة الخامسة .

وفي شوال كان عيد الفطر يوم الثلاثاء ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد وهو بالشباش والقماش ، وكان موكب العيد حافلا .

وفي يوم السبت خامسه نزل السلطان وعدى الى الروضة وبات بالمقياس تلك الليلة ، وأقام به يوم الأحد الى بعد العصر ، ثم عدى وطلع الى القلعة وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه ولده وبعض أمراء ، وكان قدامه قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء العشراوات ، والأمير خاين بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين وكان صحبة السلطان في المقياس .

وفي يوم الاثنين سابعه توفي القاضي عرفات بن السجان ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على عبد العظيم الصيرفي وقرره في التحدث في أمر الشون السلطانية وجهات الذخيرة ، فتعاضم عبد العظيم الى الغاية وكبر عمايته وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات

وعصر أكعابه بالمعاصير وحرق أصابعه بالنار ، فنسى ذلك كله وصار في شمم عظيم .

وفي يوم السبت ثاني عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار وبات بها ليلة الأحد ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم السبت المقدم ذكره وقعت كائنة عظيمة وهي التي عنت وطمت ، وكان سبب ذلك أن شخصا من نواب الحنفية يقال له غرس الدين خليل ، وكانت له زوجة حسناء فهو يها شخص من نواب الشافعية يقال له نور الدين على المشالي واعتشر بها مدة طويلة ، فاتفق أن في ليلة السبت المقدم ذكره طلع غرس الدين خليل الى الامام الليث رضى الله عنه وبات به ، فأرسلت الامراة خلف نور الدين المشالي وأعلمته بأن زوجها خليل بائت في الامام الليث ، فاطمأن بذلك ثم أرسل اليها ما يلائم ، وكان بجوار بيت الامراة شخص تسميه الناس شمس ، وهو ابن أخت القاضي نور الدين الدمياطي ، وكان يهوى هذه الامراة وهي لم ترض به ، فلما تحقق أن نور الدين المشالي بائت عندها تلك الليلة فصبر حتى طلع اليها نور الدين واستقر عندها في البيت ، فركب شمس الدين ابن أخت الدمياطي وتوجه الى الامام الليث وأعلم خليل زوج الامراة بذلك ، فركب خليل من وقته وجاء الى بيته فوجد الباب مقفولا . ودخل الى البيت ، فوجد نور الدين وزوجته في الناموسية وهما تحت اللحاف متعاققان فقبض عليهما باليد .

فلما تحقق نور الدين المشالي أنه تعدى على خليل وطلع الى بيته وفسق في زوجته قصد تستر هذا الأمر فقال لخليل : « أكتب لك على مسطورا بألف دينار ولا تفضحني بين الناس » . وقالت الامراة : « خذ جميع ما في البيت من الأمتعة وستر هذه القضية والستر مطلوب » . فلم يوافق خليل

على ذلك ، ثم أغلق عليهما الباب وأتى الى دار حاجب الحجاب فقص عليه ما جرى له ، فأرسل حاجب الحجاب قبض عليهما ، فلما مثلا بين يديه أقر نور الدين المشالى أنه طلع الى بيت خليل وكان بينه وبين زوجته ما كان من أمر الزنا ، ثم ان حاجب الحجاب أحضر القاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية فشهد على نور الدين المشالى بما أقر به على نفسه بالزنا وكتب خطه بذلك وكتب بذلك محضرا وثبت عليه . ثم ان حاجب الحجاب عرى نور الدين المشالى وضربه ضربا مبرحا حتى كاد يهلك ، ثم ضرب المرأة على أكتاف المشاعلية ضربا مبرحا ، ثم أمر بإشهارهما فى القاهرة ، فأركب نور الدين المشالى على حمار وألبسه عمامته وأركب المرأة أيضا على حمار وقلبوا وجهيهما الى خلف الحمار وطاقوا بهما فى الصليبية والقاهرة وقناطر السباع ، وكان لهما يوم مهول ، ثم رجعوا بهما الى بيت حاجب الحجاب ، فقرروا على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب فقالت المرأة : « أنا زوجى وضع يده على جميع مالى فلا أملك من الدنيا شيئا » فقالوا لزوجها : « هات من مال زوجتك مائة دينار لحاجب الحجاب » . فلم يوافق على ذلك وامتنع فرسموا عليه ، وكان لخليل ولد صغير يقرأ مع المقرئين عند السلطان فى الدهيشة ، فلما رسموا على أبيه طلع الى السلطان وذكر له ما جرى من أوله الى آخره ، فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع وفشا الكلام بالمواقع ، فلما اتصل هذا الأمر بالسلطان كان من الأمر ما سنذكره فى موضعه .

وفى يوم رابع عشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم وقف الى السلطان بشخص قتيل يقال له قائم المداقف ، وكان من جملة الزردكاشية ، فأنهوا أولاد القتييل على أن بعض المماليك الأجلاب عزم عليه وأسكره ثم قام اليه وخنقه بوتر حتى مات ، وكان بيد قائم هذا اقطاع ثقل فقتله الجلبان بسبب ذلك ، وكان له أولاد وزوجة فقتل ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وحل السلطان فى أمره ولم يأخذ له بثأر .

وفى ذلك اليوم توفى الحاج رمضان مهتار الأشرف قايتباى ، وقد قاسى فى أواخر عمره أشياء كثيرة من شدائد ومحن ، وصودر غير ما مرة ، وضرب وعصر فى أكعابه ، وباع بيوته فى المصادرة وجميع ما يملكه ، وصار يستعطى من الأمراء بالقصص ، وكان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف قايتباى حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، ورأى فى أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره من المهاترة الذين سلفوا من قبله ، وكان بيده مهترة الطشتخانة الشريفة ونظر الكسوة الشريفة والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه ، ويقال كان متحصله فى كل يوم نحو من أربعين دينارا ، فسلب ذلك منه جميعا ومات فقيرا لا يملك من الدنيا شيئا ، وكان قد شاخ وكبر سنه ومات وهو فى عشر الثمانين .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره أرسل السلطان خلف القضاة الأربعة ، فلما حضروا بين يديه وبخهم بالكلام الفج وقال لهم : « والله افتخرتم بإقضاة الشرع : نوابكم شئ يشرب الخمر وشئ يزنى وشئ يبيع الأوقاف » . وفى ذلك تسبيحة لقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وكان هو المقصود بذلك الكلام ، ثم طلب المحضر الذى ثبت على القاضى شمس الدين بن وحيش ، فقال

له ابن وحيش : « أنا ثبت عندى رجمهما » .
فانصاع السلطان لهذا الكلام وقصد بذلك اظهار
العدل حتى يكتب ذلك فى تاريخه أنه رجم من زنى
فى أيامه ، كما وقع فى زمن النبى صلى الله عليه
وسلم لما عز وزينب اللذين أمر النبى برجمهما ، فقال
السلطان لابن وحيش : « احكم برجمهما » : فقال ابن
وحيش : « حتى ينفذلى قاضى القضاة الشافعى » .
فقال القاضى الشافعى : « قد نفذت لك ذلك » .
فانفصل المجلس على رجم المشالى والامراة وعلى
أن يحضر لهما حفيرة ويرجما فيها ، ولو فعل
السلطان ذلك فى يومه لمشى أمر الرجم وقضى ذلك
الأمر ، لكن عارض السلطان خروج المحمل وأمر
الحجاج ، فأخر هذه القضية لبعده خروج الحجاج .

فلما كان يوم الخميس سابع عشر شوال
المحمل من القاهرة ، تجمل زائد الى الغاية ، وكان
له يوم مشهود ، وحضر فى هذه السنة ملكان من
ملوك التكايرة ، فخرجا فى ركب وحدهما بعد
خروج الحجاج بأيام ورجعا صحبة الحجاج لما
حضر ، وخرج قدامه القضاة الأربعة ، وكان
أمير ركب المحمل قانصوه كرت أحد الأمراء
المقدمين ، وبالركب الأول الأمير طومان باى
حاجب ثانى ، فخرجا فى موكب حافل وقدامهما
الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين .

فلما اشتغل السلطان بأمر خروج الحجاج
تعصب لنور الدين المشالى شخص يقال له شمس
الدين الزنكلونى أحد نواب الشافعية ، فكتب
فتاوى على أن الرجل اذا زنى واعترف بالزنا ثم
رجع عن ذلك الاعتراف فهل يسقط عنه الحد أم
لا ، فدار بهذا السؤال على جماعة من العلماء
ومشايخ الاسلام ، فكتب على ذلك السؤال الشيخ
برهان الدين بن أبى شريف المقدسى الشافعى

وكتب عليه جماعة آخرون من العلماء بمعنى ما
أجاب به الشيخ برهان الدين بن أبى شريف أنه
اذا رجع عن الاقرار يسقط الحد من رجم وغير ذلك
من الحدود . فلما بلغ السلطان ذلك اشتد غضبه
على القضاة وقال : « يامسلمين رجل يطلع الى بيت
رجل ونفسق فى زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف
مع زوجته ويعترف الخصم بذلك ويكتب خط يده
بما وقع منه ... يقولوا بعد ذلك له الرجوع !! » .
فأمر بعقد مجلس بين يديه بالقلعة وأمر بأن القضاة
الأربعة تحضر ومشايخ العلم قاطبة .

فلما كان يوم الخميس رابع عشرين شوال
حضر الأربعة قضاة وهم : كمال الدين الطويل
الشافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى ومحيى
الدين يحيى بن الدميرى المالكى وعز الدين بن
الشيشينى الحنبلى ، فجلسوا عن يمين السلطان
وحضر شيخ الاسلام المنفصل عن القضاء زين
الدين زكريا فجلس رأس الميسرة ، وجلس تحته
الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وحضر قاضى
القضاة الشيخ برهان الدين القلقشندى المنفصل
عن القضاء ، وحضر الشيخ برهان الدين بن الكركى
الحنفى ، وحضر غير ذلك من مشايخ العلماء جماعة
كثيرة منهم الشيخ نور الدين المحلى والشيخ عبد
الحق السنباطى الشافعى وآخرون من المشايخ
والفقهاء . فلما تكامل المجلس أخذ السلطان يتكلم
مع الشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبى
شريف ، فقال لهم : « كيف يكون رجل متزوج
بامراة ويطلع الى بيته فيجد رجلا أجنبيا راقدا مع
زوجته تحت اللحاف ويعترف بالزنا وتقولوا له
الرجوع ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « شرع
الله هذا » . وأراه النقل فى هذه المسألة ، فلم

يلتفت الى النقول في ذلك وقال : « أنا ما أنا ولي الأمر ولي النظر العام في ذلك ؟ » . فقال له ابن أبي شريف : « نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف . وإن قتلتهما تلزمك ديتان عنهما » . فحنق منه وكاد أن يبطش به في المجلس ، ثم التفت الى الشيخ زكريا وقال له : « ايش قلت انت في هذه المسألة ؟ » . قال : « له الرجوع بعد الاعتراف . وإذا رجع سقط عنه الحد » . فقال له السلطان : « هذا يبقى في ذمتك » . فقال الشيخ زكريا : « ايش كنت أنا ؟ هذا في ذمة الامام الشافعي صاحب المذهب » . فذكر على أن السلطان قال له : « أنت ذهلت ما بقي لك عقل » . ثم التفت الى قضاة القضاة ووبخهم بالكلام وقال : « اتوا الأربعة قوموا لا تروني وجوهكم قط » . فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعشرون في أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فاتفصل المجلس مانعا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم .

ثم ان السلطان عزل الشيخ برهان الدين بن أبي شريف من مشيخة مدرسته وأشيع بنفيه الى القدس ، وعزل محيي الدين يحيى بن الدميري من قضاء المالكية ومن خطابة جامعته ، واشتد غضبه على قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة ، وكاد أن يبطش به . وكان عنده من المقسدين الأخصاء ، وكان يبات عنده ثلاث ليل في الجمعة وكان من ندمائه ، ويسافر معه اذا شوط ، وصار بيده الحل والعقد في أمور السلطنة ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط ، وكان بمنزلة جعفر البرمكي من هرون الرشيد ، الحمد لله .

ومما وقع في ذلك المجلس بحضرة السلطان أن الشيخ نور الدين على المحلي قال للسلطان : « يا مولانا السلطان . ان الذي صدر من مشايخ

الاسلام بصحة الرجوع فهو الحق ، وهو نص ما نقله الامام الشافعي وغيره من العلماء رضى الله عنهم أجمعين بعد القرار في أمر الزنا فلا عبرة بإقراره في ذلك » . فقال له السلطان : « ان شاء الله تطلع الى بيتك فتجد من يفعل في زوجتك الفاحشة كما فعل المشالي في زوجة خليل » . فقال له الشيخ نور الدين المحلي : « عافانا الله من ذلك » . فشق كلامه على السلطان في الباطن ، وانقض ذلك المجلس من غير طائل ، وحصل للعلماء في ذلك المجلس غاية البهدة ولا سيما ما حصل للشيخ برهان الدين بن أبي شريف وأمره مشهور . فكان كما يقال في المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غوثك ان ظمئت وربما
ترمي بوارقه اليك صواعقا

ويقال ان سبب تغير خاطر السلطان على قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة أنه في أول الأمر وافق السلطان على أن الرجل والامراة يرجمان ، فلما أفتوا أنه اذا رجع عن الاقرار يسقط عنه الحد فوافقهم عبد البر على ذلك ، فقال له السلطان : « أنت تقرر معي شيئا وترجع عن ذلك ؟ كنت قلت لي هذا من الأول حتى عرفت أمر الرجوع بعد الاقرار » . فلما تحقق عبد البر أن السلطان متغيظ عليه دار على الأمراء وكاتب السر بأن يشفعوا فيه عند السلطان ، ثم ان السلطان رسم الى يحيى بن نكار دوا دار الوالي بأن يسجن نور الدين المشالي الذي زنى ، فتوجه به الى المقشرة وتوجه بالامراة الى الحجرة .

وبعد مضي الحجاج بخمسة أيام خرج ركب التكرور والمغاربة وعين معهم السلطان ثلاثة من الدلة يرشدونهم الى الطريق فتوجهوا بهم من

مخالص غير مخالص الحجاج . وفي هذه السنة حج الأمير بقر بن الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب ، وحج صحبته الجهم الغفير من الفلاحين . وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأرسل أحضر شمس الدين الزنكلوني الذي دار على العلماء بالفتوى بسبب نور الدين المشالي حين رجع عن الاقرار ، فلما حضر قال له السلطان : « يا زنكلوني ! حكمك أنت يثني وحكمي أنا يبطل ؟ » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحواً من ألف عصا وضرب أولاده الاثنين كل واحد نحواً من ستمائة عصا . وكان رفيقهم في هذه المسألة ابن شريف الوكيل ، فلما بلغه ذلك اختفى ، وكان المتعصب عليهم في ذلك القاضي شمس بن وحيش وأوحى للسلطان أن الزنكلوني وأولاده قد أسوا عليه . وسبوه فحرض عليهم السلطان حتى جرى ما جرى للزنكلوني . ثم ان السلطان رسم بنفى الزنكلوني الى الواح فنزلوا بالزنكلوني وأولاده وهم على وجوههم راكبين على حمير والدم يسيل من أعقابهم .

وفي يوم الأربعاء سلخ الشهر أشيع بين الناس بأن الزنكلوني قد مات من شدة الضرب ، وأن أولاده في حال العدم .

وفي ذلك اليوم نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قليوب ، وظن أن الشهر قد هل في ذلك اليوم فنزل حتى لا يقابل القضاة ولا ينظر اليهم ، وقد كثرت الاشاعة بعزل القضاة الأربعة .

وفي ذي القعدة كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة وهناً في ذلك اليوم . فلما قام الخليفة من عنده ركب السلطان ونزل الى دار البقر حتى لا يجتمع على القضاة ، وكان القضاة قد جلسوا

في الجامع فلم يجتمع عليهم السلطان ونزل سير ، فلما بلغ القضاة ذلك نزلوا من القلعة بحمي حنين . ومن العجائب أن من يوم عقد المجلس المقدم ذكره وحصل ما حصل على القضاة بسبب الفتوى في أمر الرجوع ، فصرح السلطان في ذلك اليوم بعزل القضاة الأربعة ، فأقامت مصر شاغرة نحواً من خمسة أيام لم يعقد فيها عقد نكاح ولا وقع فيها أحكام شرعية ، وأغلقت الشهود دكاكينهم قاطبة ، وتعطلت أحوال مصر واضطربت في تلك الأيام الى الغاية ، ورسم السلطان للوالي وقال له : « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه وأنا ألبسك كاملية مخمل بسمور وأركبك فرس بكنبوش » . وأشيع بين الناس أن السلطان قال : « لا يدخل علي أحد من المباشرين وهو لابس عمامة » من بغضه في الفقهاء ، فكان القراء اذا دخل أحد منهم على السلطان فيلبس له زمط وعليه شد ملفوف . وأشيع أن الزيني بركات ابن موسى لبس له تخفيفه ودخل على السلطان فضحك عليه ، وكذلك القاضي علاء الدين ناظر الخاص لبس له تخفيفه ودخل على السلطان فقال له : « بقيت مثل الممالك الجراكسة » .

ومن الحوادث في يوم مستهل هذا الشهر سقط ربع تجاه باب الوراقين على رأس عطفة الخراطين فقتل تحت الردم شخص يساع جزر ، فمات هو والحمار من وقته تحت الردم .

وفيه كثر الكلام بسبب عزل القضاة ، فنزل السلطان الى الميدان ، فلما جلس به قام الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باي الدوادار وغير ذلك من الأمراء المقدمين والقاضي كاتب السر ، فقاموا في صعيد واحد وبأسوا الأرض للسلطان ثم شفعوا في القضاة الأربعة ، فلما سمع السلطان ذلك حنق على الأمراء

وحلف، بحياة رأسه أنه ما يعيد أحدا من القضاة
الى وظيفته وصمم على ذلك ، وقد قلت في هذه
الواقعة :

سلطاننا عزل القضاة لحادث

قد شاع في مصر وعم الأسعه

مذ خالفوه وحاودوا عن أمره

نفذ القضا فيهم بعزل الأربعة

ولم يتفق قط أن القضاة الأربعة يعزلون كلهم
في يوم واحد الا في هذه الواقعة التي جرت ، فعد
ذلك من الوقائع الغريبة .

ولما كان يوم الجمعة ثانيه أرسل السلطان يقول
للقاضي كاتب السر : « أبصر لنا من يخطب ويصلي
بنا صلاة الجمعة » . فذكر له الشيخ علاء الدين
الاحمسي الشهير بالنقيب ، وكان يخطب في جامع
الشيخ عبد القادر الدشوطي ، وكان علامة في
الخطب والقراءة في المحراب ، فلما ذكر للسلطان
قال : « أعرفه » . وكان تقدم للشيخ علاء الدين أنه
خطب بالسلطان قبل ذلك عدة مرار في أيام قاضي
القضاة ابن أبي شريف وفي أيام قاضي القضاة ابن
فرفور ، وكان الشيخ علاء الدين له شهرة طائلة
عند الأتراك ، وكان علامة في الرمي بالنشاب عارفا
به وكان له اليد الطولى في ذلك ، وكان عارفا باللغة
التركية ، وقد حوى كل فن من علوم شتى وهو
نادرة عصره ، فأرسل القاضي كاتب السر خلف
الشيخ علاء الدين فتوجه اليه الحاج علي الأسمر
البرددار ، فقال له : « القاضي يقول لك اطلع
واخطب بالسلطان » . وكان يومئذ علامة عصره في
أمر الخطبة ، فقبل ان الشيخ علاء الدين لما أراد
أن يطلع يخطب بالسلطان توجه الى قاضي القضاة
كمال الدين الطويل واستأذنه في ذلك قبل أن يطلع
فقال له : « اطلع واخطب على بركة الله تعالى » .
فطلع في ذلك اليوم وخطب بالسلطان فترشح أمره

بأن يلي القضاء ، وكان ذلك من الأمور الربانة
والسر المكنون . وقيل في أمثال الصالح والباغم
في المعنى :

الرزق بالحظ وبالتقدير

وليس بالسعى ولا التدبير

ومنه :

تسال بالرفق وبالتأني

ما لم تتل بالحرص والتعنى

وفي يوم الثلاثاء سادسه رسم السلطان بتوسيط
مملوك من مماليكه وقد قتل قتيلا ، فلما عرضه
على السلطان أراد ضربه بين يديه فتعترس قدام
السلطان فحلق منه فرسم بتوسيطه ، فوسطوه
في الرملة .

وفي يوم الأربعاء سابعه كانت كايمة نور الدين
المشالي والامراة ، وذلك أن السلطان رسم
بشنقهما ، فأمر يحيى بن نكار بأن يتوجه الى دار
الشيخ برهان الدين بن أبي شريف وينصب على
بابه مشنقة ، وكان ساكنا في بيت أبي البقا بن
الجيعة في حارة أولاد الجيعان ، وكان السلطان
تقصده ذلك عمدا بسبب المقت في حق ابن أبي
شريف لكونه أفتى بأمر الرجوع ، فاشتد غضب
السلطان عليه بسبب ذلك ، وأشيع بنفيه الى
القدس بطالا . فلما توجه يحيى بن نكار دوا دار
الوالي الى بيت ابن أبي شريف ونصب المشنقة
على بابها ظن عياله أن الشيخ هو الذي يشنق
فقاموا بالصراخ واللطم والبكاء ، ثم أسفرت
القضية على شنق نور الدين المشالي والامراة ،
فنصبوا لهما مشنقة على باب ابن أبي شريف
وأحضروا نور الدين المشالي من المقشرة وأحضروا
الامراة من الحجرة وشنقوها على باب ابن أبي
شريف ، ورسم السلطان بأن يشنقا في جبل واحد
ويجعلوا وجه الرجل في وجه الامراة ، فصلبت

الامراة وهى بازارها وعليها أثوابها مسبولة ، فلما
شنقا جاء الناس أفواجا أفواجا يتفرجون عليهما
من كل فج عميق ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

لقد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهر فى أحكامه مسلكا صعبا

فقلت لأرباب الفسوق تأدبوا
فحد الزنا قد صار فى عصرنا صلبا
وفى ذلك يقول الأديب محمد بن الصايغ .

أيا لهما من عاشقين عليهما
قضى من قضى بالموت حتما وأشنقا
فقلباهما عند الحياة تألفا

وجسماهما عند الممات تعلقا
بعضهما متعلقان ولو يكن

لجسميهما أروحان كانا تعانقا

وقد تقدم للأشرف قايتباى أنه صلب جارية
بيضاء جركسية من جوار حريمه وقد حملت من
بعض مماليكه فى طريق الحجاز ، فلما وضعت ذلك
الجنين قتلت من خوفها ، فلما بلغ السلطان ذلك
شنقها لكونها قتلت قتيلًا ، فصلبها فى طريق حدرة
ابن قميحة عند درب نكار على شجرة عند
الأحواض ، فصلت بازارها ، وأما المملوك فخصاه
وقطع محاشمه ، فعد ذلك من النوادر .

فأقام نور الدين المشالى والمرأة التى زنى بها
يومين لم يدفنا ثم شاوروا السلطان فى دفنهما فأذن
فى ذلك ، وكان لهما يوم مهول .

وفى ذلك اليوم أرسل السلطان يقول لناظر
الخاص : « اطلع غدا معك بأربعة تشاريف لأجل
القضاة الأربعة » .

فلما كان يوم الخميس ثامن هذا الشهر طلب
السلطان القضاة الذين عزم على ولايتهم فحضر
الشيخ علاء الدين ابن الشيخ جلال الدين
الاخيمى النقيب والشيخ شمس الدين السمديسى

امام مدرسته ومؤدب ولده والشيخ جلال الدين
عبد الرحمن بن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم
والشيخ شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد
العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار ، فلما حضروا
أفاض عليهم التشاريف وأحضر لهم أربعة بغال
مكفية بالعدد الفاخرة ، فقرر الشيخ علاء
الاخيمى فى قضاء الشافعية عوضا عن القاضى
كمال الدين الطويل بحكم انفصالة عن القضاء ،
وقرر الشيخ شمس الدين السمديسى فى قضاء
الحنفية عوضا عن القاضى عبد البر بن الشحنة
بحكم انفصالة عن القضاء ، وقرر الشيخ جلال
الدين بن قاسم فى قضاء المالكية عوضا عن
محيى الدين يحيى ابن الدميرى بحكم انفصالة عن
القضاء ، وقرر الشيخ شهاب الدين الفتوحى فى
قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين الشيشينى بحكم
انفصالة عن القضاء ، فخلع السلطان على الأربعة
قضاة فى ساعة واحدة حتى عد ذلك من النوادر
الغريبة ، فلما نزلوا من القلعة تلقاهم جماعة النواب
من الأربعة المذاهب فكانوا نحوا من ثلاثمائة نائب
فرجت لهم القاهرة .

وفى القاضى علاء الدين الاخيمى يقول
الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفاء لتنفيذ أحكام بأحكام

خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

يعنى كالمرهم فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا
فشقوا من القاهرة فى موكب حافل ، وكان قدامهم
العلاء ناظر الخاص وجماعة من أعيان الناس ،
فاستمروا فى هذا الموكب حتى نزلوا بالمدرسة
الصالحية النجمية كما جرت به العادة ، فاصطفت
لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ولاقتهم

الرسل مشاة يقولون : الدعا لمولانا السلطان بالنصر
أدام الله أيامه ، ولم يقع قط فيما تقدم من الدول
الماضية أن السلطان ولى القضاة الأربعة في يوم
واحد ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التي لم يسمع
بمثلها قط .

١ وقد وقع في أيام الظاهر خشيتم أنه ولى قاضى
القضاة صلاح الدين المكينى عوضا عن قاضى
القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وولى قاضى
القضاة برهان الدين الدميرى عوضا عن قاضى
القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى ، فنزلا من
القلعة وعليهما التشاريى في يوم واحد ، فعدوا
ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما بولاية هؤلاء
الأربعة في يوم واحد . وأعجب من هذا أن
السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا
ولا الدرهم الفرد ، وقد أفاته في ولاية هؤلاء
القضاة الأربعة نحو اثنى عشر ألف دينار ، فعد
ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما من الأشرف
الغورى فكانت ولايتهم على وجه العز والاقبال
من غير سعى ولا كلفة بخلاف ما وقع لغيرهم من
القضاة فيما تقدم ، فعد لهم ذلك من جملة السعد ،
وقد قلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

امام الورى ولى قضاة لشرعنا
فهم أربع وهى البدور الطوالع
فمنهم علاء الدين قاض معظم
بدا نوره بين الورى وهو ساطع
ومنهم امام جيد شاع زهده
على مذهب النعمان لله طائع
ومنهم عريق الأصل من نسل قاسم
أتى مالكى للموطأ تابع
ومنهم فقيه تابع لابن حنبل
أنته فتوح العلم أولاه صانع

بهم بنية الاسلام صحت وكيف لا
تصح وهم أركانها والطبائع
فلا عجب ان وسع الله فى الهدى
مذاهبنا بالعلم فالشرع واسع
وكان السلطان لما ولى هؤلاء القضاة قرر معهم
بأن يخفوا من نوابهم .

فلما كان يوم الجمعة طلع القاضى علاء الدين
وخطب بالسلطان ، فلما انتهى أمر الصلاة عرضوا
على السلطان قوائهم بأسماء النواب من الأربعة
مذاهب ، فرسم للقضاة الأربعة بمائة نائب : للقاضى
الشافعى أربعين نائبا ، وللقاضى الحنفى ثلاثين نائبا ،
وللقاضى المالكى عشرين نائبا ، وللقاضى الحنبلى
عشرة نواب . وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب
الا بأذنه ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة
وأشيع سفره الى وادى العباسية ، فلما نزل توجه
الى قبة يشبك التى بالمطرية فبات بها ، وكان
صحبه الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء
المقدمين قاطبة ، خلا أمير آخور كبير وطقطباى
نائب القلعة وخاير بيك الخازندار ، فكان معه
الجسم الغفير من الأمراء الطبليخانات والعشراوات
والخاصكية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .
فأقام السلطان فى قبة يشبك الى يوم الأحد فرحل
من هناك هو والأمراء قاطبة ، وكان صحبه من
البيرق والسنيح ما يعادل سفر البلاد الشامية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره توجه قاضى القضاة
الشافعى علاء الدين الأخمى الى درس المدرسة
الصالحية النجمية ، وهو أول حضوره الى الدرس ،
فتصدر للتدريس بها فأبدى فوائد كثيرة وقواعد
جليلة مع الفصاحة وحسن التأدية ، فقال فى ذلك

صاحبنا الشيخ شمس الدين أبو اليمن السهموري
وأجاد في ذلك حيث قال :

لدرس الصالحة جئت جبا
الى قاضى القضاة أبى العلاء
علاء الدين الأخمى أبدي
قواعد من علوم مع ثناء
ولا عجب لما أبدي فان ال
قواعد من تأليف العلاء
وقال الناصري محمد بن قانصوه :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفو لتنفيذ أحكام بأحكام
خليفة الشافعى فى الحكم صرت قدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

ولما تم أمر القاضى علاء الدين فى القضاء جاء
على الوضع وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، وله يد
طائلة فى معرفة أمور القضاء ، فكان كفوا لذلك ،
وكان ديننا خيرا ما عهد له صبوة قط ، مطرح
النفس غفيرا عن الرشوة من حين كان نائبا والى
أن بقى قاضى القضاة ، فهو من أهل الفضل
والدين ، ثم انه قرر الشيخ محلى بأن يتولى أمور
بابه بما يرد عليه من الفتاوى وغير ذلك .

وفى يوم الثلاثاء المقدم ذكره كانت وفاة الأمير
جوانم السيفى قانى باى الفهلوان الذى كان
دوادار الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، وجانم
هذا هو الذى أنشأ المدرسة اللطيفة التى تجاه
جامع قوصون ، وكان ديننا حيرا لا بأس به ،
وكان قد كبر وطعن فى السن .

وفيه حضر سيف تراز نائب قلعة حلب ، وكان
تولى نيابة قلعة البيرة وعينتاب
وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بوفاة الجويلى

شيخ مشايخ عربان البحيرة ، وكان محمود
السيرة فى طرد العربان المفسدين عن البلاد ، وكان
فى سعة من المال ، فلما مات تقرر بعده ابن أخيه
فى مشيخة البحيرة .

وفى يوم الخميس خامس عشره فرقت الجامكية
فى غيبة السلطان ، فحضر الأمير طقطباى نائب
القلعة والأمير خاير بك الخازندار وشمس الدين
ابن عوض وكتاب الممالك ، وفرقت الجامكية على
العسكر وحصل السداد فى غيبة السلطان .

وفى يوم الجمعة سادس عشره كان السلطان
مسافرا ، فلم يطلع القاضى الشافعى فى ذلك اليوم
ولم يصل بالقلعة ، بل صلى فى جامع الشيخ عبد
القادر الدشوطى ، ولم يخطب هو به فى ذلك
اليوم .

وفى يوم السبت سابع عشره عاد السلطان من
تلك السرحة وقد وصل الى العكرشا ثم عاد ،
فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة ثمانية أيام ،
وقد تكلف الأمراء كلفة زائدة ، وكان أشيع أنه
يسرح فى البلاد الشرقية ويتوجه الى وادى
العباسة فلم يصح ذلك ، ولما رجع نزل بالوطاق
بالريدانية وبات به ليلة الأحد وأحرق هناك احراقة
نفظ ، فلما كان يوم الأحد أوكب السلطان من
هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة
ولبس التخيفة الناعورة ، وركب قدامه الأمراء
قاطبة والمباشرون ، ولافته القضاة الأربعة من رأس
الحسينية ، ولم تكن هذه عادة أن السلطان اذا
خرج وشوط تلاقيه القضاة الأربعة ، ولكن عملوا
ذلك خدمة له كونهم تولوا جددا ، فشق من
القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ،
على حكم الموكب المقدم ذكره قبل ذلك ، وقد

انشرح في هذه السفرة وتصيد ودخل عليه تقادم كثيرة من كاشف الشرقية وشيخ العرب ، من خيول وبقر وغنم وغير ذلك ، ولكن حصل للمقطعين غاية الضرر . وقد أفرد الكاشف وشيخ العرب على البلاد خيولا وأغناما وأبقارا ومبلغا ، وحصل بسبب ذلك ما لا خير فيه . وكان السلطان أخذ معه محفة على أنه يتوجه من هناك الى السويس ، فلم يتم له ذلك ورجع عن قريب .

وفيه كانت وفاة الزينى فرج أحد الأمراء المقدمين الألوف ابن برد بك أحد الحجاب ورأس باش البريدية ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما من ذوى العقول ، وقاسى في أواخر عمره شدائد ومحنا ، وصودر وأقام في الترسيم مدة طويلة ، وباع جميع ما يملكه ، وكان شاخ وكبر سنه وجاوز الثمانين سنة من العمر .

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه توفيت نور كلدى الجركسية زوجة الأمير خاير بك أحد المقدمين الذى كان كاشف الغربية ، وهى بنت أخت خوند الجركسية قرابة الملك الظاهر جقمق ، وكانت شابة جميلة حسنة ، فكان لها مشهد حافل ، ومشت قدامها الأمراء قاطبة ، وصلى عليها في سبيل المؤمنين .

وفي ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فصعد الخليفة للتهنئة بالشهر ، وصعد القضاة الأربعة الذين تولوا جددا ، فجلس كل منهم فى منزلته على العادة ، وكان السلطان فى الميدان .

وفي يوم الاثنين رابعه رسم السلطان لنقيب الجيش بأن يقبض على أولاد الزنكلونى الذى مات تحت الضرب ، فشكهما فى الحديد ، ورسم له السلطان بأن يرسلهما الى جهة الواح فى مكان

يسمى «موط» ، وهو كثير العقارب والهوام ، فقبض عليهما وأرسل صحبتهما متسفرا ، وأخذ منهما خمسة عشر دينارا . وقد كفى ما جرى عليهما .

وفي يوم الأحد كان عيد النحر ، وكانت الأضحية مشتتة فى السعر ولا توجد بسبب أذى الممالك وخطفهم للأغنام والأبقار ، وأعجب من هذا أن الملح خرج السلطان على بيعه وحكره ، فعز وجود الملح حتى يبيع كل أردب ملح بثمانمائة درهم . وهذا قط ما اتفق فيما مضى من السنين ، وعز وجود الفحم حتى يبيع كل قنطار بثمانية أنصاف ، وكذلك الشعشاع حتى عد ذلك من النوارد الغربية .

وكان السلطان خرج على بيع الخشب السنط بسبب عمارة المراكب ، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ويرسلونه الى السويس لأجل عمارة المراكب التى هناك ، وعز الكبريت أيضا حتى يبيع كل رطل بثمانية أنصاف ولا يوجد الا قليلا .

وفي يوم السبت سادس عشره نزل السلطان باكر النهار وعدى الى بر الجيزة ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطليخانات والعشراوات والجم الفقير من الخاصكية والممالك السلطانية ، فنصب له وطاقا فى المنية وأشيع بين الناس أنه يتوجه من هناك الى جهة الفيوم حتى يكشف على الجسر الذى عمره الأمير أرزمك الناشف ، وكان تقدم له أنه فى أواخر السنة الخالية توجه أيضا الى الفيوم . ثم ان السلطان أخذ صحبته محفة فتحقق عند الناس أنه لا بد أن يشوط من هناك الى مكان يختاره .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أنفقت الجامكية على العسكر في غياب السلطان .

وفي أثناء هذا الشهر قتل شخص من المماليك السلطانية يقال له برسباي حداية ، وكان أصله من ممالك الظاهر خشدقدم ، فوجدوه مذبوحا في داره هو وعبداه ولا يعلم من قتله . ويقال ان بعض المماليك الأجلاب قتله لأجل إقطاعه ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره جاءت الأخبار بأن السلطان لما توجه الى بر الجيزة نزل بالمنية التي عند انبابة ، ثم توجه من هناك الى المنصورية ونصب بها الوطاق هو والأمراء وأقام بها أياما ، وصار يركب من هناك ويسير ويتصيد ، وقيل أنه توجه الى جسر أم دينار وكشف عليه ثم رجع الى الوطاق .

ثم انه في يوم الجمعة رحل من المنصورية وعاد الى انبابة فأقام بها في ذلك اليوم ، وكان أشيع بين الناس بأن السلطان يحرق هناك في ليلة السبت إحراقا نفط ، فتوجهت اليه الناس أفواجا أفواجا بسبب الفرجة فلم يصح أمر النفط هناك ، وقد استخف عقل السلطان جماعة من الأمراء في هذه التشوطة التي شوطها في هذه الأيام الشتائية ، وقد حصل للأمراء والعسكر غاية الكلفة والمشقة من غير سبب يوجب ذلك . وكان السلطان أخذ صحبته محفة وقويت الاشاعة بين الناس بأن السلطان يتوجه من هناك الى الفيوم وقيل الى ثغر الاسكندرية فلم يصح ذلك .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرينه صلى السلطان العصر بالوطاق ، ثم عدى من هناك الى بولاق وقصد التوجه الى القلعة ، فطلع من على قناطر السباع وشق من الضليبة ، وكان في موكب

هين بخلاف ستة أنفوس وهم : الأمير طومان باي الدوادر والأمير علان الدوادر الثاني أحد المقدمين والأمير أنص باي حاجب الحجاب والأمير تمر أحد المقدمين والأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين والأمير ماماي جوشن أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات وبعض خاصكية مشاة . وكان قدامه جماعة من أرباب الوظائف من أعيان المباشرين ، خلا القاضي كاتم السر ابن أجا فانه كان عليلا منقطعا عن الركوب ، وكان السلطان والأمراء يتخافون صغار وسلاحيات صوف بسمور . وكان قدام السلطان بعض جنائب ونوب هجن ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشي فطلع الى القلعة قبل المغرب بخمس درجات . فكانت مدة غيبته في هذه التشوطة ثمانية أيام .

وفي يوم السبت المقدم ذكره حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وقد وصل من مكة الى القاهرة في أحد عشر يوما فعد ذلك من النوادر . وقد خرجت هذه السنة المباركة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة وقع فيها الرخاء في سائر الغلال ، وأخصب فيها الزرع والفواكه والبطيخ ، وكان النيل فيها عاليا وثبت الى أواخر بابه ، وكانت سنة مباركة غير انها كانت كثيرة الحوادث ، ووقع فيها الطاعون في أوائلها ، وحصل فيها توعك للسلطان في عينه حتى أشرف على العمى ثم شفى من ذلك . وحصل فيها عزل للقضاة الأربعة في يوم واحد وولى السلطان أربعة قضاة عوضهم في يوم واحد ، وكان السلطان أبطل المجامعة والمشاهرة التي كانت تؤخذ من جهات الحسبة ففرح الناس بذلك . ثم بدا للسلطان إعادة ما أبطله من وجوه المظالم فشق على الناس ذلك ، وكانت جهات الشرقية والغربية في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان لموت الجويلي

وجور الكشاف ومشايخ العربان ، والأمر في ذلك كله الى الله تعالى .

سنة عشرين وتسعمائة (١٥١٤ م) :

فيها ، في المحرم ، كان مستهل الشهر يوم الأحد المبارك ، فكان الخليفة يومئذ الامام المتوكل على الله محمد بن الامام المستمسك بالله يعقوب ابن الامام المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان الديار المصرية الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره . وأما القضاة الأربعة أئمة الدين فالقاضي الشافعي علاء الدين الأحمسي ، والقاضي الحنفي شمس الدين بن النقيب محمد السديسي الامام ، والقاضي المالكي جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم ، والقاضي الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، وأما الأمراء المقدمون فالأمير سودون بن جاني بك الشهير بالعجسي أتايك العساكر بالديار المصرية ، والأمير أركماس بن ولي الدين أمير مجلس . وكانت امرة السلاح يومئذ شاغرة ، وبقية الأمراء المقدمين على حكم ما ذكر في السنة الخالية . وفي هذه السنة تكاملت عدة الأمراء المقدمين سبعة وعشرين مقدم ألف ، ويأتى الكلام على أسمائهم في مواضعه ، وذلك خارجا عن امرة السلاح فانها كانت شاغرة . وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم ذكره في السنة الخالية .

فلما كان مستهل الشهر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، فبالغ السلطان في اكرامهم وقام اليهم فسلموا ونزلوا الى دورهم . وفي يوم الثلاثاء ثالثه جلس السلطان بالميدان وعين الى خاصكيته خوذا ولبوس خيل من خاصات

البركستوانات ، وقبل ذلك بسدة فرق عليهم سيوفا مسقطه بفضة وزرديات عال ، حتى فرق عليهم التراكيش والقسي وقد اعتنى بهم بخلاف من تقدمه من الملوك ، فانه كان ينعم عليهم في الباطن والظاهر بالمال والاقطاعات والقماش الفاخر وغير ذلك .

وفي يوم الأربعاء رابعة وجد في سوق الغنم شخص من الماليك القرائصة وهو قتيل ، وقد خنق بوتر في رقبته وعرويه من أثوابه ورموه على قارعة الطريق ولم يعلم من قتله ، فقبل ان ذلك من فعل الماليك الأجلاب بسبب اقطاعه ، وقد فعلوا مثل ذلك بجماعة كثيرة من الماليك القرائصة بسبب اقطاعاتهم ، فقتلوا ولم تنتطح في ذاك شاتان .

وقد اضطربت الأحوال في هذه الأيام الى الغاية وصار الماليك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل اقطاعه ، واذا عرضوا من يقتل على السلطان فيتغافل عن ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفي يوم الخميس خامسه تغير خاطر السلطان على الأمير جاني بك الأستاذار فقبض عليه وأودعه في الترسيم حتى يقيم الحساب ، فانتدب الى عمل حسابه شمس الدين بن عوض والشرفي يونس النابلسي الذي كان استادارا ، فالتزموا بأن يبقوا عليه في حساب الديوان المفرد خمسة وثلاثين ألف دينار ، فاستمر في الترسيم بالقلعة حتى يكون من أمره ما يكون ، وكان جاني بيك ظالما عسوقا غير محبب للناس ، فلم يرث له أحد في هذه الكائنة التي وقعت له .

وفي يوم السبت سابعه تعطل اللحم الذي كان يطلع الى طباق الماليك الأجلاب فضجوا في ذلك اليوم وكادت أن تقع فتنة كبيرة ، وكان الوزير يوسف البدرجي مسافرا في جهة البحيرة وديوان الدولة في غاية الاضطراب ، وقد تعطلت لحوم جماعة من الماليك القرائصة نحو من ستة أشهر

لم تصرف لهم من حين عزل المعلم على الصغين ومات عقيب ذلك ، فكثر الكلام في حق السلطان من الممالك وربما ينتشى من ذلك فتنة ، وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه البضائع في السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبت الفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحو من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط ، وكانت جهة البحيرة في هذه الأيام في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان من حين مات الجويلي وولى ابن أخيه عوضه .

وفي يوم السبت المذكور نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التي بالمطرية ، وأقام بها ذلك اليوم ... كل هذا من ضيقة حضيرته من أجل هذه الأحوال التي هي غير صالحة ، والأمر الى الله .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره جلس السلطان بالحوش وعرض جماعة من خاصكيته فقط وفرق عليهم خوذا نحو ثمانمائة خوذة ، وفرق عليهم أيضا بركستوانات ما بين مخمل ملون وفولاذ وذلك نحو ستمائة بركستوان ، وكان قبل ذلك بمدة يسيرة فرق عليهم زرديات وأتراسا ورماحا بسن وسيوفا مستقطعة بفضة ، وفرق عليهم أيضا تراكيش وقسيا ونشابا . وكان ذلك بالزردخاناه من مواجيد الممالك الذين ماتوا في الفصل في السنة الخالية ، ولم يفرق موجودهم الا في هذا الشهر .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وفي هذا الشهر حسن ببال السلطان أن يضيف الطبقة الخامسة التي جددتها برسم العسكر الملقق ، فوزع ذلك العسكر على

الطباق الأربع كما كانوا في الأول ، وأبطل أمر الطبقة الخامسة ، وصار العسكر شيئا واحدا في تفرقة الجامكية .

وفي يوم الخميس تاسع عشره دخل الحاج الى بركة الحاج ، فدخل الركب الأول وقد جد في السير أمير الحاج طومان باى حاجب ثانى ، فخرق العوائد في دخوله في التاسع عشر من المحرم ، فدخل القاهرة وطلع الى القلعة في يوم الجمعة عشريه ، فخلع عليه السلطان وشكره على ذلك . وفي يوم السبت حادى عشريه دخل المحمل الشريف الى القاهرة وطلع أمير ركب المحمل الأمين قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه السلطان خلعة سننية ونزل الى داره في موكب حافل ، ورجعا والحجاج راضية عنهما فيما فعلاه في طريق الحجاز .

وفي هذه السنة رجع من الحجاز القاضي شمس الدين التتاي المالكي أحد النواب ، وكان مجاورا بمكة ثلاث سنين .

ورجع سيدى خليل ابن عم الخليفة ، وكان مجاورا بمكة فرجع وهو مريض على خطة لايعى ، فلما توجه الى داره أقام بها الى يوم الاثنين ثالث عشريه وتوفى الى رحمة الله تعالى . وهو خليل ابن محمد بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله العباسى الهاشمى القرشى . وكان رئيسا حشما بهى المنظر شائب اللحية ، وكان في عشر السبعين لما مات ، فكان له جنازة حافلة ودفن على آبيه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وقد كبر سنه وشاخ ولم يل الخلافة ، لاهو ولا أبوه محمد ولا جده يعقوب ، وكان خليل هذا طامعا بأن يلى الخلافة فلم يقسم له ذلك وجاءه الموت على غرة ، فمات وفي قلبه من الخلافة حسرة ، فقافته نيل

الخلافة ، وعانده الدهر فيما أمله بخلافه . وقد قلت في المعنى :

بات سيدى خليل بالقهر لما
لم ينل بالخلافة التفضيلا
وتولى عنه الزمان بريب
وكذا الدهر لا يراعى خيلا

وكان سيدى خليل عنده رهج وخفة وكان أهوج في نفسه ، وقد جرى بينه وبين ابن عمه أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب بسبب الخلافة ما لا خير فيه . وقد تقدم ما وقع لهما في سنة أربع عشرة وتسعمائة ، فما أبقي سيدى خليل ممكنا في أذى ابن عمه الخليفة يعقوب ، وقد ذكرنا ذلك في موضعه ، ومات والعداوة واقعة بينهما ، وقد كفى الله الخليفة يعقوب وولده محمد المتوكل على الله شر خليل بصبرهما عليه . وقد قيل في المعنى :
اصبر على مضض العدو

فان صبرك قاتله

النار تأكل بعضها

ان لم تجد ما تأكله

وفي يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم فيه خلع السلطان على الأمير طقطبى نائب القلعة أحد المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق وقرره أمير حاج بالركب الأول فبكى وشكا من ذلك ، وكان فقيرا لا يحمل حاله ذلك ، فلم يلتفت السلطان الى شكواه ولا رق له ، وقد خالف السلطان العوائد القديمة في لبس أمراء الحاج في شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد في شهر ربيع الأول ، فبادر السلطان وألبسهما في هذا الشهر وعجل بذلك . وفي أواخر هذا الشهر جاءت الأخبار من مكة بوفاة قطلباى باش المجاورين ، فلما تحقق موته

خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جاني بك قرا وقرره في باشية مكة عوضا عن قطلباى بحكم وفاته بمكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من المماليك يقال له يونس ، وقرره ترجمانا عوضا عن تغرى بردى الترجمان ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين تغير خاطر السلطان على تغرى بردى كما تقدم ذكر ذلك . وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة الزردكاشية ثم بقى نائب الترجمان ثم بقى ترجمانا كما كان تغرى بردى .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه عرض السلطان جماعة من خاصكيته وعين منهم نحو من ثلاثمائة خاصكى ليتوجهوا معه الى السويس بصحبته . ثم عين بعد ذلك جماعة من الأمراء المقدمين ليتوجهوا بصحبته الى السويس ، فعين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار قرابة السلطان ، وعين الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير خاير بك كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين ، والأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين . وعين جماعة من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم مغلباى الزردكاش ، وجماعة آخرين من الأمراء العشراوات ، فلما عينهم شق عليهم سفر السلطان الى السويس لعدم الماء والكلفة .

وفيه نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام في خرطوم الروضة ذلك اليوم ، وكان نهار غيم فأنشراح في ذلك اليوم ، وأحضر له الزينى بركات ابن موسى هناك مآكل فاخرة وأسمطة خافلة ، فأقام هناك الى بعد العصر وعدى وطلع القلعة وشق من الصليبة في نفر قلائل من الخاصكية ، وكان صحبته الأمير خاير بك الخازندار أحد

الأمراء المقدمين وآخرون من الأمراء العشرافات .
 وفي يوم السبت ثامن عشره صلى السلطان صلاة
 الفجر ، ونزل من القلعة فتوجه الى الريدانية ونزل
 بالوطاق الذى نصب هناك ، وجلس بالمخيم
 الشريف ، وخرج صحبته الأمراء المعينون المقدم
 ذكرهم ، فأقام السلطان بالوطاق من يوم السبت
 الى يوم الأربعاء ، وقد قصد التوجه الى نحو
 السويس ليكشف على المراكب التى أنشأها هناك .
 وكان صحبته من المباشرين القاضى شهاب الدين
 أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم
 الدين وأولاد الملكى كاتب الخزانة وأبو البقا ناظر
 الاسطبل وناظر الخاص علاء الدين وأولاده ابن
 فخيرة كتاب الممالك وآخرون من أعيان
 المباشرين .

وأخذ السلطان صحبته الصنجق السلطاني
 والكوسات والطبول والزمور ... وأخذ صحبته
 محفة بغشى أطلس أصفر وطلباً حريياً ، ورسم
 للعسكر الذين صحبته بأن يأخذوا معهم اللبس
 الكامل من زرديات وبركستوانات وخوذ وغير
 ذلك من آلة السلاح ، فلما تحقق العسكر خروج
 السلطان ماجت القاهرة لخروجه وتكالب العسكر
 على مشترى قرب وبقسماط وغير ذلك من احتياج
 السفر ، ولم يعهد قط من سلطان أنه خرج الى
 السويس وسافر على هذا الوجه . ولما كان
 السلطان فى الوطاق خلع على شخص من الأمراء
 العشرافات يقال له جانى بك قرا فقرره باش
 المجاورين بمكة ، ولما نزل السلطان من القلعة
 شق من بين التراب حتى نزل بالوطاق ، فرسم
 للوالى بأن يشهر المناداة فى القاهرة عن لسان
 السلطان بأن لا مملوك ولا ابن ناس ولا غلام
 ولا عبد يخرج من داره من بعد المغرب ، وان
 لا أحد يمشى بسلاح ولا مملوك يغطى له

وجه ، ولا يعيث على متسبب . فلما أشهر النداء
 بذلك ارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فصار الوالى
 يكرر هذه المناداة فى القاهرة ثلاثة أيام متوالية .

وفى صفر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ،
 وكان السلطان مقيماً بالوطاق فتوجه اليه الخليفة
 والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فبالغ السلطان
 فى اكرامهم ، ولا سيما أمير المؤمنين المتوكل على
 الله ، فان فى ذلك اليوم توجه أبو بكر وأخوه أحمد
 أولاد سيدى خليل ابن عم الخليفة الذى توفى
 فراعوا أمير المؤمنين المتوكل عند السلطان بسبب
 المرتب الذى كان لوالدهم خليل ، فان الخليفة
 المتوكل لما ولى الخلافة زاد فى مرتب سيدى خليل
 حتى قطع بذلك لسانه عنه ، فلما توفى سيدى
 خليل قرر الخليفة ما كان زاده فى مرتب سيدى
 خليل لولده سيدى هرون ، فلما سمع السلطان
 كلام أولاد سيدى خليل تعصب للخليفة ونهر
 أولاد سيدى خليل وقال لهما : « اذا زاد فى معلوم
 أبوكم شئ حتى قطع به لسانه عنه فلما مات أقول
 له اجعل الذى زدته لخليل من بعده لأولاده .
 أنا أحكم عليه فى شئ . اخرجوا عنى لا ترونى
 وجوهكم قط » . ثم قال : « والله ان يرجع أحد
 منكما يشكو من الخليفة عندى ما يحصل له معى
 خير . اخرجوا من وجهى نزقتونى » . وكان الذى
 بالغ فى مراعاة الخليفة أبو بكر بن سيدى خليل
 وأخوه أحمد ، ثم قال لهما : « كونوا كلكم تحت
 طاعة ابن عم أيسكم » فخرجا من بين يديه وهما
 يتعثران فى أذيالهما ، ونصر الخليفة المتوكل
 عليهما ، وقرر الخليفة ما كان زاده لخليل وجعله
 لابنه هرون ، ولم يطلع من يد أولاد خليل فى حق
 الخليفة شئ وانتصف عليهما ، ورجع الخليفة من
 عند السلطان وهو فى غاية العز والعظمة .

وقال آخر :

سبحان من يحكم في خلقه
بمدله فيهم ولو شاء بطش
لخوفهم بالجوع لم ينتهوا
عذبهم من بعده بالعطش

وفي يوم الأربعاء تاسعه جاءت الأخبار بأن
السلطان عاد من السويس ونزل ببركة الحاج ،
فكانت مدة غيبته في هذه السفرة ثمانية أيام .
وقاسى العسكر في هذه المدة اليسيرة غاية المشقة ،
ومات لهم عدة بغال ووقع فيهم عطشة شديدة .
وتكلف الأمراء والعسكر في هذه السفرة كلفة
كبيرة . فلما بلغ الخليفة والقضاة الأربعة مجيء
السلطان توجهوا إليه نحو بركة الحاج ، وذلك في
يوم الخميس عاشر صفر ، فلما سلموا عليه وهنوه
بالسلامة بالغ في إكرامهم ، ثم توجه إليه الأمراء
والعسكر الذين كانوا بالقاهرة فخرجوا إليه قاطبة ،
ولاقاه القاضي كاتب السر ابن أجا وغير ذلك من
الأعيان .

وكان من ملخص أخبار هذه السفرة أن السلطان
لما وصل إلى السويس كان يوم دخوله هناك يوما
مشهودا ، وطلب طلبا حافلا ما بين جنائب وهجن
باكوار ذركش ، وكان صحبته محفة والكوسات
والطبول والزمور ، وكان هناك الرئيس سلمان
العثماني وجماعة من العشمانية البحارة فقصده
السلطان اظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان حتى
قيل دخل العسكر إلى السويس وهو لابس آلة
الحرب ، وكان جماعة ابن عثمان هناك نحو من
ألفي انسان ، فلما وصل السلطان إلى هناك كشف
على تلك الأغربة التي عمرها هناك وكانت نحو
عشرين غرابا ، فالذي انتهى منه العمل أنزلوه إلى
البحر الملح بحضرة السلطان ، وكان ذلك اليوم

ثم ان السلطان أقام بالوطاق إلى يوم الأربعاء
ثاني الشهر ، فرحل من الريدانية بعد الظهر
وتوجه إلى الخانكاه فتعشى هناك ، ثم رحل
وقصد التوجه إلى نحو السويس ، ورجع بقية
الأمراء الذين لم يسافروا مع السلطان ، فلما رحل
من الخانكاه جاءت الأخبار بأن الماء الذي حمله
السلطان معه في القرب قد فسد جميعه من القرب
كونها كانت جديدة فصار الماء أحمر كالدم وتتن
ودود ، وكان السلطان حمل معه نحو ثلاثة آلاف
قربة ، ففسد ذلك الماء جميعه .

فلما كان يوم الجمعة رابعه أرسل السلطان إلى
الأمير خاير بك الخازندار والزيني بركات بن
موسى المحتسب بأن يرسل إليه جمال السقاين
بالروايا والماء ، فعند ذلك قبض الزيني بركات بن
موسى على جمال السقاين الذين بالقاهرة فاخفى
بقية السقاين وأخفوا الجمال ، فعند ذلك ماجت
القاهرة واضطربت لأجل منع الماء ، واشتد عطش
الناس ، وصار الأمراء والعسكر الذين بالقاهرة
ينقلون الماء في الجرر على ظهور الخيل والبغال ،
وبقية الناس ينقلون الماء بالجرر على ظهور
الحمير ، واستمرت القاهرة أربعة أيام لم يلح بها
راوية ماء على جمل . وقبض الزيني بركات بن
موسى على نحو مائة وعشرين جملا برواياها
وأرسلها إلى السلطان . فبلغ بعد ذلك سعر كل
قربة ماء نصفين فضة ولا توجد . وصار الناس
يشربون من الصهاريج والآبار العذبة في مدة
ذلك الاضطراب . وقد قلت في هذه الواقعة :

مذ عطلت مصر من سقا يلوح بها
لما أحل بها السلطان بلواء

وقد بقينا لفقد الماء من ظمأ
مثل البنات العذارى نشتهى الماء

هناك مشهودا ، وقيل كان مصروف تلك الأغربة بسا فيها من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح فصرف على ذلك من مال السلطان نحو أربعمئة ألف دينار وكسور على ما قيل ، وكان الرئيس سلمان العثماني هو الشاد على عمارة تلك الأغربة ، وهو المشار اليه في ذلك ، فلما حضر السلطان مد له هناك الرئيس سلمان مدة حافلة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وأنعم عليه بألف دينار ، وخلع على جماعة من النجارين والحدادين والقلاطية لكل واحد خلعة سنية .

وقيل ان في ذلك اليوم احترق جماعة من الصناع الذين يصنعون البارود فمات منهم نحو عشرين انسانا ، وقيل ان النار تعلقت في قلع غراب من الأغربة فأحرقت عن آخره ، فكان مصروف ذلك القلع نحو خمسمئة دينار لأن قلع بحر الملح بخلاف قلع بحر النيل

وأشيع أن السلطان عبث على بعض الأمراء فأنزلهم في الغراب الكبير الذي يرسم الباش ، وكان به قاعة تحت المقعد الذي يجلس فيه الباش ، فرسم للأمراء بأن ينزلوا الى تلك القاعة ، فنزل الأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب . والأمير أنصبای حاجب الحجاب ، والأمير علان الدوادار الثاني ، وآخرون من الأمراء . فلما استقروا بتلك القاعة طلع الأمير طومان باي الدوادار وأغلق على الأمراء باب الطابقة التي على تلك القاعة وتكاسل عنهم ساعة ، فظن الأمراء أن السلطان قد قبض عليهم بهذه الحيلة التي عملها عليهم ، فأقاموا والطابقة مغلقة عليهم نحو عشر درجات فضايق الأمر عليهم وساء بهم الظن ، فعند ذلك جاء اليهم الأمير طومان باي الدوادار فقال

لهم : من أراد أن يطلع من الطابقة يحضر كل واحد منكم قنطار سكر للسلطان ، فما صدقوا بذلك وقالوا : السمع والطاعة ، ففتح لهم باب الطابقة فطلعوا وهم في غاية الاضطراب ! ..

وكانت اقامة السلطان في السويس ثلاثة أيام . وقد أنشأ السلطان هناك خانا ودكاكين وبعض دور وغير ذلك من الأبنية المفيدة ، وحفر هناك آبارا وصنع عليها سواقي ، فلما عاد السلطان الى بركة الحاج أنعم على الأمراء الذين كانوا بصحبته . فأنعم على الأتابكي سودون العجمي بخمسمئة دينار في نظير كلفته وتعبه ، وأنعم على الأمير أركماس أمير مجلس بأربعمئة دينار ، وكذلك الأمير سودون الدواداري والأمير طومان باي الدوادار والأمير أنصبای حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ممن كان صحبته . وأنعم على الأمراء الطبلخانات ممن كان صحبته وهم : قن بك رأس نوبة ثاني ومغلبای الزردكاش وآخرون من الأمراء الطبلخانات فأنعم على كل واحد منهم بمئة دينار في نظير كلفته . وأنعم على الأمراء العشراوات ممن كان صحبته لكل واحد منهم بحمسين دينارا في نظير كلفته ، ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ونزل بالريدانية .

فلما كان يوم السبت ثاني عشر صفر ركب السلطان من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة في موكب حافل بغير شاش ولا قماش ، وكان قدامه ولده المقر الناصري محمد ، وهو لابس تبع سلطاني ، ولا صنجق سلطاني ولا قبة ولا طير ، فلاقاه القضاة الأربعة من الريدانية ودخلوا القاهرة قدامه ، ولاقاه سائر الأمراء المقدمين قاطبة والمباشرين . وكان الأتابكي سودون العجمي ابنه ضعيف على خطة فدخل قبل السلطان واشتغل بولده ، وكان السلطان ألبس الأمراء

المقدمين الذين كانوا صحبته كوامل مخمل أحمر
بسمور ، وشيء كوامل صوف بسمور .

فلما تحقق الناس دخول السلطان اصطفوا له
على الدكاكين بسبب الفرجة ، واصطفت له الطبول
والزمرور على عدة دكاكين من القاهرة ، فشق من
القاهرة وقدامه طبلان وزمران والنفير السلطاني ،
وقدامه عدة نوب هجن فيها أربعة نوب بأكوار
زركش ، البقية بأكوار مخمل ملون . وكان قدامه
من الجنائب نحو أربعين فرسا بعضها بكنائش
زركش وسروج مغرق . وكان من جملة الجنائب
بغال وحجورة بسروج بداوى وركب بداوى فعد
ذلك من النوادر .

وكان قدامه عشر كاشات بأغطية حرير أصفر ،
وكان قدامه محفة على بغال بعشي حرير أصفر .
فلما مشى الطلب والجنائب والأمراء جاء بعدهم
السلطان وقدامه الخاصكية مشاة ورءوس النوب
والشبابية السلطانية والشغراء . وكان لابسا تخفيفة
صغيرة ملساء وعليه سلاري صوف أبيض بوجه
صوف أخضر ، فشق القاهرة في ذلك الموكب وكان
له يوم مشهود ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ،
فطلع من على سويقة العزى من على مدرسة
السلطان حسن ، وشق الرملة ثم دخل من باب
الميدان بعد أن سلم على القضاة والأمراء وانقض
ذلك الموكب . فكانت مدة غيبته في هذه السفرة
ذهابا وإيابا ثمانية أيام منها اقامته في السويس
ثلاثة أيام .

وفي يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان
بالميدان جلوسا عاما وحكم بين الناس الى قريب
الظهر ، وكان له مدة طويلة لم يحكم بين الناس من
قبل أن يتوجه الى السويس .

وفي ذلك اليوم رسم بتوسط شخصين من

العلماء قد سرقوا زرديتين لأستاذ بينهما في هذه
السفرة ، فوسطهما في الرملة عند سوق الحيل

وفي يوم السبت تاسع عشره فيه ثارت فتنة كبيرة
بالقلعة من المماليك الأجلاب ، ومنعوا الأمراء من
الطلوع الى القلعة ، وهبوا الدكاكين التي في خرائب
النتر ، ونزلوا الى بيت الأمير طومان باي الدوادار
وأركبوه من بيته غصبا ، وطلعوا به الى القلعة
وقالوا له : قل للسلطان ينفق علينا كما أنفق على
الأمراء الذين سافروا صحبته الى السويس .
فاستمرت المماليك ثائرة بالقلعة ، وكثر القال
والقيل بين الناس بسبب ذلك ، وأغلقت باب
السلسلة وباب الميدان في ذلك اليوم ، وكان
العسكر قاطبة له أربعة أشهر لم يصرف لهم قبيها
لحم ولا علق .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بأن من كان له
علق مكسور أو لحم مكسور يطلع الى القلعة يوم
الاثنين فيصرف له ذلك ، فلما كان الاثنين طلع
العسكر قاطبة فلم يصرف لهم سوى العلق فقط
واستمر اللحم موقوفا ، وكان ديوان المفرد في تلك
الأيام في غاية الانشحات ، والوزير يوسف البدرى
مع المماليك في غاية الذل ، وهو مهدد منهم بالقتل
في كل يوم . وكان السلطان أخرج عن ديوان
الوزارة عدة جهات كانت توسعة في الديوان ،
منها جهات قطيا وغير ذلك من الجهات ، فأنعم
بجهات قطيا على الأمير قانصوه روح لو ،
واستمر مقيما هناك على تقدمته ، فانشحت الديوان
الى الغاية بسبب ذلك ، وكان العسكر كثيرا
ولا سيما ما جددده السلطان من العسكر في الطبقة
الخامسة فانشحت الدواوين من الجوامك
واللحوم والعلق بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد عشرينه جلس السلطان على
المصطبة التي بالحوش ، وأحضر الوزير يوسف

البسدرى ومباشرى الديوان ، وأحضر المعاملين والطباخين فعملوا حسابهم بحضرة السلطان ، فظهر لهم مال له جرم منكسر فى الديوان ، فرسم على المباشرين بجامع القلعة وأقام فى عمل حسابهم الى بعد الظهر ، وكان ذلك اليوم فى غاية النكد ، هذا والماليك قائمة عند حظوظ أنفسهم ، وقد أشيع بين الناس أمر الركوب على السلطان .

وقيل ان السلطان أحضر بعد العصر جماعة من أعيان خاصكيته وعتبهم على هذه الأفعال الشنيعة فأغلظ عليه بعض الخاصكية وقال له : « أنت الذى أشحت الدواوين بهذا العسكر الكثير الذى جمعته وجعلت له طبقة خامسة وقطعت جوامك الأيتام والنساء بسببهم وهم ما بين تراكمة وأعجام وسويخانة وأساكفة وأولاد ناس ملفقين شئ خياط وشئ بخانقى » . فقال لهم : « أنا ما جعلت ذلك العسكر المستجد الا أن يكون فداء لكم فى الأسفار والتجاريد » . فقال له الماليك : « هذا ما كان طريقة الملك الأشرف قايتباى وأنت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل . والجامكية التى تعطونها لنا ما تكفانا لكراء بيت واسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا ، والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد . والأقسمة صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك لا من اللحم ولا من الأقسمة ، ونحن جياعة عراية » . فسكت السلطان ساعة ثم قال : « لكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعير مغربل وأجعل لكم الأقسمة كل جرة بنصف فضة » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانصرفوا من بين يديه وهم شاكرون وخمدت تلك الفتنة قليلا .

وكان الماليك الأجلاب عولوا على نهب بيوت الأمراء والمباشرين ونهب أسواق القاهرة والدكاكين

وحرق البيوت ، فلطف الله تعالى وجاء الأمر الى سلامة والله الحمد ، ولو فعلوا ذلك لطلع ذلك من أيديهم وما كانت تنتطح فى ذلك شاتان ، ولكن الله سلم .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه طلع الجنباب الشرفى يونس ولد الأتابكى سودون العجمى الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخيل أحمر بسور من ملايسه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وزينت له دكاكين حارته عند قنطرة سنقر . وكان سبب ذلك أن الشرفى يونس كان مريض مرضا عظيما حتى أشرف فيه على الموت ، ثم بعد ذلك بعث الله تعالى له بالشفاء فشفى من ذلك العارض وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود ، وكان قبل ذلك أنعم عليه السلطان بامرة عشرة وصار من جملة الأمراء العشراوات .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على عسكر الطبقة الخامسة . وحدث فى ذلك اليوم نادرة غريبة ، وهى أن الماليك الأجلاب وقفوا فى الخوش وصار كل من قبض الجامكية من عسكر الطبقة الخامسة يأخذون منه أشرفيا من الجامكية ويقولون له : « نشرب به أقسمة » . فيأخذون منه الأشرفى طوعا أو كرها ، فحصل لعسكر الطبقة الخامسة فى ذلك اليوم من الماليك الجلبان غاية البهيلة وما قدر السلطان على منعهم من ذلك ، وصاروا يخطفون الجامكية من يدي من يقبضها ، فمنهم من يأخذ منها أشرفيا ويعيد الباقي الى أصحابه ، ومنهم من يأخذ الجامكية كلها ويهرب ، فأعيا أمرهم الرعوس النوب ، وحصل فى ذلك اليوم غاية الضرر لعسكر الطبقة الخامسة .

وفي ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ،
فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
واتفق أن ذلك اليوم كان أول بشنس من الشهور
القبطية فوافق أن الشهر العربي والقبطي كانا في
يوم واحد ، فعد ذلك من النواذر .

وفي يوم الخميس ثانيه خلع السلطان على
القاضي شرف الدين الصغير وأعادته الى نظر الدولة
وكتابه الممالك كما كان أولا ، وجعل له التكلم في
ثلاث الوزارة مع يوسف البدرى المتولى للوزارة
فتضاعفت عظمة القاضي شرف الدين الصغير الى
الغاية ، وكان له مدة طويلة وهو بطل مختلف في
داره حتى رضى عليه السلطان وأعادته الى وظائفه ،
وقيل سعى في ذلك ثمانية آلاف دينار وخمسة
آلاف أردب شعير ، فلما خلع عليه نزل من القلعة
في موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين وغير ذلك
من أعيان الناس ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم السبت رابعه فرق السلطان على الممالك
رمحا بسبب لعب الرمح ، ثم أنفق عليهم فأعطى
لكل مملوك ستة أشرفية ثمن خام على جارى
العادة ، وكان في السنة الخالية لم يعطهم شيئا ،
فأعطاهم ست أشرفية عن هذه السنة وما قبلها
حتى يرضيهم وهم غير راضين بذلك والاشاعات
قائمة بوقوع فتنة كبيرة وصار الناس على رءوسهم
طيرة ، ووزع التجار قماشهم من الدكاكين خوفا
من النهب .

وفي يوم الاثنين سادسه خرج الأمير طومان باى
الدوادار الكبير الى بلاد الصعيد بسبب ضم المغل
وجمع الأموال ، فخلع عليه السلطان ونزل من
القلعة في موكب حفل ، وصحبته الأمراء المقدمون
وأعيان المباشرين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء سابعه جلس السلطان على

المصطبة بالحوش وفرق على العسكر ثلاثة أشهر
عن سن اللحم المنكسر لهم ، فغلق لهم الى آخر
سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وصار لهم من أول
سنة عشرين وتسعمائة ، وصار يستدعى لبقعة بعد
طبقة مثل تفرقة الجامكية

وفي يوم الجمعة عاشره قلع السلطان الصوف
ولبس البياض ، ووافق ذلك عاشر بشنس القبطى ،
وكان الوقت رطبا .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل السلطان
المولد الشريف النبوى ، ونصب الخيمة الكبيرة
بالحوش ، وحضره القضاة الأربعة الذين تولوا عن
قريب ، وهذا كان أول اجتماعهم في المولد النبوى
بالقلعة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وبقية
الأمراء المقدمين ، فكان المولد في ذلك اليوم
حافلا .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من الجيزة بأن
عرب عزالة نازلين بالقرب من البدرشين ، فلما بلغ
ذلك الأمير طومان باى الدوادار ركب من وقته
وكبس عليهم ، فقبض على جماعة من مشايخهم
وشكهم في الحديد ، وقيل كان عدتهم غير المشايخ
المذكورين من أعيانهم وكانوا نحو ثمانية عشر
انسانا — مائة خمسة وأربعين انسانا وبعث بهم
الى السلطان ، فلما عرضوا على السلطان قصد
أن يكلبهم على أبواب القاهرة ، فمنعه بعض
الأمراء من ذلك وقال له : « متى أن قتلت هؤلاء
العربان نهبت عرب عزالة اقليم الجيزة عن آخره » .
فرجع عن قتلهم وأمر بسجنهم في المقشرة .

وفي يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان
على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قانصوه
الفقيه ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ،
فقرره في نيابة عينتاب ، وقيل نيابة سويس ، وكان

قبل ذلك في نيابة سيس ثم عزل عنها ، وكان مقيما
بمصر بطالا حتى خلع عليه وولاه كما كان .

وفي يوم الجمعة سابع عشره نزل السلطان وعدى
الى الروضة وأقام بالمقياس وصلى هناك صلاة
الجمعة ، فلما بلغ ذلك قاضي القضاة الشافعي
علاء الاخميمي توجه السلطان الى المقياس ،
فتوجه اليه وخطب به في جامع المقياس وصلى به
الجمعة هناك . ثم ان السلطان أقام في المقياس
الى بعد العصر ونزل في مركب وشق على بر
الروضة وطلع من على الجزيرة الوسطى وأتى الى
القلعة .

وفي يوم السبت ثامن عشره فيه ابتداء السلطان
بضرب الكرة في الميدان ، فطلع اليه الأمراء على
جاري العادة ، ولكن كان السلطان مخصتكا في
جسده فلم يضرب الكرة الا ضربا هينا ... حتى يقال
ان السلطان ضرب الكرة في هذه السنة !

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان
على الأمير أربك المكحل كاملية صوف صيني
بسمور ، وألبسه تخفيفة كبيرة التي يسمونها
الناعورة ، وكان امن حين حضر من ثغر دمياط
وهو بتخفيفة صغيرة ولم يدق على بابه طبلخاناه
وكان كهية الطرخان ، فجبر السلطان بقلبه في
ذلك وخلع عليه وأعادته الى التقدم كما كان .

وفي ذلك اليوم المذكور حضر قاصد من عند
سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان
بالميدان ، فلما قرىء على السلطان مطالعة ابن عثمان
أشيع بين الناس أن ابن عثمان يقصد أن يمشى
على شاه اسمعيل الصفوى صاحب العراقين .
فأرسل يعلم السلطان بذلك وأن يكون هو
والسلطان أمرا واحدا وقولا جازما على الصفوى
حتى يكون من أمره ما يكون .

وفي ذلك اليوم توفي الخواجا شمس الدين
محمد الحليبي وكان من أعيان التجار في سعة من
المال ، ولكن جرى عليه شدائد ومحن في أواخر
عمره ، وصودر وأخذ ماله غير ما مرة ، وقد تقدم
القول بما وقع له مع السلطان من المصادرات
ودخوله الى المقشرة وهو في الحديد وأقام بها
مدة ، وكان السلطان قصد أن يثبت عليه كفرا
ويضرب عنقه وقد تقدم سبب ذلك في موضعه ،
وقد مات قهرا مما وقع له .

وفيه توفي صاحبنا أبو الفضل الذي كان متحدثا
في نظر المواريث ، وكان لين الجانب عشير الناس
وكان لا بأس به ، ومات والناس عنه راضية .

وفي يوم السبت خامس عشرينه نزل السلطان
الى الميدان وعزم على قاصد ابن عثمان وأضافه
وخلع عليه ، وأذن له بالعودة الى بلاده وكتب
له الجواب عن مطالعته .

وفي هذه الأيام اشتد أمر الحر ، فأقام السلطان
في الميدان أربعة أيام بلياليها وهو في أرغد عيش ،
وأطلق الماء في البحرة التي بالميدان ، وصار يمد
السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك
على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه
وكسروا الصحنون الصيني ، فلما بلغ السلطان
ذلك تنكد وقام من وقته وطلع الى الدهيشة ،
وكان قصده الإقامة في الميدان الى يوم الجمعة
فنكد عليه المماليك .

وفي ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الجمعة
فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا بالشهر
وفي يوم الاثنين رابعه حضر الأمير أوزمك
الناشف أحد المقدمين ، وكان له مدة وهو مقيم
بالفيوم بسبب عمارة الجسر الذي هناك كما تقدم

ذكر ذلك ، فلما كمل عبارته حضر الى القاهرة
فخلع عليه السلطان كاملية حافلة بسمور ونزل الى
داره وصحبته جباة من الأمراء .

وفي يوم الثلاثاء خامسه كانت وفاة شيخنا
العلامة زين الدين عبد الباسط بن الغرسى خليل
ابن شاهين الصفوى الحنفى ، وكان عالما فاضلا
رئيسا حشبا من ذوى البيوت ، وكان من أعيان
الحنفية ، وكان مولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة
فكانت مدة حياته نحو ست وسبعين سنة . وكانت
له اليد الطولى فى علم الطب ، وله عدة مصنفات
نميسة منها تاريخه الكبير المسمى بالروض الباسم
وآخر دونه يسمى نيل الأمل فى ذيل الدول ،
وآخر فى التوفيقات على أحروف المعجم ، وآخر
فى علم الطب ، وغير ذلك فى الشروحات على كتب
الحنفية ، وكان والده الغرسى خليل من أعيان
الناس ولى الوزارة بالديار المصرية وولى عدة
نيابات جليلة منها نيابة حماة وصفد والقدس
الشريف ونيابة الاسكندرية وغير ذلك من النيابات
الجليلة وكان فى مقام الأمراء المقدمين ، وأما الشيخ
عبد الباسط رحمه الله فكانت صفته طويل القامة
نحيف الجسد ، وكان يربى له ذؤابة شعر فى رأسه
على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا حتى
أن بعض شعراء العصر قال فيه مداعبة لطيفة وهو
قوله :

أدخلت فى منخرة أصابعى

وقلت : ما ذا العضو ؟ .. سميته

فقال لى مستعجلا : منخرى

قلت : أنا يا سيدي فيه

وكان الشيخ عبد الباسط ضئيلا بنفسه وعنده
يبس طباع مع شمم زائد ، وكان معظما عند
الأترالك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية وفيه

جيلة محاسن ، وكان بقية السلف وعدة الخلف
وكان أصابه علة السل فأقام نحو سنة ونصف وهو
عليل منقطع فى داره حتى مات رحمة الله عليه .

وفي يوم الخميس سابعه نزل السلطان وتوجه
الى تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك على
المصطبة ونصب له سجاية ... ثم جربوا قدامه
مكاحل نحاس وحديد ، فكان عدتهم نحو أربع
وسبعين مكحلة فصح منهم شىء وتفرقع شىء .

ثم ان السلطان قام من هناك وتوجه الى قبسة
الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام هناك الى بعد
العصر ، وركب وعاد الى القلعة وشق من القاهرة
ودخل من باب الفتوح فى نفر قليل من العسكر ،
فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء
وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحو مائة دينار
وكسور على الفقراء والمساكين والمغانى الذين
كانوا صحبته فى القبة ، ثم طلع الى القلعة .

وفي يوم الاثنين حادى عشره كان آخر مضى
الخماسين ، وصادف أنه فى ذلك اليوم كان عيد
ميكائيل ، ونزلت النقطة فى ليلة الاثنين . وقد
مضت الخماسين على خير ولم يقع فيها الطاعون ،
ولم يدخل الى مصر . وكانت الناس تلهج بوقوع
الطاعون فى هذه السنة ويكون أمرا عظيما ، فوقع
بعض طعن فى الشرقية وأقام أياما وارتفع ولم يغش
أمر الطاعون بمصر .

وفي ليلة الثلاثاء ثانى عشره كانت ليلة سيدي
اسماعيل الانبأبى رضى الله عنه ، وكانت من الليالى
المشهودة وخرجت فيها الناس عن الحد فى القصف
والفرجة ، وضرب فى الجزيرة التى ببولاق تجاه
الرصيف فوق الخمسمائة خيمة ، وكانت الناس
فى أمن ورخاء ، وكان فى الرمل سوق حافل
بدكاكين مبنية وتقلوا اليها أفخر البضائع ، وكثر
هناك البيع والشراء على المتفرجين .

وفي يوم الخميس رابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقبای الطویل أمير آخور ثانى الذى كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه كاملية حافلة بسمور ونزل فى موكب مشهود ، وحصل له جملة تقادم عظيمة من ابن عثمان ومن النواب ما بين مال وخيول ومماليك وقماش وغير ذلك .

وفيه وقعت مرافعة مهولة بين الزينى بركات بن موسى وبين أحمد بن الصايغ ، وقصد ابن الصايغ أن يتسلم الزينى بركات بن موسى على ثلاثين ألف دينار ، واستمرت هذه المرافعة عمالة بينهما حتى يكون من أمرهما ما سنذكره فى موضعه

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن فى حادى عشر صفر وقع سيل عظيم حتى دخل الى الحرم ، ووصل الماء الى عتبة البيت الشريف وغطى الحجر الأسود ومقام ابراهيم ، وهدم عدة دور بمكة وغرق فيه من الناس ما لا يحصى ، وكان أمرا من الأمور المهولة ، وتقدم القول على أن فى دولة الأشرف قايتباى وقع مثل هذا السيل بعينه حتى عام المنبر الذى بالحرم وامتلات بثر زمزم بالماء وكان أيضا أمرا مهولا .

وفيه رسم السلطان للشهابى أحمد ناظر الجيش المنفصل بأن يطلع الى الخدمة فى كل يومى اثنين وخميس ويقف فوق ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، فاستمر على ذلك مواظبا للخدمة وهو وهو منفصل عن نظر الجيش ، ولم يعلم ما قطد السلطان بذلك .

وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى القاضى رضى الدين الاسحاقى أحد نواب المالكية ، وكان موته فجأة ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس ، وكان لا بأس به فى نواب المالكية .

وفى يوم السبت سادس عشره ضرب السلطان

الكرة بالميدان ، ثم بعد ذلك رسم للأمراء بأن يتخففوا من ثيابهم ، ثم دخل هو واياهم فى البحرة التى فى الميدان وخلا بهم وضربوا مشورة فى أمر التجريدة ، فوقع الرأى من الأمراء بأن العسكر يخرج من مصر ويقيم فى حلب حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصفوى من الفتنة ، وأن العسكر لا يدخل بين الفريقين حتى يبدو من أحدهما الغدر الى عسكر مصر ، فأقام عند السلطان الأمراء فى هذه المشورة الى بعد الظهر ، وانفض المجلس على ما ذكرناه من خروج العسكر من مصر ويقيم بحلب يحصنها من العدو حتى يكون من هذه الفتنة التى بين ابن عثمان وبين الصفوى ما يكون ، فانفض المجلس على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره طلع الأمير أقبای الطویل القاصد بتقدمة حافلة الى السلطان ما بين خيول ومماليك وسلاح وقماش وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل ذهب عين ما يعلم قدره وقد اختلف فيه .

أقول ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربه عليه ، فكانت عمايته عمامة الفلاحين وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف كما جاء من وراء المحراث ولم ينطل فى رياسته ، فكان كما يقال :

ورب قحف قد أتى لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى هذا من النخل سقط
وقال آخر فى المعنى :

فقيه ريف يقول : انى

برعت فى العلم والرواية

فقلت : لا شك أنت عندى

تصلح للدرس والدراية

وكان أصل شمس الدين بن عوض فلاحا من

فلاحين منية مسير بالغربية ، وقيل من بانوب والله أعلم .

وفي يوم الثلاثاء المذكور بعد العصر قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده الصغير فوضعهما في الحديد ، وكان سبب ذلك أن الأمير خاير بك كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين كان متحدثا على بعض بلاد في تقسيط ابن عوض ، فحصل بينه وبين ابن عوض حظ نفس بسبب ابن جميل أحد مشايخ الغريبة وقد شفع فيه عنده فلم يقبل شفاعته . فقال الأمير خاير بك للسلطان : « أنا أثبت لك في جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار » . فاعتدل السلطان على ابن عوض وشكه في الحديد هو وولده وأرسلهما إلى بيت الأمير خاير بك ، ثم نقلهما من بعد ذلك إلى بيت الزينى بركات بن موسى ، وكان الزينى بركات بلغه أن ابن عوض ساعى في القبض عليه فبادر إليه ابن موسى ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات بن موسى التزم بما قرر على شمس الدين ابن عوض من المال وتسلمه ونقله إلى داره وشرع في عقابه وضربه وعصره بالمعاصير في أصداعه وأكعابه هو وولده وتفنن في عذابهما تقنيا ، فلم يرد ابن عوض من المال الذي قرر عليه إلا اليسير ، وكلما زاد في عقابهما لم يفده ذلك شيئا ، وكان شمس الدين بن عوض متكلم على عدة جهات من البلاد ، وقبض عليه السلطان ، وابنه متكلم على كتابة الخزائن الشريفة مع مشاركة أولاد الجيعان ، وكان ابن عوض من المقربين عند السلطان فأخذ من الجانب الذي كان يأمن إليه .

وفيه غيب أحمد بن الصايغ لما رأى السلطان مائلا إلى الزينى بركات بن موسى ولم يسمع فيه مرافعة ، فما وسعه إلا أن غيب خوفا من ابن موسى . وكان أحمد بن الصايغ باغيا على الزينى

ابن بركات بن موسى فانه هو الذي أنشأه وكان يردد أرا عنده ، فلما راج أمر أحمد بن الصايغ صار شريكا للزينى بركات في جميع جهاته التي يتكلم عليها حتى الحسبة الشريفة ، فلم يفتح بهذا كله فقصده أن يشتري الزينى بركات من السلطان بثلاثين ألف دينار فلم يوافق السلطان على ذلك ونهره ، فخاف وغيب واختفى مدة يسيرة وسيظهر بعد ذلك .

وفيه في يوم الجمعة ثاني عشرينه خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعودة إلى بلاده وعين صحبته اينال باي دوا دار سكين ليوجهه إلى هناك ويكشف عن الأخبار الصحيحة ويعلم السلطان بذلك ، وقيل أن السلطان أنعم على اينال باي بخمسمائة دينار لأجل عمل يرقه ، فخرج في ذلك اليوم على جرائد الخيل وقرر معه السلطان أياما معدودة ويرد عليه الجواب عن الأخبار الصحيحة عن مشى ابن عثمان على الصفوى ، فخرج قاصد ابن عثمان واينال باي في ذلك اليوم .

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطان على شخص من أولاد ابن رمضان أمير التركمان يقال له سليم بك ، فخلع عليه وقرره في امرة التركمان عوضا عن ابن عمه محمود بك في امرة شقر أباه .

ومن الحوادث أن شخصا خياطا يقال له نجا بن تمساح زلق صبيا صغيرا عمره نحو عشر سنين ، فزلقه في بيت في الجزيرة الوسطى فاستغاث الصبي فذبجه ذلك الخياط ورماه في بئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبي على الخياط وعرضته على السلطان فاعترف بقتل الصبي ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط في المكان الذي قتل فيه الصبي وقيل رسم السلطان بأن تقطع محاشمه وتعلق في

عنفه وهو مشنوق ففعلوا به ذلك ، وقد تقدم مثل هذه الواقعة لشخص طعان ورسم السلطان بأن يخوزقوه فخوزقوه في المدايح وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره طلع ابن أبي الرداد بيشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ست أذرع واثنى عشر أصبعا ، وكانت في العام الماضي أرجح من ذلك ، وكانت زيادته في أول يوم خمس أصابع . وفي يوم الثلاثاء المذكور كانت وفاة القاضي فخر الدين والد القاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب المالك . وكان القاضي فخر الدين هذا من أعيان المباشرين وباشر ديوان قاني باي أمير آخور كبير وغيره من الأمراء ، وكان رئيسا حشما لا بأس به بين المباشرين .

وفي جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم السبت ، فجلس السلطان بالميدان وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوه بالشهر .

وفي ذلك اليوم كان ختام ضرب الكرة وختام خصمانية لعب الرمح ، فلما اقضى ضرب الكرة طلع السلطان الى الحوش وجلس بالمقعد الذي به ومد هناك للأمراء مدة حافلة وما أبقى ممكنا من المآكل الفاخرة ، ومد عدة طواري مؤنقة ما بين حلوى وفاكهة وسكر حريف وبطيخ صيفي وأجبان مقلى وجلاب وغير ذلك من المآكل ، وأحضر الأفيال الكبار والسباع والثيران والكباش يرسم النطاح فتناطحوا بين يدي السلطان ، وأقام هناك الى بعد العصر وعند الأمراء مجتهدين ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على

شخص من الأمراء العشراوات يقال له ماماي الحازندار ، وأصله من مماليك السلطان ، فعينه بأن يتوجه الى الشام وعين صحبته الخواجا يونس العادلي ، وسبب ذلك أن السلطان قوى عزمه على أن يزوج ولده بابنة سييائي نائب الشام فأرسل هذين اللذين عينهما بالمهر ، وأنهما يمتدان العقد بالشام ، فلما توجهتا الى غزة جاءت اليهما الأخبار بأن بنت سييائي نائب الشام التي توجهتا بسببها قد توفيت الى رحمة الله تعالى ، فأرسلتا كتابا للسلطان بذلك وأن لنائب الشام بنتا أخرى صغيرة ، فأرسل السلطان يقول لهما ادفعنا لنائب الشام المهر الذي أرسلناه واعقدا العقد على ابنته الصغرى ، فامتثلا لذلك .

وفي عقيب خلع السلطان على شخص يقال له ابراهيم السمرقندي وعين صحبته خاصكيا ، بأن يتوجهتا الى القدس والكرك في بعض المهمات السلطانية ، ثم بعد ذلك بطل سفرهما الى تلك الجهات لأمر أوجب ذلك .

وفي يوم الخميس المذكور تغير خاطر السلطان على جاني بك دوادار الأمير طراباي الذي هو متحدث في الأستادارية الآن ، وكان السلطان أنعم على جاني بك هذا بامرة عشرة ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على جاني بك أن الأمير طومان باي الدوادار أرسل مطالعة للسلطان وهو بالصعيد يشكو فيها من جاني بك هذا أنه صار يعارضه فيما يرسم به ويعاكسه فيما يقوله في أمر الديوان المفرد ، وكان جاني بك غير محبب للناس لا يراعى من الأمراء أحدا ويأخذ الحمايا المقطعين معجلا قبل أن تروى البلاد ، فصار معه سنة معجلة من المقطعين من الحماية والشيخة دايرة في حساب الديوان المفرد وربما راحت على المقطعين ، ويرسه

تقدم ذكر ذلك ، فأطلق فيها الماء في ذلك اليوم ،
وانشرح السلطان لذلك الى الغاية .

وفي يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الزينى
بركات بن موسى وقرر في استدارية الذخيرة ،
عوضا عن شمس الدين بن عوض بحكم انفصاله
كما تقدم . فنزل من القلعة في موكب حفل وقدمه
أعيان المباشرين ، ورسم له السلطان بأن ينادى
قدامه أن لا أحد من الناس يحتذى عليه ولا
يتجاهها . فتزايدت عظمة الزينى بركات وصار
محتسبا وأستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من
الوظائف السنية . وكان الزينى بركات له سعد
خارق وهو مسعود الحركات في أفعاله محببا
للناس ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات تسلم
ابن عوض على مائة وخمسين ألف دينار ، فشرع
في عقابه وضربه وعصره كما سيأتى الكلام على
ذلك في موضعه .

وفي يوم الجمعة ثانى عشرينه خرج اينال باى
دوادار سكين صحبة قاصد ابن عثمان ، وقد تقدم
القول على أن السلطان عين اينال باى بأن يخرج
صحبة القاصد ويقف على صحة الأخبار في أمر ابن
عثمان والصفوى ويرد الجواب على السلطان
بسرعة ، وقرر معه لا يبطىء عليه بالخبر غير مسافة
الطريق ، وأنعم عليه بخمسمائة دينار ، وقد تقدم
القول على ذلك .

وفي يوم الخميس ثالث عشره جلس السلطان
على المصطبة التى بالحوش ونصب السحابة وأمر
بعرض العسكر ، وعين تجريدة كبيرة الى حلب
يقيمون بها حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان
والصفوى ، وعين في ذلك اليوم تجريدة أخرى الى
نحو بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج هناك كما
تقدم ، وعين جماعة من أولاد الناس وغيرهم من

على الأمراء وأعيان الناس حتى يستخلص منهم
جميع ما عليهم من الحمايات في يوم واحد فضج منه
الأمراء والعسكر ، فلما تزايد ظلمه وعسفه
بالعسكر والفلاحين وضعفاء الناس أخذه الله تعالى
من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وكان عند
السلطان من المقربين الخواص فانتقلب عليه ما كأنه
يعرفه ، وهذا الذى وقع له بدعوة مظلوم ، فكان
كما قيل في المعنى :

ألا قولوا لشخص قد تقوى
على ضعفى ولم يخش رقيبى
بعثت له سهامها فى الدياجى
وأرجو أن تكون له مصيبى

فلما عزل جانى بك من التحدث فى الاستدارية
كثرت فيه المرافعات وقال له السلطان : أقم
الحساب بما قبضته من الأموال فى مدة تجمده
فى الاستدارية على ما قيل ، ومن نوقش الحساب
عذب .

وقيل ان جانى بك لما رأى أن الأمير طومان باى
الدوادار محظا عليه سأل السلطان وبأس رجاه
بأن يعفيه من التحدث فى الاستدارية ، ولا زال
يقسم عليه حتى أشفاه من التحدث فى الاستدارية ،
ولما عزل جانى بك وقف على البرماوى برددار
السلطان والتزم بالسداد على الجهات التى كان
جانى بك متحدثا عليها وضمن ذلك . فقصد
السلطان أن يخلع عليه فقال له : « ما ألبس خلعة
حتى يجيء الأمير الدوادار » . واستمر متحدثا فى
الاستدارية عوضا عن جانى بك بحكم انفصاله
عنها .

وفي يوم السبت ثامن نزل السلطان الى قبة
الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها وأقام يومين ،
وسبب ذلك أن السلطان أنشأ هناك فساقى وقد

المماليك لحفظ الجسور التي بالشرقية والغربية ،
فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة قيل ثلاثة
آلاف مملوك وقيل ألفا مملوك ، وعين من الأمراء
المقدمين أربعة وهم : الأمير قاني باي قرا أمير آخور
كبير وجعله باش العسكر ، وعين الأمير سودون
الدواداري رأس نوبة النوب ، وعين الأمير أرزمك
الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وعين الأمير بيبرس
قرايته ثم بطل عقيب ذلك ، وتعين عوضه الأمير
أبرك الذي كان نائب طرابلس وهو الآن مقدم
ألف . وأبرك هذا من مماليك السلطان ، فلما عينه
جعله باشا على المماليك الجلبان الذين عينوا الى
السفر ، وعين في ذلك اليوم جماعة من الأمراء
الطبلخانات ومن الأمراء العشراوات .

ثم في يوم السبت خامس عشره نزل السلطان
الى الميدان وعرض بقية العسكر ، وكتب الغالب
منهم الى حلب .

وفي هذه الأيام تصدى الزيني بركات بن موسى
الى عقوبة شمس الدين بن عوض وولده ، فما
أبقى ممكنا في ذلك من ضرب كسارات وعصر
أكعاب ، وعصرهما في أصداغهما وفي أيديهما
وحرق أصابعهما بالنار ، ولم يرد ابن عوض من
المال الذي قرر عليه الا القليل وكان جلدا على
العذاب . وقد تقدم له مع الأمير أزدمر الدوادار
أنه عاقبه أشد العقوبة ولم يقر بشيء من المال .

وفي يوم الاثنين سابع عشره جلس السلطان
على المصطبة التي بالحوش وأنفق الجامية على
العسكر ، ثم أنفق نفقة السفر على العسكر المعين
الى حلب ، فدفع الى كل مملوك مائة دينار على
العادة وجامكية أربعة أشهر معجلا وثمن جمل
سبعة أشرفية ، وقد مشى على طريقة الملك الأشرف
قايتباي في أمر النفقة على العسكر عند توجههم
الى البلاد الشامية .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان
وزار ضريح الامام الشافعي والامام الليث بن سعد
رضي الله عنهما ، وتصدق في ذلك اليوم بمبلغ له
صورة ، وكان السلطان في حملة كبيرة بسبب ابن
عثمان والصفوي .

وفيه ظهر أحمد بن الصايغ شريك الزيني بركات
ابن موسى ، وكان له مدة وهو مختف من الزيني
بركات وقد تقدم القول على ذلك ، فطلع به بعض
الأمراء وقابل السلطان فلم يخلع عليه لأجل خاطر
الزيني بركات .

وفي ذلك اليوم جلس السلطان بالميدان وعرض
مماليكه الجلبان وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك
فكان الذي كتب من القرائصة والجلبان جملة ذلك
نحو ألفين وأربعمائة مملوك على ما قيل وعينهم
للسفر الى حلب .

وفي يوم الخميس عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة السادة الأشراف اخوة السيد بركات أمير
مكة ، وكان سبب حضورهم الى القاهرة أن وقع
بينهم وبين أخيهام السيد بركات فتنة مهولة ، وقتل
جماعة كثيرة من الفريقين ، فأنكر اخوة السيد
بركات وولوا مدبرين ، فما وسعهم الا الحضور
الى عند السلطان حتى يكون من أمرهم ما يكون .
وأرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان
بذلك وأن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند
وملكوا كمران من ضياع جهات الهند . وأرسل
يستحث السلطان في ارسال تجريدة بسرعة قبل أن
تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جده
من أمر الفرنج . وفي هذا الشهر اضطربت الأحوال
على السلطان من جميع الجهات .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى

الأبواب الشريفة قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وهذا القاصد جليل القدر من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان ابن عثمان عين هذا القاصد من حين كان الأمير أقباي الطويل عنده فلم يحضر الى مصر الا الآن ، فلما دخل القاهرة أنزله في بيت الظاهر تسربغا الذي عند سوق السلاح بالقبو الى أن يقابل السلطان .

وفي يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى قبة يشبك وأقام بها الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

وفي جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفي ذلك اليوم طلع قاصد ابن عثمان الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخانا بالسلاح والصناجق فزينوه ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش ، ثم طلع القاصد وصحبته أزدمر المهندار وجماعة من الرءوس النوب ، وطلع معه مقدمة حافلة للسلطان تشتمل على خمسة وعشرين حمالا ما بين وشق وسمور وقاقم وأثواب مخمل وبرصاوى وشقق سمرقندى ملون ، وحمال عليه أوانى فضة ، وطلع صحبته بخمسة وعشرين مملوكا صفارا حسان الأشكال . وكان ذلك القاصد جميل الهيئة وصحبته جماعة من العثمانية ذوو هيئات جميلة . فلما طلع وقابل السلطان أكرمه وقرأ مطالعته ثم نزل وانقض الموكب ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ثانى الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وعزم على قاصد بن عثمان هناك

وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ومد له هناك أسبطة حافلة وأظهر أنواع العظمة الزائدة فى تلك الليلة ، وأحضر قراء البلد وأقام بالمقياس يومين . ثم طلع الى القلعة يوم الأربعاء أواخر النهار وانشرح هناك الى الغاية . وفى يوم الثلاثاء تاسعه أرسل السلطان الى الأمراء المقدمين الذين تعينوا الى السفر فأرسل لهم فى ذلك اليوم النفقة ، فأشيع أنه أرسل الى الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر خمسة آلاف دينار ، وأرسل الى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب أربعة آلاف دينار ، وأرسل الى الأمير أرزمك الناشف ثلاثة آلاف دينار ، والأمير أبرك مثله .

وفي ذلك اليوم وقعت كائنة عظيمة للأمير قانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين . وسبب ذلك أن علاء الدين ناظر الخاص كان اقترض من الأمير قانصوه هذا مبلغا له صورة وشرع يطله به مدة طويلة ، فحنق منه الأمير قانصوه فركب وجاء الى بيته فوقع بينه وبين ناظر الخاص تشاجر ، ففجر عليه ناظر الخاص فحنق منه الأمير قانصوه وشتمه فأغلظ عليه ناظر الخاص فى القول ، فقام اليه ولكمه على رأسه فطلع ناظر الخاص الى القلعة وشكاه الى السلطان . فلما تحقق السلطان صحة ذلك تغير خاطره على الأمير قانصوه وأرسل يقول له : الزم بيتك . وقصد يختم على حواصله ويحطاط على موجوده . وأشيع نفيه الى دمياط فقيل ان الأتابكى سودون العجمى طلع الى السلطان وشفع فيه من النفى ، ورضى خاطر السلطان عليه واستمر على امرته كما كان .

